دانيال بيك

غسيل الأدمغة

تاريخ التحكّم في العقول

مكتبة

'يحثّك على التفكير بطريقة مختلفة'

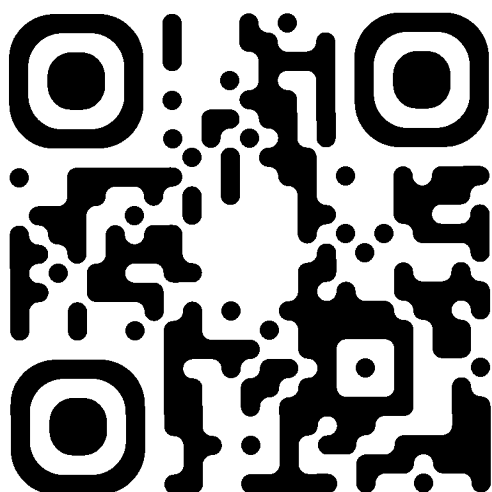
Financial Times



ترجمة

أسعد المعلوف

دار الساقي



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

غسيل الأدمغة

مكتبة
t.me/soramnqraa

Daniel Pick, *Brainwashed: A New History of Thought Control*, Profile Books 2022

الطبعة الأولى 2024

ISBN 978-614-03-2305-6

Published 2024 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi
Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP
Tel: +44 (0) 20 7221 9347

www.daralsaqi.com
www.saqibooks.com

تابعونا على

@SaqiBooks @DarAlSaqi
@SaqiBooks دار الساقي
Saqi Books DarAlSaqi
@saqibooks @daralsaqi

تصميم الغلاف: عفيفة حلبي

دانيال بيك

غسيل الأدمغة

تاريخ التحكّم في العقول

ترجمة

أسعد المعلوف



إلى إيزوبيل

ملاحظة للقارئ

كُتب هذا الكتاب في زمن آخر، قبل غزو روسيا لأوكرانيا، وادعاء روسيا أن الحرب كانت "عملية خاصة" لـ"تطهير جارتها من النازية". في ١٤ آذار/ مارس ٢٠٢٢، قاطعت مارينا أوفسيانيكوفا Marina Ovsyannykova، صحافية روسية، بثاً حياً على القناة الأولى الروسية (Channel One Russia)، وحملت لافتةً كُتب عليها: "أوقِفوا الحرب، لا تصدّقوا الدعاية، هنا يكذبون عليكم. الشعب ضد الحرب".

بدت المَشاهد المروّعة التي سيطرت على الأخبار طوال ذلك الشهر غريبةً للكثيرين: دبابات تتجول عبر حدود دولة أوروبية، مدن تُدمَّر، مواطنون يُقتلون بالآلاف ويُشرَّدون بالملايين، وفي الوقت الذي كُتب فيه هذا الكتاب، كانت منظمة حلف شمال الأطلسي (NATO) تعزز الدول الأوروبية الشرقية بهدف ردع القيادة الروسية عن توسيع الصراع. داخل الكرملين، يبدو أن بوتين غارقٌ في نظريات المؤامرة، إذ أعلن استنفار طواقم الأسلحة النووية لديه استنفاراً عالياً، مُحيِياً شعورنا الجماعي بالخوف الوجودي، وقد أشار حلفاؤه في الوقت الحالي إلى احتمال تقسيم أوكرانيا على غرار التقسيم الكوري في المستقبل. هذه الأحداث العسكرية المروّعة التي قد تكون نهاية العالم، تقدم سياقاً جديداً لعودة عصر الحرب الباردة، تلك العقود بعد عام ١٩٤٥، عندما ازدادت الاهتمامات حول العقول الأسيرة والتضليل والدعاية والفكر الجماعي وغسيل الأدمغة.

المحتويات

المقدمة

لدي ذكرى بعيدة من أيام مدرستي عن درس ممتع دعانا إليه معلّمنا بحجة التفكير في كيفية تأثير وسائل الإعلام على انطباعاتنا، فكلّف صفّنا بمراقبة الأخبار اليومية. في تمرين معيّن، طلب منّا مراجعة الصحف والمجلات للبحث عن العبارات العاطفية، وملاحظة كيفية صياغة المقالات، وفهم مغزى العناوين الكبيرة، والتعرف على وضع بعض المقالات المحددة، سواء كانت أكثر "أهميةً" أو أقلّ، في الصفحات الأمامية أو الداخلية. بعد ذلك، قمنا بقصّ مقتطفات من المقالات ولصقها في دفاتر التمارين، مصحوبة بملاحظاتنا النقدية.

بعد سنوات من ذلك، قرابة منتصف الثمانينيات، وأنا طالبٌ باحث، بدأت أتساءل عن الاهتمام الواسع الذي أولته وسائل الإعلام لقياس جديد في السوق، هو مؤشر البورصة المالية FTSE 100 [فوتسي ١٠٠] لصحيفة *Financial Times* الذي يضم أكبر مئة شركة من حيث قيمتها الرأسمالية المدرجة في بورصة لندن. تصلنا تقارير عن تحولات هذا المؤشر بانتظام مثل مد وجزر البحر، وكانت آراء الخبراء دائماً متاحةً لشرح كيفية فهم الرؤية المستقبلية بناءً على تلك الأرقام: هل ارتفع الرقم، أم انخفض، أم تدهور تدهوراً حاداً، أم لم يتغير على الإطلاق؟ هل الأمور تبدو إيجابيةً أم سلبية؟ هل كلّ شيء في العالم على ما يُرام؟

سواء كنتَ مهتماً أو لا، مستثمراً أو لا، أدركتُ أن هذا التدفق المنتظم للمعلومات حول مؤشر FTSE كان دائماً مركز الاهتمام في الأخبار، جزءاً أساسياً من مسرحية الحياة

الحديثة التي تديرها وسائل الإعلام.[١] اليوم، يستمر هذا المؤشر هناك، كما لو كان مقياساً لا يمكن إنكاره للصحة والرفاهية الجماعية. تُقدِّم لنا كمية هائلة من معلوماته بانتظام وبشعور أن لا مفر منه، كما الحال بالنسبة إلى تقارير الطقس. في الواقع، يُعلَن كل من نشرة حالة الطقس وسوق الأسهم بجانب بعضهما بصورة متكررة. تساءلتُ مرةً بعد استيعابي الأول لذلك، ماذا عن كافة الإحصاءات الأخرى التي قد تُكمل أو تُعقّد أو حتى تحل محل أخبار مؤشر FTSE 100 أو Nikkei أو Dow Jones؟

بصفتي طالباً جامعيّاً، درست الأدب أولاً ثم التاريخ. تعمّقت في مفاهيم الأيديولوجيا وبناء المجتمع والأفكار الخاطئة والقصص والتحولات في اللغة وتحليل الخطاب. علمت كيف أكون حذراً من الكلمات التي نستخدمها والافتراضات التي نصدقها والحكايات التي نؤمن بها، والتي يسمّيها جورج لاكوف George Lakoff وغيره "الاستعارات التي نحيا بها".[٢] كما تعلّمت أن كتابة التاريخ تتأثر بعوامل كثيرة مثل الثقافة وأساليب السرد المختلفة. كانت هذه المرحلة مميزةً بتأثير عمل ميشال فوكو Michel Foucault على دراستنا في العلوم الإنسانية، إذ وُضعت مفاهيم عديدة اعتدنا عليها تحت الاختبار، مثل فهمنا للذات والمجتمع، والاضطراب العقلي والعقلانية، ومفهوم الحياة والموت، وفهمنا للصحة والمرض وأيضاً مفهوم الجريمة والعقاب.

---

١ في السبعينيات والثمانينيات، كانت سياسة الأخبار موضوعاً بارزاً في البحوث الأكاديمية. كُتب الكثير عن الانحيازات الضمنية، فأبرز النقاد اليساريون الافتراضات المحافظة الصغيرة المنتشرة في *BBC*. انظر، على سبيل المثال، إلى تحليلات Glasgow Media Group، التي أدت إلى منشورات مثل Bad News (١٩٧٦)، More Bad News (١٩٨٠) و Really Bad News (١٩٨٢). كما تعرضت تغطية الأحداث السياسية خلال إضراب عمال المناجم في عام ١٩٨٤ للكثير من الانتقادات، وفي الآونة الأخيرة، اشتكى النقاد المحافظون بالإضافة إلى وزراء الحكومة من الليبرالية أو الانحياز اليساري في الصحيفة الإلكترونية لـ*BBC*، مهددين بتفكيك المؤسسة الإعلامية هذه والدعوة لتجارتها الكاملة في السوق العالمية. انظر، على سبيل المثال، إلى:

Rowena Mason, 'Dominic Cummings thinktank called for "end of BBC in current form"', *Guardian,* 21 January 2020, www.theguardian.com/politics/2020/jan/21/dominic-cummings-thinktank-called-for-end-of-bbc-in-current-form.

وقارن بـ:

Adam Forrest. 'Government accused of attacking BBC to stop PM becoming "dead meat" as licence fee frozen', *Independent*, www.independent.co.uk/news/uk/politics/bbc-licence-fee-dorries-boris-b1994782.html.

2 George Lakoff and Mark Johnson, *Metaphors We Live By* (Chicago, 1980).

كان ذلك في سياق محاولتي للتعامل مع مثل هذه القضايا، في مرحلة شهدت ترويجاً لفوائد الأسواق في جميع المجالات الحياتية، حيث قورن الناتج المحلي الإجمالي للدول بقلق، وتطورت السياسات الليبرالية على جانبَي الأطلسي. وفي ذلك الوقت، وجدْتُ إعلان وسائل الإعلام المستمر عن الرقم الفردي للسوق المالية يشكل مصدر اهتمام متزايد، أو حتى يثير التساؤلات.

كنت متحمساً لفهم عملية تدفق المعلومات إلى حياتنا. تُثير الكلمات والنماذج التي تصف هذه العملية فضولي؛ هل نحن مثقّفون ومطّلعون، أم نتأثر أو نُعامَل أو نُوجَّه أو يُتلاعَب بنا أو نُبرمَج، أو حتى... تُغسَل أدمغتنا فنعامل سلطة مناطق مثل City of London أو Wall Street من دون أدنى التساؤلات وبكل تقدير؟ ألهمني ما تعلّمته وقرأته لأفكر بصورة أعمق حول هذه الأسئلة والتحديثات الطبيعية في الأخبار، وكيف يمكن أن ترتبط بحزمة أوسع من الادعاءات حول المعنى والقيمة والحقيقة.

شاركت مخاوفي مع زميل دراستي الذي يختلف معي في وجهة نظره السياسية، لكنه لم يقبل آراءنا، أنا والآخرين، كما هي، بل أثار شكوكاً حول آرائنا المفترضة "الراديكالية"، وحول مدى تأثرنا بتأثيرات خارجية، مثل الكتب التي قرأناها أو تأثير المعلمين الكاريزميين القادرين على الإقناع. وأشار بصورة خاصة إلى أن شكّي و/ أو تفاؤلي بشأن مقياس مهم ليس في محله. هذا المقياس، Footsie، مؤشر سوق الأسهم في المملكة المتحدة، هو شيء مهم، والتشكيك في أهميته المسلّم بها قد يؤدي إلى إغفال الدور الحيوي للأعمال التجارية التي تجعل بلدنا يزدهر. أكّد أن هذه الجوانب الاقتصادية، مثل توفير الوظائف وضمان سبل العيش والحفاظ على التقاعد، هي أساسيات تعتمد عليها حياتنا اليومية. ببساطة، حذّر من إغفال أهمية المؤشرات الاقتصادية مثل Footsie؛ إذ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياتنا اليومية وازدهار بلدنا.

في الآونة الأخيرة، تذكرت المناقشات النقدية حول تأثير البرمجة العقلية والتأثيرات التي نتعرض لها، وكيفية استجابتنا وتقييمنا لها. وأثناء بحثي في هذا الموضوع، كان النقاد ينتقدون إدارتَي الديموقراطية والجمهورية، أي إدارة أوباما Obama وإدارة ترامب Trump، لتفضيلهما الشارع المالي (Wall Street) على حساب الشارع الرئيسي

(Main Street). وكان النقاد يعترضون على ترامب لتحدثه المفرط عن تغيّرات قيم الأسهم، ويحذرون من تعقيدات البنوك الكبيرة وصناديق الاستثمار (بالرغم من أنّ النّظام كان على وشك الانهيار الكامل سابقاً)، ويكشفون اختلافاً واضحاً بين عالم المال الافتراضي والواقع الاقتصادي. نجح ترامب في التواصل مع شرائح كبيرة من الناس الذين يعانون، الذين شعروا بأنهم مهمَّشون من النخبة الليبرالية، على الرغم من أنه كان يعد الأثرياء بتخفيضات في الضرائب ويتحدث عن مؤشر Dow Jones في الأوقات التي تناسبه.[1]

لكن هذا النوع من الجدل حول الأهمية الممنوحة في تحديثات الأخبار اليومية - هل هي معلومات ضرورية أم وسيلة لتوجيه طريقة تفكيرنا - هو مجرد اشتباك في حرب أفكار أقدم بكثير؛ حرب حول التأثير الديني والعلماني، والطريقة التي قد تكتسب بها رؤيتنا للحقيقة. على مر القرون، جرت محاولات عدة لتحرير المجتمعات؛ لتحطيم تأثير الديانات على أتباعها، وكذلك لتفكيك الأفكار السياسية المعينة أو الأيديولوجيات المحددة. الكثير مما نعتبره حقيقةً ثابتةً أو "واقعاً واضحاً" في النهاية هو نتيجة الثقافة والقيم. نيتشه Nietzsche، من خلال تقديم المفاهيم والقيم الأخلاقية عبر الزمن، دعانا للتساؤل، ربما حتى لتغيير قيمنا الأساسية. تحدث ماركس Marx عن الدين كأفيون للشعب، وتكهّن فرويد Freud أيضاً حول الإيمان المنظم، في سياق "مستقبل الوهم"، وهذا لا يعني أن هؤلاء الفلاسفة فهموا الديانات فهماً كاملاً أو كانوا خالِين من الأوهام بأنفسهم، ولكنهم كانوا جميعاً محللين رائعين، يسعون لمواجهة القراء مع افتراضاتهم الأساسية أو بأعراضهم غير المفحوصة.

حاول ماركس أن يوقظ العمال من سباتهم ويحررهم من القيود والخوف، خاصةً

1 Bess Levin, 'White House: We're Going to Have to Let Some People Die So the Stock Market Can Live', *Vanity Fair*, 23 March 2020, www.vanityfair.com/news/2020/03/donald-trump-coronavirus-deaths-vs-economy. Cf. 'President Trump has shown a unique obsession with the financial markets, tweeting that high stock prices proved he was making America great again.' Ruchir Sharma, 'Trump's Dangerous Obsession With the Markets', *The New York Times*, 9 April 2019, www.nytimes.com/201909/04//opinion/trump-stock-market-results.html. Also, Heather Boushey, 'The stock market is detached from economic reality. A reckoning is coming', *Washington Post*, 9 September 2020, www.washingtonpost.com/outlook/stock-market-unemployment-disconnect/2020087374/09/09/ca-f306-11ea-bc45-e5d48ab44b9f_story.html.

أنهم قد لا يمتلكون شيئاً يفقدونه. أشار إلى طبيعة الخداع المحتمل للمفاهيم اليومية للحقيقة أو العدالة الذي يتعرض له العمال، مثل الوهم بأنهم يدخلون في تبادل عادل مع أصحاب العمل عند "تعاقدهم" معهم في المصانع، دون أن يدركوا أن الرأسمال يستخلص فائضاً، بحيث يوفر العامل قيمةً من خلال عمله في الصناعة أو الإنتاج، لكنّ جزءاً من هذه القيمة لا يُدفع له ويستفيد منه الرأسماليُّ صاحب المصنع. وأشار ماركس وإنجلز Engels إلى أن نظام الحياة ونمطها لدى الطبقة العاملة قد يظهران صلبَين، ثم يختفيان فجأةً "كالهواء"، وذلك بسبب قوة الرأسمال وقدرته على تشكيل النظام الاقتصادي والاجتماعي، وافتقار الطبقة العاملة إلى السلطة والموارد التي تمكّنها من تحدي هذا النظام أو تغييره بسهولة.

أضاف فرويد أن العصاب (neurosis) قد يبدو للشخص المصاب به أمراً طبيعياً تماماً، والأسوأ من ذلك، أنّ هذا الشّخص قد يعتبر الأعراض كأنها جزء لا يتجزّأ من حياته، ربّما لمدة طويلة، أو حتى طوال حياته. قام فرويد بتحليل الأفكار المكبوتة والمشاعر المتناقضة التي قد تكون وراء بعض الأعراض، مثل حالات الهستيريا، واقترح أن الجميع عرضة للانجراف نحو الأماني والمعتقدات الوهمية والاستسلام لها. كان هدف فرويد من العلاج النفسي مساعدة المرضى على التعامل مع المشاكل النفسية وقبول الحزن اليومي العادي. يمكن للأشخاص أن يرووا لأنفسهم قصصاً متنوعةً حول عقولهم والعالم من حولهم، ويظلّوا ملتزمين، بلا وعي، بالعصاب خوفاً من تكبُّد مصائر أسوأ دونها. أظهر فرويد أن الأشخاص قد يعتمدون بلا وعي على تشابك السرد العقلي المعوق والآليات المتكررة التي يطلق عليها محللو النفسيات في الوقت الحالي "الهياكل المرضية" و"الانتقالات النفسية" داخل العقل، وهي آليات يستخدمها الأفراد لتجنب التواجه مع المواقف الصعبة أو الضغوط النفسية. وعلى الرغم من قيودها وتشويهها، قد تحمينا هذه التنظيمات والانتقالات من الفوضى الكاملة.

الخروج من نظام مستقر أو عالم مليء بالأوهام، حتى لو كانت هذه الأوهام أحياناً مؤقتةً ولا تمت للحقيقة بصلة، يحمل مخاطر. قد نشعر بالخجل أو الفضيحة أو

الارتباك أو الرعب، كما لاحظ النفساني جون ستاينر John Steiner بدقة.[1] إذا كنا محظوظين، فقد نجد المساعدة من الآخرين في تجاوز المواقف الصعبة وإحداث التغييرات، وتحمّل الحركات التي تَحدث في عقولنا ومواجهة الفقدان المؤلم من نوع أو آخر دون أن ننجرف في حالة من اللامبالاة أو الهوس أو الكآبة. ففقدان المعتقدات السابقة أو الأصنام يمكن أن يترك الشخص في حالة من الحزن، كما لو أن الحياة أضحت فارغةً من معناها، أو كما لو أن الإله نفسه قد أخفق. قد تكون فترات التغيير منعشةً ومبدعةً وأيضاً مربكة، فتتلاشى الثوابت التي كان من المتوقع أن تكون ثابتة، ونسعى لإيجاد توجه جديد، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي. كما لاحظ النظري الاجتماعي الراحل زيجمونت باومان Zygmunt Bauman، نحن نعيش في حقبة فُقدت فيها بعض النقاط الأساسية السابقة، وهي حقبة، كما قال، تُقدم لنا تشبيهاً جديداً، وهو "الحداثة السائلة" التي تظل متغيرة.[2]

كيف تؤثر المعتقدات في تفسير الأحداث في العالم من حولنا؟ وكيف تشكل البيئة المعتقدات الشائعة؟ لقد نوقِش هذا الأمر لقرون عدة. إن الانتقادات التي توجهت إلى التأثير السياسي والاقتصادي الجماعي السابق لنا، وهي انتقادات لفتت انتباهي خلال عهدَي رونالد ريغان Ronald Reagan ومارغريت تاتشر Margaret Thatcher، تعود الآن بقوة إلى الساحة العامة، سواء كانت قد اندثرت حقاً أم لا. على سبيل المثال، ظهرت أعمال جديدة مقنعة من قِبل الاقتصاديين تستكشف الفكر القديم الجامد الذي كان يحكم مجالهم كثيراً. كان هؤلاء الاقتصاديون يصرون على ضرورة أن نحلل من جديد، بعقول مفتوحة، المبادئ الأساسية؛ أن ننظر مرةً أخرى إلى ما يُولى اهتماماً وما يُهمَل من صناع السياسات والقوانين والناخبين أيضاً.[3] مرةً أخرى، يُطلب منّا التحرر من الأوهام السابقة التي كانت تُعتبر حقائق لا مجال للشك فيها.

كما تشير كيت راوورث Kate Raworth في كتابها المميز *Doughnut Economics*

---

1 John Steiner, *Psychic Retreats: Pathological Organizations in Psychotic, Neurotic and Borderline Patients* (Hove, 1993); and idem, *Seeing and Being Seen: Emerging from a Psychic Retreat* (Abingdon, 2011).

2 Zygmunt Bauman, *Liquid Modernity* (Cambridge, 2000).

3 Mariana Mazzucato, *The Value of Everything: Making and Taking in the Global Economy* (London, 2018).

[اقتصاد الدونات] الصادر عام ٢٠١٧: "تنزل المفترضات حول العالم وتقبع خلف رؤوسنا بسرعة، وتهمس بصمت أعمق افتراضات نظرية الاقتصاد التي لا حاجة أبداً للتعبير عنها لأنها قد كُتبت في عين العقل". تشير إلى أن مثل تلك الصور قد تظل "كالجرافيتي على العقل"، فيُصعب جداً إزالتها؛ تعبّر راوورث عن "أمتعة فكرية كثيرة

> تتغلغل في القشرة البصرية دون أن يدرك الشخص وجودها. لذا إذا كانت الصورة تعادل ألف كلمة، على الأقل في مجال الاقتصاد، فيجب علينا الاهتمام كثيراً بالصور أو الرموز الاقتصادية التي نعلمها ونرسمها ونتعلمها.[٤]

في المجتمع الحديث، تكشف راوورث أن مجموعةً مختارةً من الصور والرسوم البيانية والمعلومات المختصَرة يُلقى الضوء عليها في وسائل الإعلام على مدار الساعة، مما يعكس طريقةً معيّنةً لرؤية العالم ويعززها.[٥]

بعد بضع سنوات من بدايتي التدريس في كلية تابعة لجامعة لندن، وأثناء تدريبي لأصبح محللاً نفسياً، عبّر زميل أكاديمي لي عن شكوكه قائلاً: "أها، إذاً غُسِلَ دماغك لتؤمن بما يُسمّى 'علاج بالمحادثة'". أوضح لي بأنه لم يخض جلسات علاج نفسي من قبل، ويُفترض بأن الذين يخضعون لهذا العلاج، أو حتى الذين يتدربون عليه، يتخلون عن قدراتهم النقدية ويقبلون العملية بصورة عمياء. ربما تكون هذه المخاطر موجودةً في أي نوع من أنواع العلاج النفسي، إذ يُفترض أن يوفر العلاج استكشافاً مفتوحاً داخل ذهن المريض، فمن الممكن بالطبع استغلال ذلك بطريقة تخدم أهدافاً سلبية. على سبيل المثال، قد يُفهَم المحلل النفساني (كما حذر فرويد زملاءه) بصورة

---

4 Kate Raworth, *Doughnut Economics: Seven Ways to Think Like a 21st-Century Economist* (London, 2017), p. 13.

٥ تقترح راوورث أنه بدلاً من التركيز فقط على الرسوم البيانية للنمو، يجب أن نحمل في ذهننا صورة لدونات، أي الحلقتين: الأولى تشير إلى الموارد اللازمة لازدهار الإنسان، والأخرى تشير إلى حدود ما يمكن أن يحتمله الكوكب. يحتاج صانعو السياسات إلى توجيه الاقتصاد ضمن هذه الحدود.

مغلوطة، أو الأسوأ من ذلك، قد يَستغل المحلل عواطف ومشاعر "الحب" التي ينقلها إليه مريضه،[1] الذي في النهاية، وهو في موقع الضعف، قد يلجأ إلى جعل الطبيب وعلاجه أو النظريات التي ترتكز عليها علاجاته المثال الأعلى لديه، على الأقل لمدة مؤقتة.

قد يكون الـ"علاج بالمحادثة" جاذباً بطريقته الخاصة، فيثير أفكاراً ومشاعر لاواعيةً ويفرض ضغوطاً قوية. في أسوأ الحالات، يمكن أن يُستغل هذا العلاج لتحقيق احتياجات الاختصاصي، أو يُكيَّف على نحو صريح تحت مظلة الدولة أو المؤسسة التجارية أو الأيديولوجيا السياسية. يمكن للعلاج أن يتحول إلى مشروع مظلم لتحويل أفكار المريض والسيطرة عليها. استُغل أسلوب فرويد خلال القرن العشرين لأغراض متعددة، وحدث الأمر نفسه مع أنواع أخرى من العلاج والتخصصات النفسية. حتى في الإمبراطورية الألمانية الثالثة أو ما يُعرف بالرايخ الثالث (Third Reich)، استمرت نسخة غريبة ومنقّحة من الـ"علاج بالمحادثة"، واستُخدمت في أساليب "إعادة التربية الجماعية" في العالم الشيوعي. لذا، مخاوف زميلي من أن يصبح العلاج النفسي نوعاً من "الصحة النفسية"، أو أداةً للتكييف، أو حتى معادلاً لعملية غسيل الدماغ، لها تاريخ طويل ومؤثر؛ إنها مخاوف تحتاج إلى معالجة جادة. ومع ذلك، على الرغم من هذا التحذير، فإني أشدد على رأيي بأن العلاج التحليلي النفسي لا يجب بالضرورة أن يكون هكذا، بل يمكن أن يكون مكاناً آمناً وموثوقاً، وله إمكانيات علاجية مختلفة. يمكن أن يكون العلاج النفسي استكشافياً حقيقياً وتحدياً جذرياً ومفتوحاً للنهاية، فقد يقدم الدعم والإثارة في الوقت نفسه. يوفر مجالاً فريداً لمواجهة جوانب متعددة من ذواتنا، بعيداً من الضغوط الخارجية. يمكن أن يساعدنا على فهم جوانب من أنفسنا قد لا تكون واضحةً بالنسبة إلينا، مثل الأفكار والمشاعر التي تنشأ في العقل دون أن نكون على دراية بها. كما يمكنه أيضاً مساعدتنا على فهم أهدافنا وطموحاتنا الشخصية، وربما حتى استكشاف وفهم جوانب أعمق من شخصياتنا التي قد لا نكون على دراية تامة بها.

1 Sigmund Freud, 'Observations on Transference-Love (Further Recommendations on the Technique of Psycho-Analysis)', 1915, *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud* (London, 1953), vol 12, pp. 157–71.

بعد سنوات عدة من ملاحظة زميلي، كلّفت نفسي بمهمة قراءة أدب الغرب المَنسي حالياً، والذي استكشف مفهوم "غسيل الدماغ" وغيره من المفاهيم مثل "التكييف" و"التفكير الجماعي" و"العقل الأسير" و"الإقناع الخفي" و"إعادة التربية" و"السيطرة العقلية" و"إصلاح الفكر". سعيت لفهم المعنى الحقيقي لـ"غسيل الدماغ" وكيفية نشأته، ومدى فائدته في فهم الأزمات المتشابكة التي نواجهها في هذه الأوقات المظلمة. يهدف هذا الكتاب إلى استعراض التاريخ واستخلاص الدروس منه باستخدام لغة التحكم في العقل، وذلك لمساعدتنا على التعامل مع التحديات الصعبة التي نواجهها اليوم.

استُكشفت أفكار غسيل الدماغ مكثفاً في المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية. استخدم العديد من المعلقين هذا المصطلح في العقود التي أعقبت عام ١٩٤٥ لفتح مجال جديد من الأسئلة في علم النفس السياسي وإطلاق تحذيرات عاجلة، وذلك للإشارة إلى خطر كبير يواجه المواطنين الحديثين سواء من خلال الحكومات أو التجارة أو الضغوط الاجتماعية أو الطوائف أو العلوم الحديثة أو الطب أو الإعلانات أو خدمات الأمن السرية، بحيث يمكن أن تُحرَّف عقولهم أو يتعرضوا لفقدانها. يستعرض *Brainwashed* [**غسيل الأدمغة**] مثل هذه الأفكار والعبارات وكيفية استكشافها وتطويرها، كما يناقش أسباب استمرار تأثيرها اليوم في عصر جديد من الحروب الساخنة والباردة، وسط مناقشات متنوعة تتعلق بالأخبار الزائفة والمؤامرات وشركات التكنولوجيا الكبيرة والشعبوية الزعائمية والتطرف والتفكير السياسي الساذج.

عندما بحثت في هذا الموضوع، وجدت أن مفهوم غسيل الدماغ متزلزل، إذ يصعب تحديده ويثير جدلاً كبيراً. هل يمكن اعتبار الرواية المتداوَلة التي تفيد بأن الاهتمام المعتاد لدى مقدمي الأخبار المالية والمذيعين والمحللين والخبراء بـFTSE 100 هو غسيل دماغ؟ أم أن هذه الكلمة تُحتفظ بصورة مناسبة للممارسات الأكثر تطرفاً، بما في ذلك تلك التي طُوّرت تطويراً فظيعاً داخل المجتمعات المغلقة والطوائف المتعصبة والمجمعات؟ إذا أردنا أن نكون نقديين تجاه تغطية الأخبار الاعتيادية، فربما يكون التطبيع أو التأقلم توصيفَين أكثر ملاءمةً من غسيل الدماغ. من ناحية أخرى، فإن مسألة غسيل الدماغ تستحق النظر حتى في الأنظمة السياسية

المفتوحة نسبياً أو البيئات المؤسسية، إذ يمكن أن يتعرض الأشخاص لروايات مضلّلة ووعود خيالية وتأكيدات زائفة.

ليست أفكار هذا الكتاب مقتصرةً فقط على غسيل الدماغ، بل تستكشف أيضاً تاريخ المناقشات حول مصدر غسيل الدماغ ونطاقه وتأثيراته. أرغب في التفكير في هذه الفكرة المثيرة للجدل وتطبيقاتها، وإظهار كيفية استخدام مفهوم غسيل الدماغ على نحو متنوع (هناك من يعتبر من يقوم بغسيل الدماغ أنه ينفذ عملاً سلبياً، ومن جهة أخرى هناك من يروج له بوصفه مناضلاً من أجل الحرية)، وإظهار أن هذا المصطلح غالباً ما يكون غامضاً ويصعب تحديده بدقة. هدفي هو تقديم إطار تاريخي لتقييم كيفية ظهور هذا المصطلح الرئيسي والأسباب التي أدت إلى ذلك، جنباً إلى جنب مع مجموعة من المصطلحات المرتبطة به، والتحقيق في كيفية استخدام هذا المفهوم لتعزيز (أو عرقلة) قدرتنا على تحليل المجتمعات والعقول الحديثة، وكذلك تقييم الدور الذي يؤدّيه علم النفس في الحياة المعاصرة والتفكير في مخاطر التفكير نفسه.

يعمل كتابي **غسيل الأدمغة** على وضع فكرة غسيل الأدمغة في سياقها وتسليط الضوء على أهميتها المستمرة، وكيفية إمكان تحديدها بصورة أفضل، خاصةً بعد أن كانت محور اهتمام قوي في السابق. أوجّه دعوة لفهم كيف نشأت تلك التعليقات حول هذه الفكرة وتطورت وتحدّت وأثارت الجدل. تهدف دراستي إلى دعوة القارئ للنظر بتجديد إلى مفهوم غسيل الدماغ، والمفاهيم المتصلة بالتحكم العقلي والتأثير والضغط والتلاعب. تُنقّب دراستي عن كيفية استخدام مثل هذه الأفكار في السابق في سياقات متنوعة، وتسأل كيف يمكن لهذه الأفكار أن تساهم في فهم التجارب الحية الحديثة في مجالات التجارة والثقافة والمجتمع والسياسة.

غسيل الدماغ جزءٌ من اللغة النفسية والسياسية التي نعتقد الآن أنها موجودة؛ إنه جزء من كيفية تفكيرنا بصورة روتينية حول العقول والمجتمعات، وما يهددها. اللغة التي نرثها يمكن أن تؤثر في كيفية نظرنا إلى أنفسنا وإلى الآخرين؛ ربما تُثبت مفردات معيّنة فائدتها في تحسين فهمنا، ومع ذلك، قد تعمل أيضاً على إعادة تنظيم هذا الفهم أو حتى تقليل فاعليته. منذ بزوغ الفلسفة، اجتمعت مجموعات للمحادثة والصراع مع مشكلة ما يعنيه التفكير منطقياً، أو على الأقل ما الذي يُطلب للتفكير بجدية. في العصر

الحديث، أدّى علم النفس أيضاً دوراً مركزياً في النظر إلى العمليات الفكرية الصحية والمرضيّة، في مراحل مختلفة من الحياة. لعبت المهن النفسية دوراً مهمّاً في تشكيل كيفية فهمنا للصراع العقلي والألم، أو حتى كيفية تقييم الحياة سواء كانت جيدةً أو سيئة. تقدم هذه المهن العديد من الروايات حول ما يعنيه أن تكون إنساناً، والنظرات نحو الطريقة التي يناضل بها الناس، للأفضل أو للأسوأ، مع التحديات التنموية المختلفة خلال ما أصبح يُسمّى بـ"دورة الحياة". من خلال هذه التخصصات النفسية، ورثنا العديد من النظريات والوصف المفصّل عن الصحة العقلية والمرضيّة، والفرضيات التي قد توجه كيف نفكر في أنفسنا ونشعر بالآخرين، أو حتى نتخيل كيف كنا نفكر ونشعر في ما مضى. بذل الطب النفسي، على سبيل المثال، جهداً كبيراً في استكشاف عقول الرضّع، وسعى أيضاً لاستكشاف العوامل التي قد تعزز أو تعيق قدرات الرضيع على اللعب والتفكير والاستكشاف، وفهم مشاعر الحب وتجربة الحب، والتعرف على مشاعر الغضب أو الحسد، وكيفية التعامل مع الخوف من أن يصبح مكروهاً (أو حتى مَلغيّاً). كتب هؤلاء الأطباء والنظريون على نطاق واسع عن العوامل التي قد تمكّن بعض الأشخاص أكثر من الآخرين من تجاوز الرؤى المبسّطة، وفهم التعقيدات، أو السماح لشكوكهم الخاصة بالوجود دون أن تُسحَق. تحمّل الإحباطات لعدم المعرفة، في النهاية، شرطٌ أساسي للتعلم، أو بشكل آخر، إذا كنا نرغب في الاحتفاظ بفضولنا، فقد نحتاج إلى تحمل عدم اليقين المؤلم.

كتب المؤرخون والفلاسفة وعلماء الاجتماع، الذين يعتمدون على أساليب بحث متنوعة، عن الظروف التي قد تجعل من الأمر ممكناً أو شبه مستحيل للمجموعات والمجتمعات التساؤل عمّا يُفترض أن تؤمن به، والتجمع للتداول بحرية، وإعادة تنظيم نفسها لمواجهة أزمة جديدة أو الاستجابة إبداعياً لفرص جديدة. قد تُساعَد أو تُعرقَل الناس في تساؤلها حول طرق تنظيم الحياة، وحتى في اتخاذ القرارات بين خيارات مختلفة، وقد سجل الباحثون أيضاً تطور العديد من التقنيات الحديثة في مجال السجون والتحقيقات والدعاية والإقناع الخفي والسيطرة العقلية وغسيل الدماغ. كل فصل في الكتاب يقدم مزيجاً متنوعاً من المراجع والمصادر المختلفة ويتنقل بين مناقشات حديثة تتعلق بتجارب الإنسان وعوالمه الداخلية أي العواطف والأفكار والتجارب

الشخصية، والخارجية أي التأثيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية. تستكشف هذه الدراسة بصورة خاصة مجموعةً من النقاشات، التي نُسيت إلى حد كبير الآن، من مرحلة الحرب الباردة، وهي نقاشات حول القوى الاجتماعية والثقافية والسياسية المحيطة بنا، والوكالات والإجراءات التي يمكن أن تختطف عقولنا ثم تعيدها باتّجاه معيّن. أعتقد أن إعادة النظر في الماضي قد تساعدنا على استكشاف أشكال جديدة من الإقناع الخفي وغسيل الدماغ في المستقبل. إيجازاً، تدعو هذه السجلات التاريخية إلى مزيد من النظر في العمليات التي قد تيسّر أو تشوّه قدرتنا على التفكير بأنفسنا.

الفصل الأول

غسيل الدماغ

أحياناً تظهر كلمة جديدة تعبّر عن مفهوم نعرفه جيداً. قد تأتي هذه الكلمة بأفكار جديدة إلى الوعي العام، أو تجمع بين مفاهيم لم تكن متصلة ببعضها سابقاً، أو تصف شيئاً لم يكن أحد قد أدركه فعلاً من قبل، أو كان يدركه الجميع سابقاً ولكن باسم آخر. قد تختفي التسميات المصطلحية أحياناً، أو تنتقل إلى الهامش، أو يُعاد نشرها في سياقات جديدة، كما الحال عندما نتحدث عن فيروس الكمبيوتر أو الماوس. تصبح الكلمات المصطلحية القديمة في بعض الأحيان منسيّة، أو تحصل على أهمية ومعانٍ جديدة وملحوظة كما نرى في كلمة "queer" [منحرف] على سبيل المثال. قد تكون للكلمات معانٍ مستقرة وثابتة نسبياً على مرور فترات طويلة في بعض الحالات؛ ومع ذلك، يمكن أن تثير هذه الكلمات نقاشات، أو تُستعاد معانيها أو تُعاد صياغتها مع مرور الوقت. بصفتنا مستمعين ومتحدثين، نُجري تعديلات دقيقة على هذه الكلمات، وفي الوقت نفسه نحرص على متابعة التغييرات التي تطرأ على التعابير المعاصرة والعامية، ونلاحظ على سبيل المثال أن كلمة "sick" قد تعبّر إما عن الإصابة بالمرض وإما عن الإعجاب، وذلك حسب السياق الذي تُستخدم فيه.

بعبارة أخرى، قد تُعيد الكلمة وصف شيء ما معروف جداً، فيكون ذلك مثل نبيذ قديم في زجاجة جديدة؛ أو قد تشير إلى ظاهرة غير مسبوقة. إن التفكير في الإنترنت على أنه فقط تعبير جديد لفكرة مجردة كان الناس قد أدركوها بالفعل قبل

مئات السنين هو أمر غير دقيق، حتى إن كانت هناك ملامح من هذا التعبير الافتراضي قد ظهرت في الخيال العلمي أو التكهنات التكنولوجية قبل ظهور عصرنا الرقمي. ومع ذلك، إنّ مفهوم العمالة المنخفضة الأجر أو العمل المتكرر كان قائماً لمرحلة طويلة قبل ظهور كلمة "McJob" في اللغة الإنكليزية (في عام ١٩٨٦ بالضبط). يمكن للكلمات أن تحمل معاني متعددة، ويمكن أن يُلقى على عاتقها جميع أنواع التفاصيل الدقيقة أو الافتراضات أو المدلولات الأخلاقية المميزة. ولهذا، قد يكون لكلمة "McJob" تداعيات مختلفة تماماً عندما تُستخدم في حملة اتحاد العمال على سبيل المثال، أو في فقرة فكاهية منفصلة، أو في رسالة انتحار، أو في مجلة أخبار المشاهير التي تصف بطريقة مستخفة حياة الفقراء. بالإضافة إلى ذلك، قد يستمع شخصان إلى الكلمة نفسها من المتحدث نفسه ويفهمانها بصورة مختلفة تماماً.

جادل النقاد إذا كان مصطلح "غسيل الدماغ"، الذي استُخدم لأول مرة في اللغة الإنكليزية بعد نحو خمس سنوات من انتهاء الحرب العالمية الثانية، قد أفضى إلى منهج جديد لفهم حقيقة قديمة. فقد طُرح هذا السؤال في وقت مبكر حول ما إذا كان المصطلح هو مجرد إعادة صياغة لشيءٍ تم تداوله بالفعل تداولاً كاملاً عند الأجيال السابقة، أم هو وصف لظاهرة ناشئة لم تكن لها سابق في تاريخ البشرية والوعي العام. اختلفت وجهات النظر بشأن حقيقته، ومكانته، ودرجة إلحاحيته، واستغلاله لخلق حالة من القلق.

رأى بعض المعلقين أن المصطلح يشكل تجميعاً مميزاً وخطِراً بين السلطة والمعرفة في العمل الحالي، وقد حذر هؤلاء المعلقون من صورة مرعبة تشوبها الشدة لدولة وصلت على الأقل إلى نقطة معيّنة في الخارج، حيث استخدمت القوى العظمى ترسانة من العلوم النفسية. جادل آخرون بأن المصطلح يشير ببساطة إلى ممارسات تم التدرّب عليها جيداً واستيعابها على نطاق واسع لمدّة طويلة، وأشار المشككون إلى إمكانية أن يكون قد تم تضخيم دعاية الفكرة بهدف خدمة مصالح متعددة؛ وقد تكون الفكرة وسيلة بلاغية لإثارة مجموعة من التهديدات الخيالية، أو وسيلة لخلق حالة من الذعر حول العقول الهشة في العصر الحديث.

في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٠، أثناء السنة الأولى من الحرب الكورية، صاغ (أو

ابتكر) إدوارد هانتر Edward Hunter، الصحافي الأميركي الذي عمل في خدمة الاستخبارات الحربية وفي وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) بعد الحرب، مصطلح "غسيل الدماغ" دون ترك أي شك في أذهان قرائه بأن هذه المشكلة كانت حقيقية وملحّة.[1] رأى هانتر تغيّراً جوهرياً، إذ برزت ظروف تاريخية جديدة تتعلق بالسيطرة على العقل.[2] عندما استخدم هذا المصطلح في مقالة نُشرت في صحيفة *Miami News* أولاً، ثم في كتابات ومؤلفات أخرى، كان هانتر يشير إلى ما زعم أنه خطر مخيف ومتصاعد. رأى هانتر في هذه الظاهرة نوعاً من التدخل النفسي الذي تُجيد بعض الدول المنافسة استخدامه، وقد أعطى هذا توجيهاً حقيقياً للهجمة على أفكار الأفراد. ورغم اعتراف هانتر ببعض العوامل التي سبقت بروز ظاهرة غسيل الدماغ، فقد توسع خلال الخمسينيات من القرن العشرين في شرح تهديد عمليات غسيل الدماغ التي بلغت فعلاً مرحلة نضوج؛ اكتشف أن هذه الظاهرة تعبّر عن توليف قاتل جديد يجمع بين الأيديولوجيا والتكنولوجيا والطب والعلوم النفسية، ويؤثر في الواقع الاجتماعي في بعض المناطق الأجنبية، وبإمكانه تحقيق التأثير نفسه في أي دولة.

في أولى مقالاته "Brain-Washing Tactics Force Chinese into Ranks of the Communist Party" [تكتيكات غسيل الدماغ تحثّ الصينيين على الانضمام بقوة إلى صفوف الحزب الشيوعي]، اقتبس هانتر عبارة صينية شائعة (xǐ nǎo) وهي تعني

---

١ قبل تقرير هانتر، كتب الصحافي الفرنسي Robert Guillain مقالاً بعنوان "China Under the Red Flag" [الصين تحت ظل الراية الحمراء] في جريدة *Manchester Guardian* في ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٥٠ حول إعادة التربية الماويّة، أو "ما تصفه الصحف الصينية بشكل ملموس بـ'غسيل الأدمغة'". بالنسبة إلى أصل هذا المصطلح، انظر:

Marcia Holmes, 'Edward Hunter and the origins of "brainwashing"', 26 May 2017, www7.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/blog/hunter-origins-of-brainwashing/.

انظر أيضاً:

Charlie Williams, 'Battles for the Mind: Brainwashing, Altered Statand the Politics of the Nervous System (1945–1970)', (unpublished doctoral thesis, Birkbeck College, University of London, 2018); Timothy Melley, 'Brain Warfare: The Covert Sphere, Terrorism, and the Legacy of the Cold War', *Grey Room*, 45 (2011), 19–41, p. 28.

2 Edward Hunter, '"Brain-Washing" Tactics Force Chinese into Ranks of the Communist Party', *Miami News*, 24 September 1950.

غسيل الدماغ. إنها عبارة تخفيفية تمثّل تلطيفاً لمفهوم يُعتبر جارحاً أو غير ملائم من الناحية الاجتماعية أو الثقافية، وعليه، يجب أن ندرك أنها لا ترتبط بالتنظيف حرفياً، بل بفكرة تدمير العقائد والأفكار واستبدالها. تم التأكيد على أصل الكلمة الصيني، مما ألقى الضوء موسّعاً على أهم اهتمامات الأميركيين، التي تتمحور في المقام الأول حول ماو Mao وثورته الشيوعية.

وجدت تحذيرات هانتر وزملائه من كتّاب الخمسينيات حول غسيل الدماغ طريقها نحو جمهور مستعد لليقظة والتنبه من هذا الأمر، وهو استعداد ربما عززته السيناريوهات الديستوبية التي استُكشفت في الأدب. تضمنت هذه السيناريوهات تصوراً لمجتمع خامل منكمش تسيطر فيه كائنات عُلوية ذات سلطة كاملة على كل شيء، و/أو يتغذى بوسائل حديثة تعادل تلك المعروفة في العصور القديمة بـ"الغذاء والترفيه". بعض الكتّاب مثل ألدوس هكسلي Aldous Huxley في *Brave New World* (١٩٣٢) [**عالم جديد شجاع**] صوروا مستقبلاً يتخذ من الترفيه اللطيف والتحرر الجنسي المزعوم والمخدرات سبلاً للسيطرة على الأفراد؛ في حين رسم آخرون، مثل جورج أورويل George Orwell الذي نُشرت روايته *Nineteen Eighty–Four* **[1984]** في عام ١٩٤٩، مستقبلاً يتم فيه كسر إرادة الناس وخضوعهم لسيطرة دائمة وشمولية.

في تلك المرحلة الزمنية، كُتب عدد من المقالات في الغرب حول الحرب الدعائية التي نفذتها كل من نازية ألمانيا والاتحاد السوفياتي. خلال الحروب العالمية الأولى والثانية، بُذلت جهود كبيرة من كلا الجانبين لتعزيز فعالية الجهود الإعلامية ومراقبة تغيّرات الأوضاع النفسية والرأي العام بصورة متزايدة. تم تضمين النواحي الطبية السريرية في هذه الجهود خلال الأربعينيات، بهدف تحليل التأثيرات النفسية والاجتماعية العميقة للنازية ومعالجتها. كانت نازية ألمانيا مكرسة بجدية لوضع إعادة هيكلة سكانية جديدة، إذ استخدموا المصطلح الألماني "Gleichschaltung" (تُرجم بأشكال متعددة مثل التنسيق أو انسجام الآراء أو التوحيد) للإشارة إلى طموحهم في إعادة تشكيل المجتمع بصورة شاملة.

لم يكن هدف الحزب النازي مقتصراً على تشكيل قواعد السياسة فقط، بل شمل كل جوانب المجتمع بعمق، مع نهج لإلغاء فكرة أي معارضة في عقول الناس.

لاختصار الأمور، كان هدف الحزب هو تحقيق تناغم شامل، ولكن بالرغم من أن ذلك لم يتحقق بصورة كاملة قطّ، فالشعب الألماني عاش لمدة اثني عشر عاماً تحت قيادة الزعيم الفوهرر، فصوّت الملايين لمصلحته وقاتلوا من أجله، ووافقوا على أهدافه، وأحبوه واستقبلوا رؤيته للعالم حتى في وجه الكوارث الوشيكة. خلال الحرب العالمية الثانية، عمل الباحثون النفسيون وعلماء الأنثروبولوجيا، بمن في ذلك خبراء التحليل النفسي، لفائدة الحلفاء في الجيش وأجهزة الاستخبارات. سعوا لفهم الثقافة الجماهيرية الفاشية والنتائج النفسية المترتبة على العيش تحت نظم الاستبداد هذه. عملوا أيضاً على تقييم شهادات أسرى الحرب (POWs) وتنقية صورة الجيش أمام الرأي العام، ونفّذوا أنشطة "غير قانونية وغير أخلاقية"، واستفادوا من البحث في نوايا العدو وتأثيرات الإعلام. وبعد انتهاء الحرب في عام ١٩٤٥، ساعدوا في دعم جهود المنتصرين لإزالة الأيديولوجيا النازية من عقول سكان ألمانيا المهزومة، واستمرت هذه التجربة المريرة في إثارة جدل حول تقنيات غسيل الدماغ خلال الحرب الباردة.

في الوقت نفسه، شهد علم الأعصاب تطورات كبيرة جنباً إلى جنب مع تطوير ميدان "الجراحة النفسية". أعلن بعض الخبراء عن التقدم الهائل الذي تحقق في مجال علاج الصحة العقلية للجميع، وذلك بفضل تقنيات مثل العلاج بالصدمات الكهربائية وتطور عمليات جراحة الدماغ. في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، قدّم بعض الجراحين، بمن فيهم شخصيات بارزة خاصةً في الولايات المتحدة وبريطانيا، ادعاءات كبيرة بقدرتهم على علاج أو تحسين حالات الاضطرابات العقلية الحادة والمزمنة عبر إجراء عمليات جراحية في الدماغ. ومع ذلك، في حين يمكن للطب والعلم أن يزعما السلطة ويلعبا دوراً حاسماً في التعامل مع الحالات الدماغية غير الطبيعية، بدءاً من الأورام السرطانية إلى الفصام، يخشى بعضهم أن يكون العلاج الدوائي والصدمات الكهربائية والجراحة عبارة عن وسائل جديدة للتحكم الاجتماعي، بما في ذلك استخدامها لتهدئة الأشخاص العنيدين وغير السعداء والمضطربين والمتميزين عن العادات داخل مجتمع من المفترض

أن يكون ليبرالياً.[١] كانت هذه المناقشات حول التطورات والمخاطر المحتملة في مجال العلم والطب والتكنولوجيا هي أساس النقاش حول تقنية غسيل الدماغ.

قدمت أفلام ما بعد الحرب تحدياً للمفاهيم القديمة بأسلوب مشابه لفرانكنشتاين Frankenstein، إذ عُرض فيها تقنيون يرتدون معاطف بيضاء يغزون الأدمغة ويجددونها ويسيطرون على الأفكار والأجساد. في الوقت نفسه، ركزت بعض تحليلات الشمولية أو التوتاليتارية على دور محتمل للطب وعلم النفس في مساعدة الدولة على تحقيق حالات ذهنية داعمة للدولة ومتحمسة لأفكارها بالنسبة إلى السكان الأسرى، سواء تعلق ذلك بالفاشية أو الشيوعية. هانتر كان من بين الخبراء الذين أسسوا لمجموعة واسعة من استكشافات جديدة للسيطرة على العقل، إذ أشار إلى أهمية كشف التدخلات الفكرية التي يستخدمها أعداء الديموقراطية الليبرالية الغربية المعاصرة، مثل الدولة الصينية، ومن ثم مقاومتها بكل الوسائل المتاحة. أعلن هانتر أن عمليات غسيل الدماغ هي الوضعية الخطِرة والصعبة التي تؤثر في السكان الصينيين وفي أي شخص ساء حظه بأن يتعرض لتأثير "معلمي إعادة التربية"، بمن في ذلك السجناء الأجانب، وإذا لم يتم التصدي لهذه المشكلة بجديّة، فإن الخطورة ستتفاقم.[٢]

حذر هانتر وكثيرون من النقاد الغربيين الآخرين للصين من أن عملية غسيل الدماغ كانت تمثل تجسيداً جديداً وشاملاً للاستعباد النفسي. كانت مسؤولة عن الصعوبات الاستثنائية والأوهام السياسية، وحتى الاعتقادات الخاطئة، التي عاشها عددٌ لا يحصى من الأفراد الذين أصبحوا تحت سلطة الحزب الشيوعي. إعلان

---

١ انظر إلى:

Gordon Shepherd, *Creating Modern Neuroscience: The Revolutionary 1950s* (Oxford, 2010); Andreas Killen, *The Cold War Brain* (New York, forthcoming)

وإلى محاضرة عبر الإنترنت:

www7.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/blog/a-cultural-history-of-the-brain-in-the-1950s/.

٢ انظر إلى:

Edward Hunter, *Brainwashing: The Story of Men Who Defied It [1956]* (Toronto, 2012).

راجع أيضاً:

William Sargant, *Battle for the Mind: A Physiology of Conversion and Brain-washing* (London, 1957).

ماو لثورة ثقافية في الستينيات، حين تحول الطلاب وأفراد آخرون، والذين يقدر عددهم بمئات الآلاف، إلى الحرس الأحمر، أضفى ديناميات جديدة على تلك الصورة القائلة بوجود جيش هائل من الجنود العاديين والرفاق المخلصين والأتباع الآليين، الذين ينفذون الأوامر التي يتلقونها بصورة آلية دون تفكير مستقل.[١] عندما ننظر إلى ما أصبح معروفاً حول برامج إصلاح الفكر التي قادها ماو، أو ما يُعرف لاحقاً بالثورة الثقافية، نجد أن تلك المخاوف من التأثير الجماهيري الذي أشار إليه هانتر ليست بالأمور التافهة تماماً، ومع ذلك، فإن اللغة التي استخدمها لوصف "غسيل الدماغ" كانت ذات توجه واضح نحو التحيز والتطرف والإثارة. وقد أشار هانتر بصورة لافتة إلى أن الأفراد الذين يمارسون السلطة في الصين وفي مناطق أخرى، يمتلكون وسائل سرية متعددة تُستخدم لانتزاع ليس فقط حرية الحركة والتعبير والتجمع، بل أيضاً حرية التفكير الكامل، كما يفرضون إرادتهم على الأفراد المحتجزين جماعياً. في أشد الحالات قساوةً، حذّر هانتر في كتابه عام ١٩٥٦ *Brainwashing: The Story of Men Who Defied It* [غسيل الدماغ: قصة الرجال الذين تحدّوه] من أن الضحايا قد يتغيرون بشكل كامل؛ يمكن أن يجدوا أنفسهم بعد سجنهم قد "وُضعوا تحت تأثير مجموعة من الضغوط العقلية المركبة والضغوط الجسدية العنيفة والتعذيب".[٢] واعتبر هانتر أن كل هذا يجب أن يستدعي تحقيقاً عاجلاً، وأن معالجة الأزمة الناجمة عن تقنيات التحكم بالعقول المعاصرة تتطلب يقظة سياسية قصوى وتنفيذ إجراءات عملية مضادة.

عبّر هانتر وآخرون من المعلقين الذين كتبوا عن ظاهرة غسيل الدماغ في المرحلة نفسها عن مخاوفهم من تنفيذ سياسة منهجية للتحويل النفسي على نطاق لم يشهده العالم من قبل. أشاروا إلى أنه لا يجب أن تُقارن هذه الظاهرة مع إجراءات سابقة، ويجب ألا نتصوّر أن غسيل الدماغ الذي يحدث في الصين يُعادل التصرفات

---

١ في عام ١٩٦٦ وبعده، أفادت التقارير كيف كان ماو يطلق عمداً "جنوناً" جماعياً ويستخدم "غسيل الدماغ" على مئات الآلاف، ربما حتى ملايين من شباب الحرس الأحمر. انظر، على سبيل المثال، إلى هذا التقرير عن الثورة الثقافية الذي نُشر في وسائل الإعلام التايوانية:

'Red Guards – A Calculated Madness', *Taiwan News*, 1 October 1966, taiwantoday.tw/news.php?unit=4&post=6958.

2 Hunter, *Brainwashing*, p. 3.

الاستبدادية القديمة، أو حملات الدعاية، أو أساليب التعليم الاستبدادية تحت مظلة القومية، وأكدوا أن الأزمة لم تكن مجرد نسخة علمانية من أشكال التأثير الديني القديمة والمألوفة. على الأقل، زعموا أن التلقين، إن كان يمكن تسميته بهذا الاسم، وصل إلى مستوى استثنائي ودقيق من الفعالية، وأشار هؤلاء الكتّاب إلى كيفية استخدام مجموعات جديدة من الجراحة والأدوية والتنويم المغناطيسي والتجارب النفسية في تشكيل سلوك الحيوانات (التي ترتبط بوضوح بعمل الفسيولوجي الروسي بافلوف Pavlov) والتشهير الجماعي في تعزيز الولاء السياسي المطلق لقضية الشيوعية.

أصرّ هانتر بشدة على أن "غسيل الدماغ يتشابه بشكل غريب مع أي إجراء طبي"[1] قد يُنفّذ على فرد. وبالفعل، نُفّذ على ملايين الأفراد، دون موافقتهم المستنيرة. وفي خلفية هذا الجدل حول سيطرة الشيوعية على العقل، كان هناك توعّد سابق بأن الطب والأفراد الذين يمارسونه قد يتم تحويرهم واستغلالهم من دولة وحشيّة. إذ كانت هناك أدلة قد ظهرت للتو حول جرائم أطباء النازية الذين حوكم بعضهم في نورمبرغ إلى جانب مجرمي الحرب الكبار؛ أشخاص مارسوا تجارب بلا رحمة على ضحايا عاجزين في معسكرات الاعتقال، متجاوزين بفظاعة قَسَم أبقراط الذي عادةً ما يقسمه الأطباء قبل مزاولتهم مهنة الطب.[2]

أراد هانتر أن يُبلِّغ الأميركيين أن غسيل الدماغ يُهدِّدهم أيضاً. قدّم للقراء لمحات قلقة حول كيفية تمكُّن البرامج الطبية–النفسية من الانطلاق في هذه الحقبة الجديدة بسرعة مثيرة للقلق. قد تكون الأساليب صريحة أو غير مرئية عملياً. رأى هانتر روابط بين الماضي ولكنه ميّز أيضاً هذه الحقبة الناشئة من التاريخ بقوة عن العصور السابقة، وذلك عندما استُخدمت تقنيات متنوعة أخرى من الحركات السياسية والأديان والأحزاب أو الدول لكسب القلوب والعقول. كان السؤال بالنسبة إلى هانتر: هل يمكن للسجين/ المريض في الأنظمة السابقة مثل نظام ستالين Stalin أو ماو أن يقاوم غسيل دماغه؟ وما الأدوات التي يمكن تقديمها لجعل الناس أكثر

١ المرجع نفسه.

2 Robert Jay Lifton, *The Nazi Doctors: Medical Killing and the Psychology of Genocide* (New York, 1986); Paul Weindling, *Nazi Medicine and the Nuremberg Trials* (Basingstoke, 2004).

حذراً وانتقاداً ومرونة؟

أدرك هانتر إمكانية المقاومة النفسية، واستكشف مجموعة أوجه أكثر تعقيداً من هذه المفاهيم المطلقة البسيطة. وعلى الرغم من كلامه المقنع، فقد أثارت تفسيراته المزيد من الأسئلة بدلاً من أن تجيب عنها، ليس فقط حول أفضل السُّبل لمواجهة التحدي، ولكن أيضاً حول كيفية فصل مفهوم غسيل الدماغ عن أفكار أخرى تتعلق بالتعليم والإقناع والتأثير. تشير كتاباته إلى الأصول الحديثة للكلمة؛ ذلك المزيج من السحر والخوف الذي أثارته عملية غسيل الدماغ؛ تلك الصور الدرامية التي غالباً ما تُرسم، ومع ذلك أيضاً الجوانب غير الواضحة لهذا النقاش الذي دار خلال الحرب الباردة. هل كانت إجراءات العملية كلها كاملة ولا تُلغى؟ أين وكيف يمكن للأشخاص الصمود أمامها؟ وماذا عن غسيل الدماغ الجزئي، والتناقضات الداخلية في المعتقدات، والتغييرات غير الكاملة للاعتقادات، وأشكال الضغط والإغراء بأسلوب لطيف؟ دور هانتر بوصفه صحافيّاً وخبيراً في مجال غسيل الدماغ كان أيضاً ذا أهمية، فكثير من هذا النقاش كان يُجرى ليس فقط في قاعات الندوات أو البرلمانات، ولكن عبر أثير الإذاعة أيضاً وفي المجلات الشعبية والصحف وعلى التلفاز وفي صالات السينما. كان على الناس تقييم القصص التي تُروى لهم وتقدير سلطة كتّاب الأعمدة وصانعي الرأي الذين يُخبرونهم بما يجب عليهم التفكير فيه، ومن أين تأتي التهديدات، ومن يجب أن يخشوا أو كيف يتصدون.

في ما يتعلق بوصف أشكال غسيل الدماغ الفعلية وشرح الآليات المحددة المتورطة في هذه العملية، استعان هانتر بالمجازات والتشبيهات التي، بعيداً من التحليل العلمي، أعطت انطباعاً مخيفاً وغامضاً؛ أشار، بصورة غير دقيقة، إلى أن غسيل الدماغ "يشبه إلى حد ما السحر والطقوس السرية، وحالات عميقة من الانغماس الذهني والانعزال عن الواقع المحيط، والمواد السامة والمشروبات التي يُعتقد بأن لها تأثيرات غير عادية أو سحرية على الشخص الذي يتناولها".[1] وصف هانتر الأمور بأنها "خليط من الفودو (voodoo) القديم على ما يبدو، ولكن بلمسة

1 Hunter, *Brainwashing*, p. 3.

غريبة من العلم... إنها خليط سحري في أنبوب اختبار".[1] ورغم ذلك، لا تزال الأسرار قائمة؛ أشار هانتر إلى أن الصينيين حاولوا إخفاء ما كانوا يقومون به، ولم يكونوا يودون تسميته بـ"غسيل الدماغ"، على الرغم من أنهم كانوا يدركون، على ما يبدو، أن هذا بالضبط ما كان يحدث. من وجهة نظر هانتر، كان التحدي الأول هو تحديد أساليب غسيل الدماغ ومن ثم استكشاف كيفية مواجهتها. لتحقيق نجاح العملية، يعتمد ذلك في المقام الأول على جهل الشخص المعرّض لغسيل الدماغ لطريقة تنفيذ العملية، ولذلك، يمكن أن يكون تثقيفنا في هذا السياق أيضاً سلاحاً لمواجهة هذا الأمر.[2] إذا كان بإمكان غسيل الدماغ أن يسيطر على الإرادة الحرة، فقد يكون العقل المستعد والمجتمع المجهَّز قادرَين على مقاومة التهديدات الخارجية أو الداخلية. ومع ذلك، كان من يمارسون غسيل الدماغ يطوّرون العملية باستمرار نحو درجات متزايدة من التعقيد، وقد يأتي يومٌ تصبح فيه المقاومة بلا جدوى، وربما لا...

تشير القصص من مرحلة ما بعد الحرب إلى سرعة توقع الناس لانخراط جماهير القراء في هذه المشكلة، وسرعة استيلاء صحافيّي الأخبار أيضاً على هذا المصطلح. في عام ١٩٥٠، اعتمدت صحيفة *The Times of India* التعبير ووصفت كيف شهدت "الصين تحت ظلّ الراية الحمراء" "غسيل الدماغ" هذا، وفسرته كـ"نسخة جديدة من التطهير العقلي". في عام ١٩٥٥، ذكرت صحيفة *The Times* في لندن كيف تُجهِّز القوات العسكرية الخاصة أولئك الذين يتم "أسرهم" للخضوع إلى "إجراءات غسيل الدماغ الواقعية". وهكذا، سرعان ما وجد المصطلح طريقه إلى الثقافة الشعبية، وإلى التنديدات الغاضبة ضد مخاطره.

لم يزل هذا الموضوع حاضراً، فمنذ بداية الخمسينيات، لم يكن بإمكان القراء والمشاهدين والمستمعين تجنب التعامل مع مسألة غسيل الدماغ بسهولة، سواء في الصحف والمجلات الناطقة بالإنكليزية، أو في دور السينما، أو عبر الراديو والتلفزيون، وحتى في المحادثات اليومية. كان يُنظر إلى تلك المسألة كلغز بحاجة

---

١ المرجع نفسه ص. ٤.

٢ المرجع نفسه ص. ١٦.

إلى حل أو كاتّهام يُوجّه إلى جماعات معيّنة، وكانت بعض الحوارات حول هذا الموضوع تسعى لتبرير وجود أو استخدام "غسيل الدماغ" كمفهوم أو تقنية، أو ربما لتبرير استخدامه في بعض الحالات أو السياقات السياسية أو الاجتماعية أو النفسية.[٣] ظهرت هذه الكلمة الرئيسية في شعارات كبرى وحتى في النصوص الصغيرة على مر العقود التالية. كانت عبارة مشهورة في مقالات وقصص تتناول كل شيء تقريباً، من ظروف السجون إلى آخر صيحات الرقص، ومن تصنيع الآلات إلى حفلات الموسيقى الثقيلة، ومن برامج إصلاح التعليم إلى انهيارات الحياة الزوجية. ومع انتقال العنوان من سياق إلى آخر، اكتسب المصطلح ارتباطات جديدة، وكان يُستخدم أداةً في جميع أنواع النقاشات، بما في ذلك النقاشات حول طبيعة الهوية والأصالة والإبداع والحرية.

مع اقترابنا من المرحلة الزمنية الحديثة، يُظهر مصطلح "غسيل الدماغ" وجوده الكثيف في حياتنا اليومية وكيفية استخدامه المتكرر بأشكال متعددة. يُستخدم هذا المصطلح بشكل سريع وشائع في مناقشاتنا، خاصةً عندما نتحدث عن تفاعلاتنا عبر الإنترنت أو عن علاقاتنا كأفراد أو جماعات مع هياكل ووكالات متعددة أو مؤسسات تحكمية، وتعكس الإشارة إلى "غسيل الدماغ" عن قلقنا وتساؤلاتنا حول حدود حريتنا. هناك من يدعي بثقة وجود "غسيل الدماغ" كشيء حقيقي لا يُختلف عليه، بينما يستخدمه آخرون بصورة استفهامية، وسيلةً لاستكشاف أعمق لمفهوم السلطة والتأثير.

اتضح هذا الأمر لي من خلال لقاء أُجري حديثاً مع بعض طلاب المستوى السادس في مدرسة حكومية في لندن. سُئل الطلاب كجزء من تمرين معيّن أن يقدموا أمثلةً ملموسةً تتعلق بمصطلح "غسيل الدماغ". تقدم بعضهم بشكاوى بشأن برنامج تعليمهم في المدرسة؛ أكدوا أن تعليمهم، تماماً كما في أي مجال آخر، يُخضعهم لعملية غسيل الدماغ. سرعان ما ردّ أفراد آخرون في المجموعة على هذا الاتهام، إذ كيف بإمكانهم مناقشة هذا الموضوع وبهذه الطريقة لو صحيح أن

٣ لم تُترجم الكلمة مباشرةً إلى لغات أخرى. ففي اللغة الفرنسية مثلاً، خلال الخمسينيات والستينيات، كانت هناك وسائل أخرى لنقل الفكرة الأساسية؛ بالإضافة إلى ذلك، كان المصطلح الجديد عند استخدامه يُقدّم في بعض الأحيان باللغة الإنكليزية بدلاً من "lavage de cerveau".

المدرسة هي مجرّد تمرين لغسيل الدماغ كما أعربوا؟ بدا طلاب عدة غير مرتاحين لدى تحسسهم أن معلمهم كان (أو على الأقل ظهر لهم بأنه) بات يشعر بخيبة أمل مما قالوه، وقد سأل المعلم الطلاب بهدوء: "أتعتقدون أنّي أغسل دماغكم؟". على الفور أكدوا أنهم يقدّرونه ويحترمونه رغم اعتراضهم على النظام المدرسي، وذلك بقولهم بإيجابية: "ليس أنت سيدي من يغسل أدمغتنا، بل النظام المدرسي الذي يفعل ذلك".

لم يتفق الطلاب في النهاية على أن "غسيل الدماغ" يمكن تحديده ببساطة في شخص معيّن من الطلاب أو المعلمين، أو حتى في مدرستهم، بل يتعدى ذلك بكثير. بدؤوا التأمل في الضغوط التي يواجهونها، هيئةً تعليميةً وطلاباً، وتساءلوا عن مكان ظهور "غسيل الدماغ" الفعلي، وبدأ بعضُهم مناقشة الوضع السياسي الذي تشهده البلاد.

تحدثت إلى مجموعة من الشباب والشابات في لندن، بمن في ذلك مجموعات مراهقة أعدت مقاطع فيديو توضيحية مثيرة حول "غسيل الدماغ" والإقناع الخفي،[1] واكتشفت أنهم ينظرون إلى القوى المحيطة بهم، سواء داخل أو خارج الإنترنت، وكيفية تأثيرها على حياتهم وأنشطتهم اليومية، ويطرحون تساؤلات حول أسباب انغماسهم الذاتي في مجالات الموضة وألعاب الفيديو والموسيقى، وحتى الدردشة اللانهائية عبر الإنترنت. لاحظت اهتمامهم الشديد بجاذبية التواصل الاجتماعي المستمر عبر الإنترنت والآثار السلبية التي قد تأتي معها من خلال الاستخدام المفرط للكمبيوترات. أشار بعضهم إلى شعورهم بالإدمان، مشبّهين أنفسهم بالفراشات التي تجذبها الشمعة، عند استخدامهم منصات مثل فايسبوك أو إنستغرام أو يوتيوب أو تيكتوك أو غيرها، فيُحاصَرون بالإشعارات التي يتلقونها باستمرار ويُراقبون عدد الإعجابات (likes) التي تحصل صورهم عليها.

---

١ للحصول على مقاطع فيديو للمراهقين عن غسيل الدماغ، انظر إلى:

www.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/outreach/.

Daniel Pick, Mary-Clare Hallsworth and Sarah Marks, 'Hidden Persuaders on Film: Exploring Young People's Lived Experience Through Visual Essays', *Research for All*, 5:2 (2021), 382–99, www.scienceopen.com/hosted-document?doi=10.14324/RFA.05.2.13.

في شعورهم بالاضطراب من سلوكهم الخاص، كانوا بالتأكيد يمثلون الملايين، كباراً وصغاراً، ممّن يعانون المشكلة ذاتَها. كانوا يحاولون فهم الدرجة التي توفرها هذه المنصات من فرص للحرية والاتصال والتواصل والتعبير عن الذات؛ ومع ذلك، هناك فخاخ كبيرة تتربص في هذه المنصات فتقوم بطريقة أو بأخرى بغسل أدمغة المستخدمين والتأثير فيهم. يدرك هؤلاء الشبان والشابات استغلال عواطفهم من خلال استخدام رغبتهم الإنسانية في التعرف والمودة والإعجاب عبر هذه المنصات، وليس هذا فقط، بل تشجع المنصات على مشاعر السعادة والكراهية والانغماس في المواضيع الفاضحة لتحقيق أرباح مستمرة من خلال استمرار استغلال المستخدمين على الإنترنت. كان الشبان والشابات يطرحون أسئلة موجهة بشأن وسائل هذه المقامرة اليومية ودوافعها وأسبابها وعواقبها، وطبيعة الرأسمالية الرقمية التي تستفيد منهم في استخدامهم المنصات. يمكن أن يشعر هؤلاء المراهقون في كثير من الأحيان، أو أن يكونوا على يقين كامل، بأنهم قد تمسكوا افتراضياً بهذا العالم، تماماً كما قد رأت الأجيال السابقة نفسَها مادةً تستغلها صناعة الإعلان بعد الحرب.

صُمّمت الموارد الإلكترونية أو البرمجيات بدقة لتكون ليس فقط مريحة وتحتوي على أدوات إبداعية، وإنما أيضاً لتكون إدمانيةً على نحو كبير. صُنعت لجمع بيانات مستخدميها واستغلال فضولهم ووقتهم وعواطفهم ورغباتهم الإنسانية في الحب. يتم تحسين الإعداد باستمرار لجعل هذه الموارد أكثر إغراءً وصعوبةً في التخلي عنها، حتى إن لم يكن هناك من يجبرنا على أن نبقى متسمرين أمامها. إنها مصممة بشكل يجذب رغبتنا في التواصل مع الأصدقاء، واكتشاف ما يحدث عندما نجرؤ على مشاركة أفكارنا في العالم ومن سيستجيب لتلك الأفكار وبأي عدد. وفي بعض الأحيان، يُستغل المستخدمون عبر الموارد الرقمية من خلال توجيههم نحو محتوى يثير أفكارهم السوداوية أو يشجعهم على السلوكيات الضارة لهم وللآخرين. تتضمن هذه الاستغلالات التمتع بمشاهد العنف والتحريض على الأفعال الضارة، وتشجيع استثمار الخيالات المؤامرية التي تحمل أهدافاً مشبوهة. تحدث هؤلاء المراهقون بصورة رائعة عن كيفية التأثير عليهم بالخديعة، وعلى الرغم من ذلك، كانوا يعلمون

بما فيه الكفاية أن الاهتمام الذي نمنحه جميعاً وتفاعلاتنا المتواصلة هما المنتج الرئيسي بحد ذاته: ذلك البُعد الناشب للتأثير فينا، الذي يُباع من شركات البيانات إلى الإعلانيين. نحن هم البيانات التي تُولِّد ثروات لا تُحصى للشركات التكنولوجية الضخمة. لم يكن لدى تلك الطلاب أي شك في أن الحياة الرقمية هنا موجودة للبقاء الدائم، ولكنها تحتاج أيضاً إلى إصلاح جذري.

لا يمكن لأي شخص أن يظل غير متأثر بتأثيرات وأشكال الإقناع المتنوعة التي تصلنا على مدار الأشهر والسنوات. السؤال هو: من الفئة العمرية الأكثر عرضةً للتأثير في الوقت الحالي، سواء عبر الإنترنت أو في الحياة اليومية؟ هل هم المراهقون الذين يتقنون التكنولوجيا، أم الآباء والأجداد؟ أم حتى الأطفال قبل سن المراهقة الذين يتعرضون بشكل كبير للإعلانات؟ (هل هؤلاء هم الجيل القادم الذي سيكون مستعداً للسوق؟). تحدث هؤلاء الطلاب في المدرسة ببراعة عن محاولاتهم لبناء هوياتهم، وإيجاد إحساس بالذات، وتأسيس معتقداتهم وقناعاتهم وقيمهم الخاصة، ووسائل مقاومتهم للمغريات، وذلك في إطار عالم متخلف بدرجة كبيرة من عدم الاستقرار، عالم يحدث فيه تدفق كثيف من الرسائل والإعلانات، وتوجيهات الإعلانات، وأشكال جديدة من التشهير العام، وذلك بدلاً من أساليب إذلال وتعذيب سابقة مثل الأعمدة الخشبية والأدوات القديمة التي استُخدمت لعقوبة الجناة في العصور السابقة. ليس من المستغرب أن يتزايد الضغط لإقرار حقنا في النسيان، حق امتلاك و/أو حذف بياناتنا على الإنترنت، وللاستجابة بفعالية لخطابات الكراهية، والهجمات الإلكترونية المنظمة، والأخبار الكاذبة، ولتفكيك شركات الاحتكار في السوق.

بعد محادثاتي مع المراهقين، اعترف معظمهم بأن لديهم بعض القدرة والمسؤولية، لكنهم عبّروا أيضاً عن الشعور بالقوى الافتراضية الغامضة التي تؤثر جداً في حياتهم. ورغم ذلك، قدموا اقتراحات حول كيفية جعلنا جميعاً لاعبين نشطين وليس مجرّد متلقّين سلبيين، فنشارك ونتفاعل بصورة أكبر. نحن نعيش في عالم يمكننا فيه بسهولة تحقيق رغباتنا لسماع ما نريد فقط، والعيش في بيئات مغلقة حيث يُقدم لنا، إذا اخترنا ذلك، فقط الأخبار التي تتوافق مع معتقداتنا وميولنا، دون

أن نتعرض لوجهات نظر أو حقائق قد تتعارض مع تفكيرنا.

بعض الأفراد في هذه الفئات العمرية تصوروا حياة الألفية الجديدة وسط إمكانيات هجينة متزايدة، فيندمج الذكاء الاصطناعي (AI) والتكنولوجيا الحيوية (biotech) والكائنات البشرية على نطاق أكبر. توقعوا بيئة تُدرَج فيها رقائق إلكترونية في أدمغتنا، إذ تعرف الخوارزمية رغباتنا بصورة أفضل منّا أنفسنا. باختصار، هذه التطورات، التي وصفها مؤرخو المستقبل، مثل يوفال نوح هاراري Yuval Noah Harari، تظهر الاتجاه الذي يأخذه التطور البشري نحو المستقبل.[١]

ليس من الغريب أن يكون لدى هؤلاء المراهقين ردود فعل فورية وقوية تجاه مصطلح "غسيل الدماغ". يحمل هذا المصطلح معاني جديدة في عالمهم. إنه مفهوم تعرضوا له بأشكال مختلفة، على الرغم من أنهم وُلدوا بعد المرحلة التي ظهر فيها هذا المصطلح، وهي مرحلة الحرب الباردة التي انتهت رسمياً.

***

أصبحت فكرة غسيل الدماغ، بعد الحرب وفي مرحلة ما بعد الحرب، مفهوماً جاهزاً للاستخدام في المغامرات وقصص التجسس والمآسي والكوميديا والدراما العائلية وعلى نطاق لا ينتهي من الرسوم المتحركة الشهيرة. في الواقع، حتى قبل انطلاق الحرب الباردة وصياغة هذا المصطلح، كانت قصص المؤامرات الشريرة الفاشية أو الستالينية أو الرأسمالية للسيطرة على عقول العالم، جزءاً منتشراً في القصص والأفلام. على سبيل المثال، يُظهر أحد أعمال أدب الترفيه والتشويق في أميركا في الثلاثينيات عنواناً معبّراً وهو *The Affair of the Brains* [قضية العقول]، فيصوِّر صراعاً مستقبلياً بين كوكبين، وتظهر من خلاله شخصية طاغية "شرقية" شيطانية أو عبقرية شريرة تُدعى كو سوي Ku Sui، وشخصية أخرى لبطل يشبه راعي البقر الأميركي هوك كارسي Hawk Carse، ويتعيَّن عليهما أن يتصارعا حتى

1 Yuval Noah Harari, *Homo Deus: A Brief History of Tomorrow* (London, 2016); and idem, *21 Lessons for the 21st Century* (London, 2019).

الموت. في هذه المغامرة، يقوم كو سوي بخطف أشهر العلماء الذين يمكن العثور عليهم، واستخراج أدمغتهم، ووضعها في أحواض، ثم يبقي المادة الرمادية على قيد الحياة ويربطها ببعضها ليخلق نظاماً دماغياً كبيراً تحت سيطرة هذا الطامح ليكون ديكتاتوراً عالمياً.[1]

غالباً ما جعلت الكتب الكوميدية والرسوم المتحركة شخصياتها الرئيسية تتنقل داخل أقفاص سياسية وحالات نفسية من الإرهاب الشمولي وخارجها؛ فكّر مثلاً في دونالد داك Donald Duck، في إنتاجٍ مضاد للنازية من عام ١٩٤٣ بعنوان "Der Fuehrer's Face" [وجه القائد]، حيث يستيقظ دونالد في أرض تمتلئ بالكوابيس والعمل الآلي المتواصل، وفي مجتمع يتكون سكانه من أشرار قاسِين وحشيين، فيتحتّم عليه أن يسير بخطوات متساوية كسير العسكر، قبل أن يستيقظ مرةً أخرى براحة فائضة تحيط سريره الخاص في بيته، ليسير كما يريد ويفكر في ما يشاء على أرض الحرية. كما يمكن لأفلام الكرتون أن تنبّه المشاهدين إلى سحر الرأسمالية: كما الحال في رسوم متحركة سوفياتية منتَجة في عام ١٩٤٩ بنمط ديزني مضاد للغرب تحت عنوان "Stranger's Voice" [صوت الغريب]، إذ حذرت الشعب الروسي الصالح من تأثير موسيقى الجاز الغربية الفاسدة، وهي موسيقى يُزعَم أنها تُفسد النفس في حين أن مستوطنة متناغمة من الطيور الرائعة تمثّل قلب البلاد الشيوعية؛ فما على هذه الطيور سوى صم آذانها كي تنجو من الصخب السام (الأميركي).[2]

في وقت لاحق في الغرب، وبفضل ديزني، ظهرت الصورة المذهلة للثعبان كاه Kaa وهو يغنّي بلحن هادئ "Trust in me" [توكّل عليّ]، متسللاً بطريقة لا تُقاوَم

---

١ ظهرت قصة *The Affair of the Brains* في مجلة أميركية شهيرة *Astounding Stories* عام ١٩٣٢. كتبها H. G. Bates، الكاتب والمحرر الخيالي العلمي، الذي اعتمد أسماء مستعارة مختلفة، بما في ذلك Anthony Gilmore. أدرجت القصة أيضاً في كتاب بعنوان:

Space Hawk: The Greatest of Interplanetary Adventurers (New York, 1952).

2 *Der Fuehrer's Face* (1943) can be located on YouTube, as can *Stranger's Voice* (1949), www.youtube.com/watch?v=gzScYtmg0yY.

للسياق، راجع التالي:

Ülo Pikkov, 'On the Topics and Style of Soviet Animated Films', *Baltic Screen Media Review*, 4 (2016), 16–37, content.sciendo.com/view/journals/bsmr/4/1/article-p16.xml.

تقريباً إلى عقل ماوكلي Mowgli، في النسخة السينمائية الساحرة لعام ١٩٦٧ من كتاب *The Jungle Book* [**كتاب الأدغال**]. في العام نفسه، استمتع الجمهور أيضاً بمشهد تحول توم Tom وجيري Jerry إلى آليّين وهما يرتديان خوذتَين تتحكم في العقل، وذلك في حلقة بعنوان "Advance and Be Mechanized" [التقدم والتحول إلى آلي]. يمكن أن تثير الرسائل الخفية المفهومة في مثل هذه الرسوم المتحركة، حديثة كانت أم قديمة، اتهامات بتأثير غسيل الدماغ. عندما ظهرت نسخة سينمائية من قصة الدكتور سوس Seuss وهي *The Lorax* [لوراكس] في عام ٢٠١٢، حذّر مقدّم الأخبار في محطة *Fox News*، لو دوبس Lou Dobbs، مشاهديه من إمكانية تأثير غسيل الدماغ لمثل هذه الإنتاجات المفترضة اليسارية، التي رأى أنها تهدف إلى إثارة استياء الجمهور بصورة غير ضرورية من خلال تسليط الضوء على كارثة المناخ. هناك شخص آخر هو زميل لدوبس، إريك بولينج Eric Bolling، أبدى رأيه أيضاً بشأن الرسالة السرية لغسيل الدماغ في فيلم الدمى "Muppets" [مبتس] لعام ٢٠١١، الذي يسيء لمسؤول تنفيذي في مجال النفط يُدعى تكس ريتشمان[1] Tex Richman.

في حلقة "The Joy of Sect" [فرحة الفرقة] من مسلسل الرسوم المتحركة المبدع للغاية "The Simpsons" [السيمبسونز] الذي أُنتج لـFox Broadcasting Company في عام ١٩٩٨، يشارك هومر سيمبسون Homer Simpson في دورة تدريبية مجانية تُقدمها جماعة دينية مؤثرة تُدعى "The Movementarians" [الحركيون] التي تؤمّن للمتدربين مكاناً للإقامة المجانية أيضاً. ينجذب هومر إلى هذه الجماعة سريعاً. بعد ذلك، يبدأ في تكرار اسم زعيم الجماعة تماماً كالببغاء. يمارس الزعيم تأثيره على هومر تماماً، ويقتنع هومر سريعاً، لدرجة أنه يبيع أصول عائلته. يترك هومر عائلته ويشعر بالرضا أثناء العمل في الأراضي والزراعة خدمةً للجماعة، وفي هذه الأثناء يقود مسؤول الجماعة، الذي لديه القليل من السلطة والتأثير، سيارة رولز رويس في هذه الإمبراطورية الصغيرة، ويرش الغبار على أتباعه المبتهجين والمذلولين.

1 Ben Child, 'Fox host Lou Dobbs slams Arrietty and The Lorax for "liberal agenda"', *Guardian*, 23 February 2012, www.theguardian.com/film/2012/feb/23/fox-lou-dobbs-lorax-liberal-agenda.

في النهاية، تُنقذ مارج Marge، زوجة هومر، هومر ويُلمّ شمل الأسرة ويعودون إلى مدينتهم سبرينغفيلد ليستأنفوا حياتهم اليومية. على الرغم من "التحرير"، يعود هومر إلى العمل في محطة الطاقة النووية التي يديرها الفتى الشرير السيد بيرنز Mr Burns في اليوم التالي.

تسخر الرسوم المتحركة من شبكة Fox، مما يشجع المشاهدين على التفكير وربما يحثّهم على طرح أسئلة أكثر جدية حول عمليات غسيل الدماغ. وعلى الرغم من إنتاج الشركة لبرنامج "The Simpsons"، فهي في الوقت نفسه تنتج لشبكة Fox News، التي تُعرف لدى نصف الأمة على الأقل بأنها مصدر للدعاية السيئة والتلاعب.

تُعَدّ الموسيقى الشعبية وسيلةً أخرى يمكن استخدامها للتأمل في مظاهر غسيل الدماغ، أو حتى لتحقيق عملية التعافي منه. هذا ما أشارت إليه غريس جونز Grace Jones في أغنيتها "Living My Life" [أعيش حياتي] التي صدرت في عام ١٩٨٣.[1] عبرت جونز بصراحة عن جهودها الشخصية في الابتعاد عن عمليات غسيل الدماغ التي تعرضت لها، فالعنصرية والتمييز بسبب الجنس والتعصب الديني اجتاحتها كما قالت، وأضافت إلى أنها كانت "مغسولة دماغياً بواسطة هذا الجحيم واللعنة".[2] وغالباً ما تُعدّ الموسيقى أيضاً وسيلةً يمكن استغلالها في عمليات غسيل الدماغ، إذ إن نبضات موسيقية متكررة تترافق مع ضجيج صاخب تُستخدم في أنظمة العقوبة والتعذيب الحديثة القاسية وسيلةً لتعنيف الأشخاص المحتجزين. إنها "الموسيقى" التي لا يمكن للسجين إيقافها، إذ تحمل صوتاً يسبّب انزعاجاً شديداً سواء من ناحية الصوت العالي أو من خلال الكلمات المستخدمة. تُستغل الاهتزازات الناجمة عنها كوسيلة للتأثير على العقول، وإضعاف مقاومة الشخص، وحتى الدفع نحو الانهيار، وهذا بدوره يساعد المحققين وأولئك الذين يقومون بعمليات غسيل الدماغ على

1 'Living My Life – Lyrics', genius.com, genius.com/Grace-jones-living-my-life-lyrics.

2 Jones remarked in an interview, 'there were ways of escaping the brainwashing but not for long'. Quoted in Grace Jones and Paul Morley, *I'll Never Write My Memoirs* (New York, 2015), p. 38.

استغلال هذه الحالات للتلاعب بالأفراد أو إقناعهم بأفكار معيّنة.[١] يمكن أن يجد الضحايا أنفسهم محاصرين في بيئة مليئة بالضجيج الذي لا يُحتمل وحتى في حالات من الصمت المرعب.

قد تكون الموسيقى وسيلةً لجذب الجماهير أو أسرها في الأحداث الدينية أو الاجتماعية أو السياسية. يمكن أن تكون مصدراً لهلع أخلاقي غير عادي، إذ يحذّر بعض الأشخاص من الأهداف الخفية للفرق الموسيقية الشهيرة أو الرسائل المستترة في الأغاني التي قد تبدو غير ضارة.[٢] خلال ستينيات القرن العشرين، حذّر رجال الدين المسيحيون اليمينيون في الولايات المتحدة من أن فرقة Beatles كانت تعبث جداً بالشباب بما خص مسألة جنسهم، وهي تصل إلى حد غسل دماغهم في النهاية، وقيل أيضاً إن الموسيقيين من ليفربول كانوا جزءاً من مشروع تآمر شيوعي دولي. وبالرغم من هذه الصور لـ"البيتلز الحمر" (the Red Beatles)، لاحظ آخرون كيف استخدم الشبان الروس أغاني البيتلز في تعبيرهم عن انتقاداتهم للشيوعية، كما ادعوا أن هستيريا البيتلمانيا (Beatlemania) قد غسلت أسس المجتمع السوفياتي.[٣]

---

1 Clive Stafford Smith, 'Welcome to "the disco"', *Guardian*, 19 June 2008, www.theguardian.com/world/2008/jun/19/usa.guantanamo. Cf. Morag Josephine Grant and Anna Papaeti, 'Introduction', *The World of Music*, special issue on *Music and Torture*, 2:1 (2013), 5–7.

٢ في قضية James Vance ضد Judas Priest عام ١٩٩٠، اتُّهمت الفرقة بتضمين رسائل دعائية دون وعي في تسجيلها لأغنية "Better by You, Better than Me" عام ١٩٧٨. زُعم أن هذا التسجيل قد ألهم المراهقَين James Vance وRay Belknap على محاولة الانتحار في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥. (نجح الأخير، بينما تُرك الأول مشوهاً بشكل دائم وتوفي بعد ثلاث سنوات). خلص القاضي إلى عدم قدرة تحميل الفرقة المسؤولية عن ذلك. للمزيد انظر إلى:

Dominic Streatfeild, *Brainwash: The Secret History of Mind Control* (London, 2007), pp. 178–218.

Kory Grow, 'Judas Priest's Subliminal Message Trial: Rob Halford Looks Back', *Rolling Stone*, 24 August 2015, www.rollingstone.com/music/music-features/judas-priests-subliminal-message-trial-rob-halford-looks-back-57552/.

انظر أيضاً إلى:

James Kennaway, *Bad Vibrations: The History of the Idea of Music as a Cause of Disease* (Abingdon, 2012).

3 Randall Stephens, *The Devil's Music: How Christians Inspired, Condemned, and Embraced Rock 'N' Roll* (Cambridge, MA, 2018), especially the Introduction and Chapter 3.

يمكن الرجوع أيضاً إلى:

فيما كانت الاتهامات تتطاير، كانت وكالة الاستخبارات المركزية مشغولةً بنشاط يتعلق باستخدام الموسيقى والفنون والرسائل للترويج لمصالح الغرب ومثله العليا وبث صور لمجتمع حر وراء الستار الحديدي؛ وكان لدى الدولة السوفياتية أيضاً سفراؤها الثقافيون، من المفكرين والفنانين المختلفين، يعملون أبواقاً إعلاميّة لنشر الثقافة السوفياتية وصور مختلفة لمجتمعهم.[1]

لم تمارس فرقة البيتلز غسيل الدماغ، ولم تفعل ما يطلبه آخرون منها بصورة عمياء، ولكن تأثيرها الشعبي الضخم، والاستجابة الجنونية من بعض معجبيها، دفعا بعض النقاد المحافظين للتعامل معها بهذه الطريقة. فقد قدمت الفرقة الفكاهة الخاصة بها، والتعليقات الساخرة، والأساليب الموسيقية التجريبية، والشخصيات المتغيرة، والكلمات التي استكشفت أفكاراً مثيرةً حول التوافق الاجتماعي والوعي والثورة. ألبوم جورج هاريسون George Harrison الصادر بعد وفاته في عام ٢٠٠٢، الذي يحمل عنوان "Brainwashed"، يتحدث في أغنيته الرئيسية عن كيفية غسيل دماغنا من خلال الطفولة والمدرسة والمعلمين والقوانين والقادة والملوك والملكات والله، ومؤشرات Nikkei وDow Jones وFTSE وNasdaq.

ربما لن نعلم أبداً بالضبط ما الذي دفع إلفيس بريسلي Elvis Presley لتقديم خدماته لحكومة الولايات المتحدة لمواجهة الأزمة الأخلاقية التي أصابت الجيل التالي. بمطلق الأحوال، أتت مبادرته تقريباً بعدما هاجم نائب الرئيس الجمهوري سبيرو أغنيو Spiro Agnew مباشرةً البيتلز وثقافة المخدرات في الستينيات التي أصر أغنيو على أنها تغسل بوضوح عقول الشبان.[2] بريسلي، كما حدث مع فرقة الـFab Four، أثار جدلاً حول تأثيره الساحر على الشباب، إذ اعتبر بعض الناس أن

Ed Vulliamy, 'For young Soviets, the Beatles were a first, mutinous rip in the iron curtain', *Observer*, 20 April 2013, www.theguardian.com/music/2013/apr/20/beatles-soviet-union-first-rip-iron-curtain; and Lily Ford's 2021 short film, *The Stuff that Screams are Made of*, www7.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/documentaries/three-films-about-mass-influence-by-lily-ford.

1 Frances Stonor Saunders, *Who Paid the Piper? The CIA and the Cultural Cold War* (London, 1999).

2 Josh Ozersky, *Archie Bunker's America: TV in an Era of Change, 1968–1978* (Carbondale, 2003), p. 60.

نمطه الموسيقي ومظهره وشكل شعره وحتى حركات جسده هي المسؤولة عن توجيه الشباب نحو الهوة، وكأنه كان يقودهم إلى الهيستيريا في عربة لا يمكن التحكم فيها. ولكن بريسلي لم يقبل ذلك بأي حال من الأحوال، فقرر قبل أيام قليلة من احتفال عيد الميلاد في عام ١٩٧٠ أن يتوجه نحو أبواب البيت الأبيض بسيارته. كان يحمل معه رسالةً مكتوبةً بخط يد موجهة إلى ريتشارد نيكسون Richard Nixon. في تلك الرسالة، شرح كيف أجرى هذا المغني "دراسة عميقة حول سوء استخدام المخدرات وتقنيات غسيل الدماغ الشيوعية"، وأعرب عن رغبته القوية في أن يُعيَّن من الرئيس نيكسون وكيلاً فيدرالياً على نطاق واسع، بهدف استخدام مهاراته في التواصل من أجل حماية الشباب الأميركي من جميع هذه المخاطر الحديثة.[1]

عندما التقى بريسلي بنيكسون (وكوفئ بالفعل بهذا الدور كوكيل خاص، أقلّه على الورق)، كان مصطلح "غسيل الدماغ" قد بلغ العشرين عاماً؛ أصبح بحلول ذلك الوقت المصطلح المتعارف عليه للإشارة إلى كل ما يعارض القيم التقليدية واستقرار المجتمع الغربي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ كان هذا المصطلح يُطلَق على الأنظمة السياسية كالستالينية (Stalinism) والماوية (Maoism) والنيونازية (Neo–Nazism)، وكذلك على الأيديولوجيات الدينية المتطرفة والعِصبات والشعبويين وثقافة العداء للتيار السائد والظواهر الهذيانية والشعور العام بعدم الراحة لدى المراهقين. إن المثير في السياق الحالي هو استمرار استخدام هذا المصطلح؛ يستخدم الناس اليوم "غسيل الدماغ" للحديث عن مواضيع مختلفة مثل إنكار تغيّر المناخ أو مثل الظواهر السياسية الحديثة كالترامبية (Trumpism) والبوتينية (Putinism) والإرهاب، مما يُظهر تحولاً في استخدام المصطلح ليشمل القضايا السياسية والاجتماعية المعاصرة، وكذلك الاستشهاد بتاريخ الفاشية والنازية والستالينية لفهم الظواهر السياسية الحالية. قد يصادف الطلاب الذين التقيت بهم

1 Olivia Waxman, 'The Story Behind That Famous Photograph of Elvis and Richard Nixon', *Time*, 15 August 2017, time.com/4894301/elvis-president-nixon-photo/.
للحصول على نص الرسالة، يمكن الاطلاع على الموقع التالي:
www.archives.gov/exhibits/nixon-met-elvis/assets/doc_1.1_transcript.html.

في لندن فكرة غسيل الدماغ بسهولة في الدراسات الدينية والتاريخ والسياسة وعلم النفس، كما يمكن أن يتعرضوا لها في فنون الـpop وألعاب الفيديو وفي الأدب الذي يؤلَّف بتوجيه وتمويل مباشر من الحكومة نفسها، وذلك بهدف محاولة منع "التطرف" المستقبلي. إن مفهوم غسيل الدماغ يظهر في تفسير الكوارث المحلية والألغاز البعيدة، مثل سبب بكاء الجموع عند رؤية "الزعيم العزيز" في بيونغيانغ؛ ويظهر في التحليلات النفسية لسبب تمسك بعض النساء بشركائهن العنيفين لسنوات؛ وفي النظريات السوسيولوجية حول تأثير الإعلانات الرقمية؛ وفي الاستنتاجات السياسية المحافظة التي تنفي حملة التغيير المناخي بقيادة غريتا تونبرج Greta Thunberg، المفترض أنها الشابة الضحية لغسيل دماغ من والديها.

باختصار، توجد قصص متنوعة حول عمليات غسيل الدماغ؛ تتعلق بالقادة والمتابعين، وبجرائم صغيرة وكبيرة، وأفعال القتل الجماعي والتدمير الذاتي. يجب علينا جميعاً تقييم الطرق المختلفة التي يُستخدم من خلالها غسيل الدماغ في الجدال أو النداءات أو الشكوك وتحديد مقدار المصداقية الذي يجب منحه للادعاءات في وسائل الإعلام. في حديث مع مارتن تشولوف Martin Chulov، الكاتب المميز والمتخصص في شؤون الشرق الأوسط، الذي يعمل مراسلاً لصحيفة *The Guardian*، ادّعت والدة أسامة بن لادن أن ابنها الخجول والذكي تحول بصورة فجائية ومحيّرة، بفضل معلمين خبيثين، إلى شخص آخر، وقالت إنه عندما كان أسامة في أوائل عشريناته، أصبح أكثر تديناً واندفاعاً. أصرت الوالدة على أن ابنها قد ضلّ في مرحلة دراسته للاقتصاد في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، موضحةً أنه هنا، في هذا المكان بالذات، تم "غسل دماغه" للمرة الأولى.[1]

---

١ مقال Martin Chulov بعنوان:

My son, Osama: the al-Qaida leader's mother speaks for the first time

نشر في جريدة *Guardian* في ٣ آب/ أغسطس ٢٠١٨، ويمكن الوصول إليه عبر الرابط:

www.theguardian.com/world/2018/aug/03/osama-bin-laden-mother-speaks-out-family-interview

لاحظ Chulov أن المقابلة مع والدة أسامة بن لادن تمت بموافقة السلطات السعودية. قالت والدة أسامة بن لادن: "الأشخاص في الجامعة هم من غيروا طبيعته". وصفت ابنها بأنه "كان طفلاً جيداً جداً حتى التقى ببعض الأشخاص الذين قاموا بعملية غسيل دماغ له تقريباً... يمكنك أن

انبثق مصطلح "غسيل الدماغ" ليمتد ويشمل ليس فقط الشخصيات البارزة مثل بن لادن، بل ليشرح أيضاً سلوك أتباع معسكر بن لادن في حركته المتشددة، وكذلك سلوك منافسهم، تنظيم الدولة الإسلامية. ومع ذلك، هل يكون مصطلح "غسيل الدماغ" تفسيراً كافياً للأسباب الفعلية التي دفعت العديد من الأشخاص إلى الانضمام إلى هذه القضايا؟ أم أنه لا يزيدنا إلّا حكمةً حول كيفية التعامل الأمثل مع التهديدات التي تشكلها هذه الحركات على الديموقراطيات، وإلى أي مدى يجب معاقبة الأتباع، وهل يجب تقديم علاج نفسي موجه نحو إعادة التأهيل؟ تجسد الشابة شميمة بيغوم Shamima Begum هذا الصراع وتثير منه جدالاً حاداً؛ في شباط/ فبراير ٢٠١٥، تركت منزلها في المملكة المتحدة ووالدَيها، وهما من أصل بنغلاديشي، لتسافر إلى تركيا برفقة زميلتين من مدرستها في شرق لندن، ثم إلى سوريا للانضمام إلى "الدولة الإسلامية". وجدت نفسها في نهاية المطاف مشوشةً في مخيم للاجئين بعد هزيمة "الدولة الإسلامية" على يد قوات البيشمركة الكردية بدعم من الولايات المتحدة، وسعت بعد ذلك للعودة إلى المملكة المتحدة.

في عام ٢٠١٩، قرر وزير الداخلية البريطاني المحافظ، ساجد جاويد Sajid Javid، عدم السماح لشميمة، بأي شكل من الأشكال، بالعودة إلى المملكة المتحدة.[١] استمر هذا الحظر رغم صغر سنها عند مغادرتها البلاد، ورغم المصاعب الشخصية التي واجهتها، ولا سيما حزنها على وفاة ثلاثة من أطفالها الرضّع، ونداءاتها اليائسة المتتالية للسماح لها بالعودة. ترك هذا القرار حالةً من عدم الانتماء لها، رغم تصريحات الحكومة اللامبالية بأنه يمكنها العودة إلى بنغلاديش.[٢] ما قد يكون

تسميها عصبة. كانوا يحصلون على أموال لقضيتهم. كنت دائماً أطلب منه أن يبتعد عنهم، ولكنه لم يعترف لي قطّ بما كان يفعله، لأنه كان يحبني كثيراً".

١ بعض كتّاب الأعمدة حثّوا السلطات البريطانية على إظهار استجابة متسامحة تجاه وضع شميمة؛ في حين وافق آخرون وحتى احتفلوا برفض الحكومة السماح لها بالعودة إلى المملكة المتحدة. راجع على سبيل المثال المقال التالي:

Allison Pearson, 'Sorry my heartless little jihadi bride, but you made your bed and now you can lie in it', *Daily Telegraph*, 14 February 2019, www.telegraph.co.uk/news/2019/14/02/sorry-heartless-little-jihadi-bride-made-bed-now-can-lie/.

٢ بعض المسؤولين البريطانيين قالوا إن شخصاً يُدعى Shamima Begum يمكنه أن يحصل على الجنسية البنغلاديشية. لكن يبدو أنهم لم يتحدثوا مع السلطات المهمة في بنغلاديش قبل الإعلان

حقاً دفعها لمغادرة المملكة المتحدة أو لاحتضان هذه القضية المتشددة، طُمس في عناوين الأخبار الغاضبة، مع الكثير من الحديث عن خطورتها طوال حياتها وعن تأثير غسيل الدماغ الذي تعرضت له من المتشددين، ووجود ارتباك معيّن حول ما إذا كان غسيل الدماغ يبرر العفو عنها بأي حال أم لا.

رغم رغبتها في العودة إلى بريطانيا، استمرت شميمة في محاولة تبرير بعض أفعال تنظيم الدولة الإسلامية، مع إشارتها أيضاً إلى أن حالتها العقلية ليست سليمةً تماماً. في تقرير نُشر في صحيفة *The Times*، نقلت شميمة توسلها: "تم غسل دماغي. لم أكن أعلم بشيء".[1] أظهرت حالتها أن الضحايا والجناة ليسوا دائماً في مسار منفصل، فغالبا ما يُعتبر الضحية جانياً أيضاً. سواء كانت مغسولة دماغياً أم لا، تعيش هي في منطقة مظلمة من اليأس، ومع ذلك تستمر في الدعوة للحصول على حق العودة إلى المملكة المتحدة من خلال الطرق القانونية. على الجانب الآخر، عاد بعض الأشخاص الأكثر حظاً والأقل ظهوراً منها إلى بريطانيا من سوريا، رغم أنهم في كثير من الأحيان يعودون ليواجهوا صعوبات شخصيةً خطِرةً واستهانةً اجتماعية شديدة، سواء داخل المجتمعات التي كانوا ينتمون إليها سابقاً، أو في المجتمع العام الأوسع. استطاع بعض العائدين الاندماج في برامج علاجية نفسية تقدمها هيئة الخدمات الصحية الوطنية في بريطانيا، وذلك بالرغم من بعض المعارضة من وسائل الإعلام، واحتجاجات وسائل التواصل الاجتماعي، وحتى تقديم عريضة عامة (غير مجدية) لإنهاء مثل هذه الخدمات.[2]

يمكن استخدام مصطلح "غسيل الدماغ" للإشارة إلى تشخيص أو اتهام، وأحياناً حتى اعتذار. يمكن استخدامه جدلياً في حجج قانونية مرموقة لمساعدة المدعى

عن ذلك، فإذا ذهبت Shamima إلى بنغلاديش، كان من المعتقد أنها قد تواجه مشكلات خطِرة هناك وقد تتعرض لعقوبات قانونية شديدة، وربما حتى عقوبة الإعدام. راجع التالي:

'Shamima Begum: IS bride "would face death penalty in Bangladesh"', BBC News, 3 May 2019, www.bbc.co.uk/news/world-asia-48154781.

1 Anthony Lloyd, 'Shamima Begum: I was brainwashed. I knew nothing', *The Times*, 1 April 2019, www.thetimes.co.uk/article/isis-bride-shamima-begum-i-regret-everything-please-let-me-start-my-life-again-in-britain-9g0tn08vn.

2 petition.parliament.uk/archived/petitions/259723.

عليه في الدفاع ضد اتهامات سيقت إليه بالمسؤولية عن جرائم جماعية.[1] ظهر المصطلح إلى حد كبير في تقارير وسائل الإعلام حول بعض أصعب القضايا التي لفتت انتباه الجمهور، وتصدرت عناوين الصفحات في ستينيات القرن العشرين وما بعدها. تتم في هذا السياق دراسة الأشخاص الذين ارتكبوا جرائم قتل جماعية، مثل عصابة Manson (المعروفة أيضاً بـ"العائلة")، والقس جيم جونز Jim Jones، وتيد كازينسكي Ted Kaczynski، باستمرار من هذا الزاوية. من بين هذه القضايا، قد تكون قضية جونز الصادمة الأكثر بروزاً، إذ بلغت ذروتها في مأساة جونستاون عام ١٩٧٨، حين انتحر ٩٠٩ أشخاص (ثلثهم أطفال) في جويانا.[2] قيل أيضاً إن

---

1 Al Jazeera English, 'Dominic Ongwen ICC trial: Child victim or war criminal?', YouTube, 18 September 2018, www.youtube.com/watch?v=_Rh08MNlBXo&vl=en. Ongwen was found guilty by the ICC of crimes against humanity and war crimes in February 2021.
راجع الموقع التالي:

www.icc-cpi.int/Pages/item.aspx?name=pr1564.

٢ لقراءة حادثة جونستاون، راجع المقال التالي:

Jennie Rothenberg Gritz, 'Drinking the Kool-Aid: A Survivor Remembers Jim Jones', *Atlantic*, 18 November 2011, www.theatlantic.com/national/archive/201111//drinking-the-kool-aid-a-survivor-remembers-jim-jones/248723/.

بالنسبة إلى الرجل الذي عُرف في الصحافة بـTed Kaczynski، "Unabomber"، فقد قام بتجارب نفسية مختلفة نحو عام ١٩٥٩، عندما كان طالباً في جامعة هارفرد. كانت هذه التجارب من تصميم علماء نفس لاستكشاف، بين أمور أخرى، مقاومة استجواب العدّو. تعرّض هو وآخرون لاستجوابات "شديدة ومفرطة وشخصية"، إذ هاجم أفراد فريق البحث معتقدات الطلاب المشاركين، استناداً إلى مقالاتهم. وصف Kaczynski لاحقاً هذه التجارب بأنها مأسَوية، وأسوأ تجربة عاشها في حياته. خلال الستينيات، عاش في كوخ بإحدى الغابات البعيدة. في أواخر السبعينيات، بدأ بإرسال قنابل عبر البريد، واستمر في ذلك حتى عام ١٩٩٥، حين اعتُقل. يمكن الاطلاع على المزيد من التفاصيل في المقالين التاليين:

Alston Chase, 'Harvard and the Making of the Unabomber', *Atlantic*, June 2000, www.theatlantic.com/magazine/archive/2000/06/harvard-and-the-making-of-the-unabomber/378239/; Brian Dunleavy, 'Did Ted Kaczynski's Transformation Into the Unabomber Start at Harvard?', *History*, 25 May 2018, www.history.com/news/what-happened-to-the-unabomber-at-harvard.

هناك تحقيقات عدة نُشرت حول Manson والمجموعة التي تجمعت حوله في مزرعة مهملة في الستينيات، والجرائم التي ارتكبها أفراد المجموعة في لوس أنجلوس، بما في ذلك جريمة قتل Sharon Tate، زوجة المخرج السينمائي Roman Polanski، التي كانت حاملاً. أُثير حديثاً الاهتمام العام بعد إصدار فيلم لـQuentin Tarantino عام ٢٠١٩ بعنوان:

Once Upon a Time in Hollywood

الذين فارقوا الحياة خلال حصار واكو عام ١٩٩٣ في تكساس تعرضوا لغسيل دماغ من زعيمهم الكاريزمي، ويبدو أن قتل السلطات لـ٧٦ من أعضاء الطائفة المحاصرين وعائلاتهم كان أحد الأحداث الرئيسية التي أثارت غضب تيموثي مك فاي Timothy McVeigh، المحارب القديم في حرب الخليج والمتطرف المعادي للحكومة، فألهمه هذا الحدث لتفجير جهاز في مدينة أوكلاهوما عام ١٩٩٥ مما أسفر عن مقتل ١٦٨ شخصاً.[١]

بناءً على السياق الثقافي لعمليات غسيل الدماغ بعد الحرب العالمية الثانية والمناقشة السابقة له، واهتمامي ببحث هذا الكتاب، اندفعت للتأمل في تاريخ طب النفس والتحليل النفسي وعلم النفس خلال القرن العشرين. ترك تواصلي المتنوع مع المرضى والزملاء أثره على دراستي هذه، ومن ضمن تأثيراته تأكيدي على ضعف إمكانية كل الأفراد تجاه الإقناع القسري.[٢] يمكن أن يبحث المرضى عن المساعدة من خلال العلاج الحديث بحماسة وتقدير، سعياً لكسر الأنماط المتكررة والمعيقة. ومع ذلك، بغض النظر عن استعدادهم لأخذ العلاج، قد يشعرون بقلق عميق إزاء فقدان السيطرة على سلوكهم أو مشاعرهم؛ في بعض الأحيان قال لي بعض المرضى، أو حتى طلبوا مني أن أفكر في احتمالية وجود عمليات غسيل الدماغ داخل عملية التحليل النفسي التي أجريها لهم؛ يريدون مني أن أفكر في ما

يمكن الاطلاع على مقال يذكر هذه الجرائم ويشير إلى "غسيل الأدمغة" الذي قام به Manson لأتباعه في ما يلي:

Jennifer King, 'Charles Manson, the cult mastermind who brainwashed hippie youth to kill', *ABC News*, 20 November 2017, www.abc.net.au/news/2017-11-20/charles-manson-mastermind-of-murderous-cult-dead/8163390.

١ تبعت استنتاجات عدة حول هذا الإرهابي المحلي، ومنها بشكل بارز من [الكاتب] Gore Vidal، حول المؤامرات المحتملة والتستر وغسيل الأدمغة والتأثير المفترض لكتاب سيّئ السمعة يحتوي على تعليمات لصنع القنابل. يمكن الاطلاع في هذا السياق على المقال التالي:

Gore Vidal, 'The Meaning of Timothy McVeigh', *Vanity Fair*, 10 November 2008, www.vanityfair.com/news/2001/09/mcveigh200109.

٢ لحفظ سرية المرضى، فإن هذه الأمثلة القصيرة المستمدة من الخبرات السريرية لا تُصوَّر فرادى، بل هي مجموعات معبرة توضيحية. الهدف هنا هو مناقشة السمات العامة، وليس الحالات الفردية.

إذا كان العلاج قد يجبرهم على التفكير بطريقة معيّنة دون أن يدركوا ذلك، أو إذا كان العلاج مصمّماً لجعلهم يغيرون معتقداتهم.

يفقد المحللون دائماً القدرة على التواصل مع الحالة الاستقبالية والمفتوحة للعقل التي كان يرغب فرويد في أن يحتفظ بها أتباعه أثناء عملهم التحليلي، وهناك خطر، بلا شك، أن نصبح مؤثّرين ظاهرياً أو خفياً، أو معلّمين أخلاقيين، حتى دون وعي منّا بهذا. قد يرغب بعض المرضى في أن يقوم محلّلوهم النفسيون تجاههم بأدوار المدربين أو القضاة أو المستشارين أو حتى المحامين، وأن يوجهوهم وفقاً لذلك، ولكن حتى عندما نقوم نحن المحللين بأداء واجبنا صحيحاً وفقاً للطريقة التي أرادها فرويد، ونحافظ على الدور بفعالية، قد تنشأ لدى المرضى شكوك كبيرة حول طبيعة العملية. قد يعترض بعض المرضى من جهة إذا لم يدعم المحلل وجهة نظرهم، ومن جهة أخرى، قد يشعرون بعدم الرضا بالتأثير غير المرغوب فيه الذي تفرضه آراء المحلل عليهم والنبرة الانتقادية. في إطار الجلسة التحليلية، يمكن أن يشعر المريض بالارتياح والاضطراب في الوقت نفسه عند منحه شخصاً آخر إمكانية الوصول إلى أفكاره ومشاعره الحميمية إلى حد كبير. قد يشعر المريض أيضاً بأنه مُنح نوعاً من الامتياز من شخص آخر لمساعدته على تغيير حياته، ولكن هذا الوصول قد يثير أيضاً الخوف من أن يُسيطَر على المريض أو يتم التأثير عليه تأثيراً زائداً، وأن يصبح المريض معرّضاً للضعف والتأثير الخارجي بطريقة فائقة الحد. قد يدعي المريض، على سبيل المثال، أن المحلل النفسي يجعله يشعر بالذنب، وأنه ينتقده ويحفزه بلطف أو يسعى لتوجيه تصرفاته، أو يدعوه لاستكشاف قضية مؤلمة بعقل مفتوح. نحن جميعاً قد نتجاوب بالاستياء ونظهر ردود فعل دفاعية عندما يُثار موضوع صعب يشكل لنا تحدياً، أو عندما نشعر بأننا لسنا جاهزين بعد للتعامل مع موضوع كهذا. يمكن للمريض أن يكشف للمحلل العديد من الأمور. لقد اشتكى أحد المرضى لي، مرةً، بأن ما قلته له حول ما يحدث بيننا خلال الجلسة كان، كما صرّح، "يُعذّبه بقسوة". بعد ذلك، بدأ الشخص في إعادة النظر في مسؤولية أحد أفراد عائلته، الشخص X، وخصمه في العمل Y، في كل ما كان يواجهه من مشكلات كما ادّعى سابقاً، كما بدأ بالتشكيك في اعتقاده الأولي الذي يفترض أن توجيهاتي كانت "تفرض" عليه ما يجب فعله.

كان مهماً بالنسبة إليه أن يدرك أنني مستعد لاستكشاف فكرة أنني ربما كنت أضغط عليه بصورة مفرطة ليقبل وجهة نظري.

هناك مريض آخر عاش طفولة غير سعيدة للغاية، تحدث لي لمدة طويلة في يوم معيّن، ببعض الحماسة، عن طرق علاج سيئة من بعض المحللين النفسيين وأطباء النفس في الولايات المتحدة خلال الحرب الباردة. قرأ عن هذه الفضائح في المجلات، وكما أوضح على نحو صحيح، لم يكن ذلك النهج المثقَل بالضغوط مقتصراً فقط على ذلك الوقت والمكان.[١] أوضح أنه يتحدث عن علاجات التحوير المستهدفة للمرضى المثليين، وعن الأشخاص العنصريين والمتعصبين الذين يسعون لتحويل المرضى ليصبحوا غير مثليين جنسياً أحياناً من خلال نصائح صريحة أو توجيهات قمعية أو تشجيع قوي. أشار المريض إلى ممارسات التلاعب والتنمر التي يتم تفعيلها أحياناً من الكنائس والحركات العلمانية، وسألني، كأنه يفرض ضغطاً عليّ: "أين تقف بالضبط حيال كل ذلك؟". بدا كأنه يريد استخراج الكلمات مني لإجباري على الاعتراف بأني أمقت هذا أيضاً وأدينه، أو ربما للإعراب عن انفصالي الكلي عن هؤلاء الممارسين السيئين. "طلب" مني أن أعلمه "فوراً" بإجابة "نعم" أو "لا" دون تردد. كان متأكداً بما فيه الكفاية، حسب ما اعتقدت، من طريقة عملي حينذاك، لذا لم يكن هناك حاجة لإقناعه بنواياي الصادقة؛ بالفعل إذا كنت قد قلت فوراً أنني غير موافق على عمل المحللين، لكنت قد شعرت أنني أقول مجرد ما يريد هو أن أقول. بغض النظر عن أي شيء آخر قد يكون مرتبطاً بهذا الطلب، اعتقدت أنه لم يعبّر فقط عن آرائه النقدية تجاه تلك العلاجات، بل كان يعكس أيضاً معنى الضغط والاحتجاز والسيطرة. في الواقع، كان يخبرني عن شعوره في موقف الضحية لهذه

١ للاطلاع على استعراض نقدي لمثل هذه المناهج، يمكن الرجوع على سبيل المثال إلى مقال Stephen Mitchell التالي:

'The Psychoanalytic Treatment of Homosexuality: Some Technical Considerations', *Studies in Gender and Sexuality*, 3:1 (2002), 23–59;

يمكن الرجوع أيضاً إلى:

Dagmar Herzog, *Cold War Freud: Psychoanalysis in an Age of Catastrophes* (Cambridge, 2016). Cf. Naomi Richman, 'Homosexuality, Created Bodies, and Queer Fantasies in a Nigerian Deliverance Church', *Journal of Religion in Africa*, 50:2/3 (2021), 249–77.

التجربة التي عاشها كثيراً في طفولته داخل عائلته الخاصة.

مريض آخر، وهو رجل شجاع ومسنّ يُدعى السيد دبليو، كان، من وجهة نظره، غير مستقرّ نفسياً وكان يشعر باليأس والحذر من مساعدتي. طرح هذا الرجل مباشرةً موضوع غسيل الدماغ الناتج عن عملية التحليل النفسي. كان دائماً يعيش بمفرده ويشك في ما قد أقوم به كمحلل له، تحت غطاء المساعدة في مواجهة مشكلاته في الحياة. رفع مسألة غسيل الدماغ بتوتر كبير، مظهراً توقعاته الجزئية بأن العملية مشروع سري يهدف لتكييفه برؤيتي الخاصة.

بينما كان يراقبني بحذر (لأنه كان متوتراً جداً لاستخدام الأريكة)، قال السيد دبليو إنه يحتاج إلى محاولة قراءة أفكاري. أحياناً كان يقتنع بأنه قادر على النجاح في ذلك، وكذلك في تشكيل أفكاري، حتى إن خشي أن أقوم بالشيء نفسه تجاهه، وقد وصل إلى درجة وصفِ رأسه بأنه وعاء زجاجي شفاف. في يوم ما، انحنى نحوي وأعلن أنه قلق من أن العلاج قد يؤثر في عقله تأثيراً خطِراً، ويعتقد أنه قد يحدث ذلك بنجاح دون علمه حقاً. انحنى أكثر نحوي بعد ذلك وهمس بصوت فيه ثقة (كما لو كان يخشى من أن يسمعه شخصٌ ثالث): "كيف يمكنني التأكد من أنك لست موصولاً سراً بمقرّ منظمتك؟ ربّما تتلقى تعليمات حول ما يجب قوله لي من خلال سمّاعة أذن مخفية".

أظهر السيد دبليو قلقه من إمكانية تحكّم قوى خارجية فيّ، وعجزي عن التحكم فيها، وهذه القوى الخارجية هي "هم". خلال حديثنا، كان السيد دبليو يشعر أيضاً بالقلق من أن هذا "المقر الرئيسي" قد يستخدمني لغسل دماغه. في رؤيته لعلاقتنا، اعتقد أنه تم غسل دماغي فعلاً وأنني كنت أتبع تعليمات سرية، لكن ممن هذه التعليمات؟ لقد كان متردداً حيال ذلك؛ هل هي تعليمات من "هم"؟ هل هي تعليمات منه؟ أم تعليمات مني؟ أراد التحدث عن ذلك، ولكنه لم يكن واثقاً مما كان يشعر به. كان السيد دبليو يثق بجانب مختلف في شخصيتي، واعتقد أنني قد أكون ضمن الجهات التي تغسل دماغه خدمةً لجهات خارجية أو ربما لجزء من شخصيتي. كان قلقاً أيضاً من أنني قد أكون مكشوفاً جداً لقدرته على قراءة أفكاري بصورة مطلقة.

ربما كان السيد دبليو يسعى لحمايتي من اتهاماته عن طريق إلقاء اللوم على منظمة تحليلية عملاقة بعيدة منّا، مستقلة عن أي منا. كان يشعر بضرورة طمأنتي على نحو متكرر، للتحقق من عدم انزعاجي سراً، أو حتى عدم "غضبي" كما قال، أمام عدم ثقته الكبيرة بي. ربما يجب علينا جميعاً (سواء كنا في العلاج أم لا) أن نشعر بقلق حول انكشافنا للآخرين واعتمادنا عليهم، وحول ردود الفعل المعاكسة من الأشخاص الذين نعتمد عليهم ونضغط على أزرارهم. وعلى الرغم من هذه الأفكار القلقة، استمر السيد دبليو واستفاد فعلاً من الجلسات، وكان يأمل أن أستطيع فهم مدى ألمه، حتى إن كان يميل إلى تشويه العمل الذي كنا نقوم به أو وضعه في مصاف المثل الأعلى. لكنّه في ما بعد، أعلن بطريقة مليئة بالعواطف أن التحليل ساعده على أن يكون أقل توتراً، وقد عزز علاقته مع مشاريعه الخاصة، وساهم في تمكنه من الاستمتاع بمزيد من التواصل "على نحو أكثر ودية" مع عائلته وزملائه.

في عام ١٩١٩، كتب أحد أتباع فرويد، فيكتور تاوسك Victor Tausk، ورقة بحثية مثيرة عن أمثلة متطرفة للشكوك والمخاوف، وعن دور "جهاز التأثير". أشار تاوسك إلى أن هذا لم يكن مجرد تخيل، بل هلوسة عند بعض المرضى الفصاميين.[١] إن جهاز التأثير هو من "طبيعة خارقة" وقادرة على اتخاذ أشكال وأحجام وأنواع مختلفة رغم أن هؤلاء المرضى المصابين بشدة يعطون في غالبية الأوقات إشارات غامضة فقط عن بنية الجهاز لأن الأفكار والتجارب التي يمرون بها قد تكون معقدة للغاية وغير قابلة للوصف بالكلمات. يتكون جهاز التأثير من "صناديق ومقابض وعجلات وأزرار وأسلاك وبطاريات وما شابه... يُنتج الجهاز أفكاراً ومشاعر، كما يزيلها باستخدام موجات أو أشعة أو قوى أخرى". في هذه الحالات، غالباً ما يُشار إلى هذا الجهاز بأنه "جهاز توجيه". يمكن أن يؤثر أيضاً في ظواهر الحركة في الجسم، مثل الانتصاب والقذف، أو أن يسبب ظهور ثآليل على الجلد، وخراجات وعمليات غير طبيعية أخرى تُضعف وتؤذي الضحية. أضاف تاوسك أن هذا التدخل، كما يعتقد بعض هؤلاء المرضى، يمكن أن يحدث عن طريق الإيحاء

1 Victor Tausk, 'On the Origin of the "Influencing Machine" in Schizophrenia' [1919], *Psychoanalytic Quarterly*, 133:2 (1933), 519–56, pp. 521–2.

أو استخدام أشياء مثل تيارات الهواء أو الكهرباء أو المغناطيس أو الأشعة السينية (X-rays)، واعتبر أن "جهاز التأثير" هو الذي يتحمل مسؤولية مرض المريض وعجزه: "تُضغط الأزرار، وتُشغَّل المقابض، وتدور العجلات. غالباً ما يتمّ الاتصال بالمريض من خلال أسلاك غير مرئية تمتد إلى سريره".[١]

اكتشف تاوسك أن بعض الأشخاص يعتقدون أنه يمكن التحكم في جهاز التأثير عن طريق مشغّل مثل رئيس المستشفى النفسي؛ لقد لاحظ كيف أن هؤلاء المرضى المصابين بشدة كانت لديهم شكوك بأن أطبّاءهم قد يكونون جزءاً من العملية ومشغّلين للمعدات الخطرة. لو كتب تاوسك عن ذلك بعد ثلاثين عاماً، لكان، ربما، مصطلح "جهاز غسيل الدماغ" هو الأنسب.

بعد اختراعه في الخمسينيات، بدأ مصطلح "غسيل الدماغ" يدخل تدريجاً إلى محادثات المرضى والمحللين، وقد زاد تواتر ظهوره في أدب الطب السريري خلال الستينيات.[٢] في مقابلة مع مجلة *The New Yorker*، أشار الروائي فيليب روث Philip Roth إلى أن التحليل النفسي (الذي كانت لديه تجارب مختلطة به في الستينيات) يمكن أن يصبح، على حد تعبيره، نسخةً أميركيةً محليةً متطابقةً مع نمط غسيل الدماغ في حرب كوريا. شرح الذي أجرى مقابلة مع روث كيف أنّ الأخير "ينظر إلى تحليله الخاص من جوانب عدة كنوع من 'غسيل الدماغ'"، وأدلى روث بتصريح مختلط بين المزح والجد قائلاً: "مثل الكوري الشمالي، سيعذبك الطبيب النفسي أكثر فأكثر بتفسيراته الخاطئة، وعندما ينتهي تشعر له بالامتنان

---

١ المرجع نفسه.

٢ خير مثال على ذلك هو المقال التالي:

For instance, A. M. Kasper, 'The Narcissistic Self in a Masochistic Character', *International Journal of Psychoanalysis*, 46 (1965), 474–86.

وصف الكاتب كيف قال له أحد مرضاه، السيد B، إنه [أي الكاتب المحلّل] يريد غسل دماغه ليصبح إنساناً عادياً وسطياً. انظر أيضاً إلى المقال التالي:

D. S. Jaffe, 'The Role of Ego Modification and the Task of Structural Change in the Analysis of a Case of Hysteria', *International Journal of Psychoanalysis*, 52 (1971), 375–93.

هذا الكاتب يصف كيف تحدثت مريضة مع محللها عن والدتها بأنها "شخص خطِر يمكنه 'أن يصل إليك، يغسل لك دماغك، يمتلك سلطة عليك'". يمكن العثور على استخدام كلمات "غسيل الدماغ" في هذه الأوراق التحليلية النفسية وفي أمثلة أخرى من الستينيات والسبعينيات من خلال استخدام ميزة البحث على الموقع الإلكتروني /www.pep-web.org.

وبسهولة تتبنى ما قاله".[١]

من الآن فصاعداً، سأتجنّب إلى حد كبير استخدام علامات اقتباس تخويفية عند الإشارة إلى هذا المصطلح، ومع ذلك، من المهم أن نضع في اعتبارنا أن غسيل الدماغ هو مصطلح يثير الجدل ويحمل دلالات توحي بالقوة. بالتأكيد، صحيح أن هذه الاستعارة عادة ما تُعتبر غير فاعلة بدلاً من أن تكون ديناميةً؛ هي مشابهة لعبارة "متصفح الإنترنت". إنها كلمات تُستخدم في كثير من الأحيان كما لو أن طبيعتها الاستعارية قد تلاشت، ومع ذلك، أكد قليل من المحللين أهمية أن نكون أكثر وعياً للغة التي نستخدمها في هذا السياق.

"هناك مثال أخير لا يمكن مقاومته"، أعلن المؤلف ويلر إمبلر Weller Embler، كاتب في اللغة، في مقاله العلمي عام ١٩٥٩ "Metaphor in Everyday Speech" [الاستعارة في الخطاب اليومي]. كان هذا المثال هو فعل "غسيل الدماغ"، الذي لاحظ أنه "تشبيه حديث الصنع يشير إلى تطهير العقل من جميع المعتقدات السابقة". حث إمبلر القارئ على التأمل في الآثار الحقيقية لهذا التطهير والتساؤل عن درجة التفسير الحرفي التي ينبغي أن نطبقها على صورة الواقع: "هل من الممكن أن نغسل المعتقدات بالطريقة نفسها التي نغسل فيها الصحف القديمة، على سبيل المثال، من خلال إزالة حبرها القديم وطباعة كلمات جديدة على ورق الأخبار الجديد، كما لو أن الماضي لم يكن موجوداً؟".

يوضح إمبلر أن مصطلح "غسيل الدماغ" يتصل بمصطلح فلسفي آخر أقدم عن العقل، هو مفهوم [الجدولة النظيفة]، الذي يشير إلى لوح نظيف تماماً من الكتابة بعد محوها، أو ربما لوح فارغ أو ورقة خالية. إذا كان العقل عند الولادة لوحاً نظيفاً تُكتب عليه الخبرة المكتسبة من خلال الحواس، فإنه من المنطقي أن نفترض إمكانية محو اللوح أو مسحه جيداً في أي وقت، ولكن ليس كل شيء بهذه السرعة يحدث: حذّر إمبلر من إمكانية إلحاق افتراضات متعددة بالكلمة. فسأل: لنفترض على سبيل المثال أن العقل ليس مشابها للوح نظيف عند الولادة، ولنفترض أننا

---

1 Claudia Roth Pierpont, *Roth Unbound: A Writer and His Books* (London, 2014), p. 80. Cf. Robert Hinshelwood, *Therapy or Coercion: Does Psychoanalysis Differ from Brainwashing?* (London, 1997).

تصورناه تصوراً مختلفاً، ماذا سيعني ذلك؟[1]

محمّلاً بالصور والأفكار المسبقة، يمكن أن يثير مفهوم غسيل الدماغ أفكاراً إضافيةً أيضاً كما أشار إمبلر. بالتأكيد، يمكن أن ينقل مجموعة متنوعة من المعاني، ويخبرنا شيئاً عن كيفية رؤيتنا لعقولنا وعقول الآخرين: إنه وسيلة لنا جميعاً للتفكير في كيفية تأثير حياتنا النفسية مؤقتاً أو أحياناً دائماً من دون موافقتنا أو توكيل منا. حتى إذا لم نكن مجرد ألواح فارغة أو إسفنجات سلبية يفرض عليها المتحدث الخارجي إرادته، فإن قصص غسيل الدماغ تشير إلى أن العقول دائماً ما تكون قابلة للتأثر، وأن إدخالات متعددة ورسائل متعددة، وأحياناً غير مرغوب فيها تماماً، يمكن أن تشكل أفكارنا ومشاعرنا. "غسيل الدماغ" هو استعارة ولكنه أيضاً ممارسة تترتّب عليها عواقب حقيقية ومروّعة تتعلق بالجسد والدم.

كأنه لتسليط الضوء على هذه النقطة بصورة خاصة، ظهرت قصة رئيسية في الأخبار حول الحكومة الصينية ومساعيها النظامية لـ"إعادة تعليم" [شعب] الأويغور (Uighurs) على نطاق واسع، عندما كنت أكمل كتابي هذا. جذبت تلك التقارير البارزة الانتباه ما بين عامَي ٢٠١٩ و٢٠٢٢، وستُناقَش بمزيد من التفصيل. تنافست هذه التقارير مع قصص أخرى في الأخبار تساعدني على تذكر أهمية هذا المصطلح التاريخي وارتباطه بمجموعة واسعة من المسائل. تشمل هذه المسائل مواضيع متنوعة، تتراوح من حالات غسيل الدماغ الشديدة، مثل المعاملة المروّعة لشعب الأويغور، إلى انتشار واسع للمعلومات الكاذبة، في بيئة سياسية ومشهد إعلامي مميزين بالغش والتلاعب و"السرد المشوه". يرتبط المصطلح أيضاً بمسائل ملحّة وبارزة أكثر، مثل حالة الطوارئ المناخية (على الرغم من أنه في بعض الأوساط، لا تزال تُنكر أو على الأقل يُقلل من أهميتها)، وظهور السياسات الاستبدادية الشعبوية الممثلة في شخصيات مثل جايير بولسونارو Jair Bolsonaro في البرازيل ومودي Modi في الهند، وتعقيدات حملة خروج المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي (UK Brexit) وآثارها، وكذلك ديناميات الدراما النفسية لسباق الانتخابات الرئاسية

1 Weller Embler, 'Metaphor in Everyday Speech', *ETC: A Review of General Semantics*, 16:3 (1959), 323–42, pp. 341–2.

لعام ٢٠٢٠ بين ترامب وبايدن في الولايات المتحدة.

استخدام مصطلح "الأخبار الكاذبة" يتزايد باستمرار، وهو يشير إلى الادعاءات بأن الأخبار المنشورة تحمل معلومات زائفةً أو غير دقيقة. غالباً ما يستخدم هذا المصطلح الزعماء أو الأشخاص الذين يسعون للتأثير في الرأي العام، إذ يُطلقون هذا الاتهام لتشويه المعلومات التي لا تتوافق مع آرائهم أو مصالحهم الخاصة. يُستغل هذا المصطلح أحياناً لبناء سيناريوهات مغلوطة تخدم أهدافهم دون الالتزام بالحقائق المعروفة أو الأدلة الموجودة. على سبيل المثال، ذُكِرَ كيف اضطُرّ السفير الصيني في لندن إلى تقديم نسخة معدّلة ومحايدة من الأحداث المتعلقة بالأويغور في الغرب، وهذا يظهر كيف يُستخدم مصطلح "الأخبار الكاذبة" وسيلةً لرفض التقارير الصحافية أو التلاعب بالحقائق.[١] وبعض الساسة أو المتحدثين السياسيين يتلاعبون بمصطلح "الأخبار الكاذبة" لصنع رواية مطمئنة خاصة بهم دون أخذ الحقائق المعلن عنها على نطاق واسع بالاعتبار. يُعتبر هذا استخداماً ملتوياً للمصطلح، إذ يهدف إلى تشويه الحقائق المعروفة لمصلحة أجندة معيّنة. يُعتبر هذا الأمر جزءاً من مناخ "ما بعد الحقيقة" الذي يُظهر الكذبة كأمر طبيعي، ويُظهر عدم الالتزام بالحقائق أو الصحة في بناء الروايات أو اتخاذ القرارات، ويثير هذا تساؤلات حول العصر الحالي وإذا كانت الكذبة قد فقدت من قيمتها أو مذلتها، أو إذا كانت هذه الظاهرة جزءاً من تصوير خيالي لمرحلة سابقة تميزت بالحقيقة. كيف نشرح حقيقة أن أكثر من ٧٠

---

١ يرجى الاطلاع على مقال Emma Graham–Harrison وJuliette Garside بعنوان "Complete Control" [السيطرة الكاملة] الذي نُشر في صحيفة *Guardian Weekly* في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٩، وكذلك على سلسلة المقالات التي كتبتها هاتان الصحافيتان في *Guardian* عبر الإنترنت، مثل:

'"Allow no escapes": leak exposes reality of China's vast prison camp network'

المنشور في ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٩ على الرابط التالي:

www.theguardian.com/world/2019/nov/24/china-cables-leak-no-escapes-reality-china-uighur-prison-camp.

انظر أيضاً إلى الوصف القاسي الذي قدمه Raffi Khatchadourian في مقاله في مجلة *New Yorker* بعنوان:

'Surviving the Crackdown in Xinjiang'

والذي نُشر في ٥ نيسان/ أبريل ٢٠٢١، ويمكن الاطلاع عليه عبر الرابط التالي:

www.newyorker.com/magazine/2021/12/04/surviving-the-crackdown-in-xinjiang.

مليون ناخب أميركي اختاروا التصويت مجدداً لمصلحة ترامب على الرغم من وجود أدلة وافرة على كذبه، وأن عدداً كبيراً على ما يبدو يؤيّدون نظريات المؤامرة التابعة لجماعة QAnon [كيو أنون]؟ هذه الأمور تثير التساؤلات حول مدى تأثير الروايات الخاطئة أو الكاذبة على تقبل الأفراد للحقائق أو المعلومات الدقيقة.

رغم عدم قدرة هذا الكتاب على حل هذه الأسئلة مباشرةً، فإنه يقدم إطاراً للتفكير في تاريخ وسياسة مثل هذه الاستفسارات والمخاوف. يسلط الضوء على أهمية مصطلح "غسيل الدماغ" ويوضِح أنه مصطلح أساسي، لكن يجب التعامل معه بحرص وتحفظ. إنه مفهوم متغير يعتمد إلى حد كبير على مفهومنا للتفكير السليم وحرية الفرد وأنواع الإقناع والأسباب التي نراها غير مقبولة. عندما يتهم الناس الآخرين بـ"غسيل الدماغ"، يجب علينا الاستفسار عما يعنونه بهذا الاتهام ومن هم الأشخاص المستهدَفون وما الاستجابة التي يسعون إليها. الهدف من الكتاب هو استعراض مفاهيم ونظريات وقصص حول العقل بعد الحرب العالمية الثانية لفهم هذه المشكلة. الجزء الأول من الكتاب يركز على فهم الكتّاب لأشكال الإقناع القسري في بداية الحرب الباردة في الغرب، وعلى الرغم من ذلك، أدعو القارئ طوال الكتاب إلى مقارنة الماضي بالحاضر وتذكيره بالعالم الذي نحن فيه الآن. الهدف الرئيسي هو التنقل بين النقاشات بعد الحرب وعصر فايسبوك، حيث يتفاعل مليارات الأشخاص بطريقة طبيعية، مشاركين مشاعرهم وصورهم وقصصهم وملفاتهم. إحصاءات عام ٢٠٢١ تشير إلى وجود نحو ٣ مليارات مستخدِم نشط شهرياً على فايسبوك. فشركة Meta، الشركة الأم لفايسبوك، تُعدّ واحدة من أكبر الشركات من حيث الإيرادات في العالم، إذ يبلغ دخل الإعلانات الخاصة بها عشرات المليارات سنوياً.

أثناء استكشافي لهذا الموضوع، أدركت بسرعة أن أياً من مساعيّ السابقة لم يثر اهتمام نظرائي وأصدقائي بالقدر نفسه. لم تكن بحاجة إلى خلفية في دراسات الحرب الباردة ليتجذر فيك فضول السؤال: ما هو تماماً غسيل الدماغ؟ هل يمكن تطبيقه على الذات أم على الآخرين؟ من أين يبدأ نطاقه وينتهي؟ متى صيغ هذا المفهوم لأول مرة؟ هل هو واقع ملموس، أم خرافة بسيطة، أم مفهوم خيالي؟

ما السمات التي تحدد منهجياته حالياً؟ وما اتجاهه في المستقبل؟ يُشتبه أن هذه الاستفسارات تأسرنا لأنها تدفعنا أيضاً إلى التأمل في عكسها: كيف تكون الذات غير المتأثرة وغير المغسَّلة؟ وإلى أي مدى يمكن أن نمارس حرية الفكر؟ يمتد جانب واحد من هذه المسائل إلى السلطة العمودية: جهة حكومية أو على الأقل حارس يمارس السيطرة على مواطن محتجز؛ بينما الجانب الآخر هو الأفقي: كيفية تفاعلنا مع الأقران والمعارف والزملاء والغرباء في سياق أنواع جديدة من التكنولوجيا. قد يلقي النظام الشركاتي بظلّه علينا، إلا أننا متورّطون في هذا التفاعل المستمر والموثق دَوماً مع الآخرين، بحيث يتمّ الاعتماد على الآراء والمشاعر في هذه التفاعلات بصورة ملحوظة ويتمّ تخزينها دوماً في الذاكرة. هذه المنصات، التي دخلناها جميعاً بتجربة مشتركة، هي تلك المساحات التي نلعب فيها بالأفكار، أو يلعب فيها الآخرون بنا.

يحثّنا هذا الموضوع على التأمل في الأطراف المتناقضة والكثير من الحالات التي تقع بين حالةِ التحرر النفسي وهي قدرة الشخص على التحكم في ردود فعله وأفكاره دون أن يكون مقيداً بالقيود النفسية أو الاجتماعية، وحالةِ السيطرة على الأفكار الغريبة وهي القدرة على إدارة الأفكار غير المألوفة وتوجيهها أو منعها من التأثير السلبي أو التشتت. فعلى الرغم من عدم تعرضنا لعمليات غسيل الدماغ، نمتلك جميعاً، بلا شك، لحظات من القابلية للإقناع والضعف والترابط. لا أحد منّا يوجد ككيان معزول يتمتع بالوعي الذاتي الكامل، أو يشكل نفسه بنفسه، أو يولد نفسه، وليس أحد منّا قادراً على التفكير المنفرد أو التأمل الذاتي الشامل. نحن جميعاً نستند إلى بعضنا، نتأثر تأثراً عميقاً بالقوى الخارجية، ولسنا أبداً في سيطرة تامة على عقولنا. يدرك فايسبوك أن جميعنا تقريباً نبحث عن "الارتباطات"، ونحن أيضاً ندرك أنه من زاوية أخرى، ليس أحد منّا معصوماً تماماً عن التأثيرات المخفية أو شفافاً للغاية أمام نفسه أو الآخرين. قد نجد أنفسنا مندمجين بصورة غير واعية مع الآخرين، حتى في غياب كامل لعملية غسيل الدماغ.

مناقشة عملية التكيف التدريجي في حياتنا اليومية في الغرب، واتهام الترابط

بين البيانات الجوية والمالية التي ذكرتها سابقاً بأنها عملية غسيل الدماغ، أمران قد يبدو مبالغاً بهما سواء بالنسبة إليك أو إليّ. يمكن أن تتنوع الأخبار بين التلاعب الصريح وعمليات غسيل الدماغ، إلى المحتوى التوجيهي أو المقنع الذي يؤثر أو يفترض أو يقترح أو ينفي جوانب متعددة حتى لو لم تقم مباشرةً بغسل أدمغة المشاهدين لتبنّي عقيدة واحدة غير خاضعة للجدل. أحياناً، قد تُسهم الأخبار في تعزيز تأثير تجميد الوعي بالمعايير والتوقعات الرئيسية علينا. التأمل في هذه المسائل يطرح السؤال: أي أنواع الأخبار والمعلومات نحتاج إليها من أجل التفكير بطريقة متماسكة؟ إن نسبةً كبيرةً من تفكيرنا ومعالجتنا واتخاذ قراراتنا تحدث بلا وعي على نحو غرائزي، كما أظهر دانيال كانمان Daniel Kahneman ببراعة أن عمليات تفكيرنا تتحرك بين "السرعة والتأني".[1] في ثقافتنا المتجهة نحو التجارة على نحو متزايد واقتصادنا الرقمي الذي يتطور سريعاً، ربما أصبح تعزيز التفكير المستقل بأي طريقة أصعب مما كان عليه من قبل.

يوجّه التناقض بين طرفي الدعاية وعمليات غسيل الدماغ في المجتمعات الشمولية انتباهنا نحو المساحات الموجودة بينهما؛ تلك المساحات الغامضة حيث نمتلك بعض درجات من الإرادة الحرة ومع ذلك نجد أنفسنا مغرّين بالتأثيرات التجارية أو السياسية. وبينما تُلزِم بعضُ المهن الناس العمل عبر الإنترنت نظراً إلى الدور الأساسي للحاسوب في سبل العيش، هناك جزء كبير من الأفراد يبدي رغبةً لا تُردّ كأنهم يتعطشون لقضاء وقت طويل أكثر من الضرورة أمام الشاشة. كلنا نواجه حالات عقلية أو ظروفاً حياتية تُقدّم لنا فيها خيارات لكننا نتجاهلها؛ إذ نكون غير مستعدين فيها لمواجهة الوهم الذي انخرطنا فيه (نصفياً)، وبالتالي نستمر في اتباع المسار المعتاد. إنها الحالات التي نتجاهل فيها شكوكنا الخاصة أو نتجاوزها، خوفاً من تكلفة باهظة ناجمة عن تغيير آفاقنا، والتي نعاهد فيها أنفسنا بأن نكون أكثر يقظةً أمام تأثير "المقنعين الخفيين" والعوامل الاجتماعية (ليس على الفور لكن في فترات قريبة لاحقة). في تلك الحالات، نستسلم أو حتى قد نجد ارتياحاً في اتفاقيات غريبة عقدناها مع أنفسنا تؤخر مواجهة المشاكل وإجراء التغييرات. هذه

---

1 Daniel Kahneman, *Thinking, Fast and Slow* (London, 2011).

الحالات العقلية هي عندما نتنازل مؤقتاً أو دائماً عن قدرتنا على التفكير بوضوح ونقد.

من المستحسن ربما أن نحتفظ بمصطلح "غسيل الدماغ" في المقام الأول برأيي لصور أكثر تطرفاً من التلاعب الذي يمارسه أفراد مؤثرون وحكومات ومنظمات لديهم وسائل كبيرة للقمع والسيطرة. كما لاحظنا، اكتسب مصطلح "غسيل الدماغ" بدايةً انتشاراً كوسيلة ملائمة لتصوير الأيديولوجيات الشمولية (على الرغم من أن هانتر، الصحافي في عصر الحرب الباردة، لم يستطع صدّ تسليط الضوء على وجود مخاطر معيّنة في العالم الغربي أيضاً). تستمر الجدالات بشأن أصل غسيل الدماغ ونطاقه وحدوثه داخل دول لا تزال الديموقراطيات فيها فاعلةً وداخل دول قمعية على حد سواء. لأسباب متعددة، فإن الكلمة والفكرة والسيناريو التي تصوّرها هانتر وآخرون في الماضي البعيد لا تزال تزعج العديد منّا حتى اليوم، بغض النظر عن النظام السياسي الذي نعيش فيه. تهديدات التلاعب بالأفكار ليست مقتصرة فقط على الأحداث التاريخية أو محصورة على الجانب المقابل لمناقشة سياسية معيّنة، وليست مقيدة بحدود مؤسسة شاملة معيّنة ومخيفة، بل هذه التهديدات موجودة هنا والآن في عالم القرن الواحد والعشرين الذي نعيش فيه، حتى لو كنا محظوظين بالاستمتاع بدرجة من الحرية النسبية. نجد أنفسنا مغمورين في دوامة من التنبيهات والوعود والتأكيدات اليومية حول الحاضر والمستقبل. يحدث ذلك في سياق مناقشات مستمرة حول حالة البيئة والمناخ والاقتصاد والأوبئة والمشهد السياسي. علاوة على ذلك، نعيش في عصر يتسم بالخطاب الاشتباهي المتصاعد والشعبوية الاستبدادية والاضطرابات الاجتماعية، وذلك في ظل ثورة رقمية متواصلة وبعد انتشار وباء كوفيد-١٩ الذي أحدث تحولاً في النموذج الاقتصادي التقليدي في ٢٠٢٠. بلا شك، نجد أنفسنا مغمورين في قصص تعكس وتثير قلقنا بشأن فقدان حريات أكبر وزيادة عدم الأمان في المستقبل.

لطالما كان مفهوم "غسيل الدماغ" دائماً مصحوباً بسؤال حول معنى ممارسة الفكر المستقل. وغالباً ما يكون تاريخ هذا المفهوم، كما سنرى لاحقاً، وسيلةً لمناقشات اجتماعية وسياسية متنوعة، كما أنّه يقدم إطاراً لفحص التحديات التي

تعيق قدرتنا على ممارسة التأمل العادي واتخاذ القرارات الدقيقة. لا يتتبع **غسيل الأدمغة** فقط تعرّضنا لأشكال خفية من الإقناع، حتى عندما لا نكون مجبرين حرفياً على البقاء كأسرى مقيدين بالسلاسل، بل يتناول أيضاً الأسباب وراء انجذابنا الهائل للتحول الأيديولوجي الكامل ومخاوفنا منه.

أحد المبادئ الأساسية التي توجه منهجي في هذا الكتاب يتعلق بأسلوب دراستي وأهمية وضع الأفكار في سياقها التاريخي. أؤكد أنا أيضاً أن علم النفس التحليلي يلعب دوراً مهماً في مناقشتي الحالية. إنه جزء لا يتجزأ من السياق الأصلي، يقدم أدوات قيّمة يمكننا استخدامها بفعالية لتحليل المسائل المعنية، ويستكشف سبب الإفادة من إعادة فحص النقاشات القديمة حول الأفراد الضعفاء خلال الحرب الباردة في العصر الحديث. إنني أسعى إلى التحقيق في ظهور مصطلحات جديدة ومؤسسات وعمليات ومنتجات وتكنولوجيات، بالإضافة إلى تتبع تطور الأفكار المختلفة التي تهدف إلى شرح الأحداث الجارية. على الرغم من أن هذا الكتاب يُعتبر دراسة للثقافة الحديثة والتاريخ الفكري، فهو يتناول أيضاً كيفية محاولة الأفراد فهم العالم المتغير من حولهم. في كثير من الأحيان، كانوا لا يزالون يتعاملون مع آثار الأزمات السابقة، ويسعون لفهم المشهد السياسي والتكنولوجي والنفسي المتغير أمامهم، ويتنقلون بين التصورات المتضاربة المقدمة من خلال مختلف الخبراء والشهود والمحللين والروائيين والنقاد والمعلقين.

في الفصول الآتية، سأستعرض لحظات مهمة متعددة في تاريخ ظاهرة غسيل الدماغ، بما في ذلك النقاشات من الخمسينيات وما بعدها حول إصلاح الفكر وعمليات الاعتراف الاجباري التي تشمل ما يُسمّى بالعلاج الإجباري وحرمان الحواس والعزل الانفرادي والتحول السريع، وهي موضوعات متكررة في عصر الحرب الباردة. الجدير ذكره أنّ بعض أساليب التهدئة والتخويف والسيطرة التي انتُقدت في تلك الأدبيات ما زالت تُستخدم في كثير من أنظمة السجون منها "السوبرماكس" اليوم وهي سجون عالية الأمان مخصصة للمجرمين الخطرين.

يمكن أن تكون التقارير حول التدابير القاسية والقهرية المستخدمة ضد الأفراد المحتجزين رغماً عنهم في السجون ومؤسسات أخرى تحتجز الأفراد بصورة

قانونية وإدارية داخل حدودها، نقطة انطلاق لاستكشاف أشكال التلاعب الأكثر دقةً وأقل وضوحاً والتي من الممكن أن نخضع لتجربتها جميعاً في المجتمع الحديث. تتجلى هذه التلاعبات الدقيقة في الإقناع المخفي داخل الأخبار والإعلانات والتعليم الضعيف وعلاج الصحة النفسية، وكذلك في أشكال متنوعة من الإغراءات التجارية والتلاعبات السياسة والتوجيه الثقافي. لا ترتكز عادةً أنواع التأثير التي غالباً ما نستسلم لها عبر الإنترنت على توجيهات مستندة إلى سلطة مطلقة. بدلاً من ذلك، تسهّل المنصات الرقمية التفاعل والنشاط وتقديم الملاحظات. في كثير من الأحيان، نعيش داخل شبكات متعددة متصلة بعضها ببعض. الكثير من التأثير الذي نواجهه ينبع من عملياتنا التفاعلية الخاصة، مثل الاقتراحات والدعوات والمحفزات، فهو لا يُفرض علينا من السلطات السائدة. لا يمكن أن نتأثر فقط بواسطة الحكومات والأنظمة الديكتاتورية والأحزاب السياسية، بل أيضاً بواسطة التدفق المستمر للرسائل والإشارات، فالمناقشات من نظير إلى آخر تؤثر أيضاً على آرائنا. يمكن للشركات الاستفادة من بياناتنا لتصميم "قصص مفصّلة" وإعلانات وأخبار مخصصة تحديداً لنا، باستخدام خوارزميات (غير مرئية بالنسبة إلينا). قد يعتقد المستخدمون أنهم يتحدّثون فقط مع أصدقائهم أو يتشاركون حياتهم وصورهم مع مجتمعهم المختار عبر الإنترنت، دون أن يدركوا أنهم في الواقع يقدمون بلا وعي موادَّ للمعلنين وكيانات أخرى تعمل سراً خلف الكواليس، أو حتى ربما يدركون ذلك ويمضون به. في نهاية المطاف، ما قد يكون أكثر إثارةً، واضطراباً حتى، هو تلك الجوانب العديدة الأكثر تعقيداً لِما يُعرف بتواطؤنا وإقناعنا اللاواعي، ويشمل ذلك الإنكار وهو رفض الاعتراف بحقيقة معيّنة والاتفاقات غير المعلنة أو غير الناجمة عن وعي كامل بين الأطراف، وربما غير المشهودة، وذلك للتخلي عن قدراتنا العقلية الخاصة، وتجاهل ما نعلم أنه حقيقي وما نفعله، وتجاهل القوى التي تدفعنا أو تقيدنا.

إن الشكوك المحيطة بمفهوم حرية الفكر واهتمامنا بظاهرة "غسيل الدماغ" قد تكون دليلاً على فهمنا الطبيعي لتقلبات عقولنا الخاصة وعلى وعينا بالتأثيرات السلطوية والقهرية والمغرية التي تشكل تهديداً لعقولنا من مصادر خارجية. مسألة

"الاستقلالية" النفسية هي قضية حقيقية وذلك ليس فقط بسبب التأثير المحتمل من السجناء المخيفين، والهيئات الغامضة، والحركات السرية، أو الهيئة الأمنية الخفية، بل أيضاً، كما يرى فرويد، بسبب امتلاكنا القدرة على الإضرار بعقولنا الخاصة وتحمّلنا المحدود على مواجهة حقائق الوجود القاسية، بما في ذلك قبول وجود النهاية المحتومة لحياتنا. كما يشير إلى أنّنا مشتتون في صراع داخلي أساسي بين مبدأ الواقع ومبدأ المتعة، مما يجعلنا نميل نحو التورط في الاحتيال الذاتي، وقمع الأفكار غير المرغوبة، وتجاهل الرؤى غير المريحة حول ذواتنا. بالتأكيد، يمكن استغلال هذه الاتجاهات البشرية الأصيلة بطريقة ساخرة. لا يتناول مصطلح "غسيل الدماغ" فقط خوفنا من تعرضنا له في الطوائف والأنظمة القمعية، بل أيضاً يسلط الضوء برأيي على قلقنا من التقلبات المتوقعة في حالات عقولنا الخاصة واختلافات مشاعرنا المتضاربة وآليات دفاعنا وأفكارنا الخيالية. يمكن للأفراد أن يعانوا من رغبات متضاربة، حتى في غياب الأشخاص الذين يمارسون عمليات غسيل الدماغ الواضحة، مما يدفعهم إلى تجنب مواجهة حقائق معيّنة والشعور بالضغط لنفيها أو تقسيمها أو تجزئتها أو تجاهلها أو التخلص منها أو تشويشها أو نسيانها.

على الرغم من أن هذه الدراسة تشمل منظوراً عالمياً، فهي تركز أساساً على الغرب وتوجد في سياقه أيضاً. بلا شك، ضمّنت صفحات الدراسة مجموعةً من الافتراضات، بما في ذلك تلك المتعلقة بطبيعة الحياة المعاصرة على سبيل المثال، وأهمية الفردية والعالم الداخلي للأفكار والعواطف والهوية والأصالة. من المهم أن نلاحظ أن هذا السرد يعترف بوجود وجهات نظر مختلفة حول حالة الإنسان، إلا أنه يعتمد في النهاية على إطار معيّن لفهم العقل البشري، مثل افتراض قدرة الأفراد على قمع أفكارهم غير المرغوب فيها. إنه يفترض تمييزاً بين العقل الواعي والعقل اللاواعي، ويتصور أنّ الأفراد يعيشون تضاربات داخلية مستمرة طوال حياتهم على الرغم من رغبتهم الشديدة في السلام الداخلي. يمكن أن تتجلى هذه الصراعات في أشكال متنوعة، مثل الرغبة في الانتماء وحاجة الفرد للانفصال أو لحكمه الذاتي؛ والاعتراف بانقضاض حياته على الأرض والتطلع إلى الخلود؛ والاعتراف بالترابط أو عدم الاستقلالية والسعي إلى التميز الفردي؛ والرغبة في التأثير على الآخرين

و"التواصل" الحقيقي معهم، والخوف من تدخلات محتملة عليه من الآخرين، خاصةً خلال لحظات الضعف التي يكون فيها الفرد عاجزاً تماماً عن التعامل مع مثل هذه التدخلات أو الاقتحامات.

الفصل الثاني

نقطة الانكسار

كان نهج الرئيس رونالد ريغان في الرئاسة دائماً يشكل انقساماً في الرأي العام. طوال الثمانينيات من القرن الماضي، شهدت تقديرات الدعم له تذبذباً، إلا أنه في كثير من الأحيان حصل من غالبية الناخبين الأميركيين على دعم كبير.[١] اكتسب العديد من الألقاب مثل "المتحدث العظيم" و"الرئيس التيفلون" نتيجة عدم تأثره إلى حد كبير بالجدل الذي دار حول سياسته. كانت رسائله تحمل جاذبية التفاؤل والتواضع والمظهر الوالدي، وأحياناً كانت غامضة. قدم الوعد بأنه سيعيد عظمة البلاد تحت قيادته، وأنه سيكون هناك "صباح في أميركا"؛ عصر يتسم بقوانين قوية وضرائب منخفضة وازدهار للاقتصاد الحر وتعزيز للأمن القومي واحترام كبير للجنود القدامى في الجيش. أصبحت الإنفاقات العسكرية الضخمة السياسة السائدة التي خُطّط لها، وكان يُحتسَب (بصورة صحيحة) عدم قدرة الاتحاد السوفياتي الآيل للانهيار على مواكبة هذه الإنفاقات.

في تلك المرحلة، كان ريغان معروفاً كناقد لاذع لِما يراه من تساهل في المجتمع الليبرالي وليونة زائدة. بالنسبة إلى كثيرين، بدا أنه يُلبّي رغبة نوستالجية في العودة إلى قيم الخمسينيات. في أوساط اليمين، أي بالإشارة إلى التيار السياسي المحافظ أو

1 news.gallup.com/poll/11887/ronald-reagan-from-peoples-perspective-gallup-poll-review.aspx.

الجمهوري، يظل رونالد ريغان حتى اليوم شخصيةً سياسيةً محترمةً ومحبوبةً ترمز إلى نوع معيّن من الرجولة التي تتسم بأفكار الاعتماد على الذات والقوة والمنطق السليم. إنه الرجل الذي كما اعتقد المحافظون، لعب دوراً في تسريع نهاية الحرب الباردة، وربما حتى نهاية مسار التاريخ. إنه الرجل الذي وقف بحزم في وجه "التطرف الشمولي الذي يكره أميركا" و"اليسار الصعب" (كما وصفه نيوت جينجريتش Newt Gingrich، رئيس مجلس النواب السابق من الحزب الجمهوري).[1]

قبل سنوات عديدة من توليه منصب الرئاسة، شارك ريغان في إنتاج وثائقي بعنوان "The Ultimate Weapon" [السلاح الأخير] في عام ١٩٦٢، وذلك وفقاً للنهج السياسي الردّي الصارم الذي جسده ريغان لاحقاً. جرى الجدل حول أن العسكريين الذين لم يُظهروا تماسكاً وانضباطاً قوياً أثناء احتجازهم في أيدي العدو كانوا أشخاصاً ذوي عقول ضعيفة يفتقرون إلى قناعات قوية ووطنية، ومع ذلك، لم يكن ريغان يلتزم كاملاً بتوجيه مثل هذه الرسائل أو الصفات القاسية. ربما كان لا يزال يبحث في معتقداته الخاصة، خصوصاً أنه كان متعاطفاً مع الديموقراطيين وانضم إلى حزب الجمهوريين في العام نفسه.

كان حديث ريغان عن أسرى الحرب (POWs) يعتمد على الدور الذي كان يقوم به، سواء في الأفلام أو في حياته العامة المتطورة. وفقاً لِما أظهره فيل تينلاين Phil Tinline ببراعة في فيلم وثائقي عام ٢٠١٧ بعنوان "The Ultimate Weapon"، كانت رسالة ريغان في هذا الفيلم متناقضة تماماً مع الرسالة الأكثر ليونةً التي نقلها في فيلم

---

١ أشاد نيوت جينجريتش بريغان لكونه رائداً للأمل ورمزاً، مدّعياً أن الأخير قد أحيا البلاد، وإن كان ذلك مؤقتاً، على الرغم مما أسماه "ثلاثة أجيال من غسيل الدماغ" من قبل "اليسار المتشدد". أعرب جينجريتش عن هذه الآراء في مقال عنوانه التالي:

Gingrich, 'Three Generations of Brainwashing Is Paying off for the Left', *Newsweek*, 17 June 2020, www.newsweek.com/three-generations-brainwashing-paying-off-left-opinion-1511553.

راجع أيضاً:

Rebecca Klar, 'Trump says Biden has been "brainwashed"; "He's been taken over by the radical left"', *The Hill*, 9 July 2020, thehill.com/homenews/campaign/506700-trump-says-biden-has-been-brainwashed-hes-been-taken-over-by-the-radical.

حرب كوريا المنسي الآن "Prisoner of War" [أسير الحرب] (١٩٥٤).[١] في هذا الفيلم، قال ريغان بدوره الذي يقوم به كضابط عسكري أميركي يُدعى ويب سلوان Web Sloane: "كل رجل لديه نقطة انكسار".[٢] لا ينبغي اعتبار أسرى الحرب الذين انهاروا وتأثروا بالضغط، وتحدثوا وتعاونوا أو حتى غيروا ولاءهم، مجرد خونة أو ضعفاء.

كان للفيلم محاوره الأيديولوجية الخاصة: فقد كان بوضوح معادياً للشيوعية، وكانت شخصياته "الأشرار" تقدم مجموعةً من الصور النمطية السلبية حول الروس والآسيويين، ومع ذلك، كان لديه اعتراض على أسلوب أكثر قسوة في التحليل السياسي. كان هذا الأسلوب مألوفاً بما يكفي خلال الخمسينيات (وأيضاً في مجموعة من البيانات اللاحقة لريغان)، فطالب بعض النقاد بأن يتحمل أسرى الحرب مسؤولية كل ما قالوه وفعلوه خلال سنوات اعتقالهم، بل كل خطيئة شخصية من الإهمال أو الأفعال.

في فيلم "Prisoner of War" وفي بعض التصريحات الأخرى التي أدلى بها ريغان، بدا واضحاً وجود تعاطف ملحوظ مع محنة أسرى الحرب القدامى. خلال حرب كوريا، احتُجز أكثر من سبعة آلاف أسير أميركي، وتُوفّي منهم ما يقارب ثلاثة آلاف. أرسل الفيلم رسالةً واضحةً ودعا إلى التواضع العام، كما لو أنه يقول: "لولا فضلُ الله، لكنت أنا في هذا الموقف". أظهر الفيلم سبباً يفسر لماذا يمكن للأشخاص، بغض النظر عن صلابتهم الظاهرة أو انضباطهم، أن يتأثروا إلى حد كبير جراء احتجازهم القاسي، مما قد يترك آثاراً عقليةً دائمةً أو تغييرات طويلة الأمد في شخصياتهم. كان

---

1 *'Every Man Has His Breaking Point': Reagan, Brainwashing and the Movies (2017)*, directed by Phil Tinline, www.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/documentaries/every-man-breaking-point-reagan-brainwashing-movies.

٢ يمكن مراجعة الدراستين التاليتين:

Charles S. Young, 'Missing Action: POW Films, Brainwashing and the Korean War, 1954–1968', *Historical Journal of Film, Radio and Television*, 18:1 (1998), 49–74. Cf. Michael Strada and Harold Tropa, *Friend or Foe? Russians in American Film and Foreign Policy, 1933–1991* (Lanham, 1997), pp. 79–80.

وبالنسبة إلى السياق الأوسع، يمكن مراجعة الدراسة التالية:

David Seed, *Brainwashing: The Fictions of Mind Control: A Study of Novels and Films Since World War II* (Kent, OH, 2004).

الجيش الأميركي مؤيداً لهذا الإنتاج في البداية، إلا أنه لم يكن راضياً عن النسخة النهائية من الفيلم، فسحب تعاونه مع المنتجين؛ لأن القصة بدت كأنها تعني أن أي مستوى من التدريب أو صلابة الشخصية لا يضمن عدم استسلام الأسير لضغوط الاحتجاز في النهاية.

كان فيلم "Prisoner of War" جزءاً من سلسلة الاستجابات الأميركية للفظائع التي ارتكبها "أعداء الحرية" في الحروب الحديثة؛ عبّر الفيلم عن إحساس عميق بالاشمئزاز تجاه الظروف الشاملة لاحتجاز أسرى الحرب الغربيين في كوريا، بما في ذلك المسيرات القسرية الوحشية والاعتداءات الجسدية وقلة التغذية والبرد الشديد ونقص (أو غياب) المساعدة الطبية وانتشار الأمراض وضعف وسائل المأوى. أدّت هذه الظروف إلى زيادة شكوك بعض الأسرى داخل المعسكرات بشأن الحرب؛ وفي بعض الحالات، أدت إلى انفصال بعض السجناء عن وطنهم الأصلي (يعود الفضل بذلك إلى "الإعادة التعليمية" القسرية كما أشار النقاد)، وقد دفعتهم إلى الاهتمام بقضايا الجانب الشيوعي، أو حتى تكوين ارتباطات نفسية غامضة وغير واعية مع شخصيات مثل ماو.[١]

في الفيلم، كُلّف سلوان بالمهمة الخفية لاختراق أحد معسكرات أسرى الحرب، والتحقيق في معاملة الأسرى على يد السلطات الكورية الشمالية، وتحديد انتهاكات اتفاقيات جنيف، والإبلاغ عن هذه الاكتشافات المثيرة للقلق لقادته العسكريين. اكتشف سلوان زملاءه الأميركيين في حالة من الإعياء والعذاب واليأس والارتباك، واكتشف أنهم أحياناً تأثروا بسلطة من يحتجزهم.

من نحن كي نؤكد على الموضوع المتكرر الذي يقول إن "كل رجل" لديه "نقطة انكسار" لا مفر منها؟ أولاً، من المهم أن نقر بأن هذا كان اعتقاداً شائعاً في تلك المرحلة إذا لم يكن أمراً متعارفاً عليه عالمياً. هناك تقارير أخرى عن الحرب الباردة وأفلام وقصص تنطوي أيضاً على الافتراض القائل إن لدى أسرى الحرب هذه القابلية

---

١ أُنتج الفيلم بسرعة من شركة MGM، في البداية بدعم كبير من المسؤولين في إدارة الدفاع الأميركية، ومع ذلك، يبدو أن هناك تبايناً في الرؤى في مرحلة ما حول نوع القصة التي سيُظهرها الفيلم. بغض النظر عما كانت تتمناه المؤسسة العسكرية، لوحظ أن الفيلم لم يكن بالتأكيد الإنتاج الذي توقعته المؤسسة العسكرية؛ راجع العمل الذي قدمته Young [حول العناصر المنقوصة في سرد أفلام أسرى الحرب] بعنوان "Missing Action" [عمل مفقود].

للانهيار النفسي، وربما حتى القدرة على اعتماد معتقدات مختلفة تماماً عن معتقداتهم السابقة. العديد من الأعمال الدرامية البارزة حول السجناء ركزت تركيزاً كاملاً على هذا الفصل من التاريخ الحديث، مقدمةً دروساً شاملةً مشابهة. هذه الدراما، تماماً مثل "Prisoner of War"، استكشفت الحالة الإنسانية. والجدير بالذكر أن دور النساء لم يكن غير معروف تماماً في هذه التمثيليات الثقافية والنقاشات النفسية، إلا أن التركيز كان في الخمسينيات، سواء في الثقافة الشعبية أو النقاش الأكاديمي، على حالة الرجال الذين وجدوا أنفسهم ليس فقط في حالة حرب مع العدو، بل أيضاً في صراع داخلي مع أنفسهم داخل هذه المعسكرات.

قدم "Prisoner of War" لجمهوره قصةً تحثّ على التأمل، وتشير إلى أننا، جميعنا في الأساس، عرضة للانكسار في ظروف معيّنة. لذا، من سيودّ اليوم حقاً أن يعارض فكرة أن الأفراد يمكن أن يُدفعوا تدريجاً نحو مواجهة ضعفهم البشري وقيودهم الجوهرية من خلال الألم والمعاناة والذل والرعب؟

ومع ذلك، هناك سؤال تاريخي آخر يطرح نفسه: لماذا كان مفهوم السجين الذي وصل إلى "نقطة انكساره" محطّ اهتمام كبير في تلك الحقبة؟ كيف نفسر انتشار السجلات السريرية والتحليلات السياسية والروايات والأفلام التي تصف أفراداً عسكريين مكسورين أو مدمّرين أو منهارين؟ لماذا هذا التركيز الكبير على أشخاص يُجبَرون على التنازل عن معتقداتهم السابقة وفقدان الإيمان (لنعبّر عنها بصورة تحليلية نفسية أكثر) في الأمور التي كانوا يعتبرونها قيماً جيدة سابقاً، وعلى الشعور باليأس والارتباك والتخبط؟ بالإضافة إلى ذلك، لماذا ضويِقوا فبدؤوا يتبنّون أفكاراً غريبة وجديدة، وبعد ذلك دُفعوا للاعتراف بأيديولوجيا أجنبية؟

في هذا البحث، سأعود إلى الحرب الكورية، وسألاحظ أيضاً مشاريع أبحاث النفس السرية التي موّلتها بسخاء الولايات المتحدة في بدايات الخمسينيات؛ وهي عالم سري من التجارب على العقل للسيطرة عليه وتحويله وتعزيزه، والتي لم يُكشف عنها للجمهور إلا بعد مدة طويلة. قام المؤرخون والصحافيون بجمع الكثير من تلك القصص السرية في العقود الأخيرة من القرن العشرين، ولكنها عادت إلى الواجهة مرةً أخرى بعد أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر، فأصبح مصطلح "الاستجواب المحسَّن"

محل اهتمام مرةً أخرى، وزادت الأبحاث حول تجارب كيفية السيطرة على العقل التي جرت قبل خمسين عاماً، وشملت حبس الأشخاص وإعطاءهم الدواء وعزلهم وحرمانهم من النوم ومضايقتهم وتعريضهم للتحقيق والرسائل القوية. هذا الخوف من ضعف الفرد والأمة كان مصاحباً لرغبة في استكشاف هذه الممارسات وفهم الضعف المحتمل، واستخدام هذه المعرفة عموماً للتقدم في ميدان الحرب النفسية.

كما لوحِظ سابقاً، عزّز هانتر فكرة أن تهديداً جديداً يتربص بالعالم، وأعرب عن قلقه بشأن المصير النفسي لدى الأفراد الذين تُركوا في أراضي العدو، واحتمال تحولهم تحولاً جوهرياً. ومع ذلك، رفض بقوة ما أسماه "مزاج التشاؤم"، بل اقترح بدلاً من ذلك تنفيذ مجموعة شاملة وعاجلة من التدابير تستهدف تعزيز الأميركيين ودعم صمود الأفراد المحبين للحرية في جميع أنحاء العالم ضد مخاطر عمليات غسيل الدماغ. شدد على ضرورة القيام بجهود مشتركة سياسية ونفسية، مشيراً إلى أن مقاومة غسيل الدماغ يجب أن تبدأ في البحث حول أساليب التلاعب النفسي المستخدمة من الدولة الشيوعية وتحليلها بدقة وتعلّمها. أراد هانتر أن يُنظر إلى هذه التدابير على أنها رد فعل أو استراتيجية ردع ضد الجانب الآخر، بدلاً من أن تُعتبر أساليب للتجربة والإكراه يطبّقها الغرب على أسرى أعدائه المنتشرين فعلاً فيه.

أكد هانتر أنه يمكن دمج الضغوط الجسدية والنفسية من قِبل الحراس الشيوعيين الماهرين؛ يمكنهم تطوير عمليات الترهيب هذه لدفع السجين إلى القيام بجزء كبير من العمل نيابة عن الحراس، مدمّرين عقله من الداخل. كانت النية من هذه القوى استفزاز مشاعر الذنب والعار والإهانة ومشاعر مماثلة. في نهاية المطاف، قد يبدأ الفرد المعذب في تكوين مقاومة داخلية يصفها بأنها "رحلة نحو التحرر الذاتي"، إذ يجد نفسه غير قادر على تحمل هذه الهجمات المتواصلة والأفكار الجارحة التي تترك أثراً سلبياً في النفس.[1]

استُخدمت وسائل تهدف إلى تدمير الصحة العقلية والجسدية للأفراد على نطاق واسع في الذاكرة الحديثة، ولا سيما في معسكرات الاعتقال. لقد شهدت هذه المرحلة ربطاً لا يمكن فصله بين الحداثة والهولوكوست (Holocaust). إذ نزع النازيون الإنسانية

1 Hunter, *Brainwashing*, pp. 14, 86.

عن ملايين اليهود والمعتقلين الآخرين، فعاملوهم مثل كائنات غير بشرية أو مجرد أرقام موشومة لتمييزها بالسوء عن الآخرين، أو "قوارض" أو مخلوقات مخصصة لـ"الموت الرحيم"، ليتمّ قتلهم في الغابات والحقول أو معالجتهم في منشآت "صناعية" مشابهة. وبُعيد تولي هتلر السلطة، حُوّلت عيادات عدة ومستشفيات إلى مواقع تجريبية لـ"القتل الرحيم" النازي، إذ استُهدف أولئك الذين اعتُبروا فاسقين ولا يستحقون الحياة. لاحقاً، أثناء تقدم "الرايخ الثالث"، تحولت معسكرات الاعتقال إلى مصانع للموت. بالإضافة إلى ذلك، على مر القرن العشرين، استخدمت بعض الدول هذه المعسكرات لأغراض متنوعة، بما في ذلك محاولات خلق "رجال جدد" و"نساء جدد". تطورت معسكرات النازيين بين الثلاثينيات والأربعينيات، من أماكن وحشية لمعاقبة وتخويف وردع الأفراد الذين اعتُبروا مجرمين ومعارضين مزعجين للنظام، بمن في ذلك العديد من الشيوعيين الألمان، إلى معسكرات موت بمثابة "حل نهائي" يهدف إلى القضاء التام على الشعب اليهودي.

كان هانتر وزملاؤه قلقين من النازية والشيوعية على حد سواء، وقد جادل هانتر بأن الشيوعية، إزاء ترسيخ نفسها بقوة في منطقتين كبيرتين في العالم بعد الحرب العالمية الثانية، كانت تهدف إلى سجن عدد كبير من الأشخاص جسدياً وعقلياً وسحقهم والسيطرة عليهم كخطوة أولية. لم يكن هدف العدو الشيوعي مقتصراً على تحطيم الأفراد فحسب، بل أيضاً تشكيل عقولهم بطريقة منهجية في خدمة الحزب. لم يكن "الانهيار" أو نقطة الانكسار سوى مرحلة وسيطة في تجربة محزنة للمسجونين تقودهم نحو غسيل الدماغ. وفقاً لهانتر، كان مسؤولون تحت حكم ستالين وماو يسعون "لإجبارك على تناول قوتك الضئيل كالحيوان"، وتعريضك لـ"وضعيات مهينة"، وذلك لقودك نحو "الانهيار". فقط بعد الوصول إلى هذه النقطة يمكن أن يبدأ العمل الأيديولوجي الحقيقي في تحويل أفكارك.[١]

ليس كل الأفراد متجهين بالضرورة "للانكسار" أثناء الاحتجاز بالنسبة إلى هانتر. أكد أن بعضهم يتمتع بـ"قوة نفسية" تتجاوز الآخرين وأنهم قادرون على الصمود بثبات حتى النهاية. بدا هنا كأنه كان يخوض نقاشاً مع سلوان وكتّاب آخرين عبّروا

١ المرجع نفسه، ص. ١٤.

عن تشاؤم وطني حيال العجز المفترض "لكل فرد".[١] أكد هانتر أيضاً أن الواجب الأول للحكومة هو تعزيز المرونة؛ وهذا يشمل تدريب الجنود والسكان العاديين للتعامل بصورة أفضل مع تكتيكات غسيل الدماغ، سواء في مواجهة سيناريوهات الحرب أو على الجبهة الداخلية. كان يعتقد أنه لا يوجد مكان آمن على وجه تام، إذ أصبح العالم بأكمله موضوعاً للصراع الآن، وهذا يعني أن "المجتمع الحر" يجب أن "يعلّم كل رجل وامرأة أن هذه مسؤولية جماعية لأن الجميع هم هدف في هذا العصر من الحروب الشاملة. ليس هناك جبهة أمامية أو خلفية عندما يتعلق الأمر بالهجمات على العقل البشري".[٢]

من الضروري أن ننتبه هنا إلى العناصر الخيالية وغير المألوفة في مثل هذه التحليلات، بالإضافة إلى العناصر العلمية المعقولة، كما نراها اليوم. الوصف المبالغ فيه الذي نجده في بعض وسائل الإعلام والحوارات السياسية والسينما، أو حتى في الأدب الرخيص، كان له تبعات مادية وأثر أخلاقي حقيقيان. لقد ساهمت تلك الوصفات المبالغ فيها في خلق مناخ من الخوف ونوع معيّن من التشويق، مما زاد من الضغط لاقتراح استراتيجيات جديدة لمكافحة التهديد المزعوم، كما كانت تُعتبر مبرراً أخلاقياً لأولئك الذين يسعون لتوسيع أجهزة الأمان والمراقبة في الولايات المتحدة وغيرها من الأماكن. لقد دارت العديد من النقاشات حول الوسائل المستخدمة للتلاعب بالعقول وتكديس الأفراد جسدياً وغمر الأدمغة للتأثير عليها، حتى من دون اللجوء بالضرورة إلى أشكال التعذيب الجسدي التقليدية.

بالإضافة إلى فيلم "Prisoner of War"، استكشفت وسائط متعددة، بما في ذلك السينما والأدب والكتابات العلمية والتقارير، هذا الموضوع، في الخمسينيات من القرن العشرين. فيلم هوليوودي ملحوظ آخر يحمل اسم "The Rack" [المِخلعة] هو مثال بارز على ذلك. تمحور هذا الفيلم حول حرب كوريا وكان قد عُرض بعد عامين من "Prisoner of War". على الرغم من أن عنوانه يشير إلى التعذيب الجسدي القديم، فالفيلم تناول على نحو رئيسي التعذيب العقلي المعقد الذي يُفرَض على أفراد

١ المرجع نفسه، ص. ٢٦٨.
٢ المرجع نفسه، ص. ٢٧٠.

متضررين جسدياً بصورة هائلة. ركز السرد على المسجونين الذين قد يكون لديهم ضعف معيّن يعود ربما إلى طفولاتهم المضطربة ويجعلهم أهدافاً بارزة.[١] في هذه المرحلة، بدأت كتبٌ تتحدث عن غسيل الأدمغة مثل *The Rape of the Mind* [**اغتصاب العقل**] في الظهور. بالإضافة إلى ذلك، مفاهيم مثل "التآكل والتدمير المنهجي للعقل" (menticide)، اقتُرحت من أطباء نفسيين ما بعد الحرب لجذب انتباه الجمهور.[٢] لقد شهد هذا العقد من الزمن قصصاً عديدةً مثل "puppet masters" [أسياد الدمى] و"caged minds" [العقول المسجونة] و"alien invaders" [الغزاة الفضائيون]، إلى جانب العديد من الخطب والأفلام والمقالات التي ألقت الضوء على أزمة التعذيب العقلي التي نجمت عن الحرب الباردة.

أثارت أخبارٌ تتعلق بتراجع معنويات الأسرى الأميركيين واحتجاجاتهم وانهياراتهم النفسية، وبخاصة الاتهامات المثيرة للقلق بإجراء "إصلاح فكري" كامل على الأسرى الأميركيين خلال حرب كوريا وتحويل أفكارهم، اهتمامَ شخصيات نافذة في واشنطن وهوليوود والعديد من الأكاديميين في مراكز البحوث السياسية والجامعات. ركز المسؤولون الحكوميون والخبراء اهتمامهم على نفسية الأسرى. توجد مجموعة كبيرة من التعليقات حول هذا الموضوع، إذ روجِعت مخاوف تاريخية سابقة تتعلق بالحالات النفسية للجنود المرضى، مثل "الحنين" (في القرن التاسع عشر)، و"صدمة القذائف" (في الحرب العالمية الأولى)، و"مرض الأسلاك الشائكة" (في العقد العشرين وهو عارض يفسر يأس الجنود المأسورين وفقدان ذاكرتهم وتعبهم الشامل)، و"اضطراب نفسي ناجم عن الحرب" (في الحرب العالمية الثانية). وقد توسعت هذه الأدبيات التي تتناول مشاعر الأسرى وتنوعت لتشمل مسارات بَحثيّة

---

١ في فيلم "The Rack" عام ١٩٥٦، جسّد Paul Newman دور الكابتن Edward Hall الذي كان مهاناً ولكنه شخصية محبوبة. حوكم في محكمة عسكرية بتهمة خيانة زملائه الجنود الأميركيين في معسكر أسرى خلال حرب كوريا. يُظهر الفيلم كيف دمّر حراس المعسكر عزيمته، وتعرّضت هويته للهجوم، وتم التحكم في عقله. يُقدم الفيلم حجة تشير إلى أن شخصيته الهشة يمكن أن تعود لطفولة مؤلمة وتاريخ عائلي كارثي، حين كانت والدته غائبةً ووالده عسكرياً بارداً ومستبداً.

2 Joost A. M. Meerloo, *The Rape of the Mind: The Psychology of Thought Control, Menticide, and Brainwashing* (Cleveland, 1956).

جديدة،[1] إذ تضمنت دراسات حول نطاق الظاهرة والجديد فيها وانتشارها جغرافياً وسياقها التاريخي ومنهجيتها ومصداقيتها في ما يتعلق بتهديد غسيل الدماغ. لاحظ ألن دالس Allen Dulles، مدير وكالة الاستخبارات المركزية، هذه التطورات بعناية واستشعر في منظمته الفرصة لتعزيز الأبحاث والتطوير التكنولوجي والنفسي.

بينما اعتبر بعض المحللين هذه التهديدات أموراً غير لافتة، حذر آخرون من أن الجيل الأحدث من الجنود كان في حالة شديدة من الضعف وعدم الاستقرار. كانوا يواجهون أشكالاً من هجمات لم تُشاهَد مسبقاً في السياق الغربي، وهي أساليب شملت تكتيكات نفسية ومجموعة من التقنيات التي تهدف إلى تقويض قدرة الفرد على التفكير المستقل. كان يُعتقد أن هذه العلوم تخضع حالياً لعمليات التطوير في روسيا الشيوعية والصين.

تجاهل البعض التحذيرات الأكثر إثارةً للرعب بشأن غسيل أدمغة السجناء. على سبيل المثال، قدم الطبيب النفساني والباحث والكاتب روبرت جاي ليفتون Robert Jay Lifton رؤيةً أكثر تعقيداً وعمقاً خلال الخمسينيات. في عام ١٩٦١، نشر كتاباً رائداً بعنوان *Thought Reform and the Psychology of Totalism: A Study of 'Brainwashing' in the Communist China* [إصلاح الفكر وسيكولوجية التوتاليتارية: دراسة حول "غسيل الأدمغة" في الصين الشيوعية]. كانت منهجيته أكثر تروّياً واحتراساً. حتى في عنوان الكتاب نفسه، قرر أن يضع عبارة "غسيل الأدمغة" داخل علامات اقتباس، بهدف التأكيد على المبالغة والتلاعب المرتبطَين بهذا المصطلح. كان هدفه التشديد على الإثارة والافتراضات الغامضة المحيطة بالمصطلح.[2] ومع ذلك، نصح في الوقت

---

١ سمّي مرض السلك الشائك أو السندرة من طبيب سويسري بعد دراسته للأدلة المتعلقة بأسرى الحرب الألمان. يمكن الاطلاع على المقال التالي في هذا السياق:

Avi Ohry and Zahava Solomon, 'Dr Adolf Lukas Vischer (1884–1974) and "Barbed-Wire Disease"', *Journal of Medical Biography*, 22:1 (2013), 16–18.

ولفهم التاريخ الطويل لهذه الظاهرة من "صدمة القذائف" إلى اضطراب ما بعد الصدمة الناجم عن الحروب، يمكن مراجعة الكتاب التالي:

Ben Shephard, *A War of Nerves: Soldiers and Psychiatry in the Twentieth Century* (Cambridge, MA, 2001).

٢ راجع:

Sargant, *Battle for the Mind*; Robert Jay Lifton, *Thought Reform and the Psychology of*

نفسه بعدم رفض مفهوم غسيل الأدمغة رفضاً كاملاً، وقد استقرت دراساته في التعمق في القضية وراء العناوين الشعبوية والتحذيرات المرعبة، مع الاعتراف بجدية المسألة. أكدت دراساته أيضاً أهمية مواصلة الاستجواب والتدقيق الدائم.

وسرعان ما قادت النغمة الحادة للنقاش العام خلال الخمسينيات إلى النقد وأحياناً إلى السخرية، وقد رأينا ذلك في الرواية الشهيرة لعام ١٩٥٩ والفيلم لعام ١٩٦٢ حول غسيل الأدمغة "The Manchurian Candidate" [المرشح المنشوري]. أظهرت القصة اهتماماً بالبيئة السياسية الأميركية المشحونة بالعداء للمجتمع الروسي والمهووسة به، بالإضافة إلى القلق من التهديد النفسي المفترض الناشئ من الشرق. من الصعب، بلا شك، على القراء والمشاهدين أن يعرفوا أين انتهت التحذيرات المعقولة وبدأ الرعب الخيالي: هل دخلنا حقاً إلى نظام عالمي جديد يمكن لكائنات فضائية فيه الاستيلاء علينا وتركنا عاجزين عن صدها وإنهاء أمورنا من خلال وضعنا في حالة فاقدة للوعي، مما يشبه ذلك قصة فيلم رعب آخر بشكل ربما ساخر بعنوان "Invasion of the Body Snatchers" [غزو الأجساد البشرية]؟

إن تداول الحكايات الحماسية والأوراق البحثية الأكاديمية بصورة مستمرة يعني أن "غسيل الأدمغة" أصبح جزءاً من روح العصر، إذ نُوقش في ندوات الجامعات العريقة والمرموقة التي تمتاز بسمعتها العالية ومستوى الأبحاث الأكاديمية المتقدمة، وفي الصحف الكبيرة التي تقدم تحليلات عميقة، والمناظرات الإذاعية، وندوات الطب النفسي، وفي الكشف الصحافي الصاخب الذي يتناول مواضيع مثيرة للجدل ومشوقة، وفي خطب السياسيين الذين ينتقدون الشيوعية، وفي المجلات الشعبية. على الرغم من أن حرب كوريا كانت السياق الأول الذي أثار القلق السياسي حول "غسيل الأدمغة"، فالصحافيون والباحثون الأكاديميون في مجال غسيل الأدمغة نظروا إلى المشكلة كجزء من تاريخ طويل وسياق جغرافي أوسع.

وقد سعوا إلى توضيح كيفية استخدام المعرفة النفسية من القوى الكبرى لتدمير العقل البشري أو للمساهمة في تحريره. يمكن اعتبار أطباء النفس والخبراء السريريين

Totalism: A Study of 'Brainwashing' in Communist China (Chapel Hill, 1961).

هذا المفهوم المتعلق بغسيل الدماغ، كما أشار إليه ليفتون، بدأ يُطبَّق "على كل ما يقوم به الشيوعيون في أي مكان" (المرجع السابق، ص. ٣).

الآخرين في هذا السياق جزءاً من المشكلة وربما جزءاً من حل لمسألة غسيل الأدمغة. كان هناك اعتراف واسع النطاق بمتخصصي الصحة النفسية، بمن في ذلك المحللون النفسيون، في مرحلة ما بعد الحرب، على جانبي الأطلسي، بأنهم مساهمون مهمون في الحوار السياسي، وغالباً ما كان يُثنى عليهم باعتبارهم خبراءَ لهم كلمة مهمة في ما يتعلق بالسياسات الداخلية والشؤون الخارجية. في المنتديات الدولية بعد الحرب، من ضمنها تلك التي قدمتها منظمة الصحة العالمية (WHO)، عُومِلَت الصحة النفسية على أنها مسألة حيوية للجميع؛ قضية عاجلة للأمن العالمي، وليست مسألة تتعلق فقط بالرفاهية الشخصية أو سوء الحظ. كانت الصحة النفسية الجيدة شرطاً للحفاظ على الديموقراطية الليبرالية ضد التطرفات السياسية الكارثية، كما أقر المدير الأول لمنظمة الصحة العالمية، الطبيب النفسي الكندي بروك تشيشولم Brock Chisholm.

وجد الأطباء النفسيون وعلماء النفس والمحللون النفسيون بالتالي أنفسهم أمام فرص جديدة. كانوا مطلوبين كمستشارين في المجال السياسي، واعتُبروا خبراءَ في هذا العالم الجديد الجريء للعقل والدماغ. غالباً ما اعتُبروا مراقبين محايدين وعلماء متخصصين قادرين على توفير دراسات حالات وتجارب ونظريات وتحليلات للشخصيات ونماذج، ولا سيما وسائل مفاهيمية متنوعة مهمة لدراسة العمليات الديموقراطية الليبرالية وحالات العقل. وفي الوقت نفسه، قدموا رؤىً حول الأساليب المستخدمة من الأيديولوجيات الفاشية والشيوعية أو الأيديولوجيات الشمولية الأخرى لتحويل سلوك الإنسان ووعيه.

بعض خبراء الصحة النفسية لعبوا أدواراً مهمة في أعمال الاستخبارات خلال الحرب وبعدها، على سبيل المثال في تدابير "تطهير النازية" وتقنيات تدريب القوات العسكرية وتنقيح إجراءات التحقيق. كانت المهن والاختصاصات المتعلقة بالصحة النفسية (psy) موضوع تقييم ومصدراً للقلق أيضاً، إذ صورها النقاد على أنها صانعة لعقول خطرة وامتدادات سرية للدولة. كانت هذه المخاوف صدىً لها وتضخيماً لمخاوف تاريخية سابقة من أن "أطباء العقل" قد يتآمرون مع الآخرين لاحتجاز الأشخاص العاقلين بصورة غير مبررة.

من الواضح أن هذه العلوم النفسية، في مرحلة ما بعد الحرب، قد تُعيد الدول

الليبرالية وغير الليبرالية توظيفها لأغراض تتجاوز العلاج الشخصي والسياسات الاجتماعية النافعة أو البحث النظري "البحت". حذرت جماعة متزايدة من النقاد من أن الخبرات النفسية يمكن أن تسهم وتساعد في الجهود الاستعمارية القديمة؛ أو تكبح حركات الوطنية الناشئة أو تؤجلها؛[١] أو يمكن أن تُستخدم لتعزيز الأنظمة السياسية الهشة. ببساطة، يمكن لعلوم وعلاجات "النفس" أن تخدم الدولة بدلاً من الأفراد الذين يعانون. يمكن أن تعمل إما من أجل الحركات الثورية وإما ضدها، وتتوافق مع أيديولوجيات الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان العالمية أو تعارضها.

عمّقت سلبية الطب النفسي في الاتحاد السوفياتي هذا الموضوع. أصبح احتجاز الأفراد الذين يُعتبرون سياسياً "مضطربين" بسبب مواقفهم السياسية المناوئة للدولة، محور اهتمام متزايد للتحقيق من العديد من الناشطين والمثقفين خلال الستينيات والسبعينيات. كان هذا المثال الأكثر وضوحاً الذي شجع على انتقاد أوسع وأكثر انتشاراً لخبراء "النفس". سلسلة من الكتابات السرية أُنتجت حول سوء استخدام المعرفة السريرية والسلطة في الاتحاد السوفياتي. ازدادت أيضاً احتجاجات علنية ضد سوء استخدام المصحات وتحريف علم النفس في الغرب. ظهرت العديد من التحليلات التي كشفت كيف استُغل الأطباء النفسيون في النظامين، نظام الاتحاد السوفياتي ونظام العالم الغربي، لحبس المعارضين وتهدئة الأفراد الصعبين والمهمشين، أو تدمير مقاومة الثوار.[٢]

١ يمكن الرجوع إلى:

Eric Linstrum, *Ruling Minds: Psychology in the British Empire* (Cambridge, MA, 2016).

بخصوص علم الطب النفسي ومواقفه المتناقضة تجاه عملية التحرر الوطني، يُمكن الرجوع إلى:

Frantz Fanon, *Black Skin, White Masks* (1952); and idem, *Alienation and Freedom*, edited by Jean Khalfa and Robert J. C. Young (London, 2018); cf. Camille Robcis, *Disalienation: Politics, Philosophy and Radical Psychiatry in Postwar France* (Chicago, 2021).

يمكن الرجوع أيضاً إلى فيلم لـNasheed Faruqi:

Re-reading Fanon (2021), www7.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/documentaries/re-reading-fanon/.

2 Rebecca Reich, *State of Madness: Psychiatry, Literature and Dissent After Stalin* (DeKalb, 2018).

برز اهتمام روبرت جاي ليفتون الشخصي بموضوع إصلاح الفكر الصيني في البداية أثناء عمله طبيباً نفسيّاً في القوات الجوية الأميركية عند انتهاء الحرب الكورية. كجزء من وظيفته، كان ملزَماً بتقدير الحالات النفسية لدى الأسرى الحربيين قبل إطلاق سراحهم. كان آلاف الجنود الأميركيين وغيرهم من الأسرى، الذين كانوا يقاتلون ضد الشيوعية، يعودون من وحداتهم العسكرية أو من معسكرات الأسر، وغالباً ما يسافرون ببطء على متن سفن إلى بلادهم بدلاً من الطائرات. في عام ١٩٥٣، رافق ليفتون بعضهم على متن سفينةِ نقلِ جنودٍ متجهة إلى سان فرانسيسكو.

كانت هذه السفينة التي تحمل اسم الجنرال جون بوب John Pope الذي خدم في الجيش الأميركي وحظي بتكريم، تضم مجموعات من الجنود الذين كانوا يكافحون في تلك اللحظات لفهم ما عاشوه أثناء الحرب، وبالأخص في تلك المعسكرات القاسية للأسرى، وكما وصفهم روبرت جاي ليفتون، كان هؤلاء الجنود في غالب الأحيان عدوانيين ومنقسمين ومتوترين، وكانوا في البداية يشعرون بالشك تجاهه وتجاه زملائه الأطباء والعاملين في المجال الطبي.[1] ومع مرور الوقت، سواء أثناء رحلتهم على متن السفينة أو بعد عودتهم إلى بلادهم، بدأ بعضهم في مشاركة قصصهم مع الأطباء وعلماء النفس والعاملين في مجال العلاج النفسي حول حياتهم في معسكرات الأسرى، مما سمح ذلك للباحثين بالحصول على تفاصيل قيّمة حول وجهات نظر هؤلاء الجنود حيال الظروف التي عاشوها في الجيش، سواء في ساحات المعركة أو داخل السجون الشيوعية، وفي بعض الأحيان، كان الجنود يكشفون عن مشاعر متباينة تجاه عملية العودة إلى وطنهم.

قال رجل للدكتور ليفتون إن مخاوفه الكبرى الآن تكمن في "أن تتعامل معه عائلته كأنه طفل"، واعترف شخص آخر بأن رغبته الوحيدة هي الانعزال عن الأنظار

---

1 Robert Jay Lifton, 'Home by Ship: Reaction Patterns of American Prisoners of War Repatriated from North Korea', *American Journal of Psychiatry*, 110:10 (April 1954), 732–9.
يمكن العثور على هذه المقالة، مع ملاحظات إضافية، في أرشيف ليفتون. انظر:

Lifton Papers, Manuscripts and Archives Division, The New York Public Library, box 57.
يمكن الاطلاع أيضاً على مذكرات ليفتون:

Witness to an Extreme Century (New York, 2011).

وقضاء باقي أيام حياته في صيد الأسماك بمفرده.[1] كان هؤلاء الأفراد يتوقون للهروب من ماضيهم، وربما أيضاً لتجنب مواجهة عائلاتهم الذين يعتقدون أنهم قد يجدون صعوبةً في فهم مدى معاناتهم والرعب الذي شهدوه، أو الآثار التي تركوها على الآخرين. خلال الخمسينيات من القرن العشرين، بدأ ليفتون تدريجاً في تجميع فهم شامل لأساليب إصلاح الفكر التي كانت سائدة في المجتمع الصيني وفي معسكرات السجون في تلك المرحلة.

لذلك، أسهم موضوع غسيل الدماغ في كوريا إلى حد كبير في استهلاك الكثير من الجهد البحثي وجذب اهتمام الجمهور العام نحو معاناة الجنود والسجناء في عصر الحرب الباردة. أكدت بعض هذه الأبحاث أن العالم دخل مرحلةً جديدةً على وجه تام، بينما ارتبط بعضها بالظواهر الثقافية والسياسية القديمة، وأشارت إلى مخاوف اجتماعية سابقة، مثل القلق من السيطرة الشيطانية، أو النقاشات في علم النفس السياسي في القرن التاسع عشر حول العقلانية الجماعية.

قبل مدة طويلة من أن يشتهر مصطلح "غسيل الدماغ" ويصبح جزءاً من المفردات الشائعة، كُتبت بالفعل أعمال عدة حول "الجماهير" المجنونة التي يُعتقد أنها مستملَكة، وحول التلاعب النظامي الذي يمكن أن يؤثر في عقول السجناء. إذاً، يمكن أن يُدمّر السجن عقل السجين بدلاً من أن يستعيده، على خلاف ما كان يأمله المصلحون العقابيون في القرن التاسع عشر. كان علماء الجريمة قد ناقشوا لمدة طويلة دور الوراثة والبيئة في تكوين نوعية الجناية، وتساءلوا حول ما إذا كان المجرمون يولَدون مجرمين أم أن سلوكهم قابل لأن يتغير في سياق الحياة. كانت هناك مجموعة كبيرة من الأدبيات الطبية النفسية التي تتعلق بالجريمة وإصلاح السلوك الأخلاقي، وتتعلق بالمخاطر المترتبة على توجيه الأفراد المعرّضين للتأثير وإقناعهم وتنويمهم إيحائياً. اعتُقد أن التنويم الإيحائي، لدى استخدامه من أشخاص غير مختصين، يمكن أن يؤدي إلى ارتكاب جرائم عاطفية أو أعمال جماعية من العنف القاتل. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك نقاشات حول قدرات بعض المتحدثين والمنشدين المسرحيين الذين يستخدمون خلال عروضهم المسرحية تقنياتِ التنويم الإيحائي للتلاعب بعقول الناس وتغييرها

1 Lifton, 'Home by Ship', p. 736.

بصورة سريعة وسهلة، وكانت هناك افتراضات حول كيف بإمكان المؤثرين "النخب" ترويض الجماهير الحديثة وتعبئتها وتوجيهها نحو صورة جديدة من الإمبريالية المنحطة والوطنية المفرطة والهمجية، بدلاً من دفعها نحو الصراع الطبقي.

كان الأفراد المنجذبون، سواء كانوا حقيقيين أم خياليين، معدّين ليكونوا منافذ تساعد على معالجة القلق أو التوترات المتراكمة المتعلقة بالسياسة والعقلانية بصورة سريعة وفاعلة. ازدادت هذه المخاوف تأثراً خلال العصر الفيكتوري. بينجامين دزرائيلي Benjamin Disraeli الذي تولّى منصب رئيس الوزراء البريطاني مرتين خلال ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، أصبح مصدرَ قلق بارزاً. اعتبره النقاد نموذجاً رائعاً لفن السحر السياسي وأحياناً نسبوا إليه قدرات نفسية فريدة. حذر توماس كارليل Thomas Carlyle، المؤرخ والفيلسوف الفيكتوري، من أن دزرائيلي كان ساحراً عبرياً فائق القدرة، يستخدم السحر لجذب انتباه جميع اللوردات العظماء والأحزاب السياسية الرئيسية والمصالح الكبرى في إنكلترا.[١]

في تلك المرحلة، كان هناك حديث مكثف حول الموسيقيين المبهرين، سواء كانوا أشخاصاً حقيقيين أم شخصيات في قصص خيالية. مثال بارز من مرحلة الثمانينيات في القرن التاسع عشر هو رواية *Trilby* [تريلبي] للكاتب جورج دو موريبه George du Maurier، التي تضم شخصية سفينجالي Svengali المقرفة ولكن الجاذبة.

هذه المخاوف المرتبطة بالسحرة الساميين أو الفنانين الذين يستخدمون التنويم الإيحائي خلال عروضهم المسرحية، ويبتزون أفكار الأشخاص بطرق غير قانونية، ويمتلكون القدرة على جذب العقول بسرعة والتلاعب بها، انتشرت على نطاق واسع، وفي بعض الأحيان تقاطعت هذه القضايا مع أدبيات المؤامرة، وخاصةً في ما يتعلق بالتمثيلات التي تعبّر عن كراهية تجاه السامية. أُنتجت صور عدة تصف النفوذ النفسي المفترض للأفراد اليهود وسلطتهم، بمن في ذلك شخصيات مثل دزرائيلي والأسطوري سفينجالي، على جمع كبير من الأفراد غير اليهود. ومع ذلك، يجب أن نلاحظ أن هذه المسألة لم تقتصر

١ مذكور في التالي:

Anthony Wohl, '"Dizzi-Ben-Dizzi": Disraeli as Alien', *Journal of British Studies*, 34:1 (1995), 375–411, p. 404.

بالضرورة على مناقشة إحدى الجماعات الخطرة أو الأعراق بصورة خاصة.[1]

توسعت التحليلات السياسية التأملية مع اقتراب نهاية القرن، حيث حذرت من التراجع الفكري الذي حدث في مجتمعات كبيرة، وغالباً ما صُوّرت هذه الجموع الضخمة في دراسات علم النفس الاجتماعي على أنها تنزلق إلى جماعة بدائية فريدة من نوعها ومفترض أنها أنثوية وتمتاز بقابليتها للاستهلاك المفرط وغير المعقول للموارد. استُكشفت حالات التوعية المتغيرة، بالإضافة إلى حالات فقدان الوعي، للأفراد والأزواج والمجموعات الكبيرة في الروايات والأعمال المسرحية، وكذلك في الكتب النفسية والسجلات الجنائية، قبل أن يجذب انتشار النقاش الواسع حول ظاهرة غسيل الأدمغة والروبوتات القتلة اهتمامَ الجمهور ويتصدّر العناوين.

لذا كان السياق الذي أدى إلى ازدياد القلق بشأن عمليات غسيل الدماغ واضحاً جداً قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية وبداية مرحلة ما بعد الحرب. علاوةً على ذلك، قدمت المحاكمات المسيّسة المتلاعبة بالرأي العام في الاتحاد السوفياتي دافعاً هاماً لإثارة الجدل في هذا الصدد. قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، شملت هذه المحاكمات ضحايا بارزين لستالين، منهم من كانوا يشغلون مناصب عليا في حزب الاتحاد السوفياتي قبل أن يقعوا في نعمة السلطة ويفقدوا هذه المناصب بسبب تراجع وضعهم السياسي. أثار مصيرهم قلقاً كبيراً وتكهنات حول كيفية تحطيمهم نفسياً وإجبارهم على الاعتراف قبل أن يواجهوا حكم الإدانة الحتمي في المحكمة. هذه المسائل الدرامية في المحكمة في موسكو، في فترتها الذروة بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٨، كشفت كيف يمكن أن يُجلب أشخاص ذات كرامة إلى الاعتراف بأمور متعددة بصورة محرجة، إذ اعترف الرفاق السابقون لستالين بأنهم جواسيس وخونة، ما ترك عاراً على سمعتهم وسمعة رفاقهم وعقيدتهم ووطنهم.

خلال الحرب العالمية الثانية، قلّ تركيز الرأي العام الغربي على أساليب "استخراج الاعترافات" التي استخدمها وكلاء ستالين. بدلاً من ذلك، كان التركيز الأساسي في

---

1 Clara Gallini, *La sonnambula meravigliosa: magnetismo e ipnotismo nell'Ottocento italiano* (Rome, 1983); Alison Winter, *Mesmerized: Powers of Mind in Victorian Britain* (Chicago, 1998); Daniel Pick, *Svengali's Web: The Alien Enchanter in Modern Culture* (New Haven, 2000).

العالم الناطق بالإنكليزية يأخذ منحىً رئيسياً نحو محاربة النازية بدلاً من الشيوعية، ومع ذلك، كانت مرحلة التحالف بين العالم الحر (كما يطلق عليه الرؤساء الأميركيون الآن)[١] والاتحاد السوفياتي قصيرةً. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى عادت النفسية الشيوعية الجماهيرية الخطِرة كموضوع منتظم بعد عام ١٩٤٥. صورة الطاغية الوحشي ستالين، التي انخفضت حدتها في بعض الأحيان في تغطية وسائل الإعلام الغربية خلال الحرب العالمية الثانية (مثل الشخصية الأكثر قبولاً "العم جو" Uncle Joe)، عادت إلى النسخة الأكثر شرارة بعد الانتصار بوقت قليل.

مع بداية الحرب الباردة، ظهرت موجة جديدة من الاعترافات الغامضة، ويبدو أنه تم التحكم فيها بطريقة غامضة، وذلك بصورة خاصة في شرق أوروبا حيث كان للاتحاد السوفياتي تأثيره حينها. هذه الاعترافات الغامضة في قاعات المحكمة أعادت إلى الذاكرة الجماهيرية الاعترافات التي قدمها الأفراد إما لأنهم كانوا يضحون بأنفسهم وإما لأنهم كانوا مدمّرين نفسياً كمسؤولين في موسكو قبل الحرب. رُوجعت هذه التقارير مرةً أخرى وفُحصت مجدداً. بحلول أواخر الأربعينيات، كان بإمكان المراقبين ربط مثل هذه الحالات الحقيقية برؤية جورج أورويل لشخصية وينستون سميث Winston Smith، أو بقصة *Darkness at Noon* [**ظلام في الظهيرة**] لأرثر كيسلر Arthur Koestler، وهي سرد روائي هام عن استخراج الاعترافات في الاتحاد السوفياتي وقد نُشر عام ١٩٤٠.

في بودابست عام ١٩٤٩، أُجريت واحدة من أبرز الأمثلة والأكثر إثارة للقلق على الدعاية والتأثير الذهني خلال جلسات التحقيق في مرحلة ما بعد الحرب، مما أعاد إلى الذاكرة حوادث التحول الإجباري وحالات التنويم الإيحائي السابقة. كان هناك سجين بارز جديد في عالم الشيوعية أمام المحكمة، وهو زعيم الكنيسة الكاثوليكية

١ استخدم عبارة "العالم الحر" تكراراً في الأربعينيات وبعدها رؤساءُ الولايات المتحدة، كما استُخدمت في أعمال السينما الملهمة، لتوحي بتباين مع "عالم العبيد" أو "عالم الطغيان". اشتُهرت هذه العبارة بصورة خاصة في سلسلة أفلام الدعاية الحربية خلال الحرب العالمية الثانية من إخراج Frank Capra والتي تحمل عنوان 'Why We Fight' [لماذا نتحارب]. لفهم المزيد من التفاصيل، انظر:

John Fousek, *To Lead the Free World: American Nationalism and the Cultural Roots of the Cold War.* (London, 2000)

في المجر، الكاردينال جوزيف ميندشنتي Jozef Mindszenty. كشف الكاردينال عن جرائم وافرة ارتكبها ضد الدولة، بما في ذلك الخيانة والتآمر والتجسس وغيرها. لم تُبث محاكمته على الشاشة، على الرغم من أن بعض أجزائها بُثت عبر الإذاعة. تناقلت التقارير، من خلال الشائعات والمطبوعات، تفاصيل ظهور الكاردينال الذي بدا متغيباً بصورة مخيفة وكلماته مصوتة بطريقة ميكانيكية.

أثارت قضية ميندشنتي عاصفة من الاحتجاجات في الغرب، تزّعمت بعضها الفاتيكان ووسائل الإعلام الكاثوليكية. خلال الجلسة، بدا ميندشنتي كأنه فقد هيبته، وربما حتى عقله. يمكن القول إنه أُجبر بطريقة ما على تقديم اعترافات مبالغ فيها وغير معقولة. ظهر، حسبما ذُكر في التقارير، ليس فقط مرتبكاً ولكن أيضاً مكسوراً ومرعوباً، أو حتى مرهَباً، وبدا كأنه يخضع لحالة تأثير ويغمره إحساس عميق بالذنب.

لا يجب أن نقلل من أهمية الاهتمام الذي أبدته وسائل الإعلام الغربية بقصة هذا الرجل الذي تمكنوا من كسره وفقدانه والذي كان على ما يبدو مفتوحاً إلى حد كبير لتأثير الآخرين (زعماء السجناء)، وأصبح مستعداً لأداء أوامر معذبيه. لقد حصلت هذه القصة على انتباه واسع وتأمل كبير، وأصبحت مصدر إلهام لفيلم سينمائي بارز في عام ١٩٥٥، بعنوان "The Prisoner" [السجين] الذي لعب أليك غينيس Alec Guinness دور البطولة فيه. كانت محاكمة ميندشنتي قد جرت قبل دخول مصطلح "غسيل الدماغ" إلى السياق العام. بالفعل، كانت المقالات التي استخدمت مصطلحات مختلفة ولكن ذات صلة بغسيل الدماغ متوفرةً بكثرة في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، وكانت تحذّر من أساليب استخراج الاعتراف خلال جلسات التحقيق، ومن نوع من التحول الجماعي الذي يمكن أن يحدث في المجتمع، وبصورة خاصة في النظام السجني. إنها حالة مثالية بالفعل: كان هناك رجل كاثوليكي قوي الإرادة وداعماً متحمساً لمكافحة النازية، تمكنوا في النهاية من كسره وقيادته، على ما يبدو، إلى حالة وعي جديدة وجّهها آخرون.

بعض الأشخاص تأملوا ما إذا كان تعاونه تحقق بواسطة استخدام الأكتيدرون (Actedron)، وهو دواء معروف بقدرته على تحفيز الدماغ والأعصاب، مما يمكن أن يتسبب في تعطيل كبير للمزاج والنوم والمضاعفات المختلفة. وآخرون تكهنوا

حول المحققين ورؤساء السجون، مشيرين إلى أنهم قد يكون لديهم فهم عميق لعلم النفس الحديث، ولا سيما الجوانب المتعلقة بالعقل الباطني، وقد يكونون ماهرين في تحفيز ومن ثم التلاعب بتموج الأوهام الخاصة التي ترتبط بمخاوف طفولة الكاردينال ميندشنتي وذكرياته. ورغم الشك الكبير في وجود تعذيب جسدي في هذه الحالة، لم يستطع أحد أن يحدد بدقة الأحداث التي وقعت مع الكاردينال خلال سجنه. هذا الحادث استمر كموضوع بارز في وسائل الإعلام الأوروبية والأميركية لأشهر عدة، إذ كرّست منشورات مثل *New York Times* و*Manchester Guardian* و*Le Monde* عدداً من المقالات لفك غموض هذا الحادث المأسَوي.[1]

على وقع قصة الكاردينال جاءت حالة أخرى، تتعلق برجل أعمال أميركي مسافر، روبرت فوجلر Robert Vogeler. هو أيضاً اعتُقل وسُجن في المجر بتهمتَي التجسس والتخريب. جرت محاكمته في شباط/ فبراير ١٩٥٠، وسُميت بسرعة في الولايات المتحدة محاكمةً علنيةً فاضحةً لزائر أميركي بريء.[2] كان السؤال، مرةً أخرى، لماذا وكيف اعترف بذنبه، وربما حتى وافق عليه داخل نفسه؟ مثل الكاردينال، بعد مدة في الحجز وتعرضه لجلسات التحقيق، اعترف فوجلر بجرائمه المزعومة. حُكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً. نجحت السلطات بطريقة ما في كسر "مقاومته"، وفي تحفيزه للعودة إلى "سلوكيات سيئة قديمة" يعتقد أنه تخلص منها، وربما حتى في إقناعه جزئياً أو كلياً بذنبه. تلمّح هذه الحالة إلى المفهوم القائل إنه لا يمكن للذات لدى أي فرد تحمّل أصعب الظروف البيئية التي تسبب في الاضطرابات النفسية والمؤلمة.

بعد عودة فوجلر إلى الولايات المتحدة بفضل جهود ديبلوماسية مستعجلة، شارك تجربته التي عاشها خلال ثلاثة أشهر فقط من اعتقاله، إذ أوضح أنه سُجن عزلاً في زنزانته، مما أدى في نهاية المطاف إلى انهياره النفسي بالكامل. عَزلُ الشخص وتَركُه في انتظار عذاب محتمل يمكن أن يصبح بحد ذاته شكلاً من أشكال التعذيب؛ يمكن

1 Paul Betts, 'Religion, Science and Cold War Anti-Communism: The 1949 Cardinal Mindszenty Show Trial', in *Science, Religion and Communism in Cold War Europe*, edited by Betts and Stephen Smith (London, 2016), pp. 275–307 (p. 286).

2 Susan Carruthers, *Cold War Captives: Imprisonment, Escape, and Brainwashing* (Berkeley, 2009), Chapter 4.

أن يدفع العزل المطوّل الأشخاص إلى الانهيار؛ والروتين الممل واليقين باليأس يمكن أن يؤديا إلى شعور بفقدان الأمل؛ حتى عدم اليقين يمكن أن يدفع الأفراد إلى الجنون، إذ يبدأ العقل في لعب أقسى الحيل على نفسه. قدمت قضية فوجلر مثالاً آخر حول كيف أن علم نفس السجناء والتحقيق العلمي أصبحا موضوعَين بارزَين في النقاش السياسي الغربي في هذه المرحلة، مؤكدةً على الموضوع الذي يشبه النمط المتكرر في الأفلام والقائل إن "كل إنسان لديه نقطة تؤدي إلى انكساره". في ما بعد، ألقى فوجلر كلمة وصف فيها المحنة التي عاشها، بما في ذلك تعرضه للتعري واحتجازه في زنزانة مظلمة بمقاس ستة أقدام في تسعة أقدام، حيث كان يجلس وحيداً على سرير خشبي وأرضية رطبة وسط جو بارد لا يُطاق. وتحدث أيضاً عن الإحباط الذي شعر به جراء رفض السلطات السماح له بالاستحمام، وتأثيرات هذه الظروف على نفسيته وجسده، وعلى نظامه الغذائي الذي اقتصر على تناول الخبز الأسود والماء فقط، مشيراً أيضاً إلى عذابه المستمر بسبب فتحة النظر المعدنية التي كانت تنفتح وتغلق كل ست دقائق لمراقبته.[١]

أضاف فوجلر:

> أثناء محاكمتي، وجدت نفسي في حالة لا يمكنني فيها القيام بشيء سوى ترديد الكلمات المعدّة مسبقاً. كان لدي شعور شديد بالوحدة لدرجة أن رغبتي الوحيدة كانت في قول كلماتي والانتهاء من ذلك. كان صوتي يرتجف وأنا أتلوها أمام الميكروفون الذي وُضع أمامي. بالنسبة إليّ، بدا كأنّه صوت شخص آخر، وبطبيعة الحال، كان كذلك.[٢]

---

١ يمكن العثور على لقطات أرشيفية لخطاب Vogeler، التي تحتوي على هذه العبارات، في المصدر التالي:

www.youtube.com/watch?v=F4hmNsv1VwE&ab_channel=historycomestolife.

يمكن أيضاً الرجوع إلى المقال التالي:

Sam Licklider, 'Robert Vogeler', *Cornell Daily Sun*, 1 May 1951, cdsun.library.cornell.edu/cgi-bin/cornell?a=d&d=CDS19510501-01.2.25.

٢ مذكور في التالي:

Matthew Dunne, *A Cold War State of Mind: Brainwashing and Postwar American Society* (Boston, MA, 2013), p. 40.

لم تكن هذه الحالات البارزة بأي حال من الأحوال حوادث منعزلة. مع ظهور كل حالة جديدة، سواء داخل نطاق الاتحاد السوفياتي أو بعد ذلك بقليل في الصين، استمرت وسائل الإعلام الغربية في التركيز بصورة مكثفة على كيفية تنظيم هذه الحالات من الانهيارات العقلية والاعترافات. كانت الوسائل الإعلامية في تلك البلدان تتابع بعناية كيفية حدوث هذه الحالات وكيف تم الحصول على الاعترافات والمعلومات المتعلقة بها. دُمجت هذه الحالات منهجياً في أدبية تناولت موضوع غسيل الدماغ، مما ساهم في وضع الأسس لنظريات حول ما هي أكثر الاستراتيجيات فعاليةً للسيطرة على النفس البشرية القابلة على التأثير وفهم النفس فهماً شاملاً، وفي النهاية كسرها و/أو إعادة تشكيلها. استُكشفت مجموعة واسعة من الأساليب بدقة، بما في ذلك إعطاء العقاقير "الصادقة" واستخدام "أجهزة كشف الكذب" بشكل سري (تم تطويرهما كليهما في العشرينيات من القرن الماضي)، وتقديم خيارات مؤلمة (مثل تقديم الأمل للسجناء بالبقاء على قيد الحياة مقابل أن يصبحوا مبلّغين عن زملائهم في السجن أو معاقِبين لهم)، وإنشاء بيئات معمارية تهدف إلى إثارة الشعور بالاحتباس أو الارتباك داخل مكان مغلق، وعزل السجين فردياً، وامتناع عن تقديم الطعام له، والتلاعب بالإضاءة والظلام، وتداخل الضوضاء الصوتية بصورة مفرطة أو الصمت المستمر وسيلةً لإثارة الإزعاج والقلق وللشعور بالعزلة والضغط النفسي، وتشويه الوقت والمكان، والتلاعب المستمر من فريق التحقيق الاستجوابي إذ يمكن أن يتنوع في تصرفاته تجاه المستجوَب بين اللطف والسخرية والقسوة والوحشية بصورة متكررة، مما يخلق بيئةً غير مستقرة للمستجوَب ويزيد من ضغوطه النفسية بهدف انتزاع المعلومات المطلوبة منه أو تحقيق أهداف معيّنة في جلسة الاستجواب. علاوةً على ذلك، هناك الضغط النفسي الممارس من السجناء على بعضهم، إذ يُجبَر السجناء على تقديم تأثير نفسي على زملائهم السجناء بهدف "إعادة تعليمهم"، مما يعني تغيير أفكارهم وسلوكياتهم ومعتقداتهم والتأثير على تفكيرهم وسلوكهم.

كثير من هذه الأساليب استُكشف في الأدب المتنامي ونوقش بين عشرينيات القرن الماضي وخمسينياته. على سبيل المثال، هناك تجربة صغيرة أُجريت خلال الحرب الأهلية الإسبانية على بعض السجناء الذين احتُجزوا من الجانب الجمهوري. كانت

هذه التجربة تتكيف مع بعض الأفكار المستمَدّة من الفن الحديث، فتماماً كما قد تتحدى الصور الفنية الحديثة مفهوم الإطار أو الحاجز التقليدي، يمكن أن تُصمَّم جدران السجون وأرضيتها بطريقة متشابكة غير منتظمة وبتأثيرات سايكيديلية يكون الهدف منها التشويش على العقول ومن بعدها ربما حث السجين على الكلام وكشف معلوماته بسهولة.

هذا النوع من التجارب في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، جاء في أعقاب ابتكارات سابقة أكثر أهميةً وتأثيراً على عدد أكبر من الأفراد. روجِع تصميم السجون مراجعةً جوهريةً في العديد من البلدان خلال القرن التاسع عشر، سواء لمواءمة مبادئ الفلسفة الاستفادية القائمة على نظرية أخلاقية تدعو إلى الأعمال الصحيحة التي تحقق أكبر قدر ممكن من الفائدة والسعادة وتعارض الأفعال التي تسبب الشقاء والأذى، أو لمواءمة المعتقدات الدينية (وفي بعض الأحيان لمواءمة الاثنتين معاً). نتيجةً لذلك، قُدّمت أنظمة السجون الصامتة والمعزولة التي يمكن أن تجعل الشخص المحبوس فيها مطيعاً تماماً ومستسلماً، مما يعزز من شعوره بالتوبة.

بعد الحرب، أصبحت عمليات غسيل الدماغ جزءاً من حوار أوسع يتناول مجموعةً متنوعةً من التقنيات المتاحة لاستخراج المعلومات والتأثير على الأفراد وإعادة توجيه أفكارهم وأفعالهم، وشملت هذه التقنيات عناصر مثل تصميم المباني، والمحفزات السمعية، والمواد الدوائية، والتحكم في درجة حرارة الزنزانة لتكون غير مريحة، وتطبيقات دقيقة للإزعاج، والتغييرات المفاجئة والمربكة في الظروف، وعوامل متنوعة أخرى. كل هذه العناصر جعلت من الصعب مقاومة عمليات غسيل الدماغ، كما تحلّت بالقدرة على إعادة تشكيل معتقدات الأفراد المحتجزين. أثرت التطورات الصيدلانية في القرن العشرين على نحو كبير في الآمال والقلق الجديدين، على الرغم من أنها قد أثرت أحياناً في زيادة توقعات مبالغ فيها بشأن "استخراج الحقيقة" من خلال العلم. سعت وكالات المخابرات البريطانية والأميركية إلى تحسين مثل هذه الأساليب والعلاجات خلال الحرب العالمية الثانية، مما أسفر عن نتائج مختلطة، كما الحال عند استخدام إيفيبان (Evipan)، وهو اسم تجاري لعقار من مجموعة الباربيتورات وهي أدوية مهدئة ومنومة ومخدرة، في استجواب أحد المساجين الذين

كانوا يعانون من "فقدان شديد للذاكرة"، والذي كان نائباً سابقاً لزعيم الحزب النازي، رودلف هس Rudolf Hess، وكان محتجزاً من قِبل البريطانيين. واجه الكادر الطبي العسكري الذي كان يعالج هس، وكان بدوره طبيباً عسكرياً، حالةً معقدة. كانوا قلقين من تصرفاته التي وصفوها بأنها "هستيرية" وقلقين بشأن محاولته الانتحار، ولم يكونوا متأكدين مما إذا كان يقوم بتمثيل فقدان الذاكرة الذي ادعاه لتحدي أسرته، أم كان يعاني حقاً من أعراض عصبية عميقة، أو ربما أعراض نفسية أخطر بكثير. حتى تحت تأثير إيفيبان، الذي يُعرف بتأثيراته المهدئة والمنومة، بقي هس غامضاً بالنسبة إلى محققيه وأطبائه. في عام ١٩٤٤، طلب أحد أطباء النفس من المسجون الذي تم تخديره أن يقول: "قل لنا الآن ماذا نسيت"، فأجاب هس: "لا أعرف. ألم! عطش... ماء! ألم في جسدي! ضباب".[١] وأثناء محاكمة نورمبرغ، استمر تصرف هس وبياناته في إرباك المحامين وزملائه في الدفاع، فأثاروا تأملات وتحليلات نفسية واسعة.[٢]

كما ذكرت سابقاً، قدم ليفتون إحدى أكثر الدراسات إقناعاً بعد الحرب العالمية الثانية حول كيفية خلق الظروف، خصوصاً في الأنظمة الشمولية، لزرع معتقدات معيّنة

1 John Rawlings Rees et al., *The Case of Rudolf Hess: a Problem in Diagnosis and Forensic Psychiatry, by the Physicians in the Services Who Have Been Concerned with Him from 1941-1946* (London, 1947), p. 88.

٢ في ما خص معالجة Hess، راجع التالي:

Daniel Pick, *The Pursuit of the Nazi Mind: Hitler, Hess, and the Analysts* (Oxford, 2012), Chapter 8.

في ما خص استخدام Evipan راجع المرجع نفسه ص. ٦١.
في ما خص استخدام المخدرات لاستخراج الحقيقة، يمكن الرجوع إلى:

Alison Winter, 'The Making of "Truth Serum"', *Bulletin of the History of Medicine*, 79:3 (2005), 500-533.

بالنسبة إلى حرب كوريا وممارسات التحقيق، يمكن الرجوع إلى:

Monica Kim, *The Interrogation Rooms of the Korean War: The Untold History* (Princeton, 2019).

بالنسبة إلى التجارب في تصميم السجون خلال الحرب الأهلية الإسبانية، يمكن مراجعة:

Paul Preston, *The Spanish Holocaust: Inquisition and Extermination in Twentieth-Century Spain* (London, 2012), p. 418; Carl-Henrik Bjerstrom, '"Enhanced Interrogation" in the Spanish Civil War: The Curious Case of Alfonso Laurencic', 15 July 2016, www.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/blog/enhanced-interrogation-spanish-civil-war-curious-case-alfonso-laurencic/.

في نفوس السجناء. في دراسته لعمليات "غسيل الدماغ" الصينية، رأى أن الأسلوب الشائع ينطوي على تعبئة الأفراد تدريجاً، وتخويفهم، وخلق الارتباك، وزرع الخوف والعار، ثم تقديم مصدر جديد للهوية. يتعين على الفرد المحتجز إثر ذلك "التعلّم" أنه قد أساء هو فهمه لحياته السابقة وأساء اختياره لمسار مستقبلي غير مناسب. أكد ليفتون أن مجموعة من التقنيات تُستخدم تكراراً لإقناع الأفراد بعدم موثوقية ذكرياتهم السابقة ومعتقداتهم وتفسيراتهم السياسية، مما يؤدي في النهاية إلى تبنّيهم رؤية حياة جديدة لهم مختلفة تماماً عن السابقة، وبالتالي إلى ترسيخ انتماءات واعتقادات جديدة.

وفقاً لليفتون، كانت الظروف الأكثر فاعلية لهذه العملية تتمثل في إقامة بيئة مغلقة تعزل الأفراد عن أي وجهات نظر مغايرة. تشجع هذه البيئة على استخدام لغة خاصة، وممارسة السلطة على الحياة والموت، وإدخال طقوس الاعتراف والطهارة، وتلاعب اللغة، وتكرار الشعارات. هذه العملية تؤثر أولاً في عقل الفرد، ثم تتولى السيطرة عليه وتوجيهه في إطار جديد. بعد ذلك، يستيقظ الشخص ليتبنى سرداً شاملاً يتلاقى فيه الماضي والحاضر والمستقبل بسلاسة، مقدماً مساراً واضحاً ومنسجماً إلى الأمام.

بعد انهيار معتقداته السابقة، يتجرأ السجين على انتقال تدريجي أو فجائي إلى تصوّر جديد غير قابل للانتقاد بأي شكل من الأشكال، وبدقة تحت ضغط شديد، يتناسب تماماً مع وجهة نظر المجموعة والمجتمع وفي النهاية الدولة. في بعض الدول الشيوعية، وخصوصاً في الصين على وجه التحديد، اعتُبر من الأمور الحاسمة بالنسبة إلى السجناء الذين يخضعون لبرامج إعادة التأهيل ألا يقتصروا على الامتثال فقط، بل أيضاً على التعبير بصوت عالٍ عن هذا الإدراك الأخلاقي والسياسي العميق أمام الآخرين، على سبيل المثال، أمام زملائهم السجناء الذين يقفون بجوارهم في السجن ويُظهرون تقديرهم وتشجيعهم لهم.

وفقاً لرؤية ليفتون، يتزامن ظهور حالة عقلية "شاملة" جديدة مع سياسة أنظمة الاستبداد الشمولية. في هذه الحالة، ليس هناك مجال للتردد أو الشك أو التناقض أو الاعتراض. لا توجد أفكار متضاربة أو متناقضة، بل تتجسد في وحدة متناغمة تتجاوز تعقيدات العواطف اليومية. تتبع هذه الوحدة اتجاهاً واحداً، مما يؤدي إلى تحقيق تناغم كامل ومخيف. من وجهة نظري، يظل وصف ليفتون لـ"الشمولية" مفهوماً

مهماً وملائماً لفهم بعض الحالات المعروفة الآن بـ"التطرف"، ومع ذلك، يصبح من الأصعب تحديد وفهم بوضوح ما يشعر به الفرد بوعي أو بلا وعي أثناء هذه العملية التحولية وبعدها. إن توضيح خصائص مثل هذه العمليات، من خلال تحليل عناصرها، بما في ذلك العزلة والإهانة والعار والتكرار ودعم "المجموعة" وما إلى ذلك، يبقى أمراً أسهل نسبياً من التأكد بالضبط من تأثير هذه التجارب في النهاية على أعماق العالم الداخلي للشخص الذي عوقِب وأُعيد تعليمه.

ومع ذلك، خلال الخمسينيات من القرن الماضي، طَرح ما يمكن أن نسميه بـ"مجتمع البحث" سؤالاً هاماً حول تأثير غسيل الدماغ أو التحكم العقلي: ما الخصائص المميزة لهذه العملية؟ تخيل ماذا لو كان الهدف من تنظيم انهيار الشخص بعناية ليس فقط التفكك، بل التحول الكامل إلى نظام إيماني علماني جديد، مثل الشيوعية العالمية؟ بمعنى آخر، ماذا لو كان الهدف هو جعل الأفراد يعتنقون إيماناً يعارض بشدة الديموقراطية الليبرالية ونظام السوق، أسس العالم الذي نعرفه، خاصةً في الرأسمالية الغربية؟ افترض مراقبون في عصر الحرب الباردة أنه يمكن استخدام استجوابات طويلة، وعروض مغرية، وإطراءات لطيفة، وتكرار الشعارات لجعلها سهلة التذكر ومقنعةً وغيرها، وذلك بهدف تفكيك الأفراد أولاً ثم إعادة بنائهم وتوجيههم وفقاً للحزب الشيوعي وإيمانه الاستبدادي في الصراع العالمي المستمر.

جذبت مسألة مشاريع السيطرة على العقل برعاية الحكومة، وإمكانية تأثير الأعداء سرّاً على الناس بسهولة، اهتمام العديد من المسؤولين خلال الحرب الباردة. كان العديد من الأفراد ضمن أوساط المخابرات الغربية يتابعون من كثب حالات مماثلة لحادثة ميندشنتي وغيرها. كان دالس، بالتعاون مع زملائه في وكالة الاستخبارات المركزية، على دراية جيدة بالجهود الاستخباراتية التي بذلتها خلال الحرب العالمية الثانية هيئة مكتب الخدمات الاستراتيجية (Office of Strategic Services)، التي سبقت وكالة الاستخبارات المركزية، وشارك فيها دالس وبعض موظفي وكالة الاستخبارات المركزية أداء مهام تلك الهيئة وأنشطتها. كانت تلك الجهود تهدف إلى تطوير علم التحقيق من أجل "العالم الحر" واستكشاف تقنيات نفسية وطبية جديدة، بما في ذلك

استكشاف ما يُعرف بعقاقير الحقيقة وغيرها من المواد الكيميائية القابلة للتعديل أو القابلة للاستخدام بطرق متعددة ومتنوعة وفقاً للاحتياجات المحددة. طوال حرب كوريا وبعدها، تلقى دالس تقارير حول "تقدمات" مختلفة قامت بها الأنظمة الشيوعية في مجال إدارة سلوك الإنسان. كان دالس وزملاؤه يعتقدون واجب الغرب التفوق في هذا المجال، ونتيجةً لذلك، وبإشارة منه، أنشأ عملاء وكالة الاستخبارات المركزية برامج بحث سرية للاستكشاف والتحكم في هذا المجال. هناك أسماء رمزية سرية خُصّصت لهذه البرامج مثل Bluebird وArtichoke، وبحلول عام ١٩٥٣، أطلقوا عليها اسم MK–Ultra؛ وهي برامج غير قانونية تنطوي على تجارب تجري على البشر بهدف تطوير الإجراءات وتحديد الأدوية التي يمكن استخدامها أثناء التحقيقات لإضعاف الأشخاص واستخراج منهم الاعترافات خلال عمليات غسيل الدماغ والتعذيب النفسي.

باختصار، استثمرت وكالة الاستخبارات المركزية على نحو كبير في البحث حول العقل والدماغ، وبمجرد بدء هذا العمل البحثي، كان هناك، بصورة مدهشة، قليل جداً من الرقابة المركزية على أعمالهم السرية في مجال علم النفس البشري والفسيولوجيا وعلم الأعصاب. تعرض العديد من الأشخاص الذين لم يكونوا على علم بهذا، بمن في ذلك المرضى النفسيون، لعواقب سلبية. كشفت التحقيقات التي أجراها لاحقاً أشخاص خارجيون أن هذا العمل البحثي الوفير في مجال "تعديل حالة الوعي أو الوظائف العقلية" كان مشكوكاً فيه على أفضل تقدير، وكان غير قانوني ومثيراً للجدل وغير أخلاقي على أسوأ تقدير.[1] من ناحية أخرى، سعت وكالة الاستخبارات

---

١ دُرس الموضوع على نحو كبير؛ يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى:

John Marks, *The Search for the 'Manchurian Candidate': The CIA and Mind Control* (London, 1979).

ويمكن الرجوع إلى ما صدر حديثاً:

Jane Mayer, *The Dark Side: The Inside Story of How the War on Terror Turned into a War on American Values* (London, 2008).

يمكن مراجعة أيضاً:

Scott Selisker, *Human Programming: Brainwashing, Automatons, and American Unfreedom* (Minneapolis, 2016); Streatfeild, Brainwash; Rebecca M. Lemov, *The World as Laboratory: Experiments with Mice, Mazes and Men* (New York, 2005); Joel Dimsdale, *Dark Persuasion:*

المركزية والقوات المسلحة إلى وضع استراتيجيات مبتكرة لزيادة قدرة جنود ونساء الخدمات العسكرية في الخارج على تحمّل الأسر بشكل أكثر فعالية والتكيّف مع ظروف الاعتقال الصعبة، وذلك يشبه المفهوم الذي اقترحه هانتر وزملاؤه سابقاً.

وُثّق البحث الذي أُجري في مجال علم نفس التحقيق والمقاومة في ما بعد لتقنيات هذا التحقيق في تقرير سري معروف من وكالة الاستخبارات المركزية يُعرف بـ*Kubark Manual* [دليل كوبارك]، الذي نُشر في عام ١٩٦٣ وهو متاح حالياً على الإنترنت.[١] يشمل هذا الدليل مجموعةً واسعةً من تقنيات التحقيق ويحلل مزايا هذه الطرق وعيوبها، مثل تهديدات القتل وحرمان الحواس واستخدام العقاقير ووسائل أخرى للتأثير في السلوك. كما يسلط الضوء على التنوع الكبير في ردود الأفعال البشرية تجاه هذه التقنيات. بصفة أساسية، لا يمكن لهذا "العلم" أن يعطي نتائج موثوقةً تماماً وقابلةً للتنبؤ بصورة كاملة في أي حالة محددة.

تجمع هذه الوثيقة بحوثاً أُجريت خلال العقد السابق وموّلت وكالةُ الاستخبارات المركزية مباشرةً جزءاً كبيراً منها. الهدف الرئيسي من هذه الأبحاث كان فهم تأثير مجموعة متنوعة من الظروف والممارسات على الأفراد. على سبيل المثال، استكشفت الأبحاث تداعيات حرمان النوم، وإيقاف الوعي الاصطناعي، وإعطاء مركب الأسيد

A History of Brainwashing from Pavlov to Social Media (New Haven, 2021).

بخصوص بعض التجارب الغربية التي جرت استناداً إلى المخابرات خلال الحرب الباردة وبعدها، يمكن الرجوع إلى:

Jon Ronson, *The Men Who Stare at Goats* (London, 2004).

بخصوص التجارب الأميركية والكندية على غسيل الدماغ، يمكن الرجوع إلى:

Charlie Williams, 'Battles for the Mind'.

لفهم السياق بعد الحرب في شرق أوروبا، يمكن الاطلاع على الأعمال التالية:

Mat Savelli and Sarah Marks (eds), *Psychiatry in Communist Europe* (London, 2015); Ana Antić, *Therapeutic Fascism: Experiencing the Violence of the New Nazi Order* (Oxford, 2016).

لفهم سوء استخدام "psy" في الشرق والغرب، يمكن الاطلاع أيضاً على مساهمات Knuth Müller وAna Antic في كتاب:

Psychoanalysis in the Age of Totalitarianism, edited by M. ffytche and D. Pick (London, 2016), Chapters 11 and 12.

1 Central Intelligence Agency (hereafter CIA), *Kubark Counterintelligence Interrogation*, July 1963, nsarchive2.gwu.edu/NSAEBB/NSAEBB27/docs/doc01.pdf.

الليزرجيك الديثيلاميد (LSD) وهو مركب كيميائي مهلوس يؤثر في الطريقة التي يشعر بها الفرد بالعالم من حوله، واحتجاز الأفراد في مساحات ضيقة، وتعريضهم لمواقف تجعلهم يتوترون، أو إطلاق الرسائل المتكررة. بالإضافة إلى ذلك، درست تأثير حرمان الحواس، إذ عُزل الأفراد في الظلام دون أي محفز حسي واضح، مما جعلهم يرتعبون أكثر.[1] وكما لوحظ بصورة حيادية خالية من العواطف في الوثيقة، فـ"الفكرة الأساسية هي أن مفهوم الفرد عن ذاته يعتمد على استمرارية البيئة المحيطة به وعاداته ومظهره وأفعاله وعلاقاته مع الآخرين، وما إلى ذلك. جلسة الاحتجاز تتيح للمحقق قطع هذه الروابط وإجبار الفرد الذي يتم التحقيق معه على الاعتماد فقط على موارده الداخلية دون أي دعم خارجي".[2]

بينما توسعت أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من وكالات المخابرات في هذا الميدان، استُقطب موظفو الجامعات والمستشفيات في العديد من المواقع، وشُجّعوا، وفي بعض الحالات موّلوا سراً لتطوير تجارب واختبارات غير تقليدية. عند النظر في نطاق هذه البيئة البحثية، قام أحد المؤرخين، ألفرد مكوي Alfred McCoy، بمقارنتها (رغم وجود لمسة من المبالغة) بعملية البحث السري الذي أدى إلى ابتكار

---

١ بالنسبة إلى لغة الحرب الباردة (الحرية، الطغيان، الاستبداد الشامل) التي تم الدفاع والانتقاد من خلالها على مشروع MK–Ultra ومشاريع أخرى ذات صلة، انظر إلى:

Andreas Killen and Stefan Andriopoulos, 'Editors' Introduction' to feature, 'Brain Warfare: The Covert Sphere, Terrorism, and the Legacy of the Cold War', *Grey Room*, 45 (2011), 7-17.

بالنسبة إلى عمل Cameron وسمعته، انظر إلى:

Rebecca Lemov, 'Brainwashing's Avatar: The Curious Career of Dr. Ewen Cameron', *Grey Room*, 45 (2011), 61-87.

ويشير Timothy Melley إلى أن ما بدأ كخرافة استعمارية استُفيدَ منه في النهاية من وكالة الاستخبارات المركزية، مقنعاً بذلك بعض الموظفين في الوكالة. اطّلع على مقاله المعنون 'Brain warfare...'.

وعاد بعض المعلقين الذين تناولوا مسألة تغيير العقل في مرحلة الخمسينيات كما في حالة الاستغلال النفسي الماوي إلى الظهور مجدداً في العقد التالي كمستشارين حول كيفية استخدام العزلة الفردية وحجب الحواس واستعمال المهدّئات في نظام السجون الأميركية. انظر إلى:

Lisa Guenther, *Solitary Confinement: Social Death and Its Afterlives* (Minneapolis, 2013), p. 87.

وصفت Guenther، في رؤية Schein، "إذا تمّ التعامل مع الإقناع القسري بالطريقة الصحيحة، وبأهداف مناسبة، يمكن أن يكون ذلك مفيداً للسجين الفرد وللمجتمع ككلّ". المرجع نفسه.

2 CIA, *Kubark Counterintelligence Interrogation*, p. 86.

القنبلة الذرية، إذ قال إن هذا ما يشبه نسخة وكالة الاستخبارات المركزية من "مشروع مانهاتن للعقل".[١]

لقد كان ذلك اهتماماً كبيراً حقاً بدراسة الحالات النفسية وسلوك الإنسان في ظروف متطرفة، وقد وُصفت هذه المشاريع جيداً في كتاب رائد نُشر في عام ١٩٧٩ بعنوان *The Search for the Manchurian Candidate: The CIA and Mind Control* [البحث عن المرشح المنشوري: وكالة الاستخبارات المركزية والسيطرة على العقل] للمؤلف جون ماركس John Marks. ساهم هذا الكتاب في إلهام العديد من الباحثين الآخرين الذين أوضحوا في ما بعد العديد من التفاصيل. استفاد ماركس جداً من طلبات الحصول على المعلومات من جهات حكومية لتجميع قصته، وبالتالي كشف النقاب عن العديد من المخططات التي وقعت تحت إشراف المدير الطويل الأمد لبرنامج MK–Ultra، سيدني غوتليب Sidney Gottlieb.[٢]

مثال مروع بصفة خاصة على مشاركة خبير في مجال الصحة النفسية يجب الإشارة إليه هنا: إنها أعمال الدكتور أيوين كامرون Ewen Cameron، الطبيب النفسي الذي ينحدر من اسكتلندا. قام الدكتور كامرون بإجراء ما يُعرف بتجارب "تكرار الرسائل" على مرضى في مرفق الطب النفسي في جامعة مكغيل في كندا. موّلت هذه التجارب جزئياً من مصادر استخباراتية سرية واستهدفت استكشاف تأثير تكرار الرسائل على المرضى الذين إلى حد كبير خُدّروا بواسطة الأدوية. بالإضافة إلى ذلك، حاول محوَ ذكريات مرضى يعانون من الفصام (schizophrenia) باستخدام علاجات

---

1 Alfred W. McCoy, *A Question of Torture: CIA Interrogation, from the Cold War to the War on Terror* (New York, 2006), p. 7.

راجع أيضاً:

McCoy, *'Mind Maze: The CIA's Pursuit of Psychological Torture', in The United States and Torture: Interrogation, Incarceration and Abuse, edited by Marjorie Cohn* (New York, 2011), pp. 25–52 (p. 25); Timothy Melley, *The Covert Sphere: Secrecy, Fiction, and the National Security State* (Ithaca, 2012); Streatfeild, *Brainwash*.

٢ شاركت مجموعة متنوعة من المعاهد ومراكز البحوث والعيادات والمراكز الفكرية في هذا، بما في ذلك صندوق Geschickter للأبحاث الطبية، وصندوق علم البيئة البشرية، و NIMH Addiction Research Center في Kentucky. انظر إلى:

Melley, 'Brain Warfare'; Marks, *The Search for the 'Manchurian Candidate'*; Williams, 'Battles for the Mind'; Lemov, 'Brainwashing's Avatar'.

مثل الصدمات الكهربائية والأدوية المضادة للاضطرابات النفسية مثل الثورازين (Thorazine). الجدير ذكره أنّ الدكتور كامرون أجرى هذه التجارب "تكرار الرسائل" على المرضى دون الحصول على موافقتهم المستنيرة، مما أدى إلى آثار خطرة وحتى كارثية على ضحاياه، والتي أصبحت واضحةً مع مرور الوقت.

حالة مثيرة أخرى تتعلق بعمل عالِم الأعصاب الأميركي جون ليلي John Lilly، الذي أجرى بعد الحرب العالمية الثانية مجموعةً متنوعةً من التجارب على الأدمغة، تشمل إدخال أقطاب كهربائية في أدمغة القردة وغيرها من الحيوانات، ومع ذلك، تحول تركيزه في وقت لاحق إلى دراسة تأثير حرمان الحواس على البشر. في الخمسينيات من القرن الماضي، قام ليلي، في الولايات المتحدة، وزملاؤه مثل دونالد هيب Donald Hebb، الذي عمل بشكل رئيسي في كندا، بأبحاث مموَّلة بسخاء حول تأثير العزلة الكاملة على الدماغ والشخصية. صُوّر هذا النوع من الأبحاث جيداً في فيلم عام ١٩٦٣ بعنوان "The Mind Benders" [العقول الملتوية]، إذ شاهدنا تجسيداً مثيراً لعالِم متوحش يُراقَب بعناية من قِبل ممثل رفيع المستوى في جهاز المخابرات، ففقد العالِم تدريجاً عقله بعد قضاء ساعات طويلة مغمَّساً في خزان مملوء بالماء.[١] طلاب البحث الذين عملوا مع هيب تطوعوا للجلوس داخل غرف العزل، حيث تُغطّى عيونهم بنظارات وتتعرض آذانهم إما للصمت وإما للضوضاء البيضاء التي تحتوي على جميع الترددات الصوتية بنسب متساوية، وذلك للسماح لفريق البحث بمراقبة التأثيرات الناجمة عن هذا العزل.

ما لم يمكن تجسيده تماماً هو الرعب الذي يختبره الأفراد أثناء احتجازهم الفعلي من قِبل قوات العدو، ومع ذلك، كان هيب أيضاً يرغب في فهم كيف يتغير الأفراد ويصبحون أكثر استجابةً في مثل هذه الظروف. كان يأمل في استكشاف ما إذا كانوا عرضةً لزرع أفكار جديدة أو مختلفة. بالمقابل، لم يقتصر ليلي على زملائه، بل أنشأ غرفة عزل مصممةً خاصّةً لأغراضه البحثية. تتضمن تقنيته غمر الشخص بالكامل داخل خزان مملوء بالماء عند درجة حرارة الجسم. عُيّن ليلي وهيب على حد سواء

1 Williams, 'Battles for the Mind'; and idem, 'On "Modified Human Agents": John Lilly and the Paranoid Style in American Neuroscience', *History of the Human Sciences*, 32:5 (2019), journals.sagepub.com/doi/full/10.1177095269511987209 4/.

مستشارَين للمساهمة في إقامة أبحاث حول حرمان الحواس في قاعدة رايت باترسون للقوات الجوية في ولاية أوهايو.

لدى ليلي رؤية للمستقبل القريب نسبياً، إذ يمكن استخدام تقنياته لتحقيق ما وصفه بـ"التحكم في مجموع دوافع الإنسان وسلوكه عبر الضغط على الزر"، مما يجعل "دماغاً واحداً سيداً يتحكم بصورة مباشرة بدماغ آخر خادم له".[1] ومع ذلك، مع مرور الوقت، قام هذا الشخص، الذي كان يُعتمد عليه سابقاً والعالِم المختبر الذي كان يعمل لمصلحة الحكومة، بتغيير اتجاهه. اعتبره البعض تغييراً جذرياً، وهو اختيار حياتي استكشفه على نطاق كبير العلماء. لم ينسحب ليلي تماماً من عمله السابق، لكنه غيّر اتجاهه. أصبح يهتم أكثر بالتوجهات المضادة للثقافة السائدة وبمجموعة متنوعة من القضايا الاجتماعية والبيولوجية الأكثر عمقاً وتعقيداً، ولم يكن هو الوحيد الذي قام بالانتقال من العمل داخل "المجمّع الصناعي العسكري" إلى مجالات أكثر غموضاً، بما في ذلك البحث الشخصي في مجال الظواهر الخارقة وهي تجارب غير عادية تتعارض مع الفهم العلمي السائد للعالم والطبيعة. بدأ ليلي يرى أن العزل ليس فقط خدمةً أساسيةً للتلاعب بالعقل والسيطرة عليه، بل يمكن أن يكون أيضاً وسيلةً لتمكين الأفراد وتيسير إدراك أوسع لهم. يمكن رؤيته كوسيلة لرفع الوعي، وتعزيز الحرية الشخصية، وزيادة الاستقلالية. مع مرور الوقت، بدا أن نوع العزل الذي درسه هو وعلماء آخرون يكتسب سياقاً جديداً، مساهماً بإدخال عنصر جديد مبتكَر في زيادة شعبية الانعزال والتقاعد في المجتمعات الغربية. حتى إن خزانات الطفو أصبحت جزءاً من مجموعة من الممارسات الناشئة التي تهدف إلى توفير السكينة والتمعن والتأمل أو الصحة العامة، والتي تم تضمينها في صناعة العلاج والاسترخاء المتزايدة وتم تطويرها والترويج لها من قِبل شركات في جميع أنحاء العالم. في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، تُقام

١ مذكور في:

Williams, 'Battles for the Mind', p. 97.

في هذا المرجع، يستشهد Williams بدراسة منشورة لِـJohn Lilly:

'Special Considerations of Modified Human Agents as Reconnaissance and Intelligence Devices (Committee D, Intelligence and Reconnaissance)', [n.d.], John Cunningham Lilly Papers (1915–2001), Special Collections and University Archives, Stanford University Library, Palo Alto, CA, USA, box 54, folder 17.

معارض كبيرة للمبيعات مثل مؤتمر علاج الطفو (Float Conference)، حيث يمكن للمستهلكين وخبراء الصناعة أن يجتمعوا لسماع محاضرات حول فوائد هذه التقنيات للجسم والعقل، واستكشاف أحدث الأجهزة.[١]

قصة ليلي هي حقاً استثنائية، إذ تلفت انتباهنا حينما انتقل بصورة غير تقليدية من عالم أبحاث "الحروب النفسية" في مرحلة الحرب الباردة إلى عجائب العالم الطبيعي. انتقل من التجارب العسكرية إلى الأنشطة المدنية وتمتع بحياة شخصية غير تقليدية فيBig Sur في كاليفورنيا. لاحظ أن لديه اهتماماً عميقاً ومتجدد الحيوية بالدلافين، إذ قدّر دماغها الكبير وذكاءها العالي. في أعماله السابقة، استكشف حتى إمكانياتها في القطاعات البحرية والعسكرية، ومع ذلك، أسهمت منشوراته، مثل *Man and Dolphin* (١٩٦١) [الإنسان والدلفين] و*The Mind of the Dolphin* (١٩٦٧) [عقل الدلفين]، إلى حد كبير في ترسيخ فكرة أن الدلافين هي كائنات ذكية وحية، وهي فكرة معترف بها على نطاق واسع اليوم. توضح رحلته، التي وُثّقت جيداً في مكان آخر، إمكانية الارتباط بين عالم الاستخبارات في مرحلة الخمسينيات وحركات "مكافحة الثقافة" الرسمية في الستينيات، وكذلك التحقيقات في ما بعد في الظواهر الخارقة التي أُجريت على يد الأجهزة الاستخباراتية والعسكرية، وأدت إلى اكتشاف عالم سري حيث "يحدق الرجال بالماعز" حسب وصف الكاتب جون رونسون[٢] Jon Ronson.

باتجاه آخر مثير، تم الحصول على أسيد الليزرجيك الديثيلاميد لأغراض استخباراتية، وأيضاً احتفى به الباحثون كعقار قادر على توجيه العقل نحو عوالم جديدة من الألوان والأشكال والأصوات. في الستينيات، أصبح وسيلةً للعديد من الأفراد الذين كانوا

١ موقع المؤتمر على الإنترنت:

www.floatconference.com

وفقاً لشركة في المملكة المتحدة تُدعى Floatworks، فإن الطفو على سطح الماء "مثبت علمياً" لزيادة الصحة العقلية والبدنية، ويترك المشاركون "أكثر سعادة واسترخاءً، وأقل شعوراً بالآلام والتعب"، ويجعلهم "واثقين من الحصول على نوم أفضل"، كل ذلك في غضون ساعة واحدة فقط. اقرأ المزيد:

'The benefits of floating', floatworks.com/.

2 Ronson, *The Men Who Stare at Goats*; David Kaiser and W. Patrick McCray (eds), *Groovy Science: Knowledge, Innovation and American Counterculture* (London, 2016).

مهتمين بضبط أنفسهم أو الانعزال عن الروتين اليومي المعتاد، وتوسيع استكشاف وعيهم الروتيني، والبحث عن "حالة مختلفة"؛ أو كما وصفه ألدوس هكسلي بصورة رائعة، فتح "أبواب الإدراك".

مع ذلك، يجب أن نأخذ في الاعتبار استخدامات حمض الليزرجيك الديثيلاميد في الجوانب العسكرية والاستخباراتية لغاياتنا، إذ كان هذا الحمض مادةً كيميائيةً أثارت اهتماماً كبيراً لدى وكالة الاستخبارات المركزية كوسيلة محتملة للسيطرة على العقل أو كمساعد في التحقيقات. أُجريت العديد من التجارب حول تأثيرات مثل هذه المواد على المعتقلين في سياق عسكري، مثل تلك التجارب التي نفذها سلاح الكيمياء في الجيش الأميركي في منشأة إيدجوود أرسنال في ولاية ماريلاند. تعرض الجنود ومرضى نفسيون وسجناء في الولايات المتحدة وكذلك في مشاريع توعية في الخارج لمثل هذه التجارب، بما في ذلك واحدة في أوروبا في عام ١٩٦١ تحت اسم مستعار "فرصة ثالثة". تمت هذه التجارب خلال الخمسينيات وبعدها. في حادثة مأسوية أخرى في إيدجوود في عام ١٩٥٣، تم حقن جرعة قاتلة من الميسكالين (mescaline) في المريض هارولد بلاور Harold Blauer، لاعب كرة المضرب الذي كان يتلقى علاجاً للاكتئاب، دون أن يعلم أبداً أنه جزء من تجربة عسكرية. في تجربة أخرى أيضاً في إيدجوود، تم التبليغ عن أن المشتركين رأوا "وحوشاً ذات عيون خضراء مرعبة" أو شعروا "بتدفق دائم للكهرباء" في جسدهم.[١]

أدرك الباحثون أن مثل هذه الموادّ يمكن أن تكون ذات تأثير قوي، لكنها في الوقت نفسه غير قابلة للتنبؤ بها بدقة، إذ تؤثر في الأفراد بطرق متباينة وملحوظة. إذا كانت واحدة من أهداف هذا البحث هي ببساطة تعطيل الأفراد، فإن هناك هدفاً آخر هو تعريض أفكار الشخص الذي احتُجز للمستجوب. اعتُقد في إحدى التجارب التي أُجريت في مختبر أرسنال إيدجوود أن حمض الليزرجيك الديثيلاميد سيكون أكثر فعاليةً عندما يُعطى للأشخاص الذين لم يسبق لهم أن تلقوا أي معلومات مسبقة عما سيفعله الدواء بهم، أو حتى للأشخاص الذين لم يكونوا على علم بأنهم يتلقون

1 Raffi Khatchadourian, 'High Anxiety: LSD in the Cold War', *New Yorker*, 15 December 2012, www.newyorker.com/news/news-desk/high-anxiety-lsd-in-the-cold-war.

علاجاً. لذلك، في بعض الأحيان، تعرض الجنود الذين استُخدموا كأفارقة تجريبيين للخديعة، إذ أُعطوا جرعات من حمض الليزرجيك الديثيلاميد دون علمهم المسبق، ثم روقِبوا بعناية. كانت الآثار مزعجةً للغاية؛ تركت الأفراد في حالات من الارتباك واليأس أو الانفعال.

لذلك، يجب أن ننظر إلى قصص السجناء الغربيين الذين يُزعم أنهم تعرضوا لعمليات غسيل الدماغ أثناء حرب كوريا في سياق أوسع. يتضمن هذا السياق التطورات السابقة واللاحقة، بما في ذلك مجموعة متنوعة من الأفكار والنظريات والتجارب والافتراضات. نشأت أدبية واسعة تستكشف هذا النوع الجديد من الحروب العقلية في العقود الفاصلة بين الحربين العالميتين وتوسعت أكثر خلال الحرب العالمية الثانية. ضُخّمت هذه الأدبية وأُثيرت بصورة درامية بواسطة حوادث غامضة ومعلن عنها إلى حد كبير في مراحل مبكرة من الحرب الباردة.

سجلت مرات أخرى حالات استخدام التعذيب لاستخلاص الاعترافات في مرحلة الحرب في كوريا، مما أثار دهشةً واستياءً. في عامي ١٩٥٢ و١٩٥٣، برزت حالات جديدة لعسكريين من الولايات المتحدة يظهرون مذنبين أو على الأقل يبدون كذلك، أثناء وجودهم بين يدَي العدو، حيث اعترفوا بجرائمهم، بما في ذلك مشاركتهم في هجمات باستخدامهم أسلحة جرثومية. ماذا كان ينبغي على الجمهور الغربي أن يستنتجه من هذه الأخبار عن الأفراد الأميركيين الذين قُبض عليهم و"كشفوا" عن مشاركتهم في مثل هذه الحروب البيولوجية في كوريا؟ هل كانت هذه الاعترافات نتيجة عمليات غسيل الدماغ، أم أنهم كُسروا نفسياً وبالتالي شُجّعوا على الكشف عن الحقيقة؟ بدأت الاتهامات التي قدمها الجانب الشيوعي بشأن استخدام الولايات المتحدة لمثل هذه الأسلحة تنتشر منذ عام ١٩٥١، ولكن القصة حقاً اكتسبت شهرةً في العام التالي عندما بدأ الطيارون الذين احتُجزوا بالاعتراف بالجرائم. بالإضافة إلى ذلك، بدأت شائعات تنتشر حول هذه الأساليب الجديدة في الحرب، إذ تم تداول تقارير تفصيلية عن تشريح جثث مدنيين في كوريا كانوا تحت سيطرة الشيوعيين، وتبين أنهم عانوا ما عانوه من قيء وصداع وأمور أسوأ بكثير، مثل نزيف في المخ

وتلف في الرئتين والغدد اللمفاوية والكظرية. عُززت هذه التقارير بتقارير أخرى تشير إلى استخدام القوات الغربية لمواد سامة مثل الكربون النشط، وأيضاً إلى وجود أشياء غامضة تسقط من الطائرات الأميركية في السماء.

في كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢، تعرض طاقم طائرة قاذفة أميركية لإسقاط طائرتهم أثناء تحليقهم فوق شمال كوريا. بعد أشهر عدة، قدمت السلطات الصينية والكورية الشمالية كلّاً من الطيار جون كوين John Quinn وضابط آخر في طاقم القاذفة، كينيث إينوك Kenneth Enoch، للاعتراف علناً بدورهما في هجمات بالأسلحة الجرثومية.

أكد المسؤولون الأميركيون أن الطيارين الذين اعترفوا بالجرائم إما كانوا يتظاهرون عن عمد بالاعتراف بجرائم لم يرتكبوها، وإما أنهم أُقنعوا بطريقة غير صحيحة، ربما دون وعي، بأنهم مسؤولون عنها. بصورة عامة، نفت الحكومة الأميركية هذه الادعاءات وأكدت بشدة أن هذه القصص لا تحمل أي معنى، وأن هؤلاء الرجال قد تعرضوا للانتهاك والضغط الشديد لدرجة أنه لم يعد بإمكانهم التمييز بين الأعلى والأسفل، وزعم المسؤولون في واشنطن بغضب أن الطيارين كانوا ينشرون معلومات مضلّلةً تحت ضغط لا يُطاق.

نفت بكين الادعاءات الأميركية وأكدت دقة الاعترافات. نظمت لجنةً علميةً دوليةً مفترضةً تهدف إلى التحقيق بموضوعية (على الرغم من أنها في الواقع كانت تتألف من خبراء متعاطفين إلى حد ما) في هذا الأمر. نشرت السلطات الصينية تقريراً لتأكيد استخدام الولايات المتحدة فعلاً لمثل هذه الأسلحة، مع الاستشهاد بما أدلى به أفراد طواقم الطائرات المأسورة وبشهادات شهود آخرين، بالإضافة إلى أدلة علمية (مثل عينات التربة ودلائل على وجود حشرات مسمَّمة وما إلى ذلك).[1] بغض النظر عن حقيقة هذه الادعاءات، تخيل مزيداً من الصدمة والقلق في عام ١٩٥٣ عندما اعترف ضابط أميركي رفيع المستوى برتبة كولونيل، فرانك شوابل Frank Schwable، بمشاركته النشطة أيضاً في هذا السياق.

مرةً أخرى، لم يبدُ هذا الادعاء غير معقول تماماً لأي شخص محايد، ولا سيما

1 *Report of the International Scientific Commission for the Investigation of the Facts Concerning Bacterial Warfare in Korea and China*, www.documentcloud.org/documents/4334133-ISC-Full-Report-Pub-Copy.html.

لمن يعارضون الاستعمار الغربي. بدلاً من إلقاء قنابل نووية (كما فعل سلاح الجو الأميركي في اليابان عام ١٩٤٥، وكما يمكن لبعض المسؤولين العسكريين الأميركيين أن يفكّروا على الأقل في القيام به عندما تعثرت الحملة الكورية)، كان من الممكن في عقول كثيرين حول العالم، حتى خارج العالم الشيوعي، أن تكون هناك نية لدى القوات الأميركية في تسميم الشعب والأرض، مما يؤدي إلى تدمير الزراعة ونقل الأمراض، بهدف إحداث مجاعة جماعية، وليس فقط تحقيق الإحباط النفسي. ما زال الجدال حول هذه الحالة المتعلقة بالتستر و/أو نشر الأخبار الزائفة حول حرب كوريا قائماً حتى اليوم بين المؤرخين.[1] بصورة متضحة، شعر العديد من النقاد بأن الخيارات السياسية المدمرة التي اتخذتها الولايات المتحدة في الحرب التي اندلعت في فيتنام خلال العقد اللاحق جعلت اتهامات الحرب الجرثومية السابقة بشأن كوريا تبدو أكثر تقبّلاً بالنظر إلى الوراء.[2]

الدكتور تشارلز مايو Charles Mayo، جراح بارز ومسؤول طبي، ومعلّق على حرب كوريا، هو مثال بارز على الرد الغاضب على هذه الادعاءات في تلك المرحلة. بدا كأنه مقتنع تمام الاقتناع بنفي الحكومة الأميركية، معلناً أن الطيارين الذين اعتُقلوا قد تعرضوا لتحطيم نفسي وغسيل دماغ لكي يقولوا ما طُلب منهم أن يقولوا. وصف الدكتور مايو هؤلاء الأسرى الحربيين بأنهم تُركوا في أوضاع مزرية، مع جروح غير معالَجة وتلوث أجسادهم بالقمل. كانوا معرضين بشدة لعوامل الجو، واضطروا لشرب مياه ملوثة وتناول طعام غير صالح بتاتاً، وتعرضوا لتهديدات مستمرة بالإعدام،

---

1 Stephen Endicott and Edward Hagerman, *The United States and Biological Warfare* (Bloomington, 1998); Judith Miller et al., *Germs: Biological Weapons and America's Secret War* (New York, 2001).

2 Robert Jay Lifton, *Death in Life: Survivors of Hiroshima* (New York, 1968); Ran Zwigenberg, *Hiroshima: The Origins of Global Memory Culture* (Cambridge, 2014);
في ما خص استخدام مبيد الأعشاب الكيميائي (agent orange) في فيتنام، يمكن الرجوع إلى الكتاب التالي:

Marilyn Young, *The Vietnam Wars 1945–1990* (New York, 1991), pp. 325-6.
لسياق الحرب الكورية، يمكن الرجوع إلى الكتابين:

Max Hastings, *The Korean War* (London, 1987); Bruce Cummings, *The Korean War: A History* (New York, 2010).

والتنمر والمضايقة على نحو دائم. بالإضافة إلى ذلك، تعرضوا للحرمان من النوم والضرب المنتظم. ووفقاً لما قاله مايو، استخرج الشيوعيون اعترافات من خلال تلاعبهم بأبحاث بافلوف، مما أدى إلى إعادة تشكيل عقول الذين أُسروا بين أيديهم. وأيضاً، أوضح الدكتور مايو أن أي مؤشر على التعاون من هؤلاء السجناء كان يلقي بظلاله على تحسين طفيف في معاملتهم، وبالتالي إقامة نمط من الارتباطات داخل عقولهم. أشار إلى أن فهم التغييرات العميقة في مواقفهم وبياناتهم العامة يتطلب نهجاً يستند إلى علم الأعصاب أو علم النفس السلوكي، بدلاً من التحليل النفسي.

طلب مايو من قرائه فهم مأساة هؤلاء الأسرى والتعاطف معهم كي يكتشفوا كيف دُفعوا إلى حافة اليأس ثم قدم لهم سبيلاً للهروب. رأى أنهم قد يكونون غير قادرين تماماً على المقاومة نظراً إلى الحالة الذهنية التي يعيشونها. ما كان مذهلاً حقاً أنّ بعض الأفراد ما زالوا قادرين على الصمود وعدم الانهيار، وهم يتحملون هذا العلاج القاسي حتى لو كان ذلك ليوم واحد فقط، وفي الوقت نفسه كانوا قادرين على الاحتفاظ بأفكارهم المترابطة. شدد على أنه من المفهوم تماماً أن ينهار الأشخاص العاديون أو يصبحوا مرتبكين بصورة مطلقة. حثّ القراء على تصور هجوم منهجي تكتمل فيه الفوضى لدرجة أن يصبح همهم الوحيد تناول قطعة رقيقة من الخبز، وتصبح أمانيهم الوحيدة ساعة نوم واحدة فقط.[1]

قال مايو إنه بفضل استخدام الظروف المحيطة الملائمة، يمكننا التأثير في آراء معظم الأفراد وأفكارهم وجعلهم يقولون أو يصدقون أي شيء. وبناءً على ذلك، روجِعت هذه الاعترافات التي قدمها السجناء "المذنبون" بانتظام وقورنت بقصة مختلفة لاستكشاف التباين بينهما. أثار هذا حالة من القلق بين السياسيين المتشددين وقادة الجيش، ولوحِظ أن العديد من أسرى الحرب الأميركيين وقّعوا أيضاً عرائض تدعو إلى السلام، وعبّروا عن شكوكهم وانتقاداتهم للحرب، وبالخصوص حرب كوريا. ومع تقدم الخمسينيات، انتشرت تقارير تتحدث عن زيادة الإحباط والسخرية وضعف المعنويات داخل القوات المسلحة، وهذه التقارير اختلفت بشدة عن حالات الطيارين

1 'Dr. Mayo Calls Reds' Torture Method Subtle', *Los Angeles Times*, 27 October 1953, p. 9, www.newspapers.com/clip/22881732/the-los-angeles-times/.

الذين "انهاروا" وخضعوا لمحاكمات سريعة. هناك تقارير أخرى أيضاً تحدثت عن أفراد تعرضوا لغسيل الدماغ، سواء كانوا رجالاً أو نساءً، بمن في ذلك الطلاب الغربيون في الصين، الذين انهاروا بسرعة تحت التحقيق وأقروا بما طُلب منهم أن يكونوا عليه. حالة بارزة في هذا السياق تتعلق بالطالبة هارييت ميلز Harriet Mills التي حصلت على منحة دراسية في الصين من برنامج Fulbright، الذي تقدمه الحكومة الأميركية بهدف تعزيز التبادل الثقافي والتفاهم الدولي من خلال دعم الدراسة والبحث في مختلف دول العالم. اعتُقلت هارييت في عام ١٩٥١، واضطُرت إلى الاعتراف بأنها كانت عميلة تجسّس غير مدفوعة الأجر، مؤكّدةً وجود أسلحة جراثيم أميريكية في كوريا.[1]

يبدو أن بعض الأسرى قد خضعوا لتدريب في فترة احتجازهم، مما أدى إلى تطوير احترام أو إعجاب أو حتى حب حقيقي تجاه معلميهم السجناء. لنأخذ مثالاً حالة جين دارو Jane Darrow، وهي امرأة كندية وابنة لداعية مسيحي عملت معلّمةً في الصين. اعتُقلت بُعيد تولّي ماو السلطة الكاملة في الدولة عام ١٩٤٩، وقضت أربع سنوات في الاحتجاز. على الرغم من أنها ربما لم تتحول بالكامل، فإنّ أفكارها وعواطفها تحولت إلى حد كبير خلال سنوات احتجازها. في السابق، كانت تعمل كجزء من عائلة مكرسة لنشر المسيحية والتشجيع على الإيمان المسيحي وتحويل الأشخاص إلى هذه الديانة، لكنها تلقّت تدريباً لتبني حماسة جديدة تجاه فكر ماو. بعد إطلاق سراحها، وصفت كيف شعرت بحماسة وسرور كبيرين أثناء دعمها للنظام الشيوعي الجديد رغم شعورها المستمر بالاحتجاز.

في فترة احتجازها التي شملت اعتقالها الأولي ومن ثم "ترقيتها" لتصبح نوعاً من المعلمين غير الرسميين للآخرين، سيطرت مشاعر هائلة من الخجل على جين. هذه المشاعر تعززت بواسطة زملائها في السجن والحراس. تم تذكيرها باستمرار بأن أية أفكار متبقية في رأسها عن التفوق كانت خاطئةً رغم عدم وضوح ما إذا كانت لديها هذه الأفكار من البداية أم لا. كان هدف المجموعة في السجن هو ضمان تواضعها وجعلها تدرك تماماً عضويتها العارية من الأخلاقية في فئة المستغلين. تدريجاً، أقرت بانضمامها

1 Sam Roberts, 'Harriet Mills, Scholar Held in "Brainwashing Prison" in China, dies at 95', obituary, *The New York Times*, 29 March 2016, www.nytimes.com/2016/30/03/world/harriet-mills-scholar-held-in-brainwashing-prison-in-china-dies-at-95.html.

إلى هذه الطبقة بصراحة وشعرت باليأس منها لمدة من الزمن. أصبحت مرتعبةً تجاه هويتها السابقة كونها ممثلةً للعالم الأجنبي والإمبراطوري والمتميز. مع مرور الوقت، نجحت إلى حد ما في التخلص من هذه الهوية والتوجه بأفكارها ومشاعرها نحو قضية الشيوعيين الصينيين.

على الرغم من تحولها السياسي، لم تبدِ دارو كل الحماسة الضرورية لكي تحظى بثقة السلطات كمعلمة سجن موثوق بها تماماً؛ وما أعاق ذلك هو كونها أجنبية. عندما أُفرج عنها أخيراً، أعربت عن شكرها الكبير للقاضي وعن دفء مشاعرها تجاه من احتجزوها، وعن امتنانها للمعرفة التي اكتسبتها من زملائها في السجن. أدانت بحرارة جميع الجرائم التاريخية للولايات المتحدة، بما في ذلك اتهامات الحرب البيولوجية الأخيرة.

سجناء مثل هؤلاء يُظهرون تقدماً داخل النظام السجني؛ يتفاعلون معه بأفضل طريقة أثناء مواجهتهم لعمليات التحقيق والإرشاد والعقوبات والمكافآت. مع مرور الوقت، تزداد أهمية المجتمع الجديد وتقبله، وربما حتى مشاعر الحب تجاهه، بالنسبة إلى السجناء. يمكن أن يحدث هذا التحول عند السجين بوعي، ولكن كما أشار المحللون، يمكن أن يحدث أيضاً بلا وعي. عندما شرح المعلقون بعد الحرب عمليات التلاعب بالعقول، أوضحوا أن السجناء يقومون بـ"نقل" أماني ومشاعر أعمق وأكثر أصالة إلى السلطات الجديدة أو إلى الجماعة الجديدة. هذا، كما سيلاحظ ليفتون وغيره، كان أيضاً الأسلوب التقليدي لعمل الطوائف. أظهر ليفتون أن دارو كانت مرتاحة بقبول المجموعة في السجن بحماسة شديدة لبياناتها التي تقول إنها كانت تعيش حياةً "طفيليةً تعتمد بلا مبرر على الآخرين" حتى ذلك الحين أي قبل تحولها في السجن.[1] وبناءً على ذلك، أعادت دارو صياغة سردها الذاتي تدريجاً، سواء بصوت مرتفع أو في داخل عقلها، بدعم كبير من الآخرين الذين كانوا محتجزين معها، وقد تلقت الكثير من الدعم من السجناء الآخرين الذين كانوا حولها أثناء اعترافاتها وتعبيرها عن ندمها المرير على الأخطاء العديدة التي ارتكبتها في الماضي.

١ أعتمد في هذا المصدر على كتاب *Thought Reform* [إصلاح الفكر]، الفصل السابع، حيث استُخدم اسم Jane Darrow كاسم مستعار لحماية مصدره.

لا يمكننا سوى أن نتساءل إذا كانت مشاعر شخصية معيّنة أو آليات دفاع قد تعرضت للاضطراب والانهيار داخل دارو، كما الحال مع أي شخص آخر يخضع لهذا النوع من العملية. قد نتساءل عما يمكن أن يجعل دارو خاصةً عرضةً لهذا النوع من الإهانة الشخصية والتحميل بالذنب. هناك الكثير من الأمور التي تبقى غير معروفة بالضرورة حول هذه الخبرة والنتائج اللاحقة. يعتمد توجيهي هنا على الوصف الواقعي الذي قدمه ليفتون في عام ١٩٦١. هذا السرد يلمّح إلى كيفية تحول الشخص إلى أن يكون مزدرياً تجاه ذاته السابقة، ويؤمن بنقاء عضويته الجديدة في الجماعة، ويصبح مقتنعاً بأنه الآن يتمتع بحرية أعمق مما كان عليه في السابق، وينظر إلى نفسه على أنه أكثر وجوداً بفضل هذه "المساعدة" في اتجاه "الحقيقة". يكفي أن نقول إنّ ما كانت، ربّما، تعتبره دارو والسجناء المماثلون معها عقوبةً قاسيةً وغير عادلة في السابق داخل السجن، يمكن أن يتحول في العقل إلى شيء أعمق بكثير.

تطورت المناقشات المتعلقة بغسيل الدماغ إلى حد كبير منذ تلك المرحلة، وامتدت لتشمل مجموعةً متنوعةً من المواضيع. بدأت هذه المناقشات بالحكايات المتعلقة بمتلازمة الذاكرة الزائفة والتقارير عن ضحايا ما يُعرف بـ"متلازمة ستوكهولم"، ووصلت إلى الاستكشاف الحالي لتأثير "تدجين" و"تطرف" الشباب في ما يتعلق بقضايا مثل الجهاد.[1] على سبيل المثال، في سبعينيات القرن الماضي، حدثت حادثة مع باتي هيرست Patty Hearst، وهي وريثة ثرية وشابة اختطفتها الجماعة اليسارية المتطرفة في الولايات المتحدة المعروفة باسم "الجيش التحريري السيمبيوني" (SLA)، التي كانت لديها أفكار وأهداف تشير إلى التحرر والتغيير الاجتماعي والسياسي في الولايات المتحدة. كشفت هذه الحادثة عن تشابه كبير في سلوك هيرست وخاطفيها، إذ شاركت في عملية سرقة بنك في سان فرانسيسكو. ساهمت هذه الحادثة ومحاكمة

1 Alexandra Stein, Terror, Love and Brainwashing: Attachment in Cults and Totalitarian Systems (London, 2016).

انظر أيضاً إلى المرجع نفسه:

'Attachment Theory and Post-Cult Recovery', Therapy Today (September 2016), 18–21; 'Terror and Love: A Study of Brainwashing', Anthropology Now, 4:2 (September 2012), 32–41.

هيرست في تعميم مصطلح "متلازمة ستوكهولم"، الذي يشير إلى العلاقة النفسية الإيجابية التي تنشأ بين الرهائن ومختطفيهم. فريق الدفاع عن هيرست قدم حجةً بأن أي أعمال جرمية ارتكبتها خلال احتجازها لم تكن ناتجةً عن اختيارها الحر، بل كانت نتيجةً للإكراه والتلاعب النفسي الذي تعرضت له. كانت هيرست بالفعل شخصاً هشاً يعاني من مشكلات نفسية صعبة قبل اختطافها، مما جعلها عرضةً للتلاعب. ببساطة، كانت تعاني من متلازمة لم تنشأ تماماً بسبب فترة الاحتجاز، ولكن قد تكون قد تأثرت بمشكلات سابقة، واستُغلّت من آخرين للسيطرة عليها بمجرد اختطافها. قدم خبراء طبيون معترف بهم دعماً لها وعملوا على الحصول على العفو لها، بمن في ذلك ليفتون وكتّاب آخرون مشهورون في مجال دراسة غسيل الدماغ.[1]

على مدى الخمسين سنة الماضية، أصبحت بعض الحجج التي كانت محل نقاش أقرب إلى المنطق السليم: مثل حجة بأن المعتدي الذي يخلق بيئةً تخويفيةً واستبداديةً أو ملتويةً جداً للضحية قد يؤثر إلى حد كبير وربما يحول الحياة النفسية الواعية واللاواعية للمختطَف أو المعتدى عليه، مما يؤدي إلى ارتباك كبير في داخله قبل مطالبته بالامتثال الداخلي والتحقق منه.[2] هناك حكايات عن ضحايا يظلون في سجن خاطفهم حتى عندما لا تكون هناك قضبان. أحياناً، يمكن أن يُلحق المضطهد أكبر الأضرار بضحاياه عندما

---

1 William Graebner, *Patty's Got a Gun: Patricia Hearst in 1970s America* (Chicago, 2008).
اشتق اسم متلازمة ستوكهولم من عملية سطو حدثت في العاصمة السويدية (٢٣-٢٨ آب/ أغسطس ١٩٧٣)، حيث احتُجز موظفون عدة داخل خزنة بنك. رفض الضحايا المساعدة من المسؤولين الحكوميين، وتعلّقوا عاطفياً بخاطفيهم، بل أكثر من ذلك، دافعوا عن خاطفيهم بعد أن أفرج عنهم، بعد ستة أيام من احتجازهم، وصاغ هذا المصطلح عالِم الجريمة والطبيب النفسي Nils Bejerot، وطوّره الطبيب النفسي Frank Ochberg.

٢ في المرحلة بين الحربين العالميتين، كتب عدد من علماء علم النفس، بمن فيهم Sándor Ferenczi وAnna Freud، عن ضحايا مختلفين لأنواع متنوعة من الصدمات، وعن إمكانية "التمايز مع العدو" أي أن الأسير يتأثر بعدوّه فيصبح مؤذياً مثله. ثم استكشف Bruno Bettelheim هذا الموضوع استكشافاً ذاتياً في ورقته المؤثرة حول تجربته في معسكر الترحيل. انظر إلى:
'Individual and Mass Behavior in Extreme Situations', *Journal of Abnormal and Social Psychology*, 38 (1943), 417-52.
وقد أولَت Hannah Arendt اهتماماً بعمله فيما تُعدّ كتاب (١٩٥١) *The Origins of Totalitarianism* [**أسس التوتاليتارية**] وكذلك فعل Stanley Elkins أثناء وضعه لتفصيل شامل عن التأثيرات النفسية للعبودية عبر الأجيال. يمكن الرجوع إلى كتابه:
Slavery: A Problem in American Institutional and Intellectual Life (Chicago, 1959).

يجعلهم مشاركين نشطين أو شركاء متعاونين طوعيين، وبالتالي يصبحون "شركاء في الجريمة".

في الوقت الحاضر، يمكن للمحترفين في مجال الصحة النفسية أن يعتمدوا على فرضية أن "العالم الداخلي"، الذي ليس مجرد انعكاس لـ"العالم الخارجي"، قد يؤثر تأثيراً عميقاً ودائماً من خلال تجارب الصدمات التي يتعرض لها الشخص على يد الآخرين. تلك التجارب يمكن أن تحدث في مراحل مبكرة من الحياة أو في أي وقت لاحق. يمكن أن يثير المعتدون مشاعر معقدة لدى الأطفال والكبار على حد سواء، بما في ذلك مشاعر الذنب والعار والإهانة، وبالتالي، فإن إجبار الضحية أو السجين على القيام بأفعال ضد إرادته وتتعارض مع نظام الاعتقاد السابق له يسبب نوعاً من الاضطراب النفسي فيه. حينئذ يُستغل الضعف السابق للشخص في حالات الاعتداء لزيادة تفاقم الصدمات السابقة؛ ويُشار إلى هذه الظاهرة الشائعة في الوقت الحاضر بمصطلح "إعادة اختبار صدمة ماضية" (re–traumatisation). من النادر أن ينجو أي شخص دون تأثيرات نفسية بعد مدة طويلة من الاحتجاز رغم أن بعض الأشخاص يُظهرون قدرة مذهلة على الحفاظ على وعيهم النفسي حتى في وجه أصعب الظروف.

تذكروا برايان كينان Brian Keenan، الكاتب الأيرلندي الشمالي الذي أمضى مدةً طويلةً رهينةً في بيروت، ووصف في كتاب رائع مجموعةً واسعةً من المشاعر التي عاشها خلال أربع سنوات ونصف من الأسر. كتب عن تقلبات حالته النفسية: أوقات الصمود والشجاعة والتعاطف والقوة وروح الفريق، وفترات الاضطراب النفسي الشديد والمكبوت. بين عامي ١٩٨٦ و١٩٩٠، أمضى كينان فترات من العزلة في بعض الأحيان، وفي مساحات محدودة مع رجال آخرين في أحيان أخرى، بمن في ذلك الرهينة الآخر جون مكارثي John McCarthy، الذي كان مهماً جداً بالنسبة إليه. قدم كينان وصفاً مؤثراً للمحبة والعناية التي كان يتبادلها السجناء فيما بينهم، ولتقلبات حالته النفسية مثل الرعب والغضب والعزلة واليأس الشديد، وللّحظات التي يبدو فيها العقل كأنه سينهار، أو ربما يتعافى قليلاً، وللراحة التي يمكن أن تجدها أحياناً في حضرة شخص آخر يعاني من الصعوبات نفسها.

من الممكن أن يكون من غير المعروف كيف كان كينان أو ماكارثي سيتصرفان

لو كانا وحدهما تماماً طوال تلك السنوات؛ كانت هناك لحظات، كما يُقرّ كينان، بدا فيها عقله كأنه يصرخ بلا صوت. يقدم كينان فهماً عميقاً لمعاناة الشخص الذي يشهد نفسه ينزلق نحو حالة من الهذيان، وينقل أيضاً التقلبات السريعة في سلوكه ومشاعره: لحظات من الضحك الهستيري، وأوقات يومية تأملية مكثفة، وألعاب مبتكرة، ومناقشات وغضب وجدال، وحتى لحظات من السكينة (لو قصيرة). يوثق جيداً التذبذب المستمر بين العقلانية والجنون المحتمل، وبين الفهم والتجنب والارتباك، واللحظات الرهيبة عندما "نصبح، نحن السجناء، كائنات نكره أنفسنا ولا نستطيع تحمل وجودنا، ونختار تفريغ هذا العبء على آخرين، شخص نحترمه ربما، وربما حتى نحبه. كان على كل واحد منّا أن يتصدى لهذا الغضب الداخلي ويسعى لاستعادة زمام السيطرة على النفس".[1] الاحتفاظ بالأمل أثناء الاحتجاز قد يكون أصعب التحديات، بعد سنوات مما وصفه كينان بأنه "حملة شيطانية شريرة".[2]

في سياق الحياة العائلية العادية، يمكن لشخص مهيمن أن يقيد الآخر ويجعله يخون مبادئه الشخصية ويتبنى أفكار المهيمن وأفعاله، وفي بعض الأحيان يدفعه إلى ارتكاب أعمال إجرامية من أجل الحصول على تأييده واستحسانه. لقد نال مفهوم "تشويه نظرة الإنسان لواقعه" اهتماماً كبيراً في مناقشات عن علم النفس والديناميات الجنسية؛ وهو السعي للتلاعب بنظرة الشخص للأحداث والتجارب الخاصة به بطريقة تجعله يشك في ذاكرته ووعيه. باختصار، يمكن للأشخاص أن يجدوا أنفسهم يعيشون تحت أشكال مختلفة من الاستبداد الصغير، سواء داخل العلاقات الزوجية، أو الأسر، أو المجتمعات المغلقة، أو حتى داخل مجتمعات واسعة تمنح الحريات الأساسية للغالبية. يمكن للمحترفين مثل التربويين والأطباء والمساجين والسياسيين والمحققين والكهنة ومدربي الجيش أن يؤثروا بعمق في مشاعر الناس وسلوكهم وتفكيرهم، إذا لم تكن هناك مسارات مفتوحة للضحية للهروب.

بعض الأشخاص الذين تعرضوا للعنف على يد عصابات، أو مَن عاشوا داخل جماعات طائفية ترهبهم أو تغويهم وتطلب منهم اعتناقها، يرغبون في التأكيد على

---

1 Brian Keenan, *An Evil Cradling: The Five-Year Ordeal of a Hostage* (London, 1991), p. 294.

2 Keenan, *An Evil Cradling.*

أهمية الاعتراف بواقعية تغيير عقولهم أو تفكيرهم نتيجة الضغوط والتأثيرات التي تعرضوا لها، ولكنهم يفضلون عدم التركيز بصورة مفرطة على الجوانب الأسطورية أو الخيالية لهذا التفكير، والأهم من ذلك كله، عدم إغفاله كخطاب مبالغ فيه، مما يعني أنهم يريدون أن يكون الحديث عن تلك التجارب التأثيرية أكثر واقعيةً وعقلانيةً دون أي مبالغة في الوصف. يمكن أن يكون الشعور بالذنب بسبب المشاركة في مثل هذه الظروف من أصعب ما يمكن تحمله، خصوصاً إذا نجح الجاني أو السجان في إثارة شيء أكثر وحشيةً وكراهيةً وإنسانيةً (سواء كان ذلك في الأفكار أو الأفعال) تجاه زملائهم الضحايا، الذين يكونون قد ساهموا بذلك في تنفيذ أوامر غير أخلاقية.

كما أشار العديد من الكتّاب على مدى عقود في ما يتعلق بأشد أشكال الإصلاح الفكري، يظهر أن ليس فقط مشاعرنا وأعماق عواطفنا يمكن أن تتأثر، ولكن حتى التركيب الكيميائي لجسمنا قد يتعرض للضرر نتيجةً للإقامة في ظروف الحجز القاسية وعمليات غسيل الدماغ.[1] هذا الجسم المتنامي من الكتابات حول الإصابة بالاضطراب ما بعد الصدمة (PTSD) يتقاطع مع الكتابات حول غسيل الدماغ. إن اضطراب ما بعد الصدمة هو مصطلح طُوّر في السبعينيات واستُخدم على نطاق واسع في السياقين العسكري والمدني. بلا شك، هو مصطلح لا يزال قيد الجدل ويخضع للتحليل،[2] إذ

---

1 Kathleen Taylor, *Brainwashing: The Science of Thought Control* (Oxford, 2004).

٢ تجدر الإشارة إلى دراسة Allan Young المثيرة للجدل والرائدة:

The Harmony of Illusions: Inventing Post-Traumatic Stress Disorder (Princeton, 1996).

يمكن الاطلاع أيضاً على المجلد الحديث الذي تولى تحريره Mark Micale وHans Pols :

Traumatic Pasts in Asia: History, Psychiatry and Trauma from the 1930s to the Present (New York, 2021).

بالنسبة إلى الأفكار السريرية والنظرية المهمة المعاصرة حول الصدمات، يمكن مراجعة Susan Levy وAlessandra Lemma (المحررتَين) في كتاب:

The Perversion of Loss: Psychoanalytic Perspectives on Trauma (Chichester, 2004)

وJoanne Stubley وLinda Young (المحررتَين) في كتاب:

Complex Trauma: The Tavistock Model (London, 2021).

في نصف القرن الذي أعقب عام ١٩٤٥، ظهرت مجموعة كبيرة من الكتب التي تناولت علم نفس الناجين من معسكرات الاعتقال في ألمانيا النازية ومعسكرات غولاغ السوفياتي. وفي السبعينيات، بدأ تشخيص اضطراب ما بعد الصدمة النفسية (PTSD) في الانتشار المتزايد. الأعراض تشمل الكوابيس، وأرق النوم، والغضب، والشعور بالوحدة، والقلق الحاد، والاكتئاب، والانفصال النفسي، والخدر، واضطرابات الجلد، واضطرابات الجهاز الهضمي، والتشوش

قد يُستخدم على نحو شائع من خبراء الصحة النفسية لوصف حالة نفسية معقدة بصورة عامة، مما قد يكون غير دقيق لخصوصية تلك الحالة، فيعمد المحترفون والمرضى بكل جد إلى مواءمة قصصهم الشخصية المعقدة والفريدة مع النموذج العام، مما يتسبب في التباس وتشويش على فهم تعقيد كل حالة وتنوعها. وبغض النظر عن الكلمات التي نختارها، يظل صحيحاً أن الأشخاص قد يعانون من أضرار نفسية هائلة، حتى بعد مدة طويلة من الابتعاد عن نظام شرير أو مجموعة من التجارب الصعبة المعروفة بـ"تجارب الحاضنة الشريرة".

اضطراب ما بعد الصدمة هو إحدى الوسائل، على الرغم من أنه ليس الوسيلة الوحيدة، لوصف الآثار الطويلة الأمد التي تتركها في الجسد والعقل العواقب النفسية والجسدية. إنه المشاعر القوية للهجوم والاختراق، وحالات الارتباك والرعب التي لا يمكن للشخص معالجتها في أفكاره والتعامل معها بفعالية، إذ يمكن للأفراد أن يعانوا بشدة من الأحلام المزعجة والعودة المفاجئة إلى الذكريات المؤلمة والتعرق والرعش والمزيد، لمدة طويلة بعد إنقاذهم رسمياً من مسار الصدمة التي تعرضوا لها في الماضي. لذلك، في حين أنه من الضروري فحص كيفية استخدام مصطلح "غسيل الأدمغة" بعناية في النقاشات، أو استخدام مصطلحات مثل "الصدمة" بصورة عامة والتي أصبحت أكثر مرونةً تدريجاً في ثقافة مجتمعنا، يكون من الخطأ الجسيم التركيز حصرياً على الجوانب التشخيصية لهذه المصطلحات التصنيفية وتفاصيلها، متجاهلين

العقلي في أنواع مختلفة، وفي بعض الحالات الاضطرابات النفسية، وفي كثير من الحالات الأخرى الأمراض الجسدية المزمنة أو الإحساس العام بعدم الارتياح الصحي؛ وتحدث الأطباء والمعالجون بقوة عن نقل وتأثيرات متنوعة لـ"الصدمة بين الأجيال". انظر إلى:

Ilse Grubrich-Simitis, 'From Concretism to Metaphor: Thoughts on Some Theoretical and Technical Aspects of the Psychoanalytic Work with Children of Holocaust Survivors', *Psychoanalytic Study of the Child*, 39:1 (1984), 301–19.

في عام ١٩٤٥، كتب René Spitz بشكل مؤثر عن الآثار النفسية للبقاء لفترات طويلة في المؤسسات، واستخدم مصطلح "hospitalism" لوصف هذه الحالة. هدفه كان التركيز على كيفية تأثير بقاء الأطفال والرضّع في مؤسسة معيّنة لفترات طويلة على تطور عقولهم ونموهم النفسي. يتعلق هذا بانعدام الرعاية الشخصية المستمرة والعواطف الحميمية، مما يؤثر سلباً في تطورهم النفسي والعاطفي. انظر:

'Hospitalism: An Inquiry into the Genesis of Psychiatric Conditions in Early Childhood', *Psychoanalytic Study of the Child*, 1(1945), 53–74.

في الوقت نفسه الدمار والمعاناة القاسية التي تصفها.

غالباً ما كانت المناقشات حول غسيل الدماغ خلال أوائل الحرب الباردة مميزةً بالتصريحات والادعاءات المبالغ فيها بهدف جلب انتباه الجمهور إلى موضوع معيّن، وبالمعتقدات المتغطرسة بقيم الغرب وأخلاقه المتحضرة. هذا الخليط الحساس بين جمع الأدلة الواقعية وبناء الأساطير يعكس الأجواء السياسية في تلك المرحلة، خصوصاً في الولايات المتحدة. فكانت تلك المرحلة مميزةً بأجواء سياسية مشحونة ومشبوهة؛ مرحلة مليئة بالشكوك العميقة ليس فقط تجاه الشيوعية، ولكن أيضاً، من جانب اليمين، تجاه الليبرالية، ومن جانب اليسار، تجاه الادعاء بوجود تلاعب مفترض من الدولة الرأسمالية لإنتاج عمّال مطيعين وناخبين مستسلمين. لم يكن هناك نقص في عدد النقاد المحافظين في الولايات المتحدة الذين انتقدوا بشدة ما اعتبروه إخفاقات إدارات ترومان Truman وأيزنهاور Eisenhower وكينيدي Kennedy وجونسون Johnson، ووصفوها بأنها ضعيفة وليبرالية بصورة مفرطة. كما عبّر هؤلاء النقاد عن مخاوف بشأن حالة المجتمع الحديث، مشيرين إلى أنه قد شهد تراجعاً كبيراً في القيم الأخلاقية وأصبح أكثر عرضةً لعمليات غسيل الدماغ.

كان أسرى الحرب الغربيون الشبان الذين احتُجزوا في معتقلات كوريا، وأصبحوا الآن يوقّعون على عرائض من أجل السلام، يُنظر إليهم من بعض الخبراء على أنهم إشارة مقلقة للزمن الحالي، وهنا يظهر الطبيب النفسي في الجيش الأميركي ويليام ماير William Mayer، الذي شكّل مصدر إلهام للوثائقي "The Ultimate Weapon" الذي شارك فيه ريغان. يبدو أن ماير لم يظهر تعاطفاً كبيراً تجاه الذين أظهروا تردداً، أو اعترفوا بالخطأ، أو تعاونوا، أو دعوا إلى السلام.[1] علاوةً على ذلك، رأى ماير في هذا السياق المحزن مؤشراً إلى حالة وطنية خطرة تميل إلى ما أسماه "داء الاستسلام". وفقاً لرأيه، كان هناك عدد كبير جداً من الأشخاص الشبان المحبطين الذين، بالرغم من

---

١ السوسيولوجي Albert D. Biderman تحدّى أولئك الذين قدموا وصفاً عاماً لأسرى الحرب بأنهم "ضعفاء الإرادة". انظر إلى كتابه:

March to Calumny: The Story of American POWs in the Korean War (New York, 1963), especially pp. 14–16.

أنهم يُعرَفون بمحاربين، فهم يفتقدون إلى إيمان في أي قضية. وختم ماير بأن هؤلاء الأفراد، سواء في المعارك أو أثناء مرحلة احتجازهم، أظهروا أعراضاً لما أطلق عليه "مرض عدم الالتزام".[١]

قُدّمت هذه الحجج على أنها تقييمات تنطبق على جماعات واسعة، وليست مقتصرةً على الحالات الفردية. كيف يمكن تفسير هذا "المرض" المشترك؟ بعض المراقبين في وسائل الإعلام، بالإضافة إلى الشخصيات التي تلعب دورها كمدافعة في مناقشة غسيل الدماغ، كما يُصوَّر في أفلام مثل "The Rack" وغيره، اقترحوا أن أسباب هذا الأمر تكمن في فشل كبير في التربية الحديثة. ماذا لو كان الأمر يتعلق بالبنين، ولا سيما مَن يتأثرون نفسياً بسبب غياب الأمهات ووجود الآباء القاسِين والمستبدين، مما يجعلهم أكثر عرضة للتحولات الجذرية؟ ماذا عن غياب الآباء بسبب الخدمة العسكرية أو الوفاة؟ هل له تأثير؟ من ناحية أخرى، ماذا لو كانت الأمهات المهيمنات والمتسلطات بصورة مفرطة، بالإضافة إلى شخصيات أمهاتية مؤثرة أخرى، تسيطر

---

١ محاضرة لـWilliam E. Mayer بعنوان "Brainwashing: The Ultimate Weapon" [غسيل الدماغ: السلاح الأخير] أُلقيت في حوض السفن البحرية بمختبر الدفاع الإشعاعي البحري في سان فرانسيسكو. تم تسجيل هذه المحاضرة ويمكن الوصول إليها عبر الموقع التالي:

deepblue.lib.umich.edu/handle/2027.42/121557

وكتب Mayer أيضاً مقالاً بعنوان:

'Why did Many GI Captives Cave In?', *US News and World Report*, 24 February 1956, p. 56.

يمكن الاطلاع على السياق من كتاب:

Lewis H. Carlson, Remembered Prisoners of a Forgotten War: An Oral History of Korean War POWs (New York, 2002), pp. 1–8.

ووصف Eugene Kinkead هذا الضعف المزعوم في مقال بارز بمجلة *New Yorker* في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٧، وكتب عن هذا الموضوع بصورة مطوّلة أكثر في كتاب آخر، بعد سنتين من ذلك. انظر إلى المقال:

'The Study of Something New in History', *New Yorker*, 26 October 1957

وإلى الكتاب:

In Every War But One (New York, 1959).

التركيز الكبير على كيفية انهيار السجناء في كوريا خفّض من أهمية التقارير حول العديد من الجرحى النفسيين في القوات العسكرية الذين عولجوا خلال الحربين العالميتين وبعدهما. ناقش Andrew Scull هذا الموضوع في كتابه:

Madness in Civilization: A Cultural History of Insanity (London, 2015), pp. 336–7.

على الشبان؟ فكرة الأمهات الكوابيس كانت سائدة في الأفلام؛ واستُكشفت فكرة غسيل الدماغ الأمومي أو النقائص الأمومية التي تؤدي إلى تعرض الأفراد للتأثيرات السلبية من قِبل العدو، وقد عبّر عن هذه الفكرة في فيلم "The Manchurian Candidate" وأُشير إليها في قصص أخرى عدة، سواء على الورق أو الشاشة.

الحجة، إذا جاز وصفها بهذا اللفظ، نظراً إلى استخدامها الواضح للتحامل على النساء، ظهرت في مقالات وكتب جدلية. تُظهر هذه الحجة أن الأولاد الصبيان كانوا تحت تأثير عصر جديد من "الهيمنة الأمومية" الزائدة، مما أدى إلى الارتباك في هويتهم الجنسية وجعلهم عرضة لأن يُعتبروا خونةً وطنيين بعد تلقيهم تأثيراً ضعيفاً لغسيل الدماغ الشيوعي. أُثيرت مخاوف بشأن تأثير هذه الشخصيات الأمومية القوية والمفرطة، سواء كانت صارمةً ومسيطرةً بشدة أم لطيفةً وعاطفيةً للغاية (على الرغم من تخوفها الزائد)، وذلك في تحليلات متعددة حول حالة الدولة، بما في ذلك كتاب مثير نُشر في عام ١٩٤٣ للكاتب الأميركي فيليب وايلي Philip Wylie بعنوان *The Generation of Vipers* [جيل الأفاعي]. قدم ألفريد هتشكوك Alfred Hitchcock نسخاً متنوعة من هذا المفهوم للأم التي إما لا تترك ابنها أبداً وإما هو لا يتركها. في فيلم "North by Northwest" [شمالاً إلى الشمال الغربي]، قدم الإصدار الكوميدي والعصبي من هذا الموضوع، بينما في فيلم "Psycho" [سايكو]، انتقل إلى الإصدار المرعب والنفسي. كان هذا الموضوع سائداً في الثقافة، وليس مقتصراً على المناقشات حول الجندي السجين الضعيف والهش.

كان مشهد اعتراف طواقم الطيران بالحرب الجرثومية مؤلماً وغير مريح، وغالباً ما بدأ بعد ذلك يُفهم من منظور عمليات غسيل الدماغ. وفي ما يتعلق بأسرى الحرب الذين وقّعوا العرائض بأعداد كبيرة، انقسمت الآراء بشأنهم، فاعتبرهم بعض النقاد دليلاً على وجود مشكلة نفسية جماعية. لقد أُجري تحليل واستقصاء شديدان ومفصّلان للحالة النفسية للأسرى الذين كانوا محتجزين في كوريا من قِبل جمع من الخبراء وصنّاع الرأي المتحيزين. أصبح هؤلاء الأسرى الذين اعتُبروا "المهزومين معنوياً" متورطين في قضايا أوسع تتعدى حالتهم الفردية؛ تشمل هذه القضايا التربية الصحيحة وسوء استغلال السلطة وطبيعة التعليم السليم وتبادل المعرفة، فضلاً عن قابلية التكيف لدى

جيل الشباب الذي بدأ في النمو بعد الحرب العالمية الثانية. ماذا لو كان بإمكاننا أن نقنع "الرجال والنساء الجدد" في الغرب بالمسير وفقاً لإيقاع ماو دون أن يكون لديهم أي إرادة خاصة بهم، تماماً كما أقنع الملايين في المرحلة ما بين الحروب بأن يكرسوا أنفسهم بالكامل لهتلر وستالين في ألمانيا وروسيا؟ أحدثت أزمة كوريا ومرحلة النقاشات التي تلتها حول عمليات غسيل الدماغ العسكرية تسليطاً كبيراً على موضوع الحرب النفسية بصورة عامة. إذ قُدمت سلسلة من الدراسات الحالاتية البارزة والسيناريوهات النفسية المثيرة، وبالتأكيد، كانت هذه المرحلة أيضاً محفزاً هاماً للتحقيقات والتجارب والمعارك الإعلامية اللاحقة، إذ درس الخبراء أهمية العوامل المتنوعة مثل الوراثة والطبقة الاجتماعية والعمر والبيئة والديانة والتعليم والجنس والعرق والهوية الوطنية في تقوية مقاومة الأفراد ضد استراتيجيات تحويل العدو المحتملة في المستقبل.

في عام ١٩٥٣، مع انتهاء الصيف وبداية الخريف، بعد ثلاث سنوات من القتال والتمديد الناتج عنه، وتوقيع هدنة حرب كوريا واستعادة السلام، وبعد القصص السابقة عن اعترافات أسرى الطائرات، بدأت مسألة غسيل الدماغ في التأثير على وعي الجمهور العام. انتشرت الأخبار بسرعة حول ٢١ أسيراً أميركياً رفضوا ببساطة العودة إلى بلادهم.

بعد إعلان السلام، استمرت كوريا مقسمة، فلم ينجح كل من الشمال (بدعم من الاتحاد السوفياتي والصين) والجنوب (بدعم من تحالف تحت رعاية الأمم المتحدة وبقيادة الولايات المتحدة) في تحقيق النصر. احتُجز أعداد كبيرة من السجناء من الجانبين، مما دفع إلى تنظيم عملية تبادل للسجناء. عولجت المجموعة الكبيرة من أسرى الحرب الأميركيين الذين احتُجزوا في معسكرات كوريا الشمالية من خلال مركز استقبال في مكان يُعرف باسم "قرية الحرية" (Freedom Village)، التي تقع بالقرب من الحدود المتوترة الفاصلة بين الدولة الرأسمالية والدولة الشيوعية في كوريا حتى يومنا هذا. في الوقت نفسه، كانت التحضيرات جارية لإطلاق العديد من السجناء من الجانب الشيوعي وإعادتهم إلى بلادهم الأم.[1]

لم تكن عملية العودة إلى بلادهم تلقائية؛ كان للسجين الذي يُفرَج عنه الخيار

1 Kim, *The Interrogation Rooms.*

بالانتقال إلى بلد جديد، مما أتاح ذلك لآلاف الأفراد الذين قاتلوا في جيش الشعب الكوري الشمالي اختيار حياة جديدة في كوريا الجنوبية، بينما انتهى البعض الآخر بالعيش في تايوان.[١] هناك عوامل عدة أثرت في هذه القرارات. في ذلك الوقت، قد يُعامل الأسرى الصينيون والكوريون الشماليون في الغرب على أنهم مجموعة غير مميزة من الأشخاص، لكن قصصهم كانت معقدة ومتنوعة بالمثل. بالنسبة إلى بعضهم، لم يكن هناك منزل سليم للعودة إليه؛ بينما ظلت الروابط العائلية مجبِرة بالنسبة إلى الآخرين، وبالنسبة إلى البعض الآخر، قد تكون الأيديولوجيا نفسها، سواء كانت مؤيدة للشيوعية أو معارضة لها، هي العامل الحاسم، إذ يقوم كل شخص بدراسة مجموعة متنوعة من المعلومات، صحيحة أم خاطئة، وتحليلها بناءً على اعتقاداتهم ومبادئهم والتأكد من صحتها.[٢] بالإضافة إلى ذلك، سعى عدد قليل من أسرى الحرب من الجانب الشيوعي، والذين كان عددهم قليلاً يُقدّر بالعشرات، إلى البحث عن بدائل خارج كوريا الجنوبية وتايوان لمتابعة طريقهم نحو الحرية أو الشروع في مغامرات جديدة. بعضهم انتهى بهم المطاف في مواقع أكثر بعداً مثل الأرجنتين والبرازيل

---

١ من بين الأسرى القادمين من الجانب الكوري الشمالي، اختار ٧٥,٨٢٣ شخصاً العودة إلى الشمال، فيما رفض ٧,٨٢٦ العودة وانتقلوا إلى كوريا الجنوبية أو تايوان؛ واختار ٧٤ شخصاً دولة محايدة مثل الهند أو الأرجنتين. بالنسبة للأسرى الصينيين، اختار ٦,٦٧٠ العودة؛ ورفض ١٤,٣٤٢ العودة، واختار ١٢ الاستقرار في دولة محايدة. يمكن الاطلاع على هذه الأرقام في:

David Cheng Chang, *The Hijacked War: The Story of Chinese POWS in the Korean War* (Stanford, 2020), p. 4; Kim, *The Interrogation Rooms*, pp. 288-99, 357; Hastings, *The Korean War*, p. 406.

بالرغم من الإشارات السابقة التي كانت تُظهر العكس، لم يُقدَّم الخيار المباشر لأي من أسرى الحرب هؤلاء للسفر إلى الولايات المتحدة. ومع ذلك، قرر بعضهم السفر لاحقاً، حيث تسهّلت رحلاتهم بفضل تشريعات الهجرة الأميركية لعام ١٩٦٥ (the Hart–Celler Immigration Act) التي أزالت فعلاً الحصص العرقية أو الإثنية للدخول. أشكر Monica Kim على المشورة المقدمة حول أرقام أسرى الحرب والسياق العام.

٢ في هذا السياق، يكتب Lewis Carlson:

"بعد تلقيهم جلسات تلقين مكثفة من الأمم المتحدة، أصرّ على الأقل نصف الـ ١٤٠٠٠ من الأسرى على أنهم لا يرغبون في العودة إلى أوطانهم الشيوعية".

هذا مقتطف مما جاء في كتاب:

Remembered Prisoners, p. 280, n. 4.

والمكسيك، بينما وجد عدد قليل منهم مأوى في الهند.[1]

خلال الحرب، دعت السلطات الأميركية بقوة إلى فكرة السماح للأفراد باختيار وجهتهم النهائية بشكل فردي، إذ أكدوا أنه يجب عدم إجبار أي شخص على العودة إلى الأسر،[2] بشرط موافقة الدولة المفضَّلة وبقاء الجندي قوي العزم في قراره بالتوجه إليها، فحينها تُتّخذ الترتيبات اللازمة حيال ذلك. ومع هذا، في هذه العملية التي تجري بوساطة من الأمم المتحدة، يتم نقل الجنود الراغبين في اللجوء مؤقتاً إلى مكان انتقالي، وهو عبارة عن غرفة تُستخدم لتخفيف الضغط. هناك، كانت لديهم مدة تصل إلى تسعين يوماً للتكيف والتأمل قبل تنفيذ قرارهم بالذهاب إلى المنفى. كان الهدف من ذلك التحقق من اتساق تفضيلاتهم وحزمها، أو على الأقل التأكد من أن ذلك ما كان به يُأمل.[3]

من وجهة نظر العالم الغربي، كانت هذه الانتقالات، التي تنطوي على الافتراض السائد الذي يقتضي عادةً عودة الأسرى إلى وطنهم تلقائياً، وسيلةً لمساعدة الجنود الأعداء على تجنب العيش تحت حكم الشيوعية وتحقيق نجاح دعائي إعلامي غير متوقع. بصورة مفاجئة، أعلنت مجموعة صغيرة من الأسرى الأميركيين، الذين بلغ عددهم ثلاثة وعشرين، بالإضافة إلى جندي بريطاني ومجموعة أكبر من الجنود الكوريين، رغبتها في التحرك في الاتجاه المعاكس، إذ أعلنوا رغبتهم في العيش في جمهورية الصين الشعبية، التي تأسست عام ١٩٤٩ بقيادة ماو.

قبل تنفيذ القرار النهائي، أقدم زوجان من بينهم، تحديداً كلاود باتشيلور Claude Batchelor وإدوارد ديكنسون Edward Dickenson، على تغيير أفكارهما والعودة إلى وطنهما في الولايات المتحدة. عند وصولهما إلى الأراضي الأميركية، واجها إهانةً وتعاملاً قاسياً من الجيش الأميركي. خضعا لمحاكمة عسكرية وأُدينا بارتكاب جرائم متنوعة وعقوبات سجنية طويلة.[4] ظل أعضاء المجموعة الباقون عزيمي الإرادة، على

1 Kim, *The Interrogation Rooms*, pp. 288–99.

2 Ibid., p. 8.

3 Ibid., p. 271; Hastings, *The Korean War*, pp. 377–8.

4 Carlson, *Remembered Prisoners*, Chapter 9.

راجع على وجه الخصوص ص. ٢٠٥.

الأقل في هذا الوقت. أصروا على رغبتهم في عبور ما يُعرف بـ"الستارة البامبوية"، التي تفصل بين الدولة الشيوعية والعالم الخارجي، وتأسيس إقامة دائمة في تلك الدولة الشيوعية. من اللافت أنّ هذا القرار لم يثِر استغراب السلطات الأميركية فقط، بل أيضاً الصينيين الذين كانوا يتعاملون معهم.[1]

عدد من أفراد المجموعة الـ٢١ أكدوا موقفهم أمام الكاميرات، ومعتقداتهم السياسية الجديدة. شرحوا أنهم لا ينوون العودة إلى المشهد السياسي الذي يعتبرونه "فاشياً" في الولايات المتحدة.[2] هؤلاء الأفراد عبّروا عن آراء إيجابية وبعضهم حتى تحدث عن تجربة شعور بالتنوير والإلهام في المجتمع المتساوي الذي كان ماو يبنيه. قدموا مقابلات لشرح قراراتهم والتعبير عن التزامهم بالسلام العالمي، بينما انتقدوا الأجواء السامة المعادية للشيوعية التي سادت في بلدهم، وكانت تهيمن عليها سياساتُ مكارثي.[3]

في الولايات المتحدة، بينما كان هؤلاء الأسرى السابقون يتخذون قراراتهم، ظهر مراقبون قلقون، وصحافيون نقاد، وسياسيون غاضبون، وحتى بعض أفراد عائلات الجنود أنفسهم وبدؤوا يتكهنون بأن هؤلاء الأفراد ربما خضعوا لعمليات غسيل الدماغ. قدمت الكاتبة فرجينيا باسلي Virginia Pasley في كتابها *21 Stayed* [٢١ بقوا]، الصادر في عام ١٩٥٥، تحليلاً مليئاً بالانتقادات اللاذعة، وعميقاً على ما يُفترض، وداعماً لمواقف النقاد والمراقبين. أشارت باسلي إلى التعليم الضعيف الذي تلقاه هؤلاء الجنود في كثير من الأحيان، وألمحت إلى نقصهم في الذكاء والمعرفة، وصورت الوضع كرواية مرعبة عن "ضحايا يختمون مصيرهم بأيديهم" و"يوفرون وسيلة لدمارهم الخاص"، وذهبت

---

1 Hastings, *The Korean War*, p. 407.

٢ أعتمد هنا على مقاطع الأرشيف والمقابلات والتعليقات المقدمة في فيلم وثائقي حول أسرى الحرب الواحد والعشرين بعنوان: "They Chose China" [اختاروا الصين] الذي أخرجه Shui-Bo Wang في ٢٠٠٥. يمكن العثور عليه عبر الإنترنت على:

www.youtube.com/watch?v=sDTPhT8mZ9o&ab_channel=AaronShang

ولفهم السياق التاريخي، يمكن مراجعة الكتب التالية:

Carlson, *Remembered Prisoners*; Carruthers, *Cold War Captives*; Dunne, *A Cold War State of Mind*; Charles S. Young, *Name, Rank, and Serial Number: Exploiting Korean War POWs at Home and Abroad* (Oxford, 2014).

3 They Chose China.

مسافة أبعد من تصنيف هذا الوضع كـ"استبداد جماعي" بل رأت ذلك إشارةً إلى عالم يمكن أن يؤدي إلى "اختفاء الإرادة الحرة الفردية فيه وحتى الشخصية نفسها".[١]

والدة أحد أعضاء المجموعة الـ ٢١، كلارنس آدمز Clarence Adams، أكدت أنه تم تخديرهم وتعريضهم للتنويم الإيحائي على يد العدو.[٢] وأبلغت والدة جندي آخر، ريتشارد تينيسون Richard Tenneson، وسائلَ الإعلام أن هؤلاء الجنود الذين أمضوا وقتاً طويلاً في الاعتقال كانوا ضحايا للتعذيب ومن الأكيد أن إرادتهم كُسرت بالقوة، معتبرةً أن الصعوبات المطولة والتشويش النفسي الذي تعرضوا له تشكّل خطوة تمهيدية إلى غسيل الدماغ.[٣] وجد هذا التفسير صدىً بين الآخرين وبالتأكيد بدا معقولاً للعديد من القراء والمستمعين الغربيين، إذ بعد كل شيء كيف يمكن لهؤلاء الرجال أن يتبنوا خياراً كهذا ويسيروا به؟

الصراع الكوري الكارثي، المعروف أحياناً بـ"الحرب المنسية"، كان مظلماً بسبب الكارثة التي وقعت في ستينيات القرن العشرين مع تصاعد الحرب الأميركية في فيتنام، ومع ذلك، يُقال إن أحد التأثيرات غير المنسية لهذا الصراع كانت "فتح الباب" على قصة التأثير على العقول بواسطة عمليات غسيل الدماغ.[٤]

كما سبق أن أشرنا، دعا بعض الأفراد، مثل هانتر، إلى إطلاق برامج تدريب شاملة، سواء للقوات المسلحة أو للمدنيين، بهدف بناء المرونة وزيادة القوة الجسدية وتعزيز القدرة العقلية. أصروا على ضرورة تأهيل الأفراد جيداً لتجنب "الانهيار" العقلي في هذا النزاع العالمي الجديد. انضم بعض الآخرين إليهم في تمجيد فوائد التفكير النقدي، كما يتعلمه الطلاب في أفضل مدارس وجامعات الغرب المعاصرة. حذر خبراء غسيل الدماغ من أن هناك حرباً شاملةً تجري حول السيطرة على عقول البشر وتؤثر في الجميع وتنتشر في كل مكان. أصروا على أن التعليم الشامل ضروري للأفراد

---

1 Virginia Pasley, *21 Stayed: The Story of the American GIs Who Chose Communist China: Who They Were and Why They Stayed* (New York, 1955), p. 207.

٢ مذكور في المرجع نفسه، ص. ١٢٢.

٣ مقتطف من مقابلة مع والدة Tenneson مدرج في فيلم "They Chose China"، وراجع أيضاً رد ابنها على ادعاءاتها في كتاب Pasley بعنوان *21 Stayed*، ص. ١٥٣.

4 Hunter, *Brainwashing*, p. II.

لفك رموز هذه التهديدات ومقاومتها. شارك هانتر والعديد من الآخرين في الاعتقاد بأن ليس هناك أحد معفىً تماماً من هذه التهديدات، سواء في الوطن أو في الخارج. كما شاهدنا، تحققت رغبة هانتر في الحصول على استجابة حكومية مستدامة لهذه الإشارات الطارئة (SOS) ولحاجة التكثيف في الاستثمارات في هذا المجال، كما رأينا ذلك في برامج مثل MK–Ultra. لنستعرض الآن تفاصيل أكثر حول سرد تجارب بعض من أعضاء مجموعة الـ٢١ رجلاً في هذا السياق المعقد للعلاقات الدولية والجهود الدبلوماسية. دعونا نفكر في الاختلافات بين التصريحات العامة حول حالتهم وبين ما قد فكروا فيه وشعروا به وسعوا إليه على نحو فردي. سأستعرض ثلاثة أمثلة بارزة تكفي لإظهار الفارق بين التصريحات العامة وتجاربهم الفريدة.

جيمس فينيريس James Veneris، أحد أفراد المجموعة، هو نجل لزوجين يونانيين شيوعيين هاجرا من أوروبا إلى الولايات المتحدة. خدم فينيريس في المحيط الهادئ خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد تعرضه لصعوبات مادية، قرر أن يعود إلى الخدمة العسكرية في عام ١٩٥٠. تُعدّ هذه الحالة ربما الأقل توصيفاً ميلودرامياً مقارنةً مع الحالات الأخرى التي ذُكرت في السرد حتى الآن. يبدو فينيريس، حسب المعرفة الحالية، أنه كان قادراً على اتخاذ قراراته بصورة مناسبة، وكان متفائلاً، ومن الواضح أنه ربما كان راضياً بصورة معقولة عن الخيار الذي اتخذه وغيّر حياته بسببه.

اعتُقل فينيريس واحتُجز في معسكر رقم ٣ أثناء خدمته في كوريا. كان زملاؤه في السجن يعرفونه باسم "اليوناني".[١] ويبدو أنه كان يحظى بتقدير جيد حتى من أشخاص لديهم توجهات سياسية مختلفة تماماً. واجهه لويد بايت Lloyd Pate، واحد من المعروفين بـ"المتشددين" (أي السجناء المعادين بشدة للشيوعية في المعسكرات)، فكان يعلم أن فينيريس هو "تقدمي"، أي أنه شخص مستعد لتقديم مزيد من المعلومات بخلاف اسمه ورتبته ورقمه التسلسلي لأنه يميل نحو الاتجاهات والأفكار السياسية والاجتماعية التي تشجع على التحسين والتطوير، لذا كان بايت يتوقع أن يكون فينيريس على استعداد للتفاوض مع السلطات في المعسكر وربما

١ المعسكرات كانت عادةً معروفةً بأرقامها ("١"، "٢"، وغيرها). يمكنك الاطلاع على كتاب Carlson وهو *Remembered Prisoners* [السجناء المعتقلون] للحصول على وصف للظروف ولذكريات العديد من الجنود حيال الحياة التي عاشوها في تلك المعسكرات المختلفة.

للانضمام في النهاية إلى قضيتهم. ومع ذلك، لم يكن فينيريس برأي بايت "خائناً" قطّ، وربما كان الشخص الوحيد من المجموعة الـ٢١ الذي يؤمن حقاً بالشيوعية. وأضاف بايت أن ذلك يعود إلى "أن والدَيه كانا شيوعيين"، مما يشير إلى دور تأثيرات الأسرة بدلاً من جاذبية الأفكار الأجنبية.[١] ومع ذلك، يبدو أن بعض أفراد عائلة فينيريس كانوا غاضبين ومذهولين، ويبدو أيضاً أنهم لم يكونوا فخورين بخياره. قالت والدته لفرجينيا باسلي، الكاتبة التي أعدت هذه المجموعة من السجلات النقدية، إن الفقير جيمس لم يكن يوماً شيوعياً، وأصرت قائلة: "لا بد أنه تعرض لضغوط هائلة ليؤمن بهذه الأشياء".[٢]

فينيريس يعتقد بوضوح أنه اتخذ هذا القرار الصعب بمحض إرادته الشخصية دون تأثير أو إكراه من أي جهة أخرى.[٣] بعد أن انتظر مرحلة زمنية معيّنة تُعرف هنا بمرحلة الانتقال، قرر القيام برحلة بالقطار إلى الصين والاستقرار هناك. درس وتعلم اللغة الصينية إلى حد ما، وتزوّج بفتاتين صينيتين وأسس أسرته هناك (تزوج مرتين، إذ توفيت زوجته الأولى بسبب السرطان بعد مضي بعض السنوات من حياتهما المشتركة). في الفيلم الوثائقي المؤثر "They Chose China" الذي أخرجه شوي بو وانغ Shui-Bo Wang في ٢٠٠٥، نرى فينيريس وصوراً له في شيخوخته في جمهورية الصين، وبجواره أطفالُه وأحفاده. يتحدث سكان المنطقة المحليون في الوثائقي بكل حنان عن فينيريس الذي تُوفي في العام الذي سبق عرض الفيلم. يقولون إنه كان جارهم وزميلهم وصديقهم، وهم يحملون له مشاعر إيجابيةً ودافئة.

يبدو أن فينيريس نجح في تحقيق نجاحات كبيرة؛ حصل على شهادة جامعية، وأصبح معلماً، ثم عاملاً في المصانع، وأُثني عليه كرفيق مخلص وماهر وملتزم، فعاش بين السكان المحليين. كان الأميركي الهادئ قد عمل لسنوات في مصانع الصلب والورق (بصورة رئيسية في مصنع لإنتاج اللب الخشبي)، واستمر قوياً وملتزماً بقراره رغم أنه كان بحاجة إلى حماية من الحزب لإنقاذه من مشكلات خطرة خلال ستينيات

---

١ مذكور في:

Carson, *Remembered Prisoners*, p. 200.

2 Pasley, p. 179.

٣ المرجع نفسه.

القرن العشرين عندما اتهمه شبان حملة الراية الحمراء الثائرون بالتجسس.[1] وقد أشاد القادة الصينيون به وربما أنقذوه، فوصفوه بأنه محارب مناضل جيد.

نجا فينيريس بنجاح من هجوم الثورة الثقافية العنيف وعاش مدةً كافيةً ليشهد تحول الصين إلى اقتصاد دينامي وجزئي رأسمالي رغم أن الدولة لا تزال استبدادية متطرفة.[2] دُفن في مقاطعة شاندونغ في شرق الصين، حيث كان يعيش. أثبت قراره الذي اتخذه في ١٩٥٣ أنه قوي ومستدام في حياته، على الرغم من أنه، بعد تحسن العلاقات بين الولايات المتحدة والصين والمصافحة التاريخية بين نيكسون وماو في عام ١٩٧٢، تمكن من القيام برحلات منتظمة إلى الولايات المتحدة، وحسب معرفتي، لم يحدث تغيير جوهري في آرائه.

من جهة أخرى، قام بعض أفراد المجموعة المختارة من أسرى الحرب بتغيير مسار حياتهم مرةً أخرى على نحو كبير خلال نهاية الخمسينيات وستينيات القرن العشرين وسعوا للعودة إلى الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن السلطات الأميركية سمحت لهم بالعودة بعد سنوات قضوها في الصين، فقد واجهوا انتقادات حادةً وكان من المحتمل أن يُعتَقلوا، كما نرى في حالة جندي آخر، كلارنس آدمز، واحد من ثلاثة جنود أميركيين من أصل أفريقي في المجموعة الأصلية. يمكن القول إن قصته كانت مرتبطةً أساساً، ربما، ليس بغسيل الدماغ الصيني، وإنما بقضايا العرق والسياسة في الولايات المتحدة.

نشأ آدمز في ممفيس، تينيسي، وكما شرح لاحقاً، كان قراره بالاستقرار في الصين مستنداً إلى العنصرية التي تعرّض لها طوال حياته، بما في ذلك أثناء خدمته في الجيش الأميركي. كان يعتقد أن الجنود البيض يعتبرونه ورفاقه الأفروأميركيين العناصر الذين يمكن التخلص منهم بسهولة في حالات القتال. كانت العنصرية مشهورةً في الجيش، تماماً كما كانت في المجتمع المدني.[3]

---

١ انظر إلى "They Chose China".

2 Julia Lovell, *Maoism: A Global History* (London, 2019).

3 Clarence Adams, *An American Dream: The Life of an African American Soldier and POW Who Spent Twelve Years in Communist China*, edited by Della Adams and Lewis H. Carlson (Amherst, 2007), p. 39.

أُسر آدمز في المعارك وكاد يموت مثل العديد من الجنود الأسرى الآخرين. عندما انهار خلال مسيرة قسرية بسبب الإرهاق والإصابة، كان محظوظاً بألا تُطلَق النار عليه فوراً. تمكّن من الهروب ووجد نفسه في وضع صعب على مسار جبلي يتهدده المراهقون الكوريون هناك. في تلك اللحظة الحرجة، ظهر "رجل كوري مسن ذو لحية طويلة ومتشابكة" بصورة يكتنفها العجب وأنقذه.[1] بعد وقت قصير من ذلك، وقع في أيدي جنود العدو، فقام مترجم بإيصال رسالة لم ينسَها آدمز قطّ: "[أنتم] لستم المستغلين، أنتم المستضعفون!".[2]

ملهَماً بالرسائل التحفيزية والداعمة التي تبادلها بينه وبين رفاقه في المعسكر، وبالتعاليم السياسية التي تعلمها في المعسكر، أمل آدمز في العثور على حرية جديدة لم تكن متاحة له في الولايات المتحدة. الهدف من التطرق إلى قصة هذا الجندي هو تسليط الضوء على قضية غسيل الدماغ في الحرب الباردة وتوضيح كيف يمكن فهم هذه القضية من منظورات متعددة، وأيضاً إلقاء الضوء على خيار مفهوم وقابل للفهم اتخذه الجندي السابق بالهروب من وطنه. في تلك المرحلة، لم يكن لدى الولايات المتحدة ما تقدمه له أو على الأقل ليس هناك ما يبرر الاضطهاد والألم والقيود والقسوة التي عاشها في تلك البلاد.

بينما كان آدمز أسيراً، كان معجباً بالسلطات الشيوعية التي شجّعته على تحمل مسؤوليات متنوعة، بما في ذلك وساطته نيابةً عن الجنود الآخرين لتحسين ظروف المعسكر. لقد تفاوض، على سبيل المثال، من أجل تغييرات في ترتيبات التغذية، مما سمح للجنود الأسرى بطهي طعامهم بطريقة تتناسب أكثر مع ذوقهم. حصل حتى على موافقة رسمية لإدخال بعض الألعاب للتخفيف من ملل الرجال. ومع ذلك، يجب التأكيد من أنه على الرغم من التحسينات التي لحقت في ما بعد بما يتعلق بالطعام والرعاية الطبية والموارد خلال الحرب، لا يمكن أن نتجاهل حقيقة تعرض الأسرى للعديد من الصعاب والمعاملة الوحشية، وهو ما ذكره آدمز بوضوح. في الواقع، قدمت سردات أخرى صورة أقل قسوة للسنوات الأخيرة التي قضاها الأسرى في معسكرات

١ المرجع نفسه ص. ٤٤.
٢ المرجع نفسه ص. ٤٠.

حرب كوريا مقارنةً بوصف آدمز؛ ترك العديد من الأسرى جسدياً ونفسياً مدمّرين، وكان أسوأ ما يمكن أن يحدث لمعظم هؤلاء الرجال هو المسيرات القسرية على مسافات طويلة بعد الاعتقال، قبل وصولهم إلى المعسكرات. ذكر آدمز في مذكراته كم كان على شفير أن ينتحر خلال تلك "المسيرات المميتة"، وكم كانت قوة حرس منازل الشعب الكوري وعنفهم، إذ كانوا يجبرون الأسرى على المشي بسرعة عالية، رغم درجات الحرارة تحت الصفر ونقص الطعام. كان الأسرى يتعرضون للحراسة من رجال لم يكن لديهم ذرّة ضمير تمنعهم من إطلاق النار على أولئك الذين كانوا ضعفاء للغاية ولم يستطيعوا مواصلة المسيرة. نجح آدمز في البقاء على قيد الحياة، على الرغم من إصاباته واقترابه من الانهيار الجسدي، ليواجه بعد ذلك ظروفاً مريرةً جداً في المعسكر رقم ٥ كادت أن تودي بحياته. وأشار إلى أنه وغالبية الجنود ذوي البشرة الداكنة تحسنت أوضاعهم نسبياً مقارنةً بالجنود البيض، لأن "معظمنا يدري بالتعامل بنجاح مع القليل جداً مما كان متاحاً".[١] ولم تظهر تحسينات ملحوظة في الظروف إلا بعد أشهر عدة، في ربيع عام ١٩٥١، عندما تولت السلطات الصينية إدارة المعسكر، حسبما أوضح آدمز؛ وبدأ الرجال في تلك المرحلة ولأول مرة يتلقون وجبة طعام ساخنةً يومياً.[٢]

أشارت تقارير إلى أن ظروف السجن قد تحسنت كثيراً بالنسبة إلى العديد من الأسرى خلال الحرب. عندما أدركت السلطات أن كلارنس آدمز هو شخص "تقدمي" يسعى إلى التطور والتحسن، حصل على درجة من القدرة على تحقيق تعديلات صغيرة ولكن ذات أهمية بالنسبة إليه وإلى السجناء الآخرين من حوله. نال آدمز إعجاب الآخرين بالمساعدة التي قدمها للأشخاص الجدد القادمين من الولايات المتحدة. ذكر جيم كرومبي Jim Crombie، وهو أحد الأسرى الذين دخلوا معسكر ٥ بُعيد وصول آدمز إلى المعسكر المذكور: "لا يمكن لي إلا أن أعترف حقاً بالمساعدة التي قدمها كلارنس لي. كان شخصاً قصير القامة ولكن قوي البنية ومحبوباً جداً.

١ المرجع نفسه ص. ٥٠.
٢ المرجع نفسه ص. ٥١.

بسرعة أعرب عن استعداده لمساعدتي وسألني كيف السبيل إلى ذلك".[١]

استمع آدمز بعناية واهتمام إلى الدروس السياسية التي قدمها مسؤولو المعسكر؛ وألقى، بدوره، محاضرات لزملائه السجناء، فشارك وجهات نظره المتطورة حول الحرب والسلام والرأسمالية والشيوعية. كان التعليم، أو حتى إعادة التعليم، جزءاً منتظماً من جدول أعمال المعسكر، حيث تُطرح أسئلة تحدي صعبة تتطلب الفكر العميق ويجيب عنها آدمز بشرح سياسي مناسب لبيئة المعسكر. بعض الحراس تذكروا في وقت لاحق أنهم تلقوا تعليمات من رؤسائهم للإشارة إلى السجناء لديهم على أنهم "طلابهم".[٢]

كان لدى كلارنس آدمز أسباب وجيهة لشكوكه في فرصه في الولايات المتحدة. فقد تعرض للعنصرية طوال حياته، وكان يربط في عقله جنوب الولايات المتحدة بالعنف والكراهية وحوادث الرهبة، لا بالعالم الحر. فعلى الرغم من أن الحرب الأهلية في الستينيات من القرن التاسع عشر أنهت رسمياً العبودية، لا تزال العنصرية جزءاً عميقاً من الحياة اليومية والمؤسسية على جميع المستويات، كما أشار آدمز بدهاء. لذا قرر البقاء في الجمهورية الشعبية الصينية لمدة اثني عشر عاماً، وكان واثقاً تماماً من السبب الذي دفعه لذلك. قال آدمز: "ربّما لم أعرف الصين حقّاً قبل الذهاب إليها، ولكنني كنت بالتأكيد أعرف ماذا كانت حياة السود في أميركا، خصوصاً في ممفيس... قررت الانتقال إلى الصين لأنني كنت أبحث عن الحرية وسبيل للخروج من حالة الفقر، وأردت أن أُعامَل كإنسان، وليس كشيء بلا قيمة".[٣]

استمر آدمز في طرح أسئلة واستفسارات حول المعلومات والرسائل التي يروجها النظام الأميركي واستعادة تجاربه الشخصية مع القمع في الولايات المتحدة، على الرغم من أنه في وقت لاحق أكد أنه ليس شيوعياً ولم ينضمّ إلى الحزب ولا يعتبر نفسه خائناً لبلاده بأي شكل من الأشكال.[٤] ومع ذلك، في أوائل الستينيات، بث رسائل دعائيةً مستهدِفةً حرباً أخرى خاضتها الولايات المتحدة في آسيا عبر *Hanoi Radio*،

---

١ مذكور في:

Carlson, *Remembered Prisoners*, p. 208.

2 *They Chose China.*

3 Adams, *An American Dream*, pp. 64, 66.

٤ المرجع نفسه ص. ٦٦.

وجه كلماته نحو جنود أميركيين من أصول أفريقية، قائلاً: "أنتم الذين من المفترض أن تقاتلوا من أجل حرية الفيتناميين، أي نوع من الحرية لديكم في وطنكم وأنتم جالسون في مؤخرة الحافلة وتُمنعون من دخول المطاعم والمتاجر وبعض الأحياء، وتُحرمون من حق التصويت؟... عودوا إلى الوطن وناضلوا من أجل المساواة في أميركا".[٥]

مثل فينيريس، تكيف آدمز بقدر ما استطاع واستفاد من عرض تعليم إضافي بعد إعادة توطينه. شغل مجموعةً من الوظائف، بما في ذلك العمل في دار نشر Peking Foreign Press. تزوج بامرأة صينية تُدعى ليو لينفنغ (لين) Liu Linfeng (Lin)، كانت طالبةً في بكين وأصبحت لاحقاً أستاذةً جامعية. أسّسا عائلةً وأنجبا طفلَين.

رغم كل ذلك، أدرك آدمز تدريجاً أن وضعه في الصين كان غير مستقر، لذا سعى إلى وجهة جديدة محتملة. ارتفعت الشكوك حياله من الصينيين نتيجة اتصالاته الوثيقة مع أجانب آخرين، بمن في ذلك الديبلوماسيون من الخارج. في البداية، تعاملوا معه في الصين باحترام باعتباره "رفيقاً" (أحد أفراد النظام)، ولكن في السنوات التالية احترزوه بمزيد من الشك باعتباره "مقاتلاً من أجل السلام"، مما يشير ذلك إلى تراجع في مكانته. في الأخير، كان يُطلق عليه أحياناً "السيد آدمز" فقط من قِبل معارفه السابقة الودية، لذا لاحظ انخفاضاً ملحوظاً في طريقة استقبال السلطات له مقارنةً بالأيام الأولى التي، رغم الشعور المختلط من الحزب الشيوعي تجاههم كـ"ضيوف"، اعتُبِرَ فيها هؤلاء الجنود الواحد والعشرون أشخاصاً مهمين، حتى باتوا ديبلوماسيين بارزين. فكانوا يحصلون على أجور أفضل من العمال الصينيين العاديين وكانوا مدعوين لحضور واحد من أبرز الفعاليات التي تُقام في بكين للاحتفال بـ"عيد العمال العالمي" في الأول من أيار/ مايو من عام ١٩٥٤.[٦] وبالتالي، بدأ يتساءل عن نقص الحرية الشخصية في الصين ويعيد التفكير في الذهاب إلى البلد الأفضل لعائلته.

في عام ١٩٦٦، عاد آدمز وزوجته بصعوبة بالغة إلى الولايات المتحدة عن طريق هونغ كونغ، وكان يرافقهما طفلاهما الصغيران. غادروا الصين قبل أن تبلغ الثورة الثقافية كامل ذروتها. على الرغم من تلقيه عرضاً بديلاً من أصدقاء ديبلوماسيين غانيين

٥ المرجع نفسه ص. ١٠٤.

٦ هذه الذكريات لـAdams مدرجة في فيلم "They Chose China".

للهروب من الصين بمثابة حق لجوء محتمل، اعتقد آدمز أنه "حان الوقت المناسب للعودة إلى وطنه"،[1] وبالتالي، انتقل من نوع واحد من البرودة أو الشك أو حتى تهديد متزايد لسلامته في الصين إلى مجموعة جديدة من المشكلات في الولايات المتحدة.

بفضل مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) والأجواء السياسية العدائية تجاه الصين والشيوعية في ذلك الوقت، واجه آدمز تحقيقاً مكثفاً وإمكانية محاكمة؛ تم استدعاؤه للإدلاء بشهادته أمام الكونغرس والرد على استفساراتهم. في الدفاع عن نفسه، أكد آدمز أنه كرجل أسود، قام بما يُسمح به لأي شخص آخر، وهو البحث عن فرص أفضل. ابنته، ديلا آدامز Della Adams، تذكرت كيف وصف والدها لاحقاً هذا التحقيق بأنه نوع من التعذيب النفسي، وربما كان أسوأ من تجربته في الصين، إذ طُرحت الأسئلة نفسها عليه مراراً وتكراراً في محاولة لإجباره على الاعتراف بأنه خائن باع أسراراً.[2] وعلى الرغم من أن الاتهامات ضده سقطت ولم تُتابَع في النهاية، فإنّ آدمز، الذي كان معروفاً سابقاً بأنه "الأحمر"، واجه تحديات كبيرةً في وطنه الولايات المتحدة، وصعوبةً في العثور على وظيفة وإعادة بناء علاقات قديمة.

من جديد بدأ آدمز وزوجته في مواجهة هذه التحديات. نجحا في إنشاء مطعم صيني في شارع إلفيس بريسلي Elvis Presley في ممفيس، وتطوير عملهما بنجاح. بالرغم من ذلك، ظل آدمز شخصيةً متقلبةً ومتغيرة المزاج. نتيجة هذه التحديات والتجارب التي عاشها على مدى حياته وتأثره بها، كتب أخيراً سيرته الذاتية الملحوظة بعنوان *An American Dream: The Life of an African American Soldier and POW Who Spent Twelve Years in Communist China* [حلم أميركي: حياة جندي أفريقي أميركي وأسير حرب قضى اثني عشر عاماً في الصين الشيوعية]. نُشرت هذه السيرة في عام ٢٠٠٧، وذلك بعد ثماني سنوات من وفاته، بفضل الجهود التحريرية المبذولة من ديلا آدامز ولويس هـ. كارلسون Lewis H. Carlson وهو مؤرّخ بذل جهداً كبيراً في توثيق تجارب الجنود الأسرى في الحرب العالمية الثانية وحرب كوريا.[3]

---

١ مذكور في كتاب:

Carlson, *Remembered Prisoners*, p. 210.

٢ مذكور في المرجع نفسه.

3 Carlson, *Remembered Prisoners, and We Were Each Other's Prisoners: An Oral History of*

عدد من أعضاء الجماعة الآخرين السابقين لمجموعة الـ ٢١، عادوا أيضاً إلى الولايات المتحدة أو انتقلوا إلى بلدان أخرى. أحدهم ذهب إلى بولندا، وآخرون إلى تشيكوسلوفاكيا وبلجيكا، بحثاً عن حياة أفضل.[١] للأسف، عانى العديد من هؤلاء الرجال مشكلاتٍ صحية نفسية، مما يشير إلى عدم استقرارهم الشخصي وأيضاً إلى اضطرابات نفسية أوسع تواجه العديد من العائدين من القتال والاحتجاز خلال الصراع الكوري وفي ما بعد حرب فيتنام. استُكشِفت معاناتهم الجماعية ليتبين تعرضهم لاضطراب ما بعد الصدمة النفسية في الأدب الطبي النفسي الحديث.[٢] الرقيب لويل سكينر Lowell Skinner، على سبيل المثال، كزملائه الجنود الآخرين، قضى فترةً قصيرةً في الصين، تزوج خلالها وعمل، لكنه أُصيب بخيبة أمل. عاد إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٦٣ ليصبح مدمناً على الكحول وقضى أشهراً في مستشفى نفسي.

شخص آخر عاد قبل آدمز بكثير وهو صاموئيل ديفيد هوكينز Samuel David Hawkins. كان يُدعى عادةً باسمه الثاني ديفيد. كان أصغر أعضاء الفريق الذي سافر إلى الصين، وهو شاب أبيض فقير الحال وغير سعيد من ولاية أوكلاهوما. انضمّ ديفيد إلى الجيش بملء إرادته حين سنحت له أول فرصة بذلك. بعد الإفراج عنه من معسكر الأسرى واتخاذه قرارات حول مستقبله، عاش في مناطق متنوعة داخل الجمهورية الصينية. كان يعمل سائقَ شاحنة وفي النهاية تزوج بامرأة روسية تُدعى تانيا Tanya، التقاها في بكين. بعد قضائه أربع سنوات في عالم الشيوعية، قرر تغيير رأيه حيال الحياة التي كان يعيشها؛ وجد نفسه مرةً أخرى غير مستقر وغير راضٍ، وأعرب لاحقاً عن شعوره بالقمع ونقص الحرية الفردية في النظام الشيوعي الصيني، ووافقت زوجته على العودة إلى الولايات المتحدة.[٣]

World War II American and German Prisoners of War (New York, 1997).

1 Carlson, *Remembered Prisoners*, p. 205.

يمكن أيضاً الرجوع إلى:

The Graybeards, 16:4 (2002), www.kwva.org/graybeards/gb_02/gb_0208_final.pdf.

2 B. Palmer et al., 'Aging and Trauma: Post Traumatic Stress Disorder Among Korean War Veterans', *Federal Practitioner*, 36:12 (2019), 554–62.

3 'Ex-P.O.W. and Wife into Seclusion at Oklahoma Home', *St. Joseph News Press*, 6 October 1957, news.google.com/newspapers?id=tCZUAAAAIBAJ&sjid=MDoNAAAAIBAJ&pg=3511,631797&dq=korea+david-hawkins&hl=en/.

واجه هوكينز تحديات مختلفةً في الولايات المتحدة، ولكن مدتها لم تكن أقل من تلك التي واجهها بعض أفراد الفريق الآخرين. تلقي حالته الضوء هنا على أن السجناء السابقين مثله لم يكونوا مجرد ضحايا تم التلاعب بهم بطريقة غير تفاعلية في عملية غسيل الدماغ، بل اتخذوا قراراتهم بأنفسهم، وإن كان ذلك مصاحباً لمعرفتهم المحدودة بالعواقب المحتملة لتلك القرارات. وجدوا أنفسهم بعد ذلك مشتتين بين عالمين مختلفين، وتعاملوا مع العديد من التصنيفات والألقاب المتنوعة التي طبقها الآخرون عليهم، وكانت تلك التصنيفات والألقاب محيرةً أو محرجةً في بعض الأحيان. يعود هذا إلى أن كل تصنيف كان يعكس وجهة نظر مختلفة حول تصرفاتهم وقراراتهم. بعض هذه التصنيفات تشمل "الرفيق" و"المقاتل من أجل الحرية" و"المارد" و"الخائن" و"ضحايا غسيل الدماغ"، وحتى كما في حالة هوكينز لاحقاً "المتأثرين بمتلازمة ستوكهولم واضطراب ما بعد الصدمة"؛ بهذه الطريقة، يظهر النص كيف أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا مجرد ضحايا للظروف، بل طوّروا علاقات نفسية وعاشوا مع تأثيرات نفسية طويلة الأمد بعد تلك التجارب.

كانت لدي فرصة للتحدث مع هوكينز خلال السنوات الأخيرة من حياته، وقد ترك أثراً عميقاً فيّ. تواصلت معه في عام ٢٠١٤ عندما كان يعيش في كاليفورنيا. نظراً إلى خلفيتي كطبيب نفسي ومؤرخ، كان هوكينز يتواصل معي دائماً باستخدام لقب Dr Dan [دكتور دان] خلال مناقشاتنا على مدى مسافات طويلة. كان دائماً يمزح معي ومع فريق البحث الخاص بي بشأن حاجته المستمرة للعلاج النفسي. لديه شخصية حية وذكية. كان حاد الذهن وسريع التعبير عن ملاحظاته عندما يكتشف أننا لا نتابع بدقة الأحداث والتفاصيل المعقدة لتجاربه في فترة وجوده في كوريا والصين، أو عندما عاد إلى الولايات المتحدة.[1] من خلال هذه المقابلات، اكتسبنا تفاصيل حول كيف قدمت الخدمة العسكرية لهوكينز وسيلةً للهروب من طفولة صعبة تضمنت غياب والده الذي تُوفي بصورة مأسوية في حريق أثناء وجود ديفيد في أسر الحرب، كما شملت طفولته وجود أم صارمة وتلقيه لخطب مرتفعة الصوت وعاطفية في كنيسة تتحدث عن "النار والكبريت" وتصوّب على غير

1 *David Hawkins: A Battle of the Mind* (2017), directed by Nasheed Faruqi, www.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/documentaries/david-hawkins-battle-mind.

المؤمنين، مما أدى إلى حياة مميزة بالوحدة ومعاناة كبيرة. أعرب هوكينز عن سعادته عندما انضم إلى الجيش، إذ سمح له ذلك بوداع ماضيه المضطرب. بعدها، قرر مغادرة الجيش الأميركي والانتقال إلى الصين لبدء حياة جديدة هناك.[1]

ديفيد هوكينز هو راوٍ ماهر يتحدث بصورة مؤثرة عن تجربته غير المقصودة في عملية إعادة التربية الماوية. كان على دراية تامة بتجربته كأسير حرب من خلال المقابلات التي أجراها معه مسؤولون من الجانبين، أي من الجانب الماوي الذي كان سجيناً لديه، ومن الجانب الأميركي. بعد عودته من الانعزال الذاتي في الصين، تعرض لاستجوابات من الصحافيين في الولايات المتحدة الذين كانوا حريصين على تصنيف تجربته أو إلصاق تسمية بها، على الرغم من أنه لم يكن على دراية كبيرة بالمصطلح البديل لعملية إعادة التربية الماوية حتى وصوله إلى الولايات المتحدة عندما سُئل إذا تم غسل دماغه بهذا الصدد.

في بعض الأحيان، اتخذ من يجري المقابلات معه دوراً يشبه أدوار المحققين بدلاً من المحاوِرين، وكان ذلك واضحاً بصورة خاصة عندما ظهر في برنامج التلفزيون الأميركي الشهير "The Mike Wallace Interview" [لقاء مايك والاس] بعد عودته من الصين في عام ١٩٥٧.[2] كان لمايك والاس، المذيع السلس القادر على جذب انتباه الجمهور، نقد لاذع، وقد أصر على الجندي السابق هوكينز لتوضيح ما إذا كان يعتبر نفسه خائناً أم ضحيةً لغسيل الدماغ، أو ربما مزيجاً من الاثنين. استفسر والاس عن الشؤون الخارجية والموقف المناسب الذي يجب على الولايات المتحدة اتخاذه تجاه الصين وماو، وفي الرد، حافظ هوكينز على هدوئه واقترح بلطف أنه ينبغي استعادة العلاقات الديبلوماسية مع الصين، نظراً إلى ظهورها كقوة عالمية كبيرة بمئات الملايين من السكان.

---

١ يمكن سماع مقتطفات من المقابلة في فيلم Faruqi، ويمكن أيضاً سماع Hawkins وهو يتحدث عن تجاربه في وثائقي إذاعي بعنوان "Brainwash Culture" [ثقافة غسيل الدماغ] الذي قدمه الكاتب على *BBC Radio 3*، ويمكن الوصول إليه عبر الرابط: www.bbc.co.uk/programmes/p03m8ltq.

٢ يمكن العثور على المقابلة في مجموعة Mike Wallace في Harry Ransom Centre في University of Texas في:
Austin, Austin, TX, USA, hrc.contentdm.oclc.org/digital/collection/p15878coll90.

واجه والاس مباشرةً هوكينز بسؤال حول كيفية التحقق من عدم تعرضه لعمليات غسيل الدماغ، فأجاب ببرودة: "لن تعرف ذلك". لم يوفر الجواب الكثير من الراحة لزملائه الأميركيين بشأن احتمال تعرضه لغسيل الدماغ! خلال هذه المحاكمة التلفزيونية، أظهر هوكينز هدوءاً وتفكيراً. حتى عندما سُئل عن إمكانية أن يكون الرجال الواحد والعشرون قد اختاروا الصين لتجنب العدالة بعد ارتكاب جرائم غير محددة ضد زملائهم الأميركيين في المعسكرات، نفى هوكينز مرةً أخرى هذا الادعاء وقال إنه كاذب. بقي هوكينز ثابتاً وصادقاً. (في هذه الأثناء، كان مايك والاس يدخن كثيراً بينما كان يتقدم في برنامجه، خصوصاً أن هذا البرنامج كان ممولاً من شركة تبغ، لذا، بينما كانا يناقشان تأثيرات الأجانب الخطرة على العقل، كان البرنامج يسعى للتأثير على المشاهدين، وأيضاً يسبق استكشافنا لِـ"المقنعين أو المؤثرين الخفيين" في الجزء الخامس من البرنامج).

كما حدث مع آدمز، نُشرت قصة هوكينز الشخصية في وسائل الإعلام وفي كتب مثل *21 Stayed* لباسلي. ما أثر فيّ نفسياً عندما تحدثت مع هذا الرجل بعد عقود طويلة هو شعوره العميق بالإصابة وإحساسه المستمر بالظلم بسبب الفصل الفاضح الذي تلقاه من الجيش الأميركي. قاتل بجدية على مر السنين من أجل تبرئة اسمه، واستعادة حقوقه، وضمان تقاعده العسكري اللائق. في وقت لاحق، أوضح لنا ظهور تصنيفات أخرى، وبدا أنه أكثر استعداداً لاعتمادها من مصطلح "غسيل الدماغ". وتشمل هذه التصنيفات، كما ذكرنا، متلازمة ستوكهولم واضطراب ما بعد الصدمة؛ تشخيصين اقترحهما له المتخصص النفسي المتعاون يمكن أن يساعداه على فهم حالته النفسية والتعامل مع المشكلات التي يواجهها. بعد مرور الوقت، بدأ يعتقد أن "الاختيار الذي اعتمدته للانتقال إلى الصين لم يكن حقاً اختياراً حراً على الإطلاق"، إذ بدا أنه يقترب تدريجاً من تشخيص حالته النفسية الحالية كمن تعرّض حين كان أسير حرب دون أن يدري إلى عملية تشكيل معتقدات جديدة أو إصلاح فكري أو غسيل دماغ بالأحرى حتى إن كان يرفضها.[١]

قد تكون نبرة هوكينز خلال محادثاتنا هادئة في بعض الأحيان، ولكن مضمون ما

١ مراسلة شخصية من David Hawkins إلى الكاتب (٢١ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٤).

قاله عن تجربته في حرب كوريا والتحديات الشخصية التي واجهها لم يكن كذلك على الإطلاق. لا يزال يتذكر بوضوح اعتقاله في عام ١٩٥٠ من قوات العدو والصعاب التي تلت ذلك. أعاد سرداً حياً لحادثة وقوعه في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر من تلك السنة الأولى للحرب. كان يقود شاحنةً عسكريةً على الطريق الرئيسية للإمداد جنوباً، على بُعد نحو يوم واحد من نهر يالو الذي يقع على الحدود ما بين كوريا الشمالية والصين. حجبت القوات الصينية مروره عند ممر جبلي رئيسي، وفجأةً انفجرت عبوة ناسفة وألقت به إلى قاع حوض جاف. كان غير قادر على التحرك طبيعياً، وعندما أدرك أن دماءه تلطّخ زيّه، اصطدم بالخطأ بدورية صينية واعتُقل.[١] بأسلوب درامي مثير، نقل لنا العواطف الشديدة التي ارتبطت بلحظات حيوية في حياته؛ من الحرية إلى الأسر، من الحياة إلى حافة الموت، من الراحة النسبية إلى الصعوبات الشديدة؛ من مشكلة البقاء على قيد الحياة إلى رعب جميع تلك الخسائر الأخرى. لم يستطع التخلص من ذكريات الرجال الذين لم يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة خلال الحرب على عكسه هو الذي نجا وعاش طويلاً. تحدث، على سبيل المثال، عن تجربته المروّعة في النوم بجانب جندي آخر للتدفئة في الليل، ليجد عند الاستيقاظ أن الرجل بجواره قد تُوفّي.

أصبح واضحاً أن قرار هوكينز بالانتقال إلى الصين في نهاية العداء لم يكن محسوماً ومبنياً على سبب واحد كما اعتقد بعض الناقدين. أكد لنا أن قراره في عام ١٩٥٣ لم يكن بالإكراه، أو بتفكير مسبق بالكامل، وبالتأكيد ليس انعكاساً لمعتقد أيديولوجي ثابت. تغيّرت آراؤه مع الوقت، وتجاربه في الطفولة والجيش والحرب والمعسكر والصين، ثم عودته إلى وطنه، كانت لها أسس معقدة وحملت تأثيرات متعددة في ما بعد عليه. أضاف أن قراره بالانتقال إلى الصين كان نتيجة دوافع عفوية واستياء من وضعه الحالي في الولايات المتحدة. أعرب إيجاباً عن انزعاجه من الادعاء الاستكباري لمسؤولي الولايات المتحدة بأن هوكينز سيعود بالتأكيد إلى وطنه بعد تبادل الأسرى وتحريره من الاعتقال، دون وجود أي دليل ملموس أو أساس لهذا الادعاء، ودون احترام لرأي الرجل أو رغبته.

---

١ المرجع نفسه.

من المهم أن نعلم أن إجراءات إعادة التعليم أو إصلاح الفكر ليست مماثلةً لمصنع ينتج منتجات قياسية متطابقة. علينا أن نحذر من افتراض أن الأفراد الذين يتعرضون لعمليات إعادة التعليم أو غسيل الدماغ الماهرة سيصبحون مماثلين لبعضهم تماماً وكأنهم شخص واحد. يُشاع أحياناً عند وصف سكان كوريا الشمالية أنهم تعرضوا لإعادة التعليم بشكل موحد أو متجانس.

في أي مجتمع أو طائفة أو حركة، لا تجد جموعاً من الأفراد الذين يفتقرون إلى الإرادة الشخصية أو التمييز الفردي. في الواقع، يمتلك كل فرد منّا قدرةً على التأثير والتشكيل والتدمير، مع وجود حدود لما يمكننا تحمله. نحن دائماً أبعد من أن نكون مجرد منتجات، ولن نكون أبداً مجرد أجهزة آلية بغض النظر عن مدى امتثالنا لأوامر الجماعة أحياناً أو شعورنا بالانعزال عنهم أو اندماجنا بهم دون الحفاظ على هويتنا الفردية.

وفقاً لكل الأدلة التي واجهتها في هذه المسائل، وجدت أن الأفراد الذين تعرضوا للاحتجاز أو الذين قد يكونون عرضة لغسيل الدماغ، لا يتحولون إلى كيانات مختلفة تماماً عن أنفسهم؛ لا يصبحون أدوات آلية بسيطة أو روبوتات كما يُصوَّرون أحياناً في بعض التقارير والمشاهد الدرامية. كان ليفتون على حق في اعتماده منهجاً شخصياً فردياً في دراسته لعملية غسيل الدماغ، إذ فحص كل حالة شخصية على حدة، فكل حالة تشترك في بعض الأمور أو الخصائص ولكنها تشكل في النهاية قصةً فريدةً لها في حد ذاتها. في الأوقات الأخيرة، قدمت المؤرخة مونيكا كيم Monica Kim أدلةً كبيرةً تتعلق بتجارب الرجال المحتجزين على الجانب المعاكس خلال حرب كوريا؛ سلطت الضوء على محنهم خلال الاحتجاز وجلسات الاستجواب، وعلى ميزاتهم النفسية أو السلوكية التي يفترضها عنهم المحققون ويتخذونها مساراً توجيهيّاً في استجوابهم.[1] الأفراد، سواء تعرّضوا لغسيل الدماغ أو لم يتعرضوا، يختلفون بعضهم عن بعض دائماً، وتظل الاختلافات الفردية والتفاوتات في ردود الفعل والسلوك قائمة حتى في وجود عوامل التأثير والتحويل الشديدة، رغم أن الباحثين قد درسوا جيداً الآليات التي تؤدي إلى تأثير الأفراد وتحويلهم، وتشمل هذه الآليات شعور الفرد بأنه

---

1 Kim, *The Interrogation Rooms.*

محاصَر دون أن يستطيع الهروب، وشعوره بالعجز المكتسب، إذ يعتقد أن ليست لديه القدرة على التحكم في ظروفه حتى عندما يكون بإمكانه تغييرها. تشمل الآليات أيضاً تعرض الفرد للصدمات الجسدية والعقلية، وإزالة الدعم أو الأنظمة التوضيحية أي إزالة الأساليب التي تُستخدم لتوضيح مفاهيم أو معلومات معيّنة، ووضع الشخص الأسير نفسه داخل إطار تنظيمي أو اجتماعي يكون تحت سيطرته الشخصية، مما يعني التزامه الكامل بنظام السلطات التي تأسره وكأنه واحد منها، والاستجابة التدريجية للتغييرات والتحسينات لضمان تكيف الأفراد بسلاسة مع الاقتراحات الجديدة وما إلى ذلك.

الآن، دعونا نفكّر في هذا السيناريو الافتراضي للحظة. إذا كنتم تميلون إلى النظر في عمليات غسيل الدماغ إما على أنها علم مؤكد من جهة وإما قصة مرعبة من جهة أخرى، فتخيلوا أنفسكم في أكثر الظروف قسوةً: تخيلوا أنكم اختُطفتم، ثم أُسرتم في مكان مجهول ومضلّل على نحو متعمد. تخيلوا أنفسكم في حالة من الرعب، من دون العناية والإحساس العادي، وقد سُجنتم في مكان (ربما حتى في صندوق صغير). بالإضافة إلى ذلك، قد تكونون ملزمين بإلحاق الأذى بشخص آخر لإنقاذ أنفسكم أو لتجنب تعذيب أحد من أحبائكم في غرفة أخرى.

كم يمكن أن تحتفظوا بمفهوم هويتكم السابقة في مثل تلك الظروف؟ إذا كنتم لا تزالون "أنفسكم"، فإنه من المرجح ألا تكونوا أنفسكم كما كنتم عليه في السابق. بغض النظر عن تاريخكم الشخصي ومعتقداتكم وتدريبكم أو شخصيتكم، من الصعب تحديد كيف قد تتغيرون تحت أقصى ضغط، ومكان النقطة التي تنهارون أو تنكسرون فيها بنهاية المطاف.

الاعتراف بأن عقولنا قابلة للتأثير لا يعني إنكار أن مفهوم غسيل الدماغ يحمل عبئاً أيديولوجياً كبيراً، ومع ذلك، فإن القلق القديم، أو التصورات المبالغ فيها أحيانا، حول عملية التصميم المتعمدة لتحطيم الأفراد وإعادة تشكيلهم لا تزال له أهمية. تثير هذه الأفكار مسألة حول ما يمكن فعله بصورة شريرة لخلق اليأس والقلق الذي لا يُحتمل وأقصى درجات الرهبة، وربما بعد ذلك، يمكن أن يزيد الوعي حول كيفية جذب شخص إلى أشكال "الحب" الملتوي والمنحرف. في المقابل، يظهر السيناريو البديل القدرة على إعادة تربية الفرد منذ الطفولة، وتكون تلك السنوات الأولى حاسمةً في

تشكيل شخصيته، وكمثل قديم يقول: "أعطني الطفل حتى سن السابعة وسأعطيك الرجل"، مما يبرز الأثر الكبير للتربية في الطفولة على تكوين الفرد في المستقبل.

تأثير التدخلات المبكرة على حياتنا يمكن أن يكون ضخماً، وهذا لا شك فيه، وفي أسوأ الحالات، يمكن استغلالها لكسر شخصيتنا وإعادة تشكيلها في مراحلها الأولى. العمل مع الرضّع قد يكون له تأثير دائم وبالتأكيد يمكن أن يكون الأكثر تأثيراً على المدى البعيد بالنسبة إلى بعض الأشخاص. عندما نتخيل رؤية تلك الصور المرعبة التي تُبث للعالم لأطفال الجنود الذين دُرّبوا للخدمة في تنظيم الدولة الإسلامية وميليشيات أخرى، ندرك أهمية هذا الأمر. التصور عن كيفية إجراء برنامج علاجي للتعافي بعد كل ما حدث هو أمر مخيف بالتأكيد، خصوصاً عندما يتم تحويل الأطفال الضحايا إلى مرتكبين، حيث يُجبَرون على قتل الآخرين وتعذيبهم.

فكِّر في السياق نفسه ولاحظ ما حدث لصبي يُدعى أوكيلو موسى روبانجانغيو Okello Moses Rubangangeyo، الذي نشأ في غولو، شمال أوغندا، في الثمانينيات. عندما بلغ السابعة، في عام ١٩٨٧، انتشرت حركة غزوية صليبية تُعرف بجيش الرب للمقاومة (Lord's Resistance Army) في تلك المنطقة من أفريقيا. جمعت هذه الجماعة بين عناصر متعددة مثل المسيحية، والمعتقدات المحلية حول سيطرة الأرواح على الأشخاص، ووجود قائد قوي، ومنظمة عسكرية كبيرة، وأسوأ طقوس انتقامية يمكن تصورها.

كان لدى روبانجانغيو كل سبب ليكون خائفاً جداً من جوزيف كوني Joseph Kony، زعيم هذا التنظيم. كان كوني يقود قوةً قاتلةً شنت حرباً ضد الحكومة المركزية في أوغندا وكانت قاسيةً جداً تجاه السكان المحليين. عندما بلغ روبانجانغيو السادسة عشرة، في ١٩٩٦، جاءت مجموعة من رجال تلك القوة إلى مبيته في المدرسة في إحدى الليالي واختطفته مع أطفال آخرين. تعرضوا للتعذيب والتنمر والتدريب وأجبروا على الانضمام إلى التنظيم. للأسف، لم ينجُ بعض الأطفال من هذه التجربة الرهيبة. لم يكن هناك خيار آخر، كما شرح روبانجانغيو لاحقاً: إما أن يفعلوا ما يريده جيش الرب للمقاومة، وإما أن يموتوا. في نهاية المطاف، نجح روبانجانغيو في الهرب وبدأ في إعادة بناء حياته. في عام ٢٠١٤، التقى بصحافية تُدعى أدريانا

كارانكا Adriana Carranca وبدأ في مشاركة قصته معها، ستكتب عنها لاحقاً في مجلة *Granta*.

قدم روبانجانغيو وصفاً لها حول كيفية اختطافه والعديد من الآخرين في الليل، إذ ضُربوا بوحشية من المتمردين الذين احتجزوهم، واستهزؤوا بهم وتنمروا عليهم. كان على الأطفال تحمل هذا الألم دون أن يبكوا، لأن البكاء كان يمكن أن يكلفهم حياتهم، وأوضح روبانجانغيو أنهم كانوا يُهدَّدون بالأسلحة، ولم يُسمح لهم بأن يصدروا أي صوت أثناء التعذيب، وبعد الوصول إلى عدد الضربات العشرين الأولى التي كانوا يتلقّوها، ظنوا أنهم لن يستطيعوا تحمل المزيد من الألم بعد ذلك. كان هدف المتمردين واضحاً: جعل الضحية عديمة الإحساس، حتى تموت أو تبقى على قيد الحياة. كان الهدف النهائي تحويل الضحية إلى روبوت يطيع دون أن يطرح أي أسئلة. بعد أن نجا من تلك الظروف، أدرك روبانجانيو أن هذه الاستراتيجية كانت تُستخدم منهجياً لتقليل الإحساس لدى الأفراد وتجريدهم من هويتهم و"تحويلهم إلى الخدمة العسكرية" في "جيش الرب للمقاومة".[1]

في بعض الأحيان، كان على الأشخاص الذين اختُطفوا أن يقوموا بأشياء مروّعة. أُجبروا أحياناً أن يؤذوا أو يقتلوا أفراد عائلتهم وجيرانهم السابقين. على سبيل المثال، كان يتعين على روبانجانغيو استخدام فأس صغيرة لقطع ساقَي رجل آخر، وإلا كان سيُقتل. هذا الرجل الذي اختُطف كان محتجزاً لأنه انتهك قاعدة من "جيش الرب للمقاومة" بركوب دراجة هوائية. شعر روبانجانغيو بالعار تجاه ما فعله لهذا الرجل، إلا أنه كان مضطراً لفعل ذلك للبقاء على قيد الحياة. لم يكن قادراً على النظر إلى عينَي الرجل الذي أذاه، وقد أعرب عن أسفه للصحافية لأن الفأس التي أُعطيت له لم تكن أكبر، مما كان سيسمح له بقطع تلك الأطراف بأقل عدد من الضربات. أمّا الصحافية كارانكا فسجلت مشاعرها المختلطة جداً أثناء توثيق قصة حياة روبانجانغيو المروّعة، إذ بصورة مفاجئة انصرفت بعيداً من الرجل الذي كانت تتحدث إليه، وفي الوقت نفسه تعاطفت مع الفتى المدمَّر الذي مرّ بتجربة صعبة.

---

1 Adriana Carranca, 'Absolution: A former child soldier in the Lord's Resistance Army tells his story', *Granta*, 18 March 2020, granta.com/absolution/.

أُخذ روبانجانغيو من قِبل جيش الرب للمقاومة إلى جنوب السودان بعد أشهر عدة من اختطافه. هناك، ظهر جوزيف كوني، زعيم هذا الجيش. كان كوني يرتدي بدلة باللون البني الفاتح وكان يتحدث برفق. أخبر الأشخاص الذين اختُطفوا أن جيش الرب للمقاومة قد حررهم من حكام أفريقيا الاستبداديين. وصف كوني هؤلاء الشبان بأنهم "الأتشوليون الجدد"، واحتضن نسخةً من الكتاب المقدس، ونقل نصاً من (**متى ٥:٣٠**): "وإذا كانت يدك اليمنى تعثرك، فاقطعها واطرحها. فإنه خير لك أن تفقد جزءاً من أعضائك من أن يذهب جسدك كله إلى الجحيم"، كما أعلن.

زُيّف الوضع هنا إذ ذكر روبانجانغيو أن القائد كوني كان يبدو "رجلاً لطيفاً للغاية" رغم أنه كان يمتلك سلطةً كاملةً على حياتهم. كان القائد كوني يقدم رسالةً تقول: "سنقتل جميع الأشخاص الغبيين في أوغندا... نحن نجمع بين أشقّائنا وشقيقاتنا". ثم، يسأل الحضور: "هل اختطفنا أحداً من بينكم هنا؟"، وعلى وجه السرعة يجيب الأولاد والبنات مرتعبين: "لا، لا، لا، على الإطلاق، سيدي!".

روى روبانجانغيو لاحقاً لكارانكا كيف كانوا في البداية يتظاهرون أنهم يوافقون على كل شيء يخرج به زعيم الجيش، ولكن بمرور الوقت، رأوا أنه بمجرد أن تعوّدوا تماماً على كل هذا، بمجرد أن تم "تعميدهم" من جديد، أدركوا تدريجاً أنهم أصبحوا "مغسولين دماغياً" بمعنى أنه لم يعد لديهم تمييز بين الصواب والخطأ، وبين من هو صحيح ومن هو خاطئ:

> رُسمت صلبان على أجسادهم ووجوههم وأذرعتهم العارية باستخدام خليط من الطين الأبيض والماء، وتم مسحهم بـ"زيت مقدس" مصنوع من جوز النخيل الأريكا، وكان يُصب على جباههم وبعض أجزاء من أجسادهم. خلال احتفال ديني للجيش، طُلب منهم أن يعترفوا بخطاياهم وإذا رفضوا ذلك، يُهدَّدون بالموت القريب، وإذا اعترفوا، يقنعونهم بأنهم سيصبحون غير مرئيين أمام "أعدائهم"، وأن الرصاص لن يصل إليهم بتاتاً. كانوا يزرعون في عقولنا أفكارهم! كانوا يغسلون أدمغتنا! تبدأ في التفكير ربما في أن تعدد الزيجات والقتل، أو حتى البتر... قد تكون لها صلة روحية.

في النهاية، استغل روبانجانغيو الفرصة عندما تفكك "جيش الرب للمقاومة" ليعود إلى غولو ويكتسب بعض التباعد النفسي بالإضافة إلى التباعد الجسدي من كل ما حدث. بدأ في جمع قطع من قصته ولم يقتصر على العيش معها في صمت داخله بينما كان مجروحاً وخائفاً. كتبت كارانكا تقارير عن تحسنه الملحوظ وكيف أصبح أباً مهماً، ومع ذلك، يُثير ذلك تساؤلات حول التأثيرات الدائمة على روبانجانغيو والأطفال والمراهقين الآخرين الذين شاركوا في النزاع. ما تأثيرات ماضيهم؟ هل يمكن لهم أن يتعافوا كاملاً من هذا التاريخ؟ وماذا يعني التعافي الكامل من هذا النوع من التاريخ، وما هي إمكانية حدوثه وقابليته للمواجهة؟ هذا أمر يعتمد على العديد من العوامل.

أريد فقط القول إن مثل هذه القصة قد تثير شكوكاً حول قدراتك أو قدراتي العقلية في مقاومة عمليات غسيل الدماغ أو تجنّبها في مثل تلك الظروف الصعبة التي مرّ بها روبانجانغيو. من الصعب معرفة كم من الوقت بالضبط سنبقى غير مطيعين أو كم من الوقت سنقاوم بنشاط، وبالتالي نكون مستعدين إما للموت على الفور وإما للعيش والتصرف بناءً على تلك الشروط الاستبدادية. من لن يفقد عقله حتى لو نجح في البقاء على قيد الحياة حيال كل ذلك؟ إحساسنا بالذات ليس قوياً صلباً دائماً؛ فهو لا يكون أبداً على نحو تام. يكون الفهم الذاتي والوعي الذاتي ومرونة الصمود والتكيف، على ما أعتقد، دائماً أموراً جزئيةً على الأكثر، في أحسن الأحوال.

قد يكون بعض الأشخاص أفضل من الآخرين في البقاء على قيد الحياة بعد أمور مروّعة مثل الاغتصاب أو التشويه أو التعذيب. قد يكون لديهم بعض الأمل، أو شرارة من التمرد، أو شعور دائم بالخير، أو القوة لمحاولة الهروب والتحسن ببطء. باستخدام الدعم والموارد المناسبة، يمكن للناجين أن يقوموا بعمل نفسي هام مع مرور الوقت. لدينا عبارات يومية مثل "التوافق مع الأمور"، و"المضي قدماً"، و"فهم المشكلة والتغلب عليها"، أو "عثور على الإغلاق" أي السماح للمشاعر والأفكار المتعلقة بالتجربة أن تتدفق وتتلاشى ببطء بدلاً من تجميدها أو إخفائها. كل هذه العبارات تعكس هذا التقدم، أو على الأقل الأمل بالأفضل. يشدد الخبراء الذين يعملون في هذا المجال أيضاً على أن تجارب الصدمات اللاحقة يمكن أن تزيد من تأثير الصدمات

السابقة. يمكن أن يؤدي هذا إلى إنشاء آثار ذهنية وجسدية معقّدة ولاوعية لا يمكن استعادتها أو علاجها بالكامل. القدرة على التعامل مع مشاعر العار والذنب، ومقاومة التلاعب، ومن ثم المشاركة في عملية الحزن، أو حتى التفكير في أفكار مخيفة لمدة طويلة، تختلف من شخص إلى آخر وهي متغيرة ومحدودة في كل منّا. في معتقدات دينية في بعض المجتمعات الأفريقية، يُمكن تفسير هذا النوع من المعاناة والخوف على أنه حالة تُلبس بالأرواح، وهذا مختلف تماماً عن كيفية شرح علم النفس الغربي لمشاعر الذنب أو الصدمة أو الحزن. لدينا مجتمعات مختلفة الطقوس لمساعدة الأشخاص في مشاركة قصصهم والشفاء، أو الانخراط في عمليات الحزن أو الاندماج في المجتمع مرةً أخرى، ومع ذلك، هناك أوقات عندما يمكن أن ينهار المجتمع بأكمله انهياراً تاماً، تاركاً الشخص الذي يعاني يشعر بالضياع التام. الحداد على ما قد قمنا به أو ما فقدناه، والتفكير في مشاعرنا وتجاربنا، هي إنجازات قيّمة ولكنها هشة، وهي ليست حالات عقلية مضمونة. يمكن للعقول والأجسام على حد سواء أن تتعرض للانهيار، بغض النظر عن ثقافتنا ومجتمعنا، أو إيماننا، أو الطريقة التي نشرح بها الأمور، أو مواردنا الداخلية.

الإبداع البشري في كسر الأشخاص الذين يُحتجزون، باستخدام التعذيب العقلي والجسدي، وتكتيكات قاسية، وتلاعب يشمل الشعور بالذنب والعار والذعر والمعاناة الشديدة، ليست له حدود حقيقية. نحن على علم بأن التعذيب استخدمته إلى حد كبير البلدان الديموقراطية والديكتاتورية على حد سواء منذ عام ١٩٤٥، في كثير من الأحيان كاستراتيجية منظمة، حتى دون إعلان حالات الطوارئ رسمياً لتبريره. على سبيل المثال، أثارت تقنية "الغمر بالماء"، التي تخدم المجرمين من ناحية أنها لا تترك أثراً على الجسم، استنكاراً خلال "حرب الإرهاب". لهذا الأسلوب في التعذيب تاريخٌ طويل وقد استخدمته على نطاق واسع القوى الغربية وقوى أخرى في مواقف متنوعة.[١]

يكون من دواعي الراحة لو استطعنا أن نرى الجهود الواسعة المبذولة لإلحاق الأذى النفسي والاجتماعي كأمور نادرة وتحدث على هامش المجتمع، وغير مرتبطة

1 Eric Weiner, 'Waterboarding: A Tortured History', NPR, 3 November 2007, www.npr.org/2007/15886834/03/11/waterboarding-a-tortured-history.

تماماً بأعمال الدول الوطنية الحديثة. بدلاً من ذلك، يمكن أن نعتبرها آثاراً من عصور مضت، توجَد بصورة رئيسية في المناطق المتأثرة بالصراع أو في الدول التي تُعتبر أوضاعها غير ناجحة. يشبه عالمنا الحالي المراحل الأكثر ظلاماً في القرن العشرين عندما تعرض الأشخاص لإعادة التعليم في المعسكرات، إذ يصعب فهم مدى حجم ما يحدث داخل مرافق وأنظمة إعادة التعليم المغلقة اليوم. مثال مزعج خاص على ذلك هو ما قامت به الدولة الصينية ضد الأويغور والوضع الذي تعرضت له هذه الجماعة العرقية، وعلينا أن نرجع في هذه النقطة بصورة خاصة إلى الوضع الحالي في الصين. في السنوات الأخيرة، ركزت العديد من التقارير والحملات (التي قادتها منظمات مثل منظمة العفو الدولية) انتباهها على محنة الأقلية العرقية الأويغور في سنجان، إقليم شمال غرب الصين.[١] تفوقت مبادرة إعادة التعليم للأويغور على جميع الجهود العالمية المماثلة الأخرى؛ في الواقع، إن مبادرة إعادة تعليم الأويغور في الصين هي أكبر سياسة احتجاز من نوعها على مستوى العالم، بحيث تستهدف هذه السياسة احتجاز وتأديب هذه الأقلية العرقية على نحو جماعي ومعاد لهم، وتهدف إلى تغيير طريقة تفكيرهم وسلوكهم منهجياً.

جاء هذا البرنامج تحت المراقبة الجديدة في عام ٢٠١٩ عندما قام مصدر مجهول أو مجموعة مجهولة بتسريب مجموعة من الوثائق السرية إلى التحالف الدولي للصحافيين المحققين (International Consortium of Investigative Journalists). كانت إحدى هذه الوثائق التي تبلغ سنتين من العمر مذكرةً مكونةً من تسع صفحات من زهو هيلون Zhu

---

١ وفقاً لوكالة رويترز في عام ٢٠١٩، احتُجز مليون أو حتى مليون ونصف من الأويغور، البالغ عددهم نحو ٨ ملايين نسمة في تلك المنطقة، وتعرّضوا لمجموعة من التدابير للتحكم في العقل. انظر:

Stephanie Nebehay, '1.5 million Muslims could be detained in China's Xinjiang: Academic', *Reuters*, 13 March 2019, www.reuters.com/article/us-china-xinjiang-rights/15-million-muslims-could-be-detained-in-chinas-xinjiang-academic-idUSKCN1QU2MQ.

كما يمكن الاطلاع على:

Amnesty International UK, 'Urgent Action update: Detained Uighur has nervous breakdown', 2019, www.amnesty.org.uk/resources/urgent-action-update-detained-uighur-has-nervous-breakdown.

لاحقاً، زادت التقديرات لتصل إلى احتجاز مليوني شخص أو أكثر.

Hailun، نائب الأمين العام السابق للحزب الشيوعي في سنجان وأعلى مسؤول أمني في المنطقة. أوجبت المذكرة مديري مرافق الاحتجاز على منع أي محاولات للهروب، ومعاقبة جميع "انتهاكات السلوك"، وتشجيع التوبة والاعتراف، و"تحفيز الطلاب للتحول بصدق"، بغض النظر عما قد يعنيه ذلك. أكد زهو هيلون أن الحياة داخل هذه المرافق يجب أن تكون منظمةً بصرامة، ومراقبة بعناية، ومراجَعة ومُجدوَلة يوميّاً بكلّ جوانبها. أوضحت المذكرة أن التوبة والاعتراف كانا جزءاً أساسياً من العملية، فكان يتعيّن على المحتجَزين "فهم بعمق الطابع غير القانوني والجنائي والخطِر لأفعالهم السابقة".[١]

عندما ظهر السفير الصيني في لندن على قناة *BBC* بعد نشر هذه الوثائق، أعرب فوراً عن رفضه تلك الاتهامات المتعلّقة بغسيل الدماغ، ووصفها بأنها "أخبار مزيفة". أكد أن التدابير التي اتخذتها حكومة الصين كانت تستهدف التدريب المهني الطوعي، ورفع مستوى الأويغور، وتوفير فرص لهم، وتلبية احتياجاتهم ومصالحهم.[٢] وزعمت بكين أن سياستها كانت استجابةً متوازنةً ومعقولةً للتطرف الإسلامي وظهور تنظيم القاعدة اللذين أثّرا بصورة عدائية على الأويغور.

أشار السفير إلى أن لجميع المجتمعات الحق في الدفاع عن نفسها باستخدام وسائل مناسبة، ولكن السؤال هو: ما الوسيلة المناسبة؟ بعض المسؤولين الصينيين قد ادعوا أن تسريب البيانات الذي تناولوه على نطاق واسع في الغرب كان محاولةً أجنبيةً مدبرةً لـ"تشويه" صورتهم، بينما أصر آخرون على أن الهدف الرئيسي للبرنامج في هذه المرافق "الطوعية" هو بالضبط فك تأثير غسيل الدماغ التطرفي عند الأويغور وضمان عدم تأثرهم بالأفكار الأصولية الإسلامية. بدلاً من التركيز على حجم الاعتقالات، حث الصينيون الصحافيين على التركيز على الجانب المعاكس: الإفراج المزعوم بكميات كبيرة عن هؤلاء المعتقلين، المشار إليهم بأنهم طلاب، من الحجز.[٣] (من الدلائل على حساسية الصين تجاه

1 Emma Graham-Harrison, 'Secret memo on how to run China's prison camps- annotated', *Guardian*, 24 November 2019, www.theguardian.com/world/ng-interactive/2019/nov/24/china-cables-instructions-on-how-to-run-a-chinese-detention-centre-annotated-document. Cf. Graham-Harrison and Garside, 'Complete Control', p. 13. Emphasis added.

2 Graham-Harrison and Garside, 'Complete Control', p. 13.

3 Lily Kuo, 'China claims detained Uighurs have been freed', *Guardian*, 9 December 2019, www.theguardian.com/world/2019/dec/09/china-claims-detained-uighurs-have-been-freed.

هذه الاتهامات الأجنبية هو عندما قرر لاعب كرة القدم الألماني مسعود أوزيل Mesut Ozil، الذي يعتنق الإسلام وينحدر من أصول تركية وكان آنذاك لاعباً في فريق الأرسنال، الاحتجاجَ علناً ضد معاملة الأويغور في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٩، مما دفع التلفزيون الصيني الرسمي سحب تغطية مباراة الأرسنال في نهاية الأسبوع على شاشاته الوطنية).[١]

على الرغم مما تقوله الحكومة الصينية، فإن العديد من الأشخاص غير مقتنعين بتلك الوصفات الإيجابية لما حدث مؤخراً للأويغور. الأشخاص الذين اعتُقلوا في هذه المرافق في السابق يقدمون قصصاً مختلفةً عما تقوله الحكومة الصينية. على سبيل المثال، زهارقينبيك أوتان Zharqynbek Otan، الذي احتُجز في أحد هذه الأماكن لسبعة أشهر بعد اعتقاله في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٧ وفرّ لاحقاً من البلاد، قال إن الهدف الرئيسي من هذه الاعتقالات الجماعية كان تفكيك روابط الناس بماضيهم، وفرض ولاء جديد وشديد على جميع المعتقلين، أي ممارسة "عملية غسيل الدماغ" على المحتجَزين، وأوضح أن الهدف بالتالي كان جعلهم "ينسون جذورهم الثقافية والإسلامية وهويتهم العرقية".[٢]

في بعض الحالات المذكورة في هذا الفصل، تكمن الغاية من السجن في أغراض مختلفة. يمكن أن تستهدف استخراج اعترافات الفرد ثم التخلص تماماً منه. في حالات أخرى، الهدف هو إنشاء روابط لا تُكسَر، وخلق جنود مطيعين، أو حتى أفراد ينفذون الأوامر دون تساؤل، بما في ذلك أعمال العنف والتعذيب. على سبيل المثال، في معسكرات الأويغور، الهدف الرئيسي هو قمع المعارضين وتنفيذ إعادة تعليم سياسي مكثف بين السكان من الأقلية، وبالتالي ممارسة السيطرة وتشكيل مستقبل الأشخاص الذين "يثيرون المشاكل" ضمن الدولة الأكبر. تم التبليغ عن حالات إجبارية للعقم جنباً إلى جنب مع تقارير عن أشكال متعددة من القهر النفسي والجسدي التي

1 'China state TV pulls Arsenal game after Ozil Uighur comments', *Al Jazeera*, 15 December 2019, www.aljazeera.com/sports/2019/15/12/china-state-tv-pulls-arsenal-game-after-ozil-uighur-comments.

2 Austin Ramzy and Chris Buckley, 'Leaked China Files Show Internment Camps Are Ruled by Secrecy and Spying', *The New York Times*, 24 November 2019, www.nytimes.com/201924/11//world/asia/leak-chinas-internment-camps.html.

تُمارَس ضد الأويغور. يبرر الصينيون هذه السياسات تحت مسمّى حماية المجتمع، والحفاظ الأكبر على مصلحة الغالبية العظمى. في الواقع، تُنفّذ عمليات غسيل الدماغ، كما في حالة الأويغور، في كثير من الأحيان تحت غطاء ادعاء القيام بعمليات "فك غسيل الدماغ" التطرفي الإسلامي والسعي وراء درجات أعلى من التنوير المزعوم.

تم التأكيد على الدور المركزي للمعسكرات في القرن العشرين في العديد من الأعمال المهمة في مجالات مثل الفلسفة ونظرية الاجتماع والصحافة والسينما والسير الذاتية والتاريخ. استُخدمت هذه المعسكرات سواء للقضاء على الشعوب بأكملها أو لعزل الأفراد ومعاقبتهم وتغييرهم. إن نطاق التحول القسري في المجتمعات التوتاليتارية يجعلنا نفكر في الأمثلة الأقل وضوحاً وأكثر تردداً من النواحي الأخلاقية، إذ هناك إجراءات يُفترض أن تكون موجهةً نحو مقاومة عمليات غسيل الدماغ. هذه الإجراءات تحدث حتى في المجتمعات الديموقراطية الليبرالية تحت مسميات مثل إلغاء الجريمة، وإزالة التطرف، وتدابير مكافحة الإرهاب. بعض المؤيدين لعملية "إلغاء البرمجة" الموجهة للأفراد الذين انخرطوا بشدة في الجماعات المتطرفة في الغرب يعتقدون أن أفضل طريقة لتحقيق هذا الهدف هي تقليد تكتيكات مَن قاموا بعمليات غسيل الدماغ الأصلية على نحو معاكس، أي فك غسيل الدماغ. تتضمن إحدى استراتيجياتها تعريض الشخص لتجربة عنيفة وتحررية ومخيفة لتحريره من معتقداته الوهمية السابقة، كما لو أن الحرية يجب استعادتها بالقوة من خلال نوع من مكافحة الاضطهاد.

هناك طرق أخرى للنظر إلى عملية إعادة التعليم في سياق الشيوعية الصينية. في الثلاثينيات، أشار ماو بالفعل إلى ما أراده: تحويل "اللومبنبروليتاريات" (Lumpenproletariat)، وهم أدنى شرائح المجتمع والمعروفون أحياناً بأنهم ركام المجتمع مثل المتشردين والعاهرات والمجرمين الصغار والفاسقين وغيرهم، وتنويرهم وإعادة تشكيلهم كجزء من النضال الثوري. بينما كان بعض أصحاب الأراضي وجواسيس مكافحة الثورة مرشحين للانقراض، كان لدى ماو خطة مختلفة للطبقات الأدنى من الفقراء الذين كانوا يُعدّون في السابق غير قابلين للإصلاح أو بلا أمل (شبيهة بالطبقات الخطرة التي رآها الكثيرون في أوروبا في القرن التاسع عشر). كانت رؤية ماو هي استرداد هؤلاء الأفراد كرفاق من خلال إنشاء معسكرات عمل

جديدة لهم وبرامج تعليمية، وقد تمثل هذه المبادرة جهداً ضخماً في الصين بهدف مساعدة المظلومين على التعرف على تاريخ استغلالهم وتضحياتهم وفهم مستقبل مشرق ينتظرهم ضمن إطار ثورة دائمة. من وجهة نظر ماو، كانت نظرية إصلاح الفكر وممارسته تتعلق بإعادة تكامل الأفراد الذين كانوا يفتقرون إلى التنوير، بمن في ذلك الذين كانوا يعيشون في اليأس ويتعرضون للاستغلال مع الفلاحين والعمال لخلق شعب إنتاجي وعازم ومبتهج وموحد بكل قلبه.[1]

بالطبع، هذه لم تكن النظرة التي يحملها نقاد غسيل الدماغ الغربيون. في رأي المعلقين المضادين للشيوعية في الولايات المتحدة، مثل إدغار شين Edgar Schein، أصبحت إعادة التعليم ومراقبة الأفكار الآن مترادفتين. في تقرير من عام ١٩٦٠ نشره مركز الدراسات الدولية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في كمبردج، ولاية ماساتشوستس، ذكر شين أن "غسيل الدماغ"، كما وصفه، كان "مصطلحاً يُستخدَم للإشارة إلى الجهود المنهجية التي يقوم بها الشيوعيون الصينيون (وبالتلميح الى السوفيات) لإجبار الأفراد الذين لا يؤمنون بالشيوعية على قبول الولاء الشيوعي والأوامر والمذاهب الشيوعية من خلال وسائل الإكراه".[2]

من وجهة نظر الليبراليين الغربيين، كانت إعادة التعليم الشيوعي الماوية تحويلاً كبيراً لفكرة كانت في السابق متوافقةً مع الديموقراطية الليبرالية. يُعتقد أن الشيوعيين أخذوا فكرةً طيبةً في الأصل وجعلوا منها شيئاً مختلفاً تماماً. أشاروا إلى أن جهود الحلفاء بعد احتلال ألمانيا لإعادة تعليم السكان الألمان، وإزالة النازيين من المناصب المؤثرة، وترسيخ الديموقراطية الليبرالية، قد تم تجاوزها وتشويهها الآن. اعتبر هؤلاء النقاد الغربيون أن إعادة التعليم في السياقات الشرقية كانت عكس الأفكار الليبرالية، إذ أصبحت الآن مشروعاً لقمع التفكير النقدي والقضاء على أي تعددية. بدلاً من ذلك، تطورت إلى وسيلة للترويج لرؤية واحدة للحقيقة الشيوعية.

---

1 Aminda Smith, *Thought Reform and China's Dangerous Classes: Reeducation, Resistance, and the People* (Lanham, 2013), p. 2.

2 Edgar Schein, *Brainwashing* (Cambridge, MA, 1960), p. 1.
متوفر عبر الإنترنت على الرابط التالي:
dspace.mit.edu/bitstream/handle/1721.114769178/83028/.pdf.

كما أشار ليفتون، فإن جهود إعادة التعليم بالجُملة التي نُفّذت تحت حكم الماوية في الصين كانت في الواقع تتعارض أساساً مع القيم الفردية وأساليب التفكير. مع ذلك، لم يشارك الجميع في العالم الغربي هذا الإحساس بالاشمئزاز تجاه طموحات الصين لتحويل "الجماعة" في المجتمع وتوحيد معتقدات السكان مع إرادة الحزب الشيوعي، بل إن ذلك اعتمد إلى حد كبير على وجهة نظرك السياسية. يُذكر أن لدى ماو العديد من المعجبين والمدافعين في الغرب أيضاً منذ ثلاثينيات القرن الماضي. حتى بعد عقود من توليه السلطة، كما أظهرت جوليا لوفيل Julia Lovell في تاريخها الواسع النطاق، استمرت الماوية في جذب أعداد كبيرة من الناس خارج الصين. في الواقع، مجموعة مذهلة من الجماعات والحركات حول العالم اعتمدت الماوية وأعادت صياغتها جزئياً.[1] كانت الماوية تعني أشياء مختلفة للناس وفقاً للزمان والمكان. كانت أيديولوجيا متناقضة ومتنوعة ومتطورة، وأيضاً خطاباً وأسلوب حياة. قال ماو العديد من الأشياء في مراحل مختلفة. لكن بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا معارضين للشيوعية وحذروا من غسيل الدماغ في الخمسينيات، فإنّ مشروع إعادة التعليم الذي كان جزءاً أساسياً من الماوية هو بالتأكيد أمر مخيف ومذموم. بالنسبة إلى هؤلاء، بدا أنه وسيلةً لفرض الحقيقة الواحدة، وزرع الخوف، وضمان الامتثال، وتثمين القيادة، ومطالبة بالولاء الكامل للحزب... كل ذلك على حساب الحرية والاستقلال الفردي ومن أجل البقاء على قيد الحياة.

كان العديد من الأشخاص في الولايات المتحدة الذين تحدثوا عن هذه الأمور بعد الحرب العالمية الثانية يعتقدون أن نوعاً جديداً من السيطرة التامة من الحكومة كان يجمع المزيد والمزيد من الأشخاص في لعبة حيث كَسْبُ شخص واحد يعني خسارة شخص آخر. حدثت هذه القصة داخل البلاد وعبر مناطق مختلفة وحول العالم. خشي الناس أن هذا العمل لن يتوقف عند أي حدود. كان غسيل الدماغ يحدث ليس فقط عبر القوة والخوف ولكن أيضاً عبر الإغراء والإغواء وخلق الرغبات، مثل حالة مجموعة الـ ٢١ المعروفة. هدفه جعل الكثير من الناس يؤمنون بشدة بشيء ما وخلق ثقافة من الحماسة الشديدة حياله. كان مشابهاً إلى حد ما لاجتماع ديني حيث لا يمكنك

1 Lovell, *Maoism.*

المغادرة لأن جميع الأبواب مغلقة دائماً. كان بعض الأشخاص يشعرون بالقلق من أن هذه الفكرة الأيديولوجية قد تتطور سراً في ما يُعرف بالعالم الحر.

في السجون والقرى والبلدات عبر الصين، حذر بعضهم من ظهور شكل جديد ومنسق من علم النفس الجماعي بُني حول نمط قصصي قمعي للغاية، حيث تكون هناك دائماً الحبكة الأساسية نفسها؛ قصة يدخل فيها الفرد (أنا) مكانه في الجماعة المتجانسة والصاخبة (نحن). في الواقع، كما أظهر باحثون حديثون، يمكن أن تعمل الشيوعية الصينية من خلال حملات قمعية صارمة، ولكن أيضاً من خلال عملية أكثر تعقيداً لرصد وجهات نظر الجمهور وإعادة صياغة السياسات لمواجهة ما لا يرضي شعبها. إنها ليست إذاً مجرد أسلوب إدارة من أعلى إلى أسفل بحيث يتكيف مئات الملايين من الأشخاص مع أوامر الحزب. ولكن مع ذلك، كان هناك أيضاً العديد من القصص الأخرى عن غسيل الدماغ تنشأ في مناطق مختلفة من العالم، بما في ذلك قصص عن الإقناع الخفي والمساومات الأخلاقية الخفية التي تقضي بالتنازل عن مبدأ من أجل مكسب شخصي، وحكايات تحتوي على تفاصيل أكثر وأمثلة أقلّ تحيّزاً لجانب واحد، وتقارير من كتّاب يعيشون خلف الستار الحديدي؛ وروايات تضيف تعقيداً جديداً للتفاصيل التاريخية التي عُرضت أو وُصفت حتى اللحظة، وتقدم معلومات أو وجهات جديدة تُظهر كيفية نظرتنا للموضوع المستندة إلى الرؤى السابقة وتغيرها، وتجعلنا نرويها بطريقة مختلفة تماماً، ورغم هذا التغيير الكبير، فهي لا تقل عن السابق في أهميتها أو قدرتها على إثارة الجدل والاهتمام. لقد كانت هذه رؤى للعقل الأسير في مختلف ظروفه ومواقفه. إنها مجموعة من الاستعارات والأمثلة والصور للحياة النفسية تحت الضغط التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، وزادت تعقيد الصورة الكابوسية المعروضة والمعروفة في روايات جورج أورويل عن الاستعباد الكامل والتسلّط على العقل.

الفصل الثالث

العقل الأسير

في عام ٢٠١٠، أدلى توني جدت Tony Judt، مؤرّخ ومعلق سياسي، بتصريح فكري ملحوظ. ذكر أن "هناك أنواعاً مختلفة من الأسر".[١] في ذلك الوقت، كان جدت في نيويورك، غير قادر على التحرك من الرقبة إلى الأسفل وذلك بسبب مرض يُسمّى التصلب الجانبي الضموري. لم يكن جدت يتحدث عن نفسه بل عن وقت ومكان مختلفين. كان يمدح كتاباً رائعاً يُسمّى *The Captive Mind* [العقل الأسير] للكاتب تشيسلاف ميلوش Czeslaw Milosz، وكان هذا الكتاب قد نُشر في عام ١٩٥٣.

كان ميلوش معروفاً بشعره، وساهمت أعماله الكبيرة في هذا المجال في منحه جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٠. بعد الحرب العالمية الثانية، اكتسب الاعتراف به كشاعر متقدم في بلده الأم بولندا، حتى إن لم يكن عمله معروفاً عالمياً في ذلك الوقت. على الرغم من آرائه السياسية غير الواضحة نوعاً ما، فمواهبه الشخصية وسمعته أدت إلى تعيينه ملحقاً ثقافياً في الخدمة الديبلوماسية للحكومة البولندية، ومع ذلك، في عام ١٩٥١، اختار الانشقاق. خلال ذلك العقد، أصبح ميلوش ناقداً بارزاً للستالينية، وقدم ملاحظات حادة حول جوانب معيّنة من الحياة في المجتمعات الغربية. رسم كتابه *The Captive Mind* بفعالية النقطة التي طرحها جدت: بالفعل، هناك أشكال مختلفة

1 Tony Judt, 'Captive Minds, Then and Now', *New York Review*, 13 July 2010, www.nybooks.com/daily/2010/13/07/captive-minds-then-and-now/.

من الأسر، ويمكن للأفراد التكيف والتسوية والصمود والتمرد بطرق متنوعة، سواء كانوا ضمن نظام شمولي أو ديموقراطية ليبرالية.

أدخل ميلوش مصطلح "العقل الأسير" المعروف جيداً، وطوال مسيرته الكتابية الواسعة، استخدم الرسائل والنثر والشعر لتصوير بوضوح الصراعات النفسية المعقدة وقرارات الحياة الصعبة التي واجهها العديد من الأفراد في بولندا. استكشف كتابه حول العقل الأسير جوانب متنوعةً من الصمود الشخصي والتعاون والتجنّب والمواجهة والهروب، مقدماً رؤى قيّمة تكمل فهمنا لعمليات غسيل الدماغ، كما نوقشت سابقاً. على الرغم من أن كتابه كان منتجاً لعصره، فأهميته تمتد إلى عصور أخرى، مسلطاً الضوء على كيفية تكيف الأفراد مع السلطة أو تنازلهم عن مبادئهم في مجال أخلاقي مشوب بالشك. من المهم أن نلاحظ أن الأفراد الذين تنازلوا عن مبادئهم وتم التطرق إليهم في دراسة ميلوش للعقل الأسير كانوا في الغالب ذكوراً وبيض البشرة ومتعلمين. إنهم مثقفون يعانون من الصراع بين الحرية الشخصية والولاء الجماعي، وكذلك التوتر بين التعبير الفني والبقاء الشخصي، أي أنهم كانوا يواجهون تحديات في الابتعاد عن التعبير الفني والتعامل مع الضغوط والتهديدات من أجل البقاء والاعتماد على أنفسهم. يمكن مقارنة منظور ميلوش مع تحليلات أخرى ذات رؤى دقيقة أُجريت خلال الخمسينيات والستينيات، واستكشفت جوانب متنوعة للاحتجاز تحت حكم ستاليني، داخل العالم الغربي وفي مناطق أخرى أيضاً.

تناولنا سابقاً حكايات تتعلق بالسجناء العسكريين والسياسيين الذين وجدوا أنفسهم فجأةً في أيدي حراسهم ومحققيهم، فأصبحوا عاجزين أثناء احتجازهم، سواء كان ذلك قبل الحرب الكورية أو أثناءها أو بعدها. في هذا الفصل، يقدم ميلوش لنا منظوراً مختلفاً. إنه يقدم لنا شخصيات ليست سجينة بالمعنى الدقيق، شخصيات لا يزال لديها بعض المجال للتحرك. لم ينسَ ميلوش معاناة الملايين الذين تعرضوا للاعتقال، لكن كتاباته تشمل أيضاً أولئك الذين عاشوا خارج أسوار السجن. هؤلاء كانوا مواطنين عاديين حاولوا التكيف مع الوضع السياسي قدر استطاعتهم. بعضهم حتى دعموا القوى التي ستحجب حريتهم في ما بعد، وبعضهم أيضاً اكتشفوا ببطء مدى قيودهم وسيطرة الإمبراطورية السوفياتية عليهم، بالإضافة إلى إغرائهم في بعض الحالات

بتوفير الأمن والاستقرار والفوائد المادية وغيرها، بعد النجاة من أفظع أوقات برلين النازية. أظهر ميلوش أنه يمكن أن تكون هناك طرق مختلفة للتفكير تحت نظام الاتحاد السوفياتي، مما يؤدي إلى نتائج متنوعة. هناك أشكال مختلفة للاحتجاز، وطرق عدة يتفاعل بها الأشخاص مع واقع احتجازهم، وأساليب متنوعة لتحليل هذا الموضوع وفهمه.

يستعرض هذا الفصل من جديد تقارير حول الدول الشمولية والمؤسسات الشاملة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. يستكشف المفاهيم المتعلقة بكيفية تأثير هذه الأنظمة على مواطنيها ويعكس تصورات ميلوش للأفراد الذين يعيشون وأحياناً يموتون في مجتمع مراقب قمعي مرعب. بناءً على أعمال ميلوش، يمتد هذا النقاش من الماضي إلى الحاضر ومن الشرق إلى الغرب، متضمناً تنظيمات سياسيةً ستالينيةً وأخرى متنوعةً يمكن أيضاً أن تلتقط الأفراد وتعترضهم وتغريهم. كان ميلوش مهتماً اهتماماً خاصاً بالتفاوض الذي يشارك فيه الأفراد مع أنفسهم ومع الآخرين لإنشاء حياة جديدة وربما أكثر توافقاً. مثلما يقدم كتاب *The Captive Mind* وجهات نظر متعددة حول كيف يمكن للمجتمعات أن تشكل الفكر والسلوك، يتناول أيضاً كيف يمكن للأشخاص التكيف بمهارة أو إلحاق الضرر بأنفسهم استجابةً لبيئاتهم. وعلى الرغم من أن ميلوش أقرّ بالاختلافات بين الدول الشمولية والديموقراطيات الليبرالية، فقد أضاف تعقيداً إلى الافتراضات السائدة في مرحلة الحرب الباردة، إذ تحدى بإقناع الرؤى الضيقة حول الشيوعية السوفياتية التي كان يعتقدها بعض المفكرين الذين ينتمون إلى الطيف السياسي اليساري في الدول الغربية، وقاوم الاعتقادات الشائعة عند اليمين في الغرب بأن السكان في الدول الشيوعية كانت تُغسل أدمغتهم بصورة جماعية ليصبحوا كتلة آلية متجانسة.

قال ميلوش في ما بعد أنه أثناء كتابته *The Captive Mind*، كان يشعر بالتردد حيال ما إذا كان القراء في الغرب، الذين لم يعيشوا تحت حكم النازيين في بولندا أو الشيوعيين الستالينيين، يمكنهم حقاً فهم الواقع الذي يصفه. مشابهاً العديد من الكتّاب الآخرين الذين هاجروا من شرق أوروبا إلى الغرب، سواء كانوا رجالاً أو نساءً، واجه ميلوش صعوبةً كبيرةً في توصيل تجارب العيش تحت حكم الشيوعية وفي التعبير عن تعقيدات

هوياتهم الشخصية للقراء الجدد.[1] وتجسدت هذه التحديات أيضاً في كتاب إيفا هوفمان Eva Hoffman حول هذه التجربة المهاجرة، حيث أشارت إلى أن الكثير من التفاصيل والمشاعر قد "تُفقَد في الترجمة" عند نقلها من لغة وثقافة إلى أخرى.[2] هذا يعني أن القراء في الغرب قد يجدون صعوبةً في فهم التجارب والهويات التي واجهها الأوروبيون الشرقيون، وذلك بسبب الاختلافات الثقافية والتجربة الشخصية. هوفمان نفسها عاشت تجربة الهجرة عندما كانت في سن المراهقة، إذ انتقلت هي ووالداها اليهوديان، اللذين نجَوَا من الحرب باختبائهما في بولندا، من كراكوف إلى فانكوفر، ثم إلى الولايات المتحدة، وأخيراً إلى إنكلترا.

سعى ميلوش إلى تصوير جوانب من المجتمع البولندي الذي تعرض لدمار الحرب وعاش فيه وغادره في النهاية، بالإضافة إلى التحديات المعقدة التي واجهت هذا المجتمع. في وقت مغادرته، كانت بولندا تخضع بشدة لسيطرة حزب الشيوعي البولندي، الذي كان بدوره يخضع لرقابة موسكو السياسية. كانت البلاد تتعافى ببطء من آثار الحرب.

في عام ١٩٣٩، غزت القوات النازية الألمانية والاتحاد السوفياتي بولندا، مما أدى إلى تقسيم البلاد وشعبها. هذا التقسيم نشأ عن اتفاق سابق بين هتلر وستالين، الذي كان يُعرف بمعاهدة مولوتوف-ريبنتروب، التي تضمنت بنوداً سرية واختُصرت باسمَي وزيرَي الخارجية اللذَين تفاوضا حولها. وقّعت هذه المعاهدة في موسكو في آب/ أغسطس من ذلك العام، قبل أيام قليلة من تصريح هتلر باجتياح بولندا، مما أشعل نيران الحرب العالمية الثانية. في غرب بولندا، جاء الاحتلال النازي وشهد تحولاً مروعاً، إذ تحولت المنطقة إلى معقل عسكري ومكاناً مليئاً بالسجون المرعبة، بما في ذلك غيتو وارسو ومعسكرات الاعتقال حيث تم نقل سكان الغيتو إليها بالقوة. أما المواقع في جنوب بولندا، المعروفة اليوم باسم معسكر أوشفيتس، فلم تكن مكاناً فقط للعمل القسري، بل شغلت دوراً مركزياً في تنفيذ "التطهير العرقي"، وهو خطة استهدفت إبادة السكان اليهود على نحو منهجي. تم تصديق هذه السياسة رسمياً

1 Sladja Blazan, 'Urban Dwellers: Women Writers Who Left Eastern Europe Never to Arrive in the United States', *Amerikastudien/American Studies*, 53:2 (2008), 189–208.

2 Eva Hoffman, *Lost in Translation: A Life in a New Language* (New York, 1989).

خلال مؤتمر وانسيي في كانون الثاني/ يناير ١٩٤٢، بعد عقد من الاضطهاد الوحشي وجرائم القتل الجماعي. أما الجزء الشرقي من بولندا فأصبح في العام ١٩٣٩ تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي، فبدأت مرحلة طويلة من حكم ستالين ونظام غولاغ، وهو عالم آخر من التوتاليتارية غطى سكان المنطقة بظلمه، وبالتالي، أصبحت بولندا نقطة اللقاء بين هذين النظامين القاتلين في أوروبا: النازية الألمانية والاتحاد السوفياتي.

على الرغم من أن هذه الحقائق كانت معروفة لكثير من الناس في العالم الغربي، لم يكن العديد منهم بالضرورة على دراية بالحياة اليومية الفعلية التي اختبرها أولئك الذين عاشوا في بولندا خلال الحرب وجهودهم اللاحقة للتكيف مع النظام الجديد الذي نشأ بعد عام ١٩٤٥. أشارت هوفمان إلى هذا الاختلاف، مسلطةً الضوء على التناقض بين المفهوم الشامل للنظام الشمولي الذي ساد في الغرب وتجارب الأفراد والعائلات في بولندا اليوم، التي تتميز بتنوعها المتزايد. لفتت هوفمان الانتباه إلى كيفية رؤية بولندا وغيرها من المناطق التي كانت تخضع للسيطرة السوفياتية من بعيد من خلال عدسات مبسطة ومجردة:

> خلال عقود الحرب الباردة، ظلت منطقة شرق أوروبا في الغالب منعزلةً عن العالم الغربي. علاوةً على ذلك، في الرؤية الأميركية، غالباً ما كانت بولندا، بجانب دول شرق أوروبا الأخرى، تُعتبر إمبراطوريةً شموليةً شريرة، تمثل عدواً جديداً وقوياً، وفي رأيي، تأثرت هذه المعتقدات الأميركية بالأفكار السابقة عن شرق أوروبا كمنطقة بدائية أو غير متحضرة. ثُبّتت هذه الأفكار وجُمّدت في ما بعد كأسطورة لا تبدو بحاجة إلى مراجعة أو تقييم.[1]

علينا ألا نركز فقط على دراسة الوضع السياسي في بولندا، بل أيضاً أن نتأمل في مصطلح "التوتاليتارية" الذي استُخدم للتعبير عن وضع هذا البلد. على الرغم من أن ميلوش نفسه استخدم هذا المصطلح، فقد أوضح كيف يمكن أن تَغفل مفاهيم واسعة مثل التوتاليتارية هذه الأمور اليومية والتسويات المحتملة التي يتعين على الأفراد

1 Eva Hoffman, 'Complex Histories, Contested Memories: Some Reflections on Remembering Difficult Pasts', UC Berkeley Occasional Papers, 1 September 2000, escholarship.org/content/qt25p7c0v4/qt25p7c0v4.pdf.

اتخاذها في حياتهم اليومية في مثل هذا النظام. التحليل العام الأكثر تأثيراً للتوتاليتارية جاء من آخر مهاجر استقر في الولايات المتحدة، حنة أرندت Hannah Arendt. نُشر عملها الكلاسيكي **أسس التوتاليتارية** في عام ١٩٥١، قبل بضع سنوات من *The Captive Mind*.

كانت أرندت تبحث عن الأوجه المشتركة بين الأنظمة السياسية بدلاً من التركيز على الظروف المحلية الفريدة في كل نظام على حدة. بحثت في نوع شائع من الحكم الذي يقلل من إنسانية الأفراد وسعت لاستكشاف تأثيره المدمر على عمليات التفكير لديهم. شرحت كيف أن الأفراد في مثل هذه الدولة دائماً مشكوك بأمرهم بسبب قدرتهم على التفكير النقدي، وأن هذا الشك أو الاشتباه لا يمكن تفاديه حتى من خلال سلوكهم المثالي. كان قمع حرية التفكير محورياً في هذا السياق. وفقاً لرأيها، إذا أراد الفرد أن يفكّر، يجب أن يكون لديه "القدرة على تغيير آرائه". تعتمد الدولة التوتاليتارية أو الشمولية على الدعاية والأكاذيب وجو من الاشتباه المتبادل المستمر، أي أن هناك شكّاً وتشكيكاً متبادلاً بين الأفراد أو المجتمعات، فالأشخاص أو المجتمعات دائماً لا يثق بعضهم ببعض. هذا الشعور الواسع بالاشتباه يؤثر في التفاعلات العامة بين الأفراد ويعقد العلاقات الشخصية بينهم، ويمتد تأثير هذا التوتر حتى خارج نطاق المراقبة من قِبل الشرطة السرية. في الواقع، لم يكن هناك جانب واحد من الحياة بمنأى عن هذا التحكم والتأثير، إذ كان هناك نوع من التحكم موجود باستمرار في المجتمع، حتى في عقول الأفراد بعيداً من التفاعلات الاجتماعية. الرقابة والخوف لم يعودا إذاً يأتيان فقط من الشرطة نفسها، بل أصبحا يُحسَّسان بصورة تلقائية حتى إذا لم يكن هناك مراقبة فعلية؛ ولم يقتصرا على الهيئات الرسمية لإنفاذ القانون.

برز مصطلح "التوتاليتارية" في أوروبا قبل نحو ثلاثين عاماً، بعد الحرب العالمية الأولى. في البداية، لاقى هذا المفهوم دعماً من بعض المعلقين، خصوصاً من الفلاسفة الموجهين نحو الفاشية؛ اعتبروا فكرة الدولة التوتاليتارية مشروعاً إيجابياً ومرغوباً. أشاد أنصار الفاشية والنازية بجهود موسوليني وهتلر الطموحة في توحيد الدولة والشعب وتنسيقهما، بهدف دمج الاقتصاد والمجتمع والثقافة والقانون تحت مظلة واحدة. وعد هؤلاء الزعماء والجماعات السياسية المؤيدة لهتلر وستالين بإنشاء

نوع جديد من الحكومة. ادعوا أن هذه الدولة الجديدة ستتأسس من خلال التخلص من المشكلات مثل النزاعات وعدم الكفاءة والتخلف والفساد والتنافر التي كانت موجودةً في الدول الحكومية المحافظة والملكية والمجتمعات الليبرالية التي فقدت مصداقيتها. استُخدم مصطلح "التوتاليتارية" في وقت لاحق بمعنى أكثر نقداً وأصبح معروفاً بصورة أفضل عندما استخدمه كتّاب مثل أورويل وأرندت وميلوش وغيرهم بطريقة تشير إلى الجوانب السلبية والقمعية للأنظمة السياسية التي يصفونها بأنها "استبداد شامل"، عِلماً أن استخدامه في السابق كان بمعنى تقليدي إيجابي أو محايد. أصبح المصطلح مثيراً للجدل، خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية، حيث افتُرض أن أهداف الشيوعية (تحت حكم ستالين) والنازية (تحت حكم هتلر) كانت متشابهة إلى حد كبير، إن لم تكن متطابقة. بالنسبة إلى أولئك الذين ناصروا استخدام مصطلح "التوتاليتارية"، كان الهدف هو التشديد على التشابه الأساسي بين الدول التي هي على استعداد وقادرة على استخدام أي وسيلة لقمع كل أشكال المعارضة قمعاً تاماً، والطريقة الخاصة بهذه الدول هي اللجوء إلى الإرهاب. العيش في مثل هذه الدول يعني الاعتراف بأن السلطة الحاكمة ليس لها حدود ويمكنها العمل بحصانة متينة لا يترتب عنها تداعيات تؤثر في مصلحتها. كان الأشخاص على علم بأن الحكومة يمكنها شن هجمات قوية ضد الأفراد أو المجموعات المعارضة في أي وقت، وتكون هذه الهجمات مبررةً بأنها إجراءات وقائية ضرورية ضد "الأعداء الداخليين" و"المخربين" و"الخونة" الذين يشكلون تهديداً مميتاً للشعب.

تحدى كل من أرندت وميلوش الافتراض السائد القائل إن النظام التوتاليتاري يهدف إلى غسل أدمغة كل فرد حتى يصل إلى قناعة كاملة. بدلاً من ذلك، يرى كلّ منهما أن هدف التوتاليتاريين هو تخويف السكان وإشاعة الارتباك فيهم، واستخدام استراتيجيات تهدف إما للسيطرة على الحقائق لدى الأفراد وإما لتغييرها بصورة مفاجئة ومكثفة. إذاً، في سياق النظام التوتاليتاري، قد تجد نفسك تائهاً تماماً بخصوص معنى الحقيقة في الوقت الحالي، أو حتى في ما إذا كان الفارق بين الحقيقة والكذب يهم حقاً. كتبت أرندت: "الشخص المثالي للحكم التوتاليتاري ليس النازي المقتنع أو الشيوعي المقتنع، بل الأشخاص الذين لم يعد لديهم القدرة على التمييز بين الحقيقة

والخيال (أي الواقع التجريبي)، وبين الصحيح والخطأ (أي معايير الفكر) بعد الآن".[١] في مقطع من كتاب *Mein Kampf* [**كفاحي**]، افترض هتلر هذا الاحتمال بدقة، إذ تساءل كيف يمكن بناء عالم مبني على الكذب، حيث يُخدع الشعب بفعالية، دون الحاجة إلى إقناعهم تماماً. بالطبع، ألقى هتلر اللوم على اليهود بسبب نشرهم الكذب (وهذه في حد ذاتها كذبة أساسية من جانبه). رأى أن الأكاذيب إذا كانت كبيرةً بما يكفي، فقد تظل مستمرّة، وربما تمر دون تحدّ. قد تكون الأكاذيب ضخمةً لدرجة، على سبيل المثال في الدعاية الرسمية، لا يمكن لأحد حقاً أن يصدق أن مؤلفي الأكاذيب لديهم "الوقاحة"، كما وصفها، لتحريف الحقيقة تحريفاً جذرياً.[٢]

التوتاليتارية، كما وصفها كتّاب ما بعد الحرب مثل أرندت وميلوش، تنشأ على أساس الأكاذيب والارتباك ونشر الفوضى الواسعة عمداً. أقامت الدول التوتاليتارية أنظمةً واسعةً للسيطرة على أجساد وعقول مواطنيها، باستخدام عضوية الحزب الشاملة أو الجماعية الواسعة، ووسائل الاتصال الجماعي، والتعليم والثقافة واستمرار قمع الشرطة. في نهاية المطاف، تعتمد هذه الأنظمة على آلية أمنية ضخمة ومرعبة، حتى لو حافظت على واجهة الاستفتاءات أو البرلمانات. الأخير، إذا ما زال موجوداً، يعمل فقط كختم مطاطي للقرارات. تستخدم هذه الدول تقنيات تكنولوجية جديدة لقمع الاعتراض وتعزيز دعايتها الخاصة، والتي تتضمن أكاذيب متنوعة، سواء كانت كبيرة أو صغيرة. تُخضع سكانها يومياً لجرعات يومية من "الأخبار" أو تنشر لهم المعلومات الكاذبة المركزية، بالإضافة إلى تدفق مستمر من الرموز والشعارات والحث والانتقادات من خلال وسائط مثل الراديو والسينما والصحف والمجلات والأغاني والمنشورات والعروض والمسيرات والاحتفالات والتجمعات والدراما الشعبية وما إلى ذلك. قد يكون بعض الأشخاص قد صدقوا حقاً رسائل السياسة، ويكون بعضهم الآخر غير مصدقين، إلا أنهم يخفون ذلك ويمتثلون لمتطلبات النظام حفاظاً على حياتهم. علاوةً على ذلك، شرح هؤلاء الكتّاب أن النظام السياسي التوتاليتاري يمحو تماماً حماية الأقليات "المشتبه بها"، ويقمع حرية الصحافة، ويفكك جميع الضمانات

1 Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (New York, 1951), p. 474.

2 Eli Zaretsky, 'The Big Lie', *London Review of Books*, blog, 15 February 2021, www.lrb.co.uk/blog/2021/february/the-big-lie.

الليبرالية والديموقراطية الأخرى (مثل الأحزاب السياسية المتعددة، والانتخابات المفتوحة، وفصل السلطات الحكومية ووجود سلطة قضائية مستقلة).

بالتأكيد، كما أشار هؤلاء المحللون، قد تزعم السلطات التوتاليتارية نوايا تتعارض مع أفعالها الفعلية. قد تدعي أنها تعتني برفاهية بمواطنيها، وتشجع على الحوار المفتوح، وتدعم الديموقراطية، وتحمي حقوق الأقليات، لكن تبيّن أن الدول التوتاليتارية التي وصفتها أرندت وغيرها من منظّري الشمولية تشترك في سمات عديدة، مما يفرقها كثيراً عن الديموقراطيات الليبرالية. استناداً إلى هذه الرؤية، يمكن للشخص أن يفكّر في دراسة آليات الحكم في ألمانيا هتلر وروسيا ستالين وكمبوديا بول بوت Pol Pot ومقارنتها، مع الاعتراف بالخصائص الفريدة لكل منها.

من غير المعقول ربط أو معاملة الوضع في تلك البلدان على أنه مماثل لما يواجهه معظم الناس في الاتحاد الأوروبي في الوقت الحالي. يجب أن نكون على علم بأن بعض الاتجاهات أو السياسات الصارمة التي كانت موجودةً في الماضي في الدول الشمولية قد تعود مثل أشباح من الماضي وتهدد حرياتنا اليوم من جديد.

كانت فكرة "التوتاليتارية" مهمةً في الأحاديث حول الحرب الباردة. يمكن أن تشير إلى مجتمع كبير أو حتى مكان صغير مثل جزيرة. الفكرة الرئيسية هي وجود سلطة مطلقة، وتشويش الحدود بين الحقيقة والكذب، ومحاولة السيطرة الكاملة على كل شيء والجميع. في بعض الحالات، كما شرح السوسيولوجي الكندي إرفنغ غوفمان Erving Goffman، هناك أماكن في المجتمع الليبرالي حيث وُضع بعض الأفراد في "مؤسسات شاملة" بسلطة كاملة عليهم رغم أن معظم الأشخاص من حولهم يتمتعون بحريات أكبر.

بدأ غوفمان وعلماء آخرون في التفكير في هذه المؤسسات على أنها منظمات شمولية صغيرة الحجم بالنسبة إلى الأفراد الذين يعيشون فيها. أشاروا إلى أن بعض السجون أو أقسى أنواع أقسام المستشفيات يمكن أن تحجز سكانها بفعالية. يمكن أن يتعرض بعض الفئات داخل نظامنا المعروف بأنه "ليبرالي" لتجريدهم من إنسانيتهم، وجعلهم عاجزين تماماً، وتقييدهم في مواقف مستحيلة، والتعامل معهم على أنهم عبثيون، أو أقل من الآخرين، أو حتى رماد المجتمع، من قِبل المسؤولين الحكوميين

وأقسام من وسائل الإعلام. ومع ذلك، بالنسبة إلى الآخرين، وربما حتى الأكثرية، في مثل هذا المجتمع، قد تختلف ظروفهم اختلافاً كبيراً، وقد لا يصف مصطلح "السيطرة الكاملة" واقعهم بدقة على الإطلاق. الجدير بالذكر أن بعض الحكومات في الاتحاد الأوروبي اليوم، بما في ذلك بولندا وهنغاريا، قد نقضت التحصينات الليبرالية والديموقراطية الهشة الخاصة بها، واتجهت نحو نهج استبدادي واضح، مستعدةً للإعلان عن ظروف "الطوارئ" ثم استغلالها لقمع أي احتجاج موجه ضدها. على الرغم من التطورات القلقة في هذه المناطق وبعض أجزاء أخرى من أوروبا، لا يمكننا مقارنتها بالرعب الكامل لألمانيا النازية والإمبراطورية السوفياتية، التي كان ميلوش وأرندت يتحدثان عنها في بداية الخمسينيات من القرن الماضي.

في كتاب **أسس التوتاليتارية**، أكدت أرندت بقوة أهميةَ البقاء يقظين ومتيقظين لأي علامات تشير إلى انحدار نحو سلوكيات شمولية أو إلى ظهور سمات شمولية أو عودتها، حتى في الديموقراطيات التي تحوي حريات متعددة نتمتّع بها. شرحت أرندت أيضاً كيف أن الاستعمار في القرن التاسع عشر، حيث لعبت بريطانيا وفرنسا دوراً مركزياً فيه، قدم الأسس والتمهيدات لما سيتحول في ما بعد إلى سياسات شمولية حديثة، وتميز هذا النوع من الحكم بالاعتقاد بتفوق عرقي، واستخدام السلطة، واستخدام تجهيزات عسكرية حديثة، والاستفادة من التكنولوجيا المتقدمة بسرعة، والاعتقاد بأن لدى الحكومة الحق في استخدام العنف في أي مكان تريد، حتى في الأماكن البعيدة، للسيطرة على مناطق شاسعة وشعوب متنوعة، والمطالبة بالسيادة الكاملة. كما كانت أرندت مهتمةً أيضاً بأصول مفهوم "السياسة العالمية" نفسه وقد حاولت تتبع تطور هذا المفهوم من مرحلة الاستعمار إلى الشمولية.

أدركت أرندت أن المواطنين في ألمانيا النازية والاتحاد السوفياتي اضطروا للعيش مع فكرة وجود دولة تسيطر على كل شيء في عقولهم، وكان عليهم التعامل بطرق مختلفة مع الأكاذيب، حتى إذا لم يصدقوها بالكامل. استخدمت هذه الدول أشكالاً متعددة من القوانين غطاءً لها، ولكن في جوهرها، ادعت الحق في اعتقال الأفراد بناءً على الشكوك، مع التلاعب في ما يُعرض باسم الحقيقة. على الأقل من الناحية المبدئية، ادعت الدولة هذه الحقيقة المطلقة في التدخل في كل جانب من جوانب

المجتمع المدني، دون وجود حدود واضحة بين الدولة والمجتمع وفقاً لهذا المعتقد. في الواقع، كانت هذه الدول مثل روسيا السوفياتية وألمانيا النازية والمناطق التي احتلوها معقدة جداً لهذا المستوى من السيطرة، حتى أثناء أسوأ الأوقات في عهد هتلر أو ستالين. لكن بمطلق الأحوال، كانت الاعتقادات الجوهرية لدى هاتين الدولتين أن الدولة تعمل بلا قيود مشروعة، إذ ادعت كل منهما أن لديها السلطة لتقرر من لا يستحق الحياة، وكيف يتفاعل المواطنون مع بعضهم، وأي شكل من أشكال الفن والأدب (إما تُقرأ الكتب وإما تُحرَق) والأفلام والتعليم والرقص والموسيقى والرياضة مسموح بها ومعتمدة.

التعبير بصراحة عن الاعتراض في الدولة الشمولية يعرض حياتك للخطر، إذ يمكن أن تُصنَّف على الفور إما عدوّاً داخليّاً فاسداً وطفيليّاً، وإما حليفاً لقوة أجنبية خطرة، مما يعرضك للنفي.[1] بالنسبة إلى اليهود وشعب روما في ألمانيا النازية والمناطق التي احتلها هتلر، لم يكن لديهم الخيار للتكيف مع هذا النظام النازي والعيش وفقاً لقوانينه. أما غير اليهود، فكان من الممكن بصورة عامة أن يتكيفوا تكيفاً أكبر مع النظام النازي ويطيعوا توجيهاته. من الناحية النظرية، كان من المفترض أن يدعم الجميع في ألمانيا، باستثناء اليهود والآخرين الذين اعتُبروا "غير مرغوب فيهم"، القضية المشتركة ورؤية الشعب التي كان يروج لها الحزب النازي. هذه الرؤية صورت وحدة وطنية يقودها قائد واحد. في الثلاثينيات من القرن العشرين، كان الهدف الرئيسي هو "العمل من أجل القائد"، أي أنه يجب على جميع الألمان المخلصين أن يتفانوا لمصلحة قائدهم هتلر.[2] حتى إذا كنتَ على غير معرفة بأفكار القائد أو رغباته، كنتَ ملزماً بـ"العمل من أجله"، أي أنه يتوجب عليك السعي لتحقيق أمانيه المفترضة وتجميع أهدافه وتحقيقها تحقيقاً كاملاً.

1 Norman Davies, *God's Playground: A History of Poland, Vol II: 1795 to the Present* (Oxford, 1981), pp. 578–9.
بالنسبة إلى حجم الترحيلات في مناطق شرق بولندا تحت السيطرة السوفياتية خلال الحرب، يمكن الرجوع إلى المرجع السابق، ص. ٤٤٧–٤٤٨.
يمكن الرجوع أيضاً إلى كتاب:

Davies, *Heart of Europe: A Short History of Poland* (Oxford, 1986), pp. 3–9.

2 Ian Kershaw, *Hitler* (London, 2010); *Working Towards the Führer: Essays in Honour of Sir Ian Kershaw*, edited by Anthony McElligott and Tim Kirk (Manchester, 2003).

في الخمسينيات من القرن العشرين، كان العلماء الذين درسوا الشمولية متوجهين أساساً نحو استكشاف أيديولوجيا أخرى: الستالينية. كانت هذه الأيديولوجيا مستمدة من أفكار لينين، الذي برر ضرورة وجود قيادة حزبية مركزية لتوجيه الجماهير، المحتمل أن تكون ضالة، نحو الاتجاه الماركسي "الصحيح". واجه هذا النهج معارضةً من بعض ثوار آخرين، بصورة ملحوظة روزا لوكسمبورغ Rosa Luxemburg، وهي بولندية الأصل لكنها مقيمة في ألمانيا. بالنسبة إليها، الثورات هي عمليات طبيعية ومفتوحة، ليست بحاجة إلى توجيه مسبق أو تحكم صارم من القادة. توضح أنه يجب على القادة أن يكونوا مستعدين لفهم الدروس وتلقيها من تجربة الشعب أثناء تطور الثورة بطرق مفتوحة ومرنة، بدلاً من توجيه السكان ببساطة وفرض مسار محدد للتاريخ بصورة مسبقة.

تطورت أيديولوجيا سياسية من لينين إلى ستالين، إذ كان التركيز على تنفيذ خطة واحدة، مع قمع عنيف لأي اعتراض غير مرحب به. أصبح ستالين نفسه أكثر تطرفاً في هذه المهمة مع مرور الوقت، وحصل على مزيد من التبجيل من الحزب كقائد عظيم، وكقوة توجه زملاءه بفضل عقله الفائق الذي حكم في النهاية على الآخرين. أصبح هو السلطة النهائية في السياسة رغم أن الأيديولوجيا تروج للمساواة للجميع. في الواقع، ظهرت تناقضات عديدة، وأسفرت الستالينية عن عالم من الأشخاص المفضَّلين الذين كانوا يتنافسون باستمرار في الحصول على المكانة والنفوذ داخل النظام الستاليني، ويُعرفون باسم "nomenklatura" [نومنكلاتورا]. فإلى جانب الجهود المستمرة لتطهير النظام الستاليني من المعارضين أو المشتبه بهم الذين يشكلون تهديداً للحكم الستاليني أو يظهرون أي توجه معارض، كان هناك تنافس متواصل بين الأفراد للوصول إلى مناصب أعلى وترقيات في السلطة والهيكل الحكومي، وكانت طرق الترقية هذه تعتمد على الولاء والتأثير والارتباط بالنظام إلى حد كبير، وكانت محل تنافس شديد بين الأفراد للصعود في الهرم السلطوي. كان مطلب ستالين وحلفائه الأوفياء هو الولاء الكامل، وكان ثمن الاعتراض، أو في بعض الأحيان مجرد الشك في وجود اعتراض محتمل، هو السجن أو حتى الموت.

خلال الحرب في بولندا التي كانت تحت الاحتلال النازي، كان ميلوش يقدم بين

الحين والآخر دعماً لأعمال المقاومة. كان هناك أفراد وجماعات قد قرروا بملء إرادتهم الشخصية التضحية بحياتهم في سبيل مواجهة القوات المحتلة، بغض النظر عن قلة فرص النصر. قام بعض البولنديين بإخفاء اليهود لحمايتهم، ونقلوا رسائل سرية، وقدموا المساعدة للهاربين، بينما انضم آخرون إلى حركات المقاومة السرية أو تباينوا بين التعاون مع النازيين والمقاومة ضدهم بين الحين والآخر.[1] كان العديد من البولنديين يسعون ببساطة إلى البقاء على قيد الحياة وتجنب لفت الانتباه، كما لوحظ ذلك من خلال مراقبة ميلوش. كانوا يكافحون في ظروف قاسية من أجل البقاء وحماية عائلاتهم. في كتاباته، سواء في النثر أو الشعر، استعرض ميلوش ما أظهرته نسبة كبيرة من الشعب البولندي من لامبالاة وقسوة وإنكار وتواطؤ في خضم الرعب الذي عاشه هذا الشعب.

أصر على أن الأرض ككل ترتبط بسبب ذلك بتاريخ الاحتلال والبؤس والنضال من أجل البقاء، وسط الكثير من القسوة غير المفهومة والإنكار للواقع الصعب والقاسي الذي مرت به الأرض وسكانها. ذكرياته الأولى للحياة في ليتوانيا، حيث وُلد، ولاحقاً في وارسو وريف بولندا، حيث نجا، تظل سائدةً في قصائده. قدم الكثير من التأملات حول ما يعنيه له وللآخرين أن يعيشوا تلك الحقبة التاريخية، وأن يتحملوا بعدها، عندما لم ينجُ كثيرون وتُركوا إلى مصيرهم. في أحد أبياته الرثائية التي ظهرت في الستينيات، سأل كيف يمكن للشخص أن يعيش في تلك المرحلة، وأجاب على الفور بأنه لا يستطيع تقديم إجابة، ومع ذلك، سعى لاستخدام كلمات مختصرة لاستحضار الدمار، فألمح إلى كل ما فُقد، وأشار إلى أشخاص مثله، الذين على الرغم من أنهم لم يتحولوا إلى رماد، فقد حملوا وزر الندم.

تعلّمنا الكثير، وأنت على دراية به:
كيف تُسلب ببطء الأشياء التي لا يمكن سلبها فعلاً
كالناس والمناظر الطبيعية.

---

1 Edna Friedberg, ‘The Truth about Poland’s Role in the Holocaust’, *Atlantic*, 6 February 2018, www.theatlantic.com/international/archive/2018/02/poland-holocaust-death-camps/552455/.

تعلمنا كيف أن القلوب لا تتوقف عن النبض عندما نظن أنها ستفعل ذلك.
تعلمنا أن نبتسم لأن هناك شاياً وخبزاً على الطاولة،
وأن نشعر بالندم لأننا لم نحبّ
رماد الفقراء في زاكسنهاوزن
حباً مطلقاً خارجاً عن إمكانية البشر.[١]

استعادت بولندا وحدتها بعد تحريرها من النازيين في عام ١٩٤٥ رغم فقدانها جزءاً كبيراً من أراضيها، وفي ذلك الوقت، سيطر الاتحاد السوفياتي وجيشه الأحمر على البلاد. تناقصت تدريجاً المساحات المخصصة للمجتمع المدني، والفرص للتعبير الفني والسياسي المستقل والنقدي تجاه القيادة السوفياتية الشيوعية اعتباراً من منتصف الأربعينيات وما بعده. كان يُتوقع من الفنانين أن ينتقدوا العالم الغربي ويدعموا النمط الفني المفضل للحزب والمعروف باسم الواقعية الاشتراكية الذي يمجد النظام الشيوعي والاشتراكي. كانت المؤسسات الجزائية ذات الطابع السوفياتي التي تستضيف المعارضين للنظام السوفياتي، لا تزال تعمل، مما يثير شعوراً كبيراً من الخوف بين الذين يتحدونها.[٢] قال ميلوش إنه كان من المتوقع أن يتّحد "المجتمع" الفني بأكمله قدر المستطاع من أجل هذا الهدف الجديد للشيوعية؛ وأن يعمل العمال والجنود والفنانون جميعاً من أجل هذا الهدف الواحد الكامن في نصرة الشيوعية، وأن يقولوا أشياء إيجابيةً عن عبقرية لينين وستالين والحزب الشيوعي.

تأسس حلف وارسو رسمياً في ١٩٥٥ لتنظيم التحالف بين الاتحاد السوفياتي وألمانيا الشرقية وبولندا والدول الأخرى التي كانت تخضع لنفوذ الاتحاد السوفياتي.

---

1 Miłosz, 'Elegy for N. N.', *Czeslaw Milosz: The Collected Poems (1931–1987)* (London, 1988), p. 240. Cf. Sven Birkets, 'Last Things First: Czeslaw Milosz's Witness of Poetry', *Agni Review*, 19 (1983), 113–29, p. 115.

٢ امتدت المؤسسات العقابية السوفياتية من مواقع معسكرات اعتقال النازية السابقة في شرق ألمانيا إلى المناطق الواسعة السابقة التي كانت تُستخدم لطرد الأشخاص "غير المرغوب فيهم" سياسياً في سيبيريا منذ عهد القياصرة الروس. وفي عام ١٩٥٤، كان هناك نحو ٨٥,٠٠٠ سجين سياسي محتجز في بولندا في معسكرات صُمّمت استناداً إلى نماذجها السوفياتية، وقُتل الآلاف من البولنديين أو رُحّلوا إلى الشرق بعيداً جداً. راجع:

Anne Applebaum, *Gulag: A History of the Soviet Camps* (London, 2003), p. 41; cf. Daniel Beer, *The House of the Dead: Siberian Exile Under the Tsars* (London, 2016).

وفي هذا الاتحاد الدولي الجديد، أصبحت القوات المسلحة البولندية ثاني أكبر قوة عسكرية. قضت هذه الاتفاقية بأنه يتوجب على كل دولة عضوة أن تدافع عن أي دولة أخرى في الحلف إذا تعرضت لهجوم من قوة خارجية، مما يتشابه مع مبادئ حلف شمال الأطلسي. وعلى الرغم من القيود الكبيرة والاعتداءات التي تعرضت لها بين الحين والآخر من الحكومة البولندية، استمرت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بالتمسك بوجودها القوي في بولندا. في هذا الوقت، بدأت تظهر تماثيل للزعيم السوفياتي ستالين في القرى والبلدات في جميع أنحاء البلاد. وبسرعة، بعد الحرب، أُنشئت شبكة من المخبرين وقوات الشرطة السرية، واستُخدمت السلطة الحكومية لمراقبة الأفراد من كثب وإجبار الأشخاص الذين عبّروا عن شكوك أو تردد على الطاعة، وأصبح ذلك جزءاً مقبولاً من الحياة. كانت هذه المراقبة الدقيقة تظلل حركات الأفراد الذين اعتُبروا "حرّين"، أي أنهم لم يكونوا في معسكرات العمل، أثناء قيامهم بأعمالهم اليومية. وللبقاء على قيد الحياة، بمن في ذلك أصدقاء ميلوش وزملاؤه، كان على الأفراد أن يظهروا حذراً وأن يبدوا دعمهم للحزب، إذ يمكن للجدران أن يكون لها آذان، وكان التمرد أمراً خطراً جداً.[1]

وصف ميلوش وارسو بأنها "أكثر الأماكن إيلاماً في كل أوروبا المرعبة". كتب عن عالم تخشى فيه الناس من التوقيف، في أرض يكون فيها الموت والصعوبة والمعاناة مرئيين في كل مكان. أصبح الناس حذرين جداً من التعبير عن آرائهم أو حتى الظهور على العلن في الأماكن العامة. خلال الحرب، تعلم كثير منهم أن يبقوا صامتين ويمروا مجرد مرور الكرام، حتى إذا رأوا جثةً على الشارع؛ بقي عدمُ إبداء أيّ تعبيرٍ غيرِ ملائم استراتيجيةً للبقاء على قيد الحياة بالنسبة إلى كثيرين بعد انتهاء الحرب.

واجه الشعب البولندي تحديات كبيرةً عندما انتقلوا من مرحلة الخطر الفوري والتهديدات القاتلة للحياة خلال الحرب إلى المجتمع المتطور في السنوات التي تلتها. بعض الأفراد اختاروا دعم الحزب دعماً كاملاً، بينما اختار آخرون الانتماء إلى التيار المعارض، وبعضهم حتى أصبحوا شهداء. في منتصف هذا التنوع في الاختيارات، اضطر العديد من الأشخاص إلى تغيير سلوكهم أو القيام بتسويات صغيرة عند التعامل

1 Orlando Figes, *The Whisperers: Private Life in Stalin's Russia* (London, 2008).

مع السلطات الشيوعية. في هذا السياق، كانت الوضعية السياسية في بولندا بعد الحرب تميل إلى التقلب وعدم الاستقرار لمدة من الزمن، وكان هناك تعاون أو تحالف بين مختلف الأطراف السياسية أو الهيئات الحكومية، مما خلق فرصةً لإحداث تغيير في السياسة بصورة أكثر من المعتاد. بعض الأفراد حاولوا الاستمرار في حياتهم اليومية وأنشطتهم الترفيهية، فكان لديهم ما يكفي من الطعام لعائلاتهم وحاولوا البقاء بعيدين عن الأضواء وعدم جذب الانتباه. ومع مرور الوقت، أصبح من الواضح تدريجاً أن الحزب كان يشدد سيطرته على الوضع بصورة متزايدة.

صوّر ميلوش مجتمعاً كانت لدى الأفراد فيه تجارب وأساليب فردية في التعامل مع وضع معقد. كما هناك جانب مشترك واحد بين جميع الأفراد: عدم اليقين بشأن مدى الرقابة. كان السكان عامةً، ولا سيما النخبة المثقفة، إما مؤيدين بصراحة للحزب أو مضطرين لإخفاء مشاعرهم الحقيقية. كان على هؤلاء الأفراد أن يظلوا يقظين باستمرار، ليس فقط تجاه أفعالهم وكلماتهم الخاصة، بل أيضاً تجاه مراقبة الآخرين، وكانوا في حالة دائمة من الرصد الذاتي. أما بالنسبة إلى الشخصيات العامة مثل ميلوش، فالصمت لم يكن أمراً ممكناً في النهاية؛ كان عليهم أن يؤيدوا بنشاط مواقف الحزب، بغض النظر عن معتقدهم الشخصي.

يشجعنا ميلوش على التفكير في أعباء تاريخنا الوطني والشخصي الخاص، كما يحثنا أيضاً على أن نفكر في الطرق المختلفة التي يمكن أن نقنع أنفسنا بها وهي أن نلتزم بالولاء لأشكال مختلفة من القوة، حتى لو كان ذلك يجعلنا نشعر بعدم الارتياح. قد يتكيف الناس مع واقع جديد ويدعمون أو على الأقل يقبلون التحالف مع أجندة سياسية لحزب سياسي لأسباب كثيرة تتجاوز مسألة التأثير العقلي أو غسيل الدماغ. يمكن أن تشمل هذه الأسباب غرائز طبيعية للبقاء على قيد الحياة، أو رغبةً أقل وضوحاً في السلام والسعادة، أو رغبةً غامضةً في أن نكون جزءاً من "مجتمع أوسع". ليس الجميع مكسوراً ومضطراً للامتثال؛ يشير ميلوش إلى أنه قد يتم الإغراء بنا للبحث عن مصدر للسعادة وتبرير تغيير معتقداتنا وتعاوننا السري وخياناتنا. علاوةً على ذلك، يتناول ميلوش كيف يحاول الأفراد فصل أنفسهم العامة والخاصة تماماً لتصبح كأنها أجزاء مستقلة عنهم عندما تتطلب الظروف ذلك.

قدم ميلوش ملاحظةً أخرى مثيرةً للاهتمام: من منظور النظام السياسي، قد لا يكون الأمر المتعلق بمصداقية الأفراد تجاه أنفسهم مهماً حقاً. يمكن للسلطات الاستبدادية العمل بفعالية حتى إذا تصرف بعض مواطنيها بصورة ساخرة أو منافقة أو مترددة تجاهها. التحدث بما لا يعتقده الشخص حقاً والاستماع إلى الآخرين وهم يفعلون الشيء نفسه يمكن أن يصبحا حتى نمطاً مشتركاً للحياة. اعترف ميلوش بكيفية قدرة الدولة الاستبدادية أو المؤسسة الشاملة على ممارسة أشكال متطرفة من التحكم في السلوك لدى سكانها. يمكن للحكومات أن تحاول السيطرة على جميع أشكال التعبير الشخصي والتدخل بأكبر قدر ممكن في أفكار المعارضين. يمكنهم استخدام مجموعة متنوعة من التقنيات، إن لم يكن لجعل جميع الآراء متجانسة، فعلى الأقل لإسكات أصوات المعارضين. ومع ذلك، قد يختلف الأفراد في حياتهم الخاصة عما يظهرون به علناً، ويستمرون في سرد قصص متنوعة في أذهانهم عما يحدث لهم أو في داخلهم. يمكن أن يشمل ذلك معتقداتهم الشخصية وشكوكهم أو تناقضاتهم الداخلية، وكأنهم يحاولون تبرير عدم مصداقيتهم تجاه أنفسهم أو تبرير تصرفاتهم العامة وفقاً لما يُطلب منهم.

***

أثناء قراءتي *The Captive Mind*، تذكرت اقتراحاً مشهوراً قدمه عالم الرياضيات وكاتب الفلسفة في القرن السابع عشر بليز باسكال Blaise Pascal. كان هذا الاقتراح يتعلق بأسباب مختلفة للصلاة. أظهر باسكال الحاجة إلى التفريق بين أولئك الذين يصلّون لأنهم يؤمنون بها بكل إخلاص، وأولئك الذين قد يصلّون كإجراء احتياطي، إذ يرون أنه من الحكمة أن يصلّوا على الرغم من شكوكهم. قدم باسكال حجةً لصالح الصلاة كمقامرة منطقية في حالة وجود الله، بحيث يقول إنه لا يمكن لأحد أن يكون متأكداً تماماً من وجوده، لذا فإن الاعتماد على الصلاة يمثل استراتيجيةً مناسبةً ومنطقيةً في ظل عدم اليقين. إذا لم يكن الله موجوداً، فالثمن الوحيد هو الوقت الذي يُنفَق في الصلاة؛ أما إذا اخترت عدم الصلاة، ورفضتها قطعاً، وكان الله موجوداً، فالعواقب ستكون وخيمة.

ما يشدد ميلوش عليه هو أنه إذا رأى أحدُ المواطنين مواطناً آخر يقوم بأفعال مثل تقديم الإجلال لستالين وأتباعه، أو تمجيد فوائد الواقعية الاشتراكية في بولندا (التفاني العلماني)، قد يتساءل المواطن بصمت عما إذا كان المواطن الآخر مؤمناً حقاً أم يقوم بهذه الأفعال بسبب أنها الخيار الأكثر أماناً. لنذكر هنا فيلسوفاً آخر، جيرمي بنثام Jeremy Bentham، الذي كتب في القرن التاسع عشر وسعى إلى تصميم نموذج سجن مثالي مناسب للمنطق والكفاءة وسماه بانوبتيكون (panopticon). يتميز هذا النموذج بأنه يضم برجاً لمراقبة باقي الزنزانات والأماكن التي يُحتجز فيها الأفراد. أحد جوانب هذا السجن الرئيسية، كما أظهره ميشال فوكو بشهرة في كتابه عام ١٩٧٥ *Discipline and Punish* [**المراقبة والمعاقبة**]، ألا يكون لدى السجين أبداً يقين بأنه يُراقَب من برج التحكم المركزي. في دولة تشبه تلك التي هرب منها ميلوش، كان المواطنون على علم بأن أعين السلطة الحاكمة وآذانها كانت دائماً موجودةً أو يمكن أن تكون موجودة، حتى من دون وجود برج مادي. للبقاء على قيد الحياة، كان عليك أن تفترض أن الحكومة (أو بعض المبلغين الذين قاموا بالإبلاغ عن آرائهم لوكالة حكومية) ربّما يراقبونك. كانت العقدة مدمجةً داخلياً، لذا عليك أن تكون حذراً في كلامك، ولا تعبّر عن أفكارك الحقيقية، وتصبح حاكماً على ذاتك، وتفكر بعمق في المعاني المخفية عندما يتحدث الآخرون. قد تكون مؤمناً حقيقياً، أو قد تتظاهر بذلك فقط، ولكن في أي حال، عليك أن تقدم أداءً مقنعاً فحواه أنك تطيع وتؤمن. ربما تمكنت من الحفاظ على الانفصال بين معتقداتك الحقيقية وتلك التي أعلنتها بوضوح إلى الخارج لمدة طويلة، أو ربما مع مرور الوقت، جَعَلَت الممارسة هذا الانفصال مثالياً، وأصبح القناع هويتك الحقيقية.

عندما كان ميلوش شاباً، قبل الحرب، كان لديه تعاطف مع الأفكار الاشتراكية ويكره بشدة الاتجاه الاستبدادي لحكومة بولندا في الثلاثينيات من القرن العشرين. بعد الحرب، وقبل أن تستولي الستالينية بالكامل على شرق أوروبا، حاول الحفاظ على درجة من الاستقلال. على الرغم من أنه لم يكن رسمياً ناطقاً أو عضواً في الحزب الشيوعي، أدت سمعته إلى تعيينه ملحقاً ثقافياً، وكانت لديه الفرصة للترويج للثقافة البولندية في الخارج. مع تلاشي أمله في أن يقوم الحزب بإصلاحات وتقديم مزيد

من التنوير والحرية للشعب، واجه قراراً سياسياً مؤلماً. هل عليه، بصفته فناناً وممثلاً، تبني الواقعية الاشتراكية، النمط الفني الذي كان يكرهه شخصياً؟ إن فكرة القيام بذلك جعلته يشعر بالاشمئزاز. كان يخشى أن يتعرض للاستهداف شخصياً، إذ إن الاستياء الذي كان يشعر به والتحفظات الدقيقة التي كان يعبّر عنها لم تمر دون ملاحظتها في وارسو. شعر كأن الوقت ينفد منه، بحيث لم يُعتبر مشبوهاً بالكامل بعد، ولكن لم تكن حكومته بالكامل تثق به. نُقل إلى مكان قريب من بلده، إلى باريس بعد أن كان في واشنطن. كان يخشى أن يُستدعى إلى بلاده في أي وقت. لذلك، في عام ١٩٥١، قرر الانشقاق وبالتالي لم يعد يشغل منصبه.

عندما كتب ميلوش *The Captive Mind*، كان يشعر بالفعل أنه رجل غريب في كلا المجتمعين، ويسعى لاستقاء مساحة جديدة لنفسه. فقد نظر إلى النظامين الشرقي والغربي، على حد سواء، بنقدية وفضولية. كان قد عاش في غرب أوروبا لسنوات عدة، ولكن في عام ١٩٦٠، انتقل مرةً أخرى إلى كاليفورنيا، جذباً لعرض وظيفي في جامعة كاليفورنيا في بركلي. على الرغم من أنه وجد نوعاً جديداً من الأمان والراحة في كاليفورنيا، لم يشعر حقاً بالاستقرار التام فيها. استمر في الكتابة هناك، واستمر غريباً في غالب السبل؛ لم يندمج بالكامل، وبالتأكيد لم يتأقلم مع الحياة الأميركية، تماماً كما لم يشعر من قبل بالراحة في الساحة الأدبية الفرنسية. بقي كاتباً بولندياً في المنفى وكان على دراية بالنسبة الكبيرة الضائعة من مغزى كتاباته عندما كانت أعماله تُترجَم.

أثناء إقامته في فرنسا في الخمسينيات من القرن العشرين، لاحظ ميلوش بوضوح التناقضات داخل اليسار الغربي الأوروبي، وبصورة خاصة بين المفكرين الفرنسيين. كانوا يناقشون ما إذا كان عليهم أن يدعموا الشيوعية بنقد بنّاء، وإلى أي مدى يجب أن يتسعوا لتنوع التطبيقات الشيوعية التي ظهرت في روسيا ولاحقاً في الصين. اختار بعض الأشخاص الصمت رغم وجود شكوك متزايدة وأدلة كافية تشير إلى قمع واسع للناس وسجنهم وقتلهم، وكان المفكرون المشهورون يقدمون تبريرات لدعم الستالينية أو في بعض الأحيان الماوية وذلك لتجنب الانتقاد العلني للحزب الشيوعي. سواء في قاعة محاضرات جامعية أو صفحات المجلات أو في مقهى أنيق على الضفة اليسرى، أصر الكتّاب المعروفون، الذين كانوا يتمتعون بحرية التنقل، على أهمية أن

يتخذ الأفراد عامةً موقفاً، سواء كان داعماً أو ناقداً للشيوعية، وذلك على الرغم من وجود أدلة ساحقة على جرائم ستالين وماو وأخطائهما الجسيمة التي أدت إلى فقدان حياة ملايين من الناس.

أولئك الذين أعربوا عن آراء أكثر نقداً للحزب الشيوعي، مثل ألبير كامو Albert Camus (كاتب وشخصية أُعجب بها ميلوش)، تم تحديدهم وانتقادهم من قِبل الآخرين كخونة لليسار. في الواقع، حدثت خلافات كبيرة بين كامو وجان-بول سارتر Jean-Paul Sartre بسبب تباين وجهات نظرهما السياسية في عام ١٩٥٢، تماماً عندما كان ميلوش يكتب كتابه.[١]

بالنسبة إلى بعض الداعمين السابقين لنظام الاتحاد السوفياتي في الغرب، بدأت الرؤية المثالية نحو الشيوعية تتلاشى في وقت لاحق. ربما حدث ذلك مع قمع التمرد الهنغاري في عام ١٩٥٦ أو عندما شاهدوا الدبابات تتجه نحو تشيكوسلوفاكيا على التلفزيون في صيف عام ١٩٦٨. بالنسبة إلى آخرين، جاء إحباطهم من الحزب خلال قراءة روايات وذكريات وسجلات تاريخية مترجمة من اللغة الروسية ولغات شرق أوروبا. بعض هذه الروايات كانت مثيرةً للغاية، ومليئةً بشهادات من ناجين من غولاغ الاستبدادي، وقصص أفراد تحمل في طياتها اعتقالات تعسفية واستجوابات ومراحل طويلة من الأعمال الشاقة في السجون، أو سنوات من النفي الداخلي من تحديد تاريخ الإفراج.

Into the Whirlwind [في عين العاصفة] هو عنوان كتاب (نُشر للمرة الأولى خارج الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٦٧، ولم يُنشر كاملاً في روسيا حتى عام ١٩٩٠) لإحدى ضحايا الستالينية يفغينيا غينزبورغ Yevgenia Ginzburg التي اكتُشف أنها مذنبة في جلسة استماع قصيرة في موسكو في عام ١٩٣٧ بتهمة المشاركة في مؤامرة تروتسكي Trotsky المزعومة ضد ستالين، ولم يكن هناك استئناف. انتهت غينزبورغ بقضاء عقوبة بالسجن لمدة ثمانية عشر عاماً. بالنسبة إلى أولئك في الغرب الذين أرادوا معرفة ما حدث للكثير من الضحايا في سيبيريا وفي جميع أنحاء النظام الجزائي في منطقة الاتحاد السوفياتي، بدأت شهادات وتقارير تظهر في عقود ما بعد الحرب.

---

١ للاطلاع على المعلومات الخلفية، انظر إلى:

Tony Judt, *Past Imperfect: French Intellectuals, 1944–1956* (Berkeley, 1992); Sunil Khilnani, *Arguing Revolution: The Intellectual Left in Post-War France* (New Haven, 1993).

الكم الكبير من المعلومات والقصص الشخصية لم يمكن تجاهله من قِبل الأشخاص اليساريين، إلا ربما من قِبل الناكرين العنيدين الذين اعتبروها كذباً ملفّقاً في دعاية اليمين الغربية. واجه هذا الأدب وتقارير الأخبار هؤلاء الداعمين العنيدين وغالباً ما أحرجوهم، إذ بات هناك دلائل كافية على القمع الوحشي، والمعتقدات المتعصبة، والقسوة المأسوية، وجنون ما قام به ستالين والحزب، لجميع الذين أرادوا الاطّلاع على الأمور، حتى قبل أن تبدأ روايات ألكسندر سولجينيتسين Aleksandr Solzhenitsyn في الظهور، مع الكثير من الإعلان، وفي ترجمة إنكليزية في الستينيات. أثار عمل سولجينيتسن غير الخيالي الضخم *The Gulag Archipelago* [**أرخبيل غولاغ**] الذي جُمع بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٨، وأُخفي عن جهاز الاستخبارات السوفياتي (KGB) وهُرّب بنجاح إلى الخارج، ونُشر أخيراً بواسطة دور النشر الإنكليزية والفرنسية في عام ١٩٧٣، عاصفةً جديدةً في الغرب.[١]

لاقى كتاب *The Captive Mind* لميلوش إعجاباً كبيراً في الخمسينيات من القرن الماضي من قراء غربيين مؤثرين عدة، إذ رأوا فيه عملاً مهماً في علم النفس السياسي ورمزاً للحرية خلال الحرب الباردة. حاز ميلوش إعجاب العديد من الشخصيات المؤثرة في مجالات الفنون والفلسفة والعلوم، بمن في ذلك هاينريش بول Heinrich Boll، كارل ياسبرس Karl Jaspers، وألبرت أينشتاين Albert Einstein. غالباً ما قورِن مع مفكرين مشهورين آخرين مثل أرندت، آرثر كوستلر Arthur Koestler، بيرتراند راسل Bertrand Russell، أندريه جيد Andre Gide، جون دوس باسوس John Dos Passos، وألبير كامو. وشُبّه في وقت لاحق أيضاً بألكساندر سولجينيتسين وميلان كونديرا Milan Kundera، اللذين انتقدا الأيديولوجيات الشرقية والغربية على حد سواء، بما في ذلك الشيوعية ورأس المال. معظم الأفراد الذين أُدرجوا في هذه القائمة كانوا رجال آداب وعلماء شجعاناً.[٢] رُفعت مكانة ميلوش إلى نوع من البانثيون واحتُفل به، أحياناً

---

١ كانت أشهر أعمال Aleksandr Solzhenitsyn في الغرب:

One Day in the Life of Ivan Denisovich (1962); *The Gulag Archipelago* (1974).

2 Andrzej Franaszek, *Miłosz: A Biography* (Cambridge, MA, 2017), pp. 305–6.

في هذا السرد عن Milosz، أعتمد بشدة على الدراسة السيرية الممتازة لـFranaszek.

راجع أيضاً:

بطرق لم يعرف بها هو على الإطلاق، باعتباره بطلاً للغرب في مرحلة الحرب الباردة، بقيادة الولايات المتحدة. رفض ميلوش رفضاً شديداً للحكم الشيوعي بحزب واحد فقط والسرد الماركسي المبسّط للتاريخ حيث كل شيء يتعلق بـ"صراع الطبقات". كان ينتقد بشدة فكرة "المادية الجدلية" التي تقترن بمفهوم التاريخ كعملية تطورية مستمرة يتغير فيها المجتمع ويتطور نحو مرحلة نهائية تُعرف بالشيوعية، وانتقد بعدائية قاسية كيفية فرضها كـ"فلسفة واحدة" غير محتملة على الشعب البولندي. ومع ذلك، لاحظ أنماط الانسجام موجودة في الغرب أيضاً، إذ رأى أنّ الأفراد في الغرب كانوا يتبنّون أفكاراً ومواقف تشبه تلك التي كانوا ينتقدونها في الشرق الشيوعي، فأعرب عن رفضه لهذا الانسجام أينما كان، مشيراً إلى عدم ارتياحه لكيفية تقارب المواقف الحكومية في العالمين الشرقي والغربي، على الرغم من اختلافها الواضح في العديد من الجوانب. بالتحديد، كان منزعجاً من وجود تشابهات في السياسات والمواقف بين البلدين رغم وجود تناقضات واختلافات بينهما على كلا الجانبين من الستار الحديدي.[1] في مقدمة لاحقة، أشار إلى أن الكتاب أثار بعض الاضطراب والجدل

Bruce Donahue, 'Viewing the West from the East: Solzhenitsyn, Milosz, and Kundera', *Comparative Literature Studies*, 20:3 (1983), 247–60.

كان Milosz ممتناً ومقدّراً تجاه Camus، صاحب روايات:

The Outsider, *The Plague* and *The Rebel*.

راجع:

Miłosz, *The Captive Mind* (1953), p. vii.

كما لاحظ Milosz في بداية كتابه، أن Camus قد أدرك أن الاتحاد السوفياتي كان يمتلك نظاماً لمعسكرات التركيز؛ ولكن هذا الأمر كان شيئاً يتجنبه العديد من المفكرين الفرنسيين، بمن فيهم Sartre.

١ أشاد Paul Kecskemeti، الذي كان مراقباً حاداً للشيوعية وكتب لصالح شركة RAND ومجلات متنوعة في الولايات المتحدة، بكتاب *The Captive Mind* بشدة ووصف إنجازه بأنه "استثنائي" و"نبيل" و"مخيف" و"رائع". ومع ذلك، استخدم الكتاب سلاحاً للكشف عن شرور الشيوعية. أشار إلى كيفية كشف الكتاب لـ"مشاريع التنظيم" التي أدت في النهاية إلى تكييف أولئك الذين على الجانب الآخر من الستار الحديدي مع باقة من الأكاذيب الحكومية، وحذر من أن "العقل يتحول من الداخل"؛ تحت حكم الحزب الواحد، يعيش الفرد لكنه ميت فعلياً؛ وفي تلك المجتمعات الشمولية، يصبر المواطن، لكن مع وجود "سيد جديد" داخل رأسه. راجع:

Paul Kecskemeti, 'The Captive Mind, by Czeslaw Milosz: Coercion from Within', *Commentary*, 1 September 1953, www.commentarymagazine.com/articles/the-captive-mind-by-czeslaw-milosz/.

في ذلك الوقت، فاعتبره اليساريون المتحمسون خيانة، بينما اعتُبر من المحافظين المعارضين للشيوعية أو الذين يشككون فيها، أنه كان داعماً جداً للشيوعية.

لدعم حجته حول السلوك النفسي المعقد لدى الناس (أداء الأفعال دون الاعتقاد الحقيقي بها)، استند ميلوش إلى حكاية توضيحية أخرى. هذه الحكاية كان قد سردها الكاتب والديلوماسي الفرنسي الكونت جوزيف آرثر دو غوبينو Joseph Arthur de Gobineau في عام ١٨٦٥، وتطرق فيها إلى مفهوم "كتمان" (Ketman) (أو كيتمان كما تُلفظ بالفارسية) الذي يشير إلى إخفاء المعتقدات الداخلية الحقيقية والتظاهر بمعتقدات مختلفة علناً. كان لدى غوبينو آراء مثيرة للجدل حول "العرق" و"التزاوج بين الأعراق"، ولكن القيمة التي وجدها ميلوش في غوبينو لم تكمن في آراء غوبينو العنصرية بل في وصفه لمجتمع (يُفترض أنه كان موجوداً) في العصور الوسطى حيث كان هناك انفصال تام بين التعبير العام والاعتقاد الداخلي. وفقاً لحكاية غوبينو، لم يكن هناك "مسلمون حقيقيون" في ذلك المجتمع الفارسي القديم، على الرغم من أن الجميع بدا متديناً. بدلاً من ذلك، كان الناس هناك ماهرين في إخفاء معتقداتهم الحقيقية، إذ رأوا أن الالتزامات الظاهرية ضرورية للتكيف مع البيئة وتجنب الرفض وخطر العقوبة.

بالنسبة إلى ميلوش، كان هذا المفهوم مثيراً جداً للتفكير في سياق بولندا في تلك المرحلة. اعتبر أنه في زمن حكم ستالين، كان هناك مجال أقل حتى للحرية الشخصية والسياسية والفنية مقارنةً بالعصور الوسطى الفارسية التي وصفها غوبينو.[١] في استكشافه لمفهوم "كتمان" في بولندا، ذهب ميلوش إلى أبعد من مجرد مراقبة اللعب المستمر بالأدوار وتدهور الفن والحوار العام، فرأى أن هناك نوعاً غريباً من الارتياح في هذا العرض المستمر لتكيف الأفراد العامة مع النظام الشيوعي. بعض الأشخاص قد يشعرون برضا خفي تجاه امتثالهم للموقف السياسي المطلوب منهم بمهارة، على غرار المشي على الحبل العالي إذ يُعجَبون بقدرتهم على تجنب السقوط الخطِر من خلال استخدامهم الدهاء في استخدام الكلمات. استغرب ميلوش كيف

---

١ قدم Gobineau ملاحظاته في الدراسة التالية:

Religions and Philosophies of Central Asia (1865).

يمكن لشخص ما أن يجد رضا هادئاً في فصل أفكاره الداخلية عن كلماته والحفاظ عليها بأمان بعيداً من التفتيش.

أضاف ميلوش:

> يخلق عمل الخداع المستمر والمنتشر على نطاق واسع جواً يصعب تحمله، ولكنه يمنح الشخص الذي يقوم به ذلك الرضا الذي لا يمكن تجاهله. عندما ندعي أن شيئاً ما أبيض رغم أننا نؤمن بأنه أسود، أو عندما نخفي ابتسامتنا ونظهر بوجوه جادة، أو نحتجب عن الكراهية ونُظهر الحب، أو نكون واعين في الوقت الذي نتظاهر فيه بالجهل، أو نستخدم الدهاء والتلاعب لكسب موقف معيّن أو لتحقيق أهداف على حساب فهم الشخص الآخر؛ كل هذه الأفعال الخادعة تجعلنا نقدّر ذكاءنا فوق كل شيء آخر، ويصبح تحقيق النجاح في هذه اللعبة مصدر رضا.[١]

أدرك ميلوش كيف كان هو ورفاقه محاصَرين في مجتمع يقلل من قيمة العلاقات الإنسانية الحقيقية، وهذا ما أدى في النهاية إلى فقدان عميق للهوية. كانت هذه نظرة على عالم حيث الأفراد إما يتنفسون جواً ملوثاً أو يتقيؤونه (اقتبسْتُ من قصيدة للكاتب البولندي البارز زبيغنيو هربرت Zbigniew Herbert، الذي كان له صلة وثيقة بميلوش)؛ عالم يتجنب فيه الفرد الديبلوماسية فيعتمد سلوكاً يهدف إلى تجنب الإجابة بصراحة عن أسئلة أو مواقف دقيقة أو إلى استخدام اللغة بصورة ملتوية لتجنب التزامات محددة أو الكشف عن مواقف حقيقية؛ وفي بعض الأحيان، يعتمد الأفراد هذا السلوك بثقة وتفاؤل بأنه سيكون ناجحاً.[٢] لا يقتصر السؤال فقط على ما يمكن أن تجبر الأنظمة

---

1 Miłosz, *The Captive Mind*, pp. 56–7.

٢ أشير هنا إلى تصوير الاشمئزاز العميق في Hamlet في القصيدة الرائعة "Elegy of Fortinbras" [رثاء فورتينبراس] لـZbigniew Herbert، التي نُشرت في ١٩٦١، وهي عمل قدمه لـMilosz. بالنسبة إلى السياق والنقاش حول استخدامات Shakespeare للتعليق على الحياة السياسية المعاصرة في بولندا الشيوعية، انظر إلى:

Celina Wieniewska, *Polish Writing Today* (Harmondsworth, 1967), p. 133.

بالنسبة إلى Shakespeare والشعر البولندي، يُذكر أن Milosz ترجم قصيدة "هاملتية" لـAntoni Słonimski، من عام ١٩٣٣ بالتعاون مع Peter Dale Scott، وأدرجها في [كتاب] *Postwar Polish*

القمعية الشعوب بأكملها على القيام به، بل أيضاً على ما يمكننا نحن الأفراد أن نقاومه أو نتحمله، ما يمكننا أن نجبر أنفسنا على تنفيذه، وبالتالي نجد وسيلةً لتبرير تنفيذه أمام أنفسنا وربما حتى نستمتع به: هذه التجزئة فينا أو التضليل النشط، واللذان يمكن أن يكونا وسيلةً للتكيف، وربما حتى لتحقيق النجاح. يشير ميلوش إلى أن التكيف الاجتماعي لا ينبع فقط من السلطات العليا، بل ينشأ أيضاً من ديناميات نفسية يتم تبادلها بين الأفراد والأطراف المختلفة، وتشمل هذه الديناميات شبكة من التبادلات غير المنطوقة والضمنية التي تحدث بين الأفراد أنفسهم، وبين الأفراد والأطراف والأنظمة أو الدول، ويكون الفرد غير قادر على إدراك هذه الانقسامات ببساطة فتكون محملةً باللاوعي، وقد لا يكون من السهل تصحيحها بناءً على إرادته.

أشار ميلوش إلى أن العديد منّا يتفاوضون ويطيعون ويستسلمون لمختلف الضغوط والدوافع، ويسعون أيضاً جميعاً للتحمل أو التقدم رغم الظروف القاتمة في ساحة شاسعة ومعقدة من التسويات. أحد الإغراءات الواضحة التي تجعلنا نستمر في هذا المسار، كما يضيف، هي رفض الواقع ومحاولة الانفصال عنه تماماً، وإيقاف التفكير، واللجوء إلى المخدرات والأحلام التي نختلجها بهدف الهروب من الواقع، أو حتى الانقياد والامتثال لأوامر السلطة الخارجية التي تصر بقوة على صحة وجدانها دون أدنى شك. قد يُقارَن كتاب *The Captive Mind* أكثر مع *Brave New World* لهكسلي بدلاً من أن يُقارَن مع الدرس الرئيسي في رواية **1984** لأورويل. إنه يسلط الضوء على ميلنا البشري الفطري لتغيير مشاعرنا وآرائنا، وإخفاء نوايانا الحقيقية، والانسحاب إلى حالة وعي مختلفة، والتفكير في أفكار تدميرية للذات، والرغبة في الهروب من العالم كما هو عليه، أو القبول المذهول بالعذاب والسماح للنظام بممارسة حكمه الظالم علينا دون أي عوائق.

لاحظ ميلوش بذكاء أنه قد تكون هناك جاذبية إيجابية، وليس فقط رهبة، في أن

Poetry، بتحرير وترجمة Milosz (New York, 1965). انظر أيضاً إلى:

Jan Kott, *Shakespeare Our Contemporary* (London, 1964).

قارن بين ذلك وبين:

Krystyna Kujawińska Courtney, 'Celebrating Shakespeare under the Communist Regime in Poland', in *Shakespeare in Cold War Europe: Conflict, Commemoration, Celebration*, edited by Erica Sheen and Isabel Karremann (London, 2016), pp. 23–35.

يكون حزب آخر هو من يحدد ما يجب أن يفكّر فيه الشخص؛ راحة معيّنة وهدوء في الشعور بأن الشخص معفى من مهمة التفكير المعبرة تماماً. من الممكن أن يكون هناك رغبة بلا وعي في أن يكون الشخص بلا أفكار ومطيعاً. استُكشف هذا المفهوم مسبقاً من قِبل إريك فروم Erich Fromm، الفيلسوف والنفساني الألماني الذي كان جزءاً مهماً من مدرسة فرانكفورت لبضع سنوات. تولى دراسة سيكوباثولوجيا النازية وهو علم الاضطراب النفسي والعقلي لدى النازيين، اكتشف خلالها كيف يمكن للأفراد السماح لقائد خارجي بأن يصبح هو الموجه الرئيسي لهم أو حتى الضمير الفوقي الإضافي. على عكس ميلوش، استفاد فروم مباشرةً من نظرية فرويد. كانت نقطته الرئيسية التركيز على الرغبة التي قد يشعر بها الأشخاص في التخلص من وزن الإدراك والتفسير والمسؤولية الداخلية في اتخاذ القرارات. رأى فروم أن الشخص الذي يحتاج في عقله إلى الانقياد لسلطة، يبحث عن والد بديل قاسٍ في ميدان السياسة، وبالتالي يمكن تحقيق رغبة هذا الشخص من خلال من يمتلك سلطة فاشية استبدادية.

أدرك ميلوش تنوع أشكال الحكم الاستبدادي والتوتاليتاري، وتنوع تجارب البشر داخل أنظمته. ليس على الأفراد أن يكونوا مكسورين تماماً أو مغسولي الأدمغة بالكامل لقبول اتفاق غير معلن وبالتالي جعل حياتهم أكثر أماناً وأسهل إدارة، كما أشار، بل قد يشعر الأفراد بإغراء أو بالضرورة بأن ينجذبوا إلى هذا الاتفاق أو يتحفزوا لقبوله. في كلا النظامين، الشرقي والغربي، يمكن أن يتم تشويه العقول والتأثير عليها وتحجيمها أو تطبيبها. بعض الناقدين المعروفين مثل الطبيبَين النفسيين روني لاينغ Ronnie Laing في بريطانيا وفرانكو باساجليا Franco Basaglia في إيطاليا، انتقدوا بشدة الطريقة التي يُعالَج بها الأشخاص "المجانين" الذين يعانون من اضطرابات نفسية في الغرب. إذ وصفوا كيفية استخدام المستشفيات الكبيرة، التي تشبه المستودعات، لعلاجات دوائية كيميائية على نطاق واسع، كوسيلة كارثية غير كافية لتخفيف معاناة المرضى، وأشاروا إلى أن "نظام الرعاية" في تلك المستشفيات يجعل الأشخاص يشعرون بأنهم أقل إنسانية ومعزولون. ناشطون معارضون للطب النفسي أيضاً احتجوا بأن معالجة الضغوط النفسية لا تكون فقط من خلال الأساليب الكيميائية، بل يجب أيضاً أخذ العوامل الاجتماعية والعائلية بالاعتبار والنظر فيها، أو تتبّع جذور المشكلة

حتى الوصول إلى مصادر اجتماعية وسياسية أعمق كما أوضحوا.

في زمن زيادة الاضطرابات السياسية وتصاعد الاضطرابات الاقتصادية وتراجع الوضع الاجتماعي في العديد من المدن الغربية خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، أصبحت المناقشات حول استخدام الأدوية المهدئة (التي تُصرَف لبعض الأفراد أو تُشترى في الشارع) ذات أهمية متزايدة، وأصبحت مرتبطةً بالانتقادات الموجهة نحو الرأسمالية. أفاد مؤيدو حركة معارضة الطب النفسي الناشئة، مثل لينج، بأنه بدلاً من مجرد معالجة مشاكل الأفراد وإخمادها، كانت هناك حاجة لتحويل المجتمع تحولاً جذرياً بحيث أن الجنون كان متجذراً أيضاً في هيكل المجتمع. بإيجاز، أصبح Valium ومجموعة متنوعة من الأدوية الأخرى المستخدَمة لإخماد العواطف مسائل ذات أهمية اجتماعية وسياسية. من خلال اعتماد مثل هذه العلاجات، بما في ذلك استخدام مجموعة متنوعة من الأدوية من مضادات الاكتئاب إلى العقاقير المضادة للاضطرابات النفسية، كانت الجمعية الطبية النفسية والأفراد الذين عولِجوا يعترفون بشعورهم باليأس والاغتراب داخل النظام؛ كانوا في جوانب كثيرة، يقبلون اندماجهم اليائس بالنظام. بدلاً من التحرك خارج إطار معاناتهم الشخصية لاكتشاف حلّ شخصي إبداعي أو التوحد لتحدي النظام القائم، اعتبر النقاد أنهم ظلوا معزولين ومهمشين ومرتبكين، وذلك بسبب تأثيرات العلاجات الكيميائية التي عرقلتهم، كما لو أنّهم محاصرون داخل سترة طبية ضاغطة لمنع الحركة.[1]

كان ميلوش يكتب تلك الدراسة مسبقاً للمناقشات القوية التي حدثت في العالم الغربي خلال الستينيات والسبعينيات حول حقوق الإنسان والقوة الهائلة للحكومة. خلال تلك العقود، كانت هناك مجموعات جديدة متنوعة تعارض نظام الحكم في الغرب وتهدف إلى "رفع الوعي السياسي" فيه وتشجيع المواطنين على عدم الانصياع

١ تم إحياء هذه الحجة، التي قدمت على نطاق واسع في حركة معاداة علم النفس، مؤخراً في سلسلة وثائقية تلفزيونية من إعداد Adam Curtis على تلفزيون *BBC* الذي يعرض سلسلة من الأفلام الوثائقية. تم تسويق هذه السلسلة بوصفها "تاريخاً عاطفياً للعالم الحديث" بعنوان:

Can't Get You Out of My Head (2021).

يمكن الرجوع أيضاً إلى مقابلة David Runciman مع Adam Curtis بعنوان:

Talking Politics podcast (April 2021) no. 314, www.talkingpoliticspodcast.com/.

للنظام الحاكم. لذا توسعت شبكات الأفراد في هذا السياق، بمن في ذلك نقابيون وعمال يُضرِبون، وطلاب وناشطون ضد الحروب، ومحتجون ضد التمييز العنصري والإمبريالية الجديدة، ومدافعون عن حقوق المرأة، ومناصرون لحركة معارضة الطب النفسي. يبدو كأن ميلوش كان يتوقع بعض تلك النقاشات حول الشعور بالضغط للامتثال لحكومة غير عادلة عندما كتب عن دواء مخدّر في دراسته لعام ١٩٥٣؛ كان هذا الدواء يُعرف باسم "حبة مورتي بينغ" (Murti–Bing pill).

أخذ ميلوش اسم Murti–Bing من رواية عام ١٩٣٠ بعنوان *Insatiability* [الجشع] للكاتب البولندي ستانيسواف إيغناسي فيتكيفيتش Stanislaw Ignacy Witkiewicz. تصور الرواية مجتمعاً أوروبياً في حالة متدهورة تماماً ومهددة من جيش صيني منغولي وزعيم لا يرحم. في نقطة معيّنة في القصة، يصل بائعون يبيعون علاجاً شرقياً، وهو حبة يمكنها تحويل الأفراد فوراً. يمكنك التفكير فيها كنسخة مبكرة من Valium أو كمجاز عن تدابير أخرى تهدف إلى توفير تهدئة زائفة أو تشويه الإدراك أو التكيف مع واقع سياسي جديد، كل ذلك دون أن يلاحظ المواطنون التأثيرات السلبية أو الأوضاع السياسية التي تتغير من حولهم، إذ كان المواطنون يركزون فقط على محو تصوراتهم الشخصية وألمهم الفردي. فجأةً، أصبحت حبة Murti–Bing متاحةً على نطاق واسع للجميع. رأت الرواية أنه تحت تأثير هذه الحبة، لن يستشعر السكان المعالَجون الغزو الذي نفذته جيوش معادية لهم على أرض الواقع. سيعمل السكان الذين يأخذون هذه الأقراص على إغلاق أنفسهم عن جميع المآسي، ويعيشون بسعادة في عالم حلم جديد مصحوب بوهم قائل إنهم أفراد أصحاء، ويرون الناس الآخرين الذين لم يتناولوا الجرعة الضرورية من هذه الأقراص كأشخاص يعانون مشكلات نفسية. وفقاً لحساب ميلوش، أصبح بعض مواطنيه، بمن في ذلك زملاؤه الفنانون، يأخذون هذه الأقراص، ونتيجةً لذلك، تجاوزوا شكوكهم ورأوا أنفسهم كالمستنيرين يفسرون الحياة والواقع بدقة من خلال عدسة المادية الجدلية. هذا التكيف مع السلطة أدى في نهاية المطاف إلى توجيههم نحو التحالف مع الكرملين.[1]

بعبارة أخرى، استخدم ميلوش هذه الرواية ليشير إلى أن بعض زملائه قاموا بتخدير

1 Miłosz, *The Captive Mind*, p. 5.

عقولهم وكبت أي شكوك حول العدالة الميتافيزيقية للستالينية وهي الفهم النظري أو الفلسفي للعدالة والمبادئ الاجتماعية الذي كان يروج له نظام الستالينية في الاتحاد السوفياتي أثناء حكم جوزيف ستالين. كان ذلك بهدف اعتناق رؤية مبسطة تطمئن لها الأذهان. كان هؤلاء الأشخاص يلتزمون بأوامر الحزب الشيوعي وتكرار وجهة نظره حول الدور الاجتماعي للفن. عبّر ميلوش بمرارة عن ذلك، إذ توقف الكتّاب والفنانون الذين تناولوا هذه الحبوب عن اختبار تقنيات الرسم الإبداعي وتجاهلوا تأليف الموسيقى المعقدة الجميلة، وبدلاً من ذلك، قاموا بإنتاج موسيقى وشعر وطني (marches & odes) يمجدان أفكاراً أو أشخاصاً معينين ويعززان الولاء للشيوعية والوطن، وذلك بمواكبتهم للوضع السياسي المضطرب في ذلك الزمن.[١]

كان ميلوش مندهشاً من كيفية انغماس بعض الأفراد في ذلك المجتمع بالعمل التقني. على سبيل المثال، ينعزل العلماء في مختبراتهم مغمورين بمهامّهم ويبذلون جهداً لتجاهل الاضطرابات المحيطة بهم. كان من الواضح أن الرفض والانعزال يمكن أن يظهرا بأشكال متعددة. فبعض الأشخاص يبحثون عن الراحة في عملهم، بينما يلجأ آخرون إلى النوم وسيلةً للهروب من الواقع المضطرب. لم يكن بإمكان ميلوش أيضاً تجاهل التشابه الذي لاحظه بين هذا الوضع وما شهده سابقاً في الولايات المتحدة بعد عام ١٩٤٥، فملاحظاته الدقيقة عن الحياة في الشرق الشيوعي دفعته إلى إجراء مقارنات وتمييزات، وقد اعترف بالفروق بين الأنظمة السياسية وأدرك التنوع في السلوكيات والاعتمادات والإغراءات والتبريرات المتعددة التي يستخدمها الأفراد في حياتهم. في النهاية، يمكننا بسهولة أن ننغمس في نوع من الجهل العمدي كوسيلة للهروب من واقعنا؛ في هذه الأيام، يمكن أن يكون هذا "الدواء" هو العمل المفرط، والانغماس العميق في ثقافة المشاهير، والتسوق الإكراهي بشراء كميات كبيرة من السلع التي ليس هناك حاجة حقيقية لها، أو التصفح على الإنترنت. هناك مناطق متعددة يمكننا أن ننخرط فيها للهروب المؤقت من حياتنا اليومية، تماماً كما يفعل الأشخاص الذين ينجذبون إلى كازينوهات لاس فيغاس على مدار الساعة، التي تكون خالية من النوافذ ومزودة بمكيفات الهواء، ما دام لديهم ما يكفي من المال لإنفاقه على ماكينات

---

١ المرجع نفسه.

القمار أو الرهان على طاولات الروليت.

بالإضافة إلى الأشخاص الذين تناولوا الحبوب، تحدث ميلوش أيضاً عن الحاجة الإنسانية المشتركة في العالم، وهي رغبة الكثير من الناس في الحصول على نوع من اليقين "حتى إذا كان وهمياً".[1] كان بعض أصدقائه يسعون بشدة للإيمان بآراء النظام الشيوعي، بينما أراد آخرون ببساطة تجاهل الأمور والشعور بالسعادة. رأى ميلوش أيضاً أن بعض الأشخاص كانوا يحاولون التكيف والتأقلم مع الحياة بغض النظر عن مواقفهم من الأفكار، فهم لم يكونوا يضطرون لاتخاذ قرارات كبيرة بشأنها. كانوا يفضلون أن يكونوا حذرين ويرغبون في تجنب المشكلات والتوترات متأملين في تحسين أمور العالم في يوم ما. لم يشرح ميلوش لماذا اختار بعض الأشخاص أن ينكروا الواقع ويتناولوا الحبوب، بل ترك هذا السؤال للقارئ ليتأمل فيه.

في مقدمة جديدة لطبعة عام ١٩٨١ من *The Captive Mind*، شرح ميلوش أنه كان قلقاً بشأن استعداد العديد من المواطنين لقبول رعب الديكتاتورية "من أجل ضمان مستقبل وهمي"، ورأى أن التاريخ أظهر أيضاً استعداد "العقل الحديث" للوقوع في "إغراءات العقائد السياسية والاجتماعية". ربما كان ذلك إغراءً، وربما كان أيضاً استسلاماً لحالة عقلية لا تجد في مسألة مساءلة الدولة أو محاسبتها أي جدوى بل إنها أمر خطِر ومرهق للغاية كما تعتقد. على الرغم من أن تركيز الكتاب كان على شرق أوروبا، إلا أنه استدعى أيضاً مقارنات مع الحياة في الغرب. في اقتصاد غربي قائم على السوق، يذهب الأفراد إلى أعمالهم، يتعاطون مع الواقع، وغالباً ما يقبلون بالشروط العملية للتجارة ولو اختلفوا في المبدأ وخلصوا إلى أن الرأسمالية تضر بهم. قد نكون معرّضين للتكيف والإغراء، أو "التلاعب بالنظام عبر الاستفادة منه بطرق ذكية أو غير مباشرة"، دون أن نرى أنفسنا بالضرورة سجناء تحت سيطرة قوى مخدِّرة. ما يثير اهتمامي هنا على وجه الخصوص هو الوضع الذي صوره ميلوش حيث يحقق الأشخاص مستوى كافياً من التعاون مع النظام والانصياع له، مع الاحتفاظ ببعض الوكالة الشخصية والمضي بصورة خاصة في التعبير عن كلمة "لا"، ولو بصوت ليس عالياً.

---

١ المرجع نفسه ص. VII.

شدد ميلوش على فكرة أن الناس غالباً ما يستخلصون استنتاجات حول بعضهم بعضاً، ولكنهم قد يختارون الاحتفاظ بهذه الاستنتاجات لأنفسهم. وذلك في بعض الأحيان يكون ضرورياً للبقاء على قيد الحياة. ومن المهم أن نلاحظ أن ما يقوله الشخص وما يشعر به ليسا دائماً الأمر نفسه. هناك العديد من المواقف في الحوارات حيث نختار عدم المضي في استيضاح الشخص الآخر الذي نحاوره حول ما يقصده حقاً أو كيف وصل إلى تسوية حيال مشكلة معيّنة، وحتى لو أجابنا، قد لا نثق بأن إجابته صريحة. في أفضل الأوقات، وحتى في أسوأها، مثل تلك التي عاشها ميلوش، نجد صعوبةً في معرفة ما يفكّر به الآخرون على وجه التحديد، سواء عندما يتحدثون أو عندما يختارون الصمت. كل تفاعل في المحادثة يتضمن قرارات غير منطوقة، وفي بعض الأحيان غير مدركة، يتخذها الفرد لتحديد الكمية الكلامية التي ينوي إعطاءها لمحدثه وتحديد تحفظه على أفكار أخرى خاصة ومخفية فيه.

أضاف المعالج النفسي الأميركي ستانلي ملغرام Stanley Milgram وجهة نظره الخاصة حول هذه العملية الصامتة لفهم ما يكمن وراء أقوال الآخرين، من خلال سلسلة تجارب أُجريت في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الماضي. جاء هذا المشروع الجديد بعد دراسته الشهيرة في أوائل الستينيات في جامعة ييل حول الطاعة. في هذه الدراسة الأخيرة، ادعى ملغرام بصورة مثيرة للجدل أن العديد من الأشخاص، وربما حتى الغالبية، قد يتبعون أوامر السلطة اتباعاً أعمى، وأدرك أنه ليس من الضروري أن تكون مثل أدولف أيخمان Adolf Eichmann لتصبح نوعاً محتملاً من المجرمين بين الموظفين المدنيين أو الحزبيين الذين يمكن أن يرتكبوا أعمالاً ضارةً ويبرروها بزعم الامتثال للأوامر فقط. كانت الدراسة هذه أو عملية البحث مؤثرةً وقد حفزت على التفكير العميق الضروري. ومع ذلك، كانت الجوانب الأخلاقية لتجارب ملغرام مشكلة، فقد تضمنت مشاركة متطوعين غير مدركين، وتضمنت خديعتهم وربما تسببت في صدمتهم بسبب إشراكهم في تجربة غير متوقعة ومؤلمة تهدف إلى فهم تأثير السلطة والطاعة في السلوك البشري. إذ تم دفع المشاركين لتقديم صدمات كهربائية لأشخاص آخرين بناءً على توجيهات من الباحثين، حتى لو كانوا يعتقدون أنهم يسببون ألماً للآخرين. وجد بعض النقاد لاحقاً أن تجربة ملغرام قد تكون، في

حد ذاتها، مجرد تمرين في استخدام القسوة أو الظلم.

في مشروع تجريبي أجراه ملغرام في وقت لاحق نحو عام ١٩٨٠، استكشف أفكاراً تتعلق بلعب الأدوار والأداء. كان مهتماً بالتحقيق في كيفية فهمنا المحادثات وملء فجواتها، فوجد المسرح مثيراً لأنه يمكن أن يقدم رؤىً حول العلاقات الإنسانية في الحياة اليومية والافتراضات الضمنية التي نفترضها طبيعياً حول ما يفكّر فيه الآخرون. قد يكون ملغرام تأثر أيضاً بالتجارب التي تتعلق بالذكاء الاصطناعي والتفاعل بين البشر والآلات، مثل "اختبار تورينج" (Turing Test). هذا الاختبار الشهير كان يُعرف في الأصل باسم "لعبة التقليد"، وقد ابتكره عالِم الرياضيات والفيلسوف المتعدد الاختصاصات آلان تورنغ Alan Turing في ورقة علمية نُشرت في عام ١٩٥٠. كان هدفه تحديد ما إذا كان يمكن للآلة أن تحاكي السلوك بصورة مقنعة إلى حد أن الشخص لا يمكنه التمييز بينها وبين استجابات الإنسان العادية.

رأى ملغرام أنه قد لا نكون أسرى فقط الشخصيات الرسمية والقوى القهرية المباشرة، ولكن أيضاً العادات غير المنطوقة والإشارات والقوانين الاجتماعية والآداب اللطيفة التي تشكل التفاعلات بين الأفراد ويصعب علينا أن ندركها. كان مهتماً بفهم مدى افتراضات الشخصين اللذين يشاركان في محادثة، فيتساءل عما إذا كان الشخص الذي نتحدث معه في المحادثة الحية حقاً يعتقد في ما يقول، أم أنه يقوم فقط بالتحدث دون أن يعبّر عن أفكاره الحقيقية. بمعنى آخر، هل الأفكار التي يعبّر عنها هذا الشخص تعكس معتقداته وأفكاره الحقيقية، أم أنه يتحدث بشكل تمثيلي دون أن يعبّر عن مشاعره وأفكاره الحقيقية؟ هل يمكن أن نكون مقيدين بتلك الافتراضات المتجذرة؟

أجرى ملغرام اختباراً جديداً في جامعته في نيويورك لاستكشاف هذه الأسئلة. استند هذا الاختبار إلى مسرحية فرنسية من أواخر القرن التاسع عشر بعنوان *Cyrano de Bergerac* [**سيرانو دي برجراك**]. كان الهدف معرفة إذا كان بإمكان الناس التفريق بين شخص يتحدث بصدق عن أفكاره الخاصة وشخص يعيد تكرار كلمات يتلقاها من شخص آخر عبر سماعة أذن سرية. كان بروفيسور ملغرام نفسه مَن يقدم الكلمات ويختبئ في غرفة أخرى. اكتشف أن معظم الناس حاولوا ملء الفجوات الصعبة المحرجة متجاهلين حقيقة أن الشخص الذي يتحدثون معه قد يكون مجرد مؤدٍّ

لدور، وليس محدثاً صادقاً عن أفكاره الحقيقية. بهذه الطريقة، حاولوا تجاوز أي وعي (إذا كان لديهم) بأن الشخص الآخر قد يكون مجرد ممثل يتبع نصاً، لأن ذلك قد يكون مزعجاً ويعرقل سلاسة المحادثة.[1] إن الطريقة التي نتواصل بها يمكن أن توجهنا وتقيدنا في الوقت نفسه، وتشكل أفكارنا وأفعالنا.

كثيراً ما نقوم بضبط تصرفاتنا بصورة طبيعية، فنظهر فهماً وتفهماً عندما نتحدث مع أشخاص لا نعرفهم جيداً، ونحاول الحفاظ على سلاسة الحديث وتجنب إثارة أي إزعاج للآخرين، حتى إذا شعرنا بأن هناك شيئاً غير ملائم. اعتقد ملغرام أن هذا الافتراض الطبيعي بأن الشخص الذي نتحدث معه يقصد ما يقول، يمكن أن تكون له استخدامات عملية في المجتمع. اقترح أن هذه التجربة يمكن استخدامها لمساعدة الأمهات المضطربات على تلقي نصائح سرية حول كيفية التحدث مع أطفالهن في الوقت الفعلي من خلال سماعة الأذن الخفية؛ ويمكن لمفاوضي الرهائن أو قوات إنقاذ الرهائن الحصول على توجيهات مفيدة من مجموعة الدعم المؤلفة من خبراء يقدمون المشورة والمعلومات الاستراتيجية لمفاوضي الرهائن أثناء تحدثهم مع الخاطفين؛ ويمكن لرجال الشرطة أن يتلقوا توجيهات من أطباء نفسيين يستمعون لهم أثناء التحدث، ويمكن للسياسيين استخدام سماعات الأذن أو محاور النصوص للالتزام بخطب حزبهم السياسي عند الضرورة. اعتمد رونالد ريغان، الذي كان ممثلاً سابقاً وكان في السلطة في ذلك الوقت، على مثل هذه التكنولوجيا لمساعدته عندما كان يواجه صعوبةً في تذكر الأمور.

***

يبدو أن ميلوش لم يكن وحيداً في التحدث في كتاباته في مرحلة ما بعد الحرب عن الضغوط المستمرة التي يمارسها المجتمع لفرض التوافق أو الانسجام، والأدوار المتعددة، والحيل والاستراتيجيات اللازمة للبقاء، واستكشاف كيف يمكن للأدوار

---

1 Marcia Holmes and Daniel Pick, ‘Voices off: Stanley Milgram’s Cyranoids in Historical Context’, *History of the Human Sciences*, 32:5 (2019), 28–55, doi.org/10.1177/0952695119867021.

والأقنعة إما أن تخفي حقيقتنا الداخلية وإما، بصورة أشد إثارة للقلق، أن تصبح جزءاً لا يتجزأ من عوالمنا الداخلية وتدير علاقاتنا الاجتماعية. لم يمرّ وقت طويل على كتاب ميلوش المؤثر، حتى ظهر كتاب آخر بعنوان *The Second Sex* [**الجنس الآخر**] لسيمون دو بوفوار Simone de Beauvoir نُشر في عام ١٩٤٩. على الرغم من أنه لم يتناول بصورة محددة موضوع الأدوار والأداء في سياق الشيوعية، فقد تناول كيفية تعليم النساء طوال حياتهن لقبول وضعهن الثانوي. لقد دعمت دراسة دو بوفوار المهمّة المساواة بين الجنسين وحثّت النساء على ممارسة حريتهن وتجنب "الخداع الذاتي". قدمت سرداً لاضطهاد النساء في المجتمعات التي تهيمن عليها الأبوة وأظهرت كيف يتم تهذيبهن لقبول أنهن ثانويات ولتجسيد أدوار معيّنة، وكيف يُنظر إليهن في الأساس على أنهن "الجنس الآخر" بالنسبة إلى الرجال، وبمعنى آخر، يكنّ تحت حكم الاستبداد. أشهر عبارة في الكتاب كانت: "الإنسان لا يولد امرأةً وإنما يصبح كذلك." (في وقت سابق، في عام ١٩٢٩، توقّعت جوان ريفير Joan Riviere، الكاتبة والمحللة النفسية ومترجمة فرويد، عنصراً واحداً على الأقل من هذه الحجة النسوية بعد الحرب، وذلك في ورقة بحث ملحوظة، حيث اقترحت جوان أن الـ"أنوثة" قد تكون نوعاً من الاحتفال المتوقع أو المفترض لدى النساء بهدف تجنيب الرجال شعور القلق والدونية).[1]

في الخمسينيات من القرن العشرين، شهدنا مناقشات واسعة حول الأداء والأقنعة والأدوار في سياقات سياسية مختلفة وحركات اجتماعية وأماكن العمل والبيئات المنزلية. بدأت كلمة "لعب الأدوار" نفسها تظهر في اللغة الإنكليزية نحو عام ١٩٥٠، وفقاً لقاموس أكسفورد للإنكليزية. في عام ١٩٥٦، وسع إرفنغ غوفمان هذا الموضوع في دراسته المؤثرة بعنوان *The Presentation of Self in Everyday Life* [تقديم الذات في الحياة اليومية]. إليكم الوصف الافتتاحي والتوضيح من كتاب غوفمان:

> عندما يتولّى شخص ما دوراً، فإنه يطلب ضمناً من المشاهدين أن يأخذوا بجدية الانطباع الذي يقدمه. يُفترض من المشاهدين أن يعتقدوا أن الشخص

1 Joan Riviere, 'Womanliness as a Masquerade', *International Journal of Psychoanalysis*, 10 (1929), 303–13.

> الذي يرونه يمتلك فعلاً الصفات التي يبدو أنها لديه، وأن الأفعال التي يقوم بها ستترتب عليها عواقب تُزعم ضمناً لتلك الأفعال، وأن الأمور بصورة عامة هي كما تبدو عليه.

لاحظ غوفمان أن الشخص الذي يؤدي دوراً معيناً قد ينغمس تماماً في أدائه، ويكون مقتنعاً بصدق بأن الانطباع الذي يقوم بتقديمه للواقع هو في الواقع حقيقي. يمكن أن يشارك كل من الشخص القائم بالأداء والجمهور هذا الاعتقاد بأنهما يعبّران عن نفسيهما بصدق. يلزم وجود مراقب خارجي، مثل عالِم اجتماع، لاكتشاف الطابع المنهجي والمستنسخ لما يتم تقديمه، ومع ذلك، قدم غوفمان سيناريو آخر يتقارب إلى حد كبير مع وجهة نظر ميلوش. في بعض الحالات، قد لا يكون الشخص مقتنعاً حقاً بالدور الذي يؤديه بنفسه؛ بدلاً من ذلك، قد يتبنى أداءً أكثر سخرية، ويشعر تجاه هذا الأداء "بنوع من الفرح الروحي المستمد من تنكره لأدائه الأولي". يمكن أن يُعتبر هذا الفرح "غير مهني" لأنه يشير إلى الحالة العاطفية أو السلوكية التي يشعر بها المؤدي عندما يتسلط أو يتفوق على الآخرين بطريقة تجلب له السعادة أو الارتياح، والتي تشمل أيضاً خداع الجمهور خداعاً متعمداً.[1] يمكن تبرير هذه القدرة على خداع الجمهور باعتبارها تصبّ في مصلحة الجمهور أو المجتمع. على سبيل المثال، يمكن للطبيب أو الفني أو حتى السياسي الذي يتولى دور حل المشاكل المهنية أن يتفاعل مع الجمهور بطريقة تبدو حقيقية ودية، مثل توفير الوقت أو تخفيف القلق أو إتمام المهمة بكفاءة. هناك أيضاً شعور بالرّضا، وإن كان غير تقليدي إلى حدّ ما، من الشخص المؤدي تجاه درايته بأنه مسيطر ومستمتع بذلك، بينما يبقى المستمع غير مدرك لما يحدث حقّاً. بحسب غوفمان، يمكن أن يستمتع الناس بحالة التحكّم في الموقف كما لو كانوا في مسرح، وبالإحساس في النجاح في خداع الآخرين، وبالتالي أن يمارسوا شعوراً خفيّاً بالتفوّق عليهم.

هذه الحالات التي تتضمن الأداء والخداع، سواء فُرضت فرضاً منهجياً وقاسياً على السكان الأسرى أو تم التلاعب بها بمهارة من قِبل أفراد في المجتمع يتمتعون، من

---

1 Erving Goffman, *The Presentation of Self in Everyday Life* [1959] (Harmondsworth, 1969), p. I.

الناحية الأكثر تقليدية، بالحرية، بدت واسعة الانتشار في تلك المرحلة. في هذا العصر، رسم مجموعة متنوعة من الكتّاب والنقاد مقارنات بين عالم المسرح ومجال السياسة. استكشفوا الطرق المختلفة التي يمكن بها استخدام اللغة بصورة "أدائية" وقدموا كيف يمكن أن تكون الأدوار ضرورية وأن يتم توليها ببراعة في السياقات الاجتماعية. استفاد الأفراد من هذه الأدوار للبقاء على قيد الحياة، وللإقناع، ولتسهيل عملية الاندماج، وللتفاوض، أو حتى لتوفير التسلية السرية للشخص الذي يرتدي القناع على حساب الآخرين، ومع ذلك، في هذه المرحلة، اقتُرح أيضاً نوع مختلف من اللعب بالأدوار أو ارتداء الأقنعة، وهو ما يمكن أن يحدث في سن الطفولة الأولى عندما تسير العملية الحيوية للرعاية في الاتجاه الخطأ بصورة خطِرة.

أبدى علماء التحليل النفسي اهتماماً خاصاً في توسيع هذه المفاهيم في مرحلة ما بعد الحرب. لم يكن اهتمامهم مقتصراً على الضغوط الاجتماعية والنفسية العامة للامتثال لأدوار الجنس كـ"رجل" أو "امرأة" فقط، بل امتد إلى الفكرة المتعلقة بتبني الأفراد لأدوار سطحية بدلاً من تطوير هويات حقيقية. قام الأطباء النفسيون بالتحقيق في كيفية تأثير التجارب السلبية المبكرة مع الراعي الرئيسي على الطفل، إذ قد يؤدي ذلك إلى بناء درع واقٍ للحماية من الأذى، وفي الوقت نفسه، يقيد هذا الدرعُ الذات الحقيقية داخل واجهة مقيدة تشبه طبقة جلدية على الجسم. في بعض الحالات، قد تبقى النواة الداخلية سليمة، بينما في الحالات الأكثر خطورة، قد يصبح الشخص المفترَض أو القناع هو الهوية السائدة. من المهم أن نلاحظ أنه لا أحد منّا يخلو تماماً من ارتداء الأقنعة أو المشاركة في مستويات معيّنة من الأداء الاجتماعي، كما شرح غوفمان. حتى في بيئات الرعاية أو السياقات الاجتماعية الداعمة، نجد أنفسنا جميعاً نتولى أدواراً متنوعة للوفاء بالتزاماتنا الاجتماعية. وأحياناً، لأسباب شخصية أو تحت ضغوط معيّنة، قد نبالغ في بعض جوانب شخصياتنا أو نقلد آخرين. من منّا لم ينزلق بخفة إلى دور، ربما خلال الطفولة داخل العائلة، لتجسيد شخصيات مألوفة مثل "الحالم"، "الملاك الصغير"، "الممازح"، "المتفوق"، "المشاغب"، "المخيّب"، "المشكّك"، وما إلى ذلك؟

الذات "الزائفة"، كما وصفها طبيب الأطفال والنفساني دونالد وينيكوت Donald Winnicott بعد عقد من نشر كتاب *The Captive Mind*، تتكون عبر عملية "التماشي"،

أي عندما يبذل شخصٌ محاولات جادة للتكيف مع الآخرين أو القيام بما يريدونه. إنها تشبه ارتداء قناع لإخفاء الذات الحقيقية. لاحظ وينيكوت أن هذه الذات الزائفة يمكن أن تكون لها وظيفة دفاعية، فهي تحمي الذات الحقيقية. حتى إذا كان الوالدان يعانيان من صعوبة في فهم مشاعر طفلهما الحقيقية، كان وينيكوت يعتقد أن الطفل قد يتشبث بمشاعره الداخلية بشدة جراء ذلك. تقدم هذه الفكرة وجهة نظر أخرى حول كيف يمكن أن يصبح العقل أسيراً وكيف يمكن لأشخاص هذا العقل، بدءاً من سن مبكرة جداً، أن يكونوا بحاجة إلى حماية شيء ثمين، أو أن يقلدوا الآخرين، أو يتخذوا شخصيات مختلفة، أو حتى يشعروا بالفراغ، متشابهين في ذلك مع لا شيء سوى أقنعتهم النفسية أو الأدوار المخصصة لهم.

كان وينيكوت أحد مجموعة علماء التحليل النفسي الذين كتبوا عن هذه التطورات الطفولية المبكرة وعلاقاتنا الداخلية المهمة خلال الحرب وبعدها. طوال هذه المرحلة الصعبة في تاريخ أوروبا، كان هو وزملاؤه أيضاً يفكرون في التحدي الذي يواجه أي شخص وأي مجتمع في الحفاظ على وسيلة للعيش تستند إلى الحرية والديموقراطية. في عام ١٩٣٦، كتبت آنا فرويد Anna Freud كتاباً هاماً يتعلق أيضاً بهذا السؤال، واستكشفت فيه مفهوم الأنا وآليات دفاعها. كان ذلك يعكس قلقها العميق حيال مدى استمرار الجزء العقلاني، الذي يتساءل ويفكر في الأمور قبل اتخاذ قرار، في البقاء سليماً أو التغلب عليه من قوى أخرى في العصر الحديث المتطرف. نظرت إلى كيفية تأثير عوامل متعددة على الفرد، بما في ذلك طبيعته ونشأته وعلاقاته ورغباته، مما قد يخلق لديه مرونةً قويةً أو ضعيفة. قد يكون الأفراد ميالين أحياناً إلى الانضمام إلى الأحزاب السياسية غير المنطقية والمدمرة، وبصورة خاصة الحزب النازي كما حدث في حالة آنا.[1]

كان هؤلاء المتخصّصون على دراية بأن الذات أو الأنا (ego) يمكن أن تكون عرضة للخطر، ليس فقط من جانب الذات العقلية أو الأنا العليا (superego)، ولكن أيضاً من تكتيكات الدعاية التي تستخدمها الأنظمة التوتاليتارية المستبدة. إرنست

1 Suzanne Stewart-Steinberg, *Impious Fidelity: Anna Freud, Psychoanalysis, Politics* (Ithaca, 2012).

كريس Ernst Kris، وهو محلل آخر، قسم بدقة ووضوح في عام ١٩٤١ أنواعَ الدعاية التي كانت خصائص كل من الأنظمة التوتاليتارية والأنظمة الديموقراطية. في النظام الشمولي، تتنوع الدعاية من الإقناع إلى التنويم المغناطيسي، بهدف السيطرة المطلقة على الفرد؛ في الأنظمة الديموقراطية، تتنوع الدعاية من الإقناع إلى التثقيف، بهدف تشجيع التفكير العقلاني داخل الفرد. لذلك، قام المحللون بدراسة كيفية عمل الأنظمة السياسية المختلفة، وأشادوا بالديموقراطية وأدركوا نقاط ضعفها، كما حذروا من تذبذب هوياتنا اللاواعية، وعدم استقرار الذات، ومخاطر العودة إلى ما وصفه ليفتون ومحلل آخر هو إريك إريكسون Erik Erikson بأنه "شمولية" (totalism).

عالج متخصّصو العلاج النفسي فكرة أننا نمتص عناصر من الآخرين لنشكل الأنا أو ذواتنا. كانوا يعتقدون أن الأنا هي مزيج معقد، وليست كياناً واحداً، تتألف من هويات متنوعة، بعضها قد يكون غير مدرَك. اعتبروا أن بعض تلك الهويات تصبح أكثر من غيرها قوةً واستقراراً. كانت لديهم مخاوف مبررة بشأن كيفية تأثير ديناميات العائلة والمؤسسات، أو حتى المجتمع، بحيث تُترك الأنا الناشئة بلا خيار سوى تقليد شخص آخر أو خدمته. فماذا لو لم تكن لدينا وسائل فاعلة لحماية أنفسنا بصورة كافية في نهاية المطاف، أو إذا لم نملك مساحةً داخليةً خفيةً ومحبوبةً في أعماقنا الحقيقية يمكنها أن تتحمل الصعاب تحت القناع اليائس والماهر والضروري، أو تحت مطالب الآخرين السيادية؟ بالنسبة إلى وينيكوت

> يمكن صياغة مبدأ يوجه حياة الإنسان على النحو التالي: النفس الحقيقية فقط يمكنها أن تشعر بالواقع بصدق، ولكن النفس الحقيقية يجب ألّا تتأثر أبداً بالظروف الخارجية ولا ينبغي لها أن تمتثل أبداً. عندما تُستغل الذات الزائفة وتُعامَل كأنها حقيقية، يزداد شعور اليأس والعجز لدى الأفراد.

بعض الكتّاب الآخرين يقدمون حججاً بأن المجتمع يمكن أن يصل إلى حالة من اليأس الثقافي الجماعي. هذا يمكن أن يدفع الأشخاص إلى التخلي عن الحذر والانضمام إلى حزب سياسي متعصب والبحث عن "حلول" زائفة.

يظهر ميلوش لنا أنه حتّى في الظروف المتوترة والمتطرفة في بولندا تحت حكم النازية والستالينية، يكون الناس متقلبين. لذلك، يجب أن نكون حذرين عند استخدام تصنيفات مثل "الذات الحقيقية" و"الذات الزائفة". وتكون الدول السياسية أيضاً دائماً أكثر تعقيداً من المصطلحات المبسطة التي نستخدمها عادةً لتصنيفها، مثل "ليبرالي"، "استبدادي"، "شمولي"، "إمبراطوري"، وما إلى ذلك. فعلاً، يمكن لليبرالية والديموقراطية أن تتعارضا أحياناً، لأنّ الأولى تركّز على حماية حقوق الأفراد، فيما تركّز الثاني على ما تريده الغالبية. وغالباً ما يتجاهل الناس هذا التعارض بالقول ببساطة إنّ الدولة هي نموذج متميز لـ"الديموقراطية الليبرالية".

بالطريقة نفسها التي يستمر فيها متخصصو العلاج النفسي في مناقشة، وفي بعض الأحيان رفض، التصنيفات العامة عند تشخيص صحة النفس للأشخاص، مثل العصبية، والذهان أو المنقطع عن الواقع، والحدودية أو السلوك الذي يشبه الاضطراب النفسي، أو الذين يكونون على حافة حالة حدودية ما، يتناقش العلماء أيضاً في تعاريف الأنظمة السياسية. هذه التصنيفات للأفراد والدول مفيدة كنقاط انطلاق، ولكنها تحتاج إلى فحص نقدي. مع تعمقنا في التفاصيل، قد نبدأ بملاحظة ما يضيع عند الترجمة بين الحالات الفردية والنماذج العامة. كما رأينا، يقارن ميلوش بشدة بين الشرق والغرب، وبين التوتاليتارية والمجتمعات الليبرالية، ومع ذلك، يفحص أيضاً كل حالة بطريقة استجوابية مكثفة. إنه يعتقد أن تاريخ كل شخص وأمة ليس مجرد مثال ولكنه قصة فريدة. بالنسبة إليه، كانت بولندا مجتمعاً مضطهداً، ولكنها لم تكن مجرد تمثيل لكل "شرق أوروبا". هدفه هو استكشاف التشابهات والاختلافات بين تجارب الحياة الحقيقية، وقد شجعنا على أن نكون على علم بكيفية تجمد لغة السياسة بسهولة وتحولها إلى خطاب فارغ يقيد تفكيرنا.

خلال الحرب الباردة، أثارت خطابات "العالم التوتاليتاري" في مواجهة "العالم الحر" أسئلة مهمة عدة. مثلاً: كيف يجب أن نحدد بوضوح دولة معيّنة كدولة ديموقراطية ليبرالية حقيقية؟ ما المسائل المخفية التي تنشأ داخل الدول التي تدعي أنها قمة الحرية؟ كيف يمكننا التوفيق بين مفهومَي الحرية والأمان وحل التناقضات بينهما؟ متى يكون مناسباً وصف دولة بأنها "حرة" أو "ديموقراطية"، ومتى يصبح هذا

الوصف سطحيّاً، أو مجرّد غطاء للاستعمار أو الفاشية؟ أين نرسم الخط الفاصل اليوم بين نظام استبدادي ونظام توتاليتاري؟ في العالم الغربي اليوم، تُعرف حالات الأنظمة التوتاليتارية بوضوح، مثل كوريا الشمالية، لكن الآراء تتباين عندما يتعلق الأمر بدقة استخدام مصطلح "توتاليتاري" لوصف، على سبيل المثال، جنوب أفريقيا في عهد الفصل العنصري في الخمسينيات أو الأنظمة العسكرية القمعية التي حكمت دول أميركا اللاتينية، مثل تشيلي خلال السبعينيات وبعدها. وماذا عن روسيا بوتين أو الصين بقيادة شي جين بينغ Xi Jinping؟ لنأخذ الصين على سبيل المثال، فإن الإجراءات القمعية المستخدمة هناك اليوم ضد الأقلية الأويغورية، كما رأينا، تلبي معايير "توتاليتارية"، ولكن ماذا عن السيطرة على باقي السكان أو حتى على الأشخاص ذوي الحالة المميزة والمدعومة من الحزب الحاكم، ما داموا يلتزمون بالقواعد الصريحة وغير المنطوقة؟

في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٢١، على سبيل المثال، نشرت لاعبة التنس الصينية المعروفة عالمياً باسم بينغ شواي Peng Shuai رسالةً طويلةً على منصة Weibo. في رسالتها، احتجت على كيفية إجبارها بالقوة من أحد المسؤولين الحزبيين الكبار على القيام بعلاقة جنسية قبل ثلاث سنوات وادعاء أنها علاقة رومانسية. سرعان ما نالت رسالتها انتشاراً واسعاً، مساهِمةً في نمو حركة #أنا_أيضاً (MeToo#) في الصين، لتنتشر لاحقاً على نطاق واسع أخبار اختفائها ثم ظهورها الغامض في صور مرتّبة. خلال مقابلة أُجريت معها في كانون الأول/ ديسمبر، نفت نفياً تاماً أنها تعرضت لأي اعتداء جنسي، مما أثار شكوكاً حول حريتها وسلامتها، وأثار نقاشات حول التوتاليتارية وزاد من دعوات المقاطعة الدولية لأولمبياد بكين الشتوي ٢٠٢٢. عندما قامت بسحب ادعاءاتها السابقة بشأن الاعتداء، رأى الناشط الصيني المعارض آي ويوي Ai Weiwei أنها اضطرت فعلياً لتكون "جنديّة" في الحزب الشيوعي، وقال: "إنها لاعبة رياضية، وهذا يشبه أن تكون جندياً في الجيش، إذ أي شخص مشارك في الرياضة يُعتبر مملوكاً من الحزب".[١]

طريقة واحدة للنظر في الأمر هي أن الصين، خلال تسعينيات القرن الماضي، بعد

1 Jenni Marsh, 'Chinese Dissident Ai Weiwei Dismissed Tennis Star Peng as Party "Soldier"', Bloomberg, 6 January 2022, www.bloomberg.com/news/articles/2022-01-06/china-s-ai-weiwei-dismissed-tennis-star-peng-as-party-soldier.

مدة قصيرة من التحول إلى الانفتاح وظهور دلالات على أنها ستصبح أكثر تحرراً، عادت إلى أن تكون حكومةً صارمةً وتوتاليتاريةً مسيطِرة مرةً أخرى، ولكن بعض الأشخاص يستخدمون مصطلحات مختلفة لوصفها، مثل القول بأنها نظام رأسمالي استبدادي مع حزب واحد حاكم. يتحدث هؤلاء أيضاً عن الاختلافات بين مختلف مناطق الصين، مشيرين إلى أن بعض المناطق تكون أكثر سيطرةً من غيرها، وهي في مرحلة انتقالية "نحو أن تصبح توتاليتارية"، وهناك أيضاً أولئك الذين يجادلون بأن وصف الصين بأنها مجتمع واحد "شامل" هو وهم.

إن مصطلح "التوتاليتارية" هو الأكثر استخداماً من قِبل الشخصيات المؤثرة في حزب الجمهوريين الأميركي عند الإشارة إلى الصين، بينما يفضلون استخدام مصطلح "الحرية" عند الإشارة إلى بلادهم، الولايات المتحدة، على الرغم من إضافة، في بعض الأحيان، عبارات مثل "في طور التحول إلى"، مما يشير إلى عدم حسم الرأي تماماً في مسألة ما إذا كانت الصين فعلاً تمارس استبداديةً توتاليتاريةً أم لا. دعونا نأخذ مثالاً من مقالة حديثة للمؤرخ لي إدواردز Lee Edwards على موقع Heritage Foundation، وهي مؤسسة فكرية تميل إلى المحافظة بشدة. عندما طُرح عليه السؤال "هل الصين دولة توتاليتارية؟"، كانت إجابته "نعم" أو على الأقل قريبة جداً من ذلك. يقول إدواردز: "بأي معيار منطقي، تتجه جمهورية الصين الشعبية نحو أن تصبح دولة توتاليتارية حيث يحدد شي جين بينغ والحزب الشيوعي الذي يتزعمه الأفعال ويُمليانها على الشعب".[1] ولدعم هذا الادعاء، يشير إدواردز إلى ست سمات وضعها المستشار الأمني القومي الأميركي السابق زبغنيو بريجينسكي Zbigniew Brzezinski لتعريف الدولة التوتاليتارية: وجود أيديولوجيا رسمية، وجود حزب سياسي واحد عادةً ما يقوده زعيم أعلى، وجود شرطة سرية، سيطرة الحزب على وسائل الإعلام الجماعية، سيطرة الحزب على الجيش، وجود اقتصاد موجه مركزياً. ويواصل إدواردز شرحاً لهذا الوضع الذي هو "في طور التحول إلى التوتاليتارية"، ويقول إنه يمكن تتبعه من خلال سلسلة من اللحظات التاريخية، بدءاً من المراحل الأولى لجمهورية الشعب وصولاً إلى الثورة الثقافية والانتقال اللاحق إلى

1 Lee Edwards, 'Is China Totalitarian?', The Heritage Foundation, 26 February 2020, www.heritage.org/asia/commentary/china-totalitarian.

نظام حزب واحد يتضمن عناصر من الرأسمالية.

بعد مجزرة ساحة تيانانمن في عام ١٩٨٩، أصبح واضحاً أن الحزب، بقيادة دنغ شياوبنغ Deng Xiaoping، قرر قمع جميع الحركات التي دعت إلى إجراء إصلاحات سياسية جوهرية وتحررية، كما هدف الحزب إلى قمع أي مشاركة سياسية تتجاوز سلطته. واجه المعارضون اعتداءات وحشية، وسُجنوا وتعرضوا للتعذيب، وغالباً ما أُخضعوا لعمليات "إعادة التربية" في حملة وطنية شيوعية تلت انتفاضتهم. على مدى التسعينيات، ظل القادة الصينيون ملتزمين بتجربتهم الفريدة التي جمعت بين حكم الحزب الواحد وجهود لتعزيز اقتصاد متحرر تدريجاً يعتمد على تصدير السلع الرخيصة عالمياً. التحدي الذي واجه القادة والذي تم التعامل معه بواسطة القوة العسكرية وتحسين مستويات المعيشة، كان كيفية السيطرة على أي مشاعر نموذجية للفردية والتحرر السياسي، أو على أي عودة لمقاومة الطراز القديم للماوية، والتي قد تنشأ نتيجةً لهذا التحرر الاقتصادي.

كانت أهمية تمرّد عام ١٩٨٩، بحسب المعارضين، في تحديه لفكرة عدم رغبة الشعب الصيني في حرية التفكير وعدم الحاجة إلى التمثيل الديموقراطي. ادعى الكاتب الصيني المعارض والمنفي ما جيان Ma Jian أن ساحة تيانانمن كشفت عن نظام مستعد لذبح مواطنيه العُزّل للحفاظ على السلطة بأي ثمن، وأكد التالي:

> من الخطأ وغير المقبول أخلاقياً الادعاء بأن أعداد القتلى كانت ضرورية لاستعادة النظام وضمان النمو المستقبلي للبلاد. تحت راية الرأسمالية الاستبدادية، قام الحزب بتلبية احتياجات الشعب الصيني جسدياً، لكنه قيّد حريتهم الفكرية، مشجعاً إياهم على الرغبة في الثروة المادية من جهة وكابحاً رغبتهم في التفكير في الماضي أو التساؤل عن الحاضر من جهة أخرى.[1]

بعد تنفيذ هذه السياسات القمعية في التسعينيات، عرضت الصين نظاماً ضخماً متقدماً رقمياً لمراقبة سلوك المواطنين والتحكم فيه بعد عام ٢٠٠٠. اليوم، ليس

1 Ma Jian, 'Tiananmen Square 25 years on: 'Every person in the crowd was a victim of the massacre', Guardian, 1 June 2014, www.theguardian.com/world/2014/jun/01/tiananmen-square-25-years-every-person-victim-massacre.

فقط الأويغور هم من يُراقَبون من كثب لدرجة يمكن أن تثير دهشة أورويل وأرندت وميلوش، إذ لدى الحكومة الآن قدرة لا مثيل لها على مراقبة أفعال مواطنيها البالغ عددهم ١,٤ مليار مواطن. تستخدم الصين جداراً نارياً (Firewall) كبيراً لمنع المواقع الإلكترونية الأجنبية غير المرغوب فيها وتنشئ بيئةً سيبرانيةً تُدار بعناية تختلف عن تلك المتاحة في الغرب. بالإضافة إلى ذلك، تقوم الصين بجمع ملفات مفصّلة عن مواطنيها.[1]

رغم القيود على استخدام الإنترنت، تُعتبر التكنولوجيا الرقمية في الصين أداةً حيويةً للفرد والدولة على حد سواء. عبر الإنترنت، يمكن للأشخاص تصفّح المواقع كما يشاؤون كأفراد حرّين، ضمن الحدود المسموحة. يمكنهم اتخاذ قراراتهم الخاصة، لا سيما في ما يتعلق بالتسوق عبر Amazon China أو منصات أخرى مثل Alibaba، لكن يجب على المشترين ألّا ينظروا لاحتساب البائع فقط، ولكن أيضاً إلى وجود الدولة السياسية في الخلفية الرقمية للسوق. سواء كان الشخص يشتري عبر الإنترنت أو يتصفح فقط، تصل جراء ذلك رسالة ليس إلى الإعلانات والشركات فحسب، بل أيضاً بصورة محتملة (أو على الأقل مفترضة) إلى جهات الرصد والمراقبة التابعة للدولة الصينية.

من خلال قدرتها على مراقبة الإنترنت بصورة دائمة، سعت الحكومة الصينية إلى السيطرة على التحديات الناتجة عن الفردية ونمو الرأسمالية في دولة حزب واحد. لذلك، بينما يحظى الفرد بحرية شراء شيء ما (أو عدم شرائه)، يمكن أن يفكّر أيضاً في الرسالة التي يرسلها إلى "الآخرين"، أي إلى عيون السلطة الدائمة، من خلال الشراء عبر الإنترنت أو التصفح. يمكنه أن يتساءل إذا كانت عملية الشراء أو التصفح التي يقوم بها صحيحة أم خاطئة من هذه النقطة، وعن العواقب المحتملة. يمكن دمج أثر الفرد على الإنترنت مع معلومات أخرى غزيرة يمكن لجهات الرصد الوصول إليها، وتشمل هذه المعلومات مكالمات الهاتف والرسائل النصية ومقاطع الفيديو والمعلومات من المخبرين، التي تساهم جميعها في إنشاء سجل دائم عن

1 James Griffith, The Great Firewall of China: How to Build and Control an Alternative Internet (London, 2019).

المشتري أو المتصفح. كما هناك كاميرات منتشرة على نطاق واسع في القرى والبلدات والمدن وعلى الطرقات السريعة؛ تسجل هذه الكاميرات حركات السكان عبر معظم التضاريس، ليلاً ونهاراً.

الثورة الرقمية، في النسخة الصينية الحالية، لا تقتصر فقط على تمكين الدولة من إجراء فحوصات سريعة للتعرف على قيمة الائتمان للشخص، بل تتيح أيضاً بناء نظام "ائتماني" سياسي أكثر تعقيداً. تتحسن هذه النقاط "الائتمانية" السياسية (التي تحددها سلسلة من الخوارزميات أو البرمجيات الذكية) إذا اتخذ الشخص القرارات الصحيحة باستمرار. فالسلوك الجيد على الإنترنت يمكن أن يفتح الأبواب لفرص أفضل في العديد من المجالات ويسمح للفرد بالتقدم في النظام أو بأن يحظى بحياة أكثر راحة. على سبيل المثال، يصبح الحصول على تذاكر للسفر داخل البلاد أو خارجها أسهل مع وجود نقاط جيدة. وعلى الجانب المقابل، يمكن أن تؤدي نقاط سيئة للغاية في النهاية إلى جذب الانتباه غير المرغوب فيه، وربما حتى إلى زيارة منزل الشخص؛ إن هذا صحيح دون أدنى شك، ولكن قد يكون بسيطاً أمام ما يحدث في الواقع. قد يعكس نظام الائتمان الاجتماعي الصيني الذي نقرأ عنه كثيراً في الغرب جزءاً من الواقع السياسي في الصين، لكنه قد يخدم أيضاً روايات غربية تفخر بذاتها وتذكرنا بالحرب الباردة، فتظهر أن "نحن"، الغربيين، نتمتع بحرية غير مقيدة، بينما "هم"، الصينيون، يعانون من "التوتاليتارية".

بالطبع، هذه الأنظمة مختلفة تماماً عما يُقرأ أو يُسمع عنها، ومع ذلك، فإن الأنظمة الغربية تتشابه مع الأنظمة الشيوعية إلى حد كبير؛ حيث يُراقَب سلوك الأفراد عبر الإنترنت في الغرب أيضاً من قِبل الشركات بعناية، ونحن نتعرض باستمرار للمعلومات (الغالبية العظمى منها إعلانات) بفضل الخوارزميات التي تشجعنا على أن نصبح مدمنين على الاستهلاك، مما يسهم في دعم المشاريع الرأسمالية. تجمع الأحزاب السياسية والحكومات معلوماتنا وتستخدمها، ويتم تتبع هذا المعلومات حسب الحاجة من قِبل وكالات المخابرات (مثل وكالة الأمن القومي NSA في الولايات المتحدة ومقرات الاتصالات الحكومية GCHQ في المملكة المتحدة). قد نكون على دراية أو لا بأننا نمنح الشركات إذناً للتجسس علينا عندما نختار تلك الخانات

التي تقول "موافق"، وذلك غالباً دون قراءتنا للنص الصغير. غالباً ما يقوم الصحافيون الغربيون برسم تباين حاد بين المراقبة في الصين (أو حتى في حالات أكثر تطرفاً مثل كوريا الشمالية) وحرية الغرب. ومع ذلك، في بعض الأحيان يقومون أيضاً بمقارنات لافتة بين مجتمعات المراقبة "هناك" أي الصين و"هنا" أي الغرب.[١]

الجدل حول السيطرة الكاملة والتامة للحزب الشيوعي الصيني على الشعب، كما ادعى العلماء، يبسّط الوضع تبسيطاً مفرطاً ولا يعكس الحقيقة بدقة، ذلك لأن الحزب الشيوعي الصيني يمارس السلطة الآن بطريقة أكثر تعقيداً وتداخلاً وتفاعلاً من القمع والهيمنة المطلقين. بمعنى آخر، فإن الحكومة لا تفرض فقط سيطرتها بصرامة وباتجاه أحادي، بل أيضاً تتفاعل مع المجتمع والمواطنين بصورة منتظمة. رغم أن الحزب يستخدم فعلاً شبكةً واسعةً من المراقبة وإجراءات الشرطة القمعية، فهو يستخدم أيضاً جميع الوسائل الممكنة لتقدير الرأي العام ويجري تعديلات متكررة على السياسات استجابةً لعدم الرضا الاجتماعي أو الشكاوى. لقد طُرحت حجة أوسع، ليست مقتصرة على الصين ولكنها تنطبق على نطاق أوسع على النظم غير الديموقراطية المعاصرة. تشير إلى أن هذه الأنظمة يمكن أن تتبنى عناصر "تشبه" العمليات الديموقراطية، مثل جمع آراء المواطنين، مما يخلق انطباعاً بوجود حوار مستمرّ وتعديلات بناءً على ما يقوله الناس في مداخلاتهم أو إبداء آرائهم. وبالتالي، يمكن أن تتعايش أفعال الشرطة وتهديد السجن القاسي مع أشكال أخرى مسموح بها من الاحتجاج والانتقاد. تجمع السياسة هنا بين القمع والحوار، واستجابة حازمة لأولئك الذين يتجاوزون حدوداً معيّنة، مع حساسية حكومية حادة للرأي العام؛ يمكن أن يوجد كل ذلك في ظل توازن دقيق. يُستخدم الإنترنت ليس فقط لأغراض الرصد والمراقبة، بل أيضاً لتجميع

---

١ كما قال Ross Andersen في مجلة *Atlantic*:

('The Panopticon is Already Here', February 2020 issue): 'Even in the U.S., a democracy with constitutionally enshrined human rights, Americans are struggling mightily to prevent the emergence of a public-private surveillance state. But at leastAmerica has political structures that stand some chance of resistance. In China, AI will be restrained only according to the party's needs.' www.theatlantic.com/magazine/archive/2020/09/china-ai-surveillance/614197/. Cf. Anna Mitchell and Larry Diamond, 'China's Surveillance State Should Scare Everyone', Atlantic, 2 February 2018, www.theatlantic.com/international/archive/201802//china-surveillance/552203/.

وجهات النظر المتنوعة، ويساعد بعد ذلك القيادة والبيروقراطيات في تعديل سياسات الدولة بحيث يُعتبر ذلك ممكناً ضمن الهدف الأكبر لدى الحزب، وهو الحفاظ على موافقة الجماهير.[١]

تحتاج فكرة اعتبار المجتمعات "بانوبتيكية" أو مراقَبة من كل الجهات، إلى تفحص إضافي. البانوبتيكون، كما رأينا، الذي أنشأه بنثام، كان سجناً يمكن رؤية جميع السجناء فيه، وذلك دون علمهم بالوقت المحدد الذي فيه يراقَبون. من وجهة نظر الحكومة، كانت هذه وسيلةً ذكيةً وفاعلةً لتنظيم الأمور كما قال بنثام؛ سيشعر السجناء أن الرّصد موجود دائماً، وسيشكل سلوكهم ويوفر على الدولة الأموال التي تنفقها من أجل حراستهم. أثر هذا الرصد المستمر أو الشعور المستمر بالمراقبة في تفكير السجناء، فأصبح شيئاً مترسخاً ربما في داخلهم. خلال القرن العشرين، طُوّرت وسائل جديدة لدراسة تأثير الاحتجاز والمراقبة على أجساد وعقول الأشخاص، وكيفية توافق السجون والمراقبة مع المجتمع والاقتصاد وعلم النفس الجماعي.

"مجمّع السجن الصناعي" هو مصطلح يُستخدم لوصف النظام أو الهيكلية التي تربط بين نظام السجون والمصالح الاقتصادية والسياسية في مجتمع معيّن، وخاصةً في حالة الولايات المتحدة. يشير هذا المصطلح إلى الفكرة التي تقول إن هناك تفاعلاً جامعاً بين نظام السجون والشركات الخاصة والصناعات التي تستفيد من نمو عدد السجناء واستمرار توسع نظام السجون. في الولايات المتحدة، كتب الصحافي إريك شلوسر Eric Schlosser عام ١٩٩٨ أن "مجمّع السجن الصناعي" ليس مجرد مجموعة من المصالح والمنظمات، بل هو أيضاً طريقة للتفكير.[٢] أصبح هذا المصطلح، الذي اكتُشف في السبعينيات، شهيراً في عقد التسعينيات من القرن الماضي، وهو مشابه لمصطلح "المجمّع الصناعي العسكري" الذي ذكره الرئيس أيزنهاور في خطاب وداعه في كانون الثاني/ يناير ١٩٦١. يُستخدم المصطلح هذا لوصف العلاقة الجامعة بين القطاع العسكري والصناعات والمصالح الاقتصادية في بعض الدول،

١ هذه الحجة مستعرضة جيداً من Bruce J. Dickson في كتابه:

The Party and the People: Chinese Politics in the 21st Century (Princeton, 2021).

2 Eric Schlosser, 'The Prison-Industrial Complex', *Atlantic*, December 1998, www.theatlantic.com/magazine/archive/1998/12/the-prison-industrial-complex/304669/.

خاصةً الولايات المتحدة. ويشير هذا المصطلح إلى الترابط والتفاعل بين الجانب العسكري من الدولة والقطاع الصناعي، بما في ذلك الشركات والصناعات التي تعمل في مجال الدفاع والأمان. في الحالتين، أي مجمّع السجن الصناعي والمجمّع الصناعي العسكري، يُستخدم مصطلح "مجمّع" كمصطلح غامض لأنه يعني شيئاً حقيقياً ومشكلةً في عقول الناس. قبل أن يصبح "مجمّع السجن الصناعي" شهيراً، كان هناك أيضاً مفهوم "المؤسسات الشاملة"، الذي تم التحدث عنه عندما ناقش الناس النظام التوتاليتاري بعد الحرب العالمية الثانية. أصبحت السجون العالية الأمان، مثل أسوأ المصحات النفسية، نقاطاً مرجعيةً هامةً في نقاشات الحرب الباردة حول الغرب والشرق، إذ أشار النقاد إلى أن المؤسسات الشاملة قد تكون موجودةً أيضاً إلى حد كبير دون أن تُلاحَظ، وذلك في مجتمع يظهر في العلن كمجتمع ليبرالي.

في الخمسينيات من القرن العشرين، أجرى غوفمان دراسةً حول "المؤسسة الشاملة"، فشرح كيف تم إنشاء الأماكن والأنظمة بحيث تمكنت السلطات من فصل مجموعة معيّنة من الأفراد ومسح الحدود بين حياتهم الشخصية والعامة. في هذه المؤسسات الشاملة، يمكن للسلطات أن تحجب هوية الفرد، وتقلل من فرص جودة حياته، وتزيل العوامل التي تجعل حياته ممتعةً خارج هذه المؤسسات. أشار غوفمان إلى أن المؤسسة الشاملة تهدف عمداً إلى تفكيك الحواجز بين المجتمع الداخلي والخارجي، وتشويش الخطوط بين العمل والاستجمام، وبين مكان العمل والمنزل، وهي تمارس السيطرة الكاملة والمراقبة على الأفراد المحددين كـ"سجناء". كان هذا النوع من التحليل الذي قام به غوفمان وغيره ذات صلة بالعديد من الأفراد في الغرب بعد الحرب الذين تم إلحاقهم بمؤسسات شاملة مثل هذه، ليس فقط في الشرق "التوتاليتاري" أو في الماضي في الغرب.

أظهر غوفمان أن الأسباب السياسية لاحتجاز الأشخاص في مثل هذه الأماكن تختلف كثيراً. يمكن أن تستند المؤسسة الشاملة إلى خطط كانت أكثر أو أقل شراً في نواياها. بعض هذه الخطط نشأت من أفكار تقديم الرعاية الاجتماعية بدلاً من مجرد التحكم في الأشخاص. كانت رداً على عالم لم تكن فيه العائلات قادرةً أو راغبةً في رعاية كبار السن أو الأشخاص الذين يعانون من أمراض نفسية شديدة. ووصف غوفمان بعض

المؤسسات الشاملة بأنها تهدف جزئياً إلى التعليم، أو على الأقل صُمّمت لتوفير تدريب فاعل وكثيف وسريع، مثل الثكنات العسكرية على سبيل المثال. من ناحية أخرى، تم بناء بعضها وإدارتها بالكامل بهدف فصل الأفراد وتجريدهم من إنسانيتهم؛ أولئك الأفراد الذين تعتبرهم السلطات الحاكمة أو من يمثلونها خطراً اجتماعياً أو منحرفين نفسياً.

تُستخدم هذه المؤسسات كأماكن للعقوبة والسيطرة الكاملة على الأشخاص داخلها. بعضها يهدف إلى ترويع الجميع وتكون تحذيراً، في حين بعضها الآخر يشبه مستودعات، حيث يتعين عليها الاحتفاظ بمجموعة صغيرة من الأشخاص محبوسة ومختبئة. وفقاً لغوفمان، تشترك هذه المؤسسات الشاملة في خاصية مشتركة، وهي تحويل الأشخاص إلى "سجناء"، إذ يُعرّف هؤلاء الأفراد فقط بمكان وجودهم في النظام، وغالباً ما تُختصر هويتهم برقم السجن أو صورة أو معلومات أساسية عنهم. وأكد غوفمان أن اللحظة التي يوضَع فيها شخص ما في حجز في واحدة من هذه المؤسسات، لا يفقد حريته في الخروج والعودة فحسب، بل أيضاً هويته الشخصية السابقة كفرد ذات علاقات متشعبة. إذ تقلص المؤسسة هويته إلى وظائف أساسية وتراقب أو تقيد في بعض الأحيان اتصاله بالعالم الخارجي، بمن في ذلك زملاءُ العمل السابقون والأصدقاء وأفراد العائلة وأي نظام دعم آخر له.[1] والهدف من كل ذلك، كما أشار غوفمان، هو التحكم في عقول الأفراد وأجسادهم، وكسر نشاطهم و"روحهم"، سواء عن طريق تصميم متعمد بعناية، أو ببساطة نتيجةً للهيكلية الصارمة والروتين الممل داخل هذه المؤسسات.

قال غوفمان إن داخل المؤسسة الشاملة، تُقلَّص هوية الفرد منهجياً، حتى إن لم تكن هناك نية متعمدة دائماً في ذلك. قدم هذه الفكرة في مقالة كتبها عام ١٩٥٧ ونُشرت لاحقاً في نصوص عدة مختلفة.[2] في هذا السياق المعزول، الذي يشبه إلى حد كبير الأنظمة التوتاليتارية، يتعرض المحتجَز دائماً لتسلسل هرمي حاد، في عالم تهيمن

---

١ من أجل الحصول على نظرة شاملة حول العلاج الطبي وعمليات التأسيس داخل المؤسسات للمعارضين السوفيات، يمكنك الرجوع إلى كتاب:

Reich, *State of Madness.*

2 Erving Goffman, *Asylums: Essays on the Social Situation of Mental Patients and Other Inmates* (Garden City, NY, 1961), p. 14.

عليه السلطة عمودياً. لا يوجد خصوصية مضمونة له، ولا مناطق محمية للاختيارات الشخصية المستقلة، ولا خيار للاحتماء غير المراقب بالكامل في مثل هذا المكان. يمكن أن تُنفَّذ جميع جوانب نشاط المحتجَز اليومي بوجود الآخرين (ما لم يتم وضعه في عزل عقابي، حيث يكون بصورة محتملة خاضعاً للمراقبة المستمرة)، ويُسيطَر على كل فرد في مثل هذا المكان بواسطة خطة منطقية مفترَضة "يُزعم أن تكون مصمَّمة لتحقيق الأهداف الرسمية للمؤسسة".

مراكز إعادة التربية للأويغور هي مثال واحد على مجموعة من المؤسسات التي تسعى إلى السيطرة الكاملة وإعادة تشكيل مجموعة معيّنة من السكان، ومع ذلك، ليست جميع المؤسسات الشاملة متشابهة بالطبع، وليست مقتصرة على منطقة واحدة في العالم. على سبيل المثال، ظهرت اكتشافات مروّعة في السنوات الأخيرة حول مرافق تصحيح ديني في الولايات المتحدة، والتي تتلقى تمويلاً حكومياً. تستضيف هذه المرافق مراهقين مضطربين في مواقع تعزلهم تقريباً بالكامل عن أسرهم وأصدقائهم لفترات طويلة، حيث يتم فرض أنظمة صارمة للمكافآت والعقوبات، وترويج شعارات مشتركة، وممارسة الاستبعاد والصمت تجاه أي عصيان مدرك.[1] مثال آخر هو برامج إعادة التربية القاسية التي نظمتها وفرضتها حكومة كندا على أطفال من مجتمعات الإنويت [شعب الإسكيمو] في مناطق القطب الشمالي، إذ نُقل هؤلاء الأطفال بالقوة بعيداً من مجتمعاتهم لتتم "إعادة صياغتهم" أو "استيعابهم". درس علماء مؤخراً ما حدث مع هذه الفئة من السكان وأشاروا إلى أن حجة غوفمان ما زالت سارية المفعول. كما أظهر، تهدف الأنظمة المؤسسية إلى محو الماضي من خلال منع السجناء من الوصول إلى ذكرياتهم العائلية والثقافية السابقة.[2]

---

1 Rachel Aviv, 'The Shadow Penal System for Struggling Kids', *New Yorker*, 11 October 2021, www.newyorker.com/magazine/2021/18/10/the-shadow-penal-system-for-struggling-kids.

2 Linda Mussell, 'Intergenerational Imprisonment: Resistance and Resilience in Indigenous Communities', *Journal of Law and Social Policy*, 33 (2020), 15–37.
راجع أيضاً التقرير النهائي من:
Truth and Reconciliation Commission of Canada (2015), irsi.ubc.ca/sites/default/files/inline-files/Executive_Summary_English_Web.pdf.

كانت حجة غوفمان تدور حول أن المؤسسات التي من المفترض أن تكون علاجيةً أو تعليميةً (أو حتى جزائية)، ليست أقل أهمية من الدول السياسية، إذ يمكن أن تتحول في أسوأ الحالات إلى مصانع لتدمير النفس. لا تسعى هذه المؤسسات للسيطرة على الأفراد فقط، بل أيضاً لإعادة تشكيل عقول الأشخاص الذين يُحبَسون. اعتبر غوفمان أن بعض المرافق الغربية للصحة النفسية والسجون قد تسعى ليس فقط للإمساك بالأفراد وإكراههم وترهيبهم وقمعهم، ولكن أيضاً لتشكيلهم وصقلهم. على سبيل المثال، يمكن للمصحة أن تتحول إلى مكان يُحجز فيه الأفراد ذات الأنفس المحطمة. سواء كنت في الغرب أو الشرق، إذا احتُجزت في جناح مغلق، فقد تتعرض لأسوأ أنواع إعادة التربية، حيث لا توجد مساءلة أو إشراف، ويمكن أن تتعرض لأي شيء تقريباً يؤذي جسدك وعقلك، بغض النظر عن نوع الحكومة الليبرالية التي تعمل خارج أسوار تلك المؤسسة المغلقة. إن تجارب سجناء جيش جمهورية أيرلندا (IRA) في مرافق الاحتجاز البريطانية في مرحلة الاضطرابات، وتعرضهم لِما أصبح لاحقاً معروفاً باسم "التحقيق المحسَّن" (أي التعذيب تحت اسم مختلف)، موجودة أيضاً في سجلات أخرى تاريخية تتناول موضوع غسيل الدماغ. حتى لو لم تكن بريطانيا دولة "توتاليتارية"، إلا أن هدف هذه المرافق هو تحطيم الدفاعات النفسية للأفراد المحتجَزين تحطيماً تاماً.[1]

في الستينيات من القرن الماضي وبعدها، انخرط العلماء الذين استلهموا من فلاسفة مشهورين مثل غوفمان وفوكو في دراسة مفصّلة لمؤسسات اجتماعية متنوعة، مثل العيادات والمدارس والمصحات والسجون. كان هدفهم فهم كيفية عمل القوة والمعرفة في هذه الأماكن وتأثير أفكار "الحقيقة" وأساليب التفكير خلال الحرب الباردة. أسفر هذا البحث عن نتائج هامة، إذ ساهم في ظهور حركة معارضة للطب النفسي كان لها تأثير كبير في الدول الغربية. في الاتحاد السوفياتي، خرج الناس في احتجاجات ضد ممارسات الطب النفسي ونشروا احتجاجاتهم في منشورات سرية. هناك رواية بعنوان *One Flew Over the Cuckoo's Nest* [**طيران فوق عش الوقواق**] للكاتب كين كيسي Ken Kesey، نُشرت في عام ١٩٦٢ وحُوّلت إلى فيلم أخرجه المهاجر

1 Streatfeild, *Brainwash.*

التشيكي ميلوش فورمان Miloš Forman في ١٩٧٥، عكست هذا الجو بوضوح. ألقت الرواية الضوء على المخاوف التي يمكن أن توجَد في مستشفى نفسي.[١] لاقت الرواية انتباهاً واسعاً وأثرت في ما نعرفه اليوم بـ"حركة الثقافة المعارضة"، إذ قدمت حجةً قوية فطُوّرت لاحقاً بصورة أكثر رسميةً ضمن حركة معارِضة للطب النفسي على نطاق واسع. بالإضافة إلى أعمال غوفمان وليانغ، كان لكتاب فوكو حول تاريخ الجنون، الذي نُشر لأول مرة في عام ١٩٦١، تأثيرٌ كبير أيضاً في ميدان معارضة الطب النفسي.[٢] سردَ الكتاب قصة كيفية مناقشة الطب النفسي وكم أفواه الأشخاص الذين اعتُبروا "مجانين".

أظهرت رواية كيسي كيف يمكن للأطباء والممرضين ومساعدي الرعاية القيام بما يرونه مناسباً في المؤسسة دون أن تترتب أية عواقب على ذلك. وصفت كيف يمكن للمصحات العقلية أن تتحول إلى عكس ما يُفترض عليها أن تكون، أي أماكن للسيطرة على الأفراد وتغييرهم أو جعلهم يختفون بدلاً من أن تكون مركزاً لحمايتهم ومساعدتهم، وبخاصة أولئك الذين يتم تجاهلهم أو يشكلون تحدياً أو تمرداً، مما وضعهم في حالة من "الموت الدائم". الشخصية الرئيسية في الرواية هي راندل باتريك ماكمورفي Randle Patrick McMurphy (أداها جاك نيكلسون Jack Nicholson أداءً رائعاً في الفيلم) الذي أُرسل إلى مؤسسة طب نفسي. كان ماكمورفي شخصيةً مشاغبةً ومتمردةً أميركية من أصل أيرلندي يصفه النظام بالشخص الذي لا يمكن تصحيحه. كان سابقاً جندياً في حرب كوريا وكان قد لاذ بالفرار من معسكر الأسرى. ظن ماكمورفي أنه ذهب للخيار الأسهل بتظاهره بالجنون وبالتالي تجنبه العمل في مزرعة السجن، لكن يتضح له بعد ذلك أن قراره كان كارثياً، إذ أُجريت له عملية جراحية في دماغه فتقلّص دوره في الحياة إلى حالة نباتية، فأصبح يفتقد للوعي ولأي نشاط ذهني.

---

١ فيلمٌ آخر مثير للجدل سعى لتسليط الضوء على قسوة المصحة العقلية وممارسات علم النفس يُقارن به فيلم "One Flew Over the Cuckoo's Nest" هو "Titicut Follies" [مأساة تيتيكت] الذي أُنتج في عام ١٩٦٧، من إخراج Frederick Wiseman، ويمكن للحصول على سياق أوسع الرجوع إلى كتاب:

Glen Gabbard and Krin Gabbard, *Psychiatry and the Cinema* (Washington, DC, 1987).

2 Michel Foucault, Folie et déraison: Histoire de la folie à l'âge classique (Paris, 1961).

هناك رسالة هامة في هذه الرواية تتعلق بكيفية قمع الناس في العصر الحديث ودور النظام النفسي (الطب النفسي) في ذلك. أراد الكاتب كيسي أن يظهر بسهولة كيف يمكن للأشخاص خارج المستشفى النفسي أيضاً أن يُقيَّدوا في حياتهم. يمكن لأولئك الذين يعملون في المؤسسة العقلية، مثل الموظفين الذين "يعالِجون" ماكمورفي وأصدقاءه، أن يكونوا إما شديدين ومستمتعين بإلحاق الأذى، وإما مجرد موظفين بيروقراطيين يقومون بأعمالهم بصورة روتينية دون اهتمام. إنهم يعملون وفقاً للقوانين واللوائح ولا يفكّرون باستقلالية. يقدمون "الرعاية"، ولكن في بعض الأحيان يمكن أن تكون هذه الرعاية غير أخلاقية للغاية في العالم الغربي. يمكن أن يحاولوا إيذاء الناس أو تدميرهم دون قتلهم. بالإضافة إلى ذلك، تشير الرواية إلى ضرورة مراعاة الارتباط بين المراحل الزمنية السابقة والحالية للتوسع النفوذي. يجب علينا فحص السياسات المتبعة في مثل هذه المؤسسة في الوقت الحالي ووضعها في سياق تاريخي يتصل بالاستعمار والسيطرة والقمع الذي لعب دوراً هاماً في تشكيل الولايات المتحدة. إنّ عدداً من الموظفين الذين يعملون في المؤسسة هم من السود. أحد المرضى، الذي يقضي وقتاً في المؤسسة ويختار عدم التحدّث هو من السكان الأصليين الأميركيين. تلمّح الرواية بصورة غير مباشرة إلى السياق التاريخي، وواقع العبودية الوحشية، والعمليات العنيفة التي كانت ضروريةً لتوسيع وجود السكان الاستيطانيين نحو الحدود الغربية. تصف الرواية تاريخاً شهد على سلب الناس الأصليين مكانهم لتجعل هذه الأراضي تبدو كأنها جديدة وخالية، وتلقي الضوء على تاريخ شهد تدمير نمط حياة وقمعاً عنيفاً للمقاومة واحتجازاً صارماً للسكان الأميركيين الأصليين.

قدّم كيسي الرواية كحكاية تحذيرية عن مؤسسة شاملة وشجّعنا على التفكير في كيفية تعامل الحكومة مع الأشخاص المتمردين، وذلك من خلال الاعتماد على التعاون والإنكار والخداع والعنف من أجل السيطرة عليهم لضمان السلام. ربما تكون الرواية أيضاً نوعاً من القصة الأخلاقية، حيث تحث القراء على طرح السؤال في عقولهم: إلى أي مدى لديهم حرية حقيقية لاختيار مساراتهم الخاصة وامتلاك أفكارهم الخاصة وممارسة استقلالهم؟

في هذه القصص، كانت المؤسسات غالباً ما تُرى كصور مصغرة عن المجتمع أو

تُستخدم كأمثلة. كُتب عنها قصص عدة تظهر كيف عومل المرضى والسجناء فيها باسم الإصلاح أو العلاج. خلال عصر الفيكتوريين، كان هناك العديد من الروايات، مثل *Woman in White* [**ذات الرداء الأبيض**] للكاتب الإنكليزي ويلكي كولينز Wilkie Collins (١٨٥٩)، التي تناولت الاحتجاز الظالم في المصحات ودراما الأشخاص العاديين الذين تم تجاهلهم دون سبب واضح، ومع ذلك، تغيّرت الأمور في مرحلة "غسيل الدماغ"، حيث استُخدمت علاجات مثل العلاج الكهربائي (ECT) وجراحة الدماغ والأدوية الحديثة للسيطرة على المرضى وتخدير المواطنين، وكل ذلك تحت غطاء إنساني جديد يهدف إلى "تسكين" المرضى.[١] كانت جراحة الدماغ دائماً إجراءً مثيراً للجدل رغم الترويج الكبير لها من بعض الأطباء بعد الحرب، خاصةً من قِبل الجراح الأميركي الجريء الذي يُدعى والتر فريمان Walter Freeman. أصبح استخدامها أقل شيوعاً بعد الستينيات. تم تجاوزها من حيث النطاق من خلال زيادة استخدام الأدوية، مثل كلوربرومازين (Chlorpromazine)، التي قُدّمت بديلاً عن العمليات الجراحية لعلاج الأمراض العقلية الشديدة، وقد أصبحت متاحةً في السوق في عام ١٩٥٤.[٢]

في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، شهدنا الكثير من الانتقادات الشعبية الموجهة نحو المصحات العقلية، بوصفها أماكن لـ"العقل الأسير"، أو رموزاً تمثل مجتمعاً أوسع مغسول دماغياً من قوى خارجية. كتّاب مثل لاينغ طرحوا السؤال: ماذا لو كانت سلوكيات الأشخاص الذين يُعتبرون مرضى نفسيين هي رد فعل على الجنون والفوضى اللذين يجدونهما في العالم الخارجي، حتى إن بدت هذه السلوكيات أحياناً مضطربة بصورة مدمّرة للذات؟ في الوقت نفسه، أعاد بعض الكتّاب المدافعين عن فكرة المساواة بين

---

١ مثال قوي عن هذا السيناريو في عالم Hollywood هو فيلم:

Suddenly, Last Summer (1959).

يستند الفيلم إلى مسرحية لـTennessee Williams ويضم أداءً متميزاً من Elizabeth Taylor وKatharine Hepburn وMontgomery Clift. يُظهر الفيلم حالة تلاعب فرد بطبيب جراح يبحث عن تمويل لأبحاثه. يُقنع هذا الفردُ المخادعُ الجرّاحَ بإجراء عملية في الدماغ لامرأة شابة وضعيفة، هي قريبة من المخادع، والهدف محو ذكرياتها 'الخطِرة'.

2 Gretchen Diefenbach et al., 'Portrayal of Lobotomy in the Popular Press: 1935–1960', *Journal of the History of the Neurosciences*, 8:1 (1999), 60–69, p. 67.

الرجل والمرأة النظر في أدب الهستيريا في العصور الفيكتورية واستفسروا إذا كان بإمكان تفسير هؤلاء النساء "المضطربات" على أنهن متمردات ضد مجتمع يهيمن عليه الرجال. رأوا في المرأة "المجنونة في العلّيّة" شخصاً يرفض أن يعيش بالجسد والروح واللاوعي في عالم لا يُطاق ومكبّل بالقمع. أصبحت المصحات العقلية والسجون والعيادات، بالإضافة إلى المهن النفسية التي دعمتها، موضوعات لاستكشاف أكاديمي واحتجاجات عملية واسعة النطاق. كيت ميليت Kate Millett، مؤلفة كتاب *Sexual Politic* [السياسة الجنسية] الذي كان مؤثراً، واجهت مشكلات صحية نفسية في سبعينيات القرن العشرين ووُضعت في مصح نفسي في الولايات المتحدة بصورة قسرية. لاحقاً، وصفت تجاربها بألفاظ مؤلمة، مقارنةً إياها بعش الوقواق.

> كم هو ظالم وسخيف معاقبة الأفراد بهذه الطريقة، من خلال النفي والخوف، وخلق شبكة من الرعب تكونت بقوة وأصبحت مثل أقفال غرفة خلفية وقضبانها. يبدو كأننا جميعاً في طريقنا إلى السجن، ونحن ندرك ذلك جيداً. علينا أن نكون حذرين طوال حياتنا. يجب أن نتصرف بشكل صحيح بسبب هذا النظام القمعي الذي يمثل وسيلةً للسيطرة الاجتماعية المعقدة. كان تهديد السجن فاعلاً في السيطرة على السكان العامّين، مماثلاً لمراكز الاحتجاز في الأنظمة الاستبدادية. وتظل صورة المصح العقلي محفورةً في عقول الناس طوال حياتهم.[١]

خلال العقد نفسه، زادت المخاوف أكثر حيال ما قامت به الحكومة السوفياتية لتهديد المعارضين السياسيين والسيطرة عليهم في مستشفياتها النفسية.[٢] كان هذا موضوع مناقشة في وسائل الإعلام، بما في ذلك التلفزيون والصحف، فضلاً عن

1 Kate Millett, *The Loony-Bin Trip* (New York, 1990), pp. 314–15.
قارن ما جاءت به Millett مع ما قدمته Barbara Taylor من سرد شخصي لفترة إقامتها في مستشفى الأمراض العقلية وتلقّيها العلاج النفسي هناك، وذلك في كتاب:
The Last Asylum: A Memoir of Madness in Our Times (London, 2014).
أظهرت Taylor تبايناً في المؤسسات الطبية وأطبائها النفسيين، وكذلك في ظروف المرضى واحتياجاتهم وأساليب العلاج.

2 Reich, *State of Madness.*

الكونغرس الأميركي. في النصف الثاني من القرن العشرين، كان هناك أيضاً اهتمام كبير في الغرب بقصص حقيقية عن أشخاص نجوا في ظروف صعبة للغاية في العيادات والسجون والمعسكرات. ظهرت العديد من الشهادات حول نظام المعسكرات النازية، بما يتضمن كتابات بريمو ليفي Primo Levi، وحول نظام غولاغ، وثقها سولجينيتسين وغينزبورغ وغيرهما، مما ألقى الضوء على واقع العقوبات والنفي تحت حكم ستالين. من المهم أن نلاحظ أن نجاة بريمو ليفي من أوشفيتز كانت مؤقتة. فبعد مرور أربعة عقود على إطلاق سراحه وعودته إلى إيطاليا من أوشفيتز في العام ١٩٨٧، سقطَ على أسفل درج بنايته في تورينو وكسرَ جمجمة رأسه، مما أثار تكهنات حول ما إذا كان سقوطه القاتل حادثاً أم انتحاراً. لكن ما لم يكن محل شك هو أن ليفي كان يعاني من اكتئاب شديد في ذلك الوقت.[1]

في الحالات النادرة، يتمكن بعض الأفراد الذين أمضوا سنوات طويلة في معسكرات الاعتقال والسجون ومؤسسات مشابهة من "الحفاظ" على استقلاليتهم النفسية وكرامتهم وعلى التفكير النقدي واليقظة. يظلون مخلصين لأنفسهم بطريقة ما حتى بعد أن يمروا بسنوات، أو حتى عقود، خلف القضبان. بالطبيعة، تثير مثل هذه الحالات إعجابنا لأنها تبدو عملياً كمعجزة وتبرز كاستثناءات عن القاعدة المعتادة لمعاناة السجناء الطويلة الأجل من أضرار لا يمكن التعويض عنها. مثال واحد مشهور على الواقع الذي حافظت فيه العقلانية على ثباتها في نظام رعاية قاسٍ هو نلسون مانديلا Nelson Mandela. أُسِر هذا الرجل في جنوب أفريقيا بين عامَي ١٩٦٢ و١٩٩٠، ووُجّهت تهمة المؤامرة إليه للإطاحة بنظام الفصل العنصري، ومع ذلك، ظهر، بوضوح كما بدا قبل مرحلة سجنه، شخصاً لا يمكن كسر عزيمته ومستعداً للتفاوض دون التنازل عن مبادئه، ليتولى بعد ذلك رئاسة الدولة الجديدة. في سيرته الذاتية *Long Walk to Freedom* [**رحلتي الطويلة من أجل الحرية**]، شارك مانديلا ملاحظات ذكية وعميقة بصورة لافتة للنظر عن الموظفين في السجن والمضطهِدين، فضلاً عن السجناء وعدد لا يُحصى من الضحايا الآخرين لهذا النظام. حاول أن يتجنب

1 Diego Gambetta, 'Primo Levi's Last Moments', *Boston Review*, 9 July 2012, bostonreview.net/articles/diego- gambetta-primo-levi-last-moments/.

تجريح حراسه، قائلاً: "قد أرى لمعةً من الإنسانية في أحد الحراس، ربما فقط للحظة، لكنها كافية لتطمئنني وتبقيني مستمراً". اعتقد مانديلا أنّ حرّاسه كانوا أيضاً تحت تأثير أشكال مختلفة من التحكّم العقلي، فكانوا، بطريقتهم الخاصة، أسرى. خلص إلى أن الظالمين "يجب أن يُحرَّروا بالقدر نفسه الذي يجب فيه تحرير المظلومين"، وأضاف: "الرجل الذي يسلب حرية رجل آخر هو أسير للكراهية. إنه محجوز وراء قضبان العصبية والأفق الضيق". لاحظ مانديلا كيف تُسلَب الإنسانية من المظلوم والظالم على حد سواء.[1] إن هذه الرؤية مشابهة للملاحظات التي قدمها الطبيب النفسي والكاتب والناشط المضاد للاستعمار فرانتس فانون Frantz Fanon، الذي أكد كيف تتشابك عقليات المستعمِرين والمستعمَرين. أما برايان كينان الذي احتجزته رهينةً جماعةٌ إسلامية في لبنان وعذبته وضربته، فوصل إلى استنتاجات مشابهة استناداً إلى تجربته الشخصية ومراقبته للأمور، إذ أشار إلى تأثير الاختطاف المدمر على الحالة النفسية للسجناء وإلى السجن النفسي العميق داخل معتقدات الحراس أو السجانين.[2]

أحياناً يُحبَط أملنا في الاحتفاظ بقادة يخرجون من السجون، بطوليين غير مدنسين وغير مأسورين، ومحافظين على نقائهم. يسلك هؤلاء القادة، الذين كانوا مصدر إعجابنا سابقاً بفضل شجاعتهم ونزاهتهم، مساراً مختلفاً مخيباً للآمال. شعر العديد من الأشخاص بهذا الإحباط تجاه ويني مانديلا Winnie Mandela التي كانت هي نفسها ضحيةً للاضطهاد والمضايقات لمدة طويلة. في بعض الأحيان، نجد أنفسنا مضطرين لفهم التراثات المختلطة لدى الأشخاص الذين أُعجبنا بهم، والخيبات والجوانب الجيدة والسيئة، وربما الأهداف القابلة للإعجاب وكذلك التواطؤ والتسويات والقسوة. ببساطة، نادراً ما تتوافق هذه القصص مع الصور الأسطورية والمثلى. عندما "يسقط" البطل، قد ننقل مشاعر الخجل والذنب إلى صورته المثالية المحطمة. إننا نشجع على تمجيد السجناء السياسيين السابقين، ولكن نشعر بالخيبة عندما لا يستوفون توقعاتنا العالية. على سبيل المثال، كانت أون سان سو تشي Aung San Suu Kyi، في وقت ما، تُسمّى وارثاً حقيقياً لرؤية غاندي

1 Nelson Mandela, *Long Walk to Freedom* (London, 2004), p. 751.

2 Keenan, *An Evil Cradling*, p. 294.

Gandhi للسياسة غير العنيفة من قِبل مجلة *Time* في عام ١٩٩٩. لكن أفعالها خلال العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين أدت إلى خيبة أمل كبيرة وإعادة تقييم مؤلمة لمواقفها الحديثة المبنية على سلوكيات جديدة لا تتفق مع صورتها الإيجابية في السابق. كثير ممّن كانوا يعتبرون أنفسهم معجبين بالليبرالية السابقة تراجعوا في تأييدهم لها بسبب ترددها المروع، وهي تشغل منصباً مرموقاً، في إدانة الاضطهاد المنهجي لشعب روهينغيا، أو حتى في وضع حد له. طالب البعض بإسقاط عنها الأوسمة الدولية السابقة التي حصلت عليها، وبعد حملة عسكرية جديدة في ميانمار في عام ٢٠٢١، وجدت نفسها مرةً أخرى معتقَلة.

في الخمسينيات من القرن الماضي، كما رأينا سابقاً، مناقشات عديدة حول موضوع غسيل الدماغ تركزت على ما يحدث للسجناء؛ بعضهم كانوا محتجزين بمفردهم، وآخرون كانوا بين زملائهم في السجن حيث كُسرت إرادتهم نفسياً، ثم عُلّموا من جديد. كما أظهرت جليّاً شهادة الجندي الأميركي المحتجز كلارنس آدمز الذي عاش تجربة الأسر خلال حرب كوريا، لم يظل الذين اعتُبروا ضحايا لغسيل الدماغ مثله صامتين، بل ردوا بتحديات منطقية تجاه راحة الغرب. لم يكن كل السجناء الذين يُفترض أنهم كانوا تحت تأثير التحكم العقلي مثل آدمز الداعم لماو أو قضيته الشيوعية، على استعداد لقبول التناقض الواضح، الذي قدمته وسائل الإعلام والسياسيون والعديد من خبراء الحرب الباردة المنحازون للغرب، بين المواطنين الأحرار في المجتمعات الليبرالية الغربية ومصير تلك "العقول الأسيرة"، ضحايا الاستبداد في الشرق. بالنسبة إلى آدمز وعدد من الأشخاص الآخرين، كان من الضروري التأكيد على واقع الاضطهاد العرقي اليومي في الولايات المتحدة أيضاً، فالأمور الشنيعة لا تقتصر على الشرق بالنسبة إليهم؛ لم يتقبلوا خطاب الحرب الباردة حول الحرية في الولايات المتحدة، بل بدلاً من ذلك سلطوا الضوء على نظام العنصرية الذي استمر بقوة لأكثر من قرن بعد انتهاء الحرب الأهلية فيها.

هذه التحديات البلاغية المناقضة للقصص التي تحتفي بالولايات المتحدة كـ"أرض الحرية" بعد الحرب كانت جزءاً من تقليد طويل. بعضها أعاد صدى اللغة المقنعة

لموردیكاي وايت جونسون Mordecai Wyatt Johnson، الأكاديمي المسيحي وأول رئيس أميركي أفريقي لجامعة هوارد من عام ١٩٢٦ إلى ١٩٦٠. في محاضرة ألقاها في جامعة هارفرد عام ١٩٢٢، ناقش جونسون تحطم آمال السكان السود و"انتشار فقدان الثقة" في قدرة الحكومة الاتحادية في الولايات المتحدة على تحقيق وعودها لهم. أشار إلى تجارب الجنود السود المريرة الذين عادوا من الحرب ليجدوا عودة العنصرية القديمة في هذه البلاد، وحتى عودة جماعة كو كلوكس كلان Ku Klux Klan لتعزيز دورها في تشجيع العنصرية واستخدام العنف ضد الأفراد السود ومجتمعات الأقليات الأخرى.[١] بعد عام ١٩٤٥، سعى آخرون إلى إعادة تفسير واستخلاص استنتاجات تتماشى مع ناشطي مكافحة العبودية في القرن التاسع عشر، الذين انتقدوا مزاعم مبالغاً فيها تقول إن الولايات المتحدة هي معقل للحرية الإنسانية. يمكن أن يتذكروا كلمات العبد السابق والكاتب والناشط فريدريك دوغلاس Frederick Douglass الذي ألقى خطاباً لجمعية مكافحة العبودية في روتشستر، نيويورك، في عام ١٨٥٢، حيث أعلن التالي:

> انطلقوا حيث شئتم، ابحثوا حيث تشاؤون، تجوّلوا في جميع الممالك والديكتاتوريات في العالم القديم، سافروا في جنوب أميركا، استقصوا كل سوء، وعندما تفعلون كل ذلك، قارنوا ما اكتشفتموه من حقائق مع ممارسات هذا الوطن اليومية، وبالتالي، ستتفقون معي على أن لا أحد في العالم يتفوق على أميركا في الوحشية المثيرة والنفاق العلني الواضح.[٢]

في الواقع، بعد الحرب العالمية الثانية، نشأت في مراكز النشاط الفكري للأميركيين من أصول أفريقية المزدهرة، مثل جامعة هوارد، حيث شغل جونسون منصب الرئيس، مجموعةٌ واسعة من اتجاهات البحث الجديدة والنقاد التي كانت تهدف إلى إثارة المطالب بتحقيق تغيير جذري في الولايات المتحدة. تأثرت هذه التوجهات بآراء دينية وعلمانية متنوعة، وتضمنت تحقيقات متنوعة في ما يتعلق بالخداع الذاتي في أميركا

1 Wyatt Mordecai Johnson, 'The Faith of the American Negro' [1922], www.blackpast.org/african-american-history/1922-wyatt-mordecai-johnson-faith-american-negro/.

2 Frederic Douglass, speech, 5 July 1852, in *Black Political Thought: From David Walker to the Present*, edited by Sherrow O. Pinder (Cambridge, 2020), pp. 40–44 (p. 44).

والعنصرية والإمبريالية. وقد ناقش هؤلاء الناشطون المسألة المتعلقة بالسجون في الولايات المتحدة. فعلى الرغم من أنها كانت في كثير من الأحيان صعبةً وغير عادلة، وجد بعض الرجال والنساء وسائلَ للتعلم والاحتجاج والكتابة داخلها، واستخدموا السجون وسيلةً لتقديم أمثلة حية على نضالهم المستمر من أجل حقوقهم.

تماماً كما أعلن دوغلاس أن أميركا هي جوهر الهمجية، اعتنق جورج جاكسون George Jackson، سجين أسود وشخصية ذات مبادئ وصريحة، الرأيَ نفسه قرناً لاحقاً. خلال قضائه حكماً غير محدد في الستينيات، أدلى جاكسون، استناداً إلى تجربته مع التمييز العنصري، بادعاء أن السكان الأميركيين قد تم "غسل أدمغتهم" ليصدقوا الوهم القائل إن جميع مواطنيهم أحرار. في تحليلاته السياسية الواضحة والمثيرة للجدل، التي نُشرت في رسائل من السجن، وكثير منها موجّه لوالديه، سعى إلى توعية جميع أولئك الذين ما زالوا يعيشون في وهم بشأن طبيعة الدولة الأميركية داعياً إلى مقاومة فاعلة وثورة في التفكير. رفض أي فكرة تشير إلى أن الأشخاص من ذوي البشرة الداكنة قد تذوقوا حريتهم في الولايات المتحدة في الماضي أو يمكنهم فعل ذلك ولو مرةً واحدة في المستقبل في ظل النظام الحالي. كان يعتقد أن تقديم الدولة لنفسها كبلد الحريات والمساواة هو مبني على كذبة ضخمة، وكان يشتبه في أن الأشخاص الذين يعيشون تحت حكم الشيوعية يتمتعون في أميركا بفرص وحريات أكبر بكثير مما كان لدى أي شخص أسود في بلاده.

في ستينيات القرن الماضي شهدنا مرحلةً من الاحتجاجات من أجل حقوق الإنسان في جميع أنحاء الولايات المتحدة. لم يكن الرأي العام منقسماً فقط بين من "يؤيدون" هذه التحولات ومن "يعارضونها"، بل كانت هناك أيضاً انقسامات بين الذين يدعون إلى إصلاح معتدل وبين الذين ينادون بفتنة وثورة صريحة. قادة سود مثل مالكوم إكس Malcolm X كانوا يمثلون وجهات نظر معيّنة، مؤكدين أن الدولة عمدت إلى تعريض السود لحالة من الضعف الدائم جسدياً وأخلاقياً ونفسياً. كان مالكوم إكس مصمماً على كشف فكرة الحرية الزائفة المرتبطة بالولايات المتحدة التي قدمت نفسها كوعاء رائع يحتوي على تنوع فئات وعناصر الناس فيه.

في عام ١٩٦٢، أعرب الروائي والكاتب جيمس بالدوين James Baldwin عن

أنه "من غير الضروري أن تكون شخصاً ذا حساسية فائقة حتى تصل إلى حد التعب الشديد بسبب الإهانات المتكررة والأخطار التي تتعرض لها يومياً أثناء العمل".[١] بغض النظر عن الخطط السياسية التي قد تنشأ أو الخيارات الشخصية التي يمكن أن يقوم بها الأفراد (كما راجعنا في حالة بالدوين مع منفاه الذاتي في باريس)، كثير من الكتّاب والناشطين اتفقوا على أن المهمة الأولى هي تحليل واقع الحياة اليومي لغسيل الدماغ والتأثير الذهني الذي يتعرض له جميع سكان البلاد. بعد عقد من الزمن، تحدثت الشاعرة الأميركية الأفريقية غويندولين بروكس Gwendolyn Brooks عن استيقاظها السياسي، إذ وصفت مسيرتها بدءاً من رفضها الغاضب لبشرتها الداكنة وذلك بسبب تأثير بعض الأشخاص المغسولين دماغياً عليها، إلى شعورها بالفخر بلون بشرتها الداكنة، كما لو كانت ملكةً على عرش جديد تحت شمس ثقافة سوداء متجددة. شعرت أنها الآن مستعدة لاعتناق مستوى جديد من الوعي.[٢]

توني موريسون Toni Morrison، التي تخرجت من جامعة هوارد، عبرت في وقت لاحق من زاوية مختلفة عن العنصرية غير المعلَن عنها ضمن الفكرة المفبركة الكاذبة للوحدة الأميركية. شددت على كيف أن المهاجرين الجدد إلى الولايات المتحدة في القرنين التاسع عشر والعشرين كانوا مدعوين للمشاركة، وفي الوقت نفسه، للتلاحم، في إحساسهم بعدم الانتماء إلى فئة السود:

> لإنشاء هوية أميركية، كان من الضروري جعل الناس من مختلف الطبقات والبلدان واللغات يشعرون بالقرب بعضهم من بعض. وبالتالي، كيف يمكن لفلاح إيطالي أن يتحدث مع رجل أعمال ألماني، أو كيف يمكن لفلاح أيرلندي أن يتواصل مع شخص لاتفي؟ بصدق، كانوا غالباً ما يشكلون مجموعات منفصلة، ولكن الشيء الوحيد الذي توحدوا حوله وجمعهم هو رفضهم لأن يكونوا جزءاً من السود. لذا، ليس من المفاجئ أن تكون

1 James Baldwin, 'Letter from a Region in My Mind', first published in the *New Yorker*, 9 November 1962, reprinted in *The Fire Next Time* [1963] (New York, 1993).

2 Gwendolyn Brooks, *Report from Part One* (Detroit, 1972), p. 86. Cf. Richard Flyn, '"The Kindergarten of New Consciousness": Gwendolyn Brooks and the Social Construction of Childhood', *African American Review*, 34:3 (2000), 483–99, p. 483.

> الكلمة الثانية التي يتعلمها كل مهاجر عند وصوله إلى البلاد هي "النيغرو". بهذه الطريقة، يتضامنون ويتجمعون تحت راية واحدة؛ هذه هي السمة المميزة لهم. هذا هو الأمر الهام والأهم.[١]

في ستينيات القرن الماضي، كان جورج جاكسون سجيناً أميركياً أسود وماركسياً هاوياً، وقد رفض الاعتقادات السائدة لدى الأميركيين بأن الروس أو الصينيين كانوا أكثر احتجازاً عقلياً من الأميركيين، وقد أُعجب بتعاليم ماو واحتفى بكل ما حققه الحزب الشيوعي لمصلحة الشعب الصيني، واعتبر أن ليس فقط الأميركيين من أصل أفريقي بل أيضاً البيض يتأثرون بغسيل الدماغ وبالتالي يقبلون الفكرة الزائفة القائلة إن النظام في الولايات المتحدة ليس عنصرياً بوليسياً. في عام ١٩٦١، سُجن جورج جاكسون عندما كان عمره عشرين عاماً بتهمة سرقة محطة وقود بقوة السلاح، وحُكم عليه بالسجن من سنة واحدة إلى مدى الحياة. نتيجةً للنزاعات المتعددة وانتهاكات القواعد في السجن، ظل مسجوناً حتى قُتل أثناء محاولة هروب في عام ١٩٧١. بعد مواجهته مع الشرطة وتقديمه للقانون وهو في سنّ الشباب، قضى جاكسون وقتاً في "مرفق إصلاحي" للشباب. على مدى عقد كامل من حياته البالغة، تحمّل معاناة السجن ومراحل متكررة من العزل في زنزانة انفرادية.

نظام السجون في الولايات المتحدة قدم لجاكسون وللكثيرين ما كان غوفمان يعترف به كـ"مؤسسة شاملة"، وهو نظام يعزز مجتمعاً عنصرياً. من المهم أن نلاحظ أنه في الوقت الحالي في الولايات المتحدة، هناك أكثر من مليونَي مسجون ونحو ٧٠،٠٠٠ شخص يخضعون للعزل الانفرادي. يشكل الأميركيون من أصل أفريقي نحو ١٣% من سكان الولايات المتحدة، ومع ذلك، فإنهم يمثلون أكثر من ٣٥% من سكان السجون الوطنية، وتكون المعدلات أعلى بكثير نسبةً لأولئك الذين يقضون أحكام السجن مدى الحياة أو ينتظرون تنفيذ "أحكام الإعدام".[٢]

1 Toni Morrison, *The Last Interview: And Other Conversations* (New York, 2020), p. 57.

2 Alison Walsh, 'The criminal justice system is riddled with racial disparities', *Prison Policy Initiative*, 15 August 2016, www.prisonpolicy.org/blog/2016/08/15/.

راجع أيضاً التالي:

solitarywatch.org/201904/01//how-many-people-are-in-solitary-today/.

رسائل السجن التي كتبها جاكسون، ونُشرت لأول مرة تحت عنوان *Soledad Brother* [**رسائل السجن – إخوة سوليداد**] في عام ١٩٧٠، أصبحت بسرعة حديث العالم الأدبي ومصدراً للجدل الكبير بسبب وجهة نظرها الثورية غير المترددة. قدمت هذه الرسائل سرداً دقيقاً لتجارب السجناء السود، فوصفت بوضوح كيف كانوا دائماً تحت المراقبة، وتحت تهديد السلاح الناري من قِبل السلطات السجنية. قدم جاكسون سرداً لا يُنسى عن التهديدات المستمرة والعنف، وعن دور العصابات في السجون، وكيف كانت الجماعات البيضاء العنصرية بين السجناء تحصل على دعم الحراس ومساعدتهم، وعن كيف يمكن لهؤلاء الحراس حتى أن يشجعوا السجناء البيض على معاملة السجناء السود بسوء عبر رمي القمامة والفضلات عليهم وأن يتجاهلوا السكاكين التي كان في متناول السجناء البيض. ألقت الرسائل الضوء على التهديد المستمر بالضرب أو الموت، والروتين اليومي القاسي، والبيئة الجسدية العنيفة التي تواجه السجناء الجدد، والروائح الكريهة، والضجيج والبرودة والطعام الذي إما يتم الامتناع عن تقديمه وإما تلويثه. باختصار، نفذت سلطات السجن هجوماً على العقل وكل الحواس الخمس. كذلك شرح جاكسون كيف صُمّم النظام بأكمله لتدمير "العمليات المنطقية في العقل"، وتشويش الأفكار وترويع الأفراد إلى أقصى درجة ممكنة.[1] على الرغم من اعتقاله في مثل هذا النظام، استطاع جاكسون الحفاظ على قدرته على المقاومة، وقد قدم تحليلاً سياسياً فريداً وصريحاً لِما اعتبره غسيلَ دماغ شاملاً في أميركا.

استغل جاكسون الفرصة داخل السجن لتعليم نفسه وتطوير تحليله السياسي الراسخ. أصبح عضواً في الفهود السود وأعاد صياغة وصيته لتخصيص عوائد كتاباته لدعم قضيتهم. كانت وسيلة القراءة والكتابة متاحة له بعض الشيء، وكان بإمكانه من حين إلى آخر التواصل مع أصدقائه وعائلته في الخارج، لذا فالنظام السجني لم يكن مشابهاً للمؤسسات الشاملة كما هو معروف بالحد الأقصى من سوء المعاملة. ببساطة، ظل لدى جاكسون فرصة لاستخدام ذكائه والعمل على الحفاظ على ذاكرته،

---

1 George Jackson, *Soledad Brother: The Prison Letters of George Jackson* (New York, 1970), p. 21.

انظر أيضاً إلى كتاب George Jackson التالي:

Blood in My Eye (Baltimore, 1996).

وكان يستفيد من مجال يسمح له بدعم نشاطاته الفكرية الخاصة، على الرغم من القيود المفروضة من البيئة السجنية.[1] شارك في مناظرات وقرأ موادَّ متنوعة، بما في ذلك قصصٌ ومقالات وقصائدُ تتعامل مع التحديات التي يواجهها الأميركيون من أصول أفريقية، مثل تلك التي كتبها ريتشارد رايت Richard Wright. بالإضافة إلى ذلك، استكشف أفكار النفساني اليساري فيلهلم رايش Wilhelm Reich، بالإضافة إلى كتابات ماركس وإنجلز ولينين وماو. من خلال دراسته الذاتية، وصل إلى استنتاجات صارمة تتوافق مع تجربته الشخصية في السجن، وفقاً لجاكسون، كانت الحكومة الأميركية تسعى إلى تحقيق السيطرة الكاملة، من خلال الرصد المستمر والقمع والعنف، وهو مفهوم كان قد ربطه النقاد الليبراليون سابقاً بالأنظمة السوفياتية والصينية الماوية، وفي ما بعد، خلص إلى أنه إذا تم تجنيد الأميركيين من أصول أفريقية بجدية ليصبحوا راديكاليين في الدفاع عن حقوقهم، فلن يبقى لديهم خيارٌ سوى الانتفاضة والمقاومة ضد الظلم الذي يعانون منه.

خلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، شهدنا على جانبي المحيط الأطلسي مشاعر قويةً ومناقشات حول النظام الديموقراطي الليبرالي و"شمولية" مؤسساته، وليس فقط أجزاء معيّنة منه مثل السجون. اعتقد بعض الأشخاص، بمن في ذلك المحتجون الغاضبون والنقاد البيض والسود، أنه من الضروري أن "تدافع الأقليات عن نفسها" باستخدام الأسلحة؛ واعتقد آخرون أن تنفيذ أعمال مسلحة ضد الحكومة كان السبيل الوحيد للهروب من عقلية الأسر الجماعي وغسيل الدماغ؛ كان هدفهم أن يوقظوا السكان العامين في الديموقراطيات الغربية، والذين يُشار إليهم في كثير من الأحيان باسم "الجماهير". لقد أثارت هذه الخيارات موجةً من النقاشات الواسعة بين مجموعات أوسع من الطلاب والعمال والناشطين، ومن هنا نشأت أسئلة عدة: هل كان هؤلاء "الثوار"، الذين يجسدون روح الثورة والتقدم، يستفيدون من تفكير مستنير وفهم صحيح، أم كانوا، على العكس من ذلك، أمثلةً على أفراد تأثروا سلباً بالتفكير اليساري المتطرف حتى أصبحوا تحت تأثيره بصورة مفرطة، ووصلوا إلى مرحلة الجنون،

١ لهذا السياق انظر إلى:
Eric Cummins, *The Rise and Fall of California's Radical Prison Movement* (Stanford, 1994).

واتخذوا مساراً سياسياً معارضاً للنظام السياسي ومدمراً وغيرَ فاعل؟

المعجَبون رأوهم كأرواح حرة؛ بينما اعتبر الخصوم على أفضل تقدير أنهم ممتلئون بأفكار غير واقعية، وعلى أسوأ تقدير أنهم مجرمون فاسقون أخلاقياً و/أو لديهم اضطرابات عقلية. ظهرت خلايا ثورية وفصائل وشبكات سرية في مختلف البلدان في العالم الغربي، على سبيل المثال، في إيطاليا كان هناك "الألوية الحمراء" (Red Brigades) وهي منظمة يسارية شبه عسكرية؛ في الولايات المتحدة، ظهرت حركة الطلاب من أجل المجتمع الديموقراطي (Weather Underground)، وهي منظمة يسارية متطرفة نشأت في أواخر الستينيات في جامعة ميشيغان لمواجهة الإمبريالية؛ في ألمانيا، كان هناك ما يُسمّى بـ"مجموعة بادر-ماينهوف" (Baader–Meinhof Gang) التي أصبحت في ما بعد تُعرف بـ"جماعة الجيش الأحمر". رفضت هذه المجموعاتُ الديموقراطيةَ الليبرالية على اعتبارها خياليةً واستهزأت بالادعاءات الفخورة حول العالم الحر. هدفت إلى استخلاص دروس من استراتيجيات لينين وماو وهو تشي منه Ho Chi Minh وتشي جيفارا Che Guevara لإنشاء ما يُعرف بـ"حرب العصابات" في مدن العالم الغربي.

كتبت أولريكه مينهوف Ulrike Meinhof توجيهاتها نحو هذا الاستنتاج العنيف، فأكدت الأهمية الكبيرة لـ"دعاية الفعل"، التي لا تشمل المظاهرات السلمية فقط بل الأفعال العنيفة أيضاً. بدأت مخاوفها تظهر فعلاً بوضوح في عام ١٩٦٠، حين اعتقدت أن الناس ينجرفون في تفكير يخدم مصالحهم الشخصية، بما في ذلك اللجوء إلى خيار التسلح. وفي ذلك الوقت، كانت تعتقد أنه يمكن تجنب أي صراع دموي داخل ألمانيا حول مستقبل الديموقراطية، وهو مشابه لما حدث في الثلاثينيات، وكان هناك اعتقاد بأن السياسات المتطرفة، بما في ذلك الفاشية، ستصبح أقل تطرفاً تدريجاً من تلقاء نفسها، دون الحاجة إلى مواجهة مسلحة مباشرة. لاحظت مينهوف كيف أن عدم اتخاذ إجراءات في الماضي للحد من التسلح أدى إلى فقدان ملايين الأرواح، وزعمت أن الاتجاهات السياسية في الجمهورية الاتحادية الألمانية في عصرها مثيرة للقلق وتبرر "كل أنواعَ الخوف". لم تجد مساحةً للتفاؤل بالتحسين السلمي وأصرت على أن جميع الأشخاص الذين يشعرون بالشك وعدم الثقة وعدم الراحة في اللحظة الحالية يجب أن يتحدوا لمنع تكرار الماضي الأليم. بحلول عام ١٩٦٧، كتبت بصورة نقدية عن القمع السياسي

والقيود على حرية معارضة النظام، وأشارت بسخرية إلى أن في الغرب، لم يُعتبر إلقاء النابالم، السائل الهلامي القابل للاشتعال، على النساء والأطفال وكبار السن جريمةً، بل كان الاحتجاج على مثل هذه الأفعال يُعتبر جريمة، والشيء نفسه ينطبق على تكتيكات الإرهاب التي تنفذها الدولة وتدعي مكافحتها بفعالية. احتفت مينهوف بأن أقساماً من حركة الطلاب والمعارضة خارج البرلمان لم يعودوا يتظاهرون بلباقة؛ لم يعد الناس يخفون انزعاجهم ويخفون الصراعات الشديدة؛ لم يعودوا يعزفون على عدم الراحة باللجوء إلى الحبوب، أو يواجهون الاكتئاب بفنجان من القهوة، أو يخفون آلام المعدة بكوب من شاي النعناع، أو يواجهون الاكتئاب بقنينة من الشامبانيا، أو يقاومون الروتين بقنينة من شنابس، وبهذا عبرت مينهوف عن ارتياحها لانهيار "التناغم الاصطناعي" الذي كان يُروَّج له في البلاد.[١]

اعتقدت المنظمات الصغيرة والعازمة مثل منظمة باودر ماينهوف في ألمانيا أن ما كان مطلوباً هو صدمات عنيفة، وذلك إيماناً منها بأنه كانت هناك حاجة ماسة للقيام بأفعال مثالية لإيقاظ الناس من حالة السبات التي كانوا فيها. كانت تهدف إلى جذب انتباه الجمهور إلى أفعالهم، وبدء تحرك انتفاضة أوسع نطاقاً، وربما بدء عصر جديد للثورة.

بمزيد من التفصيل والتحليل، استُكشفت أفكار جاكسون وطُوّرت حول كيف أن نظام العقوبات هو وريث العبودية، وذلك من خلال أعمال الأكاديمية والكاتبة والناشطة السياسية أنجيلا ديفيس Angela Davis. تاريخ ديفيس الشخصي كان متشابكاً مع تاريخ جاكسون وسجناء سود بارزين آخرين في تلك المرحلة، فهي أيضاً واجهت الاعتقال والاستجواب والمحاكمة. على الرغم من أن براءتها ثبتت في النهاية وأُفرج عنها، فقد لازمت السجن ستة عشر شهراً.[٢] عملت ديفيس وآخرون على توسيع

1 'New German Ghetto Show' [1960], 'Napalm and Pudding' [1967] and 'Water Cannons: Against Women, Too' [1968], in *Everybody Talks About the Weather... We Don't: The Writings of Ulrike Meinhof*, edited and with an introduction by Karin Bauer (New York, 2008).

٢ كانت Davis في ذلك الوقت ناشطةً بارزة في دعم حقوق السجناء السياسيين السود. كانت تتواصل مع Soledad Brothers. انكشف أنها كانت تمتلك بعض الأسلحة التي استُخدمت في ٧ آب/ أغسطس ١٩٧٠، من قِبل الشاب Jonathan Jackson البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، الأخ الأصغر لـGeorge Jackson. حاول Jonathan اقتحام محكمة في Marin County في كاليفورنيا لتحرير ثلاثة سجناء سود في محاكمة. احتُجز القاضي والمدعي العام وثلاثة محلفين رهائنَ،

هذه الانتقادات السابقة، باستخدام مصطلح "مجمّع السجن الصناعي" لوصف النظام الواسع للحبس والعقوبة في الولايات المتحدة وتأثيراته النفسية والاجتماعية. وشرحت كيف يجب أن نفهم هذه الشبكة الواسعة من المؤسسات والممارسات كمركز معاصر للاضطهاد الجماعي ضد السود، وكمجهود ضخم ومستمر للسيطرة على السكان "المثيرين للمشاكل" والمهمَّشين، والمحرومين.

قرابة عام ٢٠٠٠، خلال نقاش بين أنجيلا ديفيس وزميلة لها حول النقد والنشاط والاحتجاجات التي شاركت ديفيس فيها، سُلّط الضوء على فكرة إلغاء السجون. أشارت الزميلة إلى أن منطق "مجمّع السجن الصناعي" يشبه إلى حد كبير ما تحدث عنه جورج جاكسون وأنجيلا ديفيس وآخرون في الماضي، والذي يتضمن احتجاز عدد كبير من الأفراد (الفقراء والسود) وإبعادهم عن باقي المجتمع. ردت أنجيلا ديفيس مقرّة بذلك ومؤكدة أنه لا ينبغي النظر إلى فكرة إلغاء العقوبات الجزائية الآن كحلم يوتوبيّ يتعذر تحقيقه، بل هو في الواقع السبيل الوحيد لوقف تطوير صناعة السجون على نطاق عالمي، على حد قولها.[1] كان جوهر هذه الحجة أن فهم الظروف الحقيقية للسجناء في الحجز، ومصير الذين تم كسرهم واستبدالهم داخل هذا "المجمع"، يعني أيضاً التعرف على حقيقة الخطوط الكاذبة للمجتمع بأكمله.

في هذا الفصل، انتقلنا من الشرق إلى الغرب، ومن الماضي إلى وقت أقرب بكثير إلى الحاضر. من ناحية، تابعنا مسار ميلوش الذي انتقل من بولندا إلى كاليفورنيا. على الرغم من أنه كتب *The Captive Mind* أثناء منفاه، فأفكاره كانت عميقة وثابتة في ما

وخلال المواجهة مع الشرطة، لقي القاضي وJonathan Jackson واثنان من السجناء المسلحين مصرعهم. اختبأت Davis، وبمجرد اعتقالها، وُجِهت إليها تهمة التآمر على القتل وتهم أخرى. انطلقت حملة عامة للإفراج عنها، وبعد ستة عشر شهراً من الاحتجاز، أفرج عنها بكفالة. في ٤ حزيران/ يونيو ١٩٧٢، لم تجد هيئة المحلّفين أدلة كافية تثبت تورطها بسبب امتلاكها تلك الأسلحة.

1 Angela Davis and Dylan Rodriguez, 'The Challenge of Prison Abolition: A Conversation', *Social Justice*, 27:3 (2000), 212–18, p. 213.

راجع أيضاً التالي:

Angela Davis, *Abolition: Are Prisons Obsolete?* (New York, 2003), and *Abolition Democracy: Beyond Prisons, Torture, and Empire* (New York, 2005).

يتعلق ببولندا التي كانت دائماً حاضرة في تفكيره، حتى وإن كانت الدروس التي نقلها تهدف إلى أهمية جغرافية وسياسية أوسع منها. استكشف مختلف الطرق التي يمكن أن يُغرى بها الناس ليقعوا في حب أيديولوجيا متعصبة، أو يكرسوا حياتهم لمعارضتها. من ناحية أخرى، فكّر ميلوش في العيش تحت راية نظام نتبع نصف قوانينه، وفي الحفاظ على رؤوسنا من خلال إحنائها، وامتثالنا للسلطة، واتخاذ تنازلات من نفوسنا، وبذلك نحاول ربما إسكات شعورنا بالذنب تجاه الماضي وفي الوقت عينه إفساد الجوانب الأنبل لطبيعتنا على حد ما استكشف ميلوش.

قد تثير هذه الأفكار اهتمامنا وقلقنا الآن، خاصةً في سياقات سياسية مختلفة تماماً عن عصر ميلوش. النظام البولندي الذي تركه ميلوش انهار بسرعة، مما أدى إلى فساد وتآكل الحريات الأساسية، وتهديد الحياة، واختراق التفكير المستقل والإبداع. وصف ميلوش التواصل في بولندا بعد الحرب على أنه مبني على فهم مشترك يفيد أن كل فرد يشارك في "لعبة جماعية دائمة".[1] الفرق هناك، على عكس ما يحدث هنا في الغرب، كان يعتقد أن اتخاذ خطوة خاطئة، حتى إذا كانت في سياق آراء ليبرالية أو أنشطة ديموقراطية، يمكن أن تكون مميتة. بالنسبة إلى كل "زميل"، كان الامتثال للدور المخصص له أمراً بالغ الأهمية، إذ يمكن أن تؤدي أخطاؤه في هذه الدراما الحية، تحت رصد الحزب، إلى الفتك به.

بالإضافة إلى رعب الستالينية، كان ميلوش مهتماً أيضاً بفك الألغاز المتراكمة في هذا التقسيم المزعوم بين الامتثال الجماعي في الشرق والحرية الفردية في الغرب. لم يكن كتابه مجرد سلسلة من البيانات حول معاناة زملائه البولنديين تحت حكم الشيوعية، وبالتالي لم يكن مخصصاً لتقوية ثقة الغربيين بأنفسهم كليبراليين. أشار ميلوش بوضوح في كتابه إلى أن قبول الناس "الحقائق" كما هي وموافقتهم على أمور "مستحيلة" غير ملائمة ومشوِّهة وضارة بالحياة الحقيقية، لم يكن موجوداً فقط تحت راية نظام سياسي شرقي مثل الستالينية. نقل *The Captive Mind* التركيز من "الرؤى المانوكية" السائدة في غالبية الأحيان، التي تشير إلى التفكير الثنائي الذي يظهر في السياق السياسي أو الفكري، بحيث يكون العالم متناقضاً بين قوتين قاطعتين أو فكرتين

1 Miłosz, *The Captive Mind*, p. 55.

قطبيتين، وأشار ميلوش بتعبير جدت إلى وجود "أكثر من نوع واحد من الأسر".

في الثمانينيات من القرن الماضي، ومع تضاؤل سيطرة الاتحاد السوفياتي على شرق أوروبا تدريجاً، بدأ بعض الكتّاب بإعادة النظر في كتاب ميلوش وتقييمه. واحدة من الأشخاص الذين رفضوا الكتاب في البداية في الخمسينيات ولكن في ما بعد غيروا آراءهم كانت سوزان سونتاج Susan Sontag. في عام ١٩٨٢، وسط صعود حركة التضامن في بولندا (نقابة مهنية وحركة سياسية) التي قادها ليخ فاونسا Lech Walesa وتحدت الحكومة المدعومة من الاتحاد السوفياتي، شرحت سونتاج لماذا أهملت هي وأصدقاؤها في البداية كتاب ميلوش، وقالت: "كنا نعتبر الفاشية عدونا الرئيسي ونسمعها بلغة شيطانية. كان لدينا معيار مزدوج عندما نتعامل مع الشيوعية، بحيث كنا ننظر إلى لغتها بإيجابية أو على الأقل كلغة ملائكية".[١]

لم يكن ميلوش مهتماً فقط بقوة أو فعالية غسيل الدماغ في البيئات المغلقة – رغم أنه من الصحيح أن أي دولة تسيطر على تصاريح الدخول إليها والخروج منها، أو أي مؤسسة تقدر على احتجاز الأفراد ومنع المراقبين من الوصول إليها، أو إلى أي مكان مثل مجمع أو معسكر أو مركز طائفي يُحاط بحواجز وأبراج مراقبة، يكون لديها الفرصة لممارسة غسيل الدماغ أو التلاعب بالأفكار. أراد ميلوش من قرائه الغربيين أن يفكّروا في كيفية التحكم في الآراء، وكيف يمكن للأشخاص أن يصبحوا عديمي التفكير، ويتبعوا الجماعة، ويمتثلوا، ويكونوا حتى محاصرين في الديموقراطيات الليبرالية. لم يكن الهدف من ذلك أن نقول إن المجتمعات الشرقية والغربية متماثلة، بل الهدف كان في استكشاف سمات بشرية معيّنة يمكن أن تتأثر بالضغوط الخارجية. قام آخرون في الغرب بتحدي الخطاب أو المعتقدات المبسطة لأولئك الذين دعموا بشغف الحرب الباردة، وشجبوا ما كان يحدث في الشرق، وأشادوا بالغرب وطناً للحرية الحقيقية وقمة الحضارة.

حتى قبل انشقاقه، خلال السنوات التي عاشها على الساحل الشرقي في أواخر الأربعينيات، كشف ميلوش في مراسلاته الخاصة أنه وجد الثقافة والمجتمع الأميركيين

---

١ مذكور في:

'Susan Sontag Provokes Debate on Communism', *The New York Times*, 27 February 1982, movies2.nytimes.com/books/0012/03//specials/sontag-communism.html.

مزعجَين إلى حد كبير. وأثناء عمله في واشنطن ملحقاً ثقافيّاً لبولندا، شارك في حفلات الكوكتيل واعترف بأنه لا يمكنه تحمل المحادثات العفوية. كما وجد أن المشاهد التي تجمع الأثرياء وهم يمضون وقتاً ممتعاً غريبة إلى حد ما، واعتبر أن فهم الناس للثقافة ليس متسقاً. وعلى الرغم من أن العالم كان أكثر حرية في واشنطن، تفاجأ ميلوش بالثقة وأحياناً السذاجة التي رآها هناك. بالنسبة إليه، بدا له أن هذا العالم الجديد يمتلك طرقاً فريدةً من نوعها لتقييد أفكار الناس وآرائها، حتى وإن كانت مختلفةً عما كان يعرفه.

في رسائله إلى أصدقائه، أعرب عن شكوكه بشأن الطبيعة الحقيقية للحرية في الولايات المتحدة. تساءل عن سبب عدم إمكانية توسيع فكرة الحرية والحفاظ عليها إيجابياً أكثر هناك. اعترف بأن الناس في الولايات المتحدة يتمتعون بحرية معيّنة بعيداً من التحكم الحكومي، وبقدرتهم على التنقل ولقاء الآخرين واستهلاك مختلف الأمور وفقاً لرغبتهم. ومع ذلك، وجد العديد من جوانب هذه الحرية مشكوكاً فيها وغير جاذبة بالنسبة إليه. على الرغم من الحديث عن أن الولايات المتحدة هي "أرض الحرية"، لاحظ نقص الدعم الكبير لأهداف اجتماعية هامة أو حقوق جماعية، مثل الوصول إلى الرعاية الصحية والتعليم العالي. يجب أن تكون هذه الخدمات متاحةً للمجتمع بأسره، وليس فقط للطبقات المحظوظة والنخب.[1]

كانت لدى ميلوش مشاعر سلبية تجاه الولايات المتحدة تمتد إلى جوانب فنية وسياسية. بعد أن شعر بخيبة أمل من التكرار والأقوال المبالغ فيها التي واجهها في بولندا، حيث قلل بعض الشيوعيين المتحمسين من قيمة أميركا واعتبروها مجرد "أرض الكوكا كولا"، شعر في الساحل الشرقي بالانفصال عن الجمهور في دور السينما الذي أظهر تفاعلاً غير ناضج ونقصاً في الذوق، مثل الضحك بصورة مبالغ فيه أثناء مشاهد مأسوية. في إحدى رسائله، وصف ما رآه كنقص في العمق الروحي لملايين الأشخاص في البلاد، ووجد هذا الوضع مروعاً بالنسبة إليه. بطريقة مرحة، أعلن أن الأشخاص الوحيدين الذين بدوا حقاً حيويين هم السود والسكان الأصليون.

1 Franaszek, Miłosz, p. 303.
يمكن العثور على توضيح مؤثر لهذه الحجة حول الحرية الإيجابية والسلبية في كتاب:
Isaiah Berlin, *Two Concepts of Liberty* (Oxford, 1958).

كان منزعجاً من أن حياة العديد من الأشخاص تتمحور حول استهلاك ما اعتبره أموراً تافهةً مثل الثقافة الشعبية والمحادثات على الراديو. كان من الواضح أن الثقافة الشعبية والمناقشات على الراديو لم تكن مناسبةً له. كان يعتقد بقوة أن الاستماع لدقيقتين فقط إلى الراديو سيجعل الشخص "العادي" يشعر بعدم الارتياح.[1]

وفقاً لميلوش، كانت وسائل الإعلام هذه تقدم ترفيها مزيفاً وإثارةً جماهيرية وتشتتاً وخطاباً سياسياً. كان ذلك في وقت استخدمت فيه القوى العالمية الكبرى جميعها الراديو كجزء من حرب الدعاية في إطار الحرب الباردة، وحاولت من خلاله الفوز بعقول الناس وعقولهم وبالتالي التأثير على آرائهم. في الخمسينيات من القرن الماضي، زادت إذاعة *Voice of America*، التي كانت تمولها حكومة الولايات المتحدة، برامجها، أو على الأقل بحسب رؤية النقاد لها، قامت بالترويج لأميركا في العالم كله. في الوقت نفسه، مُوّلت محطات مثل إذاعة *Radio Free Europe* و*Radio Liberty* من وكالة الاستخبارات المركزية لاستهداف الدول الشرقية الأوروبية والاتحاد السوفياتي. من ناحية أخرى، رغم مهمتها الأوسع ورسالتها الرفيعة المستوى، واستقلالها عن الحكومة، شرعت *BBC* بالبث اليومي من لندن إلى الجماهير الموجودين خارج بريطانيا باسم الحقائق والتوازن والتحليل البارد ومفاهيم الديموقراطية الليبرالية. تزامناً، كانت *Radio Moscow* تحت إشراف مباشر من القادة السياسيين، فقدّمت لمستمعيها محتوى أسبوعياً مفعماً بالأيديولوجيا.[2]

ذهب ميلوش بعيداً في محادثاته الخاصة، فادعى أن ممارسة تغيير العقول أو التلاعب بها قد بلغت مستوى متقناً في الولايات المتحدة، وذلك يعود بالضبط، كما اعتقد، إلى الأسلوب المعتمد في غسيل الدماغ الذي كان أقل وضوحاً وأقل خشونة مقارنةً بنظام ستالين. وأشار إلى أن "وسائل تشكيل الرأي العام في بلدان مثل بولندا كانت مجرد لعبة أطفال مقارنةً بالفن الذي وضعه الأميركيون، والأساليب التي استخدمتها خدمات الأمان الأميركية".[3] رأى ميلوش أن محاولات الاتحاد السوفياتي

---

1 Franaszek, *Miłosz*, p. 251.

2 Keith Somerville, *Radio Propaganda and the Broadcasting of Hatred: Historical Development and Definitions* (London, 2012), p. 56.

3 Franaszek, *Miłosz*, p. 252.

للتلاعب بأفكار الناس كانت قديمة النمط مقارنةً بـ"الأساليب الاستثنائية والمعقدة" التي استخدمها الأميركيون.[1] كان يعتقد أن الحرية شيء نأمل فيه ولكن غالباً ما يكون تحقيقه صعباً. شعر بأنه حتى عندما يتحدث الناس كثيراً عن الحرية، فالنتائج غالباً ما تكون مخيبةً للآمال؛ وإذا كانت "الحرية" الحقيقية كذلك، فالخيبة ستكون أكبر.

ربما كان ميلوش على علم بأن الناس قد يعتبرونه متعالياً بسبب انتقاداته للثقافة الأميركية بعد الحرب، ولكنه لم يستطع كبح استيائه الشديد من مجتمع اعتبره مأهولاً بـ"دمى أميركية تعِسة"؛ بسكان شديدي الكآبة لأنهم يولون اهتماماً كبيراً لنظام مادي؛ فلا قيمة لشيء بالنسبة إليهم إلا المال وحده.[2]

خلال ستينيات القرن العشرين، وبينما كان ميلوش يراقب من موقعه الأكاديمي الجديد في جامعة بركلي، كان هناك مزيد من الأميركيين ينتقدون مجتمعهم. كانوا يعبّرون عن رغبتهم في تغيير سياسات حكومتهم جذرياً، أو في بعض الحالات، ينادون بإنهاء الرأسمالية، وكانوا يرون أن هناك خداعاً في السوق الحرة وأن للشركات الكبرى نفوذاً غير محدود. كانوا غاضبين جداً من التصريحات الرسمية التي تنفي تصاعد الحرب في فيتنام والاستعمار الأميركي الجديد، لذلك، لم يكن الجميع مغسولي الدماغ أو غير واعين. بغض النظر عن اعتقادات ميلوش، كان هناك فعلاً احتجاجات كبيرة من الجمهور. هناك العديد من النقاد، خاصةً بين الشبان، الذين سعوا لانتقاد "غسيل الدماغ"، إذ أرادوا الشفافية التامة بشأن ما اعتبروه سياسات عسكرية غير صادقة وغالباً ما تكون غير واقعية وتفتقر إلى المعرفة، كما شككوا في الاعتقاد الساذج الذي يقول إن محاولات الولايات المتحدة لـ"تحرير" الشعوب ستكون محل ترحيب في أماكن مثل فيتنام أو أفريقيا أو آسيا أو أميركا اللاتينية، حيث يعيش ملايين الفلاحين وعمال المصانع والسكان في المناطق الريفية والحضرية.

بعض الكتّاب والعلماء والأطباء والفنانين والموسيقيين ونجوم الرياضة الأميركيين البارزين أعربوا علناً عن اعتراضهم على الحروب التي شاركت فيها الولايات المتحدة في جنوب شرق آسيا، وعلى الطريقة التي تبنت فيها افتراضات خاطئة وضارة كما

---

١ المرجع نفسه.

٢ مذكور في المرجع نفسه ص. ٢٥١.

شعروا، وكان هناك جيل متمرد من الطلاب غاضب على الطبقة السياسية السائدة ويتهمها بمحاولة خداع الجمهور الأميركي. أثار محمد علي، بطل العالم في الملاكمة الثقيلة، الجدل بصراحته في رفضه لِما أسماه "حرب الرجل الأبيض" في فيتنام، وكان عرضة للانتقادات، وفقد لقبه من رابطة الملاكمة العالمية (World Boxing Association)، وواجه تهديداً بالسجن لمدة طويلة في محاولة لإسكاته. شخصيات بارزة أخرى، بدءاً من الدكتور بينجامين سبوك Benjamin Spock، الخبير في مجال الأطفال والتربية، وصولاً إلى الكاتب أرثر ميلر Arthur Miller، والمغنية والممثلة إيرثا كيت Eartha Kitt، عبّرت أيضاً عن اعتراضها على الأكاذيب والأوهام والتناقضات والدعاية التي كانت تنتهجها الحكومة.[1]

مقارنة اضطهاد المعارضين والمحتجين في عهد ستالين أو ماو بالعقوبات التي واجهها المفكرون النقاد في الولايات المتحدة والديموقراطيات الغربية الأخرى في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ليست مناسبة، حتى إن كان هناك احتمال للسجن أو لإعدام الجواسيس في تلك الدول الغربية. هناك حالة واحدة، هي حالة إيثيل Ethel وجوليوس روزنبرغ Julius Rosenberg، نُفّذ فيها حكمُ الإعدام في الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة. عُثر على هذين الشخصين مذنبين بالكشف عن أسرار ذرية للروس، وبالتالي نُفّذ حكم الكرسي الكهربائي عليهما في ولاية نيويورك عام ١٩٥٣. مع ذلك، يجب عدم تجاهل مستوى المراقبة والمضايقة وأحياناً القمع النشط الذي استهدف الأمراء اليساريين والمعارضين السياسيين الآخرين الذين كانوا يتحدون سياسات الولايات المتحدة خلال الخمسينيات والستينيات، بمن في ذلك بعض الذين كانوا بِيضاً ويتمتعون بامتيازات ومكانة مرموقة.

يتحدث المؤرخ غاري غيرستل Gary Gerstle عن مرحلة الخمسينيات في الولايات المتحدة، حين حاولت المؤسسات الأميركية، مثل الحكومة ومنظمات أخرى، التخلص من الأشخاص الذين اعتُقد أنهم يحاولون تدمير البلاد. أدى هذا الأمر إلى إحداث جو من الرعب في المجتمع الأميركي، وجعل معظم الأشخاص

1 Young, *The Vietnam Wars*, pp. 201–2.
للاطلاع على تعاطف Milosz مع حركة حقوق الإنسان في الولايات المتحدة وآرائه حول الاحتجاجات ضد حرب فيتنام، انظر إلى كتاب لـFranaszek بعنوان *Milosz* ص. ٣٧٣-٣٧٤.

الذين كانت لديهم آراء قوية ومختلفة، سواء كانوا شيوعيين أو لا، يشعرون بأنه لا يمكنهم التحدث أو القيام بأي شيء بسبب المراقبة الصارمة.[1] روقب الاعتراض الجاد، حتى الثوري، على النظام الموجود في العالمين الشيوعي والرأسمالي ولو بطرق مختلفة. في هذه الحملة الثانية لمكافحة الشيوعيين في الولايات المتحدة (الحملة الأولى حدثت بعد الثورة الروسية في عام ١٩١٧)، كان أي شخص ينتقد الرأسمالية من وجهة نظر شيوعية عرضة للتحقيق من قِبل الحكومة. خلال هذه السنوات، يقول غاري غيرستل إن اليسار، الذي يشمل الجماعات الاشتراكية والشيوعية، ضعف بشدة كقوة منظمة. في بلدان مثل بولندا، كانت عضوية الحزب الشيوعي تساعدك بطرق مختلفة فتمكنك من العيش والتحسن، أما في الولايات المتحدة، فكانت تؤدي إلى متاعب وتخضعك للتحقيق من الحكومة؛ كانت حقبة المكارثية وأنشطة جون إدغار هوفر John Edgar Hoover وFBI تضمن ذلك.

حتى في هذا الوضع، كانت هناك مساحات ما زالت متاحةً في الولايات المتحدة بعد الحرب، حيث يستطيع الأفراد التعبير عن معارضتهم بمبادئ من خلال وسائل التعبير الشفهي والكتابي والفني، وهذا ما يتعارض بشدة مع ما كان يحدث في الصين أو الاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت. حتى في مرحلة الخمسينيات القاسية والمتشددة، كانت أعمال كتّاب نقاد مثل أرثر ميلر متاحةً للجمهور والقراء. كان بإمكانه صياغة مسرحية *The Crucible* [**البوتَقة**] التي تتحدث في المقام الأول عن محاكمات الساحرات في [قرية] سالم، لكن بصورة واضحة كانت تتناول حملة مكارثي في "صيد" أو مطاردة الشيوعيين، وكان بإمكانه رؤيتها تُعرض في عام ١٩٥٣، العام نفسه الذي نُشر فيه *The Captive Mind* للمرة الأولى. على عكس ذلك، اضطُرّ ميلوش للفرار من بولندا، بلده الأم، لكتابة كتابه السياسي النقدي *The Captive Mind*. كانت انتقادات ميلر الضمنية اللاذعة للتطرف والمضايقات السياسية التي تعصف بالولايات المتحدة في ذلك الوقت حادة، لكنها لم تؤدِّ إلى إرسال الكاتب إلى معسكرات العمل، وهي المواقع التي يُجبَر فيها الأفراد على

---

1 Gary Gerstle, *American Crucible: Race and Nation in the Twentieth Century* (Princeton, 2001), p. 243.

العمل الشاق بلا أجر تحت ظروف قاسية.

كانت أفعال FBI الموثقة جيداً ضد الحرية واقعيةً ومخيفةً بالفعل، إذ غالباً ما أسفرت عن عواقب مدمّرة على حياة الأفراد. قام المكتب بالاحتفاظ بسجلات حول المواطنين الأميركيين، وكان استخدام مصطلح "غير أميركي" في السياسة شائعاً، مما أدى إلى تدمير العديد من المسارات المهنية والشراكات والعلاقات الشخصية؛ فقد الأشخاص وظائفهم، وفي العديد من الحالات، تأثرت صحتهم بسبب ذلك. استُدعي أرثر ميلر نفسه للمثول أمام لجنة مجلس النواب الخاصة بالأنشطة غير الأميركية (HUAC) في عام ١٩٥٦، حيث استُجوب بشأن اتهاماته بالانتماء الشيوعي، وقد رفض الكشف عن أسماء أشخاص آخرين مشتبه بأنهم شيوعيون. في النهاية، صدر الحكم بفرض غرامات مالية على ميلر وسحب جواز سفره بتهمة ازدراء المحكمة، ومع ذلك، تقدم باستئناف، وتم تغيير الحكم لمصلحته. تعرضت حياة ميلر للاضطراب، ولكنها لم تُدمَّر تماماً كما حدث مع آخرين.

لا يمكن بالتالي أن ننكر أن العديد من النقاد في الولايات المتحدة كان عليهم ممارسة الرقابة على أنفسهم وأخذ الحيطة من الناحية السياسية إذا أرادوا النجاح، دون أن يجذبوا انتباه وكالات الحكومة. بعد الحرب العالمية الثانية، استخدم النواب في جنوب البلاد لجنة مجلس النواب الخاصة بالأنشطة غير الأميركية لإعادة تنشيط الادعاء بأن تأثيرات مجتمع الأميركيين السود والعناصر الشيوعية المشتركة كانت تهدد أسلوب الحياة في الجنوب. أكدوا أن هذه التهديدات للأمان في الجنوب معادِلة لخطر وطني، لذا استغلوا الفرصة المتاحة نتيجة عودة الاتحاد السوفياتي كخصم كبير للولايات المتحدة، وذلك لربط مكافحة الشيوعية بالسياسات العنصرية ولتعزيز معارضتهم توسيع حقوق المدنيين. السياسيون مثل جون رانكين John Rankin من ولاية ميسيسيبي، الذين كانوا دائماً يشعرون بالقلق من أن الناشطين السود والمحرضين الخارجيين والليبراليين واليهود قد يتآمرون، استفادوا من لجنة مجلس النواب الخاصة بالأنشطة غير الأميركية للتأكيد على ضرورة إجراء مراقبة مستفيضة لجميع هذه الجماعات من قِبل السلطات. من خلال

ربط العرق بالشيوعية، وجد رانكين استجابةً إيجابيةً وترحيباً كبيراً لاقتراحاته في لجنة مجلس النواب الخاصة بالأنشطة غير الأميركية، بحيث كان آخرون أيضاً يراقبون بعناية شديدة الروابط "الخطرة" بين حزب الشيوعيين وحركة حقوق الإنسان ومنظمات مثل الكونغرس الوطني للسود (NNC). في الواقع، صُنّف هذا الأخير كـ"مخرّب" من قبل النائب العام للولايات المتحدة خلال ولاية ترومان[١].

كان على السكان الأميركيين الأفارقة التعامل مع هياكل عنصرية متجذرة، بالإضافة إلى "الاعتداءات الدقيقة" (لاقتباس المصطلح المفيد الذي قدمه الطبيب النفسي الأفروأميركي، تشيستر ميدلبروك بيرس Chester M. Pierce، خلال السبعينيات، والتي تعني السلوكيات الصغيرة المستفزة من الناحية العرقية).[٢] على الرغم من تنفيذ إصلاحات متنوعة في ستينيات القرن العشرين، وتحويل السياسات إلى تشريعات تهدف إلى إنهاء الفصل العنصري الرسمي في التعليم، استمرت العنصرية على مستويات متعددة، تماماً كما هي الحال اليوم. تظل تمثيلات جاكسون لعالم الاحتجاز والأبعاد العنصرية لأساليب الشرطة ذات الصلة مفيدةً وملائمةً كما كانت في ذلك الوقت. كان هدفه الإشارة إلى أن عالم الاحتجاز موجود أيضاً خارج مؤسسات السجن؛ ولهذا الغرض، اختار استخدام مصطلح "غسيل الدماغ" في بعض رسائله ليظهر للقارئ حالة العقل الأميركي الأسير.

توجه كتاب ميلوش مباشرةً نحو الشرق، وأيضاً بصورة غير مباشرة نحو الغرب. أثار هذا الكتاب نقاشات حول كيف يمكن للأفراد، في عالم سياسي مقسم إلى جانبين، أن ينقلوا تصوراتهم إلى مواضيع معيّنة (حتى إصدارات مبالغ فيها لأمم أخرى)، وينخرطوا في الإنكار، ويقبلوا الخداع، أو ينجروا إلى استراتيجيات نفسية معقدة مشابهة لـ"كتمان"، من أجل التكيف مع ظروفهم. يظل كتاب ميلوش مرآةً

1 Jeff Woods, *Black Struggle, Red Scare: Segregation and Anti-Communism in the South, 1948–1968* (Baton Rouge, 2004), pp. 26–9.

2 Tori DeAngelis, 'Unmasking "racial micro aggressions"', American Psychological Association, February 2009, www.apa.org/monitor/2009/02/microaggression. Cf. David Theo Goldberg, 'On Racial Judgment', 2018, www7.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/blog/on-racial-judgment/.

ذات قيمة يمكن استخدامها لاستكشاف كيف قُيّدت أفكار الناس خلال الحرب الباردة وفي الزمن الحالي أيضاً.

في أيلول/ سبتمبر ٢٠١٨، نُشر مقال مشهور بعنوان "I Am Part of the Resistance Inside the Trump Administration" [أنا جزء من المقاومة داخل إدارة ترامب] بصفة مجهولة، وذلك في صحيفة *The New York Times*. كان من المفترض أن يكون أحد أعضاء الكوادر العليا، الذين لم يكونوا على استعداد للكشف عن هويتهم، هو من كتبه، وفي ما بعد، تبين أن الكاتب هو مايلز تايلور Miles Taylor، مسؤول سابق في وزارة الأمن الداخلي. قدم المقال صورةً عن حالة من الفوضى داخل الإدارة، وكشف عن التحركات المستمرة والخداع بين موظفي الرئيس، كما سلّط الضوء على استمرار استخدامهم للكلام المتناقض والتفكير المزدوج الذي كان مطلوباً منهم في البيت الأبيض؛ وهو مكان عمل مليء بالسخرية والمهارة والمنافسة الشديدة. أشار المقال أيضاً إلى كيفية اضطرار أفراد فريق العمل الذين كانت لديهم مخاوف أخلاقية إلى التواصل بلغة مشفّرة، والتلاعب برسائل ترامب كي ترضي سياسات معيّنة، وتخفيف التأثيرات السياسية، وتوجيه قرارات الرئيس في اتجاه معيّن، واسترضاء غروره، حتى على الرغم من وعيهم المفترض للسخافة الكبيرة في العديد من تصريحاته وطابعه الأناني والسعي البغيض وراء أهدافه.

ما الخيارات الأخرى؟ تناول حبة Murti–Bing؟ في الواقع، كان هناك خيار ثالث: الاستقالة أو الفصل من الوظيفة، ثم التفكير بعناية حول كيف انجرفوا إلى هذه السياسات أو إلى عباءة هذا الرجل، ومع ذلك، واصل العديد من المسؤولين أداء أعمالهم بمهنية دون إظهار أي قلق كبير، حتى إن لم يكونوا يؤمنون شخصياً بالقضية. بالتأكيد، إلى جانب ما يُسمّى بـ"المقاومين" وتلك الأرواح المعذّبة داخل الإدارة الأميركية (أي أولئك الذين يستخدمون "كتمان" ويظهرون آراءً تتوافق مع السلطة عِلماً أنهم لا يؤمنون بها في داخلهم)، كان هناك آخرون يتجاوبون مع الأوامر ويقدمون المساعدة للإدارة حسب الحاجة، دون أن يعانوا من أي صراع داخلي، مما يشمل ذلك ضمان أن الجماهير في التجمعات السياسية تبدو سعيدةً ومتحمسةً على نحو موحد خلف الرئيس عند الضرورة؛ كان العديد منهم

يبدي شغفاً وحماسةً شديدة. مع ذلك، في بعض الأحيان، وكما أُبلغ عنه على نطاق واسع، نُقل الأشخاص الذين كانوا يظهرون تعباً أو شكوكاً أمام الكاميرات جانباً بواسطة موظفي ترامب. كان الهدف من ذلك ضمان أن الأشخاص من حول ترامب يظهرون سعداء ومحترَمين من أجل التأثير بمشاهدي التلفزيون كي يقدم المشاهدون أو الجمهور دعماً لرئيسهم. (هذا مجرد مثال واضح وبسيط على كيفية اعتماد ممارسات إدارة الصورة، بغض النظر عن الحزب السياسي).[١]

توقع ميلوش الحجة التي يطرحها نقاد نظريون نقديون اليوم، والذين يشيرون إلى أنه ليس من الضروري أن تكون مؤمناً داخلياً إيماناً مطلقاً في الإدارة أو في مجموعة من المواطنين التي تؤمن بآراء النظام كي تكون أيديولوجيا النظام أو الدولة فاعلةً، فالضروري هو أن تقوم بما هو متوقع منك تجاه الدولة، حتى لو شكوت منها بصوت منخفض في حياتك الخاصة. لذا، فإن الأيديولوجيا تظل قائمةً في النهاية ما دمتَ تستجيب لمتطلباتها، وتدرك أن ليس لديك خيار آخر سوى الالتزام بها،[٢] وهذا يعني أنك قد تقوم بما تعتبره "ضرورياً" وأنت تلتزم بقواعد مفروضة عليك من إدارة الدولة. ببساطة، ملايين الأشخاص الذين يكرهون كيفية عمل نظام ما من الناحية النظرية، قد يتجاهلون التحدث عن ذلك وبالتالي يتجنبون المشكلات ليشكلوا من حيث لا يدرون دعماً صامتاً لسياسات النظام الضارة.[٣]

في مقاله الذي يمدح فيه كتاب *The Captive Mind*، ذكر جدت أن عدداً من الناخبين في بريطانيا والولايات المتحدة شُجّعوا بشدة على دعم سياسات خارجية مدمّرة جداً، ويعود هذا التشجيع، إلى حد كبير، إلى الغش السياسي الذي مورِس تحت إشراف توني بلير Tony Blair وجورج بوش الابن George W. Bush. في

1 CNN, '"Plaid shirt" guy removed from Trump rally for facial expressions', YouTube, 8 September 2018, www.youtube.com/watch?v=CFnF3jAvpTw.

٢ تطور هذا المفهوم حديثاً على يد نظريين معاصرين، على سبيل المثال، في سياق لاكاني، وبشكل بارز في أعمال Slavoj Žižek. انظر، على سبيل المثال، إلى كتاب:

The Sublime Object of Ideology (London, 1989).

3 Mark Fisher, *Capitalist Realism: Is There No Alternative?* (Ropley, 2009). Cf. Luc Boltanski and Eve Chiapello, *The New Spirit of Capitalism* [1999] (London, 2018); Wendy Brown, *Undoing the Demos: Neoliberalism's Stealth* Revolution (Cambridge, MA, 2015).

السياق البريطاني أو الأميركي، كان هناك مثال بارز على كيفية اتخاذ القرارات الحكومية المبنية على نشرة زائفة قُدّمت للجمهور، وهو القرار بغزو العراق. القرار، أو على الأقل الطريقة التي قُدّم بها للجمهور، اعتمد جزئياً على وثيقة توجيهية صدرت عام ٢٠٠٣ من الحكومة وقُدِّمت للصحافيين. قدمت الوثيقة تفاصيل دقيقة عن احتمالية امتلاك صدام حسين أسلحة دمار شامل بقدر أكبر من البراهين المتاحة فعلياً، وقد أطلق الناس على هذه الوثيقة اسماً عامياً "الملف الشائب"، وذلك لاحتوائها على معلومات تبدو موثوقةً في البداية، ليتضح في ما بعد أنها زائفة ومضلّلة واستُخدمت لمصلحة أجندة سياسية معيّنة.

كان جدت غاضباً جداً من حكومات الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. قال إنهم كانوا مندفعين هيستيرياً لبدء الحرب في العراق. رغب قادة تلك الحكومات في أن يوافق وزراؤهم ومسؤولوهم والناس عامةً على خططهم. تصرفوا كأنّ اعتقاداتهم القوية بضرورة الحرب كانت مستندةً إلى أدلة جيدة. تصرفوا كأنّ لديهم كل المعلومات الصحيحة لدعم قراراتهم، وإن كانت تقديراتهم تستند إلى "إيمان" أو معتقدات خاطئة. لم يكونوا يرغبون في أن يشكك الناس في قراراتهم، إذ رأوا أي نقاشٍ طويل أو خلافٍ في الرأي عملاً غير مخلص لهم ولسياستهم.

هناك أشخاص مشجعون ومدافعون دعموا بقوة نهج التدخل الليبرالي القوي في شؤون دول أخرى، إذ اعتقدوا أن هذا النهج القوي هو أفضل طريقة لجعل المستقبل أفضل. وكما لاحظ جدت، لم يكن بعض المثقفين والسياسيين متأكدين من صدقية القرار بشنّ الغزو على العراق وقد أبقوا مخاوفهم لأنفسهم وتحفظوا عن إبداء المواقف في هذا الخصوص، فانضموا إلى قرارات الزعماء رغم الشعور بشكوكهم. في ما بعد، عندما أدركوا أن قرارات الزعماء بشن الغزو كانت خاطئة، لاموا الحكومة لسوء أدائها في عملها، حتى وجد الزعماء أنفسهم يحاولون بفخر القول: "كنّا على حق في أن نكون على خطأ"، وحاول الزعماء شرح لماذا كان عليهم اتخاذ هذا القرار الخطأ بحسب وجهة نظرهم. في الغرب، كما أشار جدت بحزن، نعطي الأولوية لـ"السوق" بطريقة مشابهة لكيفية تقديم الناس القرابين للآلهة في الماضي. أراد جدت تسليط الضوء على النسخات الغربية من "كتمان" وحبوب

Murti–Bing من خلال انجرارنا نحو قرارات الزعماء بلا هوادة. أراد التعرف على مدى استعدادنا للامتثال لأيديولوجيتهم التي تجبرنا في الأساس، ومن دون غسيل دماغ شامل، على تبني قراراتهم من غير التفكير حتى في ما يتعلق بخيارات كبيرة وحاسمة لمصلحة البلاد.

لعقود طويلة، كانت النيوليبرالية الفكر الاقتصادي والسياسي السائد في العديد من أنحاء العالم. قادت هذه الفلسفة إلى إجراءات مثل الخصخصة وتخفيف القوانين التي تنظم الأنشطة الاقتصادية، وتخفيض الضرائب وتعزيز الرأسمالية غير المقيدة وزيادة العولمة. كانت قليلةً جداً فرصُ التعبير عن وجهة نظر مختلفة أو الاعتراض على هذا النهج الذي نُفّذ بقوة دون مراعاة كبيرة للآراء المعارضة، بغض النظر عن التكلفة في حياة الأفراد وسبل المعيشة والمأساة البشرية، وعواقبه المدمرة على المناخ والبيئة. لاحظ جدت كيف أنّ العديد من المثقّفين يخدمون طوعاً هذا النظام العقائدي الجديد الواسع الانتشار. وأضاف أنّه حتّى بعد مرور مئة عام على ولادة ميلوش وسبعة وخمسين عاماً على نشره لمقاله المهمّ، لا يزال انتقاد ميلوش لهؤلاء المثقفين الخاضعين صحيحاً: "الصفة الرئيسية لهم هي خوفهم من التفكير في أنفسهم".[1]

الاعتراف بأن خيارات الحياة ليست دائماً واضحةً من الناحية الأخلاقية، وأن الناس غالباً ما يعيشون في منطقة غامضة مليئة بالتسويات المفاوض عليها، والاعترافات الجزئية، والتسويات الجزئية، والاحتيال على النفس، هو جزء مما يطلب منّا ميلوش أن نواجهه. يترافق هذا التحدي مع النضال الوجداني لنكون أصيلين ونتصرف بإيمان صادق. رؤية الغرب ربما للشيوعية الاستبدادية على أنها نتيجة غسيل دماغ للسكان، يمكن أن تكون مضلّلة. يظهر الواقع أن التأثيرات على الأفراد وتجاربهم ليست دائماً من جانب واحد أو أحادية الاتجاه. تعتمد تجارب الأفراد على العديد من العوامل وتختلف باختلاف السياقات والظروف. لذلك، لا يمكن أن يمسك مصطلح "غسيل الأدمغة" كافة التجارب حتى في تلك السنوات الاستبدادية الستالينية. في العالم الحقيقي، وعلى الرغم من أنه يمكن أن

1 Judt, 'Captive Minds, Then and Now'.

يكون محدوداً، يجب علينا أن نفكر في كيفية تكيف الأشخاص وتغييرهم بطرق معقدة. يجب علينا أيضاً أن نفكر في كيفية تأثير المجتمع على كل فرد بطريقة مختلفة وكيف يمكن لنا التفاعل مع القواعد والتوقعات في ذلك المجتمع، سواء في الأمور العامة أو الخاصة.

عندما ننظر إلى ما كتبه ميلوش حول الخيارات التي اتخذها الناس في بولندا بعد الحرب، يذكرنا بكيفية التعامل مع مواقف مشابهة اليوم. أثناء كتابة هذا الكتاب ومراجعة الأدبيات المتعلقة بطرق الإقناع والتأثير في النظامين الاستبدادي والرأسمالي، وجدت نفسي أفكر على نطاق أكبر في كيفية تعديل أفعالنا أو تبريرها لتناسب الوضع، حتى إذا لم نوافق عليها في خصوصيتنا. على سبيل المثال، قد أقول لنفسي إنني لا أريد دعم Amazon لما أعرفه عن كيفية عملها وما تمثله. في النظرية، أنا ضد منح أموالي لـAmazon، لكن كانت هناك أوقات حصلوا فيها على أموالي. أنا أفهم الانتقادات وأقرأ عن جميع المشاكل مع الشركة، مثل ممارسات الضرائب المشكوك فيها، والهيمنة على السوق وقمع المنافسة وظروف العمل والرصد والثروة الهائلة التي تُزوِّد للقلة المنتخَبة، وخاصةً لرجل أعمال لديه تأثير كبير في وسائل الإعلام ويقوم برحلات مشهورة إلى الفضاء، ومع ذلك، عندما أكون مشغولاً جداً، أضع هذه المخاوف جانباً وأشتري منتجات أو خدمات مقدمة من Amazon، وأنا مدرك بذلك، وكأنني أقوم بتنازل عن معتقداتي مؤقتاً وأتفاوض مع ضميري.

أحاول ربما تبرير ذلك لنفسي بثقة ضعيفة، من خلال الافتراض بأنني لو كنت أملك مزيداً من الوقت، لامتنعت عن التعامل مع هذه الشركة التي تستغل العمال وتدفع ضرائب قليلة للغاية. في نظرية الأمور المتعلقة بالعمل، من الأفضل لي أن أختلف تماماً مع القيم التي تمثلها هذه الشركة فأقاطعها. ليست المسألة أنني أفتقد إلى خيارات أخرى في خضم النمو الهائل لهذه الشركة، إنما أستصعب مقاومة رغباتي في التعامل معها، وبالتالي فإن التخلي تماماً عن خيارها يرهقني. بدلاً من التخلي، أقول لنفسي وأنا أقنعها، خاصةً عندما أكون مشغولاً: ربما يمكنني التسوق هنا في Amazon، فلِم لا؟ من خلال هذا القول، يعني أنني من الواضح قد تأثرت، أو

كأنني اشتُريت لأكون زبوناً لـAmazon. يمكنني أن أقدّم بعض الإنكارات الصغيرة لهذا التأثر أو الابتعاد عن الاعتراف به لأبرّئ نفسي وأستمر في يومي، ومع ذلك، هناك شعور معقد غير مريح يمكث بي، فأشعر بشيء، من المفترض أن يمنحني المزيد من الحرية والاختيار، يقوم بجذبي إلى عملية تآمرية تدفعني للتعاون مع الشركة رغماً عن إرادتي. فالتكنولوجيا تجعل عملية الشراء، سواء على الصعيدين العملي أو النفسي، سلسةً للغاية، وبالتالي تصبح مريحةً ومرغّبة، خصوصاً أن عملية الشراء تستغرق بضع ثوانٍ فقط. لذلك، تماماً كما شرح ميلوش، إما هناك قوة تدفعنا لأن نكون أسرى، وإما هناك خيار فينا للتعاون مع شركة كهذه، بطرق تبرر فعل تعاوننا.

قبل أن يصل فيروس كورونا إلى الأخبار في عام ٢٠٢٠، كان العديد منّا يعتبرون أنفسهم نقّاداً شرسين، على الأقل نظرياً، لصناعة الطيران في سياق العولمة الأوسع. كنا ندرك ونخشى أزمة المناخ، وندرك الارتباط بين نمط حياتنا الغربي وهذه المشكلة، ونوافق، على الأقل من الناحية النظرية، على أنه يجب على كل فرد منّا أن يقوم بدوره (على الرغم من أننا ندرك أن التحركات الفاعلة يجب أن تكون على الصعيدين الوطني والعالمي، ويجب تنظيمها من خلال أعمال الدول). شعرنا بصراع داخلي حيال هذا الموضوع، إلا أن معظمنا لم يتخذ موقفاً قوياً وثابتاً. لا زلنا نستخدم الطائرات رغماً عنّا، مفضلين عدم التفكير في أثر أقدام الكربون الخاصة بنا، أو في أن القليل من إعادة التدوير أو زراعة الأشجار قد يكفي لحل مشكلة التلوث. غالباً ما كنا نعتقد أن المشكلة كانت كبيرةً أو بعيدةً جداً، وكنا عادةً مستعدين للبقاء متوافقين مع الأمور ونحن نستمتع بأسعار منخفضة بسبب قلة الضرائب على وقود الطائرات. بالطبع، لم تكن لدينا جميعاً المشاعر نفسها. فبعض الأشخاص، بمن فيهم أنا، شعروا بصراع داخلي وما زالوا يشعرون به، ولكن في بعض الأحيان، ليس من السهل التعبير عن مشاعرنا الحقيقية، وذلك ليس لأننا نعتقد أن السفر بالطائرة (لأغراض عملية أو استمتاعاً بعطلة عمل) هو دائماً الخيار الأمثل أو الأساسي عندما نقوم بحسابات عملية، بل لأن هناك تفسيرات شخصية أخرى أكثر تعقيداً، أو تسويات داخلية ضمننا. ربما، بمرور الوقت وزيادة الحماسة لدينا لإحداث تغيير، قد ننتقل إلى موقف أكثر تماسكاً، ولكن في العديد من الحالات، يحدث ذلك بعد وقت طويل من إدراكنا الأول لخطورة أزمة

المناخ والتناقضات الجوهرية بين كيفية عيشنا وبين ما يُتوقَّع منّا في ما خص مكافحة تغيير المناخ والمحافظة على البيئة، سواء كأفراد أو كمجتمع.

ما حاولت استكشافه في هذا الجزء من الكتاب ليس فقط الطريقة التي يميل بها الشخص إلى الامتثال والانسجام أو القيام بالأشياء نتيجةً للخوف النقي من السلطة أو بالاعتراف بقوة الدولة، بل إنه يتعلق أيضاً بسلسلة تراجعية ضمننا، إذ، ونحن في الظروف اليومية، عندما نكون حرين في اتخاذ القرارات، نتنازل ونوافق على اتفاقات نفسية ونشارك في مفاوضات مع مؤسسات خارجية وأفكار داخلية. قد لا ندرك التناقضات بين القيم والمعتقدات التي نعلنها بصراحة وسلوكنا الفعلي، أو قد نكون مدركين (جزئياً مع لمسة من الشعور بالذنب) كيفية الاحتفاظ بتلك التناقضات منفصلةً ونحن نقول لأنفسنا إن هذا الفصل مؤقت، أو بالأحرى "حل" مؤقت للوقت الحالي، مما يعني شيئاً سنفكر فيه لاحقاً عندما نكون أقل توتراً؛ نحن نتطلع إلى أن نكون أشخاصاً جيدين حقاً، ولكن من الصعب علينا جداً أن نكون كذلك في الواقع في ظل ما نواجهه من أمور سهلة من جهة لكن مؤذية من جهة أخرى.

صديق من بولندا أخبرني أن العنوان الأصلي لكتاب ميلوش يمكن ترجمته إلى "العقل المستعبَد" أو "العقل المجبَر"، حتى إن كان وصف "الأسير" يكفي. كان ميلوش أيضاً يتحدث عن العقل الخادم، والعقل المتنازع، والعقل المشكِّك، والعقل الساخر، وأكثر من ذلك. أحد الدروس الرئيسية التي يمكن استخلاصها منه، كما أعتقد، أنّ النّاس ليسوا دائماً مغسولي الأدمغة تماماً، حتى عندما يبدو أنهم كذلك، إذ لا يزال لديهم تفضيلات معيّنة ويدركون وجود تقسيمات داخل أنفسهم، مما يكشف ذلك نقطة ضعف وقوة في الوقت نفسه: نحن نلتزم بالتفويض والامتثال، لكننا قادرون أيضاً على التمرد. يمكننا القيام بالأفعال وفقاً للظروف، ونعلم، على الأقل في أنفسنا، أن ما نقوله لا يعكس معتقداتنا الداخلية الحقيقية.

في كتابه الأخير *Ill Fares the Land* [الأرض تعاني]، الذي نُشر بعد وفاته، انتقد جدت بشدة سياسات الليبرالية الاقتصادية. طرح هذه الأسئلة: "لماذا نجد صعوبةً بالغةً في تصور مجتمع مختلف؟ لماذا لا يمكن لنا أن نفكر في نظم مختلفة تعود بالفائدة على الجميع؟ هل نحن محكومون على التردد بصورة لا نهائية بين "سوق

حر" غير فاعل ورعب الاشتراكية المعلَن عنه على نحو مبالغ فيه؟[1]

إن القصص التي غالباً ما نلجأ إليها عندما نتحدث عن غسيل الدماغ هي مفيدة. قدّم لنا كتاب جورج أورويل **1984** مصطلحات مثل "التفكير المزدوج"، "ثقب الذاكرة"، "جريمة الفكر"، "الغرفة ١٠١"، "شاشة التلفاز"، و"الأخ الأكبر". ومن ناحية أخرى، قدّم لنا كتاب *The Captive Mind*، الذي لا يُعرف جيداً بالقدر نفسه، حكايات حول "كتمان" و"حبة Murti–Bing". نحن غالباً نستخدم مصطلح "أورويلي"، ولكن ليس هناك مصطلح "ميلوشي" مماثل. ربما حان الوقت الضروري لابتكار هذا المصطلح واستخدامه.

1 Tony Judt, *Ill Fares the Land* (New York, 2010), p. 34.

الفصل الرابع

التفكير الجماعي

في عام ١٩٥٢، نُشر مقال مثير بعنوان "Groupthink" [التفكير الجماعي] في مجلة أميركية للأعمال. يمكن العثور على قصص عن الحشود الفوضوية التي تتصرف بصورة غريبة وغير منطقية عبر العصور، ولكن هذا المقال، توازياً مع مقالات أخرى نُشرت في وقت قريب بعده، أشار إلى شيء جديد ومثير للقلق يحدث في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. بدأ المقال بهذه العبارة: "شيء غريب جداً كان ولا يزال يحدث في بلادنا، وتقريباً من دون علمنا. في بلد حيث كانت 'الفردية'، أي استقلالية الذات والاعتماد عليها، شعاراً رئيسيا ساد لمدة ثلاثة قرون، بدأ يتقبل وجهة نظر مختلفة تماماً. إذ لم يعد للأفراد بمفردهم أهمية كبيرة، إلا كأعضاء في مجموعة أكبر". لم يكن هذا تأمّلاً فلسفياً في الحالة الإنسانية أو دراسة حول كيفية عمل غسيل الدماغ التوتاليتاري، بل كان مقالاً يناقش الاتجاهات المعاصرة في المجتمع الغربي وتحذيراً من عواقب غير مقصودة داخل منظمات الأعمال.

يستحق أدب ما بعد الحرب حول التفكير الجماعي دراسةً في هذا السياق، بالإضافة إلى القلق بشأن غسيل الدماغ. دراسة ديناميات المجموعات أصبحت موضوعاً مهماً في نظرية إدارة المؤسسات، إذ أضحت موضوعاً مركزياً في الأفلام الشهيرة، ولعبت دوراً في تحليل التاريخ، وصارت موضوعاً يثير اهتماماً في علم النفس التجريبي وعلم التحليل النفسي. تراكمت الأدلة المستمدة من استطلاعات الرأي والاختبارات والاستفتاءات،

وأسهمت هذه النتائج في مناقشات أوسع حول مخاطر التوافق والتوحد والطاعة. في هذا الفصل، نقدم بعضاً من الاكتشافات والتقييمات الأكثر إقناعاً، بالإضافة إلى وسائل محتملة للتغلب على التفكير الجماعي. هدفي هو إعادة النظر في هذه المصطلحات، واستكشاف تجارب متنوعة بعد الحرب والنظريات المتعلقة بعلم نفس المجموعات، واقتراح كيف ترتبط الكتابة حول هذا الموضوع بتصوير الاحتجاز والتحول في أفكار الناس التي ناقشناها فعلاً، وفي الختام، نشير إلى بعض المبادرات السياسية التي استفادت من هذه الأفكار في وقت متأخر جداً في القرن العشرين.

الأمر الأول الذي يجب أن نلاحظه هو كيف قُدّم مصطلح "التفكير الجماعي" في أوائل مرحلة الحرب الباردة، تقريباً في الوقت نفسه الذي نُشرت فيه تقارير عن غسيل الدماغ وإسقاط الهوية وإعادة التربية والعقل الأسير والمقنعين الخفيين وما إلى ذلك. الأمر الثاني الذي يجب أن نفكر فيه هو كيف استُخدم هذا المصطلح في مناقشات حول المخاطر المتعلقة بنظامين اقتصاديين متنافسين في عالم مليء بالتوترات السياسية. كانت هذه النظم موجودةً في عالم يتميز بمعتقدات سياسية قوية ومتضاربة. عندما تحدث الناس عن "التفكير الجماعي"، كانوا يشعرون بالقلق من أنه قد يؤدي إلى توقف التقدم في المستقبل، كما تحدثوا عن كيفية تشجيع الأفكار الجديدة والإبداعية لمساعدة الغرب في المنافسة مع الاتحاد السوفياتي على الساحة العالمية. بعض الأشخاص توقعوا تدهور الغرب، إن لم يكن هناك كوارث قريبة، وتوقعوا تراجع الابتكار في مجتمع رأسمالي حديث حيث يرتدي الكثير من رجال الأعمال الملابس نفسها ويعملون في شركات كبيرة من دون وجه شخصي، وجميع الناس يتصرفون ويفكرون بالطريقة عينها؛ من ناحية أخرى، هناك آخرون اعترضوا على هذه الرواية التي تدق ناقوس الخطر.

الكاتب الذي بدأ هذه المناقشات وقدم لأول مرة مصطلحَي "التفكير الجماعي" و"الإنسان التنظيمي" (في كتاب عام ١٩٥٦) كان ويليام هولينجسورث وايت William H. Whyte،[1] وهو صحافي من الساحل الشرقي كان يعمل سابقاً مديراً تنفيذيّاً في

---

١ راجع الكتاب التالي:

William H. Whyte, *The Organization Man* (New York, 1956).

شركة Vicks للكيماويات. لمدة من الزمن، بقي وايت متصلاً بعالم الأعمال من خلال وظيفته في مجلة *Fortune*، وبعد ذلك في الشركة الإعلامية الكبيرة Time Inc. ولكن عندما بدأت مبيعات كتبه تزداد، أصبح كاتباً حراً، واعترف وايت بأن تقديراته العامة حول التفكير الجماعي لا تنطبق على الجميع، ولكن مساهماته النقدية كانت كبيرةً ومخلصة. قدّم أمثلة وافرة على ما اعتبرها أساليب تفكير وعادات الكثير من مواطنيه، وهم أشخاص وجدوا طريقهم، كما فعل هو، إلى المراتب التنفيذية. كثيرون، مثل وايت، كانوا يتقدمون بثبات على سلّم النجاح، بدءاً من المدرسة وصولاً إلى الجامعة، ومن ثمّ خدمة عسكرية في الحرب العالمية الثانية، ثم الانتقال إلى عالم الأعمال. نال عمل وايت إعجاباً كبيراً وأثار مناقشات حول الضغوط الوظيفية التي تشجع الأفراد على التكيف مع السلوك السائد في المؤسسات التعليمية والجيش والشركات ووسائل الإعلام.

بخصوص مسيرة Whyte المهنية وكتاباته حديثاً، راجع التالي:

The Essential William H. Whyte, edited by Albert LaFarge (New York, 2000); cf. Michael T. Kaufman, 'William H. Whyte, "Organization Man" Author and Urbanologist, Is Dead at 81', *The New York Times*, 13 January 1999, www.nytimes.com/1999/13/01/arts/william-h-whyte-organization-man-author-and-urbanologist-is-dead-at-81.html.

نشرت مقالة "groupthink" التي كتبها Whyte للمرة الأولى في مجلة *Fortune* عام ١٩٥٢. يمكن العثور عليها عبر الإنترنت على الرابط التالي:

fortune.com/2012/22/07/groupthink-fortune-1952

تأسست هذه المجلة الشهرية في عام ١٩٢٩، وكانت تتميز بصورة فاخرة ولامعة، واستهدفت مباشرةً الأثرياء والناجحين، وأعلن مؤسسها Henry Robinson Luce في النشرة الأولى للمعلنين أن هدف المجلة هو أن تكون "المجلة الراقية المثالية" لـ"الأثرياء والمؤثرين". يمكن الرجوع إلى:

Joseph Epstein, 'Henry Luce & His Time', *Commentary*, 44:5 (1967), 35–47, p. 37.

يمكن أيضاً الرجوع إلى:

Anon, 'About Us', *Fortune*, [n.d.], fortune.com/about-us/.

أشاد عالِم الاجتماع والكاتب C. Wright Mills، مؤلّف كتاب *The Power Elite* (١٩٥٦) [الطبقة العليا الحاكمة] مجدداً بـWhyte، مؤكداً أن الأخير "فهم أن القيم التقليدية للعمل الشاق والتقشف التي تؤدي إلى النجاح قد انخفضت بشكل كبير، ما عدا في الكلام الذي يصدر عن القادة الرئيسيين". وأشار إلى أن "الاندفاع نحو النجاح كرائد أعمال قد استُبدل بشكل كبير بالتقدم البطيء داخل المؤسسات". يُذكر هذا الاقتباس في رثاء Kaufman لـWhyte. وفي رثاء آخر كتبه Godfrey Hodgson في عام ١٩٩٩ عند وفاة Whyte، وُصف Whyte بأنه "جزء لا يتزعزع من النظام الرسمي السائد وعضو محافظ في طبقة النبلاء الأميركية". راجع أيضاً:

Godfrey Hodgson, William H. Whyte, obituary, *Guardian*, 15 January 1999, www.theguardian.com/news/1999/jan/15/guardianobituaries1.

كان وايت يشعر بالقلق من أن الشركات كانت تخلق نوعاً جديداً من الكهنوت العلماني، فأشار إلى مجموعة من الطقوس والعبادات والعادات في هذا الصدد. غُرست القيم الأساسية عبر مختلف الوظائف والمهن، وكان التكيف والتماهي هما الهدف الرئيسي لتلك الشركات بالنسبة إليه. ولذلك، اعتقد أن هناك تشابهاً كبيراً بين عقول الأشخاص، مثل الطبيب المتفرغ الذي يعمل في العيادة أو المستشفى، والعالِم الشاب في مختبر حكومي، والمهندس المبتدئ في غرفة الرسم الكبيرة في شركة مثل Lockheed، والمحامي الصغير في مكتب قانون وول ستريت. على الرغم من أن لديهم جميعاً وظائف متخصصة مختلفة وخبرة تقنية، ولكن على مستوى أعمق، بدوا كأنهم من النوع نفسه. رأى وايت أن هناك تنسيقاً تلقائياً وغريباً ومريحاً في قيم وأساليب الحياة كان يحدث، وقال إن المدارس والجامعات كانت تنتج مزيداً من الأشخاص الاجتماعيين والراضين ذاتياً والموجهين تقنياً؛ جيلاً يتطلع للعمل في كيان تجاري والاندماج في الجهد الجماعي لشركته أو عمله. وفقاً لهذا الرأي، كانت الولايات المتحدة تتحول بسرعة إلى مجتمع موحد من خريجي الأعمال والمهندسين والخبراء التقنيين الذين يشاركون في افتراضات مشتركة ومعتدلة وغير قابلة للجدال. في النهاية، حذر وايت من أن هذه المرحلة الباهتة من التفكير الجماعي قد تقيد قدرة الغرب على الفوز في الحرب الباردة.

لدى وايت كل الأسباب للاهتمام بانتشار الشركات الكبيرة وتزايد تأثيرها. في مقاله الخفيف اللمسة لعام ١٩٥٢ وكتابه الأكثر تفصيلاً، قدم تحليلاً بارزاً. ما كان يخيف وايت هو احتمال أن المعتقدات المتجانسة تنتشر في النهاية بين جزء كبير من السكان، مما يقلل من التفاوت في السمات الفردية والشخصيات لديهم، كما كان يشعر بالقلق أيضاً من أن موظفي الشركات، الذين كانوا نظرياً حرّين في التخلي عن وظائفهم والبحث عن فرص جديدة، كانوا يُشجَّعون بصورة غير مباشرة على البقاء في الشركة أو الجهة أو الإدارة نفسها لمدى حياتهم المهنية. قد يجدون الأجور والأمان الوظيفي، بالإضافة إلى مستوى التعويض في الشركات وجميع المزايا والدعم المتعلقة بها، جذابة لدرجة أنهم قد يجدون صعوبةً في مقاومتها.

يعتقد وايت أن العديد من القادة العليا في عالم الأعمال وعائلاتهم قد يبقون في

مكان واحد لمدة طويلة، قد ينتقلون إلى مناطق مختلفة في البلاد فقط عندما تتطلب منهم منظمتهم أو صناعتهم ذلك. كان وايت يشعر بالقلق من أن الولاء، الذي كان موضوع تقدير كبير ونادراً ما يشكّ فيه، قد بدأ يصبح مبدأً إدارياً رئيسياً. نتيجةً لذلك، اعتقد وايت أن الخريجين الشبان كانوا يتعرضون بفعالية للتأهيل للاعتقاد بأن مستقبلهم يتضمن أن يكونوا أجزاءً موثوقةً من مؤسسات ضخمة مثل Ford أو General Electric أو بعض فروع الحكومة الفيدرالية، دون تشجيعهم على تحطيم القواعد المعتادة أو بدء مشاريعهم الخاصة الصغيرة أو مشاركتهم في ما سُمّي في ما بعد بـ"الشركات الناشئة". كان وايت يتمنى اقتصاداً يكافئ القوى العاملة عندما يخاطرون ويتحدون الأفكار المتعارف عليها، ويستكشفون أراضي جديدة، ويتقبلون الفشل، ويسعون إلى تحقيق نجاح ملحوظ. باختصار، يريد رؤية نسخة من الحلم الأميركي يتحقق. على الرغم من أن عبارة "التفكير خارج الصندوق"، أي التفكير خارج النطاق التقليدي والمألوف، لم تكن مشهورةً في الخمسينيات، فإنّها تعبّر عن الروح نفسها التي راهن عليها وايت.

كانت هذه التصورات للتفكير الجماعي تحمل بعض العناصر الجديدة، لكنها استندت أيضاً إلى أفكار قديمة. في السابق، كان هناك العديد من النقاشات الحادة حول التأثيرات المدمرة لخطوط الإنتاج الجماعي على العمال، وكان، في أوروبا وكذلك الولايات المتحدة، قبل خمسين أو مئة عام من وصف وايت، العديد من التأملات حول "الرجل في الحشد" (man in the crowd)، وحول ملل الطبقة الوسطى، وعدم تحمل الجمهور العام للأفراد الذين يتميزون، مثل المناضلين والعباقرة والفنانين الغرباء. أحد أوائل الأشخاص الذين تحدّثوا عن التوجهات الملائمة للأميركيين كان الديبلوماسي والمسافر والكاتب الفرنسي ألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville، الذي كتب بتأريخ من ١٨٣٥ إلى ١٨٤٠ كتاباً يُسمّى *Democracy in America* [**الديموقراطية في أميركا**]. قدم توكفيل رؤيةً ممزوجةً بالإعجاب والرهبة حيال الحياة في العالم الجديد. قدم في هذا العمل ملاحظات حادة حول سطوة الغالبية ومخاطر التوجه نحو التشابه والاتفاق الجماعي من دون تفكير تجاه المعتقدات الشائعة. الفيلسوف الليبرالي الكبير جون ستيوارت مل John Stuart Mill بدوره توقع في العصور الفيكتورية بعض

المخاوف التي أبداها وايت حول خطورة التوافق. كان يقلق من توقف الناس عن التفكير نقدياً في المجتمع، فيصدقون بسرعة المعتقدات الشائعة دون أي تردد. أما الكاتب الفرنسي جوستاف فلوبير Gustave Flaubert، فقد أعدّ *The Dictionary of Received Ideas* [معجم الأفكار الجاهزة] الخاص به في السبعينيات من القرن التاسع عشر، وضمّ أمثلةً على "التفكير الجماعي" قبل أن يشتهر هذا المصطلح بشكله الحالي.

دارت المناقشات السابقة حول ظاهرة التفكير الجماعي بعد الحرب العالمية الثانية حول مسائل مهمة. كانت إحدى تلك المسائل القلق من أن الناس قد يتبنون آراءً جماعيةً مثل "قطيع" أو "قبيلة"، فيتشابهون تدريجاً مع بعضهم، ويتبنون التيارات والأزياء، ويكررون بلا تفكير القوانين الاجتماعية دون ممارسة الحكم الفردي، وكانت مسألة أخرى هي النفوذ المحتمل للشركات في القضاء على الحكومات والشعوب. حاول واضعو دستور الولايات المتحدة إنشاء نظام يمنع صعود أي سلطة استبدادية (مثل النظام الملكي)، أو شركة تجارية ضخمة (مثل شركة الهند الشرقية East India Company، من السيطرة مرةً أخرى. تعلم الأميركيون كيف أن حادثة حفلة الشاي في بوسطن (Boston Tea Party) عام ١٧٧٣ كانت استجابةً لقانون الشاي (Tea Act) الذي حمى مصالح شركة الهند الشرقية على حساب الباتريوت الأميركي. حذر جون ديكنسون John Dickinson، وهو شخصية مهمة خلال الثورة الأميركية، من أن جنود شركة الهند الشرقية، بعد أن نهبوا ثروات كبيرة في الهند، أصبحوا الآن يتجهون نحو أميركا كساحة جديدة لممارسة مهاراتهم في نهب الموارد وقمع الناس وممارسة القمع.[1]

---

١ مذكور في:

William Dalrymple, 'The Original Evil Corporation', *The New York Times*, 4 September 2019, www.nytimes.com/201904/09//opinion/east-india-company.html.

راجع أيضاً:

Arthur Meier Schlesinger, 'The Uprising Against the East India Company', Political Science Quarterly, 32:1 (1917), 60–79.

وللمزيد من السياق، راجع الكتابين التاليين:

Dalrymple, *The Anarchy: The Relentless Rise of the East India Company* (London, 2019); Eric Foner, *The Story of American Freedom* (NewYork, 1998).

توقعت هذه الجدليات بعضاً من الشكاوى التي أصبحت شائعةً في القرن العشرين، إذ كانت تستهدف الشركات التي لا يمكن محاسبتها وشركات المتعددة الجنسيات الجشعة، بحيث يمكن أن تكون قوتها في النهاية تهديداً للأمم. في القرن الثامن عشر، كان لشركة الهند الشرقية، حسب انتقادات خصومها المتشددين، نفوذ واسع النطاق. كانت لديها الموارد المالية لدعم أجيال من المحامين ومندوبي الصالونات، وإذا لزم الأمر، يمكنها التلاعب بالدولة السياسية لتحقيق أهدافها وشراء أصوات أعضاء البرلمان البريطاني.[1] اعتقد وايت أن في عصره قد تنمو الشركات الأميركية بصورة مفرطة وتكتسب القدرة على التأثير على أفكار وحتى مشاعر موظفيها، وأن هذه المؤسسات تخلق شعوراً قوياً بـ"الانتماء". في كتابه الشهير *The Organization Man* [الإنسان التنظيمي]، سلط الضوء على التناقض الذي قد يؤدي إليه التحالف العالمي المناهض للشيوعية الذي تقوده الولايات المتحدة، والذي يمكن أن يقوّض عن غير قصد الحرية والابتكار اللذَين يمجدهما هذا التحالف. بينما دافع الغرب بحزم عن حقوق الفرد مقابل ما اعتُقد أنه تكيف نفسي في الدول الشيوعية الشرقية، ادعى وايت أن شركات الغرب قد أيضاً تتلاعب بعقول موظفيها والأجيال الشابة.

غالباً ما بدت الكتب الإرشادية واختبارات المجلات والمقالات في تلك المرحلة كأنها توجه الجمهور نحو قيم ضمنية معيّنة تعزز التشدد وتحدد بوضوح القيم المثلى للمواطنة والحياة الأسرية. على سبيل المثال، قدم الطبيب وعالِم النفس المحافظ د. جورج كرين George Crane إرشاداً أخلاقياً صريحاً. وُزّعت استبيانات كرين على نطاق واسع في مجلات تتميز بانتشارها، حيث دعا القراء لتقييم حالة مسارات حياتهم المهنية وعلاقات الحب والزواج وأمور أخرى، مما ساعدهم على تحديد نجاحهم أو المجالات التي تحتاج إلى تحسين وفقاً لمعايير كرين. قدّم هذه الاختبارات في أواخر الثلاثينيات ووسّع نطاقها بعد الحرب العالمية الثانية. وفقاً لاستبياناته، اعتبر كرين الرجال الأميركيين ناجحين إذا استطاعوا التأكيد على مثل هذه الصفات: الاستقرار الوظيفي، وفرص العمل الجيدة، واللباقة والشهامة والاهتمام بالموضة والإعجاب بطهي زوجاتهم وأعمالهن المنزلية. أما النساء فكان بإمكانهن تحقيق درجات عالية

1 Dalrymple, 'The Original Evil Corporation'.

بالتأكيد على عادات مثل الذهاب إلى السرير في الوقت نفسه الذي يذهب فيه الزوج إلى سريره، وتجنب اللهجات والألفاظ البذيئة، وإصلاح الجوارب، وخياطة الأزرار، والضحك على نكات أزواجهن. "السيد" و"السيدة" حصلا على درجات استناداً إلى إجاباتهما في هذه الاستبيانات. هذه الدرجات كانت إما "جيدة" إذا كانت الإجابات جيدة وإما "مرفوضة" إذا لم تكن الإجابات جيدة.[1] كان الدكتور جورج كرين يمثل وجهة نظر محددة متمثلة في القوى المحافظة والدينية. كتب مقالات لصحف مختلفة، وأسس حتى وكالة زواج علمية في الخمسينيات من القرن الماضي، وادعى أنها تهدف إلى تنظيم زواج بين شخصين يُعتبران مؤهّلَين أو ملائمَين للزواج بناءً على مجموعة معيّنة من المعايير. على الجانب الآخر، تحدى وايت فكرة أن اتباع مسار آمن ومتوقَّع في الحياة ضروري لتحقيق مسيرة إدارية ناجحة. في كتابه *The Organization Man*، أبرز مشاكل كبيرةً وأظهر كيف يُعامَل الناس كأنهم جزء من وحدة اصطناعية متناغمة. مع ذلك، لم يتناول كتاب وايت كيفية مواجهة النساء قيوداً في حياتهن المهنية أُطلق عليها في وقت لاحق مصطلح "السقف الزجاجي" (الذي ابتكرته مستشارة إدارية تُدعى مارلين لودن Marilyn Loden في عام ١٩٧٨)[2]، وكيفية تأثير التمييز العرقي على فرص الأشخاص ذوي الأصول المختلفة غير البيضاء.

كما يشير عنوان كتابه، افترض وايت عالماً يتم فيه حجز جميع المناصب الرفيعة في مجال الأعمال للرجال. كان على دراية بأن العديد من النساء كنّ يعملن، وأنهن لسن جميعهن ربّات بيوت من الضواحي رغم أنه أَولى اهتماماً كبيراً بهذه الفئة من المجتمع. في الولايات المتحدة، وكذلك في المملكة المتحدة، كانت وظائف الرتب العليا في قطاع الشركات تقريباً حكراً على الرجال. كان يفيد كثيراً (أو حتى يُعتبر ضرورياً، حسب النادي أو المنظمة الخاصة) أن يكون المتقدم للوظيفة من الأميركيين

---

1 Nick Joyce and David Baker, 'Husbands, rate your wives', American Psychological Association, *Monitor on Psychology*, 39:5 (2008), 18, www.apa.org/monitor/2008/05/marriage.

يمكن الرجوع أيضاً إلى:

Loxley Nichols, 'Keeping Up with Dr. Crane', *Flannery O'Connor Bulletin*, 20 (1991), 22–32.

2 Marilyn Loden, '100 Women: "Why I invented the glass ceiling phrase"', BBC News, 13 December 2017, www.bbc.co.uk/news/world-42026266.

من أصول أنجلو سكسونية وبروتستانتية ومن ذوي البشرة البيضاء (WASP).[١]

أدرك وايت كيف يمكن أن يُتوقع من الرجل الموظف في الشركة أن يكون لديه زوجة تتوافق مع معايير الشركة، وتنظم حفلات العشاء، وتكون رفيقةً لطيفةً في المناسبات الاجتماعية. لاحظ أن مجموعة من المديرين الذين يتقاضون رواتبَ عاليةً غالباً ما يعملون على ترقية الأشخاص الذين يشبهونهم، مما يسهم في وجود نظام مستدام لا يشعرون بأي حاجة لسؤاله أو التدقيق فيه ولا يتوفر لهم أي حافز للقيام بذلك.

رأى وايت أيضاً أن الفوز على النازية، بالرغم من أهميته الواضحة وملاءمته للاحتفال به، ساهم في تكوين جو معادٍ للسلطة في بلاده. في بعض الحالات الشديدة، يمكن أن يكون لهذا تأثيرات سلبية غير مقصودة. على سبيل المثال، يمكن أن يؤدي إلى أن يصبح الرجال قلقين للغاية من أنهم سيُصنَّفون فوراً كمستبدين ومتنمرين إذا خالفوا القوانين، وقد يصبحون مطيعين وموجَّهين نحو فريق الشركة وموظفيها الذين يتبعون تعليمات معيّنة دون أن يسألوا. إذا قرأت كتاب وايت، قد تعتقد أن جيلاً كاملاً يتصرف مثل مجموعة، يتفقون ويتعاونون مع بعضهم بعضاً، ويتحدثون بطريقة لطيفة عند لقائهم بعد العمل أمام منازلهم التي تُبنى على نمط المزارع الصناعية الزائفة فتبدو كأنها في الريف، ولكنها في الواقع جزء من المدينة أو الضواحي. قد يشكون قليلاً من حياتهم المزدحمة، على الرغم من أن معظمهم لا يعتزمون الاستقالة من السباق اليومي. كما قال وايت لقد اعتنقوا أيديولوجيا التجمع التي كانت تتعارض مع الأخلاق البروتستانتية في العمل، والتي لعبت دوراً مهماً في نجاح الرأسمالية. في الواقع، كان يرى أن هناك تغييراً كبيراً في الزمن الحالي، بعيداً من التركيز السابق على الخلاص الفردي والجهد الشخصي، مضيفاً أن الشيء الذي يُطلب في الزمن الحالي من جميع هؤلاء الموظفين أساساً هو "الولاء".

---

١ ظهر مصطلح WASP بعد الحرب واستخدمه عدد من الكتّاب للكشف عن الطبيعة الحقيقية للنخبة الأميركية، وتحدي الحواجز العرقية أو الدينية في الدخول إلى فرص أو مواقع معينة، والاحتجاج على نقص المنافسة الشفافة والمفتوحة للحصول على المقاعد المرموقة في مؤسسات التعليم وفي الوظائف ذات الرواتب العالية. واحدة من الدراسات الملحوظة في هذا السياق كانت كتاب:

E. Digby Baltzell's *The Protestant Establishment: Aristocracy & Caste in America* (New Haven, 1964). Cf. Isabel Wilkerson, *Caste: The Lies That Divide Us* (New York, 2020).

هناك مشكلة أخرى أقلقت وايت. لم تكن الشركات الكبيرة تعامل الفرد على حِدة كوحدة مهمة بمفرده، بل كانت تضع المجموعة، أو الجماعة، كالوحدة الرئيسية التي تمثل القيمة والأهمية. كانوا يحترمون العلم بسذاجة، دون أن يكونوا على دراية كافية بما هو واقعي وصحيح. بالأحرى، كانوا، على حساب الإبداع، يحترمون صيغاً شبه علمية، أي تلك الأفكار أو الأساليب التي تبدو علميةً ولكنها في الواقع ليست كذلك. كان هذا النهج غير مناسب لتشجيع الأفكار الجديدة والابتكارات التي تمكّن من تحقيق التجدد والتطور في المستقبل. لذلك، كان يجب على "الإنسان التنظيمي" وفقاً لوايت، أن يتجانس مع الشركة في طريقة التفكير ويقبل باستخدام أساليب حل المشكلات نفسها التي تظهر على أنها علمية. ولذلك، دعا وايت إلى تغيير في كيفية تدريسنا وإجراء أعمالنا وإدارة حكومتنا. حثّ ثقافة الولايات المتحدة على إبراز الأفراد غير التقليديين والاحتفاء بهم وتعزيز التسليم بمدى تنوع البشر، بدلاً من الرجوع باستمرار إلى المواطن "النموذجي" المفترَض الذي يشترك في الأفكار مع الآخرين.

كان هدف وايت تحسين الشركات في المستقبل، وربما حتى زيادة فعاليتها (على الرغم من أنه قد دعم فكرة "الصغير جميل"، التي ستصبح لاحقاً جزءاً من انتقاد كبير للرأسمالية والشركات الكبيرة). لم تتطابق حجته مباشرةً مع آراء أيّ من الأحزاب السياسية الرئيسية في الولايات المتحدة خلال الخمسينيات، وبدت بعض انتقاداته تتحدى الكثير من الخطاب السياسي المسيطر في تلك الحقبة. بعض ما قاله كان يتعارض مع ما كان يقوله السياسيون في تلك الحقبة. في خطابهم، كان هناك تصوير بأسلوب مهني لعدو توتاليتاري يواجه مجموعةً أو جماعةً من الناس متحدة تحت راية التفكير الجماعي ومتزنة ذهنياً؛ مجموعةً يُشار لها بـ"نحن" الخيالية، حيث يندمج كل أفراد هذه المجموعة ويعيشون حياةً متشابهةً ويتوافقون ويشاركون اتفاقاً واسع النطاق. تحدث وايت عن مثال الحرية الذي كان يظهر كأمر يُحتفى به، ولكن في الواقع، كان الأفراد يتبعون مجرد تقليد لِما يفعله الآخرون دون أن يفكّروا في أنفسهم. كان مثال الحرية مجرّد وعد يُحتذى، ولكن في الواقع، كما يرى وايت، كان الحرية مفقودة، وكان هناك فقط امتثال للقواعد دونما تفكير.

أرسل الرئيس ترومان رسالةً واضحةً تفيد بأن الأميركيين كانوا فخورين بتفردهم كمجموعة واحدة، ومحبين للحرية والعدالة، وجاهزين لحماية هذه القيم بصورة كاملة. حث الناس على نسيان اختلافاتهم والعمل معاً كأميركيين قويين، ولكن كانت المشكلة أن للأشخاص المختلفين أفكاراً مختلفة حول ما يعني أن تكون أميركياً بنسبة ١٠٠%.[١] في الخمسينيات، شمل أيضاً أيزنهاور، الرئيس الذي خلف ترومان، في خطبه دعوات متكررة للوحدة، مؤكداً الغرض المشترك والولاء. قدم توصيفات من شأنها أن تُفَصّل ما يجمع الأمة وما كانت تشارك فيه وتؤمن به بإخلاص. في بعض الأحيان، حث زملاءه الأميركيين مباشرةً على تجاوز اختلافاتهم السياسية والنظر في أنهم ليسوا في صراع مع بعضهم بعضاً، بل مع عدو توتاليتاري قوي. ناشد مشاعرهم العميقة نحو مجتمع أميركي متّحد. ساهم فنانون مثل نورمان روكويل Norman Rockwell في هذا التسليم، فقدموا تصويراً مؤثراً لعالم وثيق الارتباط يجسد الأميركيين

---

١ في خطاب Truman الذي ألقاه خلال حفل تدشين المقر الجديد لجمعية American Legion، المنظمة الوطنية للمحاربين القدامى، أثنى على التزام المنظمة بالمحافظة على قيم أميركية مثل العدالة والحرية والديموقراطية ونقلها إلى الأجيال القادمة. وقد تعهد أعضاء المنظمة بـ"الالتزام بحماية الدستور الأميركي والدفاع عنه وتعزيز الهوية الأميركية القوية".
أصرّ Truman على أن "الهوية الأميركية" تعني حرية الفرد في التعبير واختيار الديانة، والعيش من دون تمييز اجتماعي وتحامل عنصري، والاعتقاد بفرصة محاكمة عادلة والثقة بالنظام الأميركي، وأكد أن ذلك يتطلب العمل واليقظة والنضال ضد المصالح المظلمة. حثّ الناس على "العمل معاً" كـ"مجتمع واحد عظيم"، وحذّر من أن الولايات المتحدة كانت تتعرض للهجوم، ليس فقط من الشيوعية والجواسيس والمخربين، ولكن أيضاً بفضل تصورات المؤامرات لبعض الأميركيين الذين يقوّضون "الهوية الأميركية" بهدف "نزع حرياتنا الأساسية بطريقة مغرية وأكثر فعالية بكثير مما استطاع الشيوعيون عمله على الإطلاق". وختم Truman بالقول: "علينا أن نقاتل من أجل الهوية الأميركية بنسبة ١٠٠%". جاء خطاب Truman في "افتتاح المقر الجديد لجمعية American Legion في واشنطن" في ١٤ آب/ أغسطس ١٩٥١.
يمكن الرجوع إلى ذلك عبر الرابط التالي:

www.trumanlibrary.gov/library/public-papers/191/address-dedication-new-washington-headquarters-american-legion.

كما أظهرت الدراسات التاريخية، فإن وحدة وتجانس المجتمع الأميركي الذي رسمته هذه الخطبة كانا مضلّلين. على سبيل المثال، أشارت Mary Caputi في كتابها حول الأساطير في الخمسينيات إلى أن عشرات الملايين من الأميركيين عاشوا في حالة فقر في منتصف ذلك العقد، وكانت نسبة ٦% فقط من المدارس متكاملةً عنصرياً. انظر إلى كتاب Mary Caputi التالي:

A Kinder, Gentler America: Melancholia and the Mythical 1950s (Minneapolis, 2005), pp. 141–2.

النموذجيين والرفاق بأسلوب مشوق. أدى هذا التصوير إلى ظهور مصطلحات مثل Rockwellian أو Rockwellesque.

في دراسته لظاهرة الفكر الجماعي الوطني، قام وايت أساساً بمراقبة العادات والسلوكيات في قطاع معيّن من الطبقة الاجتماعية في مناطق محددة داخل الولايات المتحدة. كان لأفكاره تأثير كبير وهي مثيرة للاهتمام حتى يومنا هذا. هدفي هو مقارنة تحليله بأبحاث أخرى حول مفهوم التأقلم مع الثقافة الذي أسفر عن استنتاجات مختلفة. أنا أيضاً أنوي التركيز على بعض الحلول المقترحة في ذلك الوقت لمواجهة التأقلم، بما في ذلك فكرة إلغاء الرأسمالية بدلاً من إعادة إحيائها. سأستعرض تفصيلياً مصطلحي "الفكر الجماعي" و"الإنسان التنظيمي" لأنهما يمثلان جزءاً إضافياً من اللغة التاريخية لدينا حول التكيف العقلي وعمل عقول الناس ومراقبة الأفكار وتحكم الناس في ما يفكّرون وضبط سلوكهم وتصرفهم. تلك الأفكار نشأت بعد الحرب ولا تزال تؤثر في كيفية مناقشة الناس للسياسة وإدارة الأمور لمدة طويلة.

قدم وايت وصفاً جذاباً للصفات والأنماط التي كان يمكن للعديد من قرائه التعرف عليها في تلك الحقبة. كان عمله جزءاً من أصناف كتب تسعى إلى مساعدة العاملين في الشركات على أن يصبحوا أكثر ابتكاراً وتميزاً وبالنهاية أكثر ربحية. حدد وايت ونقاد آخرون مماثلون شيئاً كان بالتأكيد حقيقياً؛ كيف يمكن لمكان العمل أن يؤثر نفسياً واجتماعياً في الأفراد ويفرض عليهم إجراء تعديلات طفيفة دائمة من أجل تأقلمهم مع المكان. قد يُستبعد المرشّحون للوظائف الذين كانوا مؤهلين بصورة عامة ولكن يُعتبرون "ليسوا من نوعنا"، وقد يُختار آخرون خلال مقابلات العمل لأنه يُعتقد أنهم طبيعياً يتناسبون مع الوظيفة، استناداً إلى افتراضات معيّنة مسبقاً، مما يقلل أو حتى يلغي مفهوم المجتمع المفتوح أو مبدأ الجدارة الحقيقية.[١]

أدرك وايت أن كل عمل تجاري، بغض النظر عن حجمه، يكون أكثر تنوعاً مما

١ لمقارنة شافية حول الدور المميز للمدارس والجامعات، وبصورة عامة حول طرق الالتحاق والحواجز التي تواجه المتقدمين للمناصب العليا في مجال الأعمال والحكومة في بريطانيا وألمانيا وفرنسا والمملكة المتحدة، انظر إلى:

Elise S. Brezis and François Crouzet, 'Changes in the Recruitment and Education of the Power Elites in Twentieth Century Western Democracies' (2002), Bar-Ilan University Department of Economics, Working Papers, ideas.repec.org/p/biu/wpaper/2002-15.html.

يُوحى به في وصفه، لكنه لم يُرِد لقرّائه أن ينغمسوا في التفاصيل إلى درجة فقدان الصورة الكبيرة. قدّم حجةً واضحةً حول الاتجاه المحتمل الذي قد يسلكه المجتمع والاقتصاد إذا لم تُتّخذ إجراءات تصحيحية عاجلة، وكان مهتماً بالتنقيب بعمق لاستكشاف الثقافات الفرعية داخل المؤسسات، حتى داخل أقسام مختلفة في الشركات، على سبيل المثال، كيف تختلف الأشخاص في قسم "الحسابات" عن الأشخاص في أقسام "الإبداع" أو "التصميم". ما لم يكن واثقاً منه هو ما إذا كانت الثقافات التنظيمية أي المعتقدات والقيم والسلوكيات التي تتسم بها الشركة، التي وضّحها، ستتأقلم في النهاية أم ستتوقع ببساطة من موظفيها التأقلم معها. في الواقع، حاول كثيرون في عالم الأعمال مواجهة التحديات التي طرحها مثل هؤلاء النقاد، وسعوا إلى تحويل بيئات العمل المملة وتقييد انتشار ظاهرة الفكر الجماعي التي اشتهر بها وايت في سرده لـ*The Organization Man*.

محاولات كثيرة بُذلت للتصدي للمخاطر التي حددها وايت. في الواقع، إذا قفزنا نصف قرن إلى ما بعد تحذيرات الخمسينيات حول الثقافات الشركية المتجانسة والمتوافقة على كل شيء، يمكننا أن نرى أن أكثر الشركات المبتكرة في صدارة ثورة الوسائط الرقمية، مثل Pixar، أو في ما بعد Apple بقيادة ستيف جوبز Steve Jobs، تسعى لتصميم بيئات عمل تشجع، أقله بعض موظفيها الأكثر امتيازاً، على كسر التقاليد والابتكار المستمر. وفي حين يتوجب على العديد من العاملين في قطاع التكنولوجيا الكبير، بالطبع، أداء وظائف قياسية ومتجانسة، يُفترض على آخرين في القطاع أن يفكّروا بحرية ويستفيدوا من بيئات تشبه الحرم الجامعي، مما يتيح لهم فرصة التفاعل الجماعي والفردي ويعزز التنوع ويشجع على الابتكار في مختلف المجالات.

صُمّمت هندسة مكاتب الشركات التكنولوجية العملاقة الجديدة في بعض الحالات بهدف منع خطر عزل الموظفين ومكافحة التشدد في العمل. اختلفت هذه الشركات العملاقة في وادي السيليكون (Silicon Valley) من حيث المبادئ والأسلوب، ولكن العديد منها قام بتوسيع فكرة تصميم المكتب المفتوح بحيث تكون مكاتب الموظفين مفتوحةً على بعضها دون حواجز تفصل بينها، والتي بدأت بالفعل في الانتشار في الستينيات. الهدف من ذلك هو تشجيع التفاعل المنتظم بين الموظفين وتحفيز

التفكير الإبداعي. "الحرم الجامعي" في هذه الشركات التكنولوجية يسمح للموظفين بالتواصل وممارسة الأنشطة الترفيهية مثل التزلج أو البينغ بونغ، وحتى الوصول إلى الرعاية الطبية في مكان العمل. يبدو أن هذا يعطي الأولوية للعناية والحرية والاحتفال بالأفكار غير التقليدية والأصلية رغم أن هذه المنظمات تقدم أيضاً أشكالاً جديدةً من المراقبة والسيطرة.[١] انتقد كتّاب عدّة في السنوات الأخيرة، بمن في ذلك ديف إغرز Dave Eggers في روايته *The Circle* [الدائرة] عام ٢٠١٣، الجوانب المظلمة لهذا النهج الجديد للعناية والتعرض المستمر والضغوط الاجتماعية والرصد الرقمي عبر الإنترنت (سواء للموظفين أو العملاء) في إمبراطوريات الشركات الكبرى وسخروا منها.[٢]

في الواقع، حتى في الوقت الذي كان وايت يتحدث فيه لأول مرة عن فكرة التفكير الجماعي، كان هناك أشخاص آخرون مثل الكتّاب وقادة الأعمال قد وضعوا أفكاراً لمعالجة هذا الموضوع. إذ كانت لديهم أيضاً طرق لتحفيز الموظفين للالتقاء والتحدث أكثر خلال استراحة العمل، وهذا ما حدث حتى قبل ظهور التصاميم المتقدمة للمكاتب وقبل الإبداعات التكنولوجية في وقت لاحق في القرن العشرين. كانوا يروجون لفكرة تُسمّى "العصف الذهني" بعد الحرب العالمية الثانية وذلك لجعل الشركات والمنظمات أكثر نشاطاً. العصف الذهني هو فكرة أصبحت مهمة ومبالغاً في استخدامها مثل التفكير الجماعي. قدمها لأول مرة، إن لم تكن فكرةً مصوَّرةً تماماً، المدير التنفيذي الإعلاني الريادي الأميركي ألكس فايكني أوزبورن Alex Faickney Osborn. كان لديه فصل بارز في كتابه عام ١٩٤٨ *Your Creative Power* [قوة إبداعك]. في هذا الفصل تحت عنوان "How to organize a squad to create ideas" [كيف تُنظَّم المجموعة لإنتاج الأفكار]، كان متحمساً جداً لاستخدام

---

1 Ed Catmull, 'How Pixar Fosters Collective Creativity', *Harvard Business Review*, September 2008, hbr.org/2008/09/how-pixar-fosters-collective-creativity. Cf. Walter Isaacson, Steve Jobs (New York, 2011), pp. 362–3, 431.

٢ تصوّر الرواية النقطة النهائية المنطقية للرقابة الشركاتية على الموظفين في شركة تشبه إحدى الشركات التكنولوجية الكبيرة في الولايات المتحدة. يتمتع الموظفون بامتيازات فاخرة، إلا أنهم يتعرضون لتكريمات ومكافآت مبالغ فيها، أو تعابير "اهتمام"، كما تُتّخذ إجراءات عقابية ومظلمة بحقهم إذا اختاروا الانسحاب.

Dave Eggers, *The Circle* (London, 2013).

تشبيه عسكري أراد من خلاله من القراء أن يفكّروا في استخدام العقل للتصدي لمشكلة بحاجة إلى الإبداع لحلها، وأن يفعلوا ذلك "مثل فريق كوماندوز، بحيث يهاجم كل شخص الهدف نفسه".[١]

كان العصف الذهني، في رؤية أوزبورن، وسيلةً لتشجيع الشركات على إنشاء مجموعات منتجة لشيء مختلف تماماً عن تفكير المجموعات التقليدية. يمكن تنظيم الشركات بحيث يشارك جميع موظفيها بنشاط في العمل العقلي المنتج؛ يعملون معاً، ليس فقط في استقبال توجيهات أو اتباع إرشادات الشركة سلباً. يمكن لشخص واحد أن يقدم فكرة، مما يثير استجابات غير متوقعة لدى آخرين، فتتطور هذه الفكرة في ذهن شخص ثالث قبل أن تنتقل مرةً أخرى، تماماً كما يحدث في لعبة سريعة لتمرير الكرة، بحيث ترتد الاقتراحات المتنوعة بحرية. وشدد أوزبورن على أهمية التخلص من التسلسل الهرمي في اجتماعات العصف الذهني هذه والسماح للأشخاص باستكشاف أي مسارات فكرية يرغبون فيها.

ربما هناك تشابه بين الوصفِ المشجّع الذي قدمه أوزبورن ونظريةِ التحليل النفسي التطبيقي. بالتأكيد، كان هناك أمل لدى الناس أنه بإمكانهم التعرف على العمليات العقلية غير الواعية، واستيعابها واستخدامها في مجال الأعمال. أوصى أوزبورن بأن تتم رعاية إبداع المجموعة بعناية خلال جلسات العصف الذهني: علينا تجنب تقديم الردود السلبية تجاههم، أو حتى تعبيرات الملل والاستياء التي يمكن أن تكبح الفكر الحر لديهم، ويجب أن نتدارك أي تعبير مبكر لعدم الرضا والانزعاج الذي يشير إلى مزاج سلبي داخل المجموعة، فإن ذلك يمكن أن يؤثر سلباً في مزاج الجلسة بأكملها وفي تدفق حرية التفكير والإبداع لدى الآخرين ويكبح الأفكار الناشئة، بدل أن يشجعها. حتى لو لم تبدُ متطورةً تماماً في البداية بنظر معظم الأشخاص أو كبار الموظفين، كانت عملية العصف الذهني تهدف إلى فتح إمكانيات الأفراد وتشجيعهم على التفكير بحرية. أراد أوزبورن أن يلهم الشركات الأخرى لاعتماد تقنياته من خلال

---

١ راجع الكتاب التالي:

Alex Osborn, *Your Creative Power: How to Use Imagination* (New York, 1948), p. 265.

ذكر Osborn أنه في عام ١٩٣٩ نظّم "لأول مرة مثل هذا التفكير الجماعي" في شركته. وأطلق المشاركون الأوائل عليها "جلسات العصف الذهني".

تحديد أوقات محددة لجلسات العصف الذهني وتوفير أماكن لهذا الأسلوب الأكثر استرخاءً في العمل. لقد سمح هذا النهج للجميع بالتعبير حتى عن أغرب أفكارهم لأنه لم تكن هناك وسيلة للتأكد من أنّ ما قد يبدو غريباً في البداية لن يتحوّل لفكرة رائعة في ما بعد. في هذه الأساليب، أو على الأقل في النسخة المثلى لهذه الأساليب، كان إبداع الجميع وأساليب التفكير حقاً مهمين.

صُمّم العصف الذهني للإشادة به كأداة يمكن تطبيقها في الغرفة الصفيّة وغرف الاجتماعات وأماكن العمل. اقترح أوزبورن أنه يمكن توظيفها في البيئات الجديدة أيضاً واستخدامها لتشجيع الأشخاص على العمل معاً بصورة تعاونية، بدلاً من المنافسة مع بعضهم في مباريات تنافسية أو لعبة حسابية من أجل المكافآت والزودات المالية (bonuses) أو المراكز القيادية. استُحسنت هذه الأداة باعتبارها حلاً لأساليب التعليم الاستبدادية والموجهة من الأعلى، وكذلك كتحدي للدروس المملة التي تعتمد على المحاضِرات التي يُفترض للطلّاب فيها أن يمتصّوا المعلومات بطريقة سلبية.

أثناء بحثه عن نماذج للعصف الذهني، تأثر أوزبورن ببعض الأمثلة السابقة عن التعاون المتعدد التخصصات في مجالَي التجارة والأكاديميات. في الزمن الذي كتب فيه، أسست الجامعات الرائدة في الولايات المتحدة مجموعةً من المراكز والمعاهد البحثية المتعددة التخصصات بصورة متعمدة، فكانت عمليات العصف الذهني التي أثنى عليها أوزبورن تشكل جزءاً بارزاً منها. كان لأمثلة التعاون بين الجوانب العسكرية وأجهزة الاستخبارات خلال الحرب تأثير كبير في توضيح العملية التعاونية التي حاول أوزبورن تعزيزها، وربما يمكن أن يفسر هذا تفضيله لاستخدام مصطلحات عسكرية. خلال الحرب، نُفّذت مشاريع ضخمة لتطوير أنواع جديدة من الأسلحة. عدد كبير من الخبراء ذوي المهارات المتنوعة اجتمعوا وكُلّفوا،[1] بموجب النهج الذي أعجب أوزبورن، بمعالجة التحديات التقنية والنظرية في مجال العلوم التي تفوق قدرة أي فرد أو تخصص واحد على إتقانها بمفرده. إن عملية العصف الذهني التي ساهمت في إنشاء

١ استخدم العلماء في البداية مصطلح "الكتلة الحرجة" لوصف أصغر كمية من المواد الانشطارية اللازمة للحفاظ على تفاعل نووي. بعد ذلك، بدأ الكتّاب باستخدامه لوصف المستوى الكافي من الموارد المطلوبة في الشركات لإنتاج النتائج بكفاءة؛ فإذا كانت الكمية قليلة جداً، لم تنجح المهمة بطريقة فعّالة، بغض النظر عن طبيعتها.

القنبلة الذرية، المعروفة باسم مشروع مانهاتن (Manhattan Project)، والتطور النووي الذي تبعه من قِبل كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، كانت أبرز الأمثلة وأكثرها أثراً على هذه العملية التعاونية وفي الوقت نفسه كانت تثير مخاوف أخلاقيةً كبيرة. شملت تلك الاجتماعات فيزيائيين نظريين بالإضافة إلى علماء الرياضيات والمهندسين وعلماء الكيمياء والمعادن وخبراء الإلكترونيات وآخرين.

كانت مناقشات ما بعد الحرب في عالم الأعمال أحياناً مشابهة للحديث عن الحرب؛ كانت جزءاً من منافسة دولية بحيث يخرج جانب واحد في النهاية كالفائز وآخر كالخاسر. مثلما قال وايت، قال أوزبورن إن على قادة الأعمال أن يأخذوا في اعتبارهم المصلحة الوطنية الأوسع للولايات المتحدة بدلاً من التركيز حصرياً على تطوير شركاتهم والطمع الشخصي أو متابعة مسألة الأرباح لأجل كسب مزيد من المال. شدّد على مزايا يمكن أن يقدمها قطاع الأعمال المزدهر في دعم الجهد الأميركي الجماعي ومواجهة الخصوم الأيديولوجيين للعالم الغربي. أشاد أوزبورن برؤية شركات السيارات الأميركية الكبرى مثل Chrysler في رسم مسار مستقبل أفضل للجميع. أما وايت، فأكد أهمية الترويج لأميركا أمام مواطنيها والمجتمع العالمي، معتبراً أنه من المهم أن نُري الناس مدى عظمة أميركا سواء للأميركيين أنفسهم أو للناس في جميع أنحاء العالم، مضيفاً أن هذه الطريقة هي الفاعلة لمواجهة الدعاية السوفياتية التي صورت الرأسمالية الأميركية على أنها نوع من الاستبداد وتجسيد للتخلف الثقافي.[١] أراد هؤلاء الكتّاب، مثل وايت وأوزبورن، من الشركات الديناميكية أن يقدموا رؤيةً جديدةً للشعب الأميركي ويصدّروا رؤية النجاح الأميركي هذه لدول أخرى حول العالم. في الواقع، في أوروبا ومناطق أخرى، أصبحت قيم الشركات الأميركية وبعض العلامات التجارية المرتبطة بالولايات المتحدة، أكثر انتشاراً.[٢]

---

1 William H. Whyte, *Is Anybody Listening? How and Why US Business Fumbles When It Talks with Human Beings* (New York, 1952), pp. 88, 97, 140; Osborn, *Your Creative Power*, pp. 5, 313, 317.

٢ توسعت شركات أميركية في الخارج، مما أثار موجة كبيرة من الاعتراض، خصوصاً في فرنسا حيث اعترض بعض السياسيين من اليمين واليسار بشدة في أواخر الأربعينيات على ما سمّوه "استعمار الكوكا كولا" للمجتمع. هذا الاعتراض جاء بسبب التأثير الكبير للشركات الأميركية. يمكنك معرفة المزيد من المعلومات في التالي:

رأى أوزبورن أن عملية العصف الذهني تختلف تماماً عن السيطرة المركزية والاستبدادية على الأفكار التي كان يمارسها الاتحاد السوفياتي، لذلك فإنه على الديبلوماسيين والسياسيين والجنرالات في الولايات المتحدة أن يولوا عمليات العصف الذهني اهتماماً أكثر الآن.[1] كان نوع الأنشطة الجماعية في فكره يهدف إلى تعزيز قدرات الفرد الإدراكية والمشاعر لدى كل عضو في المجموعة، وإلى تشجيع الزملاء على تبني أساليب للتفكير تكون أكثر إبداعاً وأقل قيداً وتقليداً. كان يعتقد أنه من الضروري تحرير الخيال البشري. في سياق المنافسة بين الرأسمالية والشيوعية، لم تكن فكرة أوزبورن مجرد مساعدة الشركات الغربية على العمل معاً جيداً، بل إنه أوصى أيضاً باستخدام المنافسة والخلافات داخل المجموعة لمصلحة الشركة. في مقارنة أخرى تعبيرية تتعلق بالمنافسة، قارن الجهود التجارية بسباق بحيث تساهم جهود الفريق بأكمله في نجاح الفائز.[2]

تعرضت فكرة العصف الذهني لنقد متنوع. حذّر بعض النقاد من أنها قد تُستخدم بصورة زائدة مما يؤدي إلى جعل الجميع يفكّرون بالطريقة نفسها وإلى تشكل نمط من التفكير الجماعي غير الإبداعي والتقليدي الممل. افتراض أن العصف الذهني هو دائماً الحل الأنجع لإنتاج أفكار جديدة وأفضل والمضي قدماً، يمكن أن يؤدي إلى نوع جديد من الإلتزام الإداري إذ يصبح جميع الأفراد متشابهين جداً في أساليب تفكيرهم ضمن المؤسسة. من ناحية أخرى، اعتقد بعض خبراء إدارة الأعمال أنه في بعض الأحيان من الأفضل أن يُترك الأفراد يعملون بمفردهم ويأتون بأفكارهم الخاصة من دون الحاجة الدائمة إلى العمل مع الآخرين. في عام ١٩٥٨، أجرى باحثون في جامعة ييل تجربةً قامت على تقسيم طلاب الجامعة إلى فرق يتكون كل منها من اثني

Mark Prendergast, 'Viewpoints; A Brief History of Coca-Colonization', *The New York Times*, 15 August 1993, www.nytimes.com/1993/15/08/business/viewpoints-a-brief-history-of-coca-colonization.html; Reinhold Wagnleitner, *Coca-Colonization and the Cold War: The Cultural Mission of the United States in Austria after the Second World War* (Chapel Hill, 1994); Victoria de Grazia, Irresistible Empire: America's Advance Through Twentieth-Century Europe (Cambridge, MA, 2005).

1 Osborn, *Your Creative Power*, p. 274.

٢ المرجع نفسه ص ٢٦٥-٧.

عشر طالباً؛ كل هذه الفرق كانت مكلّفة بحل ألغاز معيّنة.[1] وبصورة تثير الدهشة، لم تكن هذه الفرق تؤدي الكفاءة نفسها التي كان يؤديها الطلاب الذين عملوا على الألغاز نفسها على نحو فردي. استنتج الباحثون أن فعالية العمل الجماعي تعتمد على عوامل متعددة، بما في ذلك تكوين الفِرَق وحالة أفرادها النفسية وطبيعة المشكلة، ولهذا السبب، ينبغي عدم تحويل أي تقنية إدارية إلى معيار معترَف به دون تساؤل.[2]

أصبحت بعض المناقشات التي نشأت بعد الحرب حول التفكير الجماعي والعصف الذهني ذات أهمية خاصة في اقتصاد العصر الرقمي الحالي. في الواقع، أجبرت جائحة كوفيد-١٩ العديد من الموظفين على التكيف مع تحديات جديدة مرتبطة بالعمل من بُعد، وذلك عبر الإنترنت بصورة رئيسية. اضطر الملايين من الأشخاص لمواجهة التساؤل حول كيفية تحقيق التوازن المناسب بين العمل بصورة مفردة والمشاركة في مجموعات، بالإضافة إلى تحدي التعامل مع ضغوط العصف الذهني الإجباري. هناك لمسة من السخرية في أن الناس يكتفون التواصل بعضهم مع بعض من بُعد عندما يجد العديد من العاملين أنفسهم معزولين في منازلهم خلال الجائحة. تثير مناقشات حول تأثير استخدام الكمبيوتر بإفراط اليوم، وتلقّي رسائل البريد الإلكتروني على نحو مستمر، ذكريات مناقشات سابقة حول الأعباء التي تأتي مع كثرة الأوراق المكتبية) سواء كانت هذه المكاتب مفتوحةً أو غير ذلك.(يمكن لإحساس العزلة الذي يعيشه العديد في عالم الإنترنت الحالي، حيث تشعر بالوحدة في الزحام، أن يذكرنا بمخاوف الخمسينيات حول التفكير الجماعي. لدى الإنترنت القدرة على جمع الناس معاً

---

1 Donald W. Taylor, Paul C. Berry and Clifford H. Block, 'Does Group Participation When Using Brainstorming Facilitate or Inhibit Creative Thinking?', *Administrative Science Quarterly*, 3:1 (June 1958), 23–47.

٢ في كتابها تحت عنوان:

Quiet: The Power of Introverts in a World That Can't Stop Talking (London, 2012)

تطرّقت سوزان إلى أهمية العمل الجماعي والتعاون في كثير من الحالات، ولكنها ناشدت أيضاً بأهمية منح العاملين المزيد من الوقت في السكينة والهدوء، مما يسمح لهم بالعمل بشكل منفصل دون تأثير دائم من المجموعة (وبالتالي، تقدير الأشخاص الذين يميلون للانعزال)، وقد كتبت أيضاً عن هذا الموضوع في مقال بعنوان:

'The Rise of the New Groupthink', *The New York Times*, 13 January 2012, www.nytimes.com/2012/15/01/opinion/sunday/the-rise-of-the-new-groupthink.html.

وتمكين العصف الذهني العالمي من خلال منصات مثل زوم وسكايب وواتساب، وأدوات ذات أسماء جذابة مثل Teams أو Collaborate. إنها تقنيات تحولية تقدم فرصاً كبيرةً للتعاون الجماعي، ومع ذلك، يمكن أن تكون مرهقةً وعازلة ومغرية. إن القيام بأنشطة كثيرة عبر الإنترنت مثل التعليم والترفيه والتسوق وحتى المحادثات البسيطة يبدو كأنه نسخة باهتة عن الواقع وعن الإحساس الاجتماعي المترافق مع العمل الشخصي. ولكن، نظراً إلى الإغلاق المتكرر وضرورة الحفاظ على البيئة من خلال تقليل السفر، أصبحت هذه التقنية مهمةً للغاية، إذ تساعد ملايين الأشخاص على التواصل والتحدث والاستماع والعمل معاً وممارسة العصف الذهني فعلاً.

رغم أن وايت كتب في البداية عن التفكير الجماعي بأسلوب مرح وراقٍ في مجلة *Fortune*، فقد أكد أن هذه المسألة طارئة ولها عواقب بعيدة المدى على الأمم. في كتابه *The Organization Man*، اتبع وايت نهجاً مختلفاً مقارنةً بمقاله السابق في المجلة. كان الكتاب استقصاءً أكثر تفصيلاً وأكاديميةً للموضوع من المجلة. في *The Organization Man*، أشار وايت إلى شخصيات مفكرة بارزة مثل ويبر Weber ودير كهايم Durkheim وديوي Dewey وويليام جيمس William James وفرويد. ولكن رغم البحث الوافر والأسلوب الأكاديمي في كتابه، لا يزال يرغب في إيصال تحذير واضح إلى بلاده: أراد من الناس أن يروا صورةً قويةً لزمن يظهر فيه الجميع متشابهين؛ مرتدين البدلات نفسها. كانت طريقة الحياة هذه مدعومةً من الشركات الكبيرة التي تشجع على التفكير الجماعي، وكان هذا النوع من التفكير ضاراً بعقول الناس وقدراتهم الفكرية وبالمجتمعات وحتى الاقتصادات الرأسمالية الحديثة بكاملها، حيث تكون هذه الشركات في صميمها.

اعتقد وايت أن الطبقة المحظوظة والثرية في المجتمع قد اعتادت على اتفاق ضمني بينها وبين نفسها، فعاشت في ما يُشار إليه بأنه "صناديق صغيرة" (Little Boxes)، كما وصفته أغنية شهيرة من عام ١٩٦٣، ومع ذلك، قد يبدو أنهم راضون سطحياً. هذه الأغنية، التي غناها بيت سيغر Pete Seeger، نشرت أيضاً ثقافة التفكير الجماعي؛ قدمت سرداً عن شبان يذهبون إلى الجامعة ويتزوجون ويصبحون مديرين تنفيذيين في الأعمال، ويلعبون الغولف، ويشربون [كوكتيل] المارتيني. أشارت الأغنية إلى أنهم

كانوا مرتاحين جداً في حياتهم ولكنهم يعيشون في حالة نفسية محدودة. الفكرة هي أن الأفراد قد يجدون أنفسهم في نهاية المطاف في هذه الحالة دون أن يفكّروا حقاً بأنفسهم، مما يجعلهم خجلين ومستعدين للانسجام مع الأدوار المحددة لهم مسبقاً، حتى من دون وجود معسكرات إعادة التربية أو أي شيء آخر يفرض عليهم هذا الاتفاق الضمني مع ذاتهم.

لمواجهة ظاهرة التفكير الجماعي، كان يأمل وايت أن تستثمر الحكومة مزيداً من الأموال في العلوم الإنسانية لمساعدة الناس على تحسين أفكارهم وعدم الانصياع للفكر الجماعي، معتقداً أن مواد العلوم الإنسانية، مثل التاريخ والأدب والفلسفة، التي تتطلب من الطلاب دراسة الأعمال الكلاسيكية التاريخية والمشاركة في مناقشات منطقية حول موضوعات مهمة، يمكن أن تقدم بعض الحماية أو على الأقل أساساً قوياً لتطوير الفكر النقدي الذي كان مطلوباً بشدة في البلاد. ومع ذلك، كانت لديه احتياطات، من ناحية أخرى، بخصوص الأساليب التجريدية التي كان يراها في تفكير بعض علماء الاجتماع والنماذج التي يتبنونها، إذ اعتبر أنها معقدة ولا تبدو دائماً منطقية. كان هناك اتجاه من علماء الاجتماع نحو التوافق والانسجام في الأفكار الاجتماعية، إذ اعتقد العديد من الأكاديميين أن التكيف والاتفاق هما أهم القيم الاجتماعية. عندما يصف علماء الاجتماع للأفراد الآراء العامة والمعتقدات التي يعتقدها معظم الناس، يمكن أن تتحول هذه الوصفات بسرعة إلى توجيهات تخبر الأفراد ما يجب أن يفكّروا فيه، مما يعني أنه يتوجب على الفرد أن يتبع هذه التوجيهات من دون أن يكون لديه رأيه الخاص في المسألة. إن استطلاعات الرأي، على سبيل المثال، التي هي أسئلة يطرحها علماء الاجتماع على عدد كبير من الأشخاص لفهم آرائهم، يمكن أن تتحول في ما بعد إلى توجيهات صاغها العلماء الباحثون حول ما يجب على الناس التفكير فيه، وذلك استناداً إلى البيانات التي جمعوها من هذه الاستطلاعات.

في دعم حجته حول التحرك المتواصل نحو التوافق، أشار وايت إلى استطلاع للرأي أُجري حديثاً وأظهر أن العديد من مواطنيه يعتقدون أن الهدف الرئيسي للمدرسة الثانوية هو مجرد مساعدة الطلاب في العثور على وظائف وتعليمهم كيفية التفاهم مع

الآخرين، وكأن العمل والتناغم مع الآخرين (أو بعبارة أخرى، التحلّي بالود معهم) هما أعظم الإنجازات. وكانت لديه مخاوف أيضاً بشأن الجامعات، إذ شعر أنها غالباً ما تقود الطلاب إلى التأقلم مع الآراء الشائعة أو المشاركة في مناقشات سطحية، وإلى تقليد زملائهم أو معلميهم. اعتبر أن الكثيرين من مواطنيه يشعرون بالخجل من التميز، ويترددون في تحدي أشخاص السلطة، بمن في ذلك أساتذة الجامعة، أو يشعرون بالقلق بشأن مستقبلهم فيتجنبون المخاطر. أراد أن يجعل قراءه يدركون مدى سهولة توقف الناس عن التفكير بصورة نقدية أو التعبير عن انتقاداتهم وهم يفضلون بدلاً من ذلك دمجهم في الحشد. أشار وايت إلى أنه لا يمكن إنكار أن ملايين الأشخاص يقضون حياتهم في مشاهدة التلفزيون، والاستمتاع بالأفلام نفسها، والعمل في مصانع كبيرة أو مباني المكاتب. في هذا العالم، كان مديرو الأقسام والمديرون التنفيذيون الذين يحصلون على أجور عالية جداً، وربما حتى طاقم العمل بأكمله، يُشجَّعون على التكيف والاندماج، أو ربما حتى التفرغ لـ"فلسفة" مؤسسية موحَّدة.

كان وايت على حق في الجدال بأن الضغوط التي تدفع نحو الانسجام قد تظهر بطرق مختلفة، سواء بصورة دقيقة أو واضحة، غير واضحة أو لافتة للانتباه، مقصودة أو غير مقصودة. حتى عملية مراقبة مواقف الموظفين ومن ثم مشاركة نتائج الاستطلاعات معهم يمكن أن تكون وسيلةً لإقناعهم بالتصرف بطريقة معيّنة أو جعلهم أكثر انسجاماً مع الجماعة. بعبارة أخرى، قد يكون لعملية نشر هذه "النتائج" تأثير موحّد أيضاً على الأفراد الذين قدموا تلك البيانات. يمكن أن تؤدي الاستطلاعات والتقارير إلى توجيه الأفراد لضبط أنفسهم وفقاً للمعيار المتوقع، سواء داخل إطار عمل أو مجتمع أو حتى عبر البلاد بأسرها. يمكن مشاهدة مثال على هذه الظاهرة في دراسة ميدلتاون عام ١٩٢٩، التي أجراها عالما الاجتماع الزوجان هيلين ميريل ليند Helen Merrell Lynd وروبرت ستوتون ليند Robert Staughton Lynd. تعتمد أبحاثهما على استكشافهما للحياة في مدينة محددة وهي مونسي، إنديانا. على الرغم من أنهما اعترفا بأن أي مكان على الأرض لا يمكن أن يمثل كل مكان، فقد استخدما مانسي والمواقف التي قاما بقياسها ودراستها هناك كمثال لمجموعة واسعة من المجتمعات الأميركية. أصبحت مانسي تُعرف بـ"ميدلتاون" وأثارت اهتماماً متزايداً واستمتاعاً

ليس فقط لدى الباحثين ولكن أيضاً بين الجمهور الأوسع. زُوّد القراء بتقارير حول آراء السكان، وعمق إيمانهم، ومدى تقديرهم (أو عدم تقديرهم)، وآرائهم حول الماضي والحاضر والمستقبل، وحتى تفضيلاتهم بالنسبة إلى السلع المادية، حتى من حيث اختياراتهم الدقيقة بين الجوارب المصنوعة من القطن أو الحرير.

ساهمت الدراسة التي أجراها الزوجان ليند والأبحاث التي تبعتها، على نحو كبير، في تعزيز فهم مشترك لنمط حياة أميركي مميز أو لعقلية وطنية مشتركة. في الماضي، كان الناس يعتمدون على الروائيين لفهم أنفسهم وزملائهم في البلاد، ولكن اليوم، بدؤوا باستخدام الاستطلاعات والملفات الشخصية التي أعدها علماء الاجتماع ليروا أنفسهم بطريقة جديدة. في عصر ما بعد الحرب العالمية، وجد المواطنون في الولايات المتحدة والعديد من البلدان الأخرى أنفسهم مغمورين بمعلومات حول أفكار ومشاعر ومعتقدات أجزاء مختلفة من السكان التي تم استطلاعها. هذه المعلومات، بدورها، يمكن أن تؤثر في كيفية نظر الأشخاص لأنفسهم وكيفية تحسين وعيهم بأفكارهم الشخصية وطريقة تفاعلهم مع الآخرين.

في الوقت الحاضر، يشير المؤرخون كثيراً إلى دراسة الزوجين ليند عن مدينة ميدلتاون، بالتوازي مع البيانات العادية التي توفرها شركة استطلاعات الرأي George Gallup، التي تأسست في عام ١٩٣٥، وإلى التقارير التي أعدّها عالمُ الأحياء الذي تحوّل إلى عالِم الجنس ألفريد كينسي Alfred Kinsey بعد الحرب، كوسائل هامة لتحقيق التغيير الاجتماعي. نقلت الصحف والمجلات اكتشافات جديدةً حول سلوك الناس ومعتقداتهم؛ غالباً ما كانت العناوين تستعرض بصورة جاذبة ما يُعتبر اليوم شائعاً أو مميزاً، مما يعني أن الجمهور الوطني القارئ أصبح في خطر التوافق المتزايد مع بعضه، وفي خطر التركيز على الأسئلة والقضايا نفسها، ومقارنة آرائه وأفعاله بأولئك الآخرين، لذا فإن الناس في جميع أنحاء البلاد بدؤوا يفكّرون ويتصرفون بطرق مماثلة؛ قد يتساءلون عما إذا كانت تجاربهم الشخصية في غرفة النوم أو الحمام أو المطبخ أو مكان العمل عاديةً وصحيّةً، وإذا لم تكن كذلك، قد يحاولون التكيف والتغيير. اعتبر النقاد أن قراءة مثل تلك الاستطلاعات تضع ضغوطاً على الأفراد ليصبحوا أكثر توافقاً مع الآخرين ومماثلةً لهم.

في العشرينيات من القرن الماضي، كان هناك بعض استطلاعات القليلة من هذا النوع. ولكن بعد مرور الوقت، أصبحت هذه الاستطلاعات أكثر شيوعاً، ولاحقاً ظهر عددٌ من التقارير والملخصات حول حالة الأمة. كان هناك ضجيج مستمر من تعليقات المتخصصين حول بيانات الاستطلاعات الاجتماعية. يمكن أن تكون هذه التعليقات أيضاً ذات تأثير، أو على الأقل شيئاً لا يمكن تجاهله ويجب التعامل معه. لذا، يمكنك أن تتعلم من خلال خبراء متخصصين مختلفين مثل علماء الأنثروبولوجيا الذين يدرسون الثقافات المختلفة، وعلماء النفس الذين يدرسون العقول، وعلماء الاجتماع، ومجموعات متخصصة في إجراء استطلاعات لرأي الناس، ماذا يعني أو ما يجب أن يعني أن تنشأ في مكان مثل إنديانا. يمكنك أيضاً مقارنة نموّك في جزء معيّن من الغرب مع نموّك في أماكن أخرى، حتى في دول مختلفة، من خلال قراءة مقالات في وسائل الإعلام حول ما اكتشفه علماء الأنثروبولوجيا عن عادات الناس في أماكن بعيدة مثل ساموا، وهذا ما جعل الناس يتساءلون عما قد تفعله هذه الأخبار حول المراقبات الاجتماعية والمقارنات بين الأشخاص وتأثير ذلك على طريقة تفكيرهم وتربية أطفالهم وكيف يتعارفون وكيف ينظرون إلى وظائفهم. في بعض الأحيان، استُخدمت الوصفات في هذه التقارير للتعرف على الاختلاف والتنوع، وفي أحيان أخرى كانت تُستخدم كتوجيهات، تشجيعاً للأشخاص على مراقبة أنفسهم وإجراء التغييرات إذا كان ذلك ضرورياً.

في مقال يتعلق بالأعمال الأساسية للزوجين ليند، كما لاحظ غاري يونج Gary Younge، كانت فكرة "أميركا النموذجية" تُعتبر في الغالب بأنها تمثل السكان البيض والمولودين داخل البلاد، مع وجود أقل عدد من "الأجانب" الداخليين.[1] توسعت سارة إيجو Sarah Igo في هذه الفكرة في دراستها *The Averaged American* [الأميركي المتوسط]، وأظهرت كيف كان العديد من الأميركيين يتوقعون رؤية استطلاعات إحصائية وتقارير مراقبة تعكس واقع حياتهم وتسلط الضوء على حدود الاختلاف

1 Gary Younge, 'The view from Middletown: a typical US city that never did exist', *Guardian*, 18 October 2016, www.theguardian.com/membership/2016/oct/18/view-from-middletown-us-muncie-america.

والتشابه بين الناس.[1] علاوةً على ذلك، أدركت أقسام من الناس أن آراءهم قد تكون جزءاً من هذه الاستطلاعات، وأن العديد من الجهات، سواء كانت تجاريةً أو أكاديميةً أو سياسية، ستطلب رأيهم أو ملاحظاتهم بانتظام، وكان من المعتاد أن تُقدَّم هذه الملاحظات لهم من خلال الأدبيات الاستطلاعية. وقد رُسّخ هذا التفاعل المستمر بين بعض الناس ومستطلعي الآراء في الولايات المتحدة بحلول عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، وبعد عقدين تقريباً، أصبح جزءاً من حياة الناس أيضاً في بريطانيا وفرنسا وعدد من البلدان الأخرى.

في الفصل الثالث، تناولنا وصفاً قدّمه ميلوش حول الصفقات السرية التي قام بها الأشخاص مع أنفسهم للبقاء على قيد الحياة تحت حكم ستالين. بدلاً من التركيز على دراسة تأثير الظروف النفسية الصعبة على الأفراد وكيفية علاجهم نفسياً، كان وايت مهتماً (تماماً كما كان ميلوش عندما وصل كملحق ثقافي من بولندا إلى الولايات

---

١ عند التأمل في ميدلتاون، تلاحظ Igo أموراً كثيرة تفتقر إليها هذه الاستطلاعات، وكم كانت العينة السكانية في غالبية الأحيان محسوبةً بصورة غير عادلة، مما يُقلص أو يترك جزءاً من السكان المحليين. بالإضافة إلى ذلك، لم يُعتبر كل إقليم أو مجتمع في الولايات المتحدة مناسباً لتمثيل الوطن بالكامل.
"ثاوثرن تاون" (إيندونيسيا، مسيسيبي)، موقع دراسة John Dollard عام ١٩٣٧، لم يُعتبر أميركياً بالمعنى الأساسي. بقيت ميدلتاون، على الرغم من صغرها وعزلتها ووجودها في وسط الغرب وطابعها الصناعي وسكانها البيض المولودين في المنطقة، لا تتطلب الدرجة نفسها من الفحص أو التوصيفات. في دراسات حول ميدلتاون، كانت المعلومات المتاحة محدودة بشكل كبير بالنسبة إلى الأميركيين الأفارقة، وكذلك بالنسبة إلى الكاثوليك واليهود والمهاجرين في المجتمع. أشارت Igo إلى أن هذا النقص في البيانات أثر في صورة ميدلتاون، مما جعلها أقل موضوعية وأكثر تحميلاً أيديولوجياً في ما يتعلق بالصورة التي يتم تصوّرها عن أميركا. في كتابها، تستعرض Igo كيف أن القائمين على استطلاعات الرأي كانوا في ذاتهم موضوع دراسة. فالمؤرخون أدركوا من خلال دراساتهم الكثير حول تركيز كل عقد زمني في استطلاعاته واهتماماته الخاصة. وفي منتصف الستينيات، بدأ القائمون على الاستطلاعات وغيرهم من المسّاحين الاجتماعيين بتسليط الضوء بشكل أكبر على مشاكل البلاد، وذلك بسبب الحركات الاجتماعية الجديدة التي كانت تطرح تحديات جديدة لطرق التفكير والتصرف. هذه المعلومات مستمدة من الكتاب التالي:

Sarah Igo, *The Averaged American: Surveys, Citizens, and the Making of a Mass Public* (Cambridge, MA, 2008), p. 84.

كما يُنصح بالاطلاع على المقال التالي:

Adrian Bingham, 'The "K-Bomb": Social Surveys, the Popular Press, and British Sexual Culture in the 1940s and 1950s', *Journal of British Studies* (2011), 50:1, 156–79.

المتحدة) بكيفية تأقلم الناس بسلاسة مع المعلومات اليومية التي يتلقونها في الغرب. اعتادوا بسهولة على الطريقة التي يفكّرون بها كجماعة وتأقلموا مع أفراد عائلاتهم وأوقات فراغهم ومسارات تعليمهم وأماكن عملهم. قد يشعر الأشخاص الذين استفادوا من النظام الحالي بأن النظام نفسه ليس بحاجة إلى تغيير جذري. يمكن قراءة وصف وايت توازياً مع وصفات ميلوش للحياة في الدول الشيوعية وفي الغرب. كلاهما أشار إلى كيفية ظهور نمط معيّن للحياة من دون مَخرج. ومع ذلك، بالنسبة إلى بعض الأشخاص، هذا الشعور بعدم وجود مَخرج ليس مشكلة، فبالنسبة إلى مدير تنفيذي في الشركة على سبيل المثال، قد يؤدي هذا الإحساس المستدام تجاه الوضع الحالي إلى طرح سؤال بلاغي: "ما الذي يمكن أن يكون غير مرضٍ بالنسبة إلينا؟"، ما يعني أن الشركة والدولة تقدمان لنا كل ما يمكن تصوره أو يُرغب فيه.

بالرغم من أن وايت تحدث عن "الإنسان التنظيمي"، يمكن القول إن النساء في الخمسينيات واجهن ضغوطاً أشد للتأقلم. هذه الضغوط كانت تأتي من أزواجهن وأفراد العائلة الآخرين، وأيضاً من المدارس والأصدقاء والمجلات والأفلام والإعلانات ومنظمات الأعمال. منذ الصغر، كما أشارت الكاتبات النسويات، تعلمت الفتيات أن تحب اللون الوردي، وتلعب بالدمى، كما شُجّعت على التعلم عن الأمومة، وكانت دائماً موجهة نحو مهن الرعاية مثل التمريض. أما الفتيان، فكانوا يحصلون على مسدسات للعب ويُشجَّعون على تولي المناصب القيادية. يمكن أن يكون القراء في الوقت الحاضر أكثر وعياً من أسلافهم بكيفية استخدام عنوان وايت لفكرة "المرأة" كجزء من مفهوم "الرجل".

في مرحلة ما بعد الحرب، بدأت العديد من النساء في الاستفسار عن الفكر الجماعي الذي حافظ على تفوق الرجال على النساء، والذي يمكن وصفه بأنه نظام ذو طبقتين. حددت النساء وتحدت التوقعات والقوانين الاجتماعية في المجتمعات الغربية التي تقضي بأن تكون الفتيات سعيدات كـ"جنس ثانٍ" وبأن يجسدن فكرة "الإغراء الأنوثي". في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، كشف نقاد الصور الرتيبة المجتمعية المتعلقة بالجنس والعرق العديد من الأعراف والقوانين الاجتماعية التي أبقت على عدم المساواة الاقتصادية بين الجنسين، وضبطت طريقة

تفكير الناس، وقيدت طموحاتهم. تدخلت حركة حقوق الإنسان من جهتها وبذلت جهداً كبيراً لتغيير هذه القوانين وتحسين الأمور، فاعتمدت أفكار التوافق والتوحيد السائدة في الخمسينيات وبدأت بتطويرها، كما بحثت عن حلول عملية، إذ فحصت كيفية تأثير المجتمع على تكوين الأفراد من خلال الأسرة والنظام القانوني والتعليم والدين والثقافة والرياضة والعمل. وحتى إن كانت الثقافة الشعبية في بعض الأحيان تعزز الصور النمطية عن كون الشخص أبيضَ أو أسودَ، رجلاً أو امرأة، إلا أن هناك أفلاماً ورسوماً متحركةً ومجلات وأغاني كسرت هذه الأنماط. كشفت هذه الأعمال الفنية كيفية تشكيل النساء وأفراد الأقليات بصورة جماعية لتولّي أدوار منزلية وثانوية وزخرفية، ومع ذلك، كان الأفارقة السود يواجهون ضغوطاً هائلةً لقبول التفرد النظامي لهم، حتى بعد أن نالوا حقوقهم المدنية.

بيتي فريدان Betty Friedan، في كتابها الأكثر مبيعاً *The Feminine Mystique* [**اللغز الأنثوي**]، هي من قدمت بوضوح قضية إصلاح الفكر الجماعي للنساء وغسيل الدماغ، وقد عُرف هذا الموضوع جيداً أمام العديد من الأميركيين والقراء حول العالم. في دراستها عام ١٩٦٣، استعرضت كيف وُجّهت النساء عموماً نحو الأدوار التقليدية في البيت وشُجّعت على أن يكنّ مغريات وجذابات بشكل أساسي من أجل الرجال، مقابل تكلفة كبيرة على صعيدَي صحتهن النفسية والمالية. قارنت فريدان بين النساء ومجموعات من الجنود الأسرى في حرب كوريا الذين وُصفوا بأنهم تعرضوا لعملية "غسيل الأدمغة". أكدت أن جميع النساء، وليس فقط فئة صغيرة محظوظة، شعرن بضغوط قوية للتأقلم مع هذا النظام المقيِّد بفعالية، تقريباً كما لو أنهن محاصرات داخل سجن غير مرئي. بغض النظر عن الاختلافات في العرق والأصل والطبقة والدين والمنطقة والعمر وعوامل أخرى، أكدت فريدان أن النساء شكلّن مجموعةً اجتماعيةً لا يمكن إنكارها، إذ اعتبرهن المجتمع بأنهن جنس تقليدي، وقد تم برمجتهن للتفكير على نحو مشابه أو ببساطة لعدم التفكير على الإطلاق، كما توقع منهن أن يرتقين بالدرجة الأولى بصفة رفاق للرجال وحماة للأطفال، وطالبهن بألّا يكن "صعبات"، وشجّعهن على العيش في ثقافة تروج لقبول الدور الثانوي وتعزز الأفكار التقليدية عن أنوثتهن وأشكال الجاذبية النمطية للنساء. (في وقت لاحق، تلقّت فريدان انتقادات من

بعض الأفراد لعدم اعترافها بأهمية الطبقة والعرق، بالإضافة إلى الجنس، في تشكيل كيفية معاملة الأشخاص في المجتمع. من المهم فهم أن أنواعاً مختلفة من المعاملة غير العادلة يمكن أن تتداخل، مما يعني أن نساءً سوداً ونساءً بيضاً قد يواجهن تحديات مختلفةً ويسعين وراء أهداف مختلفة).

في الستينيات من القرن العشرين، لعبت نساءٌ دافعن عن حقوق المرأة مثل فريدان دوراً كبيراً في التأثير على كتاب ممتع للكاتبة إيرا ليفين Ira Levin. أصبح هذا الكتاب في وقت لاحق فيلماً يُعرف باسم "The Stepford Wives" [زوجات ستيبفورد] في عام ١٩٧٥، من إخراج بريان فوربس Bryan Forbes. إلى جانب معايير العيش البرجوازية، يستهزئ هذا الفيلم بكيفية تصرف الناس عادةً في المجتمع ويحكي قصةً مخفيةً حيث يقوم الرجال باستخدام الجراحة للسيطرة على عقول النساء ويغسلون أدمغتهن لجعلهن صامتات وجميلات كالدمى. تحدّث كتاب بيتي فريدان **اللّغز الأنثوي** عن مدى صعوبة حياة النساء اللواتي يعشن في الضواحي وتأثير ذلك على حالتهن النفسية. يأخذ فيلم "The Stepford Wives" الأمور خطوةً أبعد ويسلّط الضوء على فضيحة كبيرة في الخمسينيات والستينيات عندما أجرى بعض النساء جراحات في أدمغتهن، إذ اعتُبرن مرضى عقليين ولا يمكن مساعدتهن. يشير الفيلم إلى وجود نظام قاسٍ مضادّ للنساء؛ إنه يحولهن من نشيطات ومفكرات إلى أشكال خاملة وآلية في أجسادهن وعقولهن، كما يتوقع الفيلم أن تزداد الجراحات التجميلية مع مرور الوقت، حيث يُشجَّع المزيد والمزيد من النساء على تغيير أجسامهن من الرأس إلى القدمين والحصول على "تحسين في المظهر". غالباً ما يقول الناس إن هذا الاختيار يتعلق بالحرية الشخصية أو الشعور بالسلطة، ولكن النقاد يرون أنه يمكن أن يجعل النساء يشعرن بالوحدة والحزن بسبب الضغوط المفروضة على المجتمع من الرجال والمعايير المثلى للجمال والقصص والقوانين الصارمة في عالم الموضة التي تجعلهن يعتقدن أنهن يجب أن يظهرن بطريقة معيّنة.[١]

في فيلم "The Stepford Wives"، نرى النساء اللواتي خضعن لعمليات سرية في

1 Sander Gilman, *Making the Body Beautiful: A Cultural History of Aesthetic Surgery* (Princeton, 2000).

أدمغتهن من دون موافقتهن يظهرن كأعضاء لا يمكن تمييزهن في مجموعة متجانسة. أصبحت المرأة تشبه دمية باربي Barbie الحية وهي تدفع عربتها بصورة ميكانيكية عبر ممرات السوبرماركت. (في عام ١٩٧٨، استكشف فيلم زومبي ثقافي يُعرف بـ"Dawn of the Dead" [ظهور الموتى] الموضوع نفسه بسخرية، فاستخدم مركز التسوق كخلفية لصدام مخيف بين الزومبي والبشر القلائل الباقين اليائسين). على عكس الاعتقاد السائد بأن النساء أقل قيمة من الرجال، كما جادلت فريدان بقوة، تم تقويض النساء بصورة منهجية، وإعاقتهن، وجعلهن يشعرن بأنهن ناقصات ولا يرتقين إلى المستوى المطلوب ضمن نظام يعزز تقدير أحد الجنسين على حساب الجنس الآخر. بفعالية نُشرت أفكار الضعف من قِبل الرجال للنساء.

أصبحت النقاشات حول التكيف مع المجتمع والتفكير الجماعي أكثر وضوحاً بفعل التجارب النفسية المثيرة والقصص والأفلام الشهيرة التي أظهرت أناساً يخرجون عن الروتين الاعتيادي ويرفضون العمل موظّفين في الشّركات أو ربّات بيوت تقليديات، ويختارون مسارات جديدة. في الستينيات، ظهرت حركات ثقافية مضادة جديدة ومناقشات جديدة تعبّر عن رغبة الناس في التحرر والبحث عن طرق حديثة للعيش معاً أو استكشاف حياة أكثر إثارةً وشخصية. إنها وسيلة لرفض العالم التقليدي الرأسمالي الممل والمكتبي الذي كان، حسب وصف وايت وآخرين، يشكل مشكلةً كبيرةً في مجتمع ما بعد الحرب.

اختلف علماء التحليل النفسي في نهجهم قليلاً. لم يركزوا كثيراً على الوضع الزمني الذي تلا الحرب، بل تحدثوا عن مشكلات وصراعات نفسية عالمية اعتقدوا أنها شائعة بين الناس بصورة عامة، وخاصةً ذلك الصراع بين الاحتياجات والرغبات الشخصية للفرد والالتزامات والتوقعات المجتمعية أو الجماعية، الذي اعتُبر جزءاً أساسياً من الحالة الإنسانية. فرويد، على سبيل المثال، غالباً ما ألمح إلى هذه الأفكار، على الرغم من أن بعض أتباعه قاموا بتوسيع أفكاره حول انتماء المجموعات إلى اتجاهات جديدة خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، مستندين إلى دراسته المؤثرة من عام ١٩٢١ بعنوان *Group Psychology and the Analysis of the Ego* [علم النفس الجماعي وتحليل

الذات]. لقد طوّر بعضهم علاجاً جماعياً استناداً إلى المفاهيم الأساسية لفرويد وأعماله السريرية مع المرضى الأفراد. عاد الباحثون والأطباء الرائدون في هذا المجال، مثل ويلفريد بيون Wilfred Bion، لاستكشاف أفكار فرويد حول كيفية تكوين الأوهام في عقول البشر. أراد هؤلاء الأطباء معرفة ماذا سيحدث عندما يجتمع عدد من المرضى في بيئة منظمة ويُطلب منهم التفاعل والاستجابة بحرية لأي موضوع يُطرح، دون توجيه من أي شخص. أدى هذا النهج إلى فكرة "المجموعة بلا قائد".[1] على عكس دراسات فرويد التي كانت تعتمد على توقعاته الشخصية وتصوراته دون وجود دليل قوي أو دعم علمي ملموس، كان استكشاف بيون لديناميات المجموعات مستنداً إلى أدلة سريرية خاصة به وله تطبيقات عملية وإدارية أكثر وضوحاً. بدأت مشاركة بيون الأولى في العمل الجماعي أثناء خدمته طبيباً في الجيش ومعالجاً نفسيّاً للجنود الذين كانوا يعانون من أعراض نفسية في مستشفى عسكري في منطقة ميدلاندز الإنكليزية خلال الحرب العالمية الثانية. كان اهتمامه بالتجارب الجماعية مشتقاً من خدمته العسكرية خلال الحرب العالمية الأولى، حيث شغل منصب قائد دبابة. في وقت لاحق، نشر كتباً بالتعاون مع آخرين وتقارير عدة تصف أساليبه في العمل مع الجنود، وقد واصل عمله مع مجموعات علاجية لمدة طويلة. تطور هذا التقليد في مجال العلاج الجماعي أيضاً من قِبل آخرين مثل سيغموند هاينز فولكس S.H. Foulkes خلال الأربعينيات والخمسينيات.

جمع هؤلاء الخبراء الأدلة، مما يؤكد ما ألمح إليه فرويد من قبل بأن الأوهام يمكن أن تؤثر في ديناميات المجموعات. يمكن أن تكون التقسيمات والتصورات والإنكارات موجودة داخل تجمع الأشخاص، تماماً كما يمكن أن تكون موجودةً في عقل الفرد. تختلف أهداف العلاج الجماعي، ولكنها يمكن أن تشمل مساعدة المشاركين على أن يصبحوا أكثر وعياً بمثل هذه الأوهام والافتراضات الشائعة، والبحث عن طرق للتعامل معها، وتحمل التحديات، واكتساب رؤية أفضل حول العمليات اللاواعية التي يمكن أن تكون مائلةً للعمل داخل عقل الفرد أو بين مجموعة من الأشخاص.

---

1 Tom Harrison, *Bion, Rickman, Foulkes and the Northfield Experiments: Advancing on a Different Front* (London, 2000).

في هذه الجلسات، قد يصبح الأفراد أكثر وعياً بأدوارهم النشطة أو السلبية في تطور المجموعة، ويمكنهم طرح مزيد من الأسئلة العميقة حول أفكارهم ومسؤولياتهم الشخصية، وفحص أي افتراضات سابقة لم تُناقَش سابقاً حول الآخرين.

في هذه المرحلة، سعى بيون ومبتكرون آخرون لفهم ظاهرة التفكير الجماعي وفي الوقت نفسه لتعزيز التفكير الإبداعي داخل المجموعات. حثوا الأفراد على التفكير في أنفسهم بصورة أعمق وفهم أفعالهم. أرادوا معرفة سبب صعوبة أحياناً، أو حتى استحالة، أن يكون التفكير الإبداعي موجوداً في المجموعات. اعتقدوا أن بإمكان المجموعات أن تكون الأسس الحاسمة للتفكير، لكنها في بعض الأحيان تصبح مغلقةً على نفسها، أو مرتاحةً بصورة غريبة، أو تختلف عن هدفها الأصلي الذي دفع بأفرادها للانضمام إليها وتكوينها كمجموعة. في الحالات الأكثر تطرفاً، قد تؤدي هذه الأمور إلى ما يُعرف بالجنون الجماعي، ولكن هناك أيضاً قضايا نفسية جماعية يمكن أن تُكتشف وتُحلل بهذا الأسلوب، من خلال تجارب المجموعة. على سبيل المثال، درس بيون كيف يمكن لمجموعة من الأشخاص قمع معلومات غير مرغوب فيها على نحو حيوي، وربما عزل أو إحراج أحد أفراد المجموعة لأسباب غير معلنة، وفرض ضغوط تؤثر في الجميع، حتى إذا لم يتم التحدث علناً عن تلك الضغوط.

مجموعات من المتخصّصين، كما في أقسام الجامعات أو جمعيات التحليل النفسي، الذين من المفترض أن يفكّروا في مثل هذه المسائل، يمكن أن يتأثروا أيضاً بالتفاعلات داخل المجموعة. مثال سمعته من طالبة سابقة كانت في تدريب تحليلي نفسي في أوائل الستينيات يوضح هذه النقطة. قدمت الطالبة حالةً سريريةً في ندوة قدمها بيون، وعندما انتهت، سادت مدة صمت طويلة. بدا هذا الصمت لها مشحوناً بالتوتر، فشعرت بالقلق، وعرضت بسرعة تقديم مزيد من المعلومات وبدأت في البحث في دفاترها، مما استدعى ذلك تدخل بيون قائلاً: "نعم، أعتقد أن هذا ما تشعرين أن عليكِ فعله [البحث في الدفاتر]". لاحظ بيون كيف كان هذا الصمت المشترك في المجموعة يؤثر في مشاعرها، مما جعلها تشعر كأنها ملزمة ضمناً بأن تكون الشخص النشط الذي يجب أن يتكلم، بينما الآخرون عليهم فقط أن يتفرجوا عليها بصمت. إثر تدخله، قاومت الرغبة في تقديم مزيد من المعلومات وانكفأت عن

ذلك، في حين كسر زملاؤها جدار صمتهم وبدؤوا مناقشة الموضوع الذي قدمته.

وصف بيون ذات مرةً مجموعةً علاجيةً بدا أعضاؤها مصممين على تقديم نصائح سخيفة لبعضهم وتشجيع ممل بصورة متكررة، رغم أن جميع الأعضاء كانوا يعلمون عبثية هذه الاستجابات وسفاهتها. في مناسبة أخرى، لاحظ كيف أن مجموعة علاجية بقيادته قد أهملته وتجاهلته لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع، كما لو كان "عرّافاً فقد مصداقيته" أو رجلاً "ذا سمعة سيئة". ظلوا يهملونه ويتجاهلونه إلى حين أن بدأ أحد المرضى في المجموعة عرض ما اعتبرته المجموعة أعراض جنون، إذ بدأ يقول أشياء تبدو كأنها ناتجة عن هلوسات. مع ارتفاع قلق أفراد المجموعة بسرعة حيال زميلهم، وجد بيون نفسه يعود إلى المجموعة ويستعيد مركزه القيادي فيها، وبات يعتقد أنها أصبحت بمثابة "إمارة صغيرة" تخضع لسلطته المطلقة. قال بيون التالي:

> كنت زعيماً رائعاً، مسؤولاً عن الوضع، وقادراً بالكامل على التعامل مع أزمة من هذا القبيل. باختصار، كنت الشخص المثالي للمهمة، وكان من غير اللائق أن يحاول أي شخص آخر في المجموعة تقديم المساعدة. الطريقة التي تحولت بها مشاعر الجميع في المجموعة من الخوف الشديد إلى الارتياح الكامل كانت سريعةً لدرجة لا يمكن لأحد تصديقها.[1]

بعد الحالة هذه المثيرة للقلق، اعتقد بيون أنه أصبح "شخصيةً ذات تأثير كبير داخل المجموعة"، تماماً كقائد حكيم. في الاجتماعات والدروس الجماعية، شارك بنشاط وقدّم المساعدة، ومع ذلك، كانت هناك أوقات يختار فيها الصمت، مما يتيح للمجموعة العمل باستقلالية والتطور. على الرغم من أنه استمر في المراقبة، لم تستطع المجموعة فهم ما يخططه تماماً، لذا قاموا بتفسير صمته وكلماته ووجوده بالطريقة التي أرادوها. كان بيون وزملاؤه في مجال علاج المجموعات مهتمين بفهم العواطف القوية التي تنشأ داخل المجموعة، بما في ذلك عواطفهم الخاصة. هذا الدور الذي يمارسه المنظم أو العلاجي، فيشارك ويراقب في الوقت نفسه، يعتمد على الأسلوب النفسي التحليلي، وقد تكون له صلة أيضاً بالموقف الداخلي-الخارجي

1 Wilfred Bion, *Experiences in Groups and Other Papers* (London, 1961), p. 56.

لعالِم الأنثروبولوجيا. ببساطة، كان العلماء النفسيون يشعرون بالفضول تجاه الأفكار وديناميات المجموعة داخل عقل الفرد وكيفية تأثير الأحلام والأوهام والمخاوف بصورة مشتركة في حياة هذه المجموعة. تتوافق هذه الفكرة مع ما قاله الشاعر والت ويتمان Walt Whitman منذ وقت طويل، حتى قبل فرويد، حول أن الإنسان يحتوي على مزيج متنوع من العناصر.

بالعادة، يميل المتخصّصون النفسيون في مجال العمل مع المجموعات، لا سيما أولئك الذين يتبعون النهج النفسي التحليلي، إلى تجنب التدخل الزائد. قد يتحدثون عند الضرورة للمحافظة على التماسك إذا ازدادت مستويات القلق أو العدوانية لدى أفراد المجموعة على نحو كبير، ولكن في معظم الأحيان، يفضلون البقاء هادئين لمدة طويلة. يتابعون المجموعة ويلاحظونها بعناية، مما يتيح لديناميات المجموعة أن تنكشف انكشافاً طبيعياً، ويلعبون دوراً في توجيه هذه العملية من خلال اتباع الإرشادات المتفق عليها بروتوكولاً، مثل جداول الاجتماعات وقواعد السرية، ويهدفون إلى تجنب أخذ دور استشاري أو إداري. بين الحين والآخر، قد يقدمون تعليقات وتفسيرات، مشابهةً لكيفية تفاعل المتخصّص النفس التحليلي مع مريضه أثناء الجلسات العلاجية. وإنّه من غير الواضح إذا كان بعض المتخصّصين، مثل بيون، يستمتعون بكونهم يُدرَكون على أنهم أشخاص ذوو تأثير داخل المجموعة. إن الهدف الرئيسي هو التوضيح بدلاً من التعقيد، إذ يراقب المتخصّص ما تفعله المجموعة أو ما لا تفعله، ويهدف إلى تسليط الضوء على سلوك المجموعة) يمكن أن يشبه سلوك مجموعات طائفية)، كما يعالج قضايا لم تُناقَش داخلها. إن تفسير ديناميات المجموعة هو مهارة معقدة، لذا يجب على المتخصّصين تحديد الوقت المناسب للتحدث عن مسائل معيّنة مع المجموعة وتقييم فائدة تدخّلهم أو تحدّثهم. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن ينظروا في كيفية استجابة المجموعة لهذه التدخلات. هل تسمح المجموعة بها؟ كيف تتفاعل؟ هل تتجاهل تماماً تعليقات المتخصّص، أو حتى تتّحد ضده لاستبعاده؟ إن النتائج المحتملة متنوعة ولانهائية.

يستكشف كتاب بيون الصادر عام ١٩٦١ بعنوان *Experiences in Groups* [تجارب في المجموعات] كيفية تطور الأمور داخل المجموعات دون أن يكون المشاركون

على دراية كاملة بها. كان يعتقد أن غالباً ما يكون هناك "افتراضات أساسية" غير مدرَكة تشترك فيها الأشخاص ضمن المجموعة. على الرغم من أن كل مجموعة فريدة، رأى بيون أنماطاً متكررةً في المجموعات. في نسخة "القائد/المنقذ"، يميل أعضاء المجموعة إلى التمحور حول معتقدات ثابتة ويظهرون بحاجة ماسة إلى التوجيه. في بعض الأحيان، يشكل أفراد المجموعة كتلةً غير متحدّية، أي أنهم يتفقون اتفاقاً شديداً داخل مجموعتهم حول مسألة معيّنة أو أفكار محددة دون وجود نقاش أو تبادل آراء بين بعضهم، كما يشكلون تصوراً أو اعتقاداً حول وجود شخص في المجموعة يعتبرونه بطلاً يمكنه حمايتهم وإنقاذهم في حالات الضيق أو الأزمات، و/ أو يتّحدون بقوة ضد مجموعة أخرى يعتبرونها شيطانية. استكشف بيون كيف يمكن للمجموعات أن تشارك في الصراع، أو أن تسعى للهرب، أو أن تعتمد اعتماداً كبيراً على بعضها. يمكن أن تنغمس المجموعات أيضاً بالكامل في ما أسماه "الازدواج"، بحيث يركز المشاركون على تكوينات ثنائية لشخصين أو أكثر، مستوَحين ذلك ربما من زوج رومانسي حقيقي أو وهمي. الافتراضات والأوهام، أو أحياناً المناقشات المفتوحة حول علاقة رومانسية لزوجين، على سبيل المثال، يمكن أن تولد الكثير من الإثارة أو القلق داخل المجموعة. في حالة "القتال أو الهروب"، قد يتصرف الأفراد كما لو أن المجموعة التي ينتمون إليها مهددة بخطر جسيم، كما لو أن الوضعية ليست بهذا التعقيد في الواقع. قد تصبح المجموعة متوترةً جداً بشأن حالتها الهشة والقابلة للاضمحلال، ومع ذلك، قد يصعب على الأعضاء مناقشة هذا التوتر بصراحة بينهم، وبالتالي لا يمكنهم تخفيفه. بالإضافة إلى ذلك، قد يشعر أفراد المجموعة بالتفوق على نحو طبيعي، معتقدين أنهم أكثر حكمةً وأهميةً وتكبراً كمجموعة مقارَنة بأي مجموعة أخرى.

قدّم بيون شروحات مثيرةً حول تطور جلسات المجموعة، خطوة بخطوة؛ وصف بوضوح كيف يمكن أن يتغير المزاج في المجموعة فجأةً بمستويات متفاوتة من الأمل، حتى الوصول إلى مشاعر الخوف أحياناً. أشار أيضاً إلى أنه عندما يشعر أفراد المجموعة بالأمان والثقة المتبادلة، يمكنهم التفاعل والتعاون بصورة أفضل، فيبدؤون أيضاً في القيام بمزيد من الأمور بأنفسهم، ويصبحون أكثر مسؤوليةً عن تقدمهم.

في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، نشأت مهنة جديدة تركز على مساعدة المؤسسات في التغلب على تحدياتها. كانت هذه المهنة تشترك في بعض الجوانب مع التقليد الرائد للعلاج النفسي وفي بعض الأحيان تستلهم أفكاراً منه. بدأ المتخصّصون في تطبيق معرفتهم في مجموعة متنوعة من القطاعات مثل الأعمال التجارية والمدارس. استفادوا من الدعم والإرشاد اللذين قدمتهما منظمات مثل معهد Tavistock للعلاقات البشرية. في هذا الوقت، كتب الخبراء حول ديناميات المجموعات وكيف يمكن أن تكون المبادئ العلاجية مفيدةً في أماكن العمل. قدم علماء الاجتماع رؤىً ذات قيمة، بينما أجرى المؤرخون أبحاثاً حول التجمعات الكبيرة، والحركات الدينية، والأحداث التاريخية الهامة كالحملات الصليبية، كما تناول المؤرخون دراسة سلوك الإنسان ضمن هذه البيئات الجماعية الواسعة. نقطة انطلاق ملحوظة لهذا الاستكشاف كانت كتاب فيلهلم رايش، عام ١٩٣٣، *The Mass Psychology of Fascism* [علم النفس الجماهيري للفاشية].[1] إريك فروم، في كتابه المؤثر الصادر عام ١٩٤١، ناقش مخاوف شائعةً عند الكثيرين وهي "مخاوف من الحرية الحقيقية"؛ شرح كيف يغمر العديد من الأفراد شعوراً عميقاً بالوحدة والانفصال، فيفضلون عدم تحمل مسؤولية أفعالهم. كان فروم يعتقد أن هذه الظواهر النفسية شائعة جداً، خاصةً في العصر الحديث، وبصورة أكثر كارثية في ألمانيا التي غادرها بسبب الأوضاع الصعبة التي كانت تمر بها. قال فروم إن الأفراد والمجموعات وحتى المجتمعات بأكملها يمكن أن يتبنوا مقاربات متنوعةً للتعامل مع هذه المشاعر. في وقت لاحق، استقرأ فكرة ما يشكل "مجتمعاً صحياً" ويعمل بفعالية.

بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح هناك اهتمام متزايد بفهم كيفية عمل المجموعات وممارسة تحليل المجموعات. في الوقت نفسه، كان الباحثون يدرسون سلوك المجموعات الكبيرة من منظور تاريخي واجتماعي. بالإضافة إلى ذلك، كان مفهوم الفكر الجماعي، حيث تقوم المجموعة باتخاذ قرارات دون أن تنظر فيها بعمق،

---

1 Wilhelm Reich, *The Mass Psychology of Fascism* [1933] (London, 1972).
للسياق، يمكن الرجوع إلى:

Pick, *The Pursuit of the Nazi Mind*; ffytche and Pick (eds), *Psychoanalysis in the Age of Totalitarianism.*

يلقى انتباهاً متزايداً كما سبق أن أشرنا. فبعض الباحثين والمتخصّصين في المؤسسات الأكاديمية قاموا باستقصاء ديناميات الطلاب والمحترفين في مجالاتهم الخاصة. كانوا مهتمين بكيفية تشكيل الروابط اللاواعية بين الزملاء والطلاب داخل منظمات تدريب التحليل النفسي. رأى هؤلاء الباحثون أن غالباً ما يشعر الأفراد بضرورة الامتثال لممارسات وسلوكيات معيّنة عندما يتطلعون لأن يصبحوا محترفين في ميادينهم الخاصة. بصورة خاصة، أشاروا إلى أنه حتى داخل مؤسسات كبيرة مثل الجامعات أو مراكز التدريب، يمكن أن يدير قادة مميزون مجموعات صغيرة ومتماسكة بأساليب تفاعلية فريدة داخل تلك المؤسسات.

روبرت جاي ليفتون، الطبيب النفسي المعروف بأبحاثه حول عمليات تغيير الفكر ومقابلاته مع الأسرى السابقين عند عودتهم من حرب كوريا، أدرك أن هناك اتجاهات نحو الفكر الجماعي وأساليب متنوعة لتغيير أفكار الناس داخل المنظمة النفسية الأميركية بعد الحرب العالمية الثانية. كان يشعر بالقلق إزاء قدرة هذه المنظمة على مراقبة وتقييد حرية الأفراد الذين يخضعون للتدريب ليصبحوا محللين نفسيين، وهذا ما دفعه إلى اتخاذ قرار بوقف تدريبه واختيار مسار مهني مختلف، إذ لم يكن يرغب في تقييد حرية الأفراد.[١] كان أيضاً هناك نقاد آخرون يدرسون كيفية عمل الجماعات التحليلية والجمعيات الاستشارية؛ كانوا يسعون إلى فهم إمكانية المحللين أو منظماتهم توجيه الأفراد الذين يخضعون للتدريب مجال التحليل النفسي أو التأثير عليهم. من خلال تدريب كل جيل من المحللين، يمكن أن تعمل مجموعة متنوعة من الرموز المشفرة كإشارات تكشف أين يمكن الامتثال للقواعد المعمول بها أو التحدي للسلطة داخل الجماعة الصغيرة أو المجتمع المهني الأوسع.[٢] يمكن تعزيز هذه الإشارات تعزيزاً أكبر من خلال الدعم المهني للأفراد والفرص المتاحة لتقدّمهم

1 Lifton, *Thought Reform*.

٢ ثمّة أدب واسع حول تجارب التدريب، وثمّة أوراق هامة في هذا الموضوع من تأليف Michael Balint وOtto Kernberg وغيرهما، لكني لم أذكرها هنا، ويمكن الاطلاع عليها بسهولة عبر الإنترنت من خلال PEP–Web. كتاب ملحوظ حول هذا الموضوع هو:

Moustapha Safouan, *Jacques Lacan and the Question of Psychoanalytic Training*, translated and introduced by Jacqueline Rose (London, 2000)..

إذا قرروا الامتثال لهذه القواعد، أو من خلال تهميشهم أو استبعادهم إذا لم يلتزموا بها.

لم يكن علم التحليل النفسي محصوراً في منهج واحد، بل اتسم بتنوع الأساليب والمدارس المختلفة، مما أدى إلى نقاشات حادة داخل المنظمات المهنية. كانت هذه النقاشات تشمل موضوعات مثل كيفية تفسير الأمور وبعض الممارسات مثل التفكير الجماعي والاعتناق والتطبيع، وقد نوقِشت الحدود المناسبة والمعايير الأخلاقية أيضاً. في هذا السياق، انتقد بعض المحللين النفسيين الأوروبيين المعروفين، مثل جاك لاكان Jacques Lacan، المهنة بشدة، خصوصاً في الولايات المتحدة، معتبرين أنها فقدت هدفها الأصلي، إذ اعتقدوا أنها تحولت إلى وسيلة لجعل الأفراد يتأقلمون مع المجتمع. من جهة أخرى، أشار بعض النقاد إلى الانسجام الشديد داخل مجموعات لاكان في باريس، إذ أشاروا إلى التأثير الكبير الذي كان لدى لاكان على متابعيه وعلى الندوات التي عقدها. كانت لدى لاكان القدرة على تغيير بنية مجموعاته وقواعدها بصورة متكررة بحسب اعتقادهم.

ابتكر محللو النفس أيضاً كلمات جديدة لشرح كيف يمكن للأفراد، منذ الصغر، أن يصبحوا ملتزمين التزاماً زائداً بمجموعتهم الرئيسية، والتي عادةً ما تكون عائلاتهم، بدلاً من أن يكونوا متمردين أو متجاوزين للقيم الاجتماعية. على سبيل المثال، قام كريستوفر بولاس Christopher Bollas، متأثراً جزئياً بأفكار دونالد وينيكوت حول الذات الزائفة، بعرض مفهوم نفسي سلبي يُسمّى "الشخص النورموتيكي" (normotic). وقد أعربت محللة نفسية أخرى، جويس ماكدوجال Joyce McDougall، عن فكرة مماثلة واستخدمت بدلاً من ذلك مصطلح "الشخص النورموباثي" (normopath)، وهو السعي المَرَضي نحو الامتثال وقبول المجتمع على حساب الفردية.[1]

في تطورنا النفسي، أشارت ماكدوجال إلى أنه يتوجب على كل منّا أن يجد توازناً

1 Joyce McDougall, *Plea for a Measure of Abnormality* (New York, 1992); Christopher Bollas, *Meaning and Melancholia: Life in the Age of Bewilderment* (Abingdon, 2018); and idem, *Being a Character: Psychoanalysis and Self Experience* (New York, 2006). Cf. Harold Kelman, 'Training Analysis: Past, Present and Future', *American Journal of Psychoanalysis*, 23:2 (1963), 205–17, p. 208.
هذا يشير إلى زيادة عدد المرشحين الذين يظهرون كأنهم "عاديون" من الخارج، ولكن قد يكون هناك شيء مختلف أو غير عادي في ما يتعلق بهم.

بين التكيف مع الآخرين وعدم الاندماج الكامل مع المجموعة دائماً. كأطفال، يجب علينا أن نتعلم أننا لسنا الأهمين الوحيدين في العالم، بل يجب أن ندرك أهمية مفهوم المشاركة وألا نكون مركزين على ذواتنا تمام التركيز. ينطبق هذا الدرس على مراحل الطفولة والبلوغ على حد سواء. بحسب ماكدوجال، من المهم أن نعرف التكيف إلى حد ما مع احتياجات الآخرين، مثل مقدمي الرعاية لنا وإخوتنا والمجتمع. يجب أن نتعلم ونجري التعديلات اللازمة مع تقدمنا من مرحلة الرضاعة إلى مرحلة الطفولة والمراهقة، وأخيراً مرحلة البلوغ. في بعض الأحيان، يتوجب علينا الامتثال لطرق معيّنة للقيام بالأمور بفعالية وجعل المجموعة التي ننتمي إليها تعمل جيداً.

كان بولاس وماكدوجال مهتمَّين بفهم ما يحدث عندما يتأقلم الأفراد ويطيعون بشدة، إذ يتبعون قوانين وقواعد صارمةً دون أي تساؤل. كانا قلقَين بصورة خاصة بشأن الحالات التي يتلقى فيها الأطفال رسائل قويةً توجب عليهم الامتثال الفوري والدائم، والتأقلم الطبيعي دون أي تردّد. اعتبر بعض علماء النفس بأنه عندما يكون الرضيع أو الطفل في سن مبكرة مطيعاً بصورة مفرطة وهادئاً جداً وملتزماً بشدة، يكون ذلك مؤشراً على وجود مشكلة نفسية في الطفل تحتاج إلى تدخل محترفي الصحة النفسية واهتمامهم. بالإضافة إلى ذلك، يمكن لبعض الأفراد أن يصبحوا ما نعرفه عادةً بـ"الحرباء"، أي أنهم يستطيعون التكيف استثنائياً مع أي موقف وفي أي مجتمع، وهذا ما يثير التساؤل حول من يستفيد من قدرتهم الرائعة على التغيير بسهولة في مواقف متنوعة؛ هل هذا التكيف يخدم الفرد ذاتياً، أم يخدم أهدافاً أو توقعات خارجية؟ هناك الكثير من المعلومات والنظريات حول كيف يمكن للأشخاص تحويل أنفسهم لتلبية توقعات شخص آخر أو مجموعة، وكيف يمكن لبعض الأفراد أن يعانوا من "متلازمة المحتال"، وهي شعور بأنهم يتظاهرون بأنهم شخص آخر، أو أنهم يتبنون بصورة صارمة سلوكيات وهويات الآخرين، مما يجعل من الصعب عليهم التغيير أو أن يكونوا أنفسهم.

حذر المحللون النفسيون مراراً من أن بإمكان بعض السلوكيات عرقلة تقدمهم في مهنتهم كمحللين على نحو كبير، فعندما تصبح مجموعات المحللين مغلقةً ومنعزلةً بسبب حفاظ المحللين على أفكارهم لأنفسهم، يمكن أن يسبب ذلك تراجعاً في تبادل

الأفكار والخبرات بين الأعضاء، مما يمكن أن يمنع ذلك تقدم المهنة وتبادل الأفكار الجديدة. لذلك، كانوا قلقين بشأن بعض مجموعات المحللين الذين، بدلاً من أن يعززوا الحوار المفتوح مع الآخرين، يصبحون محصورين ومنعزلين. كان هذا النهج الحصري في التفكير مثيراً للقلق، وقد لاحظ المحللون النفسيون وجود انتقادات للعلاج النفسي من مصادر خارجية. ففي عام ١٩٦٩، عبّر المحلل النفسي الأميركي رالف غرينسون Ralph Greenson عن قلقه من وجود الهدوء والرضا والارتياح الزائد في مجالهم، وقد رجع غرينسون إلى روح المغامرة والإبداع التي كانت لدى سيغموند فرويد وشجع زملاءه على خلق بيئات أكثر تلاؤماً لتربية أفكار جديدة في مجال علم تحليل النفس في المستقبل.[1]

بعد عام ١٩٤٥، انخرطت مجموعة واسعة من الأشخاص، بدءاً من الصحافيين والأكاديميين وصولاً إلى علماء النفس والمتخصّصين والفنانين، في دراسة عميقة لموضوع "فكر الجماعة"؛ خاضوا نقاشات واسعةً حول أفكار جديدة ومناظرات. علاوة على ذلك، أجروا تجارب مبتكرةً في علم النفس الاجتماعي وعلم التحليل النفسي، بهدف استكشاف وتحدي النظريات القديمة والمجردة المتعلقة بكيفية تصرف الأفراد عندما يكونون جزءاً من مجموعة أو حشد. صُمّمت هذه التجارب بشكل خاصّ لاستكشاف كيفية استجابة الأشخاص للتحديات المختلفة، كما سعت أيضاً إلى إلقاء الضوء على كيفية تأثير المناهج العلاجية المختلفة والهياكل التنظيمية المختلفة على التفكير الرشيد وحل المشكلات والمحافظة على الاحترام الذاتي. في الجوهر، شهدت هذه المرحلة كثيراً من الأبحاث والتفكير حول ديناميات سلوك الجماعات وتأثيرها على الأفراد.

في الثلاثينيات من القرن العشرين، طوّر عالمُ نفس يُدعى كورت ليفين Kurt Lewin أساليبَ لفحص تأثير القيادة على أفكار الأشخاص وسلوكهم. أصبح مشهوراً بدراسته لفتيان يبلغون نحو الحادية عشرة من العمر، إذ عملوا معاً لحلّ تحديات في

---

1 Ralph Greenson, 'The Origin and Fate of New Ideas in Psychoanalysis', *International Journal of Psychoanalysis*, 50 (1969), 503–15, p. 513.

مجموعات، مثل الأندية التي نظمها وراقبها. كان ليفين يرغب في معرفة ما إذا كانت أساليب تفكير هؤلاء الفتيان وسلوكهم تتأثر بثلاثة أنواع مختلفة من الأنظمة؛ كان النظام الأول يتضمن تدخلاً حكومياً محدوداً إلى أدنى حد (laissez–faire system)، والنظام الثاني كان ديموقراطياً ويشدد على التعاون والمشاركة والاشتراك، والنظام الثالث كان استبدادياً إذ يصدر الكبارُ الأوامر دون توضيح قراراتهم للأطفال. أعتقد أن ليفين كان مستعداً لاستكشاف مجموعة متنوعة من الأفكار، ومن المحتمل أنه وفريق بحثه سعداء باكتشاف أن اختباراتهم دعمت فكرة التسامح وزيادة الديموقراطية. على الجانب الآخر، كشفت أبحاثهم أن للنهج الاستبدادي تأثيرات سلبية على التعليم والتفكير النقدي. نجا كورت ليفين من نظام النازية ووصل إلى الولايات المتحدة كلاجئ، لكن للأسف، تُوفّي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، إنّما محاولاته إنشاء مرفق بحثي لدراسة تفاعل الناس في المجموعات داخل الولايات المتحدة استمرت لمدّة طويلة بعد وفاته.[1]

هناك تجارب أُجريت وكان لها تأثير هام؛ قامت هذه التجارب بفحص كيفية تكوّن أفكار لدى الأفراد حول التفوق على الآخرين والتدني منهم، وكيف يتشكلون في مجموعات مع الأشخاص الذين يرونهم مماثلين لهم (المجموعات الداخلية) أو مختلفين عنهم (المجموعات الخارجية). كما أظهرت هذه التجارب أيضاً كيف يمكن أن تؤثر التحيزات العميقة والمتجذرة في تشكيل آراء الأفراد حيال الآخرين وحتى حيال ذواتهم. في الولايات المتحدة، نفّذ عالمان نفسيّان من أصل أفريقي، هما مامي وكينيث كلارك Mamie & Kenneth Clark، اللذان كانا من الناشطين المؤثرين والمناصرين الأشدّاء للمساواة العرقية وإلغاء الفصل العنصري وحقوق الإنسان، تجاربَ في الأربعينيات من القرن الماضي، فكان هدفهما فهم كيفية استيعاب الأطفال

---

١ انتقل Kurt Lewin إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٣٣ وتوفي في عام ١٩٤٧. درس، مع طالبَيه Ronald Lippitt وRalph K. White، تأثيرات الهياكل التنظيمية المختلفة على السلوك وعمليات الفكر. كان مهتماً بما أسماه "مجال الحركة الفكرية الحرة". في ورقة عمل نشرها في مجلة *Harvard Educational Review* في عام ١٩٣٩، ناقش مشروع نادي الأولاد. لفهم السياق والنتائج الناتجة عن عمله، يمكن الرجوع إلى البحث التالي:

Clem Adelman, 'Kurt Lewin and the Origins of Action Research', *Educational Action Research*, 1 (1993), 7–24, doi.org/10.1080/0965079930010102.

لانطباعاتهم عن أنفسهم وتأثير الأفكار حول موضوع العنصرية عليهم. أظهرا من خلال "اختبارات الدمى" الشهيرة أن الأطفال الصغار، الذين تتراوح أعمارهم عادةً بين ثلاث وسبع سنوات، يميلون إلى اعتبار الدمى البيضاء أكثر قيمةً وجاذبيةً وذكاءً من الدمى السوداء، بغض النظر عن لون بشرتهم. كانت تجارب كلارك دليلاً مقنعاً على كيفية تأثير الصور النمطية البيئية الضارة وأنظمة القيم والمعتقدات الكامنة التي تتغلغل في عقول هؤلاء الأطفال في تطوير نفسيتهم، وكيف يمكن أن تؤدي في كثير من الحالات إلى ظهور شعور "عقدة الدونية"، حيث يلجأ الفرد إلى التعصب للتعويض عن شعور بالنقص لديه.[1]

في السنوات التي تلت عام ١٩٤٥، كان هناك اهتمام كبير بفهم كيفية تطوير المراهقين لمفهوم الذات الخاصة بهم والمجموعات التي يصبحون جزءاً منها. على الرغم من وجود كلمة "مراهق" في القواميس حتى قبل الحرب العالمية الأولى، فقد أصبحت مألوفةً ومعروفةً على نطاق واسع خلال الأربعينيات والخمسينيات. أصبحت هذه الكلمة ذات أهمية خاصة في مجال التسويق بسبب زيادة القوة الشرائية للشبان، مما جعلهم هدفاً للشركات التجارية. في هذه المرحلة المزدهرة، كان هناك تركيز ملحوظ على المراهقين الذين كانوا يواجهون تحديات أو صعوبات، وغالباً ما أُشيعت عبارة "المراهقين المضطربين" للإشارة إلى هؤلاء. بالإضافة إلى ذلك، شهدت هذه المرحلة انتشاراً متزايداً لاستخدام علم النفس لمعالجة المشاكل اليومية الشائعة والقضايا التي كان يواجهها الناس. في هذه المرحلة، بدأ الناس في التحدث أكثر عن علم نفس المراهقين والمرحلة التحويلية الصعبة التي يمرون بها أثناء نموهم من الطفولة

1 K. B. Clark and M. P. Clark, 'Racial identification and preference in Negro children', in *Readings in Social Psychology* (New York, 1947), edited by T. M. Newcomb and E. L. Hartley, Chapter 3, pp. 169–78.
المشروع الذي جاء لاحقاً والذي يدعو للمقارنة مع أبحاثهم المبتكرة كان "bobo doll experiments" [تجربة دمية بوبو] في جامعة ستانفورد بين عامي ١٩٦١ و١٩٦٣، بإشراف عالم النفس Albert Bandura. هذا العمل استكشف سلوك الأطفال تجاه دمية محددة؛ فدرس مدى تأثرهم بشدة بعد رؤيتهم لشخص بالغ يتصرف بعنف وقسوة تجاه الدمية. أدى هذا المشروع إلى المزيد من البحث والنقاش حول تكوين مواقف الأطفال، وتأثير رؤية العنف على السلوك العدواني، ونقل الكراهية في المجتمع.

إلى البلوغ. أفلام مشهورة مثل "Rebel Without a Cause" [متمرد من دون قضية] (١٩٥٥)، إخراج نيكولاس راي Nicholas Ray وبطولة جيمس دين James Dean، أو "Les Quatres Cents Coups" [أربعمئة طعنة] (١٩٥٩)، إخراج فرانسوا تروفو Francois Truffaut وبطولة جان بيير ليو Jean-Pierre Léaud، تناولت هذه القضايا. ساهمت هذه الأفلام في بدء مناقشات حول تجارب المراهقين المتنوعة والتحديات الشخصية والعلاقات التي يمتلكونها خارج أوساط أسرهم. استغرقت هذه القصص في تفاصيل التحديات العاطفية الشديدة التي تواجهها الشخصيات وصُمّمت لتحدي الأحكام البسيطة والقاسية لـ"الانحراف في سلوك المراهقين"، والذي كان مصطلحاً شائعاً في مرحلة ما بعد الحرب. أسهمت قصص هذه الأفلام أيضاً في زيادة الاهتمام بعلم النفس.

انتشرت أفكار التقليد والتمرد في المراهق على نحو كبير؛ زادت الأدبيات النفسية المتنوعة التي تهدف بصورة متزايدة إلى تقديم إرشادات حساسة للآباء والأمهات بعد الحرب، فضلاً عن أبنائهم. خلال الحرب العالمية الثانية في بريطانيا، كان الطبيب النفسي دونالد وينيكوت قد سبق الآخرين، إذ قدم حلقات إذاعية عبر *BBC* بهدف مساعدة الآباء والأمهات على فهم رضّعهم ورعايتهم، وكذلك قيمة أنفسهم، مشجعاً باستمرار على النهج الأكثر توجيهاً نفسياً للوالدين. في فرنسا خلال السبعينيات، قامت الطبيبة النفسية فرانسواز دولتو Francoise Dolto بشيء مماثل من خلال تقديم برامج إذاعية أجابت فيها عن أسئلة الآباء وقدمت إرشادات بشأن رعاية أطفالهم. في كلتا الحالتين، استخدم هؤلاء الخبراء الإذاعة وسيلةً لجعل المفاهيم النفسية المعقدة أكثر وصولاً وتفهماً للأشخاص العاديين. دونالد وينيكوت، على وجه الخصوص، كان له تأثير كبير، إذ نصح الأمهات بالثقة في غرائزهن الطبيعية والقيام بما يشعرن به أنه صحيح بالنسبة إليهن، إذا لم يكنّ قلقات جدّاً أو تحت تأثير الآخرين على نحو كبير، واقترح أن يجد الآباء والأمهات طرقهم الخاصة في تربية أطفالهم بدلاً من اتباع نصائح الخبراء المزعومين دون تفكير.

إن للمعلومات التي تمت مشاركتها مع الجمهور والنصائح المقدمة للأفراد هدفاً محدداً، وهو تحدي الأساليب التقليدية والصارمة جداً في التفكير بشأن تربية الأطفال

وفهم مشاعر الرضّع والأطفال ومقدمي الرعاية الرئيسيين لهم. مجموعة من الخبراء والمستشارين أرادوا إجراء تغيير كبير في كيفية رعاية الرضّع، خاصةً عندما يتعلق الأمر بجداول تغذيتهم. في الماضي، كانت هناك عادة شائعة لاتباع جداول تغذية صارمة وغير مرنة. على سبيل المثال، في عقد الثلاثينيات من القرن الماضي، كان لدى طبيب من نيوزيلندا يُدعى فريدريك تروبي كينج Frederic Truby King تأثيرٌ كبير؛ لم يكتفِ بدعم الرضاعة الطبيعية بدلاً من استخدام الزجاجة، بل أصرّ أيضاً على الالتزام بجدول تغذية صارم ومحدد بدقة لتغذية الرضّع. كانت النصائح الجديدة تحاول تحدي وتغيير هذه الممارسات الصارمة.[1] بعد عام ١٩٤٥، ظهرت كتب وأدلة جديدة كتبها خبراء؛ شجعت هذه الكتب الأمهات على أن يكنّ أكثر طبيعية، وأن يتبعن غرائزهن، ويفعلن ما يشعرن أنه صحيح عند الاعتناء بأطفالهن، وقد أخذت في اعتبارها أفكاراً من علم النفس التحليلي والبحوث العلمية لدعم نصائحها. في الوقت نفسه، كانت هناك محاولات لاستجواب القواعد الصارمة والأنظمة في العديد من المدارس في المملكة المتحدة، سواء كانت خاصةً أو حكومية. نظرت هذه التحديات أيضاً إلى التأثيرات المستدامة لوجود الأفراد في المؤسسات، وتحملهم معاملة قاسية، أو فقدان الاتصال مع مقدمي الرعاية في سن مبكرة. ببساطة، استقصت هذه الجهود الأضرار المحتملة التي يمكن أن تحدث نتيجةً للتعليم على المدى الطويل، وهذا ما يرتبط بالدراسات الأخيرة حول حالات مثل "متلازمة المدارس الداخلية".

في المملكة المتحدة، تطوّر علاج نفس الأطفال إلى مهنة معترَف بها بصورة مستقلة وأصبح له تأثير أكبر في المناقشات العامة بعد الحرب العالمية الثانية. في كل من أوروبا الشرقية والغربية، لعب علم النفس والطب النفسي وعلاج نفس الأطفال أدواراً حاسمة. في الوقت نفسه، في البلدان الشيوعية، كانت الحكومات تراقب من كثب الأشخاص الذين لم يلتزموا بالأنظمة المعمول بها، إذ كانت قلِقة من تأثير الثقافة الغربية على الشباب، خصوصاً في ما يتعلق بالموسيقى الشعبية التي اعتبروها "فاسدة" في ستينيات القرن العشرين. من المهم أن نلاحظ أنه خلال الجزء الثاني

1 Katharina Rowold, '"If We Are to Believe the Psychologists...": Medicine, Psychoanalysis and Breastfeeding in Britain, 1900–55', *Medical History*, 63:1 (2019), 61–81.

من القرن العشرين، كان هناك الكثير من الأبحاث والمناقشات حول التحديات التي تواجه التعامل مع المراهقين وتأثير مجموعات أقرانهم، وجرت هذه المناقشات من وجهات نظر سياسية وأخلاقية متنوعة في كل من البلدان الشرقية والغربية. لاحظ علماء الاجتماع والمتخصّصون النفسيون، الذين يدرسون سلوك الإنسان وعواطفه، أن المراهقين غالباً ما يقومون باتصالات اجتماعية جديدة بطرقهم الخاصة. يعيشون أوقات حبهم وكراهيتهم الأولى من خلال وسائل متنوعة، مثل الانضمام إلى "الثقافات الفرعية" (مجموعات ثقافية مميزة)، أو الانضمام إلى عصابات، أو التعبير عن أنفسهم من خلال الموضة والموسيقى الشعبية، أو تجربة العقاقير، أو المشاركة في الأنشطة السياسية. في بعض الأحيان، يرغب المراهقون في الهروب من الاعتقادات والقوانين التقليدية التي يفرضها أسرهم أو حكوماتهم، فيفعلون ذلك لتجنب الضوابط الصارمة في النظام الشيوعي أو التحديات والضغوط الناجمة عن الرأسمالية. ببساطة، يسعى المراهقون للعثور على هويتهم واستقلالهم بطرق تختلف عما تتوقّعها أسرُهم أو حكوماتُهم.

في بريطانيا، خلال الستينيات والسبعينيات، كان هناك اهتمام بتعزيز الفردية، وفي الوقت نفسه، الاعتراف بأننا جميعاً نواجه تحديات نفسية مشابهة أثناء نمونا. عبّر عن هذا الاهتمام من خلال مجموعة من الكتب التي تتضمن أدلةً مفيدةً ومتأملةً رغم أنها كانت تعبّر تعبيراً كبيراً عن الفكر السائد في تلك الحقبة. أُعدّت هذه الأدلة بواسطة علماء نفس ومتخصّصين في علاج الأطفال في عيادة تافيستوك، فكان الهدف منها مساعدة الآباء والأمهات في فهم أطفالهم في مراحل نموهم المختلفة، مثل الأطفال البالغين من عام واحد أو عامين. شرحت هذه الأدلة أن كل رضيع وطفل ومراهق فريدٌ ويتغير مع نموه، فلا يمكن تبسيط أفكارهم أو مقارنتها بأفكار الآخرين، إلا أنهم يواجهون أيضاً التحديات الأساسية نفسها في التعامل مع أفكارهم الداخلية وبناء علاقات اجتماعية مع الآخرين.

كان أحد الكتب في هذه السلسلة يساعد الآباء على فهم أبنائهم المراهقين بصورة أفضل. هدف الكتاب هو شرح كيف يمكن للشباب أن يقاوموا أو يمتثلوا لضغوط مجموعات متنوعة بينما يخضعون أيضاً لعملية نمو فريدة لهم. أوضح الكتّاب أن

المراهقين، في مرحلة المراهقة، يتعاملون مع مسائل مهمة تتعلق بـ"هويتهم". إنهم في عملية دائمة لفهم كيفية التفاعل مع أقرانهم والتكيف مع التغييرات في القواعد الاجتماعي. بالإضافة إلى ذلك، يتعلم المراهقون كيف يصبحون أكثر استقلالاً عن مجموعتهم الأساسية، وهي أسرهم. تتضمن عملية الانتقال إلى الاستقلالية التعامل مع رغبات متناقضة، مثل رغبة في التمرد أو الامتثال، في مجموعة متنوعة من جوانب حياتهم، بما في ذلك العلاقات الشخصية والمدرسة والدين والعمل وقرار متابعة التعليم العالي. وفقاً لتحذير الكتّاب، كان لدى الشبان ميلٌ لعرض سلوكيات تدل على أنهم يتصرفون بجدية ويعبّرون عن معتقدات كبيرة في ذلك الوقت، وكانوا يعظمون الثوار ويرغبون في تغييرات كبيرة وسريعة في العالم. كانوا يسعون للتكيف مع مجموعتهم الجديدة "المتطرفة"، أو في بعض الأحيان ينقلبون تماماً ويتجهون إلى التمسك بمعتقدات صارمة ومحافظة تعارض رغباتهم الشديدة في التمرد واضطراباتهم الداخلية. ببساطة، كانوا يظهرون سلوكيات مكثفة وأحياناً متضاربة في مرحلة شبابهم.

أُعِدّ دليل تافيستوك لمساعدة الأشخاص على فهم التحديات النفسية والاجتماعية المعقدة التي يواجهها المراهقون. حاول الدليل أن يستعرض بالتفصيل الصعوبات العاطفية التي يتعين على الشباب التغلب عليها. وجد الكتّاب أن شعور الشباب بـ"الانتماء" إلى مجموعة جديدة غالباً ما يكون مهماً وصعب التحقيق، لذا أكدوا أن عملية الانفصال النفسي عن الأسرة والأخوة كانت بالضرورة شديدةً إذا كان المراهقون يسعون للتقدم نحو البلوغ واكتساب استقلاليتهم. كان هذا التحول جزءاً هاماً من تطور المراهقين ورحلةً يجب أن يمروا بها جميعاً، فمن غير الممكن تحقيق هذا التحول من دون أن يخوض الشبان هذه العملية، وكان هذا الانتقال مميزاً بحيث تخضع أجسام الشباب لتغييرات كبيرة تتضمن ارتفاع مستوى الهرمونات، مما يثير مشاعر متناقضة لديهم. كانت هذه المرحلة تتميز أيضاً بظهور الميول الجنسية للبالغين التي قد تظهر قبل نضوج الهوية النفسية والاجتماعية للشباب، وبالقدرة على بناء علاقات حميمة وعلاقات جسدية جديدة مع الآخرين. في هذه المرحلة، لاحظ الكتّاب أن السلوكيات التي يمكن اعتبارها معاديةً للمجتمع كانت شائعة، ناهيك

بالمشاركة المبكرة في الأنشطة الجنسية.[1]

حذّر أطباء تافيستوك من أن المجتمع الحديث كان يتعرض لانتقادات حادة بسبب استغلال الأطفال والمراهقين دون أدنى حياء لتسويق المنتجات، وذلك من خلال موجة كبيرة من الإعلانات المغرية والمحتوى الجنسي في وسائل الإعلام. كانوا يعتقدون أن الخطر الحقيقي على الشباب لم يكن مجرد تطور طبيعي لرغباتهم الجنسية، وإنما كان يتمثل في الرسائل المستمرة حول كيفية شعورهم وسلوكهم في المسائل الجنسية. وشرحوا كيف يمكن لصبي شاب أن يشعر كأنه ليس حقاً على قيد الحياة أو أنه استُغيب أو تم تجاهله إذا لم يكن نشطاً جنسياً. لا يزال هذا المفهوم ذا صلة اليوم، خصوصاً مع وجود الإنترنت، بحيث يمكن للمراهقين، وحتى الأطفال الأصغر سناً، الوصول بسهولة إلى محتوى صريح أو صناعة ضخمة للإباحية. في عقول المراهقين، تتسم الحياة في العصر الحالي بتغييرات متسارعة ومستمرة في مجموعة من المجالات، مما يتطلب من الأفراد التكيف مع هذه التغيرات وفهمها بسرعة. رغم ذلك، في بعض الأحيان، وجود رفيق أو رفيقة وبعض المال يمكن أن يبدوا مهمَّين للغاية، تقريباً كمسألة حياة أو موت.[2]

ترتبط الفكرة هنا بدراسة الباحثين لكيفية تعامل المراهقين مع الضغوط المتعلقة بالامتثال لتوقعات المجتمع أو محاولة الانتفاضة ضد هذه التوقعات (مع شعور بالضغط للقيام بذلك). تم تفحص هذا بعناية لفهم أفضل لمفهوم الفردية والحرية، وكيفية تفكير الأفراد داخل الجماعات. ومع ذلك، ليس المراهقون وحدهم الذين يواجهون هذه الضغوط. فحتى الأشخاص الأكبر سناً، الذين من الناحية النظرية يمكنهم اتخاذ قراراتهم الشخصية، كانوا متأثرين أيضاً بالضغوط الاجتماعية للامتثال، وهذا يعني أن الأشخاص من جميع الأعمار يمكن أن يشعروا بضرورة الالتزام بالتوقعات الاجتماعية أو القيام بما يتوقعه الآخرون منهم كما قال علماء النفس. لتوضيح ذلك، أجرى العالم النفسي سلومون آش Solomon Asch تجارب مهمةً في خمسينيات القرن الماضي، فاكتشف أن عدداً كبيراً من البالغين كانوا يترددون في الثقة بآرائهم وقراراتهم

1 Martha Harris et al., *Your Teenager* (London, 1969), pp. 90–91.

2 Ibid., pp. 96–7, 109, 111, 117.

الشخصية، حتى عندما كانوا يرون شيئاً بأعينهم بوضوح، وذلك إذا كانت الغالبية العظمى من الأشخاص من حولهم تختلف عنهم في الرأي. يهمّ أن نلاحظ أن بعض المشاركين في التجارب كانوا طلاباً، ومنهم مراهقون أو في سن مبكرة من مرحلة البلوغ، ومع هذا، تتجلى النقطة الأساسية في أن الضغوط المرتبطة بالامتثال قد تؤثر في الجميع، بغض النظر عن فئة العمر التي ينتمون إليها.

بالتأكيد، ركزت أبحاث آش على كيفية توجيه الأشخاص لمتابعة آراء الجماعة، وقد كان لهذه الأبحاث تأثير كبير على علماء نفس اجتماعيين آخرين مثل ستانلي ملغرام Stanley Milgram الذي أجرى تجارب مشهورة حول الطاعة. نتائج آش، مثل نتائج ملغرام لاحقاً، كانت مدهشةً وأثرت في تفكير الكثيرين حول سلوك الإنسان. في إحدى تجارب آش، جمع مجموعةً من المشاركين وأخبرهم أنهم جميعاً متطوعون في الوضع نفسه، ومع ذلك، كان أحد الأشخاص في المجموعة على غير علم بأن الآخرين كانوا يمثّلون وأنه تم تحضيرهم مسبقاً لتقديم إجابات خاطئة على سؤال طرحه آش. كانت المسألة الرئيسية ما إذا كان هذا الشخص المتطوع سيظل عند رأيه الخاص أم سيغير إجابته بفعل الضغط الداخلي لموافقة رفاقه الآخرين في المجموعة، حتى إذا تعارض ذلك مع ما كان يعتقده أصلاً. صُمّمت هذه التجربة لاستكشاف مدى تأثر الشخص بقوة الضغط الاجتماعي، إذ وجد نفسه مجبَراً على تقديم إجابة خاطئة غير مقنعة لإرضاء المجموعة أو موافقتها.

في هذه التجربة، قُدّمت لمجموعة من الأشخاص بطاقتان؛ البطاقة الأولى كانت تحتوي على خط واحد، بينما البطاقة الثانية كانت تحتوي على ثلاثة خطوط بأطوال مختلفة بوضوح. كانت مهمتهم هي تحديد أي من الخطوط على البطاقة الثانية تتطابق مع طول الخط على البطاقة الأولى. كان عليهم أن يعبّروا عن إجاباتهم بصوت عالٍ. الآن، ما يثير الاهتمام أن الشخص الأخير في المجموعة، الذي كان المتطوع الحقيقي، غالباً ما كان يقدم إجابةً خاطئةً وذلك كي يتفق مع إجابة المجموعة، حتى إذا كانت خاطئة. عندما اتخذ الأفراد قراراتهم بصورة مستقلة، دون تأثير الجماعة، فإن معدل الأخطاء كان منخفضاً للغاية، أقل من ١ %، أما عندما كانوا تحت تأثير الجماعة، زاد معدل الأخطاء كثيراً ووصل إلى نحو ٣٥ %. بقي بعض الأفراد ثابتين في آرائهم

الشخصية ولم يتراجعوا، ولكنّ كثيرين آخرين غيروا إجاباتهم لتتوافق مع ما قالته المجموعة. كما لاحظ آش في تقريره عام ١٩٥٥ في مجلة *Scientific American* وهي منشور عالمي مشهور، أنّ بعض هؤلاء "الأشخاص الذين يستسلمون بشدة" استنتجوا: "أنا مخطئ، هم على صواب"، وآخرون تخلوا عن وجهة نظرهم الخاصة "كي لا يفسدوا نتائج الجماعة". ما يُذهل أنّ بعض الأشخاص الذين انضمّوا إلى الجماعة اشتكوا بأن الغالبية قد تكون مخطئة، أو أنها ضحية وهم بصري رغم أن هذا البعض اختار التوافق مع إجابات الجماعة بدلاً من الاعتماد على تقديراته الشخصية. لقد أظهرت هذه التجربة تأثير الضغط الاجتماعي القوي على اتخاذ القرارات الشخصية.[1]

إذا كانت مجموعة من الأشخاص في غرفة قادرةً بقوة على أن تؤثر بشدة في الفرد لدرجة تجعله غير قادر على رؤية الأمور بوضوح، أو فهمها، أو حتى قادرة على تجاوز قدراته العقلية، فإن ذلك يثير التساؤلات حول دور الدولة بأكملها في تغيير آراء الناس وتكوين شخصياتهم. اقترح المؤرخ ريتشارد هوفشتادتر Richard Hofstadter إجابةً محتملةً عن هذا السؤال.

***

في عام ١٩٤٨، نشر هوفشتادتر كتاباً مثيراً للجدل استكشف فيه كيف يمكن للمعتقدات الوطنية السائدة أن تؤثر على نحو كبير في توجيه أفكار مواطني البلاد ومعتقداتهم. كان عنوان الكتاب *The American Political Tradition and the Men Who Made It* [التقليد السياسي الأميركي والرجال الذين صنعوه]، وقد استكشفت الدراسة الذي تضمنها الكتاب كيف أن الخرافات القوية قد تسلطت على البلاد وحافظت على وجودها على مر العصور. أُشير إلى أنها رسّخت رؤيةً قويةً لمهمّة أميركا ومصيرها، وبدأت تمارس تأثيراً متزايداً على السكان بصورة عامة، خاصةً على الأشخاص الذين يمتلكون النفوذ الاجتماعي والسياسي. كانت فكرةُ المهمّة الوطنية

1 Solomon E. Asch, 'Opinions and Social Pressure', *Scientific American*, 193:5 (1955), 31–5, p. 33.

متجذرةً في أفكار الناس، وقد تم تمريرها عبر الأجيال، وكان يُعتقد أنها نشأت طبيعياً من هوية الشعب الجماعية.

أكدت الأيديولوجيا على فكرة حرية التفكير والتعبير، مما يسمح للأشخاص بالتحدث بحرية دون خوف، ومع ذلك، كانت هذه الفكرة عن الحرية تحمل افتراضات أساسية ومحددة. كثيرون من سكان الولايات المتحدة، فضلاً عن جزء كبير من المجتمع التجاري، اعتبروا بلادهم "أرض الحرية" وقد استمرت هذه الرؤية حتى في خضم اللامساواة الواضحة وأحياناً السخرية من تلك الحرية في التطبيق. كان الناس يمتلكون رؤيةً صارمةً أو محدودةً لمعنى الحرية، وكانوا يعتقدون أن فهمهم لها هو الوحيد الصحيح أو الأهم. هذه الرؤية، التي يُشار إليها أحياناً بـ"المجتمع المتخيَّل" (the imagined community) وهو مصطلح أبدعه عالِم الدراسات الوطنية بنديكت أندرسون Benedict Anderson، أصبحت موضوعاً شائعاً في النقاشات السياسية الحديثة وفي التفكير المجتمعي في البلاد، وكأن الولايات المتحدة لم تكن بحاجة إلى التطلع لتصبح "أرض الحرية"؛ إذ ببساطة اعتُبرت كذلك من الماضي. أشار هوفشتادتر إلى أن هذه الفكرة المثلى عن الحرية كانت لها أيضاً تأثيرات اقتصادية ومالية ملموسة في البلاد. وفقاً لرأيه، من الضروري أن يكون المجتمع فعلاً حراً، مما يسمح للشركات بالعمل دون القيود التي تحدّها. علاوة على ذلك، اقترح هوفشتادتر أنه يجب على العالم بأسره اتباع قواعد مشتركة تسهل "التجارة الحرة"، فلا تكون هناك تعريفات جمركية أو عوائق تجارية أخرى تحول دون ازدهار حركة البيع والشراء إلى أقصى حدها.

بعد الحرب العالمية الثانية، لم يكن الجميع في الولايات المتحدة متفقاً بشأن فوائد التجارة الحرة العالمية. كان هناك اختلاف في الآراء بين الناس حول ما إذا كان يجب على البلاد إيلاء الأولوية لمصالحها الوطنية ("أميركا أولاً") وحماية اقتصادها، أم الترويج للتجارة الحرة على المستوى العالمي. استمر هذا النقاش لمدة طويلة، ومع ذلك، لاحظ هوفشتادتر صحيحاً أن العديد من الشخصيات المؤثِّرة في عالم الأعمال والسياسة والديبلوماسية دعموا نظاماً دولياً مبنياً على القوانين ونشروا أفكار الشركات الحرة والتجارة الحرة. كانوا يعتقدون أن هذه المبادئ أساسية وتنطبق

عالمياً. شارك ملايين الأشخاص هذا الاعتقاد، إذ تخيلوا مجتمعاً يعتمد على التجارة دون قيود ويكون التدخل الحكومي في الأعمال التجارية على أدنى مستواه، ورأوا هذا المنظور ضرورياً لرفاهية الاقتصاد والناس من الناحيتين الاقتصادية والنفسية. هذا المنظور اعتبر الدولة الفاعلة كالجسم الصحي الذي يعمل بسلاسة دون عقبات أو كالعقل الواضح والسلس في التفكير، وعند تنفيذ السياسات، سواء داخلياً في البلاد أو على الساحة الدولية، استُند إلى هذه الرؤية وعاملت السياسات القطاع الخاص بأهمية بالغة ومنحت الأفراد حريةً قصوى لاتخاذ قراراتهم الشخصية، ورأت هذه السياسات فكرة الحرية والانفتاح كشيئين مرغوبين للغاية وغير مشكوك في جدواهما. باختصار، ألمح كتاب هوفشتادتر عن القيم الأميركية إلى أن الاعتقاد في نظام الشركات الحرة وفكرة المجتمع المفتوح كان من الأيديولوجيات السائدة جداً في التفكير الأميركي، وذلك رغم وجود مخاوف مستمرة على مر العصور في تاريخ البلاد بشأن الشركات الكبيرة التي تتمتع بنفوذ اقتصادي كبير وتمتلك موارد مالية هائلة، والتي غالباً ما يكون لها تأثير كبير على السياسة والاقتصاد في البلاد.

في الواقع، كانت هناك دائماً آراء متنازعة في الولايات المتحدة، وبشكل عام في جميع أنحاء الغرب، حول معاني الحرية ونطاقها والقيود عليها والتحديات التي تواجه تحقيقها. قصة الأمة الأميركية كمجتمع مستند إلى حب الحرية في التفكير كانت بحد ذاتها روايةً متنازعاً عليها، تواجه دائماً الحقائق المركزية الهائلة مثل تدمير الدولة الأميركية لمجتمعات السكان الأصليين الأميركيين، وغزوها أراضيهم ودورها الجوهري في تعزيز العبودية وتأسيس الأمة وتطويرها على هذا الأساس. حتى بعد إلغاء الرق رسمياً، استمرت نسخة معقدة من الواقع سائدةً في الولايات المتحدة تفترض أن الأميركيين كانوا دائماً شعباً حراً.

هذه الرؤية المشتركة لحرية جميع مواطني الولايات المتحدة واجهت تحديات الجروح العميقة للحرب الأهلية في البلاد، وعلى هذه الرؤية أن تتعامل مع حقيقة مفاجئة، حيث أن الولايات المتحدة، التي تعتبر نفسها معقلاً عظيماً ضد الإمبراطورية، كانت في الحقيقة قوةً إمبرياليةً في العالم نشأت عن عنف هائل. لم تكن العقيدة الأميركية التي وصفها هوفشتادتر مقبولةً على نطاق واسع من شعبها، ولكن هوفشتادتر كان مقنعاً

حين أكد أن هذه الرؤية كانت تمثيلاً مؤثراً وسائداً، فاعتبرت الأمة الأميركية دائماً أن لديها هدفاً ولاه الله لتوسيع الحرية الفردية والتجارية داخل وخارج حدودهم، ولاحظ هوفشتادتر أن مثل هذه الرؤية تنتقل من مفهوم للحرية إلى آخر، كما لو أن الحق في التجمع والتعبير والملكية وحمل السلاح كان جزءاً من الوحدة نفسها، أي الهوية الأميركية، وأنّ الحريات النفسية والدينية والقانونية والاقتصادية والسياسية هي جوهر الثقافة الأميركية.

سعى هوفشتادتر إلى شرح كيف عززت الولايات المتحدة فكرةً معيّنة وضيقةً للحرية.[١] في أسوأ الحالات، أدى هذا المسعى إلى رؤية من شأنها تعزيز التوافق والتفكير الجماعي الضيق النطاق والمقتصر على الاهتمام بمصالح الأعمال الشخصية لا أكثر. ساور هوفشتادتر القلق من أن العديد من الأميركيين أصبحوا بعد الحرب العالمية الثانية مشاهدين ساكنين للأحداث، وكأنهم لا يتعاملون معها بروح نقدية. كان يقلق من قلة الاستعدادية لدى الناس أو القدرة على التفكير بصورة مستقلة ونقدية، حتى إن لم تسيطر التأثيرات الخارجية التي تغسل أدمغتهم تماماً عليهم. يبدو أنهم يقبلون، دون تساؤل، معتقداتهم رغم وجود الإمكانية النظرية للتغيير في أنفسهم وبيئتهم.[٢]

لاحظ هوفشتادتر أن النسبة الكبرى من القوى العاملة في الولايات المتحدة تحمل اعتقاداً بسيطاً مبنياً على حكم شخصي، مفاده أن الولايات المتحدة هي بلاد الحرية، وأنه بإمكانهم الاستفادة من ذلك بمجرد أنهم أميركيون ويعيشون في بلد مليء بالإمكانيات اللامحدودة، دون أن يعودوا حقاً إلى المبادئ الأساسية أو يمضوا وقتاً في فهم الظروف الحياتية الفعلية لزملائهم المواطنين الذين يعانون من سياسة التفرقة وعدم المساواة. كان هوفشتادتر يشير إلى أن هذا المعتقد البسيط كان مشتركاً بين الجمهور وحتى القادة السياسيين مثل الرؤساء ووزراء الخارجية رغم وجود اختلافات في ما يتعلق بالسياسات الخاصة، وأنه كان متجذراً منذ تأسيس الولايات المتحدة حتى الإدارات الحكومية ورؤساء الحكومة والرئيس في الزمن الحالي؛ حتى العهد الجديد لفرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt أو ما عُرف بالصفقة الجديدة (New Deal) في

١ للحصول على السياق، يمكن مراجعة كتاب:

Foner, *The Story of American Freedom.*

2 Richard Hofstadter, *The American Political Tradition and the Men Who Made It* (New York, 1948), p. xxxiii.

الثلاثينيات، تمسك في حكمه بهذا التفسير الأميركي الطويل المدى والفردي لمعنى الحرية. أظهر هوفشتادتر كم رُحّب بهذه الفكرة على مر السنين دون أي تشكيك أو معارضة، وذلك لترسيخ السردية السياسية السائدة حول هوية "نحن" و"قيمنا". بلا شك، كان هوفشتادتر سيشعر بالدهشة، تماما كما شعر الكثيرون، لو كان على قيد الحياة ليرى بيرني ساندرز Bernie Sanders، الديموقراطي الاشتراكي الذي أعلن نفسه مرشحاً جاداً لرئاسة البلاد، حتى إن لم يفز في النهاية بترشيح الحزب الديموقراطي للرئاسة في عامي ٢٠١٦ و٢٠٢٠.

هَدَفَ هوفشتادتر إلى استكشاف ما يجمع الناس ويمنعهم من مساءلة اعتقادات خاطئة معيّنة. أدرك أن هؤلاء الأفراد كانوا متأثرين بالأفكار والافتراضات "المسيطِرة" (لنستعِر هذا المصطلح من الكاتب الإيطالي المناهض للفاشية أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci). شكلت هذه الافتراضات كيفية رؤية الناس لحياتهم، والخيارات التي يعتقدون أنها لديهم، ورغباتهم في الحرية. لاحظ ميلوش أيضاً الاتجاه نفسه، إذ كان الكثير من الأميركيين يركزون على نحو أكبر على الحريات السلبية التي كانوا يستفيدون منها كأفراد أو مالكي أصول، مثل حرية التخلص من الضوابط الحكومية الزائدة والمزعجة والضرائب والمسؤوليات تجاه الآخرين وغيرها، بدل أن يطالبوا حكومتهم بجوانب إيجابية من الحرية مثل الحق في وظيفة جيدة والتعليم العالي، أو الرعاية الصحية الشاملة.

بعد بضع سنوات من تقديم مفهوم "التفكير الجماعي"، قام هربرت ماركوزه Herbert Marcuse باستكشاف فكرة مماثلة في تحليل سياسي أكثر توتراً خلال ستينيات القرن العشرين. حقّق ماركوزه شهرةً واسعةً كناقد للرأسمالية. تميزاً عن نهج وايت الذي كان يهدف إلى تحسين النظام القائم على تحقيق التوازن بين العرض والطلب على سلع وخدمات مختلفة من خلال التفاعل الطبيعي بين المشترين والبائعين، وإلى تقوية ثقافة الشركات المعاصرة من خلال إصلاحات تشجع التفكير الإبداعي داخلها، هدف ماركوزه إلى تحدي النظام الرأسمالي برمته. ما يجمع بين تحاليل كل من وايت وماركوزه هو التركيز على قوة التوافق الجماعي في المجتمع المعاصر. سعى ماركوزه لفهم التجارب النفسية والسياسية المشتركة في المجتمعات الصناعية المتقدمة. في كتابه

One-Dimensional Man [**الإنسان ذو البُعد الواحد**] الصادر عام ١٩٦٤، شرح كيف يمكن أن ينشأ توحيد الرأي الشامل عندما تكون قيم الأمة مقبولةً من الجمهور بلا شك، حتى لو لم تلبِّ سوى رغبات بشرية وهمية. كما لاحظ كيف يمكن للرأسمالية أن تقمع الجوانب الجنسية وتستغلها في الوقت نفسه باستخدام التحرر الجنسي لتحويل النظر عن الحرية السياسية وتحقيق أهداف محافظة، وهذا ما يشير إلى الاستخدام المحتمل للجوانب الجنسية كوسيلة للتلاعب بالمشاعر والانتباه العام، والتوجه بعيداً من القضايا السياسية الأساسية. رأى ماركوزه أيضاً أن الأعمال الثورية وأعمال المقاومة غالباً ما يتم ترويضها ودمجها في النظام. حتى الفن، الذي كان يمتلك إمكانات ثورية، يمكن أن يفقد تأثيره التحولي ضمن النظام الرأسمالي قبل أن يتم إنتاجه.

يومياً، قامت وسائل الإعلام والإعلان بتعزيز أفكار ضارة للجمهور وخلق احتياجات اصطناعية. رأى ماركوزه أن في مثل هذه المجتمعات، أصبح معظم الناس قادرين على الحصول على ما يكفي من الطعام والملابس والسكن. نتيجةً لذلك، أصبحوا ناخبين ومستهلكين سلبيين. بدوا كأنهم راضون عن نمط حياتهم الحالي، حتى لو لم يكن الأمر كذلك بالكامل.

اعتقد ماركوزه أن في المجتمعات الصناعية الغربية المتقدمة، أصبح العديد من الأشخاص، بغض النظر عن طبقتهم الاجتماعية، يركزون بإفراط على تحقيق النجاح الشخصي والمكانة. كانوا مشغولين بمنافسة الجيران على الأحوال المادية من خلال امتلاك الممتلكات المادية ومتابعة أحدث صيحات الموضة والدردشات المتنقلة، وتحقيق رغباتهم الشخصية وتقليل الاهتمام بقضايا مجتمعهم وحياتهم الأسرية، بدلاً من المشاركة في السياسة أو التفكير في القضايا الاجتماعية الأوسع نطاقاً. يمكن القول إنهم كانوا أسرى لتفكير جماعي يشجع على الثقافة الفردانية المتمحورة حول الذات. كان قلق ماركوزه يتعلق بكيفية أن هذه التحولات الثقافية نحو الأنانية والاستهلاك قمعت التفكير النقدي وضعّفت الإمكانيات لإجراء تغييرات جذرية في المجتمع، وهو وصف وضعاً يمكن أن يرى فيه معظم الأفراد الوضع الحالي كالخيار الوحيد الممكن. باختصار، قدم ماركوزه، كما ورد في الصفحة الأولى من كتابه، رؤيةً للمجتمع مميزةً بـ"عدم حرية مريحة ومعقولة وسلسة وديموقراطية" في إطار مجتمع صناعي متقدم،

حيث يظهر مفهوم الحرية كواقع وهمي يخفي وراءه قيوداً أعمق.[1]

تولى نقاد من خلفيات سياسية متنوعة أيضاً تحليلاً شائعاً للوحدة الحديثة، وضعف الروابط الأكثر تماسكاً، وتراجع المجتمعات، وما يُنظر إليه في كثير من الأحيان على أنه أزمة في حياة العائلة. أصبح الأشخاص يركزون بازدياد على العوامل الخارجية مثل المجال العام ووسائل الإعلام. كنموذج، دعونا نأخذ دراسة ديفيد ريزمان David Riesman المؤثرة لعام ١٩٥٠ بعنوان *The Lonely Crowd* [الحشد المتوحد]. حدد هذا الكتاب أيضاً انتشار نفسيات الجماعة في المجتمع الحديث، التي يغذيها ازدياد الحاجة إلى التطمين المتبادل والتسوية السريعة للنزاعات. كان ريزمان يعتقد أن المواطنين يصبحون أكثر قلقاً واعتماداً على الآخرين لضمان أن كل شيء يسير فعلاً على ما يرام. في كثير من الأحيان، يُشجَّع الناس على توقع هذا التطمين أو التطلع إليه، كما يتجلى ذلك في التحية الأميركية المعتادة والمبهجة "أتمنى لك يوماً سعيداً"، وهي عبارة عفوية يشيع استخدامها بغض النظر عن الظروف الفعلية. كان ريزمان مهتماً بصورة خاصة بنوع من الرضا السطحي، وهدفه كان فهم الفوائد والعيوب، والأفراح والأحزان التي يواجهها الأفراد أثناء تكيفهم مع المتطلبات غير المنطوقة لمجتمعهم. كما سعى للتعرف على السلوكيات الآلية التي نقوم بها تجاه الأمور التي نتكيف معها. بالإضافة إلى ذلك، في كتابه *The Lonely Crowd*، حدد ريزمان نوعاً شائعاً يُعرف بـ"الموجَّه نحو الآخرين". هذا النوع من الأشخاص كان حساساً للانتقادات، حتى أصغرها، وكان يتأثر أساساً بالضغوط الاجتماعية السطحية والالتزامات الفورية، بدلاً من القيم الأعمق والأصوات "الداخلية" التي تنبع من تجاربه في مرحلتَي الرضاعة والطفولة. على العموم، كان ريزمان يهتم بكيف أن الناس غالباً ما تفضل التأقلم مع الضغوط والموافقة الخارجية على حساب قيمهم الشخصية وتعبيرهم عن أنفسهم. أشار إلى أن العديد من الأشخاص أصبحوا مفتونين بصورة مفرطة بالعالم الاجتماعي السريع والسطحي الذي يحيط بهم، وقد أدى هذا الانشغال إلى فقدانهم الاتصال بمشاعرهم الشخصية وروابطهم العائلية، وأي شعور بالانتماء الحقيقي إلى مجتمع

1 Herbert Marcuse, *One-Dimensional Man: Studies in the Ideology of Advanced Industrial Society* [1964] (London, 2002), p. 3.

مرتبط ومؤثر. بسبب هذا الانفصال وفقدان روابط الطفولة، فقد العديد من الأفراد جذورهم الحقيقية وأصبحوا أكثر تركيزاً على الحفاظ على التناغم وتجنب الصراع. هذا التركيز الزائد قلص من فرصهم للتعبير الشخصي والهروب من الروتين اليومي. بالإضافة إلى ذلك، لم يكونوا قادرين على الوصول إلى الجوانب الأعمق في ذواتهم الداخلية، مثل معتقداتهم وقيمهم الحقيقية.

أثرت هذه التحاليل على بدء نقاشات حول مفهوم الهوية الشخصية، مستعرضةً أسئلةً حول ما معنى تطوير شخصيتنا وما هو جوهر طبيعتنا الإنسانية، وإلى أي حد تلعب التأثيرات الخارجية دوراً في تشكيل الفرد أو حتى تحديده في المقام الأول. في فرنسا خلال ستينيات القرن العشرين، كان الفيلسوف السياسي لوي ألتوسير Louis Althusser يعمل ضمن إطار نظري مميز يجمع بين أفكار من الماركسية وفلسفة لاكان، وقد أجرى تحاليل نافعةً ومؤثرةً خاصةً به، مطلقاً عليها "أجهزة الدولة الأيديولوجية". كان هدفه توضيح كيفية عمل هذه الأجهزة بعيداً من السلطة الوحشية الواضحة للدولة مثل الشرطة والجيش، وكيف تساهم بنشاط في تشكيل الأفراد ودعم أنماط اجتماعية معيّنة. تمتد هذه الأجهزة لتشمل المؤسسات مثل المدارس والجامعات. كان ألتوسير يرغب في توضيح كيف تلعب هذه الأجهزة دوراً حاسماً في تكويننا أو تشكيلنا كأفراد، أو بالأحرى في "استدعائنا إلى الوجود" كأشخاص، وكيف نصبح الأشخاص كما نحن عليه، وكيف يتم تشكيل هوياتنا ومواقعنا في المجتمع على نحو أساسي.[1] لا يمكنك تجنب هذه العملية بالكامل، تماماً كما لا يمكنك أن تمنع نفسك من التفاعل عندما يصرخ شخص ما فجأةً "مرحباً!"، إلا أن عملية التكامل غالباً ما تحدث دون أن ندرك ذلك. نظريون مثل ألتوسير وماركوزه، على الرغم من اختلاف نماذجهم وأساليب كتاباتهم، كان لديهم موضوع مشترك في أعمالهم. أكدوا أن هوياتنا، سواء كأفراد أو مواطنين في وطن معيّن، يجب ألا يُفترض بسهولة أنها ممتلكات تأتي لنا تلقائياً، أو أنها جزء من طبيعتنا. الكثير مما نعتبره طبيعياً في الواقع هو ما نتعلمه ونكتسبه. عند قراءة ألتوسير، ستبدأ في التساؤل حول كيف نشأت فكرة "أنا" في

1 Louis Althusser, *On the Reproduction of Capitalism: Ideology and Ideological State Apparatuses* [1970] (New York, 2014).

الأصل، وستشعر بعدم اليقين بشأن نفسك؛ كشخص يبدو أنه كان موجوداً دائماً حتى قبل أن يعترف بوجودك أحد، وأنه اعتُرف بوجودك عندما تم تشكيلك أو تحديد شخصيتك من خلال لغة معيّنة وإطار محدد ومجموعة من القواعد والأنماط.

أثر ماركوزه تأثيراً عميقاً على العديد من القراء، خاصةً تلك الجماعات التي تميزت بمعارضتها للتيار الثقافي السائد في الستينيات وما بعدها؛ حفزهم على السعي إلى تجربة حياة أكثر تنوعاً وثراءً، ودعاهم إلى إدراك كيف يتجذر التوافق والتفكير التقليدي بعمق في جوانب مختلفة من المجتمع. أكد أن المجتمعات المعاصرة، بما في ذلك الولايات المتحدة، تشجع الجمهور باستمرار على أن يتجانس أو يتشابه مع بعضه في ما يكره وما يحب. حتى في حياتنا المهنية، غالباً ما نقبل من دون أدنى اعتراض النظام القائم في مؤسسة العمل بدلاً من تفحصها بصورة انتقادية. لم يتحفظ ماركوزه عن انتقاد النقابات العمالية، إذ كان يعتقد أنها غالباً ما دافعت عن ممارسات فاسدة أو احتضنت برودة الوضع الراهن، بما في ذلك المجمّع الصناعي العسكري حيث وجد العديد من العمال وظائف. اعتبر ماركوزه أن الرأسمال والعمل، اللذَين يمثلان مصالح الشركات والعمال، يصبحان متواطئين مع بعضهما في التفكير الجماعي، فينتهي بهما الأمر بالالتزام بالقدر نفسه بدعم الشركات المربحة أو نظام الدفاع الوطني الضخم، دون أن يكونا قادرين على التفكير بصورة نقدية أو الاحتجاج على هذا الإطار المرجعي. على سبيل المثال، يمكن أن يتحالف زعيم نقابة العمال وصاحب شركة لطلب المزيد من العقود من الحكومة لإنتاج الصواريخ) حصة أكبر من ميزانية الدفاع)، دون التفكير بعمق في أسئلة أكثر أهميةً حول الوضع العام، وقد يكون ذلك خدمةً لمكانتهما في زيادة مجالات العمل في المنطقة التي تُنتج الصواريخ. هذه الظاهرة هي ما وصفه ماركوس بأنه "تفكير جماعي"، فيتصرف الناس بصورة جماعية دون أي مراجعة نقدية كافية.[1]

أكثر من فروم وأدورنو Adorno، أصبح ماركوزه شخصيةً فكريةً ذات تأثير كبير، خاصةً في الولايات المتحدة وأماكن أخرى. اعتبره العديد من الناس كاتباً يجب قراءته وشخصيةً سياسيةً بارزة. كان الثلاثة أعضاء في مجموعة من الفلاسفة والباحثين النقديين

1 Marcuse, *One-Dimensional Man*, p. 22.

الذين نشروا آراءً متجهة إلى اليسار. نشأ هذا التيار الفكري في ألمانيا وكان مرتبطاً أساساً بمعهد البحوث الاجتماعية في فرانكفورت، الذي تأسس في عام ١٩٢٣، وأصبح لاحقاً معروفاً باسم المدرسة الفرانكفورتية (Frankfurt School). من بين أهدافهم الرئيسية تحليل التغييرات الاجتماعية الجارية وفهم القوى القوية والعواطف التي تحكم السياسة المعاصرة. سعى أعضاء هذه المدرسة إلى تطوير وسائل جديدة للتحليل النقدي من خلال دمج عناصر من الماركسية وعلم النفس التحليلي وبحوث العلوم الاجتماعية، فأرادوا فهم أسباب انجذاب الكثير من الناس إلى الفاشية والنازية. سعى هؤلاء الباحثون جاهدين لفهم أسباب المعتقدات الجماعية السائدة، وهي نوع من اللاعقلانية أو العقلانية المشوَّهة. كان هدفهم استكشاف طبيعة الدوافع والعلاقات والتأثيرات المشتركة. تساءلوا عن المعتقدات والأوهام الجماعية اللاواعية داخل الحركات الاجتماعية، كما درسوا الأمور التي يمكن أن تسيطر على التفكير العقلاني أو ربما توجه التفكير العملي، مثل أفكار الكفاءة والنقاء، أو حتى العلم، وكيف يمكن استخدامها بأساليب تدميرية ومجنونة. نظراً إلى كونهم في الأصل يهوداً و/أو مثقفين متأثرين بالفكر اليساري، اضطروا لمغادرة ألمانيا في عهد النازية في الثلاثينيات من أجل حماية حياتهم، وصولاً إلى الولايات المتحدة، وبناءً على الظروف السياسية، حاولوا تجنب التصنيف السريع لهم كماركسيين أو ناشطين ثوريين، ومع ذلك، استمروا في أبحاثهم حول العوامل الاجتماعية والسياسية والنفسية التي تلعب دوراً في نشوء الفاشية في أوروبا. درسوا أيضاً الامتثال الاجتماعي وسمات "الشخصية المستبدة" التي قد تكون موجودةً حتى في ديموقراطيات ليبرالية متقدمة مثل الولايات المتحدة.[١]

كان ثيودور أدورنو مهتماً بشدة بما قاله سيغموند فرويد حول العوامل الخفية التي تجمع الأفراد في مجموعات من خلال المشاعر المشتركة أو الاتفاقات الصامتة. كتابات فرويد حول مفاهيم مثل كيفية تفاعل الناس مع بعضهم وكيفية نقل مشاعرهم إلى الآخرين، بالإضافة إلى فكرة الأنا العليا، كانت مهمةً بالنسبة إلى أدورنو وزملائه في مدرسة فرانكفورت. كان أدورنو وزملاؤه ينتبهون جداً إلى التطرفات السياسية،

---

1 Martin Jay, *The Dialectical Imagination: A History of the Frankfurt School and the Institute of Social Research, 1923–1950* (Berkeley, 1996).

خاصةً المعتقدات المرتبطة بالفاشية، ولكنهم أيضاً كانوا يراقبون آراء الجمهور غير المتحدية داخل التوجه الرئيسي والمألوف المعروف بـ"المركز" الذي يشير إلى القيم والمعتقدات والممارسات التي يعتبرها الأشخاص عادةً كجزء من الثقافة السائدة أو الوضع الاجتماعي الشائع. كانوا يبحثون عن المعتقدات العميقة التي تؤثر في أفكار الناس واختياراتهم، ويعتقدون أن الثقافة نفسها تشبه صناعة كبيرة تشكل المجتمع، وغالباً ما تدفع الناس للتوافق مع أفكار معيّنة. يمكن ملاحظة هذه الظاهرة بوضوح في هوليوود ونظام الاستوديو الخاص بها.

كان أدورنو عقلاً بارزاً شغل دوراً مركزياً في إعداد ومشاركة تأليف دراسة مهمة تُعرف باسم *The Authoritarian Personality* [الشخصية الاستبدادية]. هذا الكتاب، الذي نُشر للمرة الأولى في عام ١٩٥٠، اعتمد على أبحاث في علوم الاجتماع ركزت على المعتقدات والآراء التي يحملها المواطنون الأميركيون. الهدف من هذا البحث كان التوجه إلى ما هو أبعد من التصريحات السياسية الصريحة للأفراد واستكشاف الافتراضات الكامنة لديهم وكيفية رؤيتهم لأنفسهم ولمجموعاتهم وللمجتمع بصورة عامة. درس أدورنو أيضاً كيف يمكن للأفراد التفاعل مع قائد سياسي يجمع بين مجموعة متناقضة من الصفات. على سبيل المثال، الديكتاتور الذي يُنظر إليه كرمز لقمّة السلطة بالنسبة إلى بعض الأشخاص، يعد وعداً بتفكيك هيكل السلطة القائم، وبتحدي التسلسل الهرمي للسلطة من خلال القضاء على التفرقة بين القوي والضعيف؛ في الجوهر، يمكن أن يُنظر إليه على أنه منفذ صارم للقانون وثائر يتحدى القانون. حسب اكتشاف أدورنو، يبدو أن الشخصيات الاستبدادية غالباً ما تسعى إلى نوع من الفرادة النفسية، حتى إن كان القائد الذي يثمنونه هو في الواقع خيال مركب. كانوا يشعرون بالرهبة من الغموض والتعقيدات، ويتوقون إلى قوانين صارمة، ويشتاقون إلى عقوبات شديدة للآخرين، ويشعرون بالجوع لسلطة تأمرهم بما يجب فعله[1]. حاول أدورنو وزملاؤه الكشف عن المعتقدات والاتجاهات الجماعية الخفية التي تؤثر في كيفية تفكير الأشخاص، وأظهروا أن

---

1 Theodor W. Adorno, 'Freudian Theory and the Pattern of Fascist Propaganda' [1951], reprinted in J. M. Bernstein (ed.), *The Culture Industry: Selected Essays on Mass Culture* (London, 1991), pp. 132–57; cf. Adorno, *The Authoritarian Personality* (New York, 1950).

مشاعرنا الحقيقية غالباً ما تكون مخفيةً في عقل اللاوعي لدينا، وأن هذه المعتقدات والاتجاهات المخفية تشكل وجهات نظرنا السياسية. قد يجد الأشخاص الذين يفتقرون للفكاهة، ويكرهون عدم اليقين، أو يلومون مجموعةً معيّنة من الأشخاص على جميع مشاكلهم، قائداً وحزباً سياسياً يدعمان رغباتهم القاسية وحاجتهم إلى "القانون والنظام" الصارمين.

قام أدورنو وصديقه المقرَّب ماكس هوركهايمر Max Horkheimer بدراسة جوانب عدة من الاضطرابات السياسية واتجاهات النفس الجماعية. كانا مهتمَّين بالأفلام وقد انتقدا الجاذبية الشديدة التي يثيرها الأفراد تجاه السينما والشهرة في الولايات المتحدة. لاحظا كيف يمكن للجماهير أن تصبح مهووسةً بنجوم السينما وكيف يستسلم الكثيرون للشائعات في المجلات. برأيهما، هذه الاتجاهات التي تتمثل في الانغماس في عالم المشاهير، تُعتبر علامات على الانقطاع أو الانعزال الحديث عن العلاقات والنشاطات الاجتماعية، وتُستخدم في النهاية وسيلةً للاستغلال السياسي. كان لديهما قلق بشأن الاعتقاد الشائع بأن زيادة التسامح الاجتماعي في المجتمعات الليبرالية ستؤدي تلقائياً إلى زيادة الحرية السياسية والتفكير النقدي والثقافي. لكنهما اعتبرا هذا الاعتقاد خاطئاً، وأشارا إلى أن هذه الاتجاهات قد تجعل الأفراد أكثر عرضةً لظهور أشكال بديلة للسلطة أو القيادة، والتي لا تخدم جيداً مصالح الأفراد والمجتمع.

في الثلاثينيات من القرن الماضي، كتب ثيودور أدورنو بقوة وبصورة مثيرة للجدل حول الموسيقى التي كانت شعبيةً في تلك الحقبة. كان يعتقد أن العديد من وسائل الترفيه الحديثة، حتى عندما تعتمد على مواضيع كلاسيكية أو تكون مرتبطةً بالموسيقى الكلاسيكية، فقدت جودتها وأصبحت أقل تطوراً وتألقاً. كان الناس يشاهدون حفلات موسيقية حيث يؤدي فيها موسيقيون ماهرون أو موجِّهون مشهورون مقطوعات موسيقية كلاسيكية. ومع ذلك، كانت لدى أدورنو وجهة نظر نقدية تجاه هذا الأمر؛ كان يعتقد أنهم ربما لم يكونوا هناك فقط من أجل الاستمتاع بالموسيقى نفسها، وإنما أيضاً لأنهم يشعرون بالفخر لكونهم جزءاً من جمهور معيّن؛ ببساطة، كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً من هذا الجمهور الخاص ويشعرون بأنهم محظوظون لاستهلاك الثقافة. عبّر أدورنو عن هذه الفكرة بصورة نقدية، قائلاً:

> المستهلك حقاً يعبد المال الذي دفعه بنفسه لشراء تذكرة حفل توسكانيني. إنه بالحقيقة "صَنَع" النجاح الذي يميزه ويقبله كمعيار موضوعي فقط من خلال شرائه التذكرة، دون أن يدرك أن قيمة النجاح لا تكمن فقط في الحضور، بل في الاستمتاع بالحفل نفسه.[١]

أولئك الذين لم يوافقوا على تقييماتهم، مثل تقييمات أدورنو، انتقدوهم بسبب تعاليهم وموقفهم المتزمت تجاه ما يمكن أن تقدمه الثقافة الشعبية، وقد اتهموا هؤلاء المثقفين، الذين يقدرون الثقافة الرفيعة، بأنهم كانوا يتجاهلون الصراعات الثقافية أو الاجتماعية والتعقيدات والعمق العاطفي القائم في الترفيه الشعبي.

أصرّ ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر على أن الثقافة الشعبية يمكن أن تنتج تأثيرات تخديرية سلبية على الأفراد، مما يجعل الأفراد غير قادرين على التفكير بوعي. في فصل مشهور ومثير للجدل (الفصل الرابع) من كتابهما *Dialectic of the Enlightenment* [**جدل التنوير**] الصادر عام ١٩٤٧، انتقدا نظاماً يقدم ترفيهاً منخفض الجودة ويشجع على الاستهلاك المبالغ فيه. كانا يشعران بالقلق تجاه استمتاع الناس بالسينما الشعبية، إذ أبديا استياءً من أداء ممثلين مثل ميكي روني Mickey Rooney أو شعبية الرسوم المتحركة مثل بطّوط. اعتبرا أن النظام الثقافي الأميركي يعزز الانطواء والانصياع التام عن طريق تقديم ترفيه ذات مضمون تافه للجمهور. لاحظا الانصياعية في الأعمال الفنية ووسائل الترفيه الشعبية، فشعرا أن كلاًّ من المستهلكين والمنتجين يكتفي بإعادة إنتاج الأمور نفسها مراراً وتكراراً. كانا يعتقدان أنّ الجماهير، بطريقة ما، كانت مخدوعةً بفكرة النجاح، وأنها تتمسك بعناد بالأيديولوجيا التي تحتجزها، وشددا على أن تصاعد تأثر الناس العاديين بالأذى الذي يتعرضون له يتجاوز حتى ذكاء السلطات.

تعلّم الكبار من وسائل الإعلام، بينما تعلّم الأطفال في المدارس بالطبع، لذا سعى المثقفون الراديكاليون، الذين يشكلون مجموعةً متنوعةً من الأفراد الذين يتبنون مواقفَ

---

١ يمكن مراجعة التالي:

Adorno, 'On the Fetish-Character in Music and the Regression of Listening' (1938),

كما نقله Robert Winston Wilkin في كتابه:

Adorno on Popular Culture (London, 2003), p. 57.

وآراءً مختلفةً بشأن السياسة والاقتصاد والمجتمع، إلى تجربة نظام التعليم أيضاً، وتطوير نظريات حول وظائف تفكير المجموعة فيه، وسعوا إلى إيجاد نهج مختلف بدلاً من هذا النظام. أدى النقد لنظام التعليم التقليدي إلى تأسيس العديد من المدارس البديلة والتجريبية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين. كانت هذه البدائل تعمل على مقاومة النموذج التقليدي وتعزيز المبادئ المناهضة للسلطة. مثال على ذلك هو المدرسة التجريبية التقدمية المشتركة التي تأسست في عام ١٩٢٦ في قاعة دارتينجتون في ريف ديفون. في الستينيات، ظهر نقاد جدد وتجارب جديدة، وذلك بفضل إصرار المصلِحين الذين كانوا على علم بقدرة المدارس على "غسل دماغ" الطلاب وتأهيلهم. حققت هذه الانتقادات نجاحاً جديداً في إطار حركات الاحتجاج الواسعة في الستينيات.

في أواخر السبعينيات، ظهر فكر نقدي مثير للاهتمام تمثل في شخصية إيڤان إيليتش Ivan Illich. انتشرت آراؤه انتشاراً واسعاً في الولايات المتحدة في تلك الحقبة. كان ينتقد بحدة أنماط التوافق والانصياع في النظام التعليمي منذ المراحل الأولى. أصرّ إيليتش على ضرورة تطبيق نهج جديد بالكامل لاستعادة الإبداع وتعزيز التفكير النقدي واحترام التنوع ودعم الحرية الفردية في المجتمع الأميركي. اقترح إيليتش مشروعاً جريئاً لـ"إلغاء المدارس" في المجتمع، وبالأحرى تحرير الأطفال والكبار من الفكرة الخاطئة بأن معظم عملية التعلم تحدث في المدارس وأن التعليم يتطلب الكثير من التحفيز والتصنيف والتلاعب. اعترض إيليتش بشدة على الأساليب التي تستخدمها روض الأطفال والمدارس والكليات لإرساء سلسلة من الطقوس الموحدة. رأى أنّ نظام الجامعات في الولايات المتحدة الأميركية هو النقطة الأدنى أو الأسوأ في هذا النظام الذي يقوم بتهيئة الطلاب للتفكير بطريقة معيّنة، بدلاً من دعم التعليم المفتوح. كان يعتقد أنه نظام مملّ وطويل ومكلف، وفي النهاية يشجع الطلاب على الاندماج في أسطورة وطنية.

كتب إيليتش عن الفوائد الكبيرة التي قد تنتج للأطفال والبالغين على حد سواء من خلال استبدال التعليم الرسمي بأشكال جديدة تشجع على العيش المسؤول والتعلم غير الرسمي على مدى الحياة. كان معروفاً بانتقاده للتحديث وهجومه على التأثير الفاسد الذي تمارسه المؤسسات الكبيرة على الإبداع، وبصورة خاصة، قاد إيليتش حملةً مؤثرةً للترويج لأنواع جديدة من "شبكات التعلم"، التي تشجع على العمل

الجماعي والتعلم الأبدي من خلال طرق تُلهم الإبداع والتفكير النقدي. في الوقت نفسه، انتقد بشدة العبء الذي يمثله الأفراد الذين يُعتبرون محترفين وخبراء. قال إننا بحاجة إلى مربّين ومؤسسات مختلفة تماماً في المستقبل، بل جادل بأننا بحاجة ماسة إلى مزيد من الأساليب التي تكون عفويةً ولا تخضع لقوانين صارمة، ممّا يحفز الأطفال والطلاب وجميع الناس على التفكير الإبداعي ويقلل من المنافسة المقيدة لدى الطلاب ويشجع المناهج التي تهتم فيهم وترعاهم. شدد على أهمية العودة إلى المبادئ الأساسية للتفكير في كيفية التفكير واستحداث أساليب جديدة للتعلم، كما شجع على زيادة الفضول حيال مفهوم الفضول نفسه وحيال تحقيق الأهداف واستكشاف الأمور والتفكير النقدي والاستراحة بعد ذلك. حملت رؤيته الطابع اليوتوبي، الذي قد يصعب تحقيقه في الواقع وهي تشبه الأفكار التي قدمها كارل ماركس قبل مئة عام. إذ تخيل ماركس مجتمعاً يمكن للأفراد فيه، بعد الثورة، أن يتجاوزوا التخصص الضيق في وظيفة واحدة؛ يمكن للأشخاص أن يصطادوا برّاً في الصباح ويصطادوا أسماكاً في فترة ما بعد الظهر، ويعتنوا بالماشية في المساء، ويشاركوا في مناقشات نقدية بعد تناول العشاء دون أن يقتصروا على دور واحد فقط. مع ذلك، كما الحال مع المفكرين المتنوعين الآخرين الذين ناقشتهم في هذا السياق بخصوص التفكير الجماعي، قدم إيليتش أيضاً رؤىً ذات قيمة. في الواقع، تناولت الكثير من أعماله، التي ظهرت في العقود التي تلت مرحلة الحرب، قضايا التكيف الاجتماعي وقمع الإبداع البشري وعمليات التعلم وما زالت تستحق قراءتنا حتى اليوم.

بالتأكيد، كان لدى إيليتش رؤية متفائلة إلى حد ما للمستقبل حيث يكون هناك أقل توتر وصراع. أراد تقليل أهمية الهواجس المعاصرة المرتبطة بالشهادات والدرجات العليا والتفرقة الاجتماعية والتسلسل الهرمي. هذه الأمور تجعل الناس يفهمون بطريقة خاطئة ما هو مهم حقاً كما كان يعتقد. في كتابه المؤثر *Deschooling Society* [**مجتمع بلا مدارس**] الصادر في أوائل السبعينيات، قال إنه يجب أن نتوقف عن التركيز كثيراً على العلامات والدرجات. كتب أشياء عدّة عمّا هو خطأ ليس فقط في التعليم ولكن أيضاً في الطب الحديث والرعاية الصحية وإنفاذ القانون والدعم الاجتماعي. في عام ١٩٧٧، دمج إيليتش أفكاره حول إلغاء المدارس مع رفضه للتنظيم الوظيفي للأفراد داخل

المؤسسات والشركات. وصف هذا التنظيم بمصطلح "المهن التعطيلية" (Disabling Professions) الذي، حسب رأيه، يُعتبر النسخة الأحدث للنمط الذي يعتمد على تنظيم حياة الفرد والسيطرة عليه، والذي زاد انتشاراً. وجه إيليتش أفكاره النقدية نحو كيفية تنظيم حياة العمل للأفراد، وكيف أن هذا التنظيم يعيق قدرتهم على التفكير النقدي البناء. كان يتحدث عن عالم الموظفين الذين يداومون في مكاتب الشركات أو المؤسسات من التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساءً، الذين قد لا يتلقون أبداً تشجيعاً حقيقياً لطرح الأسئلة المهمة أو للتفكير بصورة مختلفة عن زملائهم. حذّر وايت من نوع معيّن من الامتثال الذي لا يعتمد على تفكير مستقل، بل يعتمد بصورة عامة على اتباع الآخرين بلا تأمل أو استيعاب. أكد أن هذا الأسلوب من الامتثال هو "عيب دائم" في البشرية، يتجلى عالمياً. بدلاً من ذلك، أشار إلى أهمية الامتثال المنطقي، الذي يعتمد على الفهم العميق والتفكير المنطقي، وركّز مع إيليتش على ضرورة إيجاد فرص جديدة لتمكين الأفراد من التفكير بحرية وأساليب مختلفة في جميع السياقات.

***

في هذا الفصل، استكشفنا كيف نشأت النقاشات حول سلوك الأفراد في المجموعات وإمكانية أن يكون الأفراد أقل امتثالاً للمجموعات أو أكثر مقاومةً لها. ظهرت مجموعة متنوعة من القصص والتجارب والتحاليل التي تتناول قضايا غسيل أدمغة الناس والامتثال لفكر المجموعة ومعارضة ذلك أيضاً. تغطي هذه النقاشات مواضيع متنوعة بدءاً من السيطرة الجماعية عبر غسيل أدمغة الناس، وصولاً إلى دعوات لإصلاح نظام التعليم، مثل إلغاء المدارس. درسنا أيضاً كيف اندمجت ظاهرة الفكر الجماعي في عالم الأعمال مع البحث في مسائل الفردية والتكوين الاجتماعي في مرحلة الرضاعة، ومع توجيهات حول التعامل مع تحديات سن المراهقة، بالإضافة إلى شروحات متعاطفة للمخاطر المرتبطة بضغوط الأقران. كما لاحظنا أن مصطلح "الفكر الجماعي" هو مفهوم قوي ومرن يستخدمه الأشخاص في تفكيرهم. إنه شعار يحتفظ بقوته واستدامته وقد تم تطبيقه في مختلف أنواع النقاشات السياسية. في عام

١٩٧١، قدمت مجلة *Psychology Today* شرحاً للمصطلح ووصفته بأنه "البحث عن الامتثال"، وهو حالة تكون سائدةً في المجموعات المتماسكة، مما يجعلها تميل نحو مسار معيّن دون تفكير ودون النظر واقعياً في خيارات بديلة.

لم تتوصل المناقشات حول الفكر الجماعي إلى حل نهائي، فقدم المعلقون أمثلةً على المجموعات التي تحتقر عقل الأفراد وتقلل من ذكائهم وعلى مجموعات أخرى يمكن أن تتحول إلى تحالفات عمل فاعلة أو حتى مجموعات مغامرة ومتمردة تتحدى السلطة والتسلسل الهرمي. في الخمسينيات، استخدمت الروايات والأفلام الشهيرة في كثير من الأحيان مشاهد مكثفة، مثل *Lord of the Flies* [**سيد الذباب**] على جزيرة مهجورة، وفيلم "The Caine Mutiny" [تمرد كين] في بحر بعيد، و*12 Angry Men* [**اثنا عشرَ رجلاً غاضباً**] في غرفة محاكمة معزولة حيث يُقرَّر مصير رجل... وذلك بهدف طرح أسئلة حول تشكيل الجماعات أمام قراء وجماهير واسعة. كانت هذه وسائل لتسليط الضوء على قدرة الأفراد المتجمعين بأن يصبحوا مجموعات مستسلمةً ومطيعةً ويائسةً وقاسيةً عن غير عمد، أو حتى مجرمة، مع وجود بسيط، أو حتى غياب تام، للتفكير الفردي؛ استمرت هذه الحال في المجموعة حتى ظهور متمرد يتحدى المعتقدات التقليدية التي تتماسك بسرعة وتتصلب داخل المجتمع أو المجموعة. في الواقع، نحن بحاجة إلى المجموعات، ربما مجموعات ضمن المجموعات، من أجل دعم فكرة التغيير الاجتماعي ومساعدتنا على فهم هويتنا. لكن للأسف، أصبح واضحاً أن هناك مجموعات سريةً مناوئةً تعمل في بعض الأحيان كجزء من المقاومة ضد التغيير، مثل الأصوات الداخلية، والقضاة الصارمين، أو المجتمعات التي تراقب أفكارنا من الداخل.

يبدو أن النقاد الذين نوقِشت دراستهم النقدية يتفقون على أن الفكر الجماعي يبلغ ذروته ويصبح مشكلةً كبيرةً عندما يبدأ الجميع في الاعتقاد بأفكار أو افتراضات أساسية لا يتم التساؤل حولها أو اختبارها، وأن ليس هناك إمكانية لحل المشكلات إلا بوسيلة معيّنة متّفَق عليها بصورة جماعية. يمكن أن يؤثر هذا سلباً في عملية اتخاذ القرار من قِبل الأشخاص العاملين في داوننغ ستريت في المملكة المتحدة أو البيت الأبيض في الولايات المتحدة.[١] في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٢١، نُشر تقرير شامل حول كيفية

١ اقتربت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي من الحرب النووية في عام ١٩٦٢، بعدما بدا

إدارة الحكومة البريطانية لجائحة كوفيد-١٩. استخدم هذا التقرير مصطلح "الفكر الجماعي" لشرح سبب اتخاذ الحكومة سلسلة من السياسات السيئة التي أدت إلى ارتفاع عدد الوفيات بسبب كوفيد-١٩ في المملكة المتحدة مقارنةً بالاقتصادات الصناعية المتقدمة المماثلة الأخرى. كانت لجنة برلمانية متعددة الأحزاب مسؤولةً عن التحقيق في ما حدث، وقد أشارت بصراحة إلى "الفكر الجماعي" كواحد من الأسباب الرئيسية لجميع الأخطاء التي وقعت في عهد بوريس جونسون Boris Johnson.[١]

استُخدم مصطلح "الفكر الجماعي" تكراراً لدى دراسة الأوضاع السياسية المحفوفة بالمخاطر خلال الحرب الباردة. في هذه الأوضاع، على الرغم من أن كان من المفترض على النواب المنتخَبين والمسؤولين ذوي المراتب العالية أن يفكّروا باستقلالية، إلا أنهم غالباً ما لم يكونوا قادرين على ذلك. بدلاً من ذلك، كانوا يكررون الاعتقادات الشائعة، ويتبعون القواعد القديمة، ويصدحون بما يريده الفريق القوي، أو يعتمدون على أفكار نمطية حيال الأعداء الذين يرونهم كمنافسين، مثل الروس أو الصينيين. في السبعينيات من القرن العشرين، أثناء استعراض الأحداث التي جرت خلال أزمة الصواريخ الكوبية في عام ١٩٦٢، استُخدم مفهوم "الفكر الجماعي" على نحو كبير. تركزت النقاشات على فهم كيفية تعاطي الرئيس جون كينيدي وشقيقه، الذي كان وزير العدالة حينها، مع الضغوط المتضاربة وآراء بعض القادة العسكريين الذين كانوا في غرفة القرارات خلال تلك اللحظة الهامة. في وقت لاحق عندما أُشيد بموقف الرئيس جون كينيدي، قال بعض الناس إن الفكر الجماعي كان يمكن أن يسيطر بسهولة، مما قد يؤدي إلى حرب كارثية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، لو كان كينيدي أسيراً لهذا الفكر. بالمقابل، اعتقد آخرون أن كلّاً من جون كينيدي وليندون جونسون أسير الفكر الجماعي؛ كانا ملتزمين بأفكار التيار

الروس مصرّين على نقل ومن ثم الاحتفاظ بالصواريخ الباليستية في كوبا. هذه اللحظة، المعروفة بـ"أزمة الصواريخ الكوبية"، أصبحت حالة اختبار لاستكشاف مفهوم "التفكير الجماعي"، واستُخدمت لتسليط الضوء على سهولة تأكيد الناس فكرة "ضرورة" الحرب.

1 'House of Commons: Health and Social Care, and Science and Technology Committees – Coronavirus: Lessons Learned to Date, Sixth Report of the Health and Social Care Committee and Third Report of the Science and Technology Committee of Session 2021–22', committees.parliament.uk/publications/7497/documents/78688/default/.

الوسط والليبرالية التقليدية، في حين كانت تلك المرحلة تتطلب إجراءات أكثر جرأة وراديكالية، مثل وقف التصاعد في الصراع في فيتنام أو اتخاذ خطوات قوية لمواجهة نظام العنصرية العنيد الذي كان يعمل في الولايات المتحدة.

الانسجام بين صناع القرار في الحكومة، كما شرحه عالم الاجتماع إيرفينغ جانيس Irving Janis في كتابه البارز لعام ١٩٧٢ *Victims of Groupthink: A Psychological Study of Foreign–Policy Decisions and Fiascos* [ضحايا التفكير الجماعي: دراسة نفسية لقرارات السياسة الخارجية والكوارث]، يمكن أن يكون سيئاً لكيفية عمل الحكومة وربما يضع نجاة المجتمع على المحك. أظهر جانيس أن التفكير الجماعي يجعل صنع القرارات خاطئاً ويشوه كيفية تعاون الناس معاً، مما يؤدي إلى اتخاذ قرارات سيئة للغاية أو حتى كارثية، خاصةً في القضايا الدولية وفي حالات الأزمات. في العالم الحقيقي، هناك العديد من المواقف حيث لا يمكن الاعتماد فقط على الصور النمطية.[1] في السياسة، التي تتعامل مع ما هو ممكن، من المهم أن يكون لدى الأشخاص في هذا الميدان ليونة العقل والقدرة على التفكير بسرعة.

كان هناك بعض الأشخاص يحذرون مما قد يحدث في المستقبل للولايات المتحدة والبلدان الغربية، إذ قالوا إن الأمور ستكون سيئة. في الوقت نفسه، كان هناك العديد من الأشخاص الآخرين الذين هم أكثر إيجابيةً حيال تلك المرحلة، إذ كانوا يتحدثون عن كيفية تعزيز قوة البلدان وصحتها وثرائها. في أواخر الخمسينيات، كان الناس في البلدان الغربية مثل المملكة المتحدة يشعرون بأنهم في أوقات جيدة جداً، حتى رئيس الوزراء المحافظ هارولد ماكميلان Harold MacMillan قال إنهم لم يعيشوا سابقاً أوقاتاً بهذا الحجم من الخير، وكان الناس حينذاك يرحبون بفكرة "مدن الشركات" بحيث تكون هذه المدن تحت إدارة وسيطرة الشركات من الناحية الاقتصادية والعمالية، وذلك لأنها كانت توفر للعمال الأمان في الوظائف وأكثر من مجرد راتب. في الماضي، طورت بعض الشركات الكبيرة على مر عقود عديدة، ربما قرن كامل، طريقةً خاصةً للعناية بموظفيها

---

1 Irving Janis, Groupthink (Boston, MA, 1982). Cf. Patrick Dunleavy, 'How "groupthink" in Theresa May's Downing Street delivered another round of UK political chaos', *London School of Economics*, blog, 9 June 2017, blogs.lse.ac.uk/europpblog/2017/09/06/how-groupthink-in-theresa-mays-downing-street-delivered-another-round-of-uk-political-chaos/.

تتخطى مجرد العلاقة بين جهة العمل والموظف. أنشأت هذه الشركات مجتمعات كاملةً لموظفيها للعيش فيها، وكان ذلك أمراً لافتاً، أثار الكثير من الاهتمام. كانت لهذه الشركات فلسفة معيّنة للتحكم في أفكار موظفيها، وكان هدفها الرئيسي التأكد من عدم تورط الموظفين في ثورات أو تغييرات اجتماعية كبيرة. تَرِد هذه الفكرة في كتاب فرانك ترينتمان Frank Trentmann بعنوان *Empire of Things* [إمبراطورية الأشياء]، الذي يعتني بدراسة تاريخية توضح تطور الاستهلاك وتأثيره على الاقتصاد والمجتمع عبر العصور. في القرن العشرين، قدمت العديد من الشركات الكبيرة في أميركا وأوروبا مزيداً من الامتيازات لموظفيها؛ قدمت إسكاناً ورعايةً صحيةً وعيادات طبيةً ومرافق رياضيةً وتعليماً. كان هذا الدعم وسيلةً لضمان بقاء موظفيهم وولائهم والحفاظ على انضباطهم. كان بمثابة مكافأة للموظفين المخلصين.[1]

هل كانت هذه الشركات تشجّع على التفكير الجماعي؟ ربما. لكن وجد العديد من الأشخاص الكثير مما يعجبهم ويقدرونه في عمل هذه الشركات والعناية التي تقدمها لموظفيها. فقد ضمنت الرعاية الأساسية للفرد وأسرته، ولم تعتبر موظفيها مجرّد أجسام أو عقول. يمكن أن يكون هذا مثالاً على كيفية استفادة العمال المفضّلين من كونهم جزءاً من جماعة أو شركة. وقد شجع أصحاب الأعمال في بعض الأماكن على تعزيز العلاقات المتناغمة بين الشركة وعمالها وتوسيع الرعاية المقدمة للعمال. هل كانت هذه الصفقات وسيلةً لـ"شراء" القوى العاملة واحتواء الاحتجاجات الصناعية، أم كانت مكسباً رائعاً ونمطاً من الرأسمال الاجتماعي، بحيث استفاد العمال من سلطته للحصول على مزيد من المكاسب وتحسين ظروف العمل؟ منذ ذلك الحين، نظر المؤرخون في كيفية توافق نوع من الأبوية والقيم التقليدية مع أنواع جديدة من الاتفاقيات التجارية وتقديم الرعاية. إن فكرة مدن الشركات وتقديم الرعاية للعاملين في الصناعة لها تاريخ طويل؛ كان ذلك واضحاً في مجموعة من التجارب في القرى والبلدات والتعاونيات النموذجية خلال القرن التاسع عشر، وفي المؤسسات الصناعية الكبيرة بحلول بداية القرن العشرين في أوروبا.[2] شركات مثل Cadbury و Siemens

1 Frank Trentmann, *Empire of Things: How We Became a World of Consumers, from the Fifteenth Century to the Twenty-First* (London, 2016), p. 523.

2 Ibid.

كانت أمثلة على نوع من الرأسمال الذي يهتم بموظفيه.[١]

في عام ١٩٤٠، تحدث باحث أميركي عن شركة في ولاية إنديانا قدمت لموظفيها العديد من الفرص للعمل معاً كفريق، والمشاركة في الأنشطة الاجتماعية، والاستمتاع بأوقات ترفيهية سوياً. أعلن مديرو الشركة بصراحة أن هذا الأمر كان وسيلةً لضمان عدم توفر الوقت أو الطاقة لدى العمال ليكونوا مثيرين للمشاكل.[٢] انتقد بعض الناس على اليسار السياسي هذه الفكرة في هذا العالم الجديد من الشركات، إذ حتى الليبراليون، مثل وايت، لاحظوا أن هناك تكلفةً لهذا النظام، بحيث يحصل الأشخاص على وظائف مدى الحياة، ويعتمد المجتمع بأكمله على الشركات الكبيرة والمستقرة بدلاً من دعم الشركات الصغيرة لمساعدتها على النمو.

في منتصف القرن العشرين، وهي المرحلة التي تولّى فيها وايت دراسة أمثلة لظاهرة الفكر الجماعي، كان العمل كموظف في بلدة الشركة في الولايات المتحدة، يأتي بفوائد عدة. يمكن أن تتضمن هذه الفوائد الوصول إلى مرافق طبية، وتوفير التعليم للأطفال، ورحلات مثيرة، وأنشطة في نهاية الأسبوع، ومكافآت، ونزهات بالهواء الطلق وغيرها. بعد الحرب العالمية الثانية، قامت الولايات المتحدة بتوجيه صناعة اليابان نحو تعزيز ثقافة العمل الجماعي والحياة الشخصية، وأصبح ذلك واضحاً في بلدات الشركات، حيث غالباً ما تم تغيير أسماء بعض هذه البلدات، كما حدث بالنسبة إلى "مدينة تويوتا" (Toyota City) في عام ١٩٥٩. اعتقد بعض علماء الإنسان والباحثون أن الشعب الياباني يميل طبيعياً نحو التعاون وظاهرة الفكر الجماعي.[٣]

---

1 Ibid.

2 Ibid., p. 527.

٣ قام العديد من علماء الاجتماع الغربيين المؤثرين بتوجيه الافتراضات حول ميول العمال اليابانيين الطبيعية نحو "التفكير الجماعي"، وقدرتهم المفترضة القديمة على التضحية بكل شيء من أجل الهدف الجماعي. يمكن العثور على مثل هذه الافتراضات في مقال:

Elson Boles, 'Ruth Benedict's Japan: The Benedictions of Imperialism', *Dialectical Anthropology*, 30:1/2 (2006), 27–70.

وكتاب:

Peter Mandler, *Return from the Natives: How Margaret Mead Won the Second World War and Lost the Cold War* (New Haven, 2013).

ومن بين النماذج المثيرة للاهتمام هي مقارنة بين مديري الأعمال الأميركيين واليابانيين: يميل

بعد عام ١٩٤٥، أصبح هناك اهتمام متزايد من الجانب السياسي اليميني في الولايات المتحدة وأوروبا بتوفير الرعاية الاجتماعية بشكل زائد. يمكن أن تكون هذه الرعاية من الحكومة للجميع أو من الشركات لموظفيها. اعتبر النقاد أن هذه "الدولة الاجتماعية"، كما في بريطانيا على سبيل المثال، تجعل الناس أقل تحفيزاً وأقل إبداعاً لأنها توفر الكثير من الأمان؛ النقد نفسه ينطبق على الشركات الأبوية التقليدية. اعتقد البعض أن هذه التطورات قد تؤدي إلى تباطؤ خطِر، مما لا يفيد في التقدم والنمو المستقبلي؛ اعتبر النقاد أن هذا النظام يشجع على تجنب الصراع ويؤدي في كثير من الأحيان إلى الفكر الجماعي، إذ يوافق الناس دون تساؤل على كافة الأمور. توفير الكثير من الرعاية والبيروقراطية المعقدة المصاحبة لها من أجل الحصول عليها يمكن أن يكون ضاراً؛ يمكن أن يجعل معتقدات الأشخاص صلبة، ويقيد تفكيرهم، ويكبح روحهم الابتكارية. ببساطة، يمكن أن يعزل هذا المجتمع عن المنافسة الصحية. الحنين أيضاً يمكن أن يرتبط بالفكر الجماعي. ففي بريطانيا، على سبيل المثال، بدأ بعض المؤرخين والمعلقين السياسيين يقدمون تقييمات نقدية للوضع الوطني مع مرور القرن، فأشاروا إلى أن هناك نوعاً من الوهم الجماعي أو التفكير الجماعي الذي ساد لعقود، بحيث لم تكن الحكومات أو الناخبون يدركون، أو ربما لا يرغبون في معرفة، مدى الأضرار التي لحقت بالاقتصاد والمجتمع نتيجة التورط في ما أصبح يُعرف بسياسات "التوافق ما بعد الحرب"، وبنظام مالي لم يعد في النهاية قابلاً للاستمرار. كان الناس يعيشون أوقاتاً جيدةً للغاية، وكانوا قد أصبحوا كسالى وراضين بشدة على وضعهم، وبالتالي لم يكن لديهم الحافز الكافي للعمل بجد أو البحث عن حلول للمشاكل. عندما قام الناس بمراجعة الأوقات التي عاشوا فيها الحروب وأيضاً الفترات السلمية، وجدوا أن هناك الكثير من التفكير غير الواضح

مديرو الأعمال الأميركيون في العادة إلى اختيار الأنشطة التي تتطلب الفضول الفكري والجرأة، بينما يعكس نظراؤهم اليابانيون تأثرهم بالثقافة التي تحترم الممارسات التوجيهية للمجموعة والتوازن، وتفضيلهم لإجراء جلسات تفكير جماعية ومقاربات جماعية في حل المشاكل. يُناقَش هذا التصوُّر لأساليب العمل اليابانية في مقال:

Paul Herbig and Laurence Jacobs, 'Creative Problem-Solving Styles in the USA and Japan', *International Marketing Review*, 13:2 (1996), 63-71.

والاعتقادات الخاطئة التي كان الجميع يتفق عليها.[1] لذلك، فإن ميل الأشخاص إلى الخيال والنظر إلى الماضي بحنين هو شكل من أشكال الفكر الجماعي، وهذا ما لم يكن مفيداً. هذه المشكلة لم تؤثّر في الأشخاص العاديين فقط ولكن أيضاً في الطبقة الراقية من المجتمع البريطاني، وكان عليهم تغيير هذه الطريقة السائدة للتفكير بسرعة.

في الستينيات من القرن العشرين، شهدنا تحديات في السياسة من مجموعات مختلفة، بما في ذلك الحزبان الليبرالي والمحافظ. قامت حركة حقوق الإنسان وحركة تحرير المرأة بتغييرات كبيرة في السياسة، كما لعبت النقابات العمالية والاحتجاجات التي نظمها الطلاب والعمال في أوروبا دوراً كبيراً وأحدثت تغييرات عدة. وفي السبعينيات، واجهت الاقتصادات في البلدان الغربية تحديات ومشكلات اقتصاديةً كبيرة، مما جعل الناس ينتقدون الطريقة التي اتبعها السياسيون في التعامل مع هذه المشكلات، إذ اعتبروا أن النهج القديم ليس واضحاً وأنه بحاجة إلى تجديد، وقد استفزتهم محاولات السياسيين للبحث عن وسط في السياسة؛ هذا الوسط هو نوع من التسوية تحت مسمّى Butskellism؛ وهو المصطلح الذي جمع بين أسماء زعماء من حزب المحافظين (حزب التوري) في المملكة المتحدة وأعضاء من الأحزاب المحافظة العمالية.[2] وقد زادت الانتقادات من جانب الأشخاص والأحزاب المحافظة بخصوص الصفقات التي أبرمتها الحكومات المختلفة مع "زعماء النقابات العمالية". انتقد المعارضون العنيفون لهذه الصفقات، خاصةً داخل حزب المحافظين البريطاني، الباحثين عن التوافق باعتبارهم أشخاصاً غير راغبين أو غير قادرين على اتخاذ قرارات صعبة وأساسية؛ أراد هؤلاء المعترضون تحدي الافتراضات السائدة والأوهام الشائعة خلال عقود ما بعد الحرب، التي استمرت، في رأيهم، لمدة طويلة دون فحص دقيق.

في نهاية السبعينيات، جاءت التحديات الأكثر فعاليةً لأزمة الاقتصاد والسياسة من الجانب الأيمن من الساحة السياسية، وقد لاقت دعماً من مثقفين وسياسيين بارزين

---

1 Correlli Barnett, *The Audit of War: The Illusion and Reality of Britain as a Great Nation* (London, 1986).

٢ كان هذا المصطلح يجمع بين اسمين معروفين في الأحزاب: التوري والعمالية، وهما Butler و Gaitskell، اللذان شغلا منصب وزير المالية، وكانت آراؤهما متشابهة بحسب انتقادات النقاد. في وقت لاحق، اقترح بعضهم مصطلح Blatcherism أي دمج تيارات الفكر السياسي بين Thatcher و Blair.

يدعون إلى توسيع نطاق الدعم لـ"المشروع الحر" و"المجتمع المفتوح" والتقليل من "الإجراءات الإدارية"؛ وجهوا انتقاداتهم إلى ما سموه الدولة "المتدخلة بشكل زائد" وعصر الفكر الجماعي الخطِر. في المملكة المتحدة، كانت مارغريت تاتشر، وفي الولايات المتحدة، رونالد ريغان، من بين الشخصيات البارزة التي دافعت عن هذه الأفكار. كانوا يعتقدون أن هناك حاجةً لتغييرات جوهرية وفاعلة، وقد شمل ذلك نقل السلطة من الدولة إلى الأفراد وأصحاب الأعمال الخاصة والمصرفيين. وفي الممارسة العملية، غالباً ما كان ذلك يعني دوراً أكبر للمال والائتمان واستراتيجيات التجنب الضريبي وتفويض الأعمال إلى الخارج. قدموا حالةً مقنعةً لتعزيز التنافس والأسواق الحرة، وشبهوا هذه المفاهيم بالنظام الطبيعي حيث الأقوى فقط يبقى على قيد الحياة، وذلك باستخدام استعارات تذكرنا بالفكر الفيكتوري والدارويني، وعاهدوا على أن هذه التغييرات ستؤدي، كما لو نُفّذت، إلى عقلية جماعية أكثر صحة، مدركين أن المستقبل، في بعض الجوانب، غير معروف ولا يمكن لدولة متعجرفة أن تحدده، كما جادلوا بأن الناس ينبغي أن يكون لديهم حرية اتخاذ القرارات من دون تدخل زائد من الجهات الحكومية أو الشركات التي تقدم الوظائف ذات الأمان مدى الحياة. قدمت مارغريت تاتشر نفسها على أنها قائدة قوية قادرة على مواجهة الحقائق الصعبة. اعتمد الحزب الذي صاغته استراتيجيةً أكثر اندفاعاً وتصاعداً. كان هدفه تحدي نفوذ نقابات العمال بقوة وإدخال إصلاحات تشجع على الاعتماد على الذات والتفكير المستقل، مما أضاف بُعداً نفسياً قوياً إلى السياسات الاقتصادية الراديكالية المرتبطة بتوجيه "الحرية" لدى تاتشر خلال الثمانينيات.

اعتمد ريغان وتاتشر على تقليد طويل من الأفكار. قادا ثورةً سياسيةً كانت جذورها في أعمال اقتصاديين مثل فريدريش هايك Friedrich Hayek وميلتون فريدمان Milton Friedman اللذَين دَعَوا إلى تقليل التحكم الحكومي في الاقتصاد؛ وفي دراسات لودفيج فون ميزس Ludwig Von Mises الانتقادية للاقتصادات المخَطَّطة، مثل تلك في الدول الاشتراكية، كما انطلقا من مفهوم "المجتمع المفتوح" الذي نشره الفيلسوف كارل بوبر Karl Popper، وغيرهم. كانت أعمالهما دائماً تتسم بالظلمة العميقة، نتيجةً للتطرفات في الساحة السياسية الأوروبية: النازية في ألمانيا

والستالينية في روسيا. كانت رغبتهما الرئيسية هي توجيه المجتمعات الحديثة بأقصى ما يمكن بعيداً من هذه التطرفات، كما اتفقا على أن الرأسمالية تتقدم عبر ما يُعرف بـ"الدمار الإبداعي"، وهذا ما لفت إليه جوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter. هايك، المعروف بكتابه *The Road to Serfdom* [**الطريق إلى العبودية**]، أصرّ على أن المستقبل مجهول، وأن التدخل الحكومي المفرط والتخطيط المركزي في حياة الأفراد أمر مقلق للغاية. حذّر هايك من أن النموذج الاقتصادي المختلط بين اقتصاد السوق الحرة والتدخل الحكومي، والافتراضات حول الرعاية الاجتماعية، يمكن أن تفتح الباب أمام تأسيس دولة استبدادية حديثة. بوبر، في كتابه المؤثر *The Open Society and its Enemies* [**المجتمع المفتوح وأعداؤه**] الذي كُتب في الأربعينيات، قال إن الفيلسوف اليوناني أفلاطون في كتابه *The Republic* [**الجمهورية**] قد فتح الباب بالفعل أمام الفكر الاستبدادي بسبب دعوته لرقابة الأفكار المؤذية باسم مصلحة المجتمع. كان بوبر يعتقد أن المجتمع المفتوح والعقل المفتوح قريبان من بعضهما، وأن الأنظمة المفتوحة ضرورية للصحة السياسية والنفسية.[1]

كان هايك وبوبر وبعض زملائهما ينتقدون بشدة كل ما يعيق الحرية الفردية. قاموا بتوسيع الحجج الليبرالية الكبرى التي كانت مهمةً في القرن التاسع عشر، لكنهم الآن ربطوا هذه الحجج بتاريخ الفاشية والستالينية كرد فعل ضد الاستبداد. بحث هؤلاء المفكرون عن طرق جديدة لإدارة الاقتصاد. هايك، على وجه الخصوص، كان يسعى للحد من دور الحكومة في الرعاية الاجتماعية بأقصى قدر ممكن بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك من أجل تعزيز الفردية الكبرى، وتقليل الإنفاق الحكومي على الخدمات تلبيةً لاحتياجات الجمهور، وزيادةً لعمليات الخصخصة، وتقديساً لمفهوم "السوق الحرة" كمفهوم مركزي معاكس للأنظمة النازية والستالينية المستبدة، على حد قول هايك.

استخدم عدد من المعلقين الذين يمتلكون معتقدات سياسيةً متنوعةً وأحياناً قوية، سواء كانوا يميلون نحو اليسار السياسي أو اليمين السياسي، مفهوم "التفكير الجماعي"، وذلك لتقديم الحجة بأن الامتثال الأعمى للأفكار والآراء المعتادة، دون

---

1 Jamie Cohen-Cole, *The Open Mind: Cold War Politics and the Sciences of Human Nature* (Chicago, 2014).

التفكير النقدي، يمكن أن يشكل تهديداً كبيراً لمستقبل الديموقراطيات الليبرالية مع اقتراب نهاية القرن. غالباً ما نصح هؤلاء الأفراد بضرورة تحدي وتعديل تفكير المجموعة و(سلوكيات مشابهة) على وجه السرعة.

في الثمانينيات من القرن العشرين، أصبحت مارغريت تاتشر، التي كانت تتولى حكومة البلاد في ذلك الوقت، مشهورةً بجملتها "لا توجد بدائل"؛ من خلال هذه العبارة، ألمحت إلى أن المعتقدات التقليدية يجب أن تتغير. بالإضافة إلى ذلك، اعتقدت أن السبيل إلى الأمام واضح تماماً، مركزةً على أهمية زيادة الفردية والخيارات الخاصة لدى الأفراد والحلول الاقتصادية التي تعتمد على الأسواق، وقد دعمها العديد من الأشخاص وحثوها على دفع هذه الأفكار دفعاً أكبر. كان لهذا المفهوم الأساسي تأثير دائم على مر العقود، ليس فقط داخل حزبها السياسي بل أيضاً في قيادة حزب العمل. توقعت تاتشر أن أي شخص ذكي ومنطقي سيوافق تلقائياً على تحليلها الأساسي وتوصياتها التي لا تسمح بتناقضات غير منطقية؛ رأت أن الجدل الكبير في السياسة والاقتصاد والتاريخ قد انتهى على ما يبدو، باستثناء بعض التفاصيل الإدارية البسيطة، وأن تفكير المجموعة، الذي يعني اتباع أفكار المجموعة اتباعاً أعمى، يجب ألا يكون موجوداً بعد الآن. جادلت بأن الشركات الخاصة كانت بوضوح أفضل من الصناعات التي تديرها الدولة، والتي اعتُبرت أنها متجمدة وغير متطورة، وأن القناعات السياسية القوية والثابتة هي الحلول لمكافحة أشكال تفكير المجموعة الضعيفة.

مارغريت تاتشر، المعروفة بلقب "السيدة الحديدية"، قدّمت حججاً تقول فيها إن الأفراد الذين يفكّرون بحرية ويصنعون قراراتهم بحكمة عادةً ما يكونون أكثر حكمةً وذكاءً عندما يقومون بإنفاق الأموال التي اكتسبوها بجهدهم وجدارتهم مقارنةً بالدولة التي غالباً ما تتبع القرارات الجماعية. كانت تعتقد أن المكلَّفين بدفع الضرائب، مثل المستهلكين الذين يشترون سلعاً وخدمات، هم أشخاص ينتقدون بشدّة بسبب استيائهم من هدر مواردهم من قبل الحكومة والخدمة المدنية البيروقراطية الكبيرة وغير المنتجة، أو من قبل ملايين العاملين في القطاع الحكومي الذين يوجَدون في نقابات العمل ويزعمون أنهم يخدمون المجتمع. كانت جهود تاتشر دائماً مثيرةً للانقسام ولكنها اكتسبت شعبيةً لمدة من الزمن بين فئات واسعة من الناخبين البريطانيين. قرارها

دخول الحرب عام ١٩٨٢ للدفاع عن جزر فوكلاند من الأرجنتين زاد من تقدير الجمهور لها جداً. هناك قضايا عديدة في المشهد السياسي والبيروقراطي، والنقابات العمالية، والدولة نفسها، كانت محل شك أو بحاجة ماسة إلى التغيير قبل توليها المنصب. حتى مؤرخون متطرفون ونظراء اجتماعيون يساريون مشهورون اعترفوا بأن الـ"تاتشرية" كانت عقيدةً قويةً ومقنعةً رغم وجود تناقضات داخلية فيها. لقد جزم المؤرخ الاشتراكي الاشتراكي إريك هوبسباوم Eric Hobsbawm بأن الاقتصاد البريطاني الراكد كان بحاجة إلى "محفّز قوي"، والتي بالتأكيد قدمتها تاتشر.[١]

شكّل انهيار الشيوعية المفاجئ في الاتحاد السوفياتي والبلدان المتحالفة معه في أواخر الثمانينيات صدمةً كبيرةً لمعظم الناس. كان معظمهم يعتقد أن النظام الشيوعي، بالرغم من ضعفه، سيستمر لسنوات عديدة أخرى. لقد فاجأ هذا الانهيار حتى القادة الغربيون الذين كانوا يعارضون الشيوعية ويتبعون سياسات لإضعافها. جاء انهيار النظام الشيوعي نتيجةً لعوامل عديدة؛ أحد هذه العوامل كانت الخسائر الكبيرة التي مني بها الجيش الأحمر السوفياتي خلال حرب طويلة في أفغانستان، إذ شهدت تلك الحرب دعماً غربياً للمقاتلين الأفغان في مقاومتهم ضد القوات السوفياتية؛ جاء الانهيار مباشرةً بعد حادثة تسرب النووي في تشيرنوبيل عام ١٩٨٦؛ كانت هذه الحادثة ناجمةً عن تصميمات مخفية وإدارة سيئة، وكانت نتيجةً للتفكير الجماعي الأعمى للبيروقراطيين ومعظم، إذا لم يكن جميع، العلماء والفنيين. بعد انهيار الإمبراطورية السوفياتية، ظهرت حقبة جديدة ومتفائلة، بمثابة عصر ذهبي، بالنسبة إلى الكثير من أتباع الأفكار النيوليبرالية والمحافظين الجدد. حثوا على فكرة المنافسة المفتوحة والاحترام لأهمية الفرد دون تقييدات صارمة على حريته الشخصية، وشجعوا على المشاركة النشطة في السوق وشراء الأسهم وامتلاك المنازل إذا كان ذلك ممكناً، كما آمنوا بنشر القيم الغربية، حتى في حال استخدام القوة لتحقيق ذلك. أدى هذا التحول إلى التخلي عن الشباك الاجتماعية القديمة والقيم التقليدية والقوانين، سواء في الشرق أو الغرب، واستبدالها بسياسات صندوق النقد الدولي (IMF).

---

1 Michael Williams, *Crisis and Consensus in British Politics: From Bagehot to Blair* (London, 2000), p. 20. Cf. Martin Jacques and Stuart Hall, *The Politics of Thatcherism* (London, 1983).

بالرغم من معارضتها لسياسات التوافق، ادعت تاتشر بصورة مثيرة للدهشة أن سياستها تعتمد في المقام الأول على الوفاء لها وقبول توافق جديد يُسمّى "لا توجد بدائل". بالرغم من أنها قامت بتعديل نهجها أحياناً، كانت الفكرة الأساسية أن زملاءها في السياسة إما يكونون جزءاً من مجموعتها وإما يتعرضون للازدراء الشديد فيصبحون غير جديرين بالاهتمام أو بدعم مستقبلي منها، وقد اشتُهروا بلقب "الرطبين" (wets)، والذين يُعتبرون أنهم أكثر مرونةً وتوافقاً في مواقفهم السياسية، إذ يتجنّبون اتخاذ مواقف قوية.

في كتابها *The Shock Doctrine* [**عقيدة الصدمة**]، قدمت نعومي كلاين Naomi Klein وصفاً شاملاً لكيفية تنفيذ سياسات النيوليبرالية الراديكالية بسرعة خلال الثمانينيات وبعدها. غالباً ما يحدث هذا التنفيذ السريع بعد وقوع حوادث طبيعية أو في بعض حالات المشكلات الطويلة الأمد التي نشأت نتيجة الإهمال السابق. يهدف هذا التنفيذ السريع إلى تعزيز فرص السوق وتقليل تدخل الدولة في الاقتصاد. يتطلب تدخل النيوليبرالية بعد الكوارث إعادة بناء البنية التحتية وإعادة تنظيم الأمور؛ من الأمثلة البارزة كانت الاستجابة لفيضانات نيو أورلينز عام ٢٠٠٥،[1] إذ وصفت كلاين كيف تم تبنّي فكرة "رأسمالية الكوارث" التي استُلهمت من أفكار مثل ميلتون فريدمان؛ كيف اندفع صانعو السياسة، بدعم من مجموعات الضغط الثرية ومراكز البحوث المؤثرة، إلى المناطق المتضررة من الكوارث لتفكيك الأنظمة السابقة وإلغاء الإصلاحات السابقة وبدء أمور جديدة. في نيو أورلينز، فُكّك نظام التعليم العام وأُعيدت هيكلة الاقتصاد المحلي بصورة مختلفة. كانت "الفكرة الراديكالية" لميلتون فريدمان، كما شرحت كلاين، تتعلق بتغيير كيفية توجيه الأموال. فبدلاً من استثمارها في النظام التعليمي العام القائم، تقدم الحكومة قسائم للأشخاص لينفقوها في المدارس الفرعية التي تديرها كيانات خاصة. يُعتقد أن هذا التغيير يؤدي إلى تعزيز الفردية وروح ريادة الأعمال وزيادة معايير التعليم، وقد صادقت معاهد بحوث يمينية وإدارة بوش هذا التوجه ونُفّذ بسرعة، مما أدى إلى تحويل نظام التعليم في المدينة إلى مختبر تجريبي. اعتُبر هذا الأمر مساهمةً أخيرةً من ميلتون فريدمان الذي قضى مسيرةً طويلةً يتحدى فيها التوافق السائد بعد الحرب العالمية الثانية.

1 Naomi Klein, *The Shock Doctrine: The Rise of Disaster Capitalism* (London, 2007).

استُخدم مصطلح "الفكر الجماعي" في الماضي كوسيلة للإهانة. يشبه هذا إلى حد كبير كيفية استخدام مصطلح "الخِراف" (sheeple) كوسيلة للإهانة اليوم بين الجماعات المتطرفة اليمينية وبخاصة في أوساط نظريات المؤامرة التي تُنظَّم بالخفاء عن الجمهور.[١]

النقاد مثل وايت، الذين ظهروا بعد الحرب وكانوا من أوائل من نشروا بصورة شعبية مفهوم "الفكر الجماعي" وفحصوه، جذبوا انتباهاً كبيراً إلى مسألة مهمة للغاية، ومع ذلك، كما أظهرت دراستنا، يمكن أن تتحول الأفكار القيّمة والتحديات إلى أدوات إقناعية قد تُستخدم أحياناً بطريقة تجعلها تشكل ضغطاً بلاغياً على الأفراد بدلاً من أن تكون مجرد وسيلة لتبادل الآراء والأفكار بشكل بناء. ما نشهده اليوم أنّ المعارضة لفكرة الفكر الجماعي قد تتطور أحياناً إلى نوع آخر من الفكر الجماعي في المستقبل، وغالباً ما يشمل هذا التحول استخدام تصريحات عامة وشعارات مألوفة وأفكار مشوهة لخدمة أغراض خفية. على سبيل المثال، هناك كتب تُنشر اليوم تقترح أن القلق العلمي الواسع حول أزمة المناخ هو مجرد نتيجة للفكر الجماعي. اتهام شخص ما بالفكر الجماعي يمكن أن يكون استراتيجيةً لتحفيز الأفراد على الاستسلام للظروف كما هي دون التدخل في السياسة أو اتخاذ إجراءات فاعلة. كما يُستخدم الاتهام بالتفكير الجماعي وسيلةً لفرض الضغط على الأفراد لقبول ما يُعرض عليهم على أنه تغييرات أو إصلاحات ضرورية، حتى لو كانت هذه التغييرات تعني تضحيةً بحقوق مكتسبة أو تهديداً لها، والتي عُمل بجد لتحقيقها عبر مدة طويلة من الزمن في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية.

***

بساطة، من بالغ الأهمية إعادة النظر في تاريخ مصطلح "الفكر الجماعي" واستخداماته من منظور تاريخي وسياسي ونفسي. بعد الحرب العالمية الثانية،

1 'From plandemic to breadcrumbs: conspiracy-theory slang', *Economist*, 17 September 2020, www.economist.com/1843/17/09/2020/from-plandemic-to-breadcrumbs-conspiracy-theory-slang.

تطورت المناقشات حول دور الفرد والجماعة إلى نقاشات أوسع حول مستقبل المجتمعات الحديثة. استكشفت هذه النقاشات ضرورة تنظيم الديموقراطية وتحدّيها وتجديدها من جهة، وتأثير الرأسمالية وحكم الشركات من جهة أخرى. مصطلح "الفكر الجماعي"، مثل مصطلح "غسيل الدماغ"، اكتسب شهرةً بارزةً خلال الخمسينيات وبعدها، فقد أتاح نقطة انطلاق لاستكشاف العديد من الأمور: بدءاً من نظام التعليم إلى قاعة مجلس الإدارة في الشركات، ومن الاغتراب الطفولي وثقافة العصابات إلى انتشار العنصرية والتحيز ضد الجنسين، ومن عقلية الناخبين الفرديين إلى المهارات القيادية المطلوبة في المواجهات النووية بين القوى العظمى. كان هذا المصطلح عبارةً يوميةً أخرى تساهم في استكشاف مجموعة متنوعة من المفاهيم والأيديولوجيات وأحياناً تعزيزها. استخدم النيوليبراليون هذا المصطلح لانتقاد المعتقدات التقليدية المتصلبة التي كانت متفشيةً في السابق.

بعبارة أخرى، خلال الحرب الباردة، كانت بعض الكلمات والعبارات، مثل تلك التي نتناولها هنا، مثيرةً للكثيرين لأنها كانت تُستخدم لتظهير كيف يمكن للناس أن يقبلوا القيم والممارسات السائدة وكأنها أمور طبيعية أو حقائق لا يجوز التشكيك فيها. هذه المصطلحات يمكن أن تُستخدم لأغراض متنوعة، سواء كانت تلك الأغراض تقدمية أو تقليدية. على سبيل المثال، كان استخدام مفهوم "الفكر الجماعي" وسيلةً لتشجيع الأفراد على التساؤل عما إذا كانوا ينتمون إلى تلك النمطية الجماعية أو كانوا بحاجة إلى أن يصبحوا أشخاصاً أكثر حريةً واستقلاليةً في تفكيرهم. في الفصل التالي، سنرى كيف اعتُمدت شعارات ورموز مضادة للفكر الجماعي بسهولة أيضاً من خلال صناعة الإعلان بحيث تشجع الناس على "التفكير بصورة مختلفة". أصبح الاختلاف عن الآخرين أمراً ضرورياً، وبالتالي أصبح يسوَّق بشكل خاص للأشخاص الذين يرغبون في تجاوز أقرانهم أو جيرانهم في نمط الحياة أو الممتلكات؛ يُستخدم مصطلح التفكير الجماعي لوصف محاولة الأشخاص الامتثال لنمط حياة أو مستوى عيش الآخرين من حولهم بهدف الإظهار بأنهم مختلفون عن الآخرين نحو الأفضل أو أنهم ناجحون اجتماعياً؛ هذا التصرف، أي الاختلاف، قد يكون نتيجةً للضغوط الاجتماعية أو الشعور بالمنافسة مع الآخرين. يمكن استخدام مفهوم "الفكر

الجماعي" سواء كوسيلة للإهانة أو لخلق عدم الراحة وتشجيع السؤال الأساسي: إلى أي مدى لديك فعلاً حرية للتفكير بأفكارك الخاصة، ولو في المجتمعات التي تدعي أنها حرة؟ ما الفرص المتاحة لك للتفكير والتصرف بشكل مختلف عن الأنماط التي عادةً ما تتبعها، سواء في مجتمعك أو شركتك أو مؤسستك؟

في الزمن الحالي، وبينما تواجه العديد من البلدان، بما في ذلك الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، حالات تحدٍّ وانقسام نتيجةً لأحداث مثل الأزمة المالية التي وقعت في عام ٢٠٠٨ أو المرحلة غير المستقرة والمحيرة التي سببتها جائحة كوفيد-١٩ والأحداث السياسية في عام ٢٠٢٠، قد تبدو المخاوف التي نشأت في الخمسينيات حول خطورة الالتزام بآراء معتدلة أموراً غريبة وقديمة إلى حد ما. ومع ذلك، تظل الانتقادات السابقة بشأن انغماس الناس بلا تفكير في "الشراء" وفي الآراء الراسخة متماشيةً تماماً مع المخاوف التي نواجهها الآن بشأن الرأسمال المستند إلى الرصد العالمي، وهو نظام جديد من المقنعين الخفيين، وفقاعات الأخبار على منصات التواصل الاجتماعي والتفاعل ما بين المستخدم والمنصات (feedback loops). ليست المسألة هنا فقط في ما إذا كان المساعدان الرقميان مثل Siri أو Alexa يتبعان أوامرنا أم نحن نخدم التكنولوجيا دون وعي ونمد صناعة الإعلان ببياناتنا، بل هي أيضاً في كيفية تأثير أقراننا علينا، أي الأشخاص الذين نتفاعل معهم بانتظام والذين يمكن أن يكون لهم تأثير على أفكارنا وسلوكياتنا. لا يأتي التأثير فقط من الأعلى، بل يمكن أن يأتي إلينا من مصادر متعددة. على سبيل المثال، يُعدّ فايسبوك منصةً لمشاركة الرسائل الشائعة والدردشات والتعبيرات وفي الوقت نفسه شبكةً قوية يصعب الهروب منها.

في ستينيات القرن العشرين، قدم توماس كون Thomas Kuhn، الفيلسوف الأميركي، فكرةً مهمةً؛ قال إننا جميعاً نتبع أنماطاً أو نماذج معيّنة. هذه الأنماط هي أشبه بمجموعة من القواعد والأفكار التي توجهنا في حياتنا. غالباً ما نعيش ونتصرف وفقاً لهذه الأنماط دون أن ندركها، لأنها جزء من ثقافتنا ومجتمعاتنا. تحدد هذه الأنماط كيف نرى العالم وما نعتبره حقيقياً وكيف نحل المشكلات. بالإضافة إلى ذلك، قدم علماء النفس شرحاً مهماً، فقالوا إننا نتأثر بأشخاص مختلفين

ومصادر متنوعة طوال حياتنا. هذا التأثير يبدأ في طفولتنا ويستمر مع نمونا وتطورنا حتى نصبح بالغين. عائلاتنا وأصدقاؤنا ومعلمونا وأصحاب عملنا وحتى الإعلانات تقدم لنا أفكاراً واقتراحات تؤثر في معتقداتنا وسلوكياتنا، وغالباً ما يكون كل ذلك دون أن ندركه. لذلك، تؤدّي هذه الأنماطُ التي نتبعها والتأثيرات الخارجية دوراً كبيراً في تشكيل من نحن وكيف نرى العالم.

الفصل الخامس

المُقنعون الخفيّون

في عام ١٩٤٢، أعرب الاقتصادي السياسي جوزيف شومبيتر عن قلقه من أن الحجج العقلانية تفقد فعاليتها في الحياة الحديثة نتيجةً للكم الهائل من الإعلانات. شدد على أن هذه الإعلانات تستهدف بصورة استراتيجية العقل الباطني لدى الجمهور في سياق سياسي حقيقي.

رأى شومبيتر أن دراسة الإعلانات قيّمة لأنها كشفت مشكلةً أعمق: كيف تستغل الرسائل السياسية عواطفنا وأفكارنا الكامنة في عقولنا، وكيف تعمل خلف الكواليس وخارج إدراكنا الواعي. وأشار (يشبه فرويد قليلاً في إشارته) إلى أن غالباً ما تخلق هذه الرسائل ارتباطات إيجابية، أحياناً بطابع جنسي، دون الحاجة إلى تفكير منطقي. نفى شومبيتر الاعتقاد الخاطئ بأن الناس يتخذون قراراتهم السياسية أو يقومون بشراء الأشياء بعناية وتأمل دقيق، مصرّاً على ضرورة فهم كيفية تنظيم هذه العمليات. قال:

> السياسيون الحزبيون والآليون هم جواب عن حقيقة أن الناخبين يتصرفون جماعياً وكأنهم حشد، وأنهم يمثلون محاولةً لتنظيم المنافسة السياسية، تماماً كما تنظم الجمعيات التجارية قطاعاتها. تُعتبر الأساليب النفسية في إدارة الأحزاب والإعلانات السياسية والشعارات والأناشيد جزءاً أساسياً

من السياسة والمشهد السياسي، وليست مكمّلةً إضافية.[1]

شدد شومبيتر على أهمية ما أسماه "التقنيات النفسية" في التأثير على المجتمعات الحديثة، وقد أعرب عن شكوك بشأن الصورة المثلى المرسومة للديموقراطية، إذ أشار إلى أنه قد لا تكون بهذه الروعة التي غالباً ما يتم تصويرها. في نظره، قد لا يكون المقترعون غالباً على دراية تامة بالسياسات التي يؤيدونها بأصواتهم، ويمكن أن يكونوا غير قادرين على فهم النوايا الحقيقية للأحزاب السياسية أو النواب الذين يؤيدونهم. في رأي شومبيتر، على الرغم من أن للمقترعين تأثيراً معيّناً، فهم لا يكونون غالباً الجهة التي تحدد أكثر الجوانب حيويةً للحكومة، واعتقد أن القرارات الحاسمة والأكثر أهميةً في السياسة تُتّخذ خلف الستار وخارج إدراك العامة؛ بمعنى آخر، يتم التلاعب بالنظام السياسي إلى حد كبير، ويُدار من طبقة سياسية بدعم محدد من الجهات الإعلانية التي تلعب دوراً من خلال صياغة رسائل تعتمد على العواطف وشعارات غامضة ورؤىً غير واضحة تستهوي الناس.

في الخمسينيات والستينيات، كان هناك نقاد بارزون يتابعون التطورات في المجتمعات الرأسمالية الحديثة. كانوا قلقين بصورة خاصة بشأن الجانب المخفي للإعلان الحديث، وهذا ما جاء بالذات في سياق الأحداث الكارثية التي شهدتها مرحلة الفاشية والنازية بين الحربين العالميتين. ركّز هؤلاء النقاد على كيفية تلازم الثقافة والسياسة وبيع المنتجات أكثر فأكثر، واعتقدوا أن صناعة الإعلان لعبت دوراً كبيراً في تعزيز قيم الاستهلاك، وتشويه الفكر العقلاني، وحتى في تأثيرها على كيفية عمل أقسام أخرى في الاقتصاد والمجتمع. واعتقدوا أيضاً أن السيطرة على الحياة من خلال ثقافة الإعلان قد تؤدي بنا نحو نوع من الديموقراطية المرسَّخة بعناية، إذ تبدو كأنها ديموقراطية حقيقية، ولكنها في الواقع لا تعبّر عن إرادة الشعب بصورة حقيقية.

ببساطة، أشار هؤلاء النقاد إلى أن هذا النوع من التسويق صُمّم ليستهدف عواطف الناس وأعمق رغباتهم. كما أوضحوا كيف يمكن للإعلان أن يؤثر كثيراً في طريقة حياتنا وأسلوب تفكيرنا الحالي، وفي الهيكل الاجتماعي الذي يجمعنا. بالإضافة إلى

1 Joseph Schumpeter, *Capitalism, Socialism and Democracy* [1942] (London, 2003), pp. 258, 283.

ذلك، أشاروا إلى أن الإعلان كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بنظام اقتصادي يعتمد على الهدر المتعمَّد وسرعة انتهاء صلاحية المنتجات، وقد توقعوا المخاوف المتعلقة بالاقتصادات الحديثة التي قد لا تكون قابلةً للاستدامة على المدى البعيد، فتلحق ضرراً بكل من رفاهية الإنسان والبيئة.

في هذه الصفحات، كان من الممكن أن نروي قصةً أطول عن كيفية تأثير الناس وتأهيلهم وإقناعهم، ليس فقط في الديموقراطيات ولكن أيضاً في الأنظمة الاستبدادية والوحشية والجمهوريات والإمبراطوريات؛ كانت هذه القصة ستمتد عبر مراحل طويلة من التاريخ وتشمل أمثلةً على تكتيكات التسويق الخفية، والصعوبات التي يواجهها المستهلكون الذين لا يشككون في جودة المنتجات، والعواقب الضارة للاستهلاك المفرط عبر مختلف الحقب. في العصور القديمة، كانت هناك قصص عن الكوارث التي نشأت نتيجة دعاية عدوانية، وكوارث ناجمة عن سوء التفاهم بين الأفراد، وقرارات خاطئة ذات تكلفة باهظة اتخذوها بناءً على خطب مقنعة، وتحتوي الأساطير والحكايات الشعبية على قصص عن أشخاص يتناولون موادّ تجعلهم يسقطون في نوم عميق أو تؤثر في قدرتهم على اتخاذ قرارات منطقية والتفكير بوضوح. فهناك شخص غامض يعرض على شخص آخر مادّة معينة كأنّ الأمر طبيعي وبعيد من أيّ ضرر، ليتبين لاحقاً أنّ مثل هذه العروض تؤدي إلى عواقب كارثية تغيّر مجرى حياة الآخر. غالباً ما نتكلم عن الطعام الذي يساعد على التفكير، ولكن الأدب والأساطير أيضاً يحتويان على قصص عن الطعام والشراب اللذَين يعيقان التفكير لدى الفرد ويُفقدانه وعيه، وعن الأدوية التي تظهر كأنها علاجات ولكنها في الحقيقة ضارة. لو استكشفنا هذا المسار بمزيد من التفصيل، لَبدأنا ربما حكايتنا بتفسير قصة آدم وحواء والثعبان في الكتاب المقدس. في الواقع، قام إرنست ديشتر Ernest Dichter، وهو شخصية مثيرة للجدل في مجال الإعلان بعد الحرب، بإعادة تفسير قصة السقوط تحت عنوان *Persuasion Started with Eve* [الإقناع بدأ مع حواء].[1]

لن نستمر في هذا الاتجاه، ولن نقضي وقتاً طويلاً في الحديث عن قصص من العصور

1 Ernest Dichter, 'Persuasion Started with Eve', *The Strategy of Desire* [1960] (New York, 1985), Part 1.

الفيكتورية والإدواردية عندما كانت الإعلانات الحديثة في ازدياد. في روايته الشهيرة، على سبيل المثال، ناقش هربرت جورج ويلز H.G. Wells كيف أن الإعلانات تمتلك قوةً سحريةً في نقل القراء إلى عوالم غير معروفة، كما أشارت المؤرخة أنات روزنبرغ Anat Rosenberg مؤخراً.[1] وقد نقل ويلز هذا الشعور بفعالية في روايته التي كتبها في عام ١٩٠٩ بعنوان *Tono–Bungay* [تونو بونجاي]. في هذه الرواية، سرد قصة عن علامة تجارية مشكوك فيها لدواء، واستخدمها وسيلةً لاستكشاف الطبيعة المضطربة للمجتمع المعاصر، وهو عالم كان الناس فيه متأثرين تأثراً عميقاً بعمليات الشراء والبيع والإعلان والإثارة.

في هذا السياق، سنناقش أفكاراً تتعلق بالإعلان وكيف أثرت على الناس في الدول الغربية بعد الحرب. تم النظر في الناس في هذا السياق على أنهم إطار لوسائل جديدة للتأثير على أفكار ومعتقدات عدد أكبر من الأفراد. حذر النقاد في كثير من الأحيان من أننا جميعاً عرضة بسهولة لتأثير الإعلان. شومبيتر كان مجرد واحد من النقاد البارزين الذين شرحوا كيف يرتبط الإعلان ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد والمجتمع والسياسة، موضحاً كيف يلعب دوراً حاسماً في هذه المجالات.

في مرحلة الخمسينيات والستينيات، أصبحت شركات الإعلان معروفةً وقد حظيت بانتباه كبير من الجمهور. كان لها تأثير كبير على الثقافة ونجحت في جذب اهتمام الناس، وهذا ما جعل بعض النقاد يعبّرون عن مخاوفهم، إذ اعتقدوا أن تأثير الإعلان يجعل من الصعب على الناخبين اتخاذ قرارات استناداً إلى معلومات غير متحيزة. بدلاً من أن يقود الرأسمال نحو مجتمع أكثر عقلانيةً وأقل انقياداً، كانوا يشعرون بالقلق من أنه ينشئ نظاماً أكثر إغواءً وسريةً وخداعاً؛ بمعنى آخر، كانوا يشعرون بالقلق من أن الإعلان كان يؤثر على آراء الناس بطريقة ملتوية وغير صادقة.

درس الباحثون كيف تتغير أساليب الإعلان وكيف يؤثر هذا التغيير على الناس؛ استقروا في دراستهم على كيفية جذب الناس وجعلهم يدخلون عالماً حيث الأشياء المادية تمتزج مع الأوهام. ببساطة، كانوا يبحثون في كيفية جذب انتباه الناس وإثارة

1 Anat Rosenberg, ‘The Market Enchanters: Mind Control in the History of Advertising’, 14 May 2021, www7.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/blog/the-market-enchanters-mind-control-in-the-history-of-advertising/.

رغباتهم بواسطة الإعلان. كان بعض الكتّاب يفحصون أيضاً الأنظمة والهياكل الكبيرة التي أصبحت جزءاً من صناعة الإعلان. كان هؤلاء الكتّاب يكتبون بإحساس شديد بالضرورة، كأنهم كانوا مضطرين إلى مواجهة النمو السريع لصناعة الإعلان التي غالباً ما ترتبط بشارع ماديسون في مانهاتن حيث العديد من مقار شركات الإعلان، وقد أصبح هذا المكان عبارةً تُستخدم لتمثيل صناعة الإعلان بأكملها. بدا كأن الجمهور بحاجة إلى أن يستيقظ من حالة الاستبداد التي تفرضها عليه الإعلانات، وإلى مساعدة للتخلص من تقاعسه وغيبوبته. ولتحقيق ذلك، كانت هناك حاجة إلى تحليل مفصّل لأساليب الخداع المستخدمة باتجاهه في الإعلانات. كان الناس بحاجة إلى التثقيف والتعلم بسرعة لفهم مجموعة متنوعة من التقنيات الجديدة المستخدمة للنيل من قدراتهم. كان واجباً عليهم أن يتعلموا عن الحيل النفسية التي كانت تُستخدم اعتيادياً للإمساك بانتباههم والحفاظ على اهتمامهم من خلال الإعلانات.

في الفصول القادمة، سأناقش مجموعةً من المواضيع التي تشمل التاريخ وتحليل الأحداث الحالية، وسأفكر في التحذيرات) بعضها يبدو معقولاً وبعضها يمكن أن يكون مبالغاً فيه(التي أطلقها الخبراء والنقاد والمؤيدون بشأن تأثير الإعلان في حياتنا الحديثة. يثير اهتمامي بصورة خاصة استكشاف الأفكار والمناقشات التي أصبحت مهمةً في الخمسينيات والستينيات والتي ما زالت تؤثر في الطريقة التي نتحدث بها عن العالم ومستقبل مجتمعاتنا الديموقراطية الليبرالية. بعد الحرب العالمية الثانية، كان غالباً ما يتحدث الناس عن المخاطر المرتبطة بالإعلان التي تتضمن احتمال الانخراط المفرط في أوهام غير واقعية، أو الفرار من الواقع، أو التحول من الوعي بتكتيكات الإعلان التي تُستخدم للإقناع إلى الشعور باليأس، أو الاضطراب بسبب عجزنا عن رفض شراء السلع أو الخدمات التي يحثنا الإعلان على شرائها. يجب أن نستفيد من الدروس التي يمكننا أن نتعلمها من الكتب الكلاسيكية حول الإعلان بعد عام ١٩٤٥. تشير هذه الدروس إلى أن الطريق إلى المستقبل، خاصةً في العالم الافتراضي، قد يكون أكثر تحدياً مما نواجهه حالياً. علينا مراعاة المستقبل كأمر غير مؤكد وقابل على الانحراف عن مساره الحالي. بغض النظر عن تأثير تكتيكات الإعلان المقنعة، لا تزال لدينا القدرة

على اتخاذ قرارات تتعلق بحياتنا ومجتمعنا، ولكن علينا أن ندرك على نحو أساسي أن اقتراح تحقيق تغييرات كبيرة أو ثورة ضد قبول الإعلان لا يعني بالضرورة أنه سيكون أمراً سهلاً، فتحقيق التغيير الإيجابي يشكّل تحدياً كبيراً، ونحن لا نستطيع التنبؤ يقيناً بما سيحمله المستقبل.

شبيهاً بالكثير من الأشخاص الذين يشعرون بالقلق حيال الاقتصاد عبر الإنترنت في الوقت الحالي، كان لدى الجيل الأول من المحللين بعد الحرب العالمية الثانية قلق مشابه؛ لم يكونوا دائماً واثقين بإمكانية مقاومتهم أو تغيير الرأسمالية الشركاتية والثقافة الإعلانية التي تروج لهذا النوع من الرأسمالية، بل قدموا كيف أصبحت تقنيات الإقناع الخفية، التي تستغل المشاعر والإدمان البشري، أكثر تطوراً. حاولوا شرح كيف أن النظام الاقتصادي أو الاجتماعي يعمل بصورة أكثر انسيابيةً وتكاملاً دون تشتت أو تعقيد. أرادوا أن يكشفوا كيفية استخدام أفكار من مجموعة متنوعة من المجالات مثل سلوك البشر والرياضيات والإحصاء وعلم تحليل النفس وعلم نفس المجموعات والأنثروبولوجيا وعلم الأعصاب وحتى الفن السوريالي، في صناعة الإعلان. اقترح بعض هؤلاء المحللين أنه ينبغي للناس أن يحتجوا ويتحدّوا هذا النظام بصورة أكبر، أو حتى يتخذوا إجراءات مباشرةً لمقاومة السوق الحالية، واعتقد آخرون أن الرأسمالية كانت قوية جداً ولا يمكن إيقافها.

في أي حال، بعد الحرب، لم تكن صناعة الإعلان، كما أشار بعض هؤلاء النقاد (وفقاً لرأيي بقوة)، تقتصر على بيع المنتجات فقط. كانت غالباً ما تعرض نمطَ حياة كاملاً يدور حول زيادة الاستهلاك. وكثيراً ما اشتكى هؤلاء النقاد من الصور الفاخرة والعواطف الزائفة، والمعادلات المزيفة للسعادة واقتناء المواد التي كانت تعتمد عليها الإعلانات. كما كان يتم تكليف الدعاية أيضاً على نحو متكرر لتعزيز صورة حزب سياسي أو حتى تغيير كيفية رؤية الناس لبلد كامل. كانوا يهدفون إلى خلق شعور بالانتماء أو إعادة صياغة دلالات الأسواق الأجنبية التي قد يرغب الناس في زيارتها أو التجارة معها. يمكن استخدام حملات الإعلان التجارية لخلق إعجاب وثقة ببعض المنتجات أو فئات المنتجات المرتبطة بالدولة: الجينز الأميركي والعطر الفرنسي والهندسة الألمانية والتصميم الإيطالي والأثاث السويدي وما إلى ذلك. بالطبع، كان من الواجب أن يكون

هناك في الغالب أساس ملموس لتسويق الشعب أو الصناعة أو المنتج بفعالية. فعلاً، لا بد من وجود الشمس اللامعة والرمال الحقيقية إذا كنت تنوي بيع فكرة عطلة لمرة واحدة في الحياة للملايين عن طريق السفر الجماعي إلى الشواطئ في الخارج.

الكثير من الأمور التي تم التركيز عليها في الأدب بعد الحرب هي واضحة لمعظم المستهلكين اليوم، سواء قرؤوا أحد تلك الكشوفات القديمة أم لا. إن المجتمعات الرأسمالية مشبَعة بالإعلانات، وهذه الإعلانات تُرسَل بصورة متواصلة إلى عقولنا وتُنقل بصورة غير منقطعة إلى أماكن العمل والمنازل والشوارع، وهي تهدف إلى التأثير على مشاعرنا، ليس فقط على تفكيرنا العقلاني. تطورت الإعلانات مع مرور الوقت بصورة مواكبة للثورة الرقمية ومعيدة لتشكيلها، ومع ذلك، هذا لا يعني أننا مجرد مستهلكين أو أهداف ساكنة لرسائل الإقناع، ولا يعني أيضاً أن جميع الإعلانات مملة بالقدر نفسه أو مثيرة للرفض أو ضارة أخلاقياً. نحن بحاجة إلى التمييز بين أنماط مختلفة من الحملات الإعلانية والبيع والتنويه والترويج وغيرها.

يعود تاريخ الإعلانات على الراديو إلى عام ١٩٢٠، وعلى التلفزيون إلى عام ١٩٤١، حيث كانت كلتا الوسيلتين تنشأ في الولايات المتحدة، ومع ذلك، كانت الخمسينيات مرحلةً حاسمةً على جانبَي الأطلسي. خلال هذا العقد، بدأ الناس يشعرون بالتأثير الكامل للتلفزيون، المشار إليه في كثير من الأحيان بـ"الصندوق"، أداةً قوية لنقل الأخبار والترفيه والإعلانات. كان التلفزيون يتحلى بالقدرة على بث أفلام قصيرة أو إعلانات للجماهير الغربية تتمتع بقوة مالية متزايدة، مشجعاً على شراء السلع والخدمات إلى جانب احتياجات الحياة الأساسية.

في ذلك الوقت، بُثّت رسائل توجيهية للناس حول ما يجب شراؤه، وكيفية العيش جيداً، أو حتى لمن يجب عليهم التصويت. كانت هذه الرسائل قد تصل إلى جمهور واسع، إما على مستوى الوطن بأكمله وإما على مستوى فئات اجتماعية معيّنة، أو فئات عمرية، أو مناطق محددة. قد يبدو الكلام عن هذه الأمور غير ضروري اليوم، لأنه جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية، على الأقل في مجتمعاتنا، سواء على الإنترنت أو خارجه.

استُخدمت مهارات الإعلان آنذاك، تماماً كما الحال اليوم، لتحسين النصائح المتعلقة

بالشؤون المدنية والتجارية ونشرها. بعض الإعلانات حتى روت قصصاً قصيرةً ومثيرة، أو قدمت دروساً مفيدة، مثل ما يعني أن تكون والداً أو طفلاً جيداً، مضيفةً بطريقة غير مباشرة أن المنتج الذي يُعلَن عنه يمكن أن يساعد على ذلك. بحلول نهاية الخمسينيات، ومع تزايد الانتقادات للإعلانات، أصبحت هذه الرسائل التجارية في وسائل الإعلام الجماعية أكثر تكاملاً في نسيج حياة العديد من المجتمعات.

على الرغم من أن النقاد كانوا صريحين في تسمية استراتيجيات الاتصال الوطنية في العالم الشيوعي على أنها دعاية، فالمناقشات حول الإعلان في الغرب كانت تتجنب استخدام هذا المصطلح، وذلك لأن الإعلان في المجتمعات الرأسمالية كان أكثر تنوعاً وانتشاراً بكثير مقارنةً بالاتحاد السوفياتي. كان لديه القدرة على خدمة أهداف اجتماعية إيجابية وسلبية، وكان يأتي في الغالب من مجموعة من الشركات الخاصة بدلاً من أن يكون مباشرةً من الدولة.

بالنسبة إلى الشباب في الوقت الحالي، يظهر العالم مختلفاً تماماً عن مرحلة أجدادهم أو والديهم. في الماضي، كانت هناك فرص وظيفية مستقرة وساعات عمل متوقعة، وكان الناس غالباً ما يجتمعون كل مساء لمشاهدة البرامج التلفزيونية نفسها. يختلف تاريخ انتشار التلفزيون واستهلاك البرامج من بلد إلى آخر. ففي بريطانيا، على سبيل المثال، واجهت *BBC* منافسةً من قِبل *ITV*، وهي منافِسة تجارية نشأت في عام ١٩٥٥. بحلول الستينيات، جذبت *ITV* نحو نصف إجمالي الجمهور.[١] على عكس *BBC*، كانت *ITV* تمول برامجها من خلال فواصل إعلانية منتظمة، وليس من خلال رسوم الترخيص الإلزامية أو الضرائب العامة.

في الخمسينيات والستينيات، قدمت دولٌ غربيةٌ عدةٌ أشكالاً جديدةً من الحماية القانونية للمشترين. كانت الفكرة منح العملاء ثقةً أكبر عند مشاهدة السلعة ثم شرائها، على أمل أن تكون وكالات مراقبة الدولة أو، على الأقل، منظمات المستهلكين قادرةً على حمايتهم من أسوأ التجاوزات. استمر تصنيف الأفلام وفحص البرامج التلفزيونية وتنظيم الإعلانات، في حين تم تعزيز قوانين حماية المستهلك على نطاق واسع، وهذا ما

---

1 Christian Potschka, 'A Changing Society (1964–1979)', in *Towards a Market in Broadcasting: Communication Policy in the UK and Germany* (London, 2012), pp. 74–85.

أدى إلى نزاع بين الّذين يدعون إلى حرية بيع غير مقيدة والّذين يعملون في مجال مراقبة البيع بطرق غير مشروعة. إذا لم تكن قادراً على الحصول على جميع السلع الرائعة التي رأيتها في عالم الأفلام النابض بالحياة، فهذا لا يعني أنّ حظّك سيّئ، إذ يمكنك الاقتران بشكل أو بآخر مع النجوم أو الطبقة الراقية أو حتى الجواسيس السريين مثل جيمس بوند James Bond (بدأت مسيرته التمثيلية في بداية الستينيات)، الذين بدوا كأنهم يستمتعون بكل شيء: بذكائهم وسياراتهم وأجهزتهم ورحلاتهم وجاذبيتهم الجنسية. وإذا كنتَ تطمح إلى تقليدهم في هذه الحياة الفاخرة، مثل حجز فندق فاخر أو ركوب طائرة، أو شراء سيارة متألقة بناءً على العروض التي تظهرها الإعلانات، قد تأمل أن تكون منظمات حماية المستهلك هنا، فإذا وُجدت أنت محظوظ لتحميك من التلاعب أو "الغش" (عبارة أصبحت شائعةً في نهاية الستينيات).

للأشخاص الذين يرغبون في التحقق من جودة الأشياء وسعرها ومتانتها، من الغلّايات إلى أحمر الشفاه إلى الشاحنات، كانت منظمات حماية المستهلك والجهات الرقابية في بعض البلدان، تعمل، وهي غير متحيزة، على تقديم معلومات موثوقة لهم، على عكس القصص الخيالية التي قد يحاول البائعون المشبوهون بيعها للزبائن. في بريطانيا، ظهرت مجلة تُسمّى *Which?* في عام ١٩٥٧، كانت تُعنى بمساعدة المستهلكين، ربما بشكل رئيسي من الطبقة الوسطى، على اتخاذ قرارات ذكية، وكانت وسيلةً للمستهلكين لمقاومة إغراءات تؤدي بهم إلى إنفاق أموالهم أو للحصول على سلعة لا غنى عنها بصورة مؤتمنة لا لبس فيها. هناك أيضاً شبكة من مراكز إرشاد في المملكة المتحدة تُسمّى مكاتب إرشاد للمواطنين (Citizens Advice Bureaus) تأسست رسمياً في عام ١٩٣٩، وهي تُعنى بتقديم نصائح أو إرشادات سرية حول القضايا القانونية والإسكان والمال والاستهلاك وغيرها. يمكن إيجادها في العديد من الشوارع الرئيسية في عقود تلت الحرب العالمية الثانية.

في بلدان أخرى، تم تذكير الناس بأهمية معرفة نقاط ضعفهم وفهم حقوقهم ودوافعهم عند إجراء عمليات الشراء، فحُفّزوا على أن يعرفوا أن الشركات ترى فيهم الآن قوةً جماعيةً من المستهلكين. وفقاً للأدبيات التوجيهية، لدى كل مشترٍ قوة كبيرة، إذ يستطيع المشترون ليس فقط التعبير عن شكاوى، وطلب استرداد الأموال، أو تقديم

ملاحظات نقدية للشركات إفرادياً، لكن يستطيعون أيضاً الانضمام معاً إلى مجموعات جديدة للضغط على الشركات والدفاع عن المتسوقين، لذا تم تذكير الجمهور بأنه أكثر انفتاحاً وتأثراً مما كان يعتقد سابقاً، وأكثر قوةً وتأثيراً مما يتصور في الآن عينه.

بدأت حركة حماية المستهلك في القرن العشرين، وانتشر نظام من الحمايات القانونية وكتب النصائح والمنظمات على نطاق واسع منذ ذلك الحين. مع ذلك، شهدت مرحلة الخمسينيات والستينيات إطلاقاً واسع النطاق لمجموعات جديدة لخدمة المستهلكين وزيادة الحمايات القانونية. لذا، عندما تأسس اتحاد المستهلكين الأميركي (CFA) في عام ١٩٦٨، كان ذلك تأكيداً على التطورات التي جرت في العديد من الأماكن لمدة طويلة لحماية الجمهور. لذلك، فإن الإعلانات لم تكن حرةً تماماً في عصر ما بعد الحرب. وبناءً على تجارب ترويض "الغرب المتوحّش" في التسويق خلال القرن التاسع عشر، حيث لم يعد بإمكان المحتالين الذين يدّعون أنهم أطباء بيع "أدوية" خطرة بلا عقاب لكل من يأتي إليهم، جاء مواطنو المجتمعات الغربية بعد الحرب ليتوقعوا، وربما حتى يطالبوا ببعض المعايير في الإعلانات وأنظمة المساءلة، على الأقل في القنوات التلفزيونية الأرضية الرئيسية والراديو والسينما، أو في الصحف الرئيسية.

السؤال حول من يقرر المعايير وما إذا كانت جهودُ فرضِها ناجحةً أم لا هو دائماً قابل للنقاش. في الثلاثينيات من القرن الماضي، كانت هناك حرية كبيرة لدى معلقي الراديو في الولايات المتحدة، الذين يمكن اعتبارهم نسخاً مبكرةً أو إصدارات بدائيةً لتلك الشخصيات المثيرة للجدل في الجهة اليمينية اللاحقة، والتي تقوم بتقديم محتوى جارح أو مثير للانتقاد، إذ استخدموا هذه الحرية للترويج للعداء للسامية، ودعم أفكار النازية التي تؤيد فكرة أن يكون هناك توظيف كامل للعمال وتحقيق نقاء عرقي ألماني باستبعاد التأثيرات العرقية الأخرى، وهي مفاهيم كانت تروج لها النازية الألمانية في المرحلة التي تلت الحرب العالمية الأولى. كما استخدموا الحرية لحث المواطنين الأميركيين على تقدير إنجازات موسوليني، وانتقاد "فوضوية" الديموقراطية. خُذ على سبيل المثال تشارلز إدوارد كافلين Charles Edward Coughlin، المعروف أيضاً باسم "الأب كافلين" أو "الكاهن الإذاعي". كان لدى هذه الشخصية الملحوظة برنامج أسبوعي قبل الحرب العالمية الثانية، إذ نجح هذا الكاهن في جذب جمهور كبير من خلال نشر رسائل معادية

للسامية على نحو متزايد وجريء، وبصورة صادمة، قام حتى بتبرير "Kristallnacht" [ليلة الزجاج المكسور] (حدث عنيف في عام ١٩٣٨ حين قتلت القوات المسلحة الألمانية والمدنيون ما يقرب من مئة شخص ونهبوا آلاف من منازل اليهود والأعمال التجارية والمباني الأخرى) كانتقام عادل لِما اعتبره تصرفات "مستفزة" من قِبل اليهود.

في عالم السياسة والأعمال، وضْع إرشادات للسلوك السليم والنزاهة قد يبدو تحدياً وربما لا يبدو فاعلاً. إذا نظرنا إلى البرامج التلفزيونية والإعلانات منذ أربعة إلى ستة عقود في المملكة المتحدة، نجد ثقافةً مليئةً بالتصورات النمطية حول العرق والطبقة الاجتماعية والجنس والجندر والإعاقة والعمر. يشير ذلك إلى أن النظام القائم في تلك المرحلة لعب دوراً في ترسيخ هذه التصورات النمطية.

ديفيد أوجيلفي David Ogilvy، واحد من كبار المديرين التنفيذيين في مجال الإعلانات بعد الحرب، أكد أهمية فهم المعلنين لقيم الشركات التي يمثلونها، وليس فقط الالتزام بالتعليمات التنظيمية. وفقاً لأوجيلفي، فإن دور وكالة الإعلانات ليس هو التعمية على رسالة هامة، بل التركيز على إنشاء حملة ذكية وجديرة بالثقة للعميل.[١] كان يعتقد أن الأمر لا يتعلق بالترويج للوكالات نفسها، وإنما بتطوير حملة تتفاعل بذكاء مع الجمهور. كان يحترم تمييز المستهلكين ويسعى دائماً لتحديد نقطة بيع فريدة يمكن تحويلها إلى قصص أو شعارات واضحة وموجزة؛ كان يتجنب استخدام لغة مربكة وتقديم مطالبات مبالغ فيها لئلّا يؤدي ذلك إلى فقدان ثقة المستهلكين وتعريض سمعة العلامة التجارية للضرر، ولضمان عدم رؤية المستهلكين بسهولة لحركات التسويق.

كانت شركة أوجيلفي بارزةً جداً في السوق خلال عقود الازدهار. استخدموا الفن والخبرة التجارية والبحث الدقيق حول العملاء المستهلكين لدعم حملاتهم الإعلانية،

---

١ كان David Ogilvy معروفاً بأسلوبه الراقي. أثار انتباه الناس بتجوّله في شوارع نيويورك بسيارته الـRolls-Royce الفاخرة. عندما حصل على عقد الإعلان لسيارات الـRolls-Royce في أواخر الخمسينيات، ركّز على الترويج للهندسة الدقيقة للسيارة ولأسلوبها الأنيق الذي يبقى دائماً متميزاً. صاغ عبارة جذابة للإعلان تقول: "عندما تصل سيارة الـRolls-Royce الجديدة إلى سرعة ٦٠ ميلاً في الساعة، فالصوت الوحيد الذي ستسمعه هو صوت ساعتها الكهربائية". اعتُبر هذا الشعار أحد أفضل ما كتب، ولكن في ما بعد اكتشف أنه استُخدم في إعلان سابق لسيارة من طراز آخر في عام ١٩٣٣. للاطلاع على ذلك، راجع التالي:

Kenneth Roman, *The King of Madison Avenue: David Ogilvy and the Making of Modern Advertising* (London, 2010), p. 99. Cf. swiped.co/file/rolls-royce-ad-by-david-ogilvy/.

إذ أوضحوا كيف يمكنهم التأثير أو حتى تغيير سلوك الإنسان. كان أوجيلفي وغيره من الشركات المتنامية يعرضون بفخر (أو ربما بصورة أكثر انسجاماً، للظهور بشكل أنيق) اسم شركتهم ويُبرزون أهمية مديريهم، وكذلك مهارات مصمميهم وفنانيهم وفريق الدعم التقني. نتيجةً لذلك، بدأت الإعلانات تظهر بتزايد وغالباً بوضوح كقوة ضخمة، خاصةً في عالم الأعمال، مما برهن أنها تستحق كل قرش من الرسوم المفروضة. كانت عقود ما بعد الحرب فعلاً أوقاتاً حيةً في صناعة الإعلان.

في بريطانيا، كان هناك أفراد ماهرون، ولكن الولايات المتحدة كانت المكان الأفضل لفرص العمل الإعلاني. انضمت مجموعة متنوعة من المحترفين، بمن في ذلك كتّاب النصوص الإعلانية ومديرو الفن وعلماء النفس الاستهلاكية وباحثو السوق وخبراء العلاقات العامة ومستشارو الاتصال والإحصائيون ومحللو البيانات ومستشارو الصورة والفنانون التجاريون في هذه الصناعة. مع مرور الوقت، بدأ مهندسو الكمبيوتر وخبراء التلاعب بالرأي العام (على الرغم من أنهم لم يطلقوا على أنفسهم هذا المصطلح في تلك الحقبة، تم ابتكاره في الثمانينيات) يلعبون أدواراً مهمّة أيضاً في هذا المجال.

تأثير الإعلانات واسع ويجب ألا يُستهان به؛ امتدت تأثيراتها إلى مجالات التعليم والثقافة والسياسة، ولم يكن ذلك مقتصراً فقط على الترويج لمنتجات أو خدمات الجامعات والأفلام والأحزاب السياسية والمرشحين، بل شمل أيضاً أفكاراً حول أهمية تحقيق حصة كبيرة في السوق، وتنظيم حملات ترويج مستمرة، والاستجابة لآراء المستهلكين، وتأسيس علامة تجارية واضحة، وما إلى ذلك. أحدثت الإعلانات اهتماماً متزايداً لدى الجمهور في كيفية أداء مختلف اللاعبين في صناعة الإعلانات مقارنةً ببعضهم. لم تقتصر الإعلانات على سرد قصص متنوعة فحسب، بل جعلت قصة الإعلانات نفسها أكثر بروزاً تدريجاً، فباتت جزءاً من الحياة الاقتصادية والأخبار اليومية. حصلت أفضل الحملات الإعلانية على مجموعة متنوعة من جوائز الصناعة التي أُعلنَ على نطاق واسع في سياقات تكريمية.[١]

---

١ جوائز Clio التي بدأت في عام ١٩٥٩، تحتفل بالأعمال الجريئة التي تدفع صناعة الإعلان إلى الأمام، وتُلهم سوقاً تنافسية للأفكار، وتُعزز الروابط المعنوية داخل المجتمع الإبداعي. يمكن العثور على مزيد من المعلومات حولها على clios.com/awards. هناك جوائز أخرى تُقدمها شركة Clutch لأعلى الشركات في مجال "الأعمال إلى الأعمال" (business–to business) حالياً،

وجه العديد من الباحثين الأكاديميين اهتمامهم نحو دراسة صناعة الإعلان. في الستينيات وما بعدها، ظهرت دورات جديدة في الجامعات الأكثر ابتكاراً، تغطي مواضيع مثل السينما ووسائل الإعلام الجماعية وتاريخ التسويق. اكتسبت شخصيات مؤثرة، مثل الفيلسوف الكندي مارشال ماكلوهان Marshall McLuhan، شهرةً دوليةً ليس فقط بسبب محتوى أعمالهم حول وسائل الإعلام الجماعية، ولكن أيضاً بفضل أقوالهم المثيرة وعناوين كتبهم الجذابة. أدرك ماكلوهان قيمة وجود عناوين غير تقليدية لجذب الانتباه إذا كان الكاتب يريد أن يحقق كتابه نسبة مبيع عالية. بعض العبارات المثيرة التي ابتكرها في الخمسينيات والستينيات تشمل *The Mechanical Bride* [العروس الميكانيكية]، *The Gutenberg Galaxy* [مجرة غوتنبرغ]، *The Global Village* [القرية العالمية]، و"the medium is the message" [الوسيلة هي الرسالة].

قد يتفاجأ الطلّاب أو يطمئنّون عند تقديم مثل هذه النظرات النقدية. على الجانب الآخر، يمكنهم أيضاً الاستفادة من معرفتهم بظواهر وسائل الإعلام للانضمام إلى صناعة الإعلان والتسويق والعلاقات العامة (PR). وبالتالي، لا يوجد نقص في عدد خريجي الجامعات المرموقة مثل أوكسبريدج وIvy League الذين كانوا يختارون في السابق مسارات حياتيةً أخرى مرموقةً في الخدمة المدنية أو القانون. الآن، أصبحوا يفكّرون في آفاق أخرى متاحة للعمل في مدينة لندن، وول ستريت، هوليوود، في التلفزيون، أو ربما حتى في وكالة إعلانات أو إحدى شركات العلاقات العامة أو منظمات استطلاع الرأي. ثقافة الإعلان، مع كل حيويتها وتنافسها وإبداعها وتأثيرها، كانت مرتبطةً بالقرن الأميركي [بعد الحرب العالمية الثانية] الذي شهد نمواً اقتصادياً وتكنولوجياً في الولايات المتحدة، وبالقيم الليبرالية الغربية.

في مرحلة ما بعد الحرب في ميدان الإعلان، تألق العالم النفسي إرنست ديشتر كواحد من أبرز المبتكرين؛ قدم وشجع على اعتماد نهج محدد يُعرف بالبحث التحفيزي، وهو نهج في مجال البحث الاستهلاكي والتسويق يهتم بفهم الدوافع والاحتياجات العاطفية والنفسية للمستهلكين، التي تدفع الناس لاتخاذ قرارات الشراء. أكد ديشتر أن هذا النهج

يمكنك متابعتها على clutch.co/leader-awards. أما بالنسبة إلى جوائز AAF، فيمكن العثور على المعلومات على الموقع /www.aaf.org.

يمثل تقدماً كبيراً عن الأساليب السابقة، إذ يمكن أن يخدم مصلحة الجمهور من خلال استخدام استراتيجيات فاعلة لضمان نقل المعلومات وتحقيق تأثير إيجابي، سواء كان ذلك من الشركة إلى الزبون أو من الزبون إلى الشركة، وبهذا، يمكن للزبون أن يطلب الخدمة من الشركة، التي بدورها تقدم له ما يحتاج إليه. يخدم هذا النهج إذاً مصالح الشركات الخاصة أو حتى الأحزاب السياسية. شرح ديشتر أن البحث التحفيزي يعتمد على مجموعة من التقنيات النفسية المصممة لفهم آراء الأفراد بعمق. وُلد ديشتر في فيينا وانتقل في الثلاثينيات إلى الولايات المتحدة، حيث حقق مسيرةً مهنيةً ناجحة. على الرغم من أن كنيته الألمانية تعني "شاعراً"، فديشتر، في العالم الجديد، لم يكن كذلك. كان يمثل نوعاً جديداً من "خبراء استراتيجيات تحليل رغبات الشراء لدى الزبون"، كما وصف نفسه. كان ارتباطه بفيينا، المرتبطة بتأسيس حقل علم النفس التحليلي، مفيداً له، تماماً كما كانت الحال لابن شقيقة فرويد ورائد صناعة العلاقات العامة، إدورد بيرنيز Edward Bernays، الذي انتقلت عائلته من أوروبا إلى الولايات المتحدة وهو صغير السن.

طوّر ديشتر مشاريع لاستكشاف المعرفة النفسية والاستفادة منها، فقدم عمله للوكالات أو الشركات التي، في بعض الأحيان، قامت بتطوير الحملات بالتعاون معه. نوقشت أعماله في كتب ومقالات وظهورات إعلامية، مما أبرز الطلب على خدماته من الشركات في الولايات المتحدة وخارجها.[1] وفقاً لديشتر، كان مستقبل الإعلان يتعلق بفهم حقيقة اهتمامات الأشخاص ورغباتهم وحياتهم الخيالية، مع مراعاة مزاجهم وإحساسهم وكراهيتهم وشغفهم. تعهد بجعل "استراتيجية الرغبة" مربحة، مروجاً بقوة للبحث التحفيزي وشارحاً بعض جوانبه علناً. على الرغم من أن البحث التحفيزي كان حساساً تجارياً على مستوى معيّن، مما يعني أنه يشمل الغوص في عمق آراء الأشخاص ورغباتهم والجوانب النفسية لفهم ما الذي يحفّز سلوكهم في سياق اتخاذ قرارات الشراء، إلا أنه كان نوعاً من السر المفتوح للشركات التي تحصل على هذا السر من الأفراد من خلال البحث التحفيزي. وفي ضوء مثل هذا السر أو المعلومات، تقوم

---

١ في نهاية الخمسينيات، كانت لشركة Dichter إيرادات سنوية تصل إلى مليون دولار. هذه المعلومة موجودة في كتاب:

Stefan Schwarzkopf and Rainer Gries (eds), *Ernest Dichter and Motivation Research: The Making of Post-War Consumer Culture* (New York, 2010), p. 7.

الشركات بتنظيم إعلاناتها وتلبية حاجات الأفراد أو الزبائن. كان ديشتر يعتبر البحث التحفيزي سبباً للفرح والاحتفال.

في عام ١٩٤٦، أسس ديشتر معهداً في ولاية نيويورك أصبح مركزاً رئيسياً لأبحاثه ذات الصلة بالأعمال وإعداد التقارير للعملاء.[1] كان التزامه هو الغوص في دراسة الأفكار والعواطف التي تثيرها المنتجات والخدمات، وبالتالي، كان يقدم توصيات لأساليب البيع المبتكرة، ورؤى حول الاستراتيجيات الرئيسية والتفاصيل الفرعية، مما شمل صياغة عناصر مثل الشعارات والأصوات والألوان وخلفيات دقيقة؛ باختصار، قدم حزمة الإعلان بكاملها. استخدم ديشتر على نطاق واسع المقابلات وعمليات استقصائية تشمل مجموعةً صغيرةً من الأفراد الممثلين للجمهور المستهدَف كزبون أو عميل، وهو أمر شائع اليوم. على الرغم من أنه لم يكن الوحيد الذي استخدم هذه الطرق، فقد تميز بجمعه الحيوي للبيانات التي استخرجها من أبحاثه وباستخدامه الفاعل لها؛ فسر البيانات المجموعة منه، خاصةً في مجال بحثه التحفيزي، باستخدام نظرية فرويدية فضفاضة للعقل، وسوّقها بنجاح رغم أنها قد لا تكون أسلوباً استثنائياً للبيع، وحظي بإعجاب وبتعليقات نقدية سلبية من الأقران والنقاد على حد سواء؛ وصفوه بأنه المستشار التجاري، والخبير النفسي، وفرويد في عصر السوبرماركت لأنه استخدم النظريات النفسية المرتبطة بفرويد في سياق الاستهلاك الحديث وثقافة السوبرماركت؛ وصفوا البحث التحفيزي بأنه نوع من "تحليل النفس الجماعي".[2] الفكرة الأساسية لديشتر كانت أن جزءاً كبيراً من حياتنا العقلية مخفي، ليس فقط عن الآخرين ولكن أيضاً عن أنفسنا.

قليلون في الوقت الحالي يعترضون على الادعاء الأساسي الذي قدمه ديشتر وأوجلفي، والذي يشير إلى أن الإعلان قادر على التأثير في مشاعرنا، وأحياناً دون وعي، ويمكن استخدامه لأغراض إيجابية أو ضارة أو بريئة. في العصر الحالي، تستخدم حكومة المملكة المتحدة، وكذلك العديد من الدول الأخرى، الإعلانات بانتظام لتغيير المواقف التي قد تكون ضارةً بالصحة العامة. يتم تنسيق بعض هذه الجهود من خلال فريق التحليلات السلوكية (BIT)، المعروف أيضاً باسم وحدة الدفع (Nudge Unit).

1 Ibid., p. 4.

2 Vance Packard, *The Hidden Persuaders* [1957] (Harmondsworth, 1960), p. 31.

تم تصميم استراتيجيات الاتصال، سواء للأفضل أو للأسوأ، لتأثير كيفية اتخاذنا لقرارات بشأن التباعد الاجتماعي أو النظر في برامج التطعيم، بهدف الحد من انتشار معدلات نقل فيروس كوفيد-١٩. ومع ذلك، من المهم أن ندرك أن مثل هذه الجهود قد تؤدي أحياناً إلى نتائج عكسية، وتقديم دعم لنظريات المؤامرة بين الجمهور حول فعالية أو مخاطر برامج التطعيم وقضايا ذات صلة.

تستخدم الحكومات على نحو متكرر تقنيات تشبه البحث التحفيزي، ربما بهدف حمايتنا من ارتكاب أخطاء محتملة. على سبيل المثال، حملات حزام الأمان "انقر ثمّ اربط الحزام في كلّ رحلة" (clunk click, every trip) في بريطانيا منذ عام ١٩٧٠ تُعتبر جهداً من هذا القبيل. في الوقت الحالي، قد يعتبر العديد منّا هذا النوع من الإعلانات "لصالحنا الشخصي" بشكل مسلّم. وعلى الرغم من أن هذه الحملات قد تبدو بسيطة، فهي غالباً ما تتطلب جهداً كبيراً خلف الكواليس. الهدف هو تشجيع اتخاذ قرارات محددة، مثل تجنب شرب الكحول أثناء القيادة، والتخلص من القمامة في الأماكن العامة، وتجنب العقاقير الضارة، وارتداء الأقنعة، أو ممارسة "الجنس الآمن" (مصطلح أُشهِر لمواجهة الإيدز (AIDS) وفيروس نقص المناعة البشرية (HIV). يمكن توجيه صناعة الإعلان لأغراض الصحة العامة بسهولة تامة، تماماً كما يمكن استخدامها لدعوتنا للمشاركة في الأنشطة الاجتماعية، أو تحديث ملابسنا، أو السفر إلى الجهة الأخرى من العالم؛ وفي كل الحالات، تعتمد على مجموعة من التقنيات، بعضها قديم وبعضها يتطور مع مرور الوقت.

أشار مؤيدو صناعة الإعلانات إلى أنه، على عكس الاعتقاد السائد بأن الإعلانات تقلل من سلطة الأفراد، يمكن للإعلانات أن تمنح المستهلكين مزيداً من التحكم في خياراتهم أكثر مما كانوا عليه من قبل.[1] وفي نهاية الخمسينيات، كان المؤيدون القويون للإعلانات يدعون بشدة إلى أن يعمل شارع ماديسون على زيادة جهوده وإطلاق حملة إيجابية للدفاع عن الصناعة بأكملها، مبرزين فائدتها الاجتماعية. كان هدفهم الاحتفال بالمهارات المتجاوبة في مجال البيع، وتسليط الضوء على القيم الأخلاقية الإيجابية

1 Michelle R. Nelson, 'The Hidden Persuaders, Then and Now', *Journal of Advertising*, 37:1 (2008), 113–26, p. 116; Daniel Horowitz, *Vance Packard and American Social Criticism* (Chapel Hill, 1994), pp. 1–10.

للشركات الرصينة، وعلى إسهامها في المصلحة العامة. رداً على التغطية الإعلامية السلبية حول ممارسات الإعلانات الخادعة، أو الوعود الغامضة، أو حتى الأكاذيب الصريحة في هذه الصناعة، سعى هؤلاء المؤيدون إلى إعادة بناء صورة إيجابية. اتخذ الاتحاد الأميركي للإعلانات (AAF) خطوات عبر إنشاء فرع تعليمي لتوفير مواد للمدارس والكليات، بهدف مواجهة السرد النقدي حول عمل الصناعات الإعلانية والتأكيد على قيمة وحتى نبل هذا المجال. قدم الاتحاد إنجازات الصناعة الإعلانية الحاسمة في دعم مجتمع متعطش للمعلومات وفي دعم اقتصاد حديث،[١] وبالتالي، قُدّم الإعلان وسيلةً يمكن أن تغذي الروح وتقوي الجسم وتثقف وتنير وتسهم بطرق متنوعة.

لنستعرض قصة البرقوق [خوخ مجفف] لنكتشف كيف كان تأثير ديشتر يظهر من خلف الكواليس في توجيه اتجاهات السوق والتسويق. توضح حملة البرقوق هذه تأثيره على الشركات والأسواق بأسرها، مما يعكس الوعود المتفائلة السابقة المتعلقة بأبحاث التحفيز، التي أشارت إلى أن البحث التحفيزي لا يقوم فقط بتحسين حياتنا وتمديدها، ولكنه أيضاً يمكن أن يسهم في توسيع الأسواق.

إذاً، لماذا كان البرقوق محور اهتمام بارز؟ ولماذا كان خياراً جيّداً للبحث في مرحلة ما بعد الحرب؟ في تلك المرحلة، كانت كاليفورنيا تحتل حصةً كبيرةً من السوق العالمية للبرقوق (لا يزال لديها موقع قوي في هذه السوق)[٢]، ومع ذلك، واجه البرقوق مشكلة في صورته العامة. في عام ١٩٥٢، استدعت هيئة البرقوق في كاليفورنيا (California Prunes Board) خبرة ديشتر، وأدرك بسرعة من خلال استطلاعات العملاء التي قام بها

---

1 Nelson, ‘The Hidden Persuaders, Then and Now’, p. 116.

٢ في ١٩٩٨، أظهر تقرير حول إنتاج ومبيعات وإعلانات البرقوق أن ولاية كاليفورنيا تمثلت بنسبة ٩٩% من إنتاج الولايات المتحدة و٧٠% من إنتاج العالم. يمكن العثور على هذه المعلومات في تقرير:

Julian Alston et al., ‘California Prune Board’s Promotion Program: An Evaluation’, Research Report Series (Berkeley, 1998), escholarship.org/uc/item/8kf3z8zp.

كانت الولايات المتحدة سابقاً من أهم الدول المصدّرة للبرقوق، ولكنها تواجه اليوم منافسة أكبر ونصيب سوقي أقل. للحصول على معلومات أحدث حول البرقوق حتى حزيران/ يونيو ٢٠١٩، يمكن الاطلاع على موقع Tridge على الرابط www.tridge.com/products/prune. أما بالنسبة إلى شركة Sunsweet المعروفة بتسويق البرقوق وقصتها، فيمكن الاطلاع على www.sunsweet.com/sunsweet-story/، وفي ٥ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٢، ذُكر في مقال على agribusinessintelligence.informa.com تعيين رئيس جديد لشركة Sunsweet.

أنه يواجه تحدياً صعباً.[١]

كان التحدي في أنه حتى لو كان للبرقوق فوائد صحية محتملة أو لم يكن خطِراً خاصةً عند تناوله باعتدال، فإنّ هناك معارضات شديدة وغير مباشرة متنشرة في العقول الباطنة تجاه تناوله.[٢] اكتشف ديشتر أن البرقوق كان مرتبطاً بـ"معانٍ سلبية" وكان يحتاج إلى صورة أكثر إيجابيةً وجاذبية.[٣] ربط العديد من الأشخاص بين البرقوق وصور نمطية مثل "السيدات العازبات المسنّات" وتصوروا عالماً مملاً من منازل الإقامة في مرحلة الخمسينيات. علاوةً على ذلك، كان للبرقوق صلة بقضايا مثل الإمساك والفضلات البدنية. تناول ديشتر هذه المشاعر والاضطرابات الجسدية التي كانت لدى المستهلكين حول البرقوق بصراحة.

أجرى ديشتر بحثاً حول المنتَج واكتشف أنه يثير أفكاراً وذكريات سلبيةً للأشخاص. عندما يفكّرون في هذا المنتج، يربطونه بأشياء مثل الجلد الجاف والبرك ذات الأجواء المظلمة والكئيبة، والمستنقعات المخيفة. كما أعاد إلى ذهن بعضهم ذكريات من

---

١ للحصول على تفاصيل حول سوق البرقوق في الولايات المتحدة والمنافسة الدولية الحالية، يمكن الاطلاع على تقرير:

Alston et al., 'California Prune Board's Promotion Program'.

٢ وفقاً لتقرير صحافي حول "البرنامج الجديد" لإعلانات البرقوق في عام ١٩٥٣، وصفت الصحيفة هذا البرنامج بأنه "تطوير لحملة الإعلانات في العام السابق"، ومن جديد، ستُستخدم إعلانات ملونة كاملة اللون في المجلات التي تصدرها الصحف عادةً يوم الأحد، وملصقات ملونة متعددة الألوان في محطات الأنفاق، وعروض تلفزيونية محلية، ونشرة إخبارية صباحية على الراديو في سان فرانسيسكو، بالإضافة إلى الإعلانات في الصحف التجارية الإقليمية والوطنية في مجالات البقالة والفنادق والمطاعم والمستشفيات والتغذية. سيستمر موضوع الحملة الإعلانية بناءً على أبحاث المستهلك في الصناعة ودراسة نفسية للمستهلكين التي قام بها الدكتور Ernest Dichter لتعزيز فكرة أن البرقوق، الفاكهة الرائعة من كاليفورنيا، ليست فقط لذيذة بل أيضاً صحية. سيستمر التركيز في الإعلانات على الشباب من خلال إعلانات ملونة وجذابة لتشجيع شراء البرقوق بانتظام، وستؤكد الإعلانات سهولة تحضير البرقوق وتنوع استخداماتها. للمراجعة:

Healdsburg Tribune, Enterprise and Scimitar, 25 June 1953, p. 15, cdnc.ucr.edu/cgi-bin/cdnc?a=d&d=HTES19530625.2.152&e=-------en--20--1--txt-txIN--------1.

3 Packard, The Hidden Persuaders, p. 137. Emphasis added.

للسياق، راجع التالي:

Lawrence R. Samuel, *Freud on Madison Avenue: Motivation Research and Subliminal Advertising in America* (Philadelphia, 2010); Sean Nixon, *Advertising Cultures: Gender, Commerce, Creativity* (London, 2003); and idem, *Hard Sell: Advertising, Affluence and Transatlantic Relations, c. 1951–69* (Manchester, 2016).

طفولتهم، مع الأوامر الصارمة مثل "كُلْ، أو ستواجه عواقب!"، مما يجعل بعضهم يشعرون بالصغر والعجز، كأنهم تحت سلطة والدَين صارمَين أو معلمين محبِطين. وبشكل مثير للاهتمام، أظهرت دراسة ديشتر أن البرقوق، الذي كان موضوع الدراسة، أثار صوراً محددة لأفراد مختلفين. بالنسبة إلى بعضهم، رُبط البرقوق بذكريات جلوسهم على كرسي مرتفع أو عجزهم عن استخدام الحمام في مرحلة الطفولة، وبشكل غريب، ربط آخرون البرقوق بساحرة مخيفة تشبه الشخصيات في فيلم "The Wizard of Oz" [ساحر أوز]. علاوةً على ذلك، لاحظ ديشتر أن توفر البرقوق على مدار السنة في علب أو حزم يبدو أمراً غير عادي، إذ كان البرقوق عادةً مرتبطاً بفصول معيّنة من السنة. إلى جانب اعتباره غير جاذب، اعتُبر البرقوق عادياً وخالياً من أي وضع خاص أو سمة فريدة. بعض الأشخاص حتى ربطوا البرقوق بالأفراد غير المرغوب فيهم اجتماعياً أو الغرباء.[١] نتيجةً لذلك، إذا رأى أحد العملاء عبوة من البرقوق المجفف في السوبرماركت أو إذا اقترح عليه مساعدُ المتجر في قسم الأطعمة الجاهزة شراءَها، فقد يفكّر العميل في صمت: "لا، لا أريد الملّين الذي تحاول فرضَه عليّ"، وفقاً لما اكتشفه ديشتر.[٢]

نجح ديشتر في الترويج للمنتَج عبر عرض إمكانيات التسويق والإعلان، محدداً في الوقت ذاته حدود هذه الإمكانيات. في إعلان مشهور من عام ١٩٥٨ بعنوان "لنقم بحفلة مسلّية خاصة بالبرقوق"، كان الهدف هو التواصل القوي مع مشاعر الأمهات، وهذا يعني محاولة الإعلان إثارة مشاعر قوية أو ربط اتصال إيجابي في نفوس الأمهات لتشجيعهن على الاهتمام أو شراء المنتج. تُظهر هذه الصورة الإعلانية احتفالاً صغيراً مع أربعة أطفال بيض مبتهجين ونشيطين.[٣] بالإضافة إلى ذلك، يوجد برقوق

١ الوصف الذي قدمه Dichter كان حول الدلالات والمعاني المرتبطة بمواد غذائية ومشروبات عدة عمل عليها. من بين المنتجات التي وصفها: الأرز والسمنة واللحم والبيض والقهوة والحليب (سواء كان طازجاً أو مبخّراً)، بالإضافة إلى البرقوق. يمكن العثور على هذه المعلومات في كتاب:

Ernest Dichter, *Handbook of Consumer Motivations: The Psychology of the World of Objects* (New York, 1964), pp. 59–60.

2 Packard, *The Hidden Persuaders*, p. 137.

٣ ذكر Packard بشكلٍ سريع الصلات العنصرية المرتبطة بمصطلح "البرقوق الأسود" وعلق على كيفية تأثير ذلك سلباً على جاذبيته. لفت انتباهاً إلى أن ذلك أحياناً يُعالج من خلال وضع المنتج في الصور بجانب منتجات بيضاء، مثل جبنة الـcottage. هذه المعلومات مأخوذة من كتاب *The*

ضمن المشهد، ربما كجزء من الديكور أو العناصر في إعداد الحفل: فتاتان صغيرتان ذكيتان ومرتَّبتان تقفان بجوار صبيين صغيرين نظيفين ومرتَّبين؛ الأربعة يجلسون على طاولة يرتدون قبعات الحفلات؛ الفتاتان تفتحان أكياس البسكويت المالح، والصبيان يأكلان الكعك مع البرقوق في الأعلى. يقول الإعلان إن البرقوق لذيذ وصحي وسهل التناول. النص في الإعلان يتوجه بصورة خاصة إلى الأمهات، فيخبرهن أن البرقوق ليس لذيذاً فحسب، ولكن بفضله أيضاً يمكنهن "كسب قلوب أطفالهن باستخدام فطائر البرقوق". بالإضافة إلى ذلك، يلقي الإعلان الضوء على أن المنتَج مليء بالطاقة والحديد والفيتامينات والمعادن، مؤكداً فوائده الغذائية.[١]

ذهب ديشتر وزملاؤه إلى مرحلة أبعد من ذلك. حاولوا تغيير صورة البرقوق ليظهر كـ"فاكهة رائعة"، حلوة وصحية مجففة تحت أشعة الشمس. بدلاً من أن يظهر في علبة مفتوحة في سائل بُنّي ليس جميلاً على الإطلاق، قرروا أن يظهر المنتج خارج العلبة، في إعدادات خارجية، مرتبطاً مباشرةً بصور البياض والشباب والمتعة. على سبيل المثال،

Hidden Persuaders، ص. ١٣٨.

١ المقال يتحدث عن إعلان للبرقوق في عام ١٩٨٥ بعنوان "Let's Have a Prune Party" [فلنحتفل بالبرقوق] من خلال الرابط:

www.reddit.com/r/vintageads/comments/4p59r5/lets_have_a_prune_party_1958_california_prune/.

لا يزال معلنو البرقوق يواجهون تحدياً في كيفية الترويج لفوائد الصحة دون إثارة استياء العملاء بالإشارة المباشرة إلى وظائف الجسم. في عام ١٩٩٠، انطلقت حملة إعلانية استمرت اثني عشر أسبوعاً على التلفزيون الأميركي، حيث قدم ساحر حيلاً مصوّراً البرقوق فعّالاً ومحتوياً على مزيد من الفيتامينات والمعادن مقارنةً بالفواكه المجففة الأخرى. بعد مراجعة نجاح تلك الحملة، وجد الباحثون تأثيراً يمكن تسميته بـ"تأثير النوم الذي لا يُلاحظ". زادت إعلانات التلفزيون مبيعات البرقوق بشكل أكبر في الأسابيع بعد انتهاء السلسلة مقارنةً بالمرحلة التي كانت تُعرض فيها. كما اتضح أن العروض والكوبونات الخاصة التي خفّضت الأسعار زادت من معدلات المبيعات. في عام ٢٠٠٠، وافقت إدارة الغذاء والدواء الأميركية على تغيير اسم "البرقوق" المثير للمشاكل إلى وصف بديل هو "الخوخ المجفف". هذا التغيير أدى إلى زيادة بنسبة ٥,٥% في مبيعات السنة التالية. يواصل المحللون دراسة تأثير الصياغة الدقيقة للمصطلحات مع العروض الخاصة والإعلانات التلفزيونية والتلميحات عبر الإنترنت، ومدى مرونة الأسعار التي يمكن للمنتجين اللعب بها قبل انخفاض الطلب. مصطلحات التسويق ما زالت تختلف، إذ لم يتم محو "البرقوق" بشكل كامل في التسويق بواسطة مصطلح "الخوخ المجفف" المحتمل أن يكون أكثر قبولاً. للمراجعة:

Diane Barrett et al., *Processing Fruits: Science and Technology*, 2nd edn (Boca Raton, 2005), p. 514.

يمكن عرضه مع نساء سعيدات يرتدين ألواناً زاهية، أو في يدي فتيات صغيرات يرتدين ملابس قليلة ويستمتعن بالبرقوق تحت أشعة الشمس. يتم تصويرهن في لحظة تناول الطعام وهن يعبّرن عن الفرح بلذة المنتَج، وكثيراً ما يظهرن وهن يحملن الطعام بالقرب من أفواههن.

أراد ديشتر جعل البرقوق أكثر جاذبيةً من خلال التركيز على لمعانه ونضجه وجاذبيته. اقترح عرض البرقوق في مشاهد لأشخاص يستمتعون بألعاب رياضية مثل التزلج على الجليد أو كرة المضرب. وبدلاً من التركيز على عملية التجفيف، اقترح ديشتر التركيز على الجوانب الإيجابية للبرقوق، مثل محتواه الضوئي المركز. كما اقترح النظر إلى البرقوق كمصدر للضوء والطاقة، وليس كفاكهة ذابلة وجافة. استخدم ديشتر إعلانات مطبوعةً وإذاعيةً وتلفزيونيةً للترويج للبرقوق بطريقة إيجابية ولتفنيد الصور السلبية المتعلقة بالفاكهة.[1]

كان هدف البحث التحفيزي هو جذب اهتمام الناس إلى رواية جديدة وجذابة حول المنتجات التي يُنظر إليها عادةً على أنها تحدٍّ أو أقل جاذبية. على الرغم من اختصار لحظات الإعلان والطبيعة العابرة للصور، فإن الهدف هو إثارة أحلام اليقظة وصنع دعوة مغرية. تم تصميم الإعلانات للتلميح بخفة إلى الفوائد المحتملة للمنتَج، مما يوحي بأنه يمكن أن ينقل الأفراد إلى تجارب مختلفة. كان تصميم الإعلانات يهدف إلى وعد بشكل من أشكال التقدم، سواء من حيث الجوانب الجسدية أو العقلية، وكان هناك تلميح خفي بأن شراء هذا المنتج يمكن أن يؤدي إلى تجربة أفضل أو أكثر كثافة أو أكثر روعة.

ما يمكن ملاحظته في الأدبيات الناقدة في الخمسينيات بشأن هذه الحملات ليس مجرد تكرار للتحذيرات السابقة حول علم النفس الجماهيري أو الاغتراب أو الاستغلال، بل هو نقاش حول مخاطر التلاعب بالعقل التي نواجهها روتينياً داخل شكل من أشكال الرأسمالية الحديثة، وسط عالم يستخدم أشكالاً منسقة من وسائل

١ في الستينيات، كانت هناك إعلانات تلفزيونية لتمور Sunsweet. في أحد الإعلانات، كان هناك رجل ممتلئ الجسم يجلس على كرسي ولا يحب التمور لأنها كانت مجعدة وتحتوي على نوى تجعلها صعبة الأكل. ثم، قام شخص في الإعلان بعرض عليه تمور خالية من النوى، وعندما جربها الرجل، غير رأيه حول التمور. يمكنك مشاهدة الإعلان على يوتيوب:

'Vintage 1960s Prune Commercial – Finicky Prune Eater: Hates Wringled Prunes', YouTube, 7 March 2013, www.youtube.com/watch?v=7lpytcTqaAs.

الإعلام، بالإضافة إلى قوة العلوم الإنسانية والفنون في حملات مصممة بعناية. تشير أمثلة محددة، تبدو غير ضارة، مثل البرقوق، إلى حقيقة أكبر: مدى الأموال والخبرة التي تكمن وراء تسويق السلع اليومية، أو بصورة أكثر دقة، الترويج لرغبات لا يمكن تحقيقها. نحن نُشجَّع بواسطة الإعلان على الحلم، والتفكير إبداعياً أكثر، مما يؤدي إلى فقدان التمييز والاستسلام للقوى اللاواعية، أو تبني روايات نمط حياة معيّنة. قد يكون البرقوق غير ضار، ولكن ماذا عن المخاطر التي تشكلها منتجات مثل السجائر والكحول والسيارات والقمار؟ وماذا عن إغراءات الديون الشخصية عندما يحاول المرء مواكبة المشتريات الكبيرة؟ وبالتالي، على الرغم من أن اللغة المستخدمة من قِبل كل من دعاة الإعلان وخصومه يمكن أن تكون ساخرةً خفيفة، سواء في ذلك الوقت أو الآن، إلا أنها قد تحمل أوجهاً أكثر إثارةً للقلق، فتتقارن بالتكيف الاجتماعي بعد الحرب العالمية الثانية أو حتى بغسيل الأدمغة المتّبع في الأنظمة التوتاليتارية.

مع تطور النقاش حول غسيل الدماغ والقتل العقلي والتفكير الجماعي في الثقافة والفكر السياسي، زادت أيضاً المخاوف بشأن تأثير الإعلان المتطور نفسياً في الحياة اليومية. في الواقع، ركز العديد من المثقفين اليساريين، مثل أدورنو، الذين قاموا بتحليل الدعاية النازية بصورة نقدية، بشكل متزايد على طبيعة الإقناع التجاري في المجتمعات الرأسمالية الحديثة. حتى ترومان، الرئيس الأميركي الذي شغل المنصب الرئاسي مرتين منذ عام ١٩٤٥، أعرب عن اعتراضه على كيفية قدرة الإعلان على تقويض المجتمع الليبرالي من الداخل. كان غاضباً بصورة خاصة من كيفية استخدام شركات المرافق الخاصة التي توفر الكهرباء والمياه والغاز للرسائل، أو كما سماها بسخط، الدعاية، للتلاعب بالرأي العام وتقويض سياسات الحكومة.

كانت هذه الرسائل جزءاً من استراتيجية أوسع. ابتداءً من الأربعينيات، لعب مجلس الإعلان في الولايات المتحدة دوراً حاسماً في تنظيم حملات واسعة النطاق يقودها رجال الأعمال الكبار. كان هدفهم تحدي القيود المفروضة على حرية الشركات ومقاومة الإجراءات الأكثر فعاليةً التي من شأنها إقامة شكل من أشكال الديموقراطية الاجتماعية التي تتقلص فيها تأثيرات الرأسمالية. [ليس مجلس الإعلان كياناً رأسمالياً في حد ذاته، ولكن حملاته تنقل في بعض الأحيان رسائل تتماشى مع مبادئ معيّنة

مرتبطة بالرأسمالية، خاصةً تلك المتعلقة بالحرية الفردية والاقتصادية]. خلال السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، اتخذ مجلس الإعلان موقفاً ضد ما اعتبره توسعات غير ضرورية للسياسات التي وُضعت خلال الصفقة الجديدة قبل الحرب في عهد الرئيس روزفلت، معتقداً أن مثل هذه التوسعات غير مبررة أو لا تتوافق مع آرائه بشأن الحوكمة الاقتصادية والاجتماعية. في حين أنه أعرب عن دعمه للسياسة الخارجية المناهضة للشيوعية التي اتبعتها الإدارة الديموقراطية ووافق بصورة عامة على إجراءات الأمن القومي، انتقد مجلس الإعلان البرامج المحلية التي تسعى إلى تنظيم المشاريع الحرة. في الخمسينيات من القرن الماضي، نظم المجلس حملات إعلانيةً للخدمة العامة بلغت كلفتها ملايين الدولارات. أكدت هذه الحملات أن الولايات المتحدة تزدهر عندما تخلق بيئةً تزيد من حرية الشركات. وفقاً لهذا المفهوم، يتطلب المجتمع الناجح ربحيةً أقصى للشركات وخفضاً أكثر للضرائب وتنافساً مستمراً، وكان الاعتقاد أن هذه التغييرات ستعزز في نهاية المطاف مجتمعاً نابضاً بالحياة ومتساويَ الفرص وذلك في سياق توافقي ودي. نشر المجلس هذه الرواية من خلال قنوات مختلفة مثل الكتب والمقالات والنشرات والأفلام وملصقات اللوحات الإعلانية والإذاعة والتلفزيون والكتب المصورة وبطاقات الرسائل على القطارات والحافلات والعربات الصغيرة وحتى أغلفة علب ورق السجائر، وقد دعم المجلس بشدة حملة الجمهوري أيزنهاور وانتصاره على الديموقراطيين في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٢.[1]

في خطاب ألقاه أمام مؤتمر المستهلكين الكهربائيين في أيار/ مايو من العام نفسه، أعرب الرئيس الديموقراطي المنتهية ولايته ترومان عن استيائه من كمية الأموال التي تنفقها الشركات على الإعلانات. كان تحديداً يعتقد أن هذا الإنفاق يسهم في نشر معلومات مضلّلة بصورة مستنكرة لعرقلة المبادرات السياسية الهامة لحزبه. انتقد ترومان بشدة أولئك الذين يحاولون عمداً إيهام الناس، على حد اعتباره، قائلاً: "إنهم لا يتورّعون عن فعل ذلك. تقول كُتيّباتهم الخاصة إن هدفهم هو التأثير على العقل الجماهيري في هذا البلد عبر اللعب على عواطف الناس". أراد ترومان أن يوضح أن هذا

1 Robert Griffith, 'The Selling of America: The Advertising Council and American Politics, 1942–1960', *Business History Review*, 57:3 (1983), 388–412, p. 403.

التصرف يُعَدّ هجوماً على المبادئ الأساسية لديموقراطيتنا. بدلاً من السماح للمواطنين باتخاذ آرائهم الخاصة، زعم ترومان أن هذه الدعاية من شركات الطاقة الخاصة كانت مصممةً عمداً لإخفاء الحقائق والتلاعب بآراء الناس من خلال استهداف عواطفهم بدلاً من عقولهم. وتجاوز ترومان الأمور بالمقارنة بين أساليب الشركات التي لا ترحم من ناحية إنفاق المال (اللوبيّون لديها وخبراء الإعلان)، والأيديولوجيات المعادية للديموقراطية التي تعارضها الولايات المتحدة بقوة، وقال: "لقد أخذوا ورقةً مباشرةً من كتب كارل ماركس وأدولف هتلر. إنهم يتبعون السوفيات والفاشية".[١]

لنلقِ نظرةً على مثال آخر ذات أهمية رغم أنه قد لا يكون معروفاً على نطاق واسع. هناك تقرير صادر عن مسؤول الصحة العامة في تويكنهام في لندن عام ١٩٥٦. كان عنوان التقرير بأحرف كبيرة وبطابع بارز يقول: "أي يوم قد يكون يوم غسيل الدماغ". كان التقرير يحمل تنبيهاً شديداً بخصوص قوة الإعلانات في تشويه عقول الأفراد، مؤكداً في الوقت عينه على الارتباط القائم بين العمليات الإعلانية والمجالين الاقتصادي والسياسي. مثلما فعل ترومان، تطرق المسؤول إلى مسألة غسيل الدماغ في مرحلة الحرب الباردة وطرق التحقيق أو الاستجوابات المخيفة، وقد أشار إلى الباحثين "المخيفين" الذين يتصرفون بلا أخلاقية لمصلحة الشركات التجارية. بالإضافة إلى ذلك، حذر من أن "ملايين الدولارات" تُنفَق على خطط مصمَّمة بعناية للتلاعب بعقول العملاء من خلال استغلال نقاط ضعفهم الخفية، مثل القلق والوحدة والجشع والمخاوف.[٢]

حذر الخبراء من أن استراتيجيات الاتصال المتقدمة، التي كانت تُحفظ كسرية، قد تقدمت إلى حد مخيف لدرجة يمكنها أن تُضعف إلى حد كبير قدرة الأفراد على اتخاذ قراراتهم الشخصية. كان المشهد السياسي والاقتصادي بعيداً من الثبات: الصناعات الجديدة تتطور، والتصورات الثقافية تتغير، والأسواق تتوسع. كان على المعلنين أن يتكيفوا باستمرار مع هذه التغييرات، وأن يتبعوا التوجهات الرائجة الحديثة، ويحافظوا

1 'Harry S. Truman: 1952–53, containing the public messages, speeches, and statements of the president, January 1, 1952, to January 20, 1953. Collection: Public Papers of the Presidents of the United States', 370–74, p. 372, University of Michigan Digital Library, quod.lib.umich.edu/p/ppotpus/4729044.1952.001421/?page=root;size=100;view=image.

2 'Report of the Medical Officer of Health for Twickenham' [1956] (London, 1957), Wellcome Collection, wellcomelibrary.org/moh/report/b198793496#/?c=0&m=0&s=0&cv=6.

على استدامة منتجاتهم وخدماتهم وتعزيز الطلب عليهما.

بعد الحرب العالمية الثانية، حدثت تغييراتٌ كبيرة في كيفية عمل الناس، وما يقومون بشرائه، وفي الديناميكيات بين الإعلانيين والمستهلكين. كان العديد من الأفراد لا يزالون يعملون في القطاعات التقليدية مثل إنتاج الفحم أو الصلب. في هذه الاقتصادات الصناعية المتقدمة، قد تتضمن الوظائف العمل في مصانع للطائرات أو السيارات أو السجائر، أو عملاً زراعياً، ومع ذلك، حدث تحول ملحوظ مع ازدياد العمل المكتبي وظهور صناعات خدمات جديدة، بما في ذلك ما يُسمّى "الصناعات الإبداعية" مثل الإعلام والإعلان. شهدت هذه المرحلة ارتفاعاً سريعاً في هذين القطاعين، ومع تعافي المجتمعات من سنوات الحرب، واستمرار ارتفاع معدلات النمو الاقتصادي في الخمسينيات وما بعدها،[1] وجد الملايين من الناس في الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية أن لديهم دخلاً إضافياً يمكنهم التصرف فيه. مع زيادة الأموال التي يمكن إنفاقها، طور الناس اهتماماً بأشكال مختلفة من الترفيه مثل التلفزيون والأفلام والمجلات. بغض النظر عن مستوى تعليمهم الأساسي أو ذكائهم، قد يجد المستهلكون

١ كان التوسع الاقتصادي ملحوظاً وثابتاً في العقود بعد الحرب. حققت الديموقراطيات الغربية الأوروبية نمواً متوسطاً يصل إلى نحو ٤% في الناتج المحلي الإجمالي في الخمسينيات، وأقرب إلى ٥% في الستينيات، مقارنةً بـ٣% في السبعينيات، و٢% في الثمانينيات. كانت معدلات النمو في الولايات المتحدة أعلى من ذلك: في عام ١٩٥٥، على سبيل المثال، ارتفعت إلى نحو ١٠%. في مرحلة الثلاثينيات الأخيرة، شهدت الولايات المتحدة أيضاً أرقام نمو عالية جداً، فحققت "الصفقة الجديدة" حجماً كبيراً من الاستثمارات في الاقتصاد، ولكن هذا جاء بعد سنوات من الكساد حيث انكمش الاقتصاد بشكل شديد. كان نمو الناتج المحلي الإجمالي قريباً من -١٠% في عام ١٩٣٠، و-١٣% في عام ١٩٣٢. يمكنك قراءة المزيد حول هذا في التالي:

Kimberly Amadeo, 'US GDP by Year Compared to Recessions and Events: The Strange Ups and Downs of the US Economy since 1929', *The Balance*, 28 April 2021, www.thebalance.com/us-gdp-by-year-3305543.

إذا كنت ترغب في معرفة المزيد حول معدلات النمو في الخمسينيات والستينيات وكيف تم توزيع الفوائد (على الرغم من عدم تكافؤ التوزيع في كثير من الأحيان)، يمكنك الاطلاع على الكتاب التالي:

Stephen A. Marglin and Juliet B. Schor (eds), *The Golden Age of Capitalism: Reinterpreting the Postwar Experience* (Oxford, 1990), p. 1.

راجع أيضاً التالي:

'GDP growth (annual 2020-1961 ,(%', The World Bank, data.worldbank.org/indicator/NY.GDP.MKTP.KD.ZG?locations=US. Cf. 'US GDP Growth Rate by Year', US Bureau of Economic Analysis, [n.d.], www.multpl.com/us-gdp-growth-rate/table/by-year..

أنفسهم متخلفين، ومن المؤكد أنهم عرضة، كما يتم تحذيرهم بانتظام، للرسائل التي يصوغها كلّ يوم المعلنون "المجانين" في شارع ماديسون وفي أنحاء العالم.

بالتأكيد، لم تكن جميع رسائل الإعلان تحقق التأثير المقصود، وكانت هذه الرسائل متنوعةً في المحتوى. لم يكن خبراء الإعلان دائماً متفقين ولم يكونوا عالمين أو قادرين بكل قوة، ومع ذلك، كان لديهم تأثير كبير، إذ وصلوا إلى جماهير واسعة وخلقوا تنوعاً من الرموز البصرية. غمروا المشهد بعدد كبير من السرديات حول كيفية قيادة حياة معاصرة ومُرضية، بالإضافة إلى تشكيل المعايير الاجتماعية والسياسية. أكد المعلنون تأثيرهم حتى عندما كان انتباه المشاهد أو السامع محدوداً أو منقسماً؛ قالوا إن الرسائل يمكن أن تكون فاعلة للغاية، خاصةً عندما يكون المشاهد أو السامع يهتم جزئياً فقط أو يتجاهل الإعلانات. في مثل هذه الحالات، يمكن للمعلومات أن تتسلل إلى العقل أو الدماغ بلا وعينا، أو على الأقل من دون أن نتذكرها كاملاً عند دخولها إلى عقلنا.

قبل أن يصبح فايسبوك وأمازون جزءاً من حياتنا، وقبل أن نتعرف على صعود وانحدار Cambridge Analatyca، كان نقاد الإعلان يحذرون الجمهور من الاتجاه الذي كانت تسلكه الأمور. كانوا يلقون الضوء على كيفية وصول الشركات والأحزاب السياسية إلى معلومات الأفراد الخاصة، وفي الوقت نفسه، كيف كانوا يقومون بنمذجة وتوقع تصرفاتهم المحتملة. سعى هؤلاء المحللون إلى توعية الجمهور على كيفية استهداف الأفراد؛ كانوا يسعون إلى الكشف، لمصلحة الجمهور، عن قدرة الشركات على الاستفادة من تكنولوجيا الحاسوب وعلم النفس ونظرية الألعاب وغيرها من الوسائل لصياغة استراتيجياتها الخاصة، ويتضمن ذلك استخدام الكلمات والموسيقى والصور بفعالية للوصول إلى الأفراد بصفتين كناخبين ومستهلكين، وبالتالي التأثير على عقولهم وقراراتهم.

فانس باكارد Vance Packard، كاتب معروف بفضحه مخاطر الإعلان، فعل ذلك بفعالية في كتب مثل *The Hidden Persuaders* [المقنعون الخفيّون] (١٩٥٧)، و*The Naked Society* [المجتمع العاري] (١٩٦٤)، و*The People Shapers* [**إنهم يصنعون البشر**] (١٩٧٧). كان هدفه الكشف عن مدى قلة فهم الجمهور للأساليب المتطورة التي استُخدمت روتينياً للتسلل إلى حياته الخاصة وتحليل أفكاره والتلاعب بعلاقاته وتشكيل

سلوكه الجماهيري. راقب باكارد من كثب شارع ماديسون وأساليب البحث التحفيزي لديشتر. باستخدام انتقادات حادة وروح الدعابة اللطيفة، أوضح كيف حُوّلت المنتجات اليومية، مثل السجائر أو حتى البرقوق، إلى خيالات خادعة. حذر باكارد من أن مفهوم الحرية قد تم تآكله باستمرار، رغم تقديمه على أنه حجر الزاوية في المجتمعات الغربية.

حقّق كتاب *The Hidden Persuaders* تأثيراً كبيراً وتصدّر القوائم كأحد أفضل الكتب مبيعاً. في هذا الكتاب، تنبأ باكارد بالعديد من المخاوف التي ظهرت في ما بعد. أوضح كيف يمكن للإعلان أن يجعل الأشخاص يتعاطفون مع منتج أو شركة أو علامة تجارية دون أن يدركوا ذلك. كما كشف كيف يمكن للأحزاب السياسية توجيه الجماهير وكيف يمكن للاتصالات السرية التأثير بفعالية في الانتخابات الديموقراطية. توقع باكارد نمواً في مهارات الشركات في تحديد المجموعات الأكثر قابليةً للتأثير والتهميش وتوجيهها، وعبّر عن غضبه إزاء الصناعة الإعلانية المجهزة جيداً بما وصفهم "الباحثين المتعمّقين" الذين كانوا يتقدمون نحو ذواتنا ويتغلغلون فيها. ولدعم حجته، ركّز باكارد على ديشتر وأمثلة بارزة أخرى. في ما بعد، قام المعلقون بالاستفادة من نقده لتحليل الأمور بصورة منظمة أكثر، مع تجنب الهجوم الشخصي قدر المستطاع، ليظهروا كيف أن شارع ماديسون كان مدمجاً في أيديولوجيا أوسع، بحيث كان يروج للرأسمالية، وليس فقط للمنتجات، على حد تعبيرهم.

أوضح باكارد أن الأميركيين أصبحوا أكثر عرضةً للتأثير الخفي بفضل تقدم تكنولوجيا وسائل الإعلان. كان التلفزيون مصدر قلق بالنسبة إليه، تماماً كما الحال مع نقاد سابقين قلقين بشأن السينما والراديو، وكما الحال مع الإنترنت في هذه الأيام بالنسبة عند خلفاء باكارد. في عام ١٩٥٠، كان أقلّ من ١٠٪ من الأسر الأميركية تمتلك تلفزيون، ولكن بحلول عام ١٩٥٧، امتلك نحو ٨٠٪ من الأسر تلفزيوناً عندما نشر باكارد كتابه. في عام ١٩٦٠، كان هناك نحو ٤٥ مليون تلفزيون؛ يغطي ذلك نحو ٩٠٪ من الأسر عبر البلاد.[1]

لاحظ باكارد أنه نظرياً، يمكن للفرد أن يوقف تشغيل التلفزيون بأكمله في منزله،

1 Nelson, 'The Hidden Persuaders, Then and Now', p. 114; Vaclav Smil, *Made in the USA: The Rise and Retreat of American Manufacturing* (Cambridge, MA, 2013), p. 94.

ولكن عملياً، فإنه من المحتمل أن يترك تشغيله لفترات طويلة، إذ أدرك صعوبة تحريك النظر بعيداً من تدفق الصور المستمر. كان يعتبر أن الأطفال في سن المدرسة هم الأكثر عرضةً للتسمير أمامه، وكان من المهم أن نلاحظ كيف كانوا يخضعون لعملية مستمرة وصفها باكارد بـ"تكييف الشباب ليصبحوا منصتين مخلصين للمنتج"، وهي عملية يتم فيها توجيه أو تأثير الأطفال في سن المدرسة ليصبحوا مشجعين ومنتسبين لمنتَج معيّن، في هذه الحالة، التلفزيون.[١]

في العشرين عاماً التي تلت ظهوره لأول مرة، حقق الكتاب مبيعات هائلة، وتُرجم إلى اثنتي عشرة لغةً، وظل موضوعاً متكرراً للنقاش.[٢] أحد أسباب نجاح *The Hidden Persuaders* والتهافت على شرائه، بلا شك، أنه وعد بتحصين القراء، ومساعدتهم على مقاومة المؤثرين والمضَيّعين أو التفوق عليهم. كان باكارد يأمل أن يكون الفهم الأفضل لأساليب الإعلان هو خط الدفاع الأول؛ لقد دعا عملُه، في الواقع، الجمهور إلى فهم قوة ما أصر بدقة على أنه "صناعة بملايين الدولارات".

في كتاب باكارد، حظي ديشتر، خبير التسويق، بالكثير من الاهتمام. كان باكارد يعتقد أن ديشتر استخدم بلا حرج تقنيةً تُسمّى "التكييف" بصورة كاملة، حتى إن كان ينكر ذلك إلى حد ما. استخدم ديشتر مفاهيم من علم التحليل النفسي، الذي كان باكارد يعتقد أنه ينبغي استخدامه فقط في البحث الصادق والعلاج الشخصي. الطرق نفسها التي يستخدمها الأطباء النفسيون لمساعدة المرضى من خلال تشجيعهم على التحدث بحرية، يمكن أيضاً استخدامها بشكل غير أخلاقي للتأثير على المشترين، لكن ديشتر وفريقه لم يستخدموا هذه الطرق لأغراض علاجية، بل استخدموا تقنيات مشابهة لجعل مجموعاتهم الهدف أكثر راحة، ولكسب ثقتهم، وتشجيعهم على التحدث بحرية، ثم استخدموا تلك المعلومات لصياغة رسائل تهدف إلى إقناع الناس بشراء المنتجات.

كان خبراء البحث التحفيزي يركزون بعناية على الاستماع لكل ما يقوله الناس، ليس للتعاطف أو فهم الأفراد أو الجماعات، بل لجمع المعلومات خدمةً للشركة التي

---

1 Packard, *The Hidden Persuaders*, Chapter 15, 'The Psycho-Seduction of Children'.

٢ مشار إليه في التالي:

Nelson, 'The Hidden Persuaders, Then and Now', p. 126.

يعملون فيها؛ كان هدفهم تسجيل أفكار الأشخاص بصورة غير مصفّاة وشخصية، مثل تعبير شخص عن اشمئزاز قوي للبرقوق أو عن إعجابه بسيارة رياضية، ثم استخدام هذه الأفكار خدمةً لمصلحة الشركة التي يعملون فيها. كان باكارد قلقاً من أن هذا النوع من المعرفة السريرية يشكل مخاطر على الجمهور ويضر بمصداقية المهن العلمية. في الوقت الحالي، يمكن توجيه الانتقادات نفسها إلى مختلف المتخصصين، مثل الاقتصاديين السلوكيين وخبراء السيبرانية وعلماء النفس وعلماء الأعصاب. هؤلاء الأفراد غالباً ما يتنقلون بين مجالات مختلفة مثل الأكاديمية والعيادات والمختبرات وعالم الإعلانات والأعمال التجارية والحكومة. تشير وجهة نظر باكارد إلى أن أفعالهم قد تثير مخاوف مماثلة بشأن الاستخدام اللاأخلاقي للمعلومات المجمّعة المنتهِكة للخصوصية الشخصية وتأثيرها المحتمل على المجتمع.

هل تعكس الإعلانات الطبيعية البشرية أم تحولها؟ هل تفهمها أم تشوّهها؟ هل تتماشى مع المشاعر والرغبات المشتركة بين الناس، أم تزرع أفكاراً جديدة ومقلقة؟ في زمن باكارد، هل كان شارع ماديسون يستجيب لرغبات الملايين و/أو يزيد من الضغوط على الناس، وخاصة النساء، ليهتممنَ بإفراط بنظافة المطابخ والحمامات، ممّا يثير الشّعور بالذنب ويخلق التزامات جديدة، ويرفع مستوى القلق والآمال والتنافس والتوقعات لدى الناس؟ أوضح كتاب *The Hidden Persuaders* أن الإعلان لم يكن مجرد فهم ما يريده الناس أو كيف يشعرون، بل إنه يهدف إلى خلق رغبات جديدة ومخاوف وتطلعات. خاضت صناعة الإعلان عمق ذوات الناس وعواطفهم، واستخدمت أدوات مثل البحث التحفيزي لفهم احتياجاتهم بدقة، والتي تتعلق بالجوع والشعور بالوحدة وعدم الأمان، ولكنها كذلك عملت على تشكيل رغباتهم في الحصول على أشياء جديدة، وتكوين المخاوف من فوات الفرص، وتحقيق طموحات أكبر، كل ذلك بهدف بيع المنتجات. تحمل فكرة باكارد جوهراً من الحقيقة، على الرغم من وجود العديد من العوامل التي تؤثر أيضاً في طريقة تفكير الأشخاص وطريقة شعورهم. يلعب الإعلان دوراً واضحاً ومساعداً في تشكيل تصوراتنا عن أنفسنا وعن الآخرين، مما يؤثر في كيفية إدراكنا لقيمتنا وهدفنا في الحياة.

لم يكن الاهتمام بالنسبة إلى باكارد متعلقاً فقط بمدى صدق حملات الإعلان أو

مدى كذبها المكشوف. اعتقد أن الأشخاص العاملين في هذه الصناعة قد يصبحون مبرمجين للتلاعب بالمجتمع الحديث من دون أن يشككوا أو يتساءلوا عن صحة طريقة تلاعبهم. حذّر من كيف يمكن لمديري الأعمال وخبراء العلاقات العامة أن يصبحوا متحمسين بإفراط، متناسين منطلقاتهم الأخلاقية وقدراتهم النقدية، ليصبحوا عبيداً للبيئة التنافسية، وكأنهم يغسلون أدمغتهم جزئياً في هذا السياق. انتقد باكارد كيف غالباً ما يستقبل الأشخاص العاملون في هذه الصناعة مفاهيم من علم النفس والعلوم الاجتماعية، وكيف يتدربون على التأثير علينا بصورة أفضل لجعلنا نوافق على أفكارهم ونشتري منتجاتهم أو خدماتهم،[١] وقد أثار هذا احتمالاً مقلقاً: إن العملية التي كان يرغب فيها القليلون لأنها كانت مرهقة قد تأثر بها الجميع، بمن فيهم أولئك الذين أداروا هذا النظام.

أراد باكارد إعادة إحياء المقولة الرومانية القديمة "احذر أيّها الزبون ما تشتري" (caveat emptor) التي تحث المشترين على توخي الحذر؛ كان يهدف إلى إظهار كيف أن الإعلان يقدر أن يسحر ويضعف ليس فقط الخبراء ولكن أيضاً الجمهور إن لم نكن حذرين. في نهاية كتابه، أكّد مخاوفَ حاسمة حيال محاولة العديد من المتلاعبين في الإعلان غزو أفكارنا، مشدداً على أهمية حماية حقنا في الحفاظ على أفكارنا الخاصة، سواء كانت منطقيةً أم لا، بحيث يمكن أن يكون هذا التدخل من قِبل المعلنين مشكلةً كبيرة.[٢]

بعد نشر الكتاب، انتقد أنصار صناعة الإعلانات الكتاب بسرعة؛ اعتبروا أنه غير حكيم ولم يقدم تقييماً عادلاً أو علمياً للصناعة ككل. ارتكز انتقادهم على أن الكتاب لم يغطِّ كافياً وجهات النظر الأخلاقية المتنوعة التي يحملها القادة التنفيذيون الكبار ومجالس الإدارة والمديرون والموظفون في شركات مختلفة. بدلاً من ذلك، شعروا أنه انتقاد متحيز يسلط الضوء فقط على أسوأ الحالات ويبالغ فيها ليروي قصةً جاذبة. رأوا الكتاب متحيزاً وبسيطاً ومعيباً، موجَّهاً للجمهور العام، أو حتى مبالغاً تماماً. مع ارتفاع شعبية الكتاب، استخدم أنصار الإعلان مجلات مثل *Printers' Ink* و *Advertising Age* لتحدي مخاوف الكاتب، إما بتجاهل هذه المخاوف كتظاهر فكري بسيط، وإما

1 Packard, *The Hidden Persuaders*, p. 32.

2 Ibid., p. 240.

باتهامه بأنه محاولة ترويجية ذاتية ضد الصناعة.

كثيرون في صناعة الإعلان وجدوا إلهاماً في قراءة *The Hidden Persuaders*؛ بالنسبة إليهم، كانت هذه القراءة توضح القوة الهائلة التي يمكن أن تمتلكها الإعلانات، وتكشف إمكانياتها الكبيرة. اللافت كيف أن الأدب النقدي، الذي يحظى بشعبية واسعة بين الجمهور، والاتجاه الناشئ للخبراء (يصبح الكتّاب الناجحون مثل باكارد خبراءَ في وسائل الإعلام ويُبحث عنهم للمشاركة في الحوارات الإعلامية أو حتى في الحكومة)، يمكن أن يُستخدما ضد هذا النوع من التطورات في مجال الإعلانات. في هذا السياق، يظهر أن الأفراد الذين يشكلون الرأي العام قد يجسدون القضايا التي انتقدوها، ولكن بصورة غير مباشرة. على سبيل المثال، باكارد الذي انتشرت ملاحظاته وانتقاداته واسعاً بفضل كتاباته، بدا كأنه كان يُنتقد بسبب تأثيره، وذلك لأنّ تأثيره على الجمهور يبدو كأنّه المشكلة نفسها التي يتحدث عنها وينتقدها؛ مثال آخر هو أولئك الذين يدافعون عن البيئة، لكنهم في الوقت نفسه يستخدمون السيارات العالية في انبعاثات ثنائي أكسيد الكربون. باختصار، كان هذا عالماً حيث كانت الأفكار تنتقل باستمرار من خلال خبراء وسائل الإعلام: الكتّاب الأكثر مبيعاً والشخصيات المؤثرة، وكتّاب الأعمدة ومدافعو القضايا وصانعو الاتجاهات والأذواق الذين مثّلوا مجموعةً واسعةً من المعلقين عبر الوسائل الإعلامية المتعددة الوسائط، وكانوا يُعتبرون "نجوماً" و"مؤثرين"، ويتقاضون أجوراً عاليةً للتنقل بمهارة في الفرص الإعلامية الجديدة؛ كانوا يتحولون بسهولة من استوديوهات البرامج الحوارية إلى جلسات الاستماع السياسية، ومن كتابة مقالات مميزة إلى إطلاق الكتب، وكانوا دائماً مستعدين لأن يكونوا جريئين وموجِّهين ومناقضين ولافتين للانتباه وأصحاب رأي. باكارد، على غرار كتّاب آخرين مثل وايت، حقق شهرةً واسعةً من خلال كتبه التي كشفت فضائح المجتمع الحديث وعلم النفس. أصبح هؤلاء الكتّاب خبراءَ مطلوبين، وقد اكتسبوا نفوذاً تجاوزت أحياناً نفوذ السلطات التقليدية التي تشكل الخطاب العام، مثل صانعي القوانين المنتخَبين وقادة الشركات ورؤساء النقابات ورجال الدين والعلماء والأطباء وأساتذة الجامعات والأثرياء المحسنين.

بعض النقاد الذين حاولوا تحدي أفكار باكارد والتشكيك في عمله، كان لديهم مصلحة شخصية مرتبطة بالشركات التي انتقدها كتاب *The Hidden Persuaders*، ومع

ذلك، استمر ديشتر دون أن يتأثر وواصل تطوير أبحاثه التحفيزية ودعمها. أكد أن للإعلانات تاريخاً طويلاً، فأشار إلى أن أشكال الإعلانات كانت موجودة منذ قرون عدة. بالإضافة إلى ذلك، أكد أن فن الإقناع كان موجوداً منذ العصور القديمة. حاول التخلص من النقاد مثل باكارد بأفضل ما استطاع. وعلى الرغم من كون كلّ من باكارد وديشتر خصمَين لبعضهما، فقد كانا مقدَّرَين بشدة في سوق التعليقات الإعلامية بسبب تميُّز كل منهما.

توجهت انتقادات قوية نحو أخلاقيات صناعة الإعلان، التي، على ما يبدو، لم يأخذها ديشتر كثيراً على محمل الجد، من خلال نشاط وأدب بيتي فريدان ونساء أخريات.[1] هدفت تلك النساء إلى رفع الوعي العام حول الصور التحكمية المكرهة ذات الصلة بأدوار الجنسين التي تظهر يومياً في رسائل الإعلان التجارية. في عام ١٩٦٣، كتبت فريدان بصورة مؤثرة عن الأموال الهائلة التي تُنفَق سنوياً لغمر المجتمع برسائل دعائية صقلَها علماء اجتماع بهدف السيطرة على أجساد النساء والتأثير في عقولهن.[2] في السبعينيات، نظمت مجموعات نسائية متنوعة، بما في ذلك المنظمة الوطنية للمرأة في الولايات المتحدة (NOW) التي ساهمت في تأسيسها فريدان، حملات لعرقلة صناعة الإعلان والاحتجاج على إعلانات محددة تحتقر المرأة أو تستغلها أو تسيء لصورتها. كانت اعتراضات النساء تتمحور حول الإعلانات التي تروج لصور نمطية حول مفهوم الأنوثة، والتي يمكن أن تكون محبطةً أو تقيد حرية تفكير المرأة.

وقعت احتجاجات مماثلة في المملكة المتحدة وفي مواقع أخرى. على سبيل المثال، تم تعطيل فعالية "ملكة جمال العالم" الشهيرة في لندن عام ١٩٧٠ بواسطة نساء مناضلات حملن قنابل الطحين؛ جعل هذا الحدث العديد من المعلنين ينتبهون على إعلاناتهم خلال السنوات التالية؛ حاولوا تفادي المخاطر على أعمالهم التجارية من خلال تغيير استراتيجياتهم الإعلانية؛ لاحظوا أن الكثير من الناس كانوا غاضبين من الإعلانات التي تفترض أن يكون واجب الأنثى هو جذب الرجال والقيام بأعمال المنزل كربّة بيت. لمواجهة هذه الاحتجاجات، بدأت سريعاً واحدة من أكبر وكالات

1 Friedan on 'the sexual sell', *The Feminine Mystique* (New York, 1963), pp. 166–89.

2 Ibid., pp. 218–19.

الإعلان، Batten, Barton, Durstine & Osborn، ومقرها في نيويورك، بتنظيم نقاشات مع مجموعات من النساء. أرادت الوكالة فهم المزيد عن نطاق وعمق وأسباب هذه الحركات النسوية المتزايدة والغضب العام.[١]

كان تعديل الرسائل مقبولاً بالنسبة إلى ديشتر، لأن الشركات كانت بحاجة إلى التكيف مع التطورات، وكان يجيد استخدام مجموعات التركيز، التي هي عيّنة من الناس تُختبَر في عمليات التسويق. كانت استجابته الهادئة تجاه المعترضين على الإعلانات الذين واجههم: "لا يوجد أي جديد في انتقاداتكم للإعلان. لا أجد شيئاً سيئاً في الإعلان، فلِمَ تعترضون؟". أصر على أن الإعلانات ضرورية في الاقتصاد الحديث، وكان هذا الموقف واضحاً في مشاركته في بث إذاعي لشبكة *NBC* في عام ١٩٥٧ بعنوان "The Art of Persuasion" [فن الإقناع]، حيث تم دعوة كل من باكارد وديشتر للمناظرة ومناقشة أخلاقيات المهنة.[٢] ما إن بدأ البرنامج، حتى توقف فوراً بفاصل إعلاني تجاري (لم أرَ نص الإعلان والمنتَج الذي كان يُعلَن عنه). بات الأمر كأنه دعم لوجهة نظر باكارد القائلة إن تجربة الرسائل الإعلانية التي تدخل بتّك لا يمكنك تجنبها بسهولة ما لم تُطفِئ التلفزيون على الفور. في العام نفسه، كما ذُكر سابقاً، كانت هناك مقابلة تلفزيونية مع ديفيد هوكينز، الأميركي الذي كان أسير حرب في الصين وقرر البقاء هناك بعد خضوعه لعملية غسيل الدماغ. في هذه المقابلة، كانت هناك أيضاً إعلانات تجارية من شركة التبغ Philip Morris تُبث كفواصل أثناء المقابلة.

بعد الاستراحة الإعلانية، انضم ديشتر بحماسة إلى النقاش وطرح سؤالاً على رئيس

---

1 Steve Craig, 'Madison Avenue versus *The Feminine Mystique*: How the Advertising Industry Responded to the Onset of the Modern Women's Movement: A Paper Presented at the Popular Culture Association Conference (1997)', online at ruby.fgcu.edu/courses/tdugas/ids3301/acrobat/womensmovement.pdf. For some legacies of this earlier feminist activism against the advertising industry,

يمكن الرجوع إلى التالي:

Jessica Ringrose and Kaitlyn Regehr, 'Feminist Counterpublics and Public Feminisms: Advancing a Critique of Racialized Sexualization in London's Public Advertising', Signs, 46:1 (2020), 229–57.

٢ النص الكتابي موجود في:

Vance Packard Papers, Penn State, University Library, Special Collections, Box 21, Folder 15, 'TV–Radio, 1957–58'.

الجلسة، كليفتون فاديمان Clifton Fadiman، حول سبب ارتدائه بدلةً معيّنة، ثم أشار ديشتر بالاعتقاد الشائع بأننا جميعاً موهومون بأننا نتصرف بطريقة منطقية، ما يعني أنه يجب أن يكون هناك سبب منطقي وجيه وراء اختيار فاديمان للبدلة الرمادية في ذلك اليوم،[1] وتنوّعَ الحديث من البدلة إلى البرقوق وكيفية تسويقه، إذ قال فاديمان بمزاح: "جعلني الحديث أشتهي تناول البرقوق". بالروح المرحة نفسها، أشاد ديشتر بعبارة من كتاب باكارد الجديد وهي "التلاعب النفسي"، ثم دافع عن صناعة الإعلان بمقارنتها بالآباء، فالآباء دائماً مطالَبون بفهم أبنائهم، ومن ثم إغوائهم، وحتى تأديبهم، من خلال المكافآت، وكذلك التهديدات، فلماذا نلوم محترفي الإعلان؟

بمجرد أن انتقد باكارد أخلاق ديشتر، ظهر الأخير بلا انزعاج ودافع عن نفسه بالإشارة إلى أن سلوكه لم يكن جديداً أو شريراً أو أسوأ من سلوك الآخرين في الصناعة، وأكد ضرورة تقدير الجمهور للجهود التي بذلها هو وزملاؤه، معتقداً أن جهودهم تمكّن الأشخاص العاديين من اتخاذ القرارات، وتجربة "حياة كاملة مُرضية" مليئة بالإبداع.[2] بالإضافة إلى ذلك، ألمح إلى أنه إذا كان من الممكن تكريم أولئك الذين يعملون في مجال بيع الأحلام مثله وتقديم مقابل جيد لهم لإقناع جزء من السوق بآراء جدلية، فلماذا يثير هذا الأمر كل هذه الضجة؟

ما الذي فكّر فيه القراء والمستمعون حول النصيحة المتعلقة بدور الجهات المؤثرة الخفية، وإلى أي مدى أخذوا في الاعتبار الإعلان والترويج للسلع والسياسة؟ وصفُ النقاشات الكبيرة شيء، لكن فهم كيفية ردّ الناس شيء آخر. تشير بعض الدراسات في الستينيات في الولايات المتحدة إلى أن أعداداً متزايدةً من الناس بدأت تشعر بالشك تجاه مجموعة سرية من المؤثرين يشكلون الآراء، سواء داخل البلاد أو على المستوى

---

١ ربّما كانت هذه محاولة للإشارة إلى فيلم هوليوود الشهير من عام ١٩٥٦ بعنوان "The Man in the Gray Flannel Suit" [الرجل ذو الحلة الرمادية الناعمة]. الفيلم من بطولة Gregory Peck واستكشف بشكل نقدي، بين أمور أخرى، العالم الشركاتي وعلاقات العموم والطموح المهني والاستهلاكية.

٢ "كل عالِم نفساني سيخبرك أن 'التأثير النفسي' هو عملية طبيعية تبدأ في اليوم الأول من حياة الطفل". هذا الاقتباس هو من مقال لـ:

Ernest Dichter, 'Persuasion: To What End?', *Motivations*, June 1957, p. 15. Cf. Dichter, 'Buying Is an Expression of Creativeness', in *The Strategy of Desire*, p. 170.

الدولي. كانت الحكومات الأجنبية، خاصةً حكومات الاتحاد السوفياتي وحلفائه مثل كوبا، محل شك وشبهة لأنها قد تتجسس وتتدخل وتثير الفوضى. سبب آخر لتزايد الشك لدى الناس كان قوة الشركات الكبيرة في جمع كميات ضخمة من البيانات وإدخالها في عقول السكان. كان الناس أيضاً قلقين بشأن الجوانب المخفية في الدول الحرة والديموقراطية، مثل الدولة الأمنية والمجمّع الصناعي العسكري، أو ما أصبح في ما بعد يُعرف بـ"الدولة العميقة".

منذ وقت طويل، يعبّر الكثيرون عن قلقهم إزاء موضوعات متعددة مثل "التقنيات النفسية" والإقناع السري والفساد والسيطرة الواسعة التي تُمارسها الحكومة والكيانات الخاصة. وعندما يتعلق الأمر بالاستطلاعات التي تقيس ثقة الجمهور في النظام، لا يثق الجميع دائماً بدقتها. هناك مستوى من الشك الذي لا يزول، إذ يشكّ بعض الأشخاص في نزاهة أولئك الذين يُجرون الاستطلاعات، مشتبهين في أنهم قد يكونون غير صادقين أو يتعاونون للخداع. حتى فكرة أننا يمكننا قياس مستوى ثقة الناس في صناعة معيّنة أو فكرة أو حكومة تثير شكوكاً لدى الخبراء الجادين الذين يختصون في هذه القضايا.[1] مع ذلك، وعلى الرغم من هذه التحفظات، يُجرى الاستطلاع والتصويت على نحو متكرر لفهم آراء الجمهور حول الإعلانات والشركات وأنشطة الحكومات.[2]

هناك دلائل تشير إلى أن طريقة اعتراض معظم الناس في الولايات المتحدة على الحكومة ونظامها تغيّرت كثيراً إلى الأسوأ خلال الستين سنةً الماضية. على الرغم من أن عدم الثقة في النظام الفدرالي يعود إلى فترات زمنية سابقة، إلا أنه بعد الحرب العالمية الثانية، بدأ المزيد والمزيد من الأشخاص في التشكيك بواشنطن والجوانب

---

١ حول هذا النوع المثير للجدل في القياس، يمكن الاطلاع على كتاب بعنوان:

Trust: The Making and Breaking of Cooperative Relations, edited by Diego Gambetta (Oxford, 1988); cf. Joseph Hamm, Corwin Smidt and Roger C. Mayer, 'Understanding the Psychological Nature and Mechanisms of Trust', *PlosOne*, 15 May 2019, journals.plos.org/plosone/article?id=10.1371/journal.pone.0215835.

راجع أيضاً:

Mike Wendling, 'The (almost) complete history of "fake news"', BBC News, 22 January 2018, www.bbc.co.uk/news/blogs-trending-42724320; and OECD, 'Trust in government, policy effectiveness and the governance agenda', in *Government at a Glance 2013* (Paris 2013), p. 25, doi.org/10.1787/gov_glance-2013-6-en.

2 adassoc.org.uk/our-work-category/trust-in-advertising/.

السرية للحكومة. تراجعت نسبة الأميركيين الذين قالوا إنهم يثقون ببعضهم وبحكومتهم تراجعاً ملحوظاً، خاصةً خلال الستينيات وبعدها. يقول بعض الخبراء الذين درسوا بيانات الاستطلاعات إن هناك انخفاضاً يقارب الثلاثين نقطةً في ثقة الجمهور على مدى ثلاثة عقود بعد عام ١٩٦٤، عام اغتيال الرئيس كينيدي.[1] بعبارة أخرى، انخفض عدد الأشخاص الذين كانوا يثقون بأي حكومة أميركية في اتخاذ قرارات جيدة منتظمة. تكشف التقارير أن هذه الثقة كانت أعلى في الخمسينيات، وعلى الرغم من بعض التقلبات، فإنها انخفضت عموماً بعد ذلك.

هناك مجموعة من الرسائل في أرشيف باكارد تعبّر عن قلق الجمهور الأميركي حول الإعلانات والمراقبة والتلاعب الواسع بالمواطنين. كانت هذه الرسائل مليئةً سابقاً بردود فعل قوية من القراء، إذ كتبها العديد من المراسلين، بعضهم أشخاص قرؤوا عمله المؤثر *The Hidden Persuaders* مباشرةً بعد نشره. تلك الرسائل، المحفوظة الآن في أوراقه، تلخّص القضايا التي أثرت في الجمهور وتوضح تباين آرائهم حيال خطورة القضايا التي ألقى عليها باكارد الضوء. أعرب بعضهم عن قلقهم من أن النقاد مثل باكارد يبالغون في مخاطر الإعلانات والخداع الجماعي، في حين رأى آخرون أن الوضع قد يكون أسوأ حتى مما وصفه باكارد. شارك القراءُ قلقَهم حول كيفية تلاعب الناس من خلال نوع جديد من علم النفس السياسي. رفع بعضهم شكوكاً واستفسروا عما إذا كانت هناك نظرية واحدة تشرح كيف يؤثر الإعلان بطريقة غير مدركة في الجماعات بأكملها.

من بين الرسائل التي وصلت باكارد، كانت هناك رسالة من امرأة من هندرسون في ولاية كنتاكي تعارض الصورة التي رسمها باكارد عن الناس، إذ وصف باكارد النساء بأنهن محتالات يدركن فقط نصف المعرفة، وسهلات التأثر بالإعلانات دون أن يدركن ذلك. أكدت هذه المرأة أنها لا تعتبر نفسها شخصيةً تقبل الرسائل دون تفكير. هي وغيرها من الكتّاب الذين كتبوا لباكارد، اقترحوا عليه أن يأخذ في الاعتبار عوامل خارجية مثل

---

1 Alfonso J. Damico, M. Margaret Conway and Sandra Bowman Damico, 'Patterns of Political Trust and Mistrust: Three Moments in the Lives of Democratic Citizens', Polity, 32:3 (2000), 377–400, p. 384.

يمكن أيضاً الرجوع إلى التالي:

Bradley Greenberg and Edwin Parker (eds), *The Kennedy Assassination and the American Public: Social Communication in Crisis* (Stanford, 1965).

الضغوط اليومية في الحياة: العمل والفواتير وأعباء المنزل ورعاية الأطفال، التي يمكن أن تجهد الناس وتؤثر في سلوكهم، وشددوا على أنهم ليسوا مجرد ضحايا سهلة للتلاعب.

أثارت هذه المرأة شكوكاً حول ما إذا كانت تحدياتها الشخصية تؤثر في كيفية استجابتها للإعلانات، مثل الشعور بالإرهاق من العمل والضغوط، أو ربما كانت تتحدى افتراض باكارد بأن هذه الإعلانات تؤثر فيها فعلياً. عارضت تصويره للسيدة العصبية التي تعيش في ضاحية ثرية وهادئة، واعتبرت أن هذا التصوير غير دقيق، وجدت أن كتاب باكارد لم يتناول حالات مختلفة ولم يسلط الضوء على الإرهاق والصعوبات التي يواجهها الكثيرون في أميركا. قالت إن الإرهاق الذي يظهر في عيون المتسوقين قد يكون ناجماً عن تحديات الحياة الواقعية التي يواجهونها بدلاً من استراتيجيات خبير الإعلانات في مانهاتن.

بينما نحاول فهم الناس بصورة أفضل، يُعتبر من الضروري أن ندرك أن لديهم روحاً وأنهم فرادى في حياتهم المعقدة، وأنهم قد يواجهون تحديات ويعيشون في مناطق مختلفة صعبة أحياناً، وهذا ما يختلف تماماً عن تجارب باكارد ورؤيته لهؤلاء الأشخاص.[1] وجد رجل آخر في رسالته إلى باكارد أن الأخير كان يعيش براحة في منطقة ثرية وظن بصورة خاطئة أن الجميع يعيشون النمط الحياتي نفسه. هذا الشخص اعترض على افتراض باكارد، واصفاً إياه أنه "لا يمت إلى الواقع"، ومؤكداً وجود عدد كبير من الأشخاص في جميع أنحاء الولايات المتحدة يكافحون مع الجوع والفقر وعدم الاستقرار المالي والديون.[2]

أراد أحد موظفي صناعة المبيعات في مجال الأدوية السابقين في كينيبونكبورت، في ولاية مين، أن يُلقي الضوء في رسالته إلى باكارد على التحديات التي يواجهها أولئك الذين يبيعون منتجاتهم باستمرار للأميركيين. كان يعتقد أن هؤلاء البائعين يتعرضون للتلاعب بصورة مماثلة لتلاعب الأفراد الآخرين، وأن باكارد يفهم هذه الرؤية. سعى هذا الموظف إلى تسليط الضوء على كيفية تأثير تلاعب شركات الأدوية على البائعين قبل العملاء أو المستهلكين، معرباً عن رغبته في تقديم هذه القصة التي يعتقد أن باكارد

1 'Letter from Mrs Mary C. McCree', 1 December 1957, 'Samples of Reader Mail', Packard Papers, Box 21, Folder 6.

2 Letter dated August 1957, 'Samples of Reader Mail', Packard Papers, Box 21, Folder 10.

قد يفهمها، ولكنه كان متحفظاً في تقديمها بصورة فاعلة. أشار الموظف إلى أن إدارة شركته الدوائية تحاول إزالة الشخصية الفردية لفرق المبيعات والضغط بشدة عبرهم على الأطباء لاستخدام منتجاتهم. قدم مقارنةً بارزةً بين استراتيجيات شركات الأدوية الكبيرة والتكتيكات القاسية التي يستخدمها الجيستابو (Gestapo)، الشرطة السرية في النظام النازي. كان هدفه من ذلك أن يفهم باكارد الضغوط التي يواجهها ليس المستهلكون فحسب بل أيضاً الموظفون داخل هذه الشركات.[١]

كان لدى باكارد مؤيدون مخلصون ونقاد مشكّكون. تلقى الكثير من الردود التي أشادت بعمله. أحد المعجبين به بشدة ربط كتبه بدراسات أخرى هامة بعد الحرب العالمية الثانية، مقترحاً أن تصبح قراءة كتب *The Lonely Crowd* و*The Organization Man* و*The Hidden Persuaders* إلزاميةً لكل أم أميركية؛ أكد أهمية تفكير الأمهات في هذه الكتب من أجل فائدة أطفالهن، إن لم يكن لأجل أنفسهن.[٢] واجه باكارد أيضاً رسائل من أشخاص يؤمنون بالنظريات غير المؤكدة التي تفتقر إلى دعم علمي. يميل هؤلاء الأشخاص إلى اعتماد الافتراضات والمعتقدات الغريبة التي تختلف كثيراً عن الرؤى الشائعة أو الواقعية. تحدث أحدهم مثلاً عن تأثير تغيّر مستويات المياه في مناطق مختلفة من العالم على العقل؛ وقال شخص آخر إن الولايات المتحدة ستسقط، تماماً مثل الإمبراطورية الرومانية، بسبب الهجوم من قِبل البرابرة. كانت هذه النظريات أمثلةً على أنواع الردود غير التقليدية التي واجهها باكارد في استقبال عمله والتي كانت في بعض الأحيان غير مرتبطة بالموضوع الرئيسي لكتبه أو أبحاثه.

استجاب القراء لِما كشفه باكارد واقترحوا طرقاً للمضي في التحقيق في التأثير التجاري الخفي أو المؤامرات الأكبر. كان بعضهم قلقاً بصورة خاصة حيال تأثير التكنولوجيا، لا سيما التدفق المستمر للقصص ورسائل البيع على الشاشات. كتب باكارد كثيراً عن المخاطر التي نواجهها مع وسائل الإعلام، لكن بعض القراء أرادوا تحليلاً أعمق لوسائل الإعلام الجماعية التي تشمل أيضاً منصات التواصل الاجتماعي، كما أرادوا خططاً عمليةً لمواجهة التأثير الساحق للإعلانات في حياتنا الاجتماعية التي

1 'Letter from Robert Roffler', 27 October 1960, 'Samples of Reader Mail', Packard Papers, Box 21, Folder 5.

2 Letter dated 2 February 1959, 'Samples of Reader Mail', Packard Papers, Box 21, Folder 5.

تتسم باستغراق وقت طويل أمام الشاشات. صور باكارد بوضوح كيف يمكن للكلمات والأصوات والصور التلفزيونية في اللغة الرسومية، وهي وصف حدث معيّن بطريقة توضيحية وملموسة، أن تؤثر بصورة دائمة في عقول الشباب، فوصفها بأنها "تأثيرات مشكّلة لوجهات النظر والمعتقدات".[1] وافق الكثيرون من القراء على آرائه، لكنهم أرادوا أيضاً معرفة ما يجب القيام به سريعاً وعلى نطاق أوسع.

أقرّ بعض الأشخاص الذين كتبوا إلى باكارد بأن الإعلانات والمسوّقين يزدادون قوةً كل عام. اعتقدوا أن تلك الإعلانات تؤثر في أجزاء من الدماغ التي بدورها تؤثر في الجهاز العصبي، وبالتالي في الجسم بأكمله، وليس فقط في العقل. على مر الزمن، تعلم خبراء الإعلان كيف يؤثرون في أجزاء محددة من الدماغ ويتلاعبون بالحواس أو حتى بالذكريات المرتبطة بهذه الحواس، مما يزيد من مهاراتهم في كل عقد بعد الحرب.

الكاتبات النسويات، كما رأينا، قدّمن اقتراحاتهن الخاصة، لكن البعض الآخر كان يخشى ألا يمكن إيقاف الرسائل المتواترة، لذا رأوا ضرورة إعادة هيكلة جميع وسائل الإعلام الجماعية بصورة شاملة. إذا كان التلفزيون قادراً على أن يكون إدماناً إلى هذا الحد، وأن يؤثر تأثيراً كبيراً في الأفكار والمشاعر دون علم المشاهدين، فماذا سيحدث بعد ذلك؟

كتبت جين ماير Jane Mayer الصحافية الاستقصائية من مدينة نيويورك رسالةً إلى باكارد بعد قراءتها *The Hidden Persuaders*، حثته فيها على مواصلة جهوده في استكشاف المخاطر الواضحة لقضاء الكثير من الوقت أمام الشاشات. طلبت منه شرحاً أوضح لنظام التلفزيون وضرره، كما سألت عن كيفية تكوين تحالف بين "أولئك الذين لم يصبهم تأثير التلفزيون حتى الآن" لمواجهة هذه التأثيرات، أو حتى إقامة قناة تعليمية جديدة في الولايات المتحدة، ولكنها عرفت أيضاً صعوبة تنفيذ مثل هذه المشاريع لعدم قدرتها على المنافسة مع "العمالقة" في مجال الإعلام. رد باكارد بحرص، معبراً، ليس دون فخر، عن شكره للتفاعل الكبير من القراء، ولكنه بدا غير واثق من كيفية التعامل مع دعوتها ومطلبها وبدا أكثر توجهاً نحو التركيز على عمله.[2]

1 Packard, *The Hidden Persuaders*, Chapter 3.

2 'Jane Mayer, New York City', undated letter, 'Samples of Reader Mail', Packard Papers, Box 21, Folder 5.

كان بعض الأفراد الذين قرؤوا أعمال باكارد في مجال الإعلانات مهتمين جداً بالإعلانات على عكس آخرين. كانوا يسعون إما لمتابعة مسارات مهنية في شركات متعلقة بالإعلانات، وإما البحث عن استشارات من باكارد حول كيفية استخدام هذه الطرق الإعلانية لأغراض خيرية،[1] مع العلم أن باكارد لم يؤمن بفعالية أساليبها ولم يدعمها، بل كان يستعرض آثارها السلبية وكيفية تأثيرها على السلوك والتفكير البشري. على سبيل المثال، ر. هـ. بيرش R. H. Birch، محاضر من كلية طب الأسنان في ليفربول، كتب إلى باكارد، مبدياً استعداداً واهتماماً في معرفة كيفية تطبيق التقنيات التي ذكرها باكارد لدعم حملة كبيرة موجهة نحو تحسين صحة الأسنان في إنكلترا.[2]

ناقش باكارد أساليب الإعلان التي تستخدم تقنيات البحث التحفيزي للتأثير العميق على عواطفنا. ليست هذه الأساليب دائماً واضحة، لكنها قد تجعلنا نركز أقل على همومنا وتثير فينا مشاعر مثل الغيرة والخجل والطمع والرغبة والمنافسة. أطلق باكارد عليها مصطلح "العادات اللاواعية"، فنقطته الرئيسية كانت أننا في كثير من الأحيان نمتص الأمور دون أن ندرك تأثيرها على أفكارنا وسلوكنا تجاه الآخرين، ونجهل كيف يؤثر الآخرون فينا بالمقابل. حذر باكارد من خطورة "رسائل اللاوعي"، إذ يمكن للإعلانات أن تؤثر فينا دون وعينا؛ هذه الرسائل أو المعلومات التي تنتقل من خلال وسائط الإعلان، مثل الرسائل التلفزيونية أو غيرها، قد لا يلاحظها الشخص بسبب سرعتها الفائقة. رأى باكارد أن مجموعةً جديدةً من خبراء "النفس" (psy experts) قادرة على التلاعب بأفكارنا ورغباتنا بطرق لم يسبق لها مثيل وصعب التصدي لها. هذه الطرق تتخطى مستويات الأنا الفردية أو الوعي أو الفهم العادي الذي قد يكون متوقعاً من الشخص في الظروف العادية.

بحث باكارد عن المخاطر المحتملة لتقنية تُسمّى "الرسائل الدعائية اللاواعية".

---

١ ذكر Rory Sutherland، نائب رئيس شركة Ogilvy، أنّه نشأ وتربى على أعمال Packard، وأن كتاب *The Hidden Persuaders* كان دافعاً له لدخول هذا المجال، وأكد Paul Feldwick، رئيس تنفيذي بريطاني بارز في مجال الإعلان، الأمر نفسه. هذه المحادثات كانت شخصية مع الكاتب Rory Sutherland في حزيران/ يونيو ٢٠١٨ ومع Paul Feldwick في تموز/ يوليو ٢٠١٧.

2 'Letter from R. H. Birch', 10 October 1963, 'Samples of Reader Mail', Packard Papers, Box 21, Folder 6.

كان أحد الأمثلة التي ذكرها وجود رسائل مخفية مثل "اشترِ الآيس كريم"، التي تظهر بسرعة بين المشاهد في فيلم سينمائي. خلال مقابلته مع باكارد وديشتر، قلق فاديمان قلقاً جدياً. أشار إلى ما قد يحدث إذا وُضعت رسائل مخفية، في فيلم مشهور يشاهده خمسون مليون شخص، تشجع على أفعال ضارة مثل "تفجير واشنطن". على الرغم من أن الناس لن يروا هذه الرسائل بوعي، يعتقد باكارد أن الجزء اللاواعي من عقولنا يمكن أن يستوعبها. كان فاديمان يشعر بالقلق من أن مثل هذه الرسائل المخفية قد تؤثر في دوافع الأشخاص، خصوصاً الذين لديهم سلوكيات متطرفة أو خطِرة، مما قد يؤدي إلى أفعال غير مرغوبة.[1]

في الخمسينيات من القرن العشرين، جيمس فيكاري James Vicary، المعروف بلقب "رجل العمق" في مجال الأبحاث التحفيزية، قام بالترويج بقوة لفكرة الإقناع الباطني أو اللاواعي في الإعلانات؛ يعتمد هذا النوع من الإقناع على استغلال العقل الباطني للفرد دون أن يكون لديه وعي مباشر بالمعلومات أو الإعلانات التي قدمت إليه. زعم أنه من خلال استخدام الطرق العلمية، يستطيع الوصول إلى أجزاء من عقل المستهلك لا يمكن للإعلانات العادية الوصول إليها. فيكاري، مثل ديشتر، كان مدافعاً شرساً عن عمله الخاص ويروّج له؛ وقد أشار إلى أن الصور التي تُعرض في دور السينما يمكن أن تظهر ظهوراً سريعاً لدرجة أن الناس لن يلاحظوها بوعي. كما أكد أن هذه الطريقة يمكن أن تقنع المشاهدين بشراء منتجات معيّنة أثناء الفواصل، مثل الكوكا كولا أو الفشار. فمثلاً، الرسالة التي تطلب معرفة ما إذا كنت جائعاً وتليها دعوة لـ"تناول الفشار"، كانت تهدف لإثارة شعور قوي لدى الجمهور لشراء الفشار. أشاد فيكاري بهذه الفكرة كتطور كبير في مجال الإعلانات وذلك بفضل هذه الأساليب السريعة، لكنه لم يتمكن من تكرار تجاربه بطريقة صحيحة تؤكد النتائج التي ادعاها في تجاربه الأصلية، وفي النهاية، تجاهل عمله الآخرون واعتبروه مخادعاً.

تعرضت رسائل الإقناع الباطني أو اللاواعي، بعد ادعاءات فيكاري الأولية، لانتقادات حادة كتقدم مقلق في مسارنا الحديث نحو السحر الشامل. اعتُبرت شكلاً

1 'The Art of Persuasion', radio transcript, Packard Papers, Box 21, Folder 15, 'TV-Radio, 1957-58'.

حقيقياً لغسيل الدماغ؛ وسيلةً علميةً للتلاعب الخفي بأفكار الأشخاص بلا وعي منهم. لفتت هذه الفكرة انتباه الصحافيين الذين ناقشوها مفصّلاً. توقعوا نهاية صنع القرار العقلاني وبداية عصر جديد يمكن فيه التحكم في العقول لأغراض تجارية. وصفت جريدة *Newsday* هذه الطريقة التي طورها فيكاري بأنها "أخطر اختراع منذ القنبلة الذرية".[١] وفي الوقت نفسه، ألمح ألدوس هكسلي، المشهور بروايته **عالم جديد شجاع**، إلى احتمالية اختفاء الإرادة الحرة تماماً.[٢]

يعتقد المؤرخ دومينيك ستريتفيلد Dominic Streatfeild أن مستوى القلق كان مبالغاً فيه. لو نجحت تلك التجارب كما كان متوقعاً، كان من الممكن أن يجد الناس صعوبة في عدم شراء كوكا كولا أو سجائر Camel أو التصويت للحزب الجمهوري.[٣] منذ ابتكارها، أثارت السينما مخاوف شديدة حول التأثير الجماعي الخفي الذي يعمل على مستوى اللاوعي. على الرغم من تشويه عمل فيكاري، لا تزال فكرته تشير إلى وجود أساليب إقناع أكثر فاعلية وسيئة في المستقبل. باكارد ركز على هذا الأمر كـ"ظاهرة نشأت بعد الحرب"، فاستشهد بمقالات صحافية حذرت من مخاطر "تأثيرات الحد الأدنى".[٤] حذر من سوء استخدام المعرفة النفسية لدى الخبراء النفسيين، مشيراً إلى مقال بعنوان "How Psychiatric Methods Can Be Applied to Market Research" [كيف يمكن تطبيق الطرق الطبية النفسية في البحث السوقي] في المجلة التسويقية *Journal of Marketing*. تستمر الجدالات اليوم حول "رسائل دعائية خفية" تشير إلى إدراج رسائل أو طرق دعائية مخفية داخل الإعلانات أو الرسائل التسويقية، والتي لا يلاحظها الجمهور على وجه السرعة رغم أنها تؤثر فيه دون وعي. تركز الدراسات على استكشاف كيفية استخدام الحيل البصرية وإدراج الصور الغامضة أو غير الواضحة في الصور الفوتوغرافية العادية أو الواضحة. يمكن أن يكون هذا الاهتمام ناتجاً عن الرغبة

---

١ مأخوذ من كتاب *Brainwash* [غسيل الدماغ] للمؤلف Streatfield ص. ١٩٣.

٢ المرجع السابق. هذه الأفكار المخيفة حول غسيل الدماغ أو التحكم غير القابل للمقاومة في العقول عبر الاضطرار إلى مشاهدة صور متغيرة بسرعة على الشاشات استُخدمت أيضاً في قصص وأفلام مشهورة مثل *A Clockwork Orange* [برتقالة آلية] و*The Parallax View* [مشهد المنظر].

3 Streatfeild, *Brainwash*, p. 193.

٤ انظر إلى السرد في محاضرة Packard المعنونة:

'The Picture Persuaders'; Packard Papers, Box 21, Folder 14, pp. 16–18.

في فهم تأثير هذه الصور على الرؤية أو الاستجابة العقلية للمشاهدين أو القراء؛ في استكشاف الطرق التي يمكن بها استخدام هذه الصور للتأثير على التفاعلات البصرية.

الإعلان الذي نشرته شركة Benson & Hedges للتبغ عام ١٩٧٦ في مجلة *Time* يُعتبر مثالاً لافتاً، أو ربما تعليقاً ساخراً على هذه الأساليب. الإعلان عبارة عن صورة لزوجين شابين في احتضان عاطفي: إذا نظرت بعناية، قد تلاحظ شكلاً يشبه العضو الذكري، مرسوماً على ظهر المرأة العاري. ليس هذا الشكل واضحاً على الفور، وربما يكون غير ملحوظ لبعض المشاهدين في البداية، ولكن بمجرد أن يتم التركيز عليه، يمكن رؤيته بوضوح، تحت يد الرجل وهو يمسك ظهرها. الاحتضان قد يوحي بأنها تتخذ الزمام وتتقدم نحوه، وتتوقع المزيد، أما تعبير وجه الرجل، فقد صُمّم عن قصد كي يكون غامضاً؛ يترتب على المشاهد أن يحدد ما إذا كان يعكس ثقةً أم قلقاً. فوق الصورة، يقول النص: "إذا كنت قد فشلت مع علبة السجائر الناعمة، جرب علبتنا الصلبة". تستهدف الرسالة الدعائية السرية أو الواضحة مخاوف الرجال من العجز الجنسي، وتقدم لهم فهماً أو حلاً، أو ربما حتى خيالاً جنسياً. من ناحية أخرى، يمكن تفسير الرسالة والصورة على أنها نكتة داخلية بين المعلن الذكي والمشاهد الذكي أو المتأثر الذي يُعتبر واضحاً كرجل في هذه الحالة.[١]

على الرغم من أن الناس يتحدثون كثيراً عن الرسائل الخفية اللاواعية في الإعلانات، فالمشكلة الحقيقية أننا في كثير من الأحيان لا نعلم أو نوافق على الكثير من الأمور التسويقية التي تحدث. تُجمَع معلوماتنا دون علمنا الكامل، وهذا يؤثر في شعورنا بالأشياء التي قد نرغب في شرائها. أحياناً نولي اهتماماً جزئياً للإعلانات، إذ نرى الصورة فقط دون أن نفكر فيها حقاً، ولكن هذه الإعلانات تعمل جيداً حينها. في ما بعد، عندما نفكر في الذهاب إلى السوق للتسوق أو حينما نرى سلعةً معيّنة، قد نشعر فجأةً بالرغبة في علامة تجارية معيّنة من شيء مثل حبوب السعال أو الأحذية الرياضية. يحدث هذا بسبب كل الإعلانات التي رأيناها دون أن نلاحظها بصورة كاملة. فكّر في الوجبات السريعة اليوم؛ أحياناً تشتهي شيئاً معيناً مثل Big Mac أو KFC، ليس فقط

---

١ أعتمد هنا على مناقشة هذه الصورة في كتاب:

August Bullock, *The Secret Sales Pitch: An Overview of Subliminal Selling* (San Jose, 2004), pp. 12–14.

لأنك جائع، ولكن بسبب كل الإعلانات التي تجعلك ترغب في ذلك، حتى عندما لا تكون جائعاً حقاً. لذا، فالأمر ليس فقط عن الطعام نفسه أو السعر، بل عن كيفية جعلنا، بفضل الإعلانات، نفكر في ماذا نأكل بعد، سواء كنا جائعين أم لا.[١]

بصورة أكبر، الإعلانات عموماً لا تركز فقط على فكرة التأثير أو غسيل الدماغ الخفي واللاواعي، بل على تأثيرات التكرار المتراكم للصور والألحان والعبارات التي نسجلها، على الأقل إلى حد ما، بوعي. هذه الانطباعات تترسخ في عقولنا في كثير من الأحيان، ولا يمكننا التخلص تماماً منها. حملات الإعلانات عادةً ما تحتاج إلى تكرار مستمر؛ إذ يُعرض الإعلان نفسه مراراً وتكراراً، وذلك لجعل الصور والشعارات والألحان تبقى في أذهاننا وتشجعنا على الشراء.

ليست الإعلانات فاعلة بسبب جاذبيتها الكاملة، بل بسبب تكرارها وتأثيرها المستمر في عقولنا. تفهم الإعلانات مواقفنا المترددة تجاه الواقع وتقدم لنا مشاهد تعتمد على الخيال والأحلام ورغبتنا في الهروب من الواقع. غالباً ما تستغل الإعلانات تفضيلنا للانغماس في الخيال، حتى لو كنا ندرك ذلك جزئياً. بعض النقاد سبق أن أشاروا إلى حالات نوم إيحائي أو تأثيرات مغناطيسية تصيب الناس أثناء تجوالهم في السوبرماركت، ولكن بصورة عامة، تعمل الإعلانات على إقناعنا تدريجاً. هدفها هو بدء حوار معنا لفهم ما نرغب فيه ولماذا نرغب فيه وما نحاول تجنبه. كما أشار باكارد، تسعى الإعلانات لفهم الأسباب وراء سلوكنا، سواء كان الخوف من البنوك، أو تفضيلنا للسيارات الكبيرة، كما تسعى لفهم سبب اختيارنا للمنازل، أو العلاقة بين نوع السيارة التي نقودها ونوع البنزين الذي نشتريه، أو حتى سبب إعجاب الأطفال بحبوب الإفطار التي تظهر بشكل مثير في الإعلانات من خلال تأثيرات خاصة أو رسوم متحركة ليست جزءاً من الواقع.[٢]

يتلقى الناس العديد من الرسائل التي يصعب نسيانها تماماً، وتؤكد هذه الرسائل

---

1 Robert Heath and Paul Feldwick, ‘Fifty Years Using the Wrong Model of Advertising’, *International Journal of Market Research*, 50:1 (2008), 29–59. Cf. Rory Sutherland, ‘Reliable Signals in a Post-Truth World’, Barb, 27 April 2017, www.barb.co.uk/viewing-report/reliable-signals-in-a-post-truth-world/.

2 Packard, *The Hidden Persuaders*, p. 32.

أهمية أن يكونوا مستهلكين بارزين ضمن مجموعة كبيرة من الأشخاص الآخرين الذين يستهلكون أيضاً. في تلك الحقبة، كان هدف النقاد للإعلانات إظهار كيف تخترق هذه الرسائل أفكارنا الشخصية والمساحات التي نشاركها اجتماعياً مع الآخرين. كان باكارد فاعلاً في تسليط الضوء على الجهود الإعلانية الخفية الواسعة التي تُنفَّذ وراء الكواليس لتتجاوز حواجزنا، فقدم صورة لكيفية صنع هذه الرسائل الإعلانية لخداعنا وإقناعنا بأننا نتمتع بحرية كاملة في اتخاذ القرارات في مجتمع يعتمد على الأسواق الاقتصادية وفي سياق ديموقراطي ليبرالي.

كان عمل باكارد مهماً في فهم التحكم الفكري الحديث، إذ تناول مشاكله مع الجوانب النفسية في الإعلان. يُعتبر هذا العمل مساهمةً أساسيةً في الأفكار التي تدور حول التحكم الفكري الحديث، وهو أساس للكتاب الحالي. تحوي ملفاته، المحفوظة الآن في جامعته السابقة في ولاية بنسيلفانيا، البحوث التي أجراها حول هجمات الشركات والسياسة والعلم على قدرات التفكير، وحق الجمهور في الحياة الخاصة. تتضمن هذه الملفات مقتطفات نقدية وتأملات حول المخدرات وعلم النفس والمراقبة، بالإضافة إلى أشكال مختلفة من "تشكيل الأفراد" التي استكشفها في مرحلة لاحقة من مسيرته الكتابية.

سعت هذه الانتقادات الحادة لتقنيات الإعلان في الخمسينيات والستينيات لتوفير تحليل مفيد من شأنه تمكين المستهلكين من اتخاذ قرارات مستنيرة والعيش كمواطنين سياسيين يحققون خياراتهم الحرة. كان هدف هذه الانتقادات أيضاً إظهار أن الإعلانات يمكن أن تؤثر في الجنسين. ومع ذلك، كانت هناك بعض الدراسات، بما في ذلك عمل باكارد، توحي عن دون قصد بأن النساء ربما تكون أكثر قابليةً للتأثر والعاطفية من الرجال، مما يستدعي حمايةً إضافيةً لهن من تأثيرات التسويق الحديث. هذا النوع من التصوير يمكن أن يكشف مجتمعاً يعتبر كل من الرجال والنساء فيه سهلي الانقياد للإعلانات، مما يعزز المفاهيم القديمة حول النساء، عِلماً أن النساء كانت تسعى جاهدةً لتحدي تلك المفاهيم. لتحقيق توازن وتقديم نقد شامل يتناسب مع وجهات نظر مختلفة وافتراضات سابقة، كانت هناك حاجة لإجراء أبحاث أكثر تفصيلاً وتعقيداً.

تفاعل الأكاديميون لاحقاً مع ما كشفه باكارد، وأوضحوا أن الوضع أكثر تعقيداً مما كان يُعتقد في البداية، وأن الناس ليسوا مجرد "عجينة لم تُعجَن بعد" بيد شارع ماديسون، كما ارتأى بعض مؤيدي باكارد في البداية.[1] أبرز الباحثون، على سبيل المثال، أنّ هناك عواملَ عدة يمكن أن تلعب دوراً بين الرسالة ومستلمها. بصيغة أخرى، كانت هناك حدود على قدرة مؤثري وسائل الإعلام الجماهيرية على تحقيق أهدافهم من خلال إرسال الرسائل للجميع، فالأشخاص لديهم خلفيات وتجارب وعمليات معرفية فريدة تشكل كيفية تفسيرهم واستجابتهم لرسائل وسائل الإعلام بطرق متباينة.

مثل مراسلي باكارد وقرائه الحماسيين، أكد هؤلاء الباحثون النقاد أننا لا نستقبل الصور أو نختبر عملية الإعلان بالطريقة نفسها. لدينا قصص حياتنا الخاصة وذاكرتنا وتجاربنا وآلامنا، وتصوراتنا وأحلامنا الخاصة، ولدينا قدرات متفاوتة في مقاومة الإعلان، فهو ليس مادةً تسبب لنا النوم العميق أو تُدخلنا في حالة غيبوبة، أو تلغي إرادتنا الحرة. في الحقيقة، هناك كتاب إبداعي *Personal Influence* [التأثير الشخصي على الآخرين] ظهر في عام ١٩٥٥، قبل نشر كتاب باكارد الشهير، من تأليف إيليهو كاتز Elihu Katz وبول لازارسفيلد Paul Lazarsfeld. أشار الكتاب في دراسته إلى كيف أن الأفراد ليسوا مجرد إسفنج يمتصون الاتصالات الجماهيرية، بل يتفاعلون معها ويتأثرون بها، فالظروف الشخصية والبيئة المحلية والعلاقات الاجتماعية والسياق الثقافي الأوسع، بحسب تأكيدهم، يؤثرون تأثيراً عميقاً في استقبال أي مستهلك أو مواطن للرسائل واستجابته لها.[2] كما شجعت هذه الدراسة على المزيد من النقاش حول كيفية استيعاب الطفل

---

١ في إصدارٍ لاحق من كتاب Packard، استخدم الناشرون عبارة من مراجعة نُشرت في مجلة *New Yorker* حول *The Hidden Persuaders* في الدعاية والإعلان، وجاء فيها: "شرح سريع وواثق ومخيف لكيفية محاولة الشركات وجامعي التبرعات والسياسيين تحويل عقل الأميركيين إلى جماعة ساكنة تشتري أو تتبرع أو تُصوّت حسب الأوامر التي تتلقاها".

٢ يمكن الرجوع إلى الكتاب التالي:

Elihu Katz and Paul Lazarsfeld, *Personal Influence: The Part Played by People in the Flow of Mass Communications* (New York, 1955).

ويمكن الاطلاع أيضاً على المقال التالي:

Peter Simonson, 'Politics, Social Networks, and the History of Mass Communications Research: Rereading Personal Influence', *Annals of the American Academy of Political and Social Science*, 608 (November 2006), 6–24.

للإعلانات على الشاشة، ومدى تأثر استقباله بما يحدث في الأسرة، وطبيعة العلاقات بين أشقّائه، وتوجهات الوالدين ومجموعة من العوامل الأخرى.

في إعلانات Benson & Hedges، يكشف المعلنون، سواء بمساعدة ديشتر أو من دونه، فهمهم لأفكار فرويد المتعلقة بحالاتنا المنقسمة وأمانينا وعدم ثقتنا بأنفسنا، فكانوا مدركين لوجود وجهات نظر متعددة لدينا، سواء كانت واعيةً أم لا. لا يلزم أن يكون الإعلان فاعلاً بمثل هذه الشروط المتطرفة، ولا حتى يلجأ إلى غسيل الدماغ. بينما تُعامِل بعض حملات الإعلان الأفراد كأطفال، تلتزم مع آخرين بإجراء حوار ناضج ومعالجة الأمور بحذر في مواجهة صراعاتهم النفسية، دون اللجوء إلى تكتيكات البيع القوية. وكما وصف فرويد ورأى بعض المعلنين، يخوض الأفراد صراعات نفسية متعددة تحدث بين مكونات مختلفة في العقل. وفقاً للنظرية النفسية، يشير فرويد إلى أن الأنا، وهي واحدة من العناصر الثلاثة في الهيكل النفسي، تمثل الوعي والحس والتصرف، وتحاول التوسط بين القوى الناتجةِ عن الهو (الجانب الغريزي والرغبات غير المشروعة) والأنا العليا (الذي يحترم القواعد والأخلاق والضمير). يمكن وصف هذا التوسط بمحاولة تلبية مطالب الواقع والحفاظ على التوازن بين الغرائز والطموحات الشخصية والقيم والمعايير الاجتماعية، وفي تشبيه فرويد البارز، وصف الأنا بمن يحاول توجيه حصان بري يميل إلى الفرار بصورة متوقعة. حتى الأنا، أضاف، تكون جزئياً تحت حدود الوعي، مما يجعلنا غير مدركين تماماً لكيفية توفيقها بين الرغبات وقواعد الأخلاق، ولقمعها تلك الرغبات الفاضحة.

اعتبر فرويد أن الأحلام انعكاس للأماني، بين أمور أُخرى. في كتابه *The Interpretation of Dreams* [**تفسير الأحلام**]، وربما يكون كتابه الأهم، الذي نُشر في عام ١٩٠٠، رأى أن الأحلام قد تكون الطريق الملكي نحو اللاوعي. لم يتوقع قطّ أن تسعى المصالح التجارية للاستفادة من عمله إلى هذا الحد. كتاب **تفسير الأحلام** (المشار إليه أحياناً باسم "كتاب الأحلام") كان أساسياً لعلم النفس التحليلي، ومصدر إلهام لكثيرين في المجالات الفنية والعلمية والسياسية، وبالطبع في شارع ماديسون.[١]

1 Freud, *The Interpretation of Dreams*, 1900, in *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud* (London, 1953), vols 4 and 5.

من المهم أن نلاحظ التحفظات لدى فرويد حيال أميركا بصورة عامة والتحليل النفسي الأميركي بصورة خاصة. لم تُلحَظ نداءاته للحفاظ على ما أسماه "تحليل الأشخاص العاديين" بحيث يُجرى العلاج على يد ممارسين عاديين ليسوا أطباء في الأساس لمدة طويلة في العالم الجديد. أجرى فرويد رحلةً واحدةً فقط إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٠٩. على الرغم من رؤيته للتحليل النفسي كعلم جديد (وكان متعمقاً جداً في العلم)، كان غير مرتاح بشأن تطبيع تخصصه الطبي، وتشويهه وتحويله لتجارة. زيارته لأميركا والضجة المصاحبة لها ألهمت العديد من الأميركيين للتفكير في فوائد (ومخاطر) التحليل النفسي، وفي استكشاف تطبيقاته المحتملة ليس فقط في العلاج ولكن أيضاً في الأعمال الأكاديمية والسياسية والتجارية. تأسست معاهد لمتابعة أساليب فرويد وتدريب الطلاب الممارسين. نما تأثير الفكر التحليلي في الولايات المتحدة نمواً كبيراً في مرحلة ما بين الحربين العالميتين. بحلول الأربعينيات والخمسينيات، أصبحت بعض مصطلحاته جزءاً من المحادثة اليومية لملايين الأشخاص؛ فكرة البحث عن العلاج، والاستلقاء على الكنبة والتفكير الحر في جلسات علاج غير محدودة كانت مفهومةً جيداً، وكانت نقطةً مرجعيةً مفترضةً في الثقافة الشعبية بعد الحروب. ومع ذلك، ما برح "العلاج النفسي التحليلي بالمحادثة" دائماً يواجه تحديات مستمرةً من نظريات وأشكال علاجية أخرى، خاصةً في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، عندما كان "العلاج السلوكي المعرفي" من ناحية، والأدوية مثل Fluoxetine من ناحية أخرى (تُباع بشكل رئيسي تحت اسم تجاري Prozac)، يوصَفان على نحو متزايد ونطاق واسع. ومع ذلك، في معظم القرن الماضي، بات للفكر الفرويدي وممارسته تأثيرٌ عميق على كيفية فهم الكثير من الناس في الغرب، وخاصة في الولايات المتحدة، لعقولهم الخاصة.

كان إدورد بيرنيز، ابن شقيقة فرويد، من الرائدين الذين سعوا إلى استخدام أفكار التحليل النفسي في العالم التجاري. مثلما فعل ديشتر في وقت لاحق، حقق بيرنيز مسيرةً مهنيةً ناجحةً للغاية في الولايات المتحدة،[1] حيث هاجرت عائلته من فيينا إليها في القرن

١ ظهر عمل Bernays المؤثر في مجال العلاقات العامة بعنوان *Public Relations* [علاقات عامة] في عام ١٩٤٥. يمكن أيضاً الرجوع إلى دراساته السابقة:

Crystallizing Public Opinion [1923] (New York, 1926) and *Propaganda* [1928] (New York, 2004).

التاسع عشر. تخرج بيرنيز في جامعة كورنيل عامَ ١٩١٢، وبحلول العشرينيات، كان يحقق نجاحاً باهراً بوصفه مستشاراً في العلاقات العامة ومعلقاً في السياسة الحديثة وثقافة الأعمال بصورة عامة. كان بيرنيز سابقاً لكل من باكارد، الذي كان يعتبر القلق من الإعلان والنقد ضده جزءاً أساسياً من منهجه، وديشتر، الذي كان الداعم الرئيسي للبحوث التحفيزية التسويقية. بدأ بيرنيز في تأجير خدماته لعملاء الشركات في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، قبل أن يؤسس ديشتر معهداً خاصاً به وبنهجه. وضع بيرنيز الأسس، مؤكداً أهمية أن تولي الشركات اهتماماً بعلم النفس، وأحياناً بصورة مباشرة بعلم النفس الفرويدي. ما قام به بيرنيز لم يؤثر سلباً فيه، إذ كان يملك معرفةً مباشرةً من عمه الكبير فرويد، مما جعله قادراً على الاستفادة من هذه المعرفة أو فهم أفكار فرويد المعقدة.

كان عمل فرويد يختلف تماماً عن عمل بيرنيز أو ديشتر، والقليل يعلم عن رأي فرويد في مشروع ابن شقيقته. قد يكون بيرنيز باع فكرة التحليل النفسي للشركات، لكنه كان أيضاً يحمل مهمةً اجتماعيةً وسياسيةً بوضوح. ركزت هذه المهمة على دعم الولايات المتحدة ودعم قيم الليبرالية التي اعتبرها أساسيةً ولائقة، وقدمت تحليلات مقلقةً حول قوة الخبراء في الدعاية الفاشية والنازية في أوروبا وكيف استغلوا اللاوعي. على سبيل المثال، مع صعود الحزب النازي للسلطة، حذر بيرنيز من مهارة الخبراء المخفيين في التواصل الجماهيري مثل جوزيف غوبلز Joseph Goebbels، الذين كانوا يفهمون جيداً كيفية استخدام التقنيات البلاغية لجذب الجماهير وتحفيزها وتكريس الكراهية وتحريض الرغبات القاتلة. في عقدَي العشرينيات والثلاثينيات، قدم بيرنيز رؤيته لحرب تُشَنّ على القيم المتحضِّرة، إذ أشار إلى أن الديموقراطيات يمكن أن تنهار وتسقط حتى في الدول التي تبدو فيها هذه الأنظمة مستقرة. كان يهتم بكيفية تلوث العقول وتسميمها وإرباكها أو غزوها في أي مكان.

ظن بيرنيز أنه على الرغم من وجود مزيج من المشاعر لدى الجميع، بما في ذلك الكراهية، فالأشخاص لا يولَدون فاشيين أو نازيين، بل يمكن زرع الأيديولوجيات وتنميتها ونقلها بسرعة، خاصةً في الظروف الملائمة مثل البؤس والفقر والبطالة وعدم اليقين والفوضى، وما إلى ذلك. أصر على أن الولايات المتحدة يجب ألا تكون مرتاحةً أبداً تجاه الشعبوية والديماغوجية؛ كانت الديموقراطية الليبرالية بحاجة إلى دعم

واستخدام الدعاية بفعالية، إذ كان استخدام مهارات التواصل العاطفي ضرورياً للدفاع عن الحرية ومواجهة التسلح والسلطوية وكراهية العنصرية.

حسب رؤية بيرنيز، كان على جميع الدول الحديثة والشركات الحديثة المبدعة أن تدرك تماماً كل من المخاطر والفرص التي يقدمها علم النفس الحديث، وأن تفهم التقدمات التي أُحرزت خصوصاً في فهم الجوانب الأكثر ظلمةً للسلوك البشري. انخرط فرويد وبيرنيز في استكشاف كيفية عمل الجماعات وكيف أن لكل فرد القدرة على سلوك غير متوقع أو متطرف، خاصةً عندما يكون تحت ضغوط شديدة أو توترات كبيرة. كتب بيرنيز: "أولئك الذين يديرون هذه الآلية غير المرئية للمجتمع، هم الذين يشكلون حكومةً غير مرئية تمثل السلطة الحقيقية في بلادنا. نحن نُحكم، وعقولنا وذوقنا يتشكلان، وأفكارنا تُقترح إلى حد كبير من أشخاص لم نسمع بهم من قبل... أشخاص يجرّون الخيوط التي تسيطر على العقل العام، ولهم تأثير كبير على آراء الجمهور ويستخدمون القوى الاجتماعية القديمة ويبتكرون طرقاً جديدةً لربط العالم وتوجيهه".[1]

بصورة لافتة، كان تاريخ الفكر في مجال الإعلانات غالباً ما يندرج في إطار مناقشات أوسع حول طبيعة العقل وآفاق المستقبل للديموقراطية. السؤال الأساسي كان: كيف يمكن التعامل مع عالم يُعرض فيه السحر الجماهيري باستمرار، والذي يمكن أن يتم تنظيمه بصورة محتملة من وكالات متطورة للغاية تعتمد على العلوم الإنسانية؟ لذا، بدءاً من النظريات الضيقة عن كيفية بناء حملة معيّنة لتحفيز خيال الجمهور حول منتَج معيّن، كان النقاد ينتقلون إلى الأسئلة المتعلقة باللاوعي وكيفية تأثيره على علم النفس الجماهيري. كانوا يرغبون في النظر إلى الخط الغامض الذي قد يمشيه الأفراد بين الرؤى الواقعية للعالم المادي، وهذه الأبعاد الخيالية للفكر والأماني والحنين التي تشكل السلوك والاختيار.

في ما يتعلق بالرسائل الدعائية الخفية والاستجابة الأتوماتيكية اللاواعية لها، كانت المشكلة الحقيقية أكثر بساطةً وتتعلق بالحياة اليومية العادية: نحن جميعاً نتأثر بالأحلام غير الواعية ونميل للانغماس في عوالم الخيال أثناء يقظتنا. إدراكاتنا الواعية دائماً ما تكون مظلَّلة بأفكار غير معروفة بالنسبة إلينا، والمسوقون والمعلنون لديهم مهارة في

1 Bernays, *Propaganda*, pp. 38–9, 17–20.

الاستفادة من ذلك. لذا استعرض باكارد مثالاً شائعاً، إذ يضع تجار السيارات الطراز الأنيق والأسرع في بداية المعرض أي النوافذ الأمامية له، فكان الهدف من ذلك لفت انتباه الرجال بعرض السيارات الفاخرة والمكشوفة أولاً. عندما يدخل المشتري المعرض، قد يجد نفسه مضطراً للتفكير في جوانب عملية بدلاً من الحلم بتلك السيارة الموضوعة في النوافذ الأمامية، مثل عدد الركاب أو كمية الأمتعة التي يحتاجون نقلها. في النهاية، يفضل معظم الناس اختيار السيارة الأكثر عمليةً واقتصاديةً والتي عادةً ما تكون في الأجزاء الداخلية للمعرض. كانت النقطة المحورية هي جلب انتباههم في البداية وتحفيز رغباتهم من خلال "الحلم" الذي يظهر في النافذة أو الشاشة؛ فهذه النظرة الإعجابية من المشتري قد تزيد من احتمالية أن يدخل المعرض ويصبح عميلاً، حتى لو لم يختر شراء المنتج "الحلمي" الأول الذي أثار إعجابه في بداية المعرض، مثل تلك السيارة الرياضية اللامعة ذات المقعدين.

في ذلك الوقت، كان تسويق السيارات المرتكز على الراحة والاستمتاع بالقيادة غالباً ما يستهدف الرجال الذين يُعتقد أنهم السائقون المحتمَلون أو على الأقل المسؤولون عن الشؤون المالية الكبيرة للعائلة. ومع ذلك، كانت العديد من نوافذ المحلات مصممة خصوصاً لجذب انتباه النساء أيضاً، فكانت الإعلانات لكل شيء، من السيارات إلى الأثاث ورحلات العطلات، تتجه أكثر نحو زيادة قوة الإنفاق لدى النساء. صُمّم هذا التوجه لدخول عالم علاقاتهن المعقدة مع الاستهلاك والصحة والأسرة والعمل والخيال والرومانسية والجنس وحتى الهروب من الروتين اليومي أو القيود المجتمعية المفروضة عليهن. حملات الدعاية للسجائر، على سبيل المثال، كانت تستهدف النساء بشدة، وتُطمئن بأن تعاطي التبغ كان جيداً حقاً: "اختري سيجارة لاكي بدلاً من الحلوى". كانت هذه النصيحة المطَمئنة للزبونات تأتي من الأطباء الذين يظهرون في البرامج التلفزيونية أو الإعلانات، وكانت الإعلانات التي ظهرت فيها الأطباء شائعةً في مرحلة ما بين الحربين العالميتين وبعدها، وكانت تدعم منتجاتها بشهادة طبيب يقول إن المنتج ليس ضاراً، وربما حتى مفيدٌ للصحة، بالإضافة إلى أنه يمثل أسلوباً أنيقاً في الحياة دون مجهود.

الفكرة بأن تقنيات الإعلان تعمل تماماً خارج إدراكنا هي موقع جدل. يتقن معظم الأشخاص مع الوقت أنهم يتعاملون مع قصة يُروج لها، وليست فقط "حقائق"، وهم

يدركون أثناء مشاهدتهم أو استماعهم أن هناك مصلحةً مباشرةً لدى البائعين، وأن عناصر الخيال والواقع متداخلة في رسائل التسويق. في الواقع، عندما تعمل الإعلانات بجدية زائدة، وتنكر العناصر الترفيهية، قد تكون مثيرةً للاشمئزاز، مثل شخص يبذل جهداً جاداً، لكن من دون جدوى. أصبح واضحاً منذ زمن بعيد لدى جميع المستهلكين وكثيرين أن الإعلانات تتمتع بالرموز والتصورات، وتثير الخيال، أو في بعض الأحيان تدعونا للتفكير بطريقة ساخرة أو مضحكة حول الصور الخيالية التي تظهر في الإعلانات، سواء كانت هذه الإعلانات في الواقع الفعلي أو في الواقع الافتراضي. بعد كل ذلك، يمكننا قراءة حقيقة تقول إن الإعلانات التي تروج للسيارات تقدم نوعاً من الحلم البعيد المتعلق بالسائق والراكب، أملاً في الهروب الكامل، وأملاً في طريق مفتوح وغير محدود، وحتى طريق نحو الجنة. قد تكون الرسالة بفعالية كهذه رغم بعدها عن الواقع.

بين تحذيرات بيرنيز وتطبيقات علم النفس في التجارة والسياسة في العشرينيات والثلاثينيات، وبين انتقادات باكارد وغيره في الخمسينيات، تغيّر الكثير؛ بدأت الإعلانات تبدو أكثر سلاسةً واكتمالاً، وأصبحت أكثر تعقيداً في استراتيجيتها مع مرور الوقت. استُخدمت المجلات الفاخرة والصحف ولوحات الإعلانات والمكالمات الهاتفية الباردة والمراسلات البريدية والراديو والسينما والتلفزيون، إمّا بصورة منفردة وإمّا مدمجة في حملات مستمرة. فأصبحت الشركات بل الأحزاب السياسية في الولايات المتحدة وبريطانيا، لا الشركات فحسب، مضطرةً لإنفاق ثروات طائلة على فرق من الخبراء في مجال الإعلانات. في أول انتخابات وطنية شاركت فيها، لعبت شركة Saatchi & Saatchi دوراً بارزاً وأصبحت مشهورةً عالمياً بفضل عملها نيابةً عن الحزب الحاكم. كانت الصور البارزة لأشخاص مكتئبين في طوابير تحت عنوان "العمل ليس مجدياً" معروضةً في الأماكن العامة واعتُبرت أعمالاً فاعلةً للإقناع، حتى بالنسبة إلى العديد من الناخبين من الطبقة العاملة. وعلى الرغم من أن الأثر الدقيق لمثل هذه النشرات على الحملة الانتخابية نوقِش لمدة طويلة، فإن الانتخابات في عام ١٩٧٩ شهدت، كما وصفها أحد المعلقين، "قفزةً نوعيةً في التسويق لمصلحة مارغريت تاتشر والحزب المحافظ".[١]

---

1 Margaret Scammell, *Designer Politics: How Elections Are Won* (Houndmills, 1995), p. 2.

هناك فرق كبير بين ثمانينيات القرن الماضي وعشرينيات القرن الحالي في ما خصّ التطور التكنولوجي والثقافي وسرعة التغيير، فأصبح الوضع أكثر تحدّياً مما كان عليه في الخمسينيات وحتى الثمانينيات، مع انهيار التضامن بين الطبقات الاجتماعية وتراجع الولاء المطلق للأحزاب السياسية. من غير الواضح كيفية فهم ما يحدث لنا جميعاً وتفسيره: كيف تتطوّر الاتجاهات، ما الذي يسبب نمو حركة معينة، ما الأخبار المبالغ فيها، كيف يؤثر المؤثرون في الرأي العام، وكيف نفهم الاتجاهات والتنظيم في السياسة والتجارة في هذا العالم الجديد المحكوم بالخوارزميات. إنه عالم ينشأ الأطفال فيه ويكبرون وهم يتصفحون وينقلون عبر الأجهزة اللوحية والهواتف، ويقضون وقتاً طويلاً على منصات التواصل الاجتماعي مثل فايسبوك وسناب شات وإنستغرام وتويتر وتيك توك وغيرها؛ إنه عالم يؤثر فيه المستهلكون كثيراً على بعضهم بأشكال مختلفة. كيف سيفهم باكارد كل هذا؟

في الوقت الحالي، يتعلم الأشخاص كيف يتفاعلون مع العرض اللامتناهي من المنتجات بطرق متعددة. يتعلمون كيف يختارون رسائل الإعلانات ويقاومونها، سواء أحبوا أو كرهوا، وكيف يتعاملون مع الإعلانات التي تقاطع مساراتهم مراراً وتكراراً. يحاولون إيجاد طرق خاصة بهم، ولكن أحياناً يفشلون ويصطدمون بالإعلانات التي صنعها خلفاء شركات الإعلان في الخمسينيات. قد يحاولون تجنّب التحدّيات والصعوبات الواضحة، لكن الإعلانات تعرفهم أيضاً، وتجعل تجربتهم مصمَّمة بدقة لما يرغب المعلنون في تحقيقه، أو تقودهم للشراء بناءً على إيمانهم بحكمة الجماهير في الشراء. لم يعد الأمر مجرد تصفح للمجلات الفاخرة، بل أصبح عالماً متنوعاً على الإنترنت يشمل القصص المدعومة من الرعاة، ومرشدي السفر الذين يقدمون معلومات عن الرحلات والسفر، والتوصيات والنصائح التي يقدمها الأشخاص لبعضهم عبر الإنترنت.

في عالمنا الحالي، يمتلك الخبراء، الذين يتبعون خطى ديشتر في الأبحاث، القدرة على استكشاف العمق في مختلف المواضيع، ولكن النتيجة، كما يشتكي العديد من الناس

راجع أيضاً:

Election Posters Around the Globe: Political Campaigning in the Public Space (Cham, 2017), edited by Christina Holtz-Bacha and Bengt Johansson, especially the Introduction and pp. 339–60.

اليوم، هي الشعور بقضاء أوقات طويلة أمام الشاشات والتجول عبر مساحات أكثر اتساعاً، مع استعراض محتويات الإنترنت بسرعة. يمكن أن تشبه هذه التجربة شعوراً عبثياً في عالم سطحي من البيع والشراء، حيث يقتصر الاهتمام على جمع مقتطفات من المعلومات: حقائق وآراء ونتائج بحوث، دون الوصول إلى فهم عميق، ورغم هذا التفاعل المتواصل، يظل هناك شعور شائع بعدم اليقين لدى الكثيرين منّا حول الاتجاه الذي نسلكه.

في عام ١٩٥٨، توقع الاتحاد الأميركي للإعلان (AAF) أن كتاب باكارد الصاخب والمثير للجدل سيكون ذا تأثير قصير المدى، وأن فكرته الأساسية حول المؤثرين الخفيين ستندثر بسرعة وتُنسى، لكن الحقيقة لم تكن كذلك.[١] لا تزال العديد من مفاهيمه وتصوراته ذات صلة اليوم، أو ربما لم تكن هذه المفاهيم مبالغات نسبةً للتطورات الإعلانية في عالم رأسمالي في القرن الواحد والعشرين، حيث تعتمد شركات التسويق العصبي على الأبحاث العلمية في علم الأعصاب وتحليل النشاط الدماغي (EEG) لفهم سلوك المستهلكين وتوجيه استراتيجيات التسويق والتسوق عبر الإنترنت والإعلان بما يتناسب مع تفضيلاتهم ورغباتهم العقلية غير المعلنة. هناك العديد من الأساليب والأجهزة تهدف لتقوية العلاقة بين المستهلك والمنتج (أو الرسالة عبر الإنترنت)، أو على الأقل تحاول تحقيق توافق مثالي وتجربة شراء أسهل وأنسب. بالإضافة إلى ذلك، يمكنك الدفع الآن عن طريق هاتفك، فليس هناك حاجة للنقود الورقية بعد اليوم. وصف أحد الخبراء التطورات الحالية في مجال الإعلانات قائلاً: "التسويق العصبي يمكنه قراءة 'همسات الدماغ السرية' لدى العملاء".[٢] إن الهدف من الدراسات التي تُجريها شركات التسويق العصبي هو ربما الوصول إلى هذه الهمسات، ولكن الهدف أيضاً هو أن تكون هذه الشركات وسيلةً للتواصل معنا.

تطورت التكنولوجيا تطوراً جذرياً، ومع ذلك، تظل طموحات الشركات في مراقبة

---

١ توقَّع Claude Robinson في اجتماع الـAmerican Advertising Federation في عام ١٩٥٨، كما ذكره Nelson في 'The Hidden Persuaders, Then and Now' ص. ١١٥.

٢ مذكور في المقال التالي:

Natasha Singer, 'Making Ads That Whisper to the Brain', *The New York Times*, 13 November 2010, www.nytimes.com/2010/14/11/business/14stream.html.

العقل والتلاعب به، وحتى بالدماغ، حيةً ومستمرة؛ الوسائل المتاحة اليوم لتحقيق ذلك أكثر تعقيداً بكثير من تلك التي انتقدها النقاد في الخمسينيات، وذلك بسبب الخيارات الإضافية والوظائف المعقدة، وبسبب استمرار الإعلانات في إقناعنا بشراء المزيد من المنتجات. قال الدكتور أ. ك. براديب A. K. Pradeep قبل بضع سنوات: "إذا أرادت الحملات الإعلانية النجاح، عليها أن تصل إلى مستوى اللاوعي في الدماغ؛ المكان الذي يتجه فيه المستهلكون للاهتمام الأولي بالمنتجات، والميل لشرائها، والولاء لعلامتها التجارية."

براديب، الذي يحمل دكتوراه في الهندسة، أسس شركة Neurofocus وأصبح الرئيس التنفيذي لها، وهي شركة تسويق عصبي مقرّها بيركيلي في كاليفورنيا. يعلن موقع الويب الخاص بالشركة أنها الرائدة في سوق استخدام الخبرات في علم الأعصاب في مجالات الإعلانات والعلامات التجارية وتطوير المنتجات والتعبئة والترفيه، كما يوضح كيفية استفادتها من مهارات خبراء تلقوا تدريباً في معاهد مثل معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وجامعة كاليفورنيا في بيركيلي وجامعة هارفرد (إلى جانب مؤسسات أخرى).[1] ويضيف براديب، بفخر ووضوح، أن الشركة تعتمد على تحليلات النشاط الدماغي (EEG) وأجهزة تتبّع العين لاستكشاف توجهات العملاء نحو رسائل المبيعات والمواقع الإلكترونية وعروض الأفلام، وكيفية "استجابة العملاء اللاواعية العميقة للمحفزات على نحو أساسي".[2]

الاتجاه الذي تسلكه الأبحاث المتطورة وتداعياتها المحتملة، والتدابير الاحترازية الضرورية، هي مواضيع حاسمة للنقاش. يحذر خبراء الإعلان من سيناريو محتمل في المستقبل حيث تمتزج أنشطتنا الإلكترونية السابقة بسلاسة مع حاضرنا. في هذا المشهد المتغير، هناك إمكانية أن تقدم لنا تفاعلاتنا الرقمية باستمرار المزيد من مجرد

---

1 Roger Dooley et al., 'Neuromarketing', *Neuroscience Marketing*, www.neurosciencemarkett ing.com/blog/companies/neurofocus.

٢ مذكور في مقال Singer وهو التالي:

'Making Ads That Whisper to the Brain'.

يمكنك مقارنة ذلك مع كتاب:

A. K Pradeep, *The Buying Brain: Secrets for Selling to the Unconscious Mind* (Hoboken, 2010).

عروض المنتجات، مما يعني أن تفاعلاتنا وأنشطتنا على الإنترنت قد لا تقتصر فقط على عروض السلع أو المنتجات، بل قد تشمل محتوىً ثقافياً متنوعاً وأخباراً وروابط اجتماعية وعناصر أخرى متنوعة. تُصمَّم هذه التفاعلات المختلفة لتناسب خصوصاً تفاعلاتنا ونشاطاتنا الرقمية الفريدة التي تتغير باستمرار.

يستكشف هذا الفصل كيف تحولت المناقشات التي كانت في الأصل تركز على فكرة غسيل الدماغ أثناء الحرب الباردة إلى استعراض مجال الإعلانات. ليس الأمر مجرد إعلانات، بل كيفية تسويق أسلوب حياة معيّن للأفراد في "عالم حر" يتماشى مع الرأسمالية أيضاً. حتى قبل ظهور المخاوف المتعلقة بـ"اقتصاد الانتباه" الذي يُعتبر توجيه الانتباه البشري فيه سلعةً قيّمة، عبّر بعض النقاد عن قلقهم إزاء أن الصناعة لم تكن تبيع مجرد منتجات، بل كانت تشكّل رؤيةً أوسع للأفراد حول معنى الازدهار الحقيقي. كان هؤلاء النقاد قلقين من أن الإعلانات لم تكن تقتصر على عرض منتجات، بل كانت تبني صورةً متقنةً للاختيار والحرية في حين أنها تؤثر بدقة على العوامل التي تحدد هذه الاختيارات في الواقع. في الأساس، لم يكن المعلنون يشجعون فقط على زيادة الاستهلاك، بل كانوا يشكلون أفكار الأفراد ومشاعرهم، ويمكن أن يتجلى ذلك في الإعلانات التي تروج لفكرة السعادة التي يمكن أن تحصل عليها من خلال شراء منتج معيّن، بينما قد تكون بعض هذه الادعاءات مبالغة، إلا أنها تحمل وزناً كبيراً ولا ينبغي تجاهلها كخيال أو وهم.

لا تزال الأسئلة التي أثارها جيل ما بعد الحرب تحتفظ بأهميتها مع تصاعد نوع جديد من الحرب الباردة (أو أسوأ) بين الولايات المتحدة والصين. إلى أي مدى يحظى الأفراد في كل مجتمع بحرية التفكير وتشكيل المستقبل بحكمة؟ ماذا ينبغي لي فعله إذا كان بإمكان التكنولوجيا قراءة كل نفس من أنفاسي وكل فكرة من أفكاري، سواء كنت في حالة نوم أو يقظة، وتحويلها بعد ذلك إلى إعلانات وأخبار سياسية مصممة للوصول إليّ؟ ماذا يعني إذا كنت "أنا" المنتَج عندما أتصفح الإنترنت؟ لنلقِ نظرةً على مسار بعض التفكير حول الإعلانات، بدءاً من باكارد في الخمسينيات وصولاً إلى الأدب الحديث حول الرأسمال المراقِب والدولة العميقة. دعونا ننظر إلى الحجج التي طرحها عالِم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي جان بودريار Jean Baudrillard خلال ستينيات القرن

الماضي؛ إنه مثال بارز على هذا الجهد المتواصل لتحديث السرد الإعلاني عقداً بعد عقد وفقاً لاحتياجات المستهلكين وتطورات التكنولوجيا، ولتحليل تأثير الإعلانات بصورة كاملة في تحديد ما نعتقد أنه واقعنا أو مفهومنا الطبيعي في حياتنا.

قدم بودريار تحليلاً وافياً لصناعة الإعلانات. في عام ١٩٦٨، في مرحلة احتجاجات كبيرة، كتب كتاباً يشير فيه إلى أن الناس كانوا يُدفعون للعيش ضمن ما أسماه "أيديولوجيا الديموقراطية" والاستهلاك. شرح أن الحرية في هذا السياق كانت تتمثل في فرص التصويت المتفرقة جنباً إلى جنب مع المشاركة المستمرة في السوق، وأكد أن الناس كانوا محفّزين على تجاهل قضايا مزعجة مثل السجون والبيوت العشوائية والحروب والهيمنة والإمبراطورية وعدم المساواة.

قال بودريار إننا، كجزء من هذه "الواقعية"، يتمّ إعلامنا باستمرار أن امتلاك أو اقتناء الأشياء سيجلب الرضا؛ ويُروج لنا الافتراض أن هذا النمط الاقتنائي يعادل التقدم الاجتماعي. رأى بودريار أن ليس كل واحد منّا فقط مغروراً بهذه الرغبات، ولكنه يتعرض باستمرار لضغوط وطلبات للانضمام إليها. هذه الهجمة مقنعة، ولكنها تعمل في الغالب حتى دون أن نلاحظها: كما لو أننا لا يمكن أن نحقق مهامنا في الحياة إلا من خلال انغماسنا الدائم في عالم مبني على التسويق، وكأن علينا أن نعيش في هذا المشهد، وأن نُدرَج كلاعبين في تلك المسرحية من السلع، مفترضين ألّا يجب أن تكون السلع ممتلكة فحسب، بل يجب التخلص منها بسرعة أيضاً؛ وكأن كل واحد منّا تعلّم لأن يكون في هذا الموقف كفرد اقتنائي، وفي دورة متسارعة ولا تنتهي.

اقترح بودريار أن صناعة الإعلانات في النهاية وصلت إلى أن تبيعنا قصةً نفسيةً حول الشعور بالرضا الشخصي؛ حيث بنت هذه الصناعة قصةً تربط الرضا الشخصي والنجاح بالمواد التي نشتريها، مثل آخر طراز لسيارة Citroën أو ملابس Dior. كان هدف بودريار في الواقع تحدي هذه الفكرة، مشيراً إلى أن الشراء والتملك ليسا الوحيدَين القادرَين على تحقيق الإنجاز الشخصي.[١] دعا الأفراد إلى تفكيك هذا السرد الذي يروج له الإعلان والتفكير فيه عقلياً، بدلاً من قبوله كحقيقة مطلقة. حالياً، تدعم الإعلانات

---

١ أشار Baudrillard إلى عمل ملحوظ لـPackard واستشهد بشخص يُدعى Dichter في كتابه:
The System of Objects [1968] (London, 1997), p. 164.

اقتصاداً يعتمد على دورة مستمرة من التخلص والتجديد والإهمال وإعادة الشراء، وكان بودريار يعتقد أن هذا المستقبل ليس محتَّماً بالضرورة، فآمن بأن التحرر من هذا النمط من الإعلانات ممكن، وأن السعادة والنجاح الشخصي لا يعتمدان على امتلاك أشياء جديدة فقط، ولكن أيضاً على تغييرات إيجابية في المجتمع والثقافة. عكست انتقاداته روح الثورة في عام ١٩٦٨، وربما كان يشير إلى شعار الطلاب المحبوب في ذلك الوقت "كن واقعياً، اطلب المستحيل"؛ يدعو هذا الشعار للنظر بواقعية إلى الظروف الراهنة، لكن في الوقت ذاته حثّ على التطلع إلى تحقيق التغييرات الكبيرة والمستحيلة في العالم، وهو نوع من التفاؤل والتحدي حتى في وجه التحديات والقيود.

أكد بودريار أن الناس بحاجة إلى فهم أن الإعلانات لن تحقق رضا الرغبات أبداً. في الواقع، يرتكز هذا الاقتصاد أساساً ونوع الإعلان الذي يدعمه على أن تبقى رغبات المستهلكين مستمرة. تُعتبر صناعة الإعلان جزءاً من تكوين أوسع من القوى، وهي جزء أساسي من الاقتصاد والثقافة والمجتمع، إذ تعمل على مستويات متعددة لتشكيل رغباتنا في المزيد من الرغبات.

استخدم بودريار فكرةً سبق ودرسها عدد من علماء النفس مثل لاكان، وهي أننا غالباً ما نخلط بين الحاجة والطلب الذي يمكن أن يُحقَّق، والرغبة المستحيلة. في عالم الإعلانات، يُعتقَد أن كل شراء غير ضروري يفيد قطاع صناعة الإعلان، ولكنه في الواقع جزء من سلسلة لانهائية تمتد إلى الأمام. نحن نُحرَّض على متابعة منتجات العام القادم، فالخبراء مثل المستشارين الاستراتيجيين ومصممي الأزياء وغيرهم، يشجعونا فقط على المتابعة لتخيّب الأشياء الأحدث آمالنا؛ هذا جزء من بنية العالم كما نعرفه، بحيث يرسل النظام الإعلاني رسائل حول المنتجات التي يمكن أن تلبي رغباتنا نحن المستهلكين، لكن تتغير الأزياء مع كل "موسم" يمر، فهذه طبيعة النظام وهذا محرك "النمو". ينبغي لنا أن ندرك أن الرغبة لا تشبَع أبداً، وبالتأكيد ليس من خلال الشراء المتواصل. ومع ذلك، يشير بودريار إلى رفضه لفكرة أن البديل الوحيد للرأسمالية هو الشيوعية القديمة الأحادية اللون مثل الماوية أو الستالينية، ويعتبر أن البدائل ليست محصورةً فقط في نمطَين من الأنظمة السياسية.

قال بودريار إن النفايات والعناصر المهمَلة تلعب دوراً مهماً داخل النظام الرأسمالي،

وكان يفكّر في كيفية استنزاف الموارد المادية لدعم هذا النظام. كما أكد أن النفايات، التي تُعتبر فضلات، لا ينبغي أن يُقلّل من كمياتها في المجتمعات التي تعتمد على الاستهلاك، وقد تحمل رمزيات خاصةً تعبّر عن الثراء والفائض والإيجابية وجاذبية الكنوز المخفية. كان بورديار يعتقد أن النفايات غالباً ما تُغفَل، وفي حال تم تجاهلها فإن ذلك خطأ برأيه. كان يروج لفكرة أن النفايات قد تكون رمزاً للفاحشة والفخامة والنجاح والتقدم الاجتماعي في ظل النظام القائم، وفي سياق تحفيزي، طرح السؤال: "أليست القدرة على التخلص من عبوات الزجاج علامةً على عصر ذهبي؟". يُعتبر هذا التحليل جزءاً من نظرة بودريار النقدية للمجتمعات المعاصرة.

أظهر بورديار كيف يتشكل فهمنا للنجاح والفشل من خلال أمثلة ملموسة وغير ملموسة، والتي غالباً ما ترتبط بالشباب والحيوية وطبيعة التخلص من الأشياء والأشخاص. كان هدفه لفت الانتباه إلى كيفية تحول مفهوم "النجاح" ليصبح مرتبطاً تماماً بصناعة تعزز دورة مفرطة من اقتناء القيم والتخلص المستمر منها، والتوجه الدائم نحو التجارب الجديدة. ويتراوح هذا السعي من اكتشاف الروائح الجديدة في حاويات مصممة بعناية إلى الرغبة في الحصول على حياة أفضل، بما في ذلك البحث المستمر عن المنزل المثالي والتحديث المستمر للأثاث. هذه الصور المثالية للحياة، التي تُعرض في المجتمعات الحديثة، تبتعد بشكل متزايد عن الروابط الاجتماعية الحقيقية والاحتياجات الأساسية بحسب رؤية بودريار الذي لاحظ أيضاً أنه في ظل هذا السعي المادي، تتفاوت الثروة والفقر والمعاناة في الضواحي الحضرية أو في المناطق الأقل تطوراً. لقد حذر بعضُ علماء النفس والاقتصاد منذ مدة طويلة من عواقب حالة "الثراء الزائف"، مشيرين إلى أن ذلك قد يؤدي إلى تحديات شخصية واجتماعية بسبب السعي المتهوّس نحو الثروة المادية في عالم مصطنع.

كان تحليل بودريار مرتكزاً على قضايا البيئة وقد ساهم في تسليط الضوء عليها، مشيراً إلى الحاجة للنظر بحساسية بيئية نحو المستقبل المستدام وغير المستدام. أدخلَ، أو بالأحرى أعاد فكرةً ثابتة، مع تركيزه على الهياكل والأنظمة الاجتماعية المكوِّنة للمجال الاستهلاكي، تفيد أنه بإمكان الأفراد، إذا أرادوا، أن يختاروا التخلي عن نمط الحياة الاستهلاكي الحالي، أو بالأحرى عن الموضة. ينتشر هذا الشكل من الرؤية والعيش

المعتمد على نمط الاستهلاك والموضة انتشاراً واسعاً، فهو يتطلب مشاركة واسعة النطاق من الأفراد من أجل ضمان عمل النظام الرأسمالي. كان هدف بودريار أن يوضح كيف أن هذا "الإسراف المدهش"، كما وصفه منذ نصف قرن تقريباً، يندمج في النظام الاقتصادي على مستويات متعددة. على سبيل المثال، أشار إلى تسويق سراويل داخلية في الستينيات يمكن استخدامها مرةً واحدةً فقط (٨٠% فيسكوز، و٢٠% أكريليك غير منسوج)، واستبطن شكّاً في أن رغبة المسوقين كانت في جعل الإسراف الكبير في هذا المنتج جزءاً من السحر الذي يُقنَع به المستهلكون، أو بمثابة صدى صغير لفكرة مبالغ فيها بذهول. إنها فكرة رمزية تعبّر عن الرغبة الشديدة لدى الكثيرين في الاستمتاع بالأشياء الفاخرة والراقية التي قد تكون نادرةً أو محدودة الوجود. فالفستان الرائع الذي يلبسه النجم لمساء واحد فقط، يُعدّ رمزاً للتميز والجمال، وهو مثال على الأشياء التي يتمنى الناس الحصول عليها والاستمتاع بها حتى لو كانت لمدة قصيرة جداً.[١]

عبّر بودريار والمفكرون الذين يسعون غالباً لإحداث تغيير جذري في الفكر والمجتمع في تلك المرحلة عن اعتقادهم القوي بأننا نعمل فيما أسموه "كوناً لا قيمة له وغير ضروري"، حيث نُعتبر في أسر أيديولوجي في مركز تسوق افتراضي واسع النطاق. هذا الاستمرار في التسوق والتخلص من الأشياء القديمة لمصلحة الجديد يقدم صورةً زائفةً عن الحرية. لذا، كان من بالغ الأهمية التفكير والنضال للخروج من هذا الإطار، فـ"امتلاك الأشياء يحررنا فقط كأفراد مستهلكين، مكرَّسين لتلك المهمة (وقليل ما يهمّنا غير ذلك)"، حسب وجهة نظر بودريار. يعيد النظام الاجتماعي السائد لنا فكرة "الحرية اللامتناهية في امتلاك المزيد من الأشياء، والتقدم الوحيد الممكن هو صعود سلّم الأشياء"، ولكن هذا السلّم لا يؤدي إلى مكان، بل هو بذاته مسؤول عن تغذية الصورة المجردة المثالية التي نريد أن نلتقطها ويصعب علينا الوصول إليها.[٢] تشبه حجته ربما الرسومات "المستحيلة" التي أبدعها الفنان الهولندي موريتس كورنيليس إيشر M. C. Escher. فإحدى أشهر لوحات إيشر "Ascending and Descending" [الصعود والنزول] (١٩٦٠)، تُظهر أشخاصاً يتحركون على تلك السلالم الغامضة.

1 Baudrillard, *The Consumer Society: Myths and Structures* (London, 1970), p. 46.

2 Baudrillard, *The System of Objects*, pp. 152–3.

كان إيشر مهتماً بالوجودية والسريالية، وكان يحب رسم الصراعات الشخصية في صوره، فيستكشف مواضيع مثل المسؤولية والاختيار والاغتراب، إلى جانب الأسئلة الأساسية حول الرؤية. تُظهر لوحته الناس وهم يتحركون نشطين في بيئتهم؛ حتى لو كانوا محاصَرين في مكان معيّن، فهم أشخاص نشطون وليسوا ساكنين في هذا السياق.

إذا كنا نسعى للانفصال عن السبل المألوفة وصولاً إلى هياكل اجتماعية جديدة، ونتطلع إلى مستقبل مجهول بدلاً من تكرار ماضٍ يحكمنا، فعلينا أن نفحص العوامل الهيكلية التي تحجب حريتنا والاختيارات التي تحدّد وجودنا. علينا أن ندرك بجدية اندماج الرقابة واقتصاد التكنولوجيا الرقمية وتلاعب السياسة وغير ذلك، وأن نحتفظ بفرص الاحتجاج والإصلاح الجذري وتغيير طريقة تنظيم الواقع، بما في ذلك العالم الافتراضي، الذي يُفرَض علينا من تلك الشركات التي، على مر السنين منذ إنشائها، تشكلت واستفادت من الإنترنت. نحن نعيش الآن، بالطبع، تحت ظروف محددة، وضمن إطار، تماماً كما خشي باكارد، يساهم في تشكيل سلوك المواطنين. ولكن كما رأى أفضل نقاد الإعلانات سابقاً، فإن النمط الحالي قد يتغير تماماً، وتنشأ خطوط فاصلة جديدة.

لنأخذ مثال شركة Simulmatics الذي يمكن تفسيره بطرق متعددة وربطه بمناقشات مختلفة حول السياسة والحملات الانتخابية والإعلانات. يمكن أن يُنظر إليه على أنه مثال على استمرارية التأثيرات النفسية التقنية التي وصفها شومبيتر في وقت سابق، وتُعتبر نقطةً محوريةً في حاضرنا؛ أو يمكن النظر إليها كمثال مفيد على التحدي الصحافي والرد العام ضد تلك النسخة من الواقع. تأسست شركة Simulmatics عام ١٩٥٩، وكان مقرها في زاوية شارع ماديسون، وقد وعدت بأمور عظيمة في مجال الحملات الانتخابية، بفضل إنشائها نموذجاً أو نظاماً يحاكي عملية الانتخابات الحقيقية[1]. جمع اسم الشركة بين كلمتَي "محاكاة" (simulation) و"آلي" (automatic)، فقدّمت الشركة خبرةً في مجال الذكاء الاصطناعي وأسساً جديدةً لصياغة رسائل سياسية فاعلة، وقد بدا

1 Jill Lepore, 'How the Simulmatics Corporation Invented the Future', *New Yorker*, 27 July 2020, www.newyorker.com/magazine/2020/03/08/how-thesimulmatics-corporation-invented-the-future. See also Lepore, *If Then: How Simulmatics Invented the Future* (New York, 2020).

هذا الابتكار كأنه على وشك أن يُحدث ثورة.

قدمت شركة Simulmatics خدماتها لحملة الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٦٠ لمصلحة جون كينيدي من الحزب الديموقراطي، وكان الديموقراطيون على علم بأن الانتخابات ستكون شرسةً وصعبة، وأنهم بحاجة إلى كل مساعدة مهنية يمكنهم الحصول عليها. خسر الحزب الدورتَين السابقتين أمام أيزنهاور من الحزب الجمهوري. كان كينيدي اختياراً مثيراً للجدل كمرشح، حتى لو كانت لديه، في نظر الكثيرين، جاذبية خاصة. نيكسون، منافسه من الحزب الجمهوري في العام ١٩٦٠، كان يثير الرأي العام كثيراً أيضاً، فمنهم من يؤيده ومنهم من يعارضه. أشارت استطلاعات الرأي إلى أن المنافسة ستكون متقاربةً بين كينيدي ونيكسون؛ لم يكن هناك أي ضمان بأن الناخبين الأميركيين سيغيرون ميزان الانتخابات للجانب الآخر، أي الحزب الديموقراطي، بعد ثماني سنوات من العيش مع آيك Ike، اللقب الودي الذي كان يُعرف به الرئيس أيزنهاور.

إن انتصارات أيزنهاور القاطعة في عامي ١٩٥٢ و١٩٥٦ دفعت الديموقراطيين للتفكير بعناية. حملته المدروسة في عام ١٩٥٢، التي تُعرف بحملة حبوب الإفطار (Corn Flakes Campaign)، كانت بمثابة تنبؤ بتغير عالم السياسة المتأثر بوسائل الإعلام، بخاصة التلفزيون. نصح مستشاروه حينذاك بتبسيط رسائله الانتخابية إلى أقصى حد ممكن، والتركيز على الجانب الوطني، وزرع الشكوك حول قيم منافسه، وتقديم نفسه ليس فقط قائداً عسكرياً أسطورياً وشخصية محبوبة، بل منتَجاً آمناً يمكن شراؤه بثقة. عبّر أدلاي ستيفنسون Adlai Stevenson، منافسه، عن استيائه من طريقة تسويق أيزنهاور، وكأن الأخير منتَج تجاري وليس شخصيةً سياسيةً جدية. خسر ستيفنسون، ثم واجه أيزنهاور مرةً أخرى في عام ١٩٥٦ وخسر أيضاً. استمر استهزاء ستيفنسون بالتلفزيون رغم زيادة أهميته كوسيلة إعلامية.

إدراك فريق أيزنهاور لأهمية وسائل الإعلام، خاصةً التلفزيون، كان أسرع بكثير من خصمه. لم يركز أعضاء الفريق على التفاصيل الدقيقة لأنهم أدركوا أن ذلك قد يشتت انتباه الناخبين. بدلاً من ذلك، قدموا صوراً جاذبةً ورسائل شعبيةً وألحاناً ممتعة، وركزوا على صفات أيزنهاور بدلاً من سياساته، مع تكرار شعارات شعبية بسيطة، مثل "أحبّ آيك" أو "ما زلت أحب آيك"، استُخدمت خلال حملات أيزنهاور الرئاسية.

تجنبوا الخطب الطويلة وألقوا الضوء على صورة آيك كرجل يثق به الجمهور وجدير بالثقة. كانت إعلاناته ممتعةً ومبتكرة، تضمن أحدها فِيَلةً تمشي وتغني على إيقاع موسيقي. كان يتمتع بشعبية كبيرة، وكانت الأوضاع الاقتصادية جيدة. حتى إن لم يصدّق الناخبون الهجمات التي وُجهت لخصمه ستيفنسون من اليمين، كان أيزنهاور يمتلك طابعاً من السلطة والثبات والمصداقية. كانت مهمته خلال الحملات الانتخابية الحفاظ على هذا الطابع، وإبراز شخصيته العادية والقريبة والمطمئنة، وتقديم رسائل عامة بسيطة مثل "حان الوقت للتغيير".

تُعتبر العبارة الأخيرة "نصّاً إعلانياً فارغاً من المعنى"، كما وصفتها المؤرخة جيل ليبور Jill Lepore في سردها الممتاز عن صعود شركة Simulmatics وسقوطها. كُتب هذا النص بواسطة "الرجل الذي ابتكر شعار M&M's: تذوب في فمك، لا في يدك".[١] بالإضافة إلى ذلك، حظي أيزنهاور، دعماً لمسار ترشحه الرئاسي، بحضور المشاهير وأنغام الموسيقى ورسائل عيد الميلاد المفرحة، مما أضاف إلى الأجواء الإيجابية والشعور العام بزخم الحزب الجمهوري الذي كان أيزنهاور ينتمي إليه. في الواقع، كانت حملتا أيزنهاور نقطتَين مهمّتَين في تحويل السياسة إلى ثقافة شعارات قصيرة وعلاقات عامة مدبَّرة بعناية وعروض إعلامية سريعة، وكانت انتخابات كينيدي-نيكسون في عام ١٩٦٠ واضحةً في استجابتها لهذا التحول.

درس مستشارو كينيدي فشل الديموقراطيين السابق. تعددت العوامل التي أدت إلى النجاح الضئيل الذي حققه كينيدي على نيكسون في النهاية في عام ١٩٦٠، لكن كما تشير ليبور، يجب عدم تجاهل دور Simulmatics في تحقيق هذا النجاح. في مجلة *Public Opinion Quarterly* التي تنشرها الجمعية الأميركية لبحوث الرأي العام (AAPOR)، أوضح مدير البحوث في Simulmatics في ١٩٦١ أنّ: "تطور الحواسيب الإلكترونية ونظرية الألعاب الرياضية ساهما إلى حد كبير في تعزيز محاكاة سلوك الإنسان، فيمكن

---

١ مذكور في:

Lepore, 'How the Simulmatics Corporation Invented the Future'.

راجع أيضاً:

David Haven Blake, *Liking Ike: Eisenhower, Advertising, and the Rise of Celebrity Politics* (Oxford, 2016).

للباحثين من خلالها استكشاف نتائج النظريات وتوسيع تحليل الكميات الهائلة من البيانات التي توفرها الاستطلاعات والمصادر المشابهة"،[1] وهذا ما يساعد الباحثين على فهم الظواهر الاجتماعية بصورة أفضل واتخاذ القرارات الأكثر فعالية.

شارك في تأليف هذه النظرية إيثيل دي سولا بول Ithiel de Sola Pool، رئيس لجنة البحوث في Simulmatics وعالم سياسي في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. كانت الطريقة التي اتبعتها شركة Simulmatics هي تجميع البيانات من نتائج الانتخابات السابقة واستطلاعات الرأي وترميزها على الحواسيب، ثم تحليل أنواع الناخبين والمجموعات الديموغرافية المختلفة. سعت الشركة لنمذجة ردود الفعل المحتملة على تطورات الحملة الانتخابية، بهدف تحديد ما هو الأكثر احتياجاً لتحقيق نتيجة معيّنة. اقترحت الشركة تعديل تصريحات كينيدي لتعكس التحليلات والبيانات الدقيقة التي خلصوا إليها، بهدف تحسين رسائل المرشح وجعلها أكثر فاعليةً وملائمةً لاستراتيجيات الحملة الانتخابية، كما قدمت الشركة خدمات دعم فني ونفسي جديدة لاختبار السياسات المحددة للمرشح السياسي وتقييمها، وتحسين الجوانب البصرية، وضبط الأجواء الموسيقية للحملة، والعمل على تعزيز خطاب المرشح، وتعديل السلوك والأسلوب والتزاماته السياسية لإنشاء انطباعات تؤثر في تفكير مجموعات الناخبين الذين لم يحددوا اختياراتهم الانتخابية بعد أثناء الحملة الانتخابية هذه.

كانت العملية التي اعتمدتها Simulmatics في جمع البيانات وتحليلها لتحديد تأثيرها على سلوك الناخبين وكيفية توجيه الحملات السياسية لا تزال غير مضمونة تماماً، ولا يمكن لأحد أن يكون متأكداً من تأثيرها على عدد الأصوات بالضبط. كما كانت امتداداً لأمر أقدم بكثير: استخدام السياسيين لكل الوسائل الممكنة لزيادة جاذبيتهم العاطفية على الناخبين. كان وصول Simulmatics إلى الساحة في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي تطوراً حاسماً، فمهّد لأشكال أكثر تعقيداً لتحليل البيانات والإعلانات والرسائل المستهدفة. على سبيل المثال، حثّت Simulmatics كينيدي على بذل قصارى جهده لجذب الأصوات الأفريقية الأميركية واليهودية من خلال جعل قضية كاثوليكيته مسألةً

1 Ithiel de Sola Pool and Robert Abelson, 'The Simulmatics Project', *Public Opinion Quarterly*, 25:2 (1961), 167–83.

متعمدةً بدلاً من محاولة إخفائها، فحاول كينيدي أن يثبت أنه لا يجب أن يكون الدين عائقاً أمام مرشح للمنصب العام، وذلك لمواجهة الانتقادات والدفاع عن نفسه. كان عليه أن يفعل شيئاً، إذ كان يتعرض لانتقادات حادة وكان يُعتبر غير مؤهل للمنصب الأعلى، وقيل إنه رجل قد يطيع البابا في المستقبل بدلاً من خدمة مصالح الشعب الأميركي.[1]

بذل فريق كينيدي جَهداً لمواجهة تلك الاتهامات والتصدي لها مباشرةً عبر ربط قضية الخطاب المسيء للكاثوليك بأشكال أخرى من القمع الممارَس من الدولة الأميركية، ليخلق جسراً بين كينيدي وعائلته من جهة، وبين الأشخاص من ذوي البشرة الداكنة والأقليات الأخرى من جهة أخرى. كان من المتوقع أيضاً أن يجذب هذا الربط، في رسالة فريق كينيدي، الناخبين الشباب و/أو الأكثر تحرراً. كان الهدف مهاجمة جميع أشكال التحيز الذي يضايق الآخر على أساس أنه ليس أميركياً، وبالتالي كان الهدف تغيير الإطار الذي يُجرى من خلاله الحوار الوطني حول المعتقدات الشخصية والدين والسياسات العرقية؛ وعلى الرغم من اعتراض النقاد اليساريين على كينيدي معتبرين أن الكثير من محتويات رسالته كان مزيفاً، وأن السياسات لم تكن كافيةً بالقدر المناسب، كانت هذه الخطوة من فريق كينيدي حركةً إقناعيةً بارزة.

بينما كان الديموقراطيون يأملون في الفوز في المناطق الرئيسية، تبين أن لدى كينيدي مصلحة أكبر في التأكيد علانيةً على هذه النقطة، مما ساعد على تعويض سجله السابق الذي لم يكن ملهماً في مجال حقوق الإنسان. استخدم كينيدي الهجمات المتوقعة من الجمهوريين بصورة استراتيجية، فبدلاً من الرد عليها مباشرةً، استخدمها لجلب المنافع لمصلحته، وبالتالي جذب كافة الانتقادات لتصب في مصلحته. كان أسلوب جاك كينيدي (الاسم الشائع لجون كينيدي) وزوجته الرائعة، وبصورة خاصة أداؤه المتألق في المناظرة التلفزيونية مع نيكسون الذي بدا متعَباً وغير واثق من نفسه، أمراً مهماً أيضاً لانتصار الديموقراطيين. في ليلة الانتخابات، شاهد الأميركيون النتيجة على التلفزيون؛ كانت أسرع نتيجة يُعلَن عنها في تاريخ الولايات المتحدة. نجاح كينيدي في النظام الانتخابي الجامع كان كبيراً: ٣٠٣ مقابل ٢١٩. أما في الانتخابات الشعبية

1 Thomas J. Carty, *A Catholic in the White House? Religion, Politics and John F. Kennedy's Presidential Campaign* (New York, 2004); Shaun A. Casey, *The Making of a Catholic President: Kennedy vs. Nixon, 1960* (Oxford, 2009).

فكانت نسبة أصواته متقاربةً للغاية من منافسه: ٤٩,٧% مقابل ٤٩,٦%. هذا الفارق الضيق في النسبة كان أقرب التقاربات في قرن العشرين.

بعد نتائج الانتخابات وفوز كينيدي، ظهرت آراء مقلقة حيال ظهور Simulmatics. دارت مناقشات في وسائل الإعلام حول الحدود المناسبة لهذه البيانات، التي تُتاح لشركة مثل Simulmatics، ومن يجب أن يتحكم فيها، وما الإجراءات الواجب اتخاذها لحماية الأفراد من أن تتم دراستهم أو من استخدام بياناتهم بهذه الطريقة في المستقبل.

على الرغم من أن تقنية الحواسيب في ذلك الوقت كانت بسيطةً وغير متطورة كما هي الآن، أولَت بعض الصحف اهتماماً كبيراً حينذاك لتهديد يأتي من تقنية جديدة ومتطورة تستهدف الناخبين مثل Simulmatics. وصفت ليبور كيف انتشرت هذه القصة في جميع أنحاء البلاد، مع ظهور تحذيرات مروّعة، مثل تلك التي ظهرت في صحيفة *New York Herald Tribune* حول هذا السلاح الجديد "السري". عبّرت صحيفة أخرى في ولاية أوريغون عن استيائها من الطريقة التي تعاملت بها حملة جون كينيدي مع الناخبين، فانتقدتها لتقليلها من أهمية الناخبين، ووصفت الناخبين بمن فيهم القارئ والكاتب والسيدة جونز وبروفيسور سميث بأنهم لم يعودوا أشخاصاً يفكّرون. بالنسبة إلى تلك الصحيفة، فإن حملة جون كينيدي جعلت الناخبين مجرد أرقام أو عناوين صغيرة في قوائم الانتخابات دون احترام آرائهم أو قدراتهم على اتخاذ القرارات، وأضافت الصحيفة بصورة مبالغة أنه مقارنةً بالتقدم التكنولوجي والسياسي الذي جسدته الحملة، "فإن استبدادات هتلر وستالين وسابقيهما تبدو كمحاولات غير فاعلة أجراها متنمر في القرية".[١]

كان أمين سر المكتب الإعلامي لكينيدي يحاول التقليل من أهمية Simulmatics أو حتى نفي أهميتها في الانتخابات، ورغم ذلك، كانت هناك تكهنات كثيرة حول دورها وإمكانياتها. تصور القاصّون مستقبلاً مأسوياً يجمع بين أسوأ جوانب الماضي، مثل دور غوبلز في الدعاية النازية التي حذروا من تكرارها، مشابهاً لِما فعله بيرنيز، وبين تقدم تكنولوجيا الحواسيب المتجسدة بشركة Simulmatics. هذا المستقبل المأسوي يُصوَّر

---

١ مذكور في:

Lepore, 'How the Simulmatics Corporation Invented the Future'.

بأنه مخيف ويمتلئ بالتحكم السلبي للتكنولوجيا، ويُعتبر نوعاً من الخيال الذي يستند إلى تجارب تاريخية مثل التلاعب الإعلامي والاستخدام الدعائي السلبي الذي كان جزءاً من حكم النازيين في ألمانيا، مما يثير المخاوف والقلق بشأن تكراره في المستقبل.

في المرحلة ما بين الحربين العالميتين وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، تزايد الاهتمام بدراسة العلم وراء التلاعب الخفي بالرأي العام. طُرحت أسئلة حول كيفية تقدير الرأي العام بدقة وكيفية التأثير فيه أو تشويهه من قِبل المصالح الخاصة والأحزاب السياسية الكبيرة الحجم، فكان هذا محل اهتمام كبير خلال العشرينيات والثلاثينيات وما بعدها، وقد أصبح هذا الموضوع محوراً أساسياً في أبحاث علوم الاجتماع قبل ظهور باكارد. في تلك المرحلة أيضاً، أُنشئت شركات استطلاع الرأي لقياس هذه التقلبات في الآراء بصورة موثوقة أكثر.

ليس هذا العمل بالطبع مخفياً تماماً، فبعضه يكون موجوداً بوضوح أمام أعيننا، ولكن قد نشعر الآن، بعد عقود من العمل على دراسة التأثير النفسي للإعلانات، وتعرُّضنا لانتهاكات "الرأسمالية الرقمية"، بأننا لا نعيش فقط مع "المجهولات المعلومة" و"المعلومات التي لم نفكّر فيها"، بل أيضاً مع عالم الغموض الحقيقي "المجهولات المجهولة"، مع الظواهر التي قد تفاجئنا تماماً، فلا نعرف المعروف والمجهول على الإطلاق. نحن نعي، على الأرجح، أن آثارنا الرقمية تُتّبع وبياناتنا تُرصَد وتُخزَّن في كل مكان، وربما نكون على دراية بالأدوات والتقنيات والممارسات التي تسخر من فكرة الانتخابات العادلة والشفافة؛ ندرك، على الأقل نظرياً، أن هذه العملية، التي يفترض أن تشمل ملايين الأشخاص الذين يختارون من يمثلهم في الحكم بناءً على معرفة واسعة بالخيارات، تتم بدرجة عالية في بحر من الدعاية، مع حملات انتخابية مُصمَّمة بدقة للتلاعب بالبيانات ونشر الأخبار بطرق تحدد الرأي العام.

نسعى أيضاً لقياس، بأفضل ما نستطيع، الموضع الذي تنحسر فيه التحذيرات المعقولة والحرجة حول فساد العمليات الديموقراطية أمام مخاوف مبالغ فيها من نظريات المؤامرة. كل ذلك يحدث في سياق نقوم فيه بتقديم المعلومات يومياً على أجهزة الكمبيوتر الشخصية الخاصة بنا بمقدار لم يكن يمكن لوكالات الإعلان، أو الشركات مثل Simulmatics، أو حتى وكالات التجسس في فترة الحرب الباردة، أن تحلم به في

مرحلة الخمسينيات والستينيات. نوقع العقود بنقرة واحدة دون أن نعطي أنفسنا ما يكفي من الوقت لقراءة البنود الصغيرة. وعلى الرغم من السرعة التي نقوم بها بالضغط على "موافق"، قد نجد أنفسنا متورطين في حوار داخلي محبط: ماذا لو حدث أن الهاتف في جيبي أو الجهاز اللوحي أو حتى اللابتوب الرائع أعطت الآخرين إمكانية الوصول إلى خصوصياتي؟ وإذا حاولت أن أُبدي رفضاً، فماذا سيحدث؟ بعض الأشخاص يضعون شرائط على الكاميرا أو يقومون بإعادة ضبط الإعدادات الخصوصية الأكثر غموضاً. لكن، من يمكنه أن يضمن بالضبط أننا محميون حقاً من انتهاك خصوصياتنا؟ لقد دُمجنا جميعاً إلى حد كبير في نظام المراقبة الرقمي حتى أصبحت الأمور اليومية، مثل التواصل مع الأصدقاء، ومشاهدة البرامج التلفزيونية، وقراءة المقالات، وحتى استدعاء سيارة أجرة، جميعها تأتي مع مخاطر انتهاك الخصوصية المحتملة.

نعيش في عالم حيث يبدو أن الشركات تمتلك معلومات كبيرةً عنّا، أكبر بكثير مما نتمنى، وعلى الأرجح، أكبر بكثير مما نعلم. وسط تدفق التحذيرات والنظريات المتعددة، أصبح من الصعب تحديد الخط الفاصل بين الحذر العقلاني للجمهور وبين بداية السرد الوهمي حول قوى فضائية قادرة على كل شيء، مثل التلاعبات الخفية بالجمهور والتدخلات السرية في خصوصياته. قد يكون العالم الحالي مختلفاً جداً عما وصفه أنصار الإعلانات بعد الحرب العالمية الثانية، ومع ذلك، في تلك المرحلة، ظهرت توقعات دقيقة حول ما قد تُسفر عنه صناعة الإعلان في تحالفها مع الأعمال والسياسة، وشملت تلك التوقعات التساؤلات حول إمكانية تغيير مستقبل "الذين يؤثرون فينا"، حتى نتحرر من تأثيراتهم، سواء كانوا من الشركات أو الحكومات.

لا يعني هذا التحذير من نظريات المؤامرة وأصحابها إنكار وجود مؤامرات حقيقية وخطط خبيثة يسعى بعضهم لتنفيذها نيابةً عن مصالح تجارية وسياسية مختلفة، سواء كانت داخليةً أو خارجية. من منظور غربي، فإن المناقشات حول المؤثرين والإعلانات في الوقت الحالي غالباً ما تشمل النظر إلى علاقة الغرب بالدول المعادية، خاصةً روسيا والصين وإيران. كما أظهرت الانتخابات الأميركية في عام ٢٠١٦، فإنه يمكن للحكومة أن تستخدم مجموعةً متنوعةً من الأدوات وتوظف وسطاء مختلفين للتأثير على سكان دولة أخرى؛ قد تكون لدى السلطات الشرقية دوافع واضحة للتحريض

وإثارة الاضطراب في المبادئ الأساسية للديموقراطية الليبرالية وزرع الشك فيها. بالإضافة إلى ذلك، قد يستخدم الغرب تكتيكات الحرب الإلكترونية ضد خصومه.

بطريقة أو بأخرى، جميع تلك التحذيرات التاريخية حول عصر جديد من الدعاية عبر الإنترنت صحيحة. نحتاج إلى كل المساعدة المتاحة لفهم كيف تستغل الشركات والأحزاب السياسية والحكومات، وحتى وكالات المخابرات الأجنبية، الفرص الجديدة التي توفرها الشركات التكنولوجية العملاقة مثل Google وMeta. من الضروري أن نفهم كيفية عمل الخوارزميات والقرارات الداعمة لها، وندرك كيف تقوم الشركات بجمع مجموعات بيانات هائلة يتم بيعها لأولئك الذين يقدمون أعلى العروض من حيث الدفع والذين قد يكونون وكالةً إعلانيةً أو استخباراتيةً تعمل لمصلحة مرشح معيّن، والذين قد يكون لديهم كل الاهتمام بتشويه الانتخابات، أو تكريس الانقسامات الاجتماعية، أو تعزيز الشك وعدم الثقة بأهمية الإدلاء بالأصوات. إن الاستخدام الحكومي للمعلومات المضلّلة شائع. على سبيل المثال، هناك تقارير معترَف بها تشير إلى أن روسيا لعبت دوراً في تقليل عدد الأصوات الأفريقية الأميركية في الانتخابات الرئاسية الأميركية لعام ٢٠١٦، خاصةً في الولايات الأكثر تنافساً.[1] يظهر الآن للعديد منّا حجم "الحروب الإعلامية" الرقمية التي أذن بها بوتين وغيره خلال السنوات العشر الماضية، لتحقيق نتائج انتخابية محددة في المملكة المتحدة وأوروبا والولايات المتحدة. لدينا أسباب وجيهة للاشتباه في وجود شبكات من الخداع من حولنا، لكن علينا أيضاً أن نكون مدركين بأن بعض التحذيرات حول هذه القوى الخفية قد يكون مبالغاً فيها، مما قد يؤدي إلى السخط أو الشك الشامل.

قبل إنهاء هذا الفصل، دعونا نربط هذه الأفكار التي تتعلق بمراقبة الأشخاص مع بعض الملاحظات الإضافية حول استمرارية عالم الإعلانات أو تغيّراتها.

***

شهد تسويق المنتجات والخدمات تطوراً كبيراً منذ الخمسينيات. تبذل الشركات

1 Scott Shane and Sheera Frenkel, 'Russian 2016 Influence Operation Targeted African-Americans on Social Media', *The New York Times*, 17 December 2018, www.nytimes.com/2018/17/12/us/politics/russia-2016-influence-campaign. html.

جهوداً كبيرةً لمواكبة التغيرات الثقافية والاتجاهات الاجتماعية وأحدث التكنولوجيا. تعتمد هذه الشركات استراتيجيات متعددة للتواصل مع العملاء والبقاء في طليعة الصناعة ومواكبة الثقافة الحديثة واستقطاب انتباهنا. تُعَدّ بعض الإعلانات التي أخرجها مخرجون موهوبون بميزانيات كبيرة مثالاً على الإبداع البصري، فقد كانت تلك الإعلانات مصدر إلهام لمَشاهد في الأفلام بدلاً من العكس. تبقى بعض هذه الإعلانات رموزاً فنيةً تثير الاهتمام لعقود من الزمن. على سبيل المثال، الإعلان الأيقوني بالأبيض والأسود لشركة Guinness الذي أخرجه جوناثان جلازر Jonathan Glazer وعُرض للمرة الأولى في عيد القديس باتريك في عام ١٩٩٩؛ صوّر هذا الإعلان راكباً يتحكم في أمواج البحر ويقفز فوق الخيول. اشتُهر هذا الإعلان باسم "راكب الموج" (Surfer) واستفاد من تأثيرات بصرية مبهرة من شركة Computer Film Company، كما حُرّر ببراعة واحتوى على مقطوعة موسيقية قوية وتعليق أنيق. حتى اليوم، يُدرس هذا الإعلان درساً مستفيضاً ويُعتبر عملاً فنياً كلاسيكياً، وهو يتجاوز دوره كإعلان ليصبح جزءاً من التاريخ الفني.[1]

بعض الإعلانات أو الحملات الدعائية تبدو، من حسن حظ الشركات، أنها تتجاوز النمط التقليدي، وتنطلق خارج الشاشة، لتصبح جزءاً من روح العصر وتندمج مع ثقافته السائدة. غالباً ما تسعى حملات كوكا كولا لالتقاط روح الزمان الحالي، فتعكس التغيرات الاجتماعية أو تقودها دون أن تقتصر على إعلان المنتَج فقط، وتتطور مع عملائها متقدمةً إليهم بأسلوب جديد. تقدم كل سلسلة من إعلانات كوكا كولا علامةً تاريخيةً محمَّلةً بالمعاني؛ ومع ذلك، فإن دورة إنشاء الإعلانات وتسويقها تستمر وتتطور ويتم تحديثها سنةً بعد سنة.

في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، كان لدى شركة كوكا كولا دور مهم في تغيير صورة سانتا كلوز؛ استفادت الشركة كثيراً من استخدام صورة الأب الكريم لتعزيز سمعتها والترويج لمنتجها. في الخمسينيات، كانت إعلاناتها تُظهر امرأةً أميركيةً شقراء ودودةً ومرحة، وفي الستينيات، أصبح العملاء يألفون أغنية "Things Go Better with Coke" [الحياة أفضل مع كوكا كولا] وإعلانات تسلط الضوء بشكل كبير على الجوانب

---

1 Ian Failes, "'I felt like it was a poem": the VFX oral history of Guinness "Surfer"', 18 March 2019, beforesandafters.com/2019/18/03/guinness-surfer-oral-history-vfx/.

الأميركية البيضاء. مع ذلك، يتناقض هذا التغيير بشدة مع التحولات الداخلية الأخيرة في الشركة، فقد حثت كوكا كولا موظفيها خلال ندوات تدريبية على التفكير العميق في مظاهر العنصرية الخفية و"الهشاشة البيضاء"، التي تشير إلى الاستجابة الدفاعية التي يُظهرها الأشخاص البيض في الولايات المتحدة عندما يتم التحدث عن قضايا العرق، وقد أثارت هذه التحولات انتقادات من اليمين في أميركا. بعد حركات حقوق الإنسان والنسوية والصراعات السياسية ضد الاستعمار، تطورت رسالة كوكا كولا في السبعينيات لتعكس نفسها كمشروب مناسب في عالم متعدد الثقافات والأعراق بعد الستينيات، مع تعزيز فكرة أنها "المشروب الأصلي".

لا شك أن الرأسمالية، كما توقع ماركس في القرن التاسع عشر، تتميز بالقدرة على التكيف والتوسع والمهارة في استيعاب كل ما يعارضها وتحويله، حتى يمكن أن تستغل مصادر المعارضة السابقة لخدمتها الخاصة. على سبيل المثال، حقّق نشيدُ شركة كوكا كولا في السبعينيات "I'd Like to Teach the World to Sing" [أرغب في تعليم العالم الغناء]، نجاحاً هائلاً بحد ذاته. فريق الإعلان والتصوير السينمائي الذي عمل على هذا الإعلان، جمع شباباً متنوعين يغنّون على قمة التلّ، رمزاً للوحدة والأمل. لقد جسد هذا الإعلان مواضيع التفاؤل والتناغم والبراءة والعولمة بصورة متناسقة، وأصبح هذا الجانب الجمالي للإعلانات جزءاً مهماً في العالم الثقافي للإعلانات، إذ يعكس الصور الاجتماعية المتحضرة والاتجاهات الرائجة والمظاهر الأيقونية والحملات المبتكرة التي تحظى بتصنيف عالٍ وتقدير واسع وثمين.

تبعت الشركات الأخرى أسلوباً إعلانياً جديداً ومتمرداً، مثل شركة United Colors of Benetton التي اعتمدت طريقةً فريدة، إذ قامت بعرض صور جريئة ومثيرة في بعض الأحيان بصورة متعمدة. أرادت الشركة أن تُظهر التزامها بحرية الثقافة. كان ذلك ملحوظاً جداً في التسعينيات. صُمّمت إعلاناتها لجذب انتباه المشاهدين بأي ثمن، حتى إذا سبّب ذلك المشاكل. عُرضت مشاهد لأشخاص يعيشون مع مرض الإيدز، وراهبات يقمن بأفعال تنتهك القواعد، ومواليد ملطخين بالدماء فور الولادة، وحتى أجزاء داخلية من الجسم، بل عُرضت صورٌ لضحايا جرائم القتل التي ارتكبتها المافيا في الشوارع.[1]

1 Eilidh Nuala Duffy, 'Benetton's Most Controversial Campaigns', *Vogue*, 8 December 2017,

بصورة عامة، تستخدم الشركات استراتيجيات فريدةً لتمييز علاماتها التجارية عن غيرها. على سبيل المثال، تعتمد Benetton على استخدام أفكار جريئة لجذب الانتباه وتحسين أدائها التجاري. وعندما نتحدّث عن بناء علامة تجارية قوية، نعني بذلك تشكيل الشركة أو تغييرها لتتمتع بهوية واضحة ومميزة، مما يشجع العملاء على العودة مراراً إلى المحل وعلى توصية المحل (Benetton) للآخرين. لكن في المرحلة الأخيرة، كثُر الحديث في عالم الإعلانات حول فعالية هذه الطريقة كما كانت في السابق، بحيث يبدي الأشخاص في الوقت الحاضر تبدلات في ولائهم بين العلامات التجارية بصورة متكررة؛ إنهم الآن أسرع في تغيير تفضيلاتهم وأذواقهم، على عكس الماضي حين كان الأشخاص ينتمون بقوة لفئات محددة مثل الطبقات أو المجتمعات، ولذلك، فالانتماءات الحالية لم تعد قويةً بالقدر نفسه، وهذا التغير يجعل من الصعب على الشركات الحفاظ على ولاء الزبائن، لأن تفضيلاتهم وانتماءاتهم أصبحت أكثر تغيّراً وتعدداً.

في مقاله الأخير الذي نُشر في مجلة *Forbes*، تحدث توماس ديشتر Thomas Dichter ، الخبير في مجال الأموال وسلوك المستهلكين، عن التحولات التي طرأت على استجابة الأجيال الحديثة، وخاصة الأشخاص النشطين في التسوق عبر الإنترنت، للإعلانات. أبرز ديشتر التغيرات التي حدثت منذ زمن والده إرنست، وتحديداً الخلافات التي كانت لديه مع مؤلف كتاب *The Hidden Persuaders*، وأشار إلى وعي الجيل الحالي من الشباب، الذين يتقنون استخدام الإنترنت، لكيفية محاولة الإعلانات بيع المنتجات لهم. ومن أجل لفت انتباه الشباب، أصبحت الإعلانات بحاجة إلى التواصل مع مشاعرهم بطريقة أعمق وأكثر دقة، بدلاً من الاعتماد الكبير على الإعلانات التقليدية التي تعتمد على التلفزيون والإعلانات المطبوعة في عصر Mad Men، وهي المرحلة الزمنية التي ازدهرت فيها صناعة الإعلانات في نيويورك خلال الستينيات.[1] نتيجةً لذلك، تطورت صناعة الإعلانات للاستفادة من وسائل التواصل الاجتماعي والإعلانات الرقمية، بهدف جذب انتباه جمهور أصبح أكثر تفاعلاً وتطوراً مع هذه الوسائل الجديدة للإعلان.

---

www.vogue.co.uk/gallery/benettons-best-advertising-campaigns.

1 Thomas Dichter, 'The Intrusiveness Of Internet Advertising: The Not So Hidden Persuaders', *Forbes*, 11 March 2019, www.forbes.com/sites/thomasdichter/2019/11/03/the-intrusiveness-of-internet-advertising-the-not-so-hidden-persuaders/#350b2b142c18.

ليست العلاقة بين الشركة وعملائها مضمونةً مدى الحياة، فأحياناً، عندما تطلق الشركة حملةً إعلانيةً لا تلقى استحسان الناس، يمكن أن يشعر العملاء بالاستياء ويقرروا التوقف عن الشراء من تلك العلامة التجارية؛[١] لنأخذ مثالاً لشركة بيبسي في عام ٢٠١٧: قدموا إعلاناً ظهرت فيه كيندال جينر Kendall Jenner وهي تقدم قنينة بيبسي لضابط شرطة خلال احتجاج. لم يُعجب هذا الإعلان العديد من الناس، إذ شعروا بأنه استغلال لفكرة الاحتجاج، واعتبروه فاقداً للحس ومحاولةً لتحقيق أرباح على حساب قضايا جادة فقط لبيع المشروبات الغازية. أدى هذا الإعلان إلى ردود فعل سلبية كبيرة، وإلى انخفاض كبير في مبيعات بيبسي. في الواقع، اعتُبر هذا الإعلان من أكبر العمليات التسويقية الفاشلة في تلك السنة، مما دفع الشركة لسحبه فوراً.[٢]

كان هذا مثالاً واحداً فقط، ولكن بصورة عامة، فإن مستويات الثقة لدى الجمهور بالإعلانات التجارية والسياسية الآن قيد الاستفسار، ويتم استطلاع آرائهم بانتظام من قِبل مستطلعي الرأي، إذ تطلب الوكالات الإعلانية الكبيرة نتائج المستطلعين لمراجعتها بعناية أثناء دراسة هذه الوكالات لكيفية التواصل بصورة أفضل مع الجمهور. كل عام تتوفر كمية كبيرة من البيانات حول مدى تشكك الأجيال المختلفة تجاه الرسائل المتعلقة بتقنيات معينة، مثل تقنية الهواتف الذكية.[٣] هل يجب أن نشعر بالقلق، أو

---

١ على سبيل المثال، ننظر إلى الانتقادات الموجهة ضد شركة Nestlé السويسرية التي كانت تبيع حليباً صناعياً في أفريقيا وأميركا اللاتينية. شهدت حملة مقاطعة ضد Nestlé نجاحاً في سبعينيات القرن الماضي. الجمعيات الخيرية مثل War on Want وصفت الشركة بأنها "قاتلة للأطفال"، وتم تشويه العلامة التجارية للحليب نفسه. طبيب أطفال غاضب، ورد ذكره في تقرير قوي صادر عن War on Want عام ١٩٧٤، وصف الوضع قائلاً: "تم فرض حليب مصنَّع باهظ الثمن وفاخر على مجتمعات غير مستعدة لذلك. تستخدم حملات الإعلان الضغط العالي نفسه عبر كافة القنوات المتاحة ووسائل الإعلام باستخدام تقنيات حديثة للتحفيز والإقناع. في بعض الأماكن، تُوظف الشركات 'ممرضات الحليب' لزيارات منزلية وحضور العيادات لتعزيز مبيعات شركة Nestlé بشكل أكبر". صدرت هذه المعلومات في نشرة *The Baby Killer* التي أصدرتها War on Want عام ١٩٧٤. يمكن مراجعة التالي:

archive.babymilkaction.org/pdfs/babykiller.pdf.

2 Peter Adams, 'Fail of the Year: Pepsi's "Jump In"', *Marketing Dive*, 4 December 2017, www.marketingdive.com/news/fail-of-the-year-pepsis-jump-in/510322/.

3 'Global Trust in Advertising: Winning Strategies for an Evolving Media Landscape', Nielsen report, September 2015, www.nielsen.com/wp-content/uploads/sites/3/04/2019/global-trust-in-advertising-report-sept-2015-1.pdf and 'Millennials Are Most Trusting When

ربما نشعر بالتشجيع، بأن مستوى الثقة لدى بعض الأشخاص في الإعلانات الخاصة بالعلامات التجارية المعروفة هو أعلى من مستوى الثقة الذي يمتلكونه في ما خص الأخبار أو الرسائل السياسية؟

أظهر التقرير الأميركي لعام ٢٠١٧ كيف تختلف وجهات نظر مجموعات الأعمار المختلفة حيال الإعلانات. يبدو أن أكثر من نصف جيل الألفية، أي الذين وُلدوا ما بين أوائل الثمانينيات ومنتصف التسعينيات، وجيل إكس (Generation Xers)، أي الذين وُلدوا تقريباً ما بين عام ١٩٦٥ و ١٩٨٠، يثقون بالإعلانات التجارية بشكل عام، بينما كانت نسبة الثقة لدى جيل الطفرة، أي الأشخاص الذين وُلدوا ما بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٦٤، ٤٤% فقط. بالإضافة إلى ذلك، أشار التقرير إلى أن ٨١% من جيل الألفية أقروا بأنهم قاموا بشراء شيء ما بسبب إعلان جاء قبل ثلاثين يوماً من الاستطلاع الذي أعلنه التقرير. جولي فيرزبيكي Julie Wierzbicki، العاملة في وكالة إعلانية كندية، قدمت تفسيرات حول سبب حذر جيل الطفرة من الإعلانات. اعتقدت أنه في زمن نشأتهم، كان هناك نقص تنظيمي لعمل الإعلانات، الأمر الذي سمح لبعضها بترويج معلومات كاذبة، مثل القول إن السجائر صحية، ليتبين لاحقاً عكس ذلك. وعلى الجانب الآخر، نشأ جيل الألفية في عصر مليء بالمعلومات، مما جعلهم يتوقعون مزيداً من الصدق من العلامات التجارية، فباتوا يعتقدون أن أي ممارسات خادعة من جانب العلامة التجارية ستُكشف في النهاية بسبب توفر الكم الهائل من المعلومات المتاحة، وخاصة من خلال الإنترنت ووسائل الإعلام.[1] لذا، أشار التقرير إلى أن مستويات الثقة والحذر تجاه الإعلانات تختلف على نحو كبير بين الأجيال المختلفة.[2] يعود هذا التباين للسياق التاريخي الذي نشأ فيه كل جيل، والذي يؤثر في توقعاتهم ومستويات الثقة التي يمتلكونها حيال رسائل الإعلانات.

---

it Comes to Advertising', 13 October 2015, www.nielsen.com/uk/en/insights/article/2015/millennials-are-most-trusting-when-it-comes-to-advertising/. Cf. Osnat Roth-Cohen, Hananel Rosenberg and Sabina Lissitsa, 'Are you talking to me? Generation X, Y, Z responses to mobile advertising', *Convergence: The International Journal of Research into New Media Technologies*, October 2021, journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/13548565211047342.

1 Kristen Herhold, 'How Consumers View Advertising: 2017 Survey', Clutch, 7 December 2017, clutch.co/agencies/resources/how-consumers-view-advertising-survey-2017.

2 Wally Olins, *On Brand* (London, 2012), Chapter 1, 'Why brands are important to customers'.

في فترة ما بعد الحرب العالمية، كانت الإعلانات مرتبطة بنجاح كبير وغالباً ما وُصفت بأنها "العصر الذهبي". مع مرور الوقت، أصبح المستهلكون أكثر فضولاً حيال كيفية عمل الإعلانات، وخاصةً تأثيرها على أفكارنا وسلوكياتنا. لم يعترض المستهلكون مباشرةً على الإعلانات، بل أصبحوا أكثر انتباهاً ونقداً لها. تركز النقاشات الحالية على كيفية تفكير الأشخاص في العلامات التجارية بصورة أكثر تعقيداً من السابق. لم يعد الأمر يقتصر على تأثير واحد للإعلانات، بل تطور المشهد كثيراً اليوم بفضل الإنترنت ومنصات التواصل الاجتماعي. الزعم بأن الإعلانات لديها سيطرة مطلقة علينا أو أنها تغسل أدمغتنا لا يعكس الواقع بدقة، فالعلاقة بين أفكارنا والسوق أكثر تعقيداً بكثير. يتم الاعتراف في الوقت الحاضر بأن قرارات الأشخاص وأفعالهم تتأثر بعوامل عدة. بالتأكيد، تلعب الإعلانات دوراً، لكنها ليست العامل الوحيد. فتوصيات الأصدقاء لبعضهم بشراء شيء معين، وردود الفعل عبر الإنترنت، والتفاعلات الشخصية، أصبحت تلعب دوراً مهماً في هذا السياق. وهذا يعني أن الإعلانات قد لا تمتلك مستوى التأثير نفسه الذي كانت تمتلكه في السابق من خلال الإعلانات الواضحة والمنظمة. فقد تغيّرت ديناميات القوة اليوم، مما يبرز نهجاً أكثر تعددية في كيفية تفاعل الأفراد مع العلامات التجارية واتخاذ قرارات الشراء.

يعيد النقاد اليوم النظر، ربما، في وجهة نظر باكارد القديمة، وينظرون بتمعن في كيفية تأثير العلامات التجارية علينا نحن المشترين في الوقت الحاضر. قد نثق بهذه العلامات التجارية رغم أننا ندرك تماماً ما يجري. بدلاً من أن نرى أنفسنا كدمى تسيطر عليها العلامات التجارية سيطرة تامة من جهة، وكمستهلكين منطقيين من جهة أخرى، ربما نجد أنفسنا، كما وصف ميلوش، محاصَرين بالصفقات التي نبرمها والتبريرات التي نبحث عنها داخل أنفسنا. هل من الممكن أن نكون مشاركين نشطين في هذه العملية فنشتري السلع، ونستوعب ثقافة الإعلان، ونتعلم فن الإقناع، ونتأثر بأفكار معيّنة، وفي الوقت نفسه نعترض عليها وندرك حقيقة ما يحدث؟

في الوقت الحالي، يُصعب علينا معرفة كيف نبدأ بفك تشابك الثقافة والأسواق والإعلان والفن، فهناك تدفق لا ينقطع من الأخبار والعروض والتصميم والأناقة والموضة والشراء والاستهلاك اليومي. في كثير من الأحيان، نستمتع إلى حد كبير

بصرياً عندما نرى صوراً معينة في فيلم مموّل، أو حدث رياضي، أو إعلان تلفزيوني مُتقَن. فهل هذا يعني أنه تم شراؤنا؟ هل تأثرنا بصورة خفية؟ وماذا لو كنا نستهلك قصصاً وصوراً لأنفسنا ونحن نقوم بالاستهلاك فنتناول إعلانات المنتجات، ونقبلها ونتذوقها، ونستمتع بغوصنا الحالم في هذه العملية؟ إننا كخبراء نُعجب بفن الإعلانات وبراعة التحرير وإتقان الصوت والصورة والطريقة التي توضَع بها المنتجات في ميدان رؤيتنا، لكن ماذا لو وافقنا، وتلذذنا بتجاهل انتباهنا الحذر وقدراتنا النقدية؟ قد يستمتع الناس بقدرتهم على استيعاب تلك الأفلام الصغيرة، مثل إعلان Guinness لراكب الموج، لتجتاحهم هذه الأفلام وتستقطبهم، كما لو أنهم يستجيبون لدعوة صامتة، فهم يشاركون ويمتثلون ويأخذون بقليل من الوعي أماكنهم المخصصة كمستهلكين، بينما تقوم الرسالة الإعلانية بأدائها "الساحر" عليهم.

كوننا نقاداً للإعلانات ومستهلكين في الوقت نفسه، قد تفاجئنا تصرفاتنا أحياناً. على سبيل المثال، لنفترض أننا نستنكر إعلاناً تلفزيونياً يشجع على المراهنة في الرياضة، ونحن ندرك جيداً كيف يُبجّل الفوز دون أن يكشف عن واقعية الخسائر المحتملة. في بعض الحالات، كما في الأحداث الخاصة، قد نجد أنفسنا نتناقض مع مواقفنا السابقة ونمنح أنفسنا "وقت استراحة" صغيرة حيث نشارك في المراهنة عبر الإنترنت على الرغم من الانتقاد الذي أبديناه سابقاً، وربما، بالإضافة إلى ذلك، نجد أنفسنا قد حفظنا عنوان منصة القمار في ذهننا جيداً ولا شيء يمكن أن ينزعه منا. يقرّ عدد من المدمنين على القمار بأن للإعلانات تأثيراً مباشراً على سلوكهم وعلى تطور الإدمان لديهم. إنهم على علم بطبيعة الإعلانات الخادعة التي تعد بربح مالي كبير رغم استحالة حدوث ذلك، ولكن، حتى مع هذا الوعي، يجدون صعوبةً في التخلص من قبضة الإدمان على القمار. بالتأكيد، إن الإدمان على القمار له جذور معقدة، ولكن الضغط المستمر من الإعلانات يُعتبر بالحق مصدراً للكثير من الغضب العام نحوها بسبب ترويجها لهذا النوع من السلوكيات الضارة.

في عام ٢٠٢٠، أجرت هيئة القمار في المملكة المتحدة (UK Gambling Commission) دراسةً كشفت أن ستة من كل عشرة أشخاص كانوا يشاهدون إعلانات القمار التي يُروَّج لها مرةً واحدةً على الأقل في كل أسبوع. ومن بين الأشخاص الذين شاركوا في القمار في العام السابق، أكد أكثر من ثلثهم أن الإعلانات التي شاهدوها

دفعتهم لإنفاق أموال في القمار. بالإضافة إلى ذلك، كان نحو واحد من كل ستة بالغين يتابعون بانتظام شركات القمار على وسائل التواصل الاجتماعي.[1]

تعرض لنا البحوث التي تتحدث عن السيطرة التجارية والتكنولوجية على الأفراد أو المجتمعات الكثير من الوقائع، ولكن في بعض الحالات، هناك مقاومة من قِبل أفراد ناشطين ومجموعات متّحدة، فتذكرنا هذه الحالات بقوتنا لنتخذ إجراءات جماعية وموحدة، ويمكن أن يكون ذلك عن طريق الانضمام للنقابات العمالية، أو المشاركة في مجموعات الضغط، أو دعم الحملات القانونية، أو المشاركة في حركات الاحتجاج الطويلة. على سبيل المثال، ذكرت سارة ميلوف Sarah Milov في كتابها الأخير عن التاريخ الحديث للتدخين نجاحات كبيرة، ولكن دائماً ما تكون هذه النجاحات جزئية. جاءت هذه النجاحات نتيجةً لجهود شعبية في الولايات المتحدة، خاصةً من النساء، في مواجهة السيطرة التي كانت تمارسها صناعة التبغ. أحد هذه النضالات كان في سبيل جعل الأماكن العامة خالية من التدخين وتوفير هواء نقي. على مدى عقود طويلة، حاولت صناعة التبغ وبتأييد من الحكومة، منع هذه المطالب والاستمرار في وجود أماكن يُسمح فيها التدخين. بعد تحذير الجرّاح العام (surgeon general) من خطورة التدخين على الصحة، استمرت صناعة السجائر والمسؤولون القويون في مقاومة كل ما يهددهم، ولكن في النهاية اضطروا للتخلي عن الإعلانات التلفزيونية تحت الضغط، ووافقوا على فرض مزيد من القيود. في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، شهدت الولايات المتحدة إنجازات تشريعيةً هامةً في حماية البيئة، وشهدت مجتمعات غربية أخرى تطورات مماثلة، مما يشير إلى أن ما قد يُعتبر مستحيلاً سياسياً في بداية العقد يمكن أن يتغير جذرياً بعد مدة من الزمن.

في الغرب، شهدنا انخفاضاً في عدد المدخنين، لكن هذه ليست الحال في كل مكان. أصبحت الجماعات المناهضة للتدخين أقوى في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان. كانت لديها مهارات فريدة وفاعلة وذكية وقوية، فاستخدمت صوراً تعكس الفكرة ونظمت حملات ذكية تضمنت رسوماً متحركة، للتخلص من الفكرة الخاطئة

1 www.gamblingcommission.gov.uk/statistics-and-research/publication/understanding-how-consumers-engaged-with-gambling-advertising-in-2020.

بأن التدخين جاذب. كانت هذه الجهود الجماهيرية ناجحةً جداً. من أبرز المهام كشف كيف كانت صناعة التبغ في الخمسينيات والستينيات تعلم بأضرار التدخين وكيف زرعت الشك حول الأدلة الطبية والعلمية التي تشير إلى أن التدخين يؤدي إلى وفاة الناس، مما أدى إلى تأخير اتخاذ الإجراءات اللازمة لإعلام وحماية السكان بأسرهم من تلك الأخطار.[١]

تعتمد شركات التبغ استراتيجيات لبث الشك والتضليل، وقد استخدمت صناعات الوقود الأحفوري (fossil fuel industries) هذه الطرق بفاعلية أيضاً لتعزيز الشك حول تغيّر المناخ. على سبيل المثال، قدم الأخوة كوخ Koch، المستثمرون الكبار في مجال الوقود الأحفوري، دعماً مالياً كبيراً لحملات إعلانية لتأجيل التغييرات القانونية الفاعلة التي تهددهم. اتبعوا النهج نفسه الذي اتبعته شركات التبغ قبل خمسين عاماً في البحث عن رؤية علمية غير تقليدية لزرع الشك في عقول الناس عما يُحكى عن إساءة الوقود للبيئة.

في الحقيقة، قد تهدف الإعلانات وحملات التسويق في بعض الأحيان إلى إثارة اللامبالاة أو الإحباط أو الارتباك، وليس فقط إلى دعم شراء منتجات محددة.[٢] استفاد الأخوة كوخ من آرائهم الاستثنائية لإطلاق تحذير عام حول مصداقية العلم. وراء هذا الادعاء بجعل الجمهور المتأثر بحملات الإعلانات أكثر حذراً وشكاً حيال ما يُساق ضد الوقود حمايةً للبيئة، كان هناك جهد ضخم ومنظم لتشتيت انتباه الجمهور وخلق الارتباك

---

1 Sarah Milov, *The Cigarette: A Political History* (Cambridge, MA, 2019).

٢ انظر على سبيل المثال إلى هذا المقال، الذي نُشر على موقع Heartland Institute (واحد من العديد من المشاريع التي تمولها Koch Brothers)، بعنوان:

'Pseudo Scientists Wreak Havoc on Society's Mental Stability with Fake Data'.

زعم المقال أن الجمهور يتم تسويقه للقلق حول ما يحدث للأنهار الجليدية والمحيطات والغابات والصحارى، وأشار الكاتب إلى أن كل هذه "الأخبار المبالغ فيها" هي التي تُسبب مشاكل خطِرة للناس، وأوضح أن "التغطية المفرطة على وسائل التواصل الاجتماعي والتعرض لكوارث الطبيعة المتعلقة بالمناخ والطقس يمكن أن يؤديا إلى تأثيرات صحية عقلية عدة، بما في ذلك القلق والاكتئاب واضطراب ما بعد الصدمة". للمراجعة:

Ronald Stein, 'Pseudo Scientists...', 29 October 2019, Heartland Institute, www.heartland.org/news-opinion/news/pseudo-scientists-wreak-havoc-on-societys-mental-stability-with-fake-data. Cf. Jane Mayer, 'Daily Comment: "Kochland" Examines the Koch Brothers' Early, Crucial Role in Climate-Change Denial', New Yorker, 13 August 2019, www.newyorker.com/news/daily-comment/kochland-examines-how-the-koch-brothers-made-their-fortune-and-the-influence-it-bought.

لديه. مثلما حدث مع حملة مكافحة تغيّر المناخ، بدت هذه الحملة كاستغلال غير أخلاقي لنوع من الأبحاث الأكاديمية التي ظهرت بعد الحرب، والتي أشارت إلى ضرورة التحقق من مزاعم الطب الحديث والعلم، وليس مجرد قبولها قبولاً سطحياً. نحتاج فعلاً إلى فهم أفضل لكيفية إنتاج المعرفة، حتى في المختبر، لكن ليس ليكون تقديرنا سطحياً تجاه كيفية عمل العلم بصورة عامة، فهذا يتطلب مراجعةً وتقييماً دقيقاً. استُغل هذا التفكير النقدي لأغراض مالية وأيديولوجية معيّنة، وذلك لزرع الشك في الحاجة العاجلة للتحرك السياسي والاقتصادي الجماعي ضد ما يهدد البيئة وتقويض أي جهد في هذا الصدد. دعت الحملة الساخرة الناس إلى أن يتصوروا أنفسهم أكثر تطوراً وفهماً من الرؤية الرئيسية المتزايدة حول "البيئة الخضراء"، لدفعهم للبحث العميق والتعمق أكثر خلف الواجهات السطحية، وأشارت إلى أن الخبراء واللجان الكبيرة التحذيرية في الأمم المتحدة، على سبيل المثال، قد يبالغون في تحذيراتهم أو يتأثرون بمصالح معيّنة.

سنناقش في الفصل القادم نظريات المؤامرة وسنتناول الإجراءات المقترحة لمواجهتها وحماية المجتمعات من انتشار المعلومات الكاذبة المنظمة وتعزيز الديموقراطيات. من الواضح أن هناك حاجة ماسة لإطارات قانونية أقوى لمنع الشركات والدول التي تعرقل الديموقراطيات الليبرالية وتهدد المجتمعات والبيئة من الهروب من العقاب. يعمل الخبراء القانونيون على تحديد جريمة "الإبادة البيئية" (ecocide)؛ الأنشطة البشرية المدمرة للبيئة التي قد تؤدي إلى محاكمات أمام المحكمة الجنائية الدولية.[١] التحديات كبيرة لتحقيق ذلك، إذ يظل العديد من وسائل الإعلام وعالم الأعمال ملتزمين بسياسة التشتيت وتجاهل أزمة المناخ، لكن يمكن للإصلاحات القانونية ومشاركة الجمهور الواسع أن تؤثّرا تأثيراً هائلاً في تحقيق هذه الإصلاحات.

كان باكارد على حق عندما حذر من أن الأساليب الخفية المتقَنة خلف عمليات البيع يتم تضليلها جزئياً على الأقل، سواء بُثّت لملايين الأشخاص، أو عُدّلت للوصول

---

١ راجع التقرير التالي:

'Report of the Independent Expert Drafting Panel for the Legal Definition of Ecocide', June 2021, www.stopecocide.earth/expert-drafting-panel.

راجع أيضاً الرابط التالي:

ecocidelaw.com/independent-expert-drafting-panel/.

إلى جمهور مستهدف، أو حتى عُرضت اليوم عبر منصات التأثير الرقمية لملايين المعجَبين. يتوقع بعض المتشائمين أن كل واحد منّا في النهاية سيعيش داخل عالم مخصص له من الإعلانات والألعاب والأخبار المصممة تحديداً له، وهو عالم افتراضي يعتمد على التكنولوجيا ويتطور باستمرار ليقنعنا بشدة ويبعدنا أكثر عن التعامل الجاد مع التهديدات الجوهرية التي نواجهها. ستشهد تكنولوجيا المعلومات تطوراً بالتأكيد، ولكن القضايا المستمرة في الصراعات السياسية تتمثل في كيفية استخدامها بفعالية ومن يستفيد منها في النهاية.

كل يوم نقترب أكثر، حسب تحذيرات الخبراء الحديثة أو بعض شركات التسويق العصبي، إلى زمن قادم حيث تكون الآلات قادرةً على قراءة أفكارنا الخاصة عبر النواسخ العصبية في الدماغ. إن الكم الكبير من المعلومات المتاحة عنّا، سواء كانت مخزَّنةً عبر الإنترنت أو من خلال الأنظمة والشبكات، قد يكون من الصعب فهمها وفهم كيفية استخدامها أو حتى تحليلها، دون وجود أدوات متقدمة مثل جهاز قارئ للعقل. ربما نختار تجاهل كل هذا الأمر، راضين ومسرورين بوجود المساحات الافتراضية الضخمة لتخزين بياناتنا وصورنا وملايين الرسائل الإلكترونية والذكريات، ومع ذلك، يجب ألا ننغمس تماماً في تلك السُّحُب الافتراضية (clouds) فنعتبرها كل شيء. بل إن الصورة التي يجب أن نحتفظ بها في ذهننا والكامنة وراء تلك السحب، هي ملكية الشركات، أو بواقعية أكثر، هي تلك الهياكل الضخمة من المستودعات ومراكز البيانات ومجموعة كبيرة من الأجهزة الحاسوبية والخوادم التي تعمل معاً كوحدة واحدة لتخزين ومعالجة وإدارة البيانات والمعلومات عبر الإنترنت، والتي لا توجد في "السُّحُب" بل في الواقع؛ نظام عالمي يستهلك كميات هائلة من الطاقة والموارد، ببنية تحتية فعلية تمتد من المرافق الصحراوية الكبيرة إلى آلاف الأميال من كوابل البحر. هذا النظام الضخم للتخزين الرقمي يمكّن من تنفيذ أشكال جديدة مذهلة من رسم الخرائط وتحليل سلوكيات الأفراد والمجموعات، ولا يُخزَّن ببساطة.

يصعب اليوم فهم حجم شركات البيانات العملاقة ومواردها. كانت Google وFacebook في البداية شركتين ناشئتين نابعتين من ابتكارات بعيدة المدى، مستندتين إلى هندسة مذهلة ورياضيات ومهارات تقنية نِتاج أفكار تصميم ذكية ورؤى ريادية

للمستقبل. مع نموهما، كان بإمكان تلك الشركتين بسهولة استحواذ المنافسة ودمج الشركات الصغيرة في عملياتهما. استفادت تلك الشركتان في الغالب من تمويل أبحاثهما وتطورهما سابقاً، ونجحتا في التفوق على منافسيهما البطيئين، وفي بعض الأحيان حصلت على قدرات استباقية. واليوم، توفر تلك الشركتان وسائل بحث استثنائية ووسائل التواصل الاجتماعي والأدوات الأساسية الأخرى في حياتنا اليومية في الاقتصادات الحديثة، ونحن نعتبر هذه الأدوات شيئاً طبيعياً.[١]

في كتابها *The Age of Surveillance Capitalism* [عصر الرأسمال المراقِب] الصادر عام ٢٠١٨، استكشفت شوشانا زوبوف Shoshana Zuboff الديناميات التنافسية في السوق الحالية، والقوى التي دفعت "رؤوس الأموال المراقِبة نحو امتلاك مصادر تنبؤية أكثر للسلوك الزائد، مثل أصواتنا وشخصياتنا وعواطفنا"، وأوضحت زوبوف كيف تُستخدم البيانات السلوكية الآن لدفع السلوك وتوجيهه نحو نتائج تجارية مربحة.[٢] باكارد من جهته تنبأ بكثير من هذا المستقبل، فعبّر عن استيائه من القبول السهل في الستينيات لتقنيات المراقبة الخفية، مثل الكاميرات وأجهزة كشف الكذب وأنظمة التلفزيون المغلَق بحيث يدفع المشتركون رسوماً للوصول إلى محتوى معيّن، والتنصت غير القانوني عبر الأسلاك على المكالمات، وغيرها. وكانت شركات المراقبة تروج لهذه التقنيات كوسيلة لتعزيز القوة والحماية الفردية، لكنه حذر من أنها قد تمثل وسيلةً للآخرين للتجسس على الأشخاص داخل منازلهم أيضاً.[٣]

تشكل الشركات اليوم مثل Google وMeta جزءاً أساسياً من قصة الإعلان والسياسة الديموقراطية. البيانات التي تجمعها منّا، والتي نوقّع عليها بإرادتنا، تجعل من منصات مثل فايسبوك الأداة الحاسمة للمعلنين والحملات السرية للوصول إلينا. إن دقة وكفاءة إعلانات المنتَجات هي الأمور التي تقدرها الغالبية؛ إعلانات التلفزيون والصحف تتراجع بسرعة، في حين تزدهر إعلانات الإنترنت على نحو كبير، حيث يركز المعلنون جهودهم لجذب انتباهنا على نحو شبه دائم، ويحظون

1 Shoshana Zuboff, *The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power* (New York, 2019), pp. 6–8.

2 Ibid., p. 8.

3 'How Safe Is Thy Castle?', Packard Papers, Box 34, Folder 7.

بمشاركتنا الحماسية، أو حتى يثيرون إدماننا.

أن نكون جزءاً من العالم الرقمي أمرٌ صعب، ولماذا نضطر إلى التخلي عنه؟ التكنولوجيا الرقمية التي نعتمد عليها جميعاً قدمت لنا فوائد كبيرةً وآفاقاً مستقبليةً واسعة، لكن استغلال الاقتصاد الرقمي لتغيير نتائج الانتخابات، وإثارة الارتباك، وخلق الانقسامات، وحتى عرقلة الإجراءات الحكومية لمعالجة تغيّر المناخ المدمر، فيمثلون الجانب الأظلم من هذه التكنولوجيا. كيف سيكون مواجهة هذا الواقع والسعي لتغيير أساليب التجارة والابتعاد عن الروتين السائد؟ حتى التفكير في البيئة والسياسة والتجارة والإعلان والتكنولوجيا قد يثير قلقاً كبيراً. ولكن على الرغم من ذلك، يؤكد الناشطون البيئيون ضرورة أن نفهم القوى التي تقاوم التغيير الضروري ونعترف بتعقيد المشكلة دون شعورنا بالهزيمة. إننا بحاجة إلى التفكير بعمق أكبر في التنازلات التي نقوم بها، وكيف نحن مشاركون في الأمور المختلفة أو القرارات التي تتعلق بالبيئة والسياسة والاقتصاد والإعلانات والتكنولوجيا، وكيف يؤثر تفاعلنا في هذه الجوانب على النظام الذي نعيش فيه، وكم نحن محاصرون في هذا النظام.

لقد أدركت هذا بشدة عندما تواصلت عبر المراسلات مع زيجمونت باومان، ثم التقيت به وجهاً لوجه في عام ٢٠١٥ لتصوير مقابلة، نُشرت لاحقاً على الإنترنت، كجزء من مشروع "المقنعون الخفيّون" في جامعة بيركبيك. خلال مراسلاتنا، أصرّ باومان على استخدام مصطلح "غسيل الدماغ" لدراسة تأثيرات الاقتصاد الجديد القائم على السيبرانية، والذي يجمع بين المراقبة والمحتوى الجاذب الذي يقدمه للجمهور ويستخدمه وسيلةً لتوجيه سلوكياتهم. بشغف واضح وعاطفي، أشار إلى أن الإنترنت يحاصرنا على نطاق أكبر، فتأثيراته "محجوبة" و"سرية"، وغالباً ما تكون "غير ملحوظة" و"غير محددة المصدر". إذاً، نجد أنفسنا الآن في شبكة "عنكبوتية" من المراقبة، ورغم ذلك، يبدو أننا "نؤدّي الدور الذي تلعبه العناكب في نسج هذه الشبكة".[١]

---

١ في تواصل شخصي مكتوب موجه إلى الكاتب من Zygmunt Bauman في الثالث من نيسان/ أبريل ٢٠١٥، وقد أوضح هذه الفكرة أيضاً في مقابلة لاحقة سُجّلت مع الكاتب. يمكن الاطلاع على فيلم "Onlining" [في عالم الإنترنت] لـLily Ford والمقابلة المسجلة مع Bauman عبر الرابط:

www7.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/.

الفصل السادس

نمط البارانويا

لقد قامت حشود غاضبة من أنصار ترامب بالتجمع أمام الكونغرس في ٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠٢١، للاحتجاج على "سرقة الانتخابات". كان جايكوب تشانسلي Jacob Chansley مميزاً بزيّه الفريد المكوّن من فرو الحيوانات والوشوم التي تحمل رموزاً نوردية ولحيته وصدره العاري وحليته وتاجه الفروي المزيَّن بالقرنَين، ووجهه الملوّن بألوان العلم: الأحمر والأبيض والأزرق.[1] سُمع اسمه بسرعة باسم QAnon Shaman [كيو أنون شامان]. يوضح انتشار صورته البارزة عالمياً عبر وسائل التواصل الاجتماعي ووكالات الأنباء كيف يمكن لوجه أو قصة أو حتى صورة أن تنتشر بسرعة في هذا الزمان. أصبح تشانسلي الشخصية الأكثر شهرةً في هذه الاحتجاجات وأصبح موضوع حديث العامة، وقد وُصف في الصحافة الليبرالية بأنه مؤيد بارز لنظريات المؤامرة، ونموذج (أو ضحية) للنمط الساذج الذي يعبّر عن الاضطهاد المبالَغ فيه والشك والقلق المفرط بشأن المؤامرات والتآمرات المتخيلة أو الوهمية، كما وُصف كمؤشر إلى تفكك العملية السياسية التقليدية. في الواقع، كانت هناك أسباب متعددة لحضور الناس لتلك التظاهرات في ذلك اليوم، ولا يمكن لحالة واحدة أن تمثل الجميع، ومع ذلك، هناك الكثير لنتعلمه من قصته، والتغطية الإعلامية التي حظي بها، والحجج التي قدمها محاميه في دفاعه.

1 Luke Mogelson, 'Among the Insurrectionists', *New Yorker*, 15 January 2021, www.newyorker.com/magazine/2021/25/01/among-the-insurrectionists.

QAnon هي نظرية مؤامرة معقدة على الإنترنت وعلامة مخيفة في عصرنا، وذلك بسبب الافتراضات التي تروج لها وتأثيرها الكبير على جماهير كبيرة من الناخبين، وليس فقط على عدد قليل منهم. أحدثت هذه الظاهرة توتراً هائلاً، خاصةً في الإعلام الليبرالي، مما أدى إلى ظهور عناوين صحافية تصفها بأنها "اختراع أميركي ولكن أصبح وباءً عالمياً".[١] هناك استطلاعات كثيرة توضح مدى دعم الجمهور لهذه المصادر "الإخبارية"؛ في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٠ على سبيل المثال، أشار أحد الاستطلاعات التابعة لشركة Ipsos إلى أن أكثر من ٥٠% من ناخبي الحزب الجمهوري يعطون بعض الاعتبار لـ"تعاليم" QAnon.[٢]

بعض الأحيان نجد أنفسنا معرضين لحالات نفسية تدفعنا لفهم الأمور بصورة خاطئة في أنفسنا وحتى في العالم من حولنا. وهذا "التحدي" ليس نتيجةً فقط لجهلنا الحقائق أو الطرق المختلفة لتفسير الأمور، بل، في بعض الأحيان، يكون السبب ببساطة رفضنا الحصول على المعلومات التي تمكّننا من فهم أفضل لأنفسنا وعلاقاتنا. يمر الجميع في بعض الأحيان، وبعض الأشخاص دائماً، بتجارب نفسية تتضمن جروحاً نرجسية وشكاوى؛ يعيش البعض وسط مخاوف مبالغ فيها أو حالة من "عدم الرضا والشكوك"، كما وصفها ريتشارد هوفشتادتر في محاضرته الشهيرة عام ١٩٦٣ وفي مقاله اللاحق عن الأسلوب الساذج أو نمط البارانويا في السياسة الأميركية. بالإضافة إلى ذلك، يمكن لوكالات ساخرة معيّنة أن تستغل هذه المشاعر لدى الجمهور عمداً من أجل استهداف غضب الجماهير والعدوان العام، وتتجنب في الوقت نفسه التحليلات العميقة للتهديدات والمشاكل الأخرى في السياسة أو الأمور الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها والتي قد تكون أكثر تعقيداً. وقد يكون المستغلون أنفسهم، الذين يستخدمون هذه الاستراتيجية، متورطين في هذا السياق

1 Frida Ghitis, 'QAnon is an American invention, but it has become a global plague', Washington Post, 10 March 2021, www.washingtonpost.com/opinions/2021/10/03/qanon-japan-germany-colombia-conspiracy-theories-disinformation/.

2 James Shanahan, 'Support for QAnon is hard to measure – and polls may overestimate it', *The Conversation*, 5 March 2021, theconversation.com/support-for-qanon-is-hard-to-measure-and-polls-may-overestimate-it-156020.

أو قد يكونون جزءاً من المشكلة التي يتجنبون تحليلها بعمق. قد يعاني الأشخاص من الاضطرابات الوهمية أي البارانويا، وقد يحاولون تشويش وجهات نظر الآخرين بالأفكار الوهمية، وربما يودّون تقديم "أحداث مسلية أو ملهية" لهم في الوقت نفسه لصرف انتباههم عن الأمور السياسية.

لاحظ هوفشتادتر كيف يمكن أن تنشأ مخاوف المؤامرة من مجموعة متنوعة من الأسباب، وكيف استُغلت في الولايات المتحدة، خاصةً على يد السياسيين الديماغوجيين والعلمانيين الرجعيين. الأسئلة الهامة بالنسبة إليه، وبالنسبة إلينا الآن، تتضمن: ما الذي يجعل الناس يميلون إلى اعتماد أسلوب السذاجة أو البارانويا في أنفسهم؟ من يستفيد من ذلك؟ وكيف يمكن مواجهة هذا الأسلوب وتصويب الاهتمام العام نحو الأخطار الحقيقية التي تواجه الجمهور بدلاً من الأخطار الوهمية؟

يمكن أن يخدم الأسلوب الساذج أهدافاً متعددة، سواء على الصعيد النفسي أو الاجتماعي. في بعض الأحيان، قد نصدّق الادعاءات الجديدة للمؤامرات لأنها تعكس إطار الشك والقلق الذي لدينا مسبقاً. أحياناً أخرى، يمكن أن تكون رغبتنا في اعتماد هذا الأسلوب أقل ثباتاً وتتوقف على الظروف، ومع ذلك، هناك أطراف في المجتمع تستخدم حالات الرعب، سواء لأغراض سياسية أو تجارية. بعض رجال الأعمال، على سبيل المثال، يروجون لعلاجات صحية في الفضاء الافتراضي نفسه الذي ينشرون فيه قصصاً وهمية، وذلك بهدف تحقيق أرباح، وتسعى بعض صناديق الاستثمار لتحقيق أرباح كبيرة من خلال إنشاء منصات رقمية تسمح للزعماء الشعبويين الاستبداديين بالتأثير في الديموقراطيات. من جهة أخرى، شركات التواصل الاجتماعي، التي تتمتع بحرية نسبية، حققت أرباحاً هائلةً من خلال منصاتها، ولكنّ المساهمين الرئيسيين فيها والمديرين قد لا يكونون مهتمين كثيراً بمن ينشر الأكاذيب والقصص المرعبة عبر تلك المنصات، ما دام هذا الكذب يستمر في جذب الاهتمام العام وحفظ الإيرادات وجمع البيانات. فهم ليسوا بالضرورة يروجون للدعاية المؤذية، بل يراهنون على كل النتائج المحتملة، سواء كانت مؤذية أو مفيدة، ويتجنبون تعطيل التفاعل المستمر والحوارات عبر منصاتهم، لأن نجاح نموذج عملهم يعتمد على استمرار جذب الانتباه

دون الحاجة للتحليل النقدي.[1]

***

تتنوع الأسباب التي تدفع ملايين الأفراد لنشر قصص المؤامرة يوماً بعد يوم عبر الإنترنت ومشاركتها؛ يعتقد بعضهم أن هناك مصادر مَخفية للسلطة الحقيقية، أو يسعون لدعم حجج سياسية تنتقد النظام الحالي، أو يرغبون في مشاركة مشاعر القلق أو حتى الاستمتاع بالمحادثات السرية حول شبكات غامضة. هذه المشاركة تمكّنهم من الشعور بالتميز والانتماء لآخر الشائعات، ويجدون "ثقة" في أحدث المؤامرات المخيفة. بعض الأفراد يتبادلون الأخبار الكاذبة والافتراضات الخيالية بتردد ودون تأكيد، بينما يصدق آخرون تلك الشائعات دون التحقق من صحتها معتمدين على المقولة القائلة "لا دخان بلا نار". وهناك فئة أخرى تصل إلى مستويات عالية من الاعتقادات، فيعتمد أفرادها إلى حد كبير على بيانات منشورة عبر مصادر زائفة مثل Q [كيو]، الذي يُعتبر تحالفاً بين المعتقدات ونظريات المؤامرة التي ظهرت على الإنترنت في عام ٢٠١٧ ومصادر أخرى، ويستخدمونها كتوجيهات واضحة. يتبع بعض هؤلاء الأفراد هذه النظريات بكثافة، مما يؤدي أحياناً إلى تصديقهم لأفكار غير دقيقة وخطِرة تؤثر في سلوكهم. في بعض الحالات، يميل متابعو نظريات المؤامرة إلى اتخاذ القانون بأيديهم. إذ هاجم أحد الأشخاص مطعماً في واشنطن العاصمة عامَ ٢٠١٦ بناءً على ادعاءات غريبة عبر الإنترنت زعمت أن هيلاري كلينتون Hillary Clinton ومعاونيها يعتدون جنسياً على الأطفال في طقوس شيطانية في قبو المطعم. هذه الحوادث تُظهر تأثير الإيمان الشديد بالمؤامرات وكيف يمكن أن يؤدي ذلك إلى أفعال خطِرة.

1 Tom Dreisbach, 'Alex Jones still sells supplements on Amazon despite bans from other platforms', NPR, 24 March 2021, www.npr.org/2021/979362593/24/03/alex-jones-still-sells-supplements-on-amazon-despite-bans-from-other-platforms; 'Twitter's algorithm favours right-leaning politics, research finds', BBC News, 22 October 2021, www.bbc.co.uk/news/technology-59011271; Arash Massoudi et al., 'Hedge funds make millions as shares in Trump media Spac jump', *Financial Times*, 21 October 2021, www.ft.com/content/d266e746-27af-46c8-a6d9-4081cfe3cc00.

ليس بالضرورة أن يكون الشخص من مؤيدي نظريات المؤامرة أو ممن يشككون بكل شيء حتى يبحث في حقائق مؤامرات سياسية حقيقية، أو ينتقد الإعلانات الضارة والأساليب غير النزيهة، أو يعارِض الصفقات غير الديموقراطية التي تجري في الخفاء. بعد أزمة عام ٢٠٠٨، وخصوصاً في دول جنوب أوروبا مثل اليونان، اتُّهم الاتحاد الأوروبي من النقاد المتشددين ومنتقدي نظريات المؤامرة بتجاوز برلمانه والعمل بطرق معقدة وقمعية. قد تكون للمحتجين أسبابٌ مقنعة لمعارضة القرارات السياسية التي تتم في الخفاء، سواء في الاتحاد الأوروبي أو في أي كتلة أو بلد آخر، ومع ذلك، قد تأخذ هذه الانتقادات لهذه القرارات، والتي تكون سريةً خوفاً من الانتقام أو لأسباب أخرى، منحى مختلفاً. فبدلاً من التركيز على تحليل جدي للأحداث الحقيقية، قد تنتقل إلى تحذيرات مبالَغ فيها وأفكار غير واقعية تشير إلى أن كل شيء مترابط بشكل غامض وشامل، مما يدفع هؤلاء المنتقدين إلى اعتبار كل قرار سياسي جزءاً من مؤامرة أو عمل غير قانوني، وهو ما يكشف عدم الثقة المفرطة وانعدام الواقعية في التحليل والانتقاد. فهذه الانتقادات المستمرة والسلبية قد لا تكون دقيقةً دائماً وقد تتجاوز الأمور الإيجابية في بعض الحالات.

يظنّ تشانسلي أن المتنورين (Illuminati)[1] واللجنة الثلاثية الأطراف (the

---

١ بعد انحسار المنظمة لمدة طويلة، استمرت الأساطير والقصص تروي كيف كانت جماعة الـIlluminati عازمة على تدمير كل الديانات والحكومات، مسعاها تغريس فلسفة الحرية المطلقة وتدمير الممتلكات وتنظيم عالم إجرامي عابر للحدود. لاحظ Hofstadter كيف كان بعض رجال الدين في نهاية القرن الثامن عشر يصعّدون في لغتهم، ويحذرون من أن الـIlluminati يعتزمون "صناعة شاي يسبب الإجهاض، مادة سرية تعمي أو تقتل عند الرش في الوجه"، واختراع ما يشبه قنبلة الروائح؛ "وهي طريقة لملء غرفة النوم ببخارات ضارة". القصص ما زالت تنتشر على الإنترنت. رُبطت الجماعة السرية بأنواع مختلفة من المؤامرات، من إسقاط النظام الملكي الفرنسي إلى اغتيال JFK، ومن أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر إلى تنظيم تجارة المخدرات غير الشرعية عالمياً والأوبئة والمزيد. في عمله *The Paranoid Style in American Politics* [النمط البرانويدي في السياسة الأميركية] الصادر عام ١٩٦٤، استعرض Hofstadter هذه السردية. للمراجعة:

harpers.org/archive/1964/11/the-paranoid-style-in-american-politics/.

للمعرفة عن تاريخ الـIlluminati، راجع التالي:

Isabel Hernández, 'Meet the Man Who Started the Illuminati', *National Geographic*, July/

(Trilateral Commission ومجموعة Bilderberg يتحكّمون معاً في العالم.[١] المتنورون هم جماعة سرية أُنشئت في أواخر القرن الثامن عشر في بافاريا؛ يُعتقد بوجود نظريات تشير إلى أنها تسيطر على العالم أو تمتلك نفوذاً هائلاً، ولكن هذه الافتراضات ليست واقعية. فيما اللجنة الثلاثية الأطراف هي مجموعة للنقاشات غير الحكومية أسسها عام ١٩٧٣ ديفيد روكفلر David Rockefeller. أما مجموعة Bilderberg، فهي تجمّع لشخصيات مالكة ومنتجي إعلام وسياسيين يعقدون اجتماعهم سنوياً في أماكن مختلفة، وتكون جلساتهم مغلقة وغير متاحة للجمهور. ألكس جونز Alex Jones، الناشط اليميني المتطرف من موقع *Infowars*، هاجم اجتماعاً لمجموعة Bilderberg باستخدام مكبر الصوت، ملقياً: "نحن نعلم أنكم بلا رحمة. نحن نعلم أنكم شرٌّ. نحن نحترم قوتكم المظلمة".[٢] جونز، مثل غيره من أصحاب نظريات المؤامرة، معروف بترويج رؤىً حول مافيات يهودية ومؤامرات عالمية متشابكة لجمهوره الواسع.[٣]

August 2016, www.nationalgeographic.com/history/magazine/2016/08-07/profile-adam-weishaupt-illuminati-secret-society/. Cf. Gordon Fraser, 'Conspiracy, Pornography, Democracy: The Recurrent Aesthetics of the American Illuminati', *Journal of American Studies*, 12 November 2018, www.cambridge.org/core/journals/journal-of-american-studies/article/conspiracy-pornography-democracy-the-recurrent-aesthetics-of-the-american-illuminati/906DDB8C8B609BFC4FD7FA7233D570DC.

راجع أيضاً المقال التالي:

Jonathan White, 'Political Eschatology: A Theology of Antigovernmental Extremism', *American Behavioral Scientist*, 44:6 (February 2001), 937-56.

1 eu.usatoday.com/story/news/nation/2021/09/01/jake-angeli-qanon-man-fur-hat-horns-capitol-riot-arrested/6609039002/.

٢ مذكور في:

'Bilderberg mystery: Why do people believe in cabals?', BBC News, 8 June 2011, www.bbc.co.uk/news/magazine-13682082.

قارن مع:

Josh Sanburn, 'What to Know About the Bilderberg Group's Secret Annual Meeting', *Time*, 9 June 2016, time.com/4362872/bilderberg-group-meetings-2016-conspiracy-theories/.

3 Victoria Gagliardo-Silver, 'Alex Jones: Instagram refuses to remove right-wing conspiracy theorist's anti-semitic post', *Independent*, 29 March 2019, www.independent.co.uk/news/world/americas/alex-jones-ig-antisemitism-instagram-facebook-conspiracy-theories-a8846466.html.

يسهل على قصص Bilderberg وغيرها من المنظمات والاجتماعات أن تتحول إلى تصورات عن عدو فريد وقوي. غالباً ما تدور لغة نظرية المؤامرة اليوم حول فكرة نخبة تخوّن الآخرين، وتشير بصورة خاصة إلى "اليهود المؤامرين"، أحياناً مع صور تعيد للأذهان الافتراءات الدموية القديمة.[١] يروّج اليمين المتطرف من جديد لقصص عن "رؤساء دمية" لليهود العالميين يديرون مشاكل العالم. قد تكون الاتهامات صريحةً أو ضمنية، مثل ذكر اسم الملياردير جورج سوروس George Soros، أو إحياء قصص حول تأثير عائلة روتشيلد (Rothschilds). فكلما تحدثنا عن شخصية أو مجموعة قوية معيّنة، يتحولون إلى رموز لحكومة عالمية غامضة وقوية، أو إشارات إلى شبكات منظمة تهدف إلى إثارة أفكار شيطانية ضد البيض، والمؤمنين بالله والمسيحيين. واحدة من أوائل هذه القصص، وُضعت في بداية القرن العشرين وأُطلقت بتأثير مدمّر في أوروبا المضطربة في العشرينيات من القرن القرن الماضي، وكانت خياليةً وقُدّمت كوثيقة حقيقية، وهي تصف مؤامرةً يهوديةً بعنوان *The Protocols of the Elders of Zion* [**بروتوكولات حكماء صهيون**].[٢]

يعتقد أتباع QAnon المخلصون أن Q، المصدر الغامض (الذي يُزعم أنه ضابط مخابرات عسكرية سابق، ولكن قد يكون في الحقيقة مجموعةً من ناشري المعلومات الكاذبة)، يقدم لهم أدلةً حقيقيةً عن حقيقة العالم، وعناصر من الإنارة الحقيقية أو الإدراك أو الوعي العميق بالحقائق والمعرفة الحقيقية، بل مناعة ضد عمليات غسيل الدماغ الجماعية التي تجريها النخبة الليبرالية. بدأ إذاً مستخدم يُعرف بالرمز Q أو

1 R. Po-chia Hsia, *The Myth of Ritual Murder: Jews and Magic in Reformation Germany* (New Haven, 1988).

٢ بعد وقت طويل من إعدادها لأول مرة في روسيا، ثم ظهورها في عام ١٩٠٣، استُخدمت **بروتوكولات حكماء صهيون** في العديد من السياقات والتصورات حول مؤامرات يهودية عالمية. راجع الكتابين التاليين:

Norman Cohn, *Warrant for Genocide: The Myth of the Jewish World Conspiracy and the Protocols of the Elders of Zion* (New York, 1966)

Daniel Pipes, *Conspiracy: How the Paranoid Style Flourishes and Where It Comes From* (New York, 1997).

بخصوص المصادر الخيالية لهذا النص، ودوامة التكهنات، التي غالباً ما تكون غير دقيقة، حول أصله، اطلع على مقال Michael Hagemeister التالي:

'*The Protocols of the Elders of Zion*: Between History and Fiction', *New German Critique*, 103 (Winter 2008), 83–95.

"Q Clearance Patriot"، الذي يُزعم أن لديه معرفة داخلية بالأنشطة الحكومية السرية ويحارب الدولة العميقة في الولايات المتحدة، بإرسال سلسلة قوية من الرسائل على الإنترنت في عام ٢٠١٧، حيث نُشرت رسالة تحذيرية حول "الهدوء قبل العاصفة". صُمّمت الرسائل الغامضة لإثارة الفضول، ولم يمضِ وقت طويل حتى تجلّت قصة محددة: مجموعة حاكمة ترتكب أفعالاً إجراميةً صادمة، تستمتع بالحصانة من المساءلة، وتسعى بكل الوسائل لسلب حق الفوز الشرعي من الجمهوريين، أو بالأحرى، من دونالد ترامب.

في قصة QAnon، كان يُنظر إلى ترامب على أنه منقذ أخلاقي، شخص يقاوم النظام الفاسد. كانت شخصية يجب إنقاذها بأي ثمن، لينقذ "الناس". وفي ما يتعلق بطبيعة الادعاءات الشديدة والخيالية في هذه القصة، قامت صحيفة *The New York Times* بتلخيص المحور الرئيسي لنظرية QAnon بطريقة مختصرة خالية من معلومات أساسية: يدعي هذا السرد وجود مجموعة من "عبدة الشيطان الذين يسيئون للأطفال"، وتتضمن سياسيين ورجال أعمال وزعماء وشخصيات إعلامية، بمن فيهم كبار الديموقراطيين مثل بايدن Biden وكلينتون وأوباما وسوروس، ونجوم هوليوود مثل أوبرا وينفري Oprah Winfrey وتوم هانكس Tom Hanks وألين دي جينيريس Ellen DeGeneres، وزعماء دينيون مثل البابا فرنسيس ودالاي لاما Dalai Lama. بالإضافة إلى الاعتداءات على الأطفال، يُزعم أن هذه المجموعة ارتكبت العديد من الجرائم الأخرى التي تتجاوز ما يُعرض في أفلام الرعب... إذ "يقتلون ويأكلون ضحاياهم لاستخراج مادة كيميائية تطيل العمر وتُسمّى أدرينوكروم".[1] هذه الصورة الرهيبة عن تعرض الأطفال للأذى من قِبل بالغين جشعين وأنانيين هي قوية بالتأكيد، والأخبار الدقيقة عن الجرائم والتسترات في الماضي قد تُصَعّب على الناس تحديد صحة الاتهامات الأكثر غرابة. في أي وقت من النهار أو الليل، في أي مكان، يتعرّض الأطفال للإرهاب والضرب والاعتداء والاستغلال والتجاهل. يمكن للأطفال أيضاً إذاً أن يعبّروا عن استغلال النخبة للجماهير.

من الصعب حقاً معرفة مدى إيمان أتباع QAnon بجزء أو بكل خيال قصص Q. يجب

---

1 Kevin Roose, 'What Is QAnon, the Viral Pro-Trump Conspiracy Theory?', *The New York Times*, 3 September 2021, www.nytimes.com/article/what-is-qanon.html.

ألّا نفترض أن جميع ملايين الأتباع يشكلون مجموعةً متجانسة؛ فقد يُصدق بعضهم تماماً هذه القصص، بينما قد يؤمن آخرون بأجزاء أو ربما لا يصدقون على الإطلاق، وقد يتعامل بعضهم الآخر بطريقة أكثر استغلاليةً للفرص أو تعمقاً في استكشافها. لذا، عندما نقول "متابع"، نطرح مثل هذه التساؤلات. يبدو واضحاً أن بعض الأشخاص يتابعون، لكنهم في الحقيقة يستغلون الاهتمام الجماهيري ويكشفون تضامنهم مع اليمين المتطرف، فيرون في Q وسيلةً يمكن الاستفادة منها لتحقيق أهدافهم الشخصية أو المصالح الفورية. على سبيل المثال، كان ترامب متردداً في إدانة QAnon، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه كان يؤمن حقاً بهذه الادعاءات السخيفة؛ ربما كان ذلك جزءاً من اللعبة السياسية بالنسبة إليه للاحتفاظ بدعم القاعدة الداعمة له، وهو تكتيك للاحتفاظ بالسلطة بأي ثمن.

إنه لَأمرٌ لافت كيف انسحب بعض الأشخاص الذين كانوا يؤمنون بنظرية QAnon لترويج أنفسهم في مدّة محدّدة، إذ أعلنوا أن الأفكار التي اعتمدوها في QAnon أصبحت في النهاية غير مقبولة بالنسبة إليهم، مما دفعهم للانسحاب وترك أنصار النظرية في وضع صعب. حتى ألكس جونز، الذي كان من المؤيدين لنظريات المؤامرة، فقدَ الصبر تماماً وأعلن انفصاله اللافت عن جايكوب تشانسلي، الملقَّب بِـ"شامان"، وقضيته المؤامراتية خلال بث مباشر، وقد كانت هذه الخطوة ملحوظةً وحدثت في وقت متأخر (في مقابلة في آذار/ مارس ٢٠٢١). إذ قال جونز لتشانسلي، الشخصية المعروفة في حركة QAnon والذي شارك في اقتحام الكونغرس الأميركي في كانون الثاني/ يناير ٢٠٢١: "لن أستمر في دعم أنصار نظرية Q بعد الآن!... أنا متعَب من كل هذه السحرة والشعوذة وكل شيء... ههههه... آسف يا الله... وداعاً Q، لا أستطيع التحدث معك بعد الآن".[١] وظهر تشانسلي مرتبكاً.

هناك نقطة واضحة يجب التأكيد عليها: "الشعبوية" هو مصطلح يُستخدم أحياناً بطريقة سطحية وحتى بامتهان. ليست المشكلة في الشعبوية نفسها، بل في طبيعة البرامج السياسية التي يروّج لها غالباً الزعماء الشعبويون باسم الشعب.[٢] قدم الشعبويون

1 Joe Sommerlad, '"Bye Q, I can't talk to you any more": What next for Alex Jones, America's foremost conspiracy theorist?', *Independent*, 23 March 2021, www.independent.co.uk/news/world/americas/us-politics/alex-jones-trump-qanon-capitol-b1799038.html.

2 Ernesto Laclau, *On Populist Reason* (London, 2005).

الذين اكتسبوا شهرةً كبيرةً في اليمين (في أوروبا الغربية والشرقية والولايات المتحدة وأميركا اللاتينية، وغيرها) إجابات خاطئة، وحتى مخيفة، وربما مجنونة. يمكن أن تكون هذه الإجابات تصورات متطرفةً للحلول للقضايا الاجتماعية أو السياسية، أو اقتراحات لسياسات تتضمن تطبيقات مثيرةً للقلق أو غير عملية أو غير فاعلة. ومع ذلك، قد يكونون واعين لأسئلة هامة ينبغي للجميع التفكير فيها بجدية. بشكل آخر، يستفيدون من النقد الصحيح والضروري حول الأذى الذي حل بالعديد من المجتمعات في السنوات الأخيرة؛ يلاحظون أزمة الشرعية السياسية التي تحدث بالفعل، على الرغم من أن إجاباتهم تعمق هذه الأزمة كثيراً، وتهدد نظم الديموقراطية. الأسئلة التي قد تُطرح تتعلق بالثمن الباهظ الذي يدفعه الأفراد نتيجةً للسياسات الليبرالية والعولمة وتدفقات الرأسمال غير المنتظمة والاستيلاء الجشع للشعبويين على الأصول. يعتمد أولئك الأفراد على الفهم الشائع بأن أنظمة الحكم أو الديموقراطية والحرية قد تدهورت إلى حد كبير، وأن المجتمعات التي كانت مزدهرةً في السابق تعاني الآن، وأن الوظائف الجيدة أصبحت نادرة، وأن فئةً ضئيلةً من "الفائزين" مفصولة عن فئة واسعة من "الخاسرين"، وأن الشركات كَبرت جداً وأصبح لها الحق في فرض سياساتها على الحكومات.

قد يطرح الشعبويون الاستبداديون، مباشرةً أو ضمناً، أسئلةً مهمةً حول تدهور الخطاب العام، حتى إن كانوا هم السبب وراء تفاقم هذا التدهور وتقديمهم حلولهم المروّعة: لماذا تم تلويث النقاش العام؟ لماذا لا تناقش وسائل الإعلام المواضيع الحقيقية؟ ما مدى تأثير الاقتصاد الرقمي على التواصل الإنساني؟ كيف أدى التواصل عبر وسائل التواصل الاجتماعي إلى الانعزال بين الأفراد؟ بأي طرق ابتعدنا عن مبادئ "الديموقراطية الحوارية"، خصوصاً إذا كانت تطبيقاتها العملية موجودةً حقاً؟ حتى تشانسلي، الذي كان معجَباً كبيراً بترامب، كان لديه فهم أعمق من مجرد الشك بما يحدث في التواصل في المجتمع الحديث، وكيف تؤثر التكنولوجيا ووسائل الإعلام الجماعية، وكان لديه فهم أيضاً بشأن الآثار السلبية للديموقراطية الليبرالية الزائفة والمزيفة. لكنه رأى التهديد واضحاً يشبه "جهاز تأثير"، إذ حذّر من القوى التي قد تتدخل مباشرةً وتسيطر تماماً داخل عقول الأفراد، وذلك حينما أوضح لأحد الصحافيين كيف يعمل الراديو والتلفزيون

على ترددات غير مسموعة تؤثر فعلياً في أمواج الدماغ.[1]

تشمل نظريات المؤامرة مجموعةً واسعةً من الافتراضات والأفكار غير المؤكدة التي تحاول تفسير الأحداث بصورة مختلفة عما هو في العادة؛ في الوقت الحالي، يتميز هذا النوع من النظريات بتحويل انتباه الجمهور من الموضوعات الروتينية والعامة إلى موضوعات غير تقليدية ومغلقة تشير إلى وجود مؤامرات غير مكتشَفة ومظلمة.[2] يتم تداول تلك الأفكار بصورة شائعة في مراكز مختلفة حول العالم، مما يسمح للأشخاص بسماع قصص مذهلة واستكشاف نظريات مقلقة حول مؤامرات مَخفية في الماضي والحاضر، وعادةً ما تُستخدم هذه القصص لتفسير الحالة الصعبة التي يعيشها الناس في الوقت الحاضر. عبر الإنترنت، هناك فرصة كبيرة للاستغلال من قِبل محركات البحث،

---

1 Fredrick Kunkle, 'Trump supporter in horns and fur is charged in Capitol riot', *Washington Post*, 9 January 2021, www.washingtonpost.com/local/jacob-chansely-horn-qanon-capitol-riot/20215/09/01/d3c2c96-52b9-11eb-bda4-615aaefd0555_story.html.

٢ يشير قاموس Merriam–Webster إلى عام ١٨٧١ كأول ظهور لمصطلح "نظرية المؤامرة" في الولايات المتحدة، في حين يُرجِّح القاموس الإنكليزي الأكبر (OED) ظهوره في عام ١٩٠٩. تطور مصطلح "ناشر نظريات المؤامرة" من وصفٍ لشخص يحمل وجهة نظر حول المؤامرة إلى نوعٍ من الشخصيات المفرطة في الشك، الساعيةٍ جاهدةً إلى كشف المؤامرات.
يمكِن الرجوع إلى:

Andrew McKenzie-McHarg, 'Conspiracy Theory: The Nineteenth-Century Prehistory of a Twentieth-Century Concept', in Joseph Uscinski (ed.), *Conspiracy Theories and the People Who Believe Them* (Oxford, 2018), Chapter 4.

كما يمكن الرجوع إلى:

Timothy Melley, *Empire of Conspiracy: The Culture of Paranoia in Postwar America* (Ithaca, 2000); Michael Barkun, *A Culture of Conspiracy: Apocalyptic Visions in Contemporary America* (Berkeley, 2003); Pipes, *Conspiracy; and David Aaronovitch, Voodoo Histories: The Role of the Conspiracy Theory in Shaping Modern History* (London, 2009).

وللدراسات الحديثة حول روسيا وأميركا اللاتينية والشرق الأوسط، يمكن الرجوع إلى العدد الخاص حول نظرية المؤامرة في:

Russian Review, 71:4 (2012);

كما يمكن الرجوع إلى:

Luis Roniger and Leonardo Senkman, *Conspiracy Theories and Latin American History: Lurking in the Shadows* (London, 2021); Matthew Gray, 'Conspiracy Theories in the Middle East', in *Routledge Handbook of Conspiracy Theories*, edited by Michael Butter and Peter Knight (London, 2020).

خاصةً إذا كانت البيانات المتاحة عن مواضيع معيّنة محدودة. العديد من الأشخاص المؤثرين في وسائل الإعلام، المرتبطين بنظريات المؤامرة، يتعاونون للاستفادة من هذه "الفجوات البيانية"،[1] فيقدمون معلومات غير متعلقة بمحتوى البحث الأصلي، بهدف نشر معلومات مضلّلة تشمل تحذيرات مرعبة وملفّقة حول أفعال ومؤامرات مروّعة.

صحيح أن بعض المؤامرات حقيقية، لكن نظريات المؤامرة قد تأخذنا في مسارات تتراوح بين السيناريوهات السياسية المعقولة وغير المحتملة والمدهشة، كأنها جميعاً تستحق الاهتمام نفسه. تقدم تصورات متنوعةً وغير مؤكدة حول الأحداث التاريخية والسياسية. ما خرجت به هذه النظريات هو التالي: المتنورون تدخلوا في الثورة الفرنسية، والفريماسونية ضلّلت في قضية جاك السفاح، وعُلماء النازية الكبار فرّوا من الحلفاء وانتقلوا إلى الغرب، ونائب الرئيس كان ضمن مؤامرة اغتيال جون كينيدي، وأسباب الحرب في فيتنام ومداها لم يكونا كما أُعلن عنهما رسمياً، وهبوط الإنسان على سطح القمر كان مفبرَكاً، والكلينتونيون تآمروا لاغتيال العديد من خصومهم، و ١١ أيلول/ سبتمبر كان عملية كاذبة، ومجزرة ساندي هوك التي راح ضحيتها عشرون طفلاً وستة معلمين كانت تمثيليةً لمهاجمة حق الأميركيين في امتلاك الأسلحة، وبرنامج لقاح كوفيد-١٩ كان مصمماً لتدمير الأفراد، والكائنات الزاحفة الفضائية موجودة هنا بيننا تختبئ سراً. كل هذه النظريات غير مدعمة بأدلة قوية وتفتقر إلى الدليل الموثوق، وتُعتبر مجرد افتراضات لم يثبت صحّتها.

بإمكاننا أن نعيش في عوالم افتراضية متوازية، حيث لا يُتَثَبَّت من الحقائق عبر الإنترنت، وتتحول الخيالات إلى أخبار، وتؤثر التصورات المروّعة في "تحليلات" المشاكل العالمية. في تقرير عن عام ٢٠٢١، ظهرت نظرية مؤامرة حول كوفيد-١٩ ظهوراً واسعاً على فايسبوك باللغة العربية: "بيل غيتس Bill Gates يظهر بزيّ الجوكر، شعره أخضر فائق الصبغة، ووجهه مرسوم باللون الأبيض... في يده إبرة كبيرة ممتلئة بسائل أخضر لامع... كل ذلك تعليق ساخر عن خطّة غيتس المرعبة". هذا مثال واحد فقط من عشرات العمليات التي تهدف إلى نشر المعلومات الكاذبة والترويج لفكرة مقاومة

1 Michael Golebiewski and danah boyd, 'Data Voids: Where Missing Data Can Easily Be Exploited' (2019), datasociety.net/wp-content/uploads/2019/11/Data-Voids-2.0-Final.pdf.

اللقاحات الجماعية، والتي شوهِدت ملايين المرات.[1] قصص شائعة أخرى تحول انتباه القراء بسلاسة عن الحقائق المعروفة، مثل دعم وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية للمجاهدين في أفغانستان (لصد الاتحاد السوفياتي)، أو ادعاء أن هيلاري كلينتون، وزيرة الخارجية حينها، خلقت تنظيم الدولة الإسلامية بصورة متعمدة لتدمير دول النفط العربية والعالم العربي تدميراً دائماً. يعتقد بعض المنظّرين بثقة أن الولايات المتحدة لم تقم فقط بإعادة "طالبان" إلى أفغانستان، بل شكّلت أيضاً تحالفاً مع تنظيم القاعدة لهزيمة تنظيم الدولة الإسلامية، أو يصرون على أن الموساد، أحد فروع خدمات الاستخبارات الإسرائيلية الأكثر شهرة، وراء كل شر وانقسام في كل مكان.

في الختام، قد تتلاشى الفروق بين النقد المنطقي ونمط البارانويا الساذج المتزمت، أو ما يمكن تسميته بـ"تفسيرات الشك المبالغ فيه". في أي مجتمع، يمكن لبعض الأشخاص الذين لا يتعرضون للمضايقات فعلياً أن يعيشوا في شعور بالاضطهاد لمراحل طويلة، وينجذبوا بسبب هذا الشعور نحو الأفكار التي تؤكد بعض النظريات الغريبة. وفي الوقت الحاضر، ينجذب العديد من الأشخاص بسهولة إلى حديث المؤامرات، حتى لو كانوا يستفيدون، على نحو متفاوت، من معلومات مضلّلة تماماً. يمكن للإنترنت أن ينشر القصص بصورة أوسع وأسرع من المعتاد، مما يدفع الأفراد إلى الانضمام بسرعة إلى مجموعات افتراضية مترابطة فضفاضة. أحياناً، تعيد القصص التحريضية وغير الموثوق بها نفسها من منصة واحدة إلى أخرى على وسائل التواصل الاجتماعي أو من تيار سياسي متطرف إلى آخر في بلدان مختلفة، مما يؤدي إلى ترجمة النظريات الجاهزة من بلد إلى آخر.

أحياناً، نجد أنفسنا جميعاً قادرين على إنكار جزء من الواقع أو الشك فيه، وقد نميل أحياناً إلى تضخيم القصص أو إيلاء الاهتمام للرؤى الشاذة أو حتى غير المتناسقة مع ما نسميه "الحقائق". يمكن أن تظهر لدينا إذا كنا أشخاصاً عصبيين بعض سلوكيات البارانويا، وربما حتى سلوكيات نفسية، فنفقد عقلنا لمدة من الزمن، ونعاني من شكوك شديدة، ونتجرع مشاعر الغيرة والكراهية والحسد، أو نُصاب بـ"الغضب أثناء القيادة"،

---

1 Matt Burgess, 'A new type of Bill Gates conspiracy theory is going viral on Facebook', *Wired*, 9 April 2021, www.wired.co.uk/article/bill-gates-conspiracy-theory-arabic.

حيث نفكر في القتل، أو نشعر كأننا على وشك القتل. ولكن بعد ذلك، نعود سريعاً ونَعدل، نتمنى أن نستعيد توازننا قبل أن نفعل شيئاً في هذه الحالة، أو قد نغرق لمدة قصيرة في حالات شديدة من الشفقة على أنفسنا، ونفترض أن المشاكل في حياتنا ليست مرتبطةً بأسباب معقدة، أو حتى ليست لها علاقة بالصدفة أو التبعات العرضية. بدلاً من ذلك، يكون من المغري أن نفترض وجود كيان بشري خفي وشرير يسيطر على مصيرنا، يضطهدنا شخصياً، وهذا يمنحنا الأمل أنه إذا نجحنا في كشف وتدمير هذا المصدر، هذه المؤامرة، فسنصبح أحراراً. نظرية المؤامرة، ببساطة، يمكن أن تلهم مختلف الأشخاص، ليس فقط القلة المعتادة التي تبدو غير عقلانية. في الوقت الحالي، تأثرت المناقشات العامة بشدة بتلك النظريات، مما جعلها صاخبةً ومتصارعة. هذه النظريات تفترض من البداية وجود خطط سرية ضارة بكثرة. إن وظيفة مروجي نظرية المؤامرة هي التحليل الدقيق لـ"التأثيرات" وربطها بالسبب الخفي والسري الذي تنظمه مجموعة من المؤامرين، متجاهلين "المؤامرة" الحقيقية الموجودة بوضوح في الواقع، مثل الصراعات الطبقية والتفاوت الكبير في التوزيع والثقافات أو الأنظمة الحاكمة أو الأيديولوجيات.

أثناء الحرب الباردة، لاحظ العديد من الأطباء النفسيين والمؤرخين كيف أن نظرية المؤامرة وأسلوب الشك المبني على القلق يكونان جاذبَين بصورة خاصة، وبوجه التحديد عندما يكون الشعب تحت تأثير الصدمات أو يشعر بالحبس الشديد، أو عندما يعاني السكان من الاضطهاد والظلم والقلق تحت ضغوط شديدة، أو عند فقدانهم للاستقرار. الوحدة يمكن أن تُفقد الشعور بالأمان فتؤدي إلى القلق، الذي بدوره، يمكن أن يُفاقم الوحدة ويجذب الناس نحو الزعماء الديماغوجيين الخطرين. فلنتذكر ما أشارت إليه أرندت حين قالت إن الشمولية تقوم على "الوحدة المنظّمة"؛ تستفيد الأنظمة الشمولية من هذا الشعور بالوحدة لأنه يجعل الأفراد أكثر استعداداً لقبول السلطة والتحكم السياسي والاجتماعي، فتكون الرغبة في الاندماج والشعور بالانتماء جزءاً من هذه الأنظمة. الوحدة إذاً تُعِدّ الناس للهيمنة الشمولية، وبالمقابل، الشمولية، بمجرد ترسيخها، تقوم دائماً بتدمير الأماكن العامة التي تُخفّف من الشعور بالوحدة، مما يترك كل فرد معزولاً ومحاطاً بدائرة حديدية من الرعب. أشارت أرندت أيضاً إلى أن الشمولية تخلق عالماً

يصعب فيه التفريق بين الحقيقة والكذب. كانت قلقةً بشدة من الديموقراطيات الليبرالية التي أفسدت نفسها وازدادت تورطاً في الأكاذيب والخداع. عرفت أن كل هذه الأمور يمكن أن تؤدي إلى الارتباك الجماعي والعزلة، وربما حتى الجنون، وتدمير أي بقايا للسياسة التفاوضية.

أثناء محاولته الدفاع عن موكله، ألحّ المحامي ألبرت واتكينز Albert Watkins على وجوب النظر إلى الولايات المتحدة ونظامها الديموقراطي الليبرالي في سياق أوسع وأشمل من مجرد الحالات الفردية لدى الجمهور، بل شدّد على ضرورة النظر إلى المواقف والآراء المجتمعية العامة، إذ يمكن للمجتمع بسهولة تجاهل أو حتى تشجيع الهجمات الأساسية على التفكير النقدي لدى الفرد، مما يمكن أن يؤدي إلى حدوث كوارث مثل تلك التي وقعت بتاريخ ٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠٢١. شرح المحامي واتكينز أن موكله كان ضحيةً لغسيل الدماغ وكان تحت سيطرة جماعة خطِرة،[١] وربط المحامي هذه المشكلة بسياسات الكراهية والخداع في الولايات المتحدة. من خلال تصريحات واتكينز، يظهر أنه يعتبر حادث ٦ كانون الثاني/ يناير نقطة تحول هامة في تاريخ الولايات المتحدة. اعتقد أن هذا الحدث دفع المجتمع بصورة عامة إلى التفكير الجدي في دور كل فرد فيه، ودعا الأفراد إلى أن يكونوا أكثر وعياً ومسؤوليةً في كيفية التعامل مع الانقسامات المتزايدة والتعصب والأكاذيب والتضليل التي استمرت لسنوات عديدة في الولايات المتحدة، وذلك من خلال التصدي لها بدلاً من تغذيتها عبر تجاهلها أو التساهل معها.[٢] وبناءً على ذلك، رأى واتكينز أن ٦ كانون الثاني/ يناير كان عاملاً

١ ذكرت *ABC News* أن Albert Watkins، المحامي الذي يمثل Chansley من St Louis، قارن العمل القانوني بعملية غسيل الدماغ أو الانخراط في طائفة. راجع التالي:

'Capitol Hill rioter "QAnon Shaman" to argue he was brainwashed by online cult, as lawyer plans "dumbass" defence', 31 May 2021, www.abc.net.au/news/2021-05-31/capitol-hill-rioters-claim-to-be-brainwashed-donald-trump-fox/100177896.

في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٢١، رفضت المحكمة هذه الحجة، وحُكم على Chansley بالسجن لمدة ٤١ شهراً، تليها فترة إفراج مشروطة لمدة ٣٦ شهراً، مما يعني إطلاق سراحه، لكن إبقاءه تحت المراقبة من قِبل السلطات، ملزماً بالامتثال لشروط محددة خلال تلك المدة.

2 Jan Wolfe, '"QAnon Shaman" lawyer says all Americans had a role in U.S. Capitol riot', Reuters, 22 June 2021, www.reuters.com/world/us/qanon-shaman-lawyer-says-all-americans-had-role-us-capitol-riot-2021-06-22/.

محفزاً لتسليط الضوء على دور كل فرد في خلق التواصل الاجتماعي البنّاء بين الأفراد والمجتمع أو تقويضه. دعا إلى النظر في الإسهام الإيجابي الذي يمكن أن يقدمه كل فرد لبناء مجتمع متماسك ومستقر.

استكشف هوفشتادتر مشكلة الأكاذيب الواسعة والصور المغلوطة التي غالباً ما يُفترض أنها تدعم نظرية مؤامرة معيّنة، وذلك قبل ستين عاماً. ناقش هوفشتادتر السياسة، والشك الشديد، ونظريات المؤامرة التي انتشرت في الخمسينيات، وكان التركيز بصورة خاصة على الشكوك التي أُثيرت حول المؤامرات الشيوعية الخفية في الولايات المتحدة.[١] ألقى محاضرته حول النمط الساذج في جامعة أوكسفورد في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٣. يُعتَبَر هذا العام مهمّاً لأنه جاء بعد أزمة الصواريخ الكوبية، التي شهدت اقتراب القوى العظمى مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي من تبادل نووي مدمّر. قُدّمت المحاضرة في اليوم الذي سبق اغتيال الرئيس كينيدي، مما أضفى أهميةً جديدةً لأفكاره ومجموعةً هائلةً من النظريات، بعضها ما زال يثير اهتمام الناس. بالنسبة إلى كثيرين من الأميركيين، كانت الأحداث الكارثية في دالاس نقطة تحول مربكة، حيث فقد الكثيرون الثقة في الحكومة، وكأن هذا الحدث كان بدايةً فعليةً لمرحلة الستينيات المضطربة، وانطلاقةً لِما عُرف بـ"عصر التفكك" الذي

---

١ حتى "سقوط" الصين في عام ١٩٤٩ كان نتيجةً لمؤامرة نشأت في النهاية داخل الولايات المتحدة كما أصر السيناتور McCarthy ؛ مؤامرة "هائلة للغاية"، وأضاف أنها "تتجاوز أي محاولة سابقة مماثلة في تاريخ البشرية". المصدر هو التالي:

(sourcebooks.fordham.edu/mod/1951mccarthy-marshall.asp).

وكان هذا اعتقاداً دينياً للعديد من المعلقين اليمينيين بعد الحرب، إذ اعتبروا أن الثورة الصينية تتطلب تدخلاً من خونة أميركيين؛ وأنها لا يمكن أن تكون نتيجة فقط تراجع دعم الحكومة الوطنية المعروفة وانتشار شعبية Mao. راجع الكتاب التالي:

David Brion Davis (ed.), *The Fear of Conspiracy: Images of Un-American Subversion from the Revolution to the Present* (Ithaca, 1971), p. 265.

وفي مقاله "Paranoid Style" [نمط البارانويا]، أشار Hofstadter إلى دور Robert Welch، صانع الحلوى المتطرف والمؤمن بنظرية المؤامرة، الذي أسّس John Birch Society في عام ١٩٥٨. هذه الجمعية سعت لتمثيل الأشخاص البيض الذين يشعرون بالظلم ويعتقدون أنه يجب عليهم استعادة الامتيازات والحقوق والمكانة التي كانت موجودة لهم في السابق، بدلاً من الاكتفاء بالتقدم في حقوق الأشخاص من الأعراق غير البيضاء. (ربما كان Welch يفهم شعار Trump جيداً: "لا تجعلوا أميركا فقط عظيمةً، ولكن اجعلوها تستعيد عظمة الماضي ومجدها، من أجلهم").

تميز بزيادة الانقسامات والتفكك في المجتمع والثقافة والسياسة.[1]

هناك تباين بين وجهات النظر السياسية الرئيسية في الديموقراطيات الغربية بعد الحرب العالمية الثانية وبين نظريات المؤامرة غير العادية التي يؤمن بها الأفراد الذين يُعتبرون في العادة جزءاً من الطيف السياسي الذي يتضمنه تيار المنظمات المحافظة والعنصرية مثل جمعية John Birch في الولايات المتحدة. النقطة الأساسية هي ألا يجب أن نغفل عن تصريحات وسلوكيات بعض الشخصيات المؤثرة في الساحة السياسية التي بدت مليئةً بالشكوك المفرطة أو السذاجة، وقد قام بعض أطباء النفس بتحليل تصريحات وسلوكيات قادة بارزين في الولايات المتحدة مثل جون إدغار هوفر رئيس الـFBI وباري غولدووتر Barry Goldwater وريتشارد نيكسون من حزب الجمهوريين، إذ كانت هناك شكوك حول صحتهم العقلية، وقد ارتفعت هذه القضية إلى أوجها خلال الانتخابات الرئاسية في عام ١٩٦٤، حين خاض غولدووتر السباق وخسر أمام ليندون جونسون.

مواقف غولدواتر، المرشح الجمهوري للرئاسة في انتخابات الولايات المتحدة عام ١٩٦٤، كانت متطرفةً تجاه الشيوعية، وتصميمه الشديد على الحفاظ على المواقف التقليدية والمحافِظة ومعارضته القوية للإصلاحات الرئيسية في حقوق

١ تقرير عن كتاب *Age of Fracture* [عصر التفكك] لِـDaniel Rogers الذي نُشر في عام ٢٠١١، ويتناول تأثير حادث اغتيال Kennedy في دالاس في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٣، الذي أدى إلى ظهور عدد من نظريات المؤامرة. هذه النظريات زادت من شكوك الناس وجعلتهم يفقدون الثقة بحكومتهم خلال الستين سنة الماضية. هناك شكوك لدى بعض الأشخاص حول ما إذا كان Lee Harvey Oswald قد تم "غسل دماغه" في روسيا، أو إذا كانت هناك قوى قوية داخل أو خارج الحكومة قد أقنعت بشكل خاطئ الملايين بأنه المسؤول عن الاغتيال على الرغم من تأكيده أنه ألبس التهمة. تساءل البعض عن التقرير الرسمي، المعروف بـWarren Report، لمعرفة إن كان هذا التقرير مجرد خطأ، أم كان مضللاً عمداً، كما تساءل البعض عما إذا كان الفيديو الذي يُظهر لحظة موت Kennedy، والمعروف بفيلم "Zapruder"، قد تم التلاعب فيه من قِبل جهات الأمن. توجد العديد من الكتب التي تستكشف هذه الأفكار، أحد الكتب الموصى بها هو:

Art Simon, *Dangerous Knowledge: The JFK Assassination in Art and Film* (Philadelphia, 1996).

وتشمل الدراسات البارزة الأخرى حول نظريات المؤامرة وتأثيرها على المجتمع والسياسة المراجع التالية:

Mark Fenster, *Conspiracy Theories: Secrecy and Power in American Culture* (Minneapolis, 1999); George Marcus (ed.), *Paranoia Within Reason: A Casebook on Conspiracy as Explanation* (Chicago, 1999); and Melley, *Empire of Conspiracy*.

الإنسان دفعت العديد من الأطباء النفسيين إلى اعتباره خطراً كبيراً على البلاد وبأنه يعاني من "حب العظمة" و"مرض الاضطهاد". بعد هزيمته في الانتخابات، تقدم غولدواتر بشكوى إلى الجمعية الأميركية للطب النفسي (APA) بسبب التشخيصات السلبية التي أصدرها بعضهم حول حالته العقلية. إن حملة الانتخابات المؤيدة للمنافس ليندون جونسون سخرت بشدة من غولدواتر، وكانت عبارة "في قلبك تدرك أنك مجنون" واحدةً من الأساليب المستخدمة للهجوم عليه وللشك في عقلانيته ومصداقيته. عقب هذا الوضع، أنشأت الجمعية الأميركية المذكورة حكم غولدووتر الذي حثت فيه على عدم السماح لأطباء النفس بالتعليق على الشخصيات العامة التي لم يتم فحصها شخصياً.[١]

أُعيدت تلك النقاشات إلى الواجهة مرةً أخرى في عهد ترامب، ولكن الجدل في الستينيات وفي العقود الفائتة من هذا القرن، لم يكن مجرد مسألة تحديد ما إذا كان زعيم معيّن يعاني من مرض عقلي أم لا، بل كان يرتبط بكيفية انتشار النمط الساذج عبر فئات المجتمع وأسبابه، وتبنّيه بقوة في الحركات السياسية. وتتعلق المسألة أيضاً بسبب قدرة القادة الشعبويين الاستبداديين، الذين يروجون لآراء المؤامرة ويعتمدون الأسلوب الشديد الارتيابي، على تحقيق نجاحات بارزة في بعض الأحيان. من دون أدنى شك، انتشر الأسلوب الشديد الارتيابي في الغرب وحول العالم في الألفية الجديدة، ويرجع ذلك جزئياً إلى الإنترنت والتأثيرات المترتبة على ذلك من أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر وأزمة الاقتصاد في عام ٢٠٠٨ وجائحة كوفيد-١٩. يشير الباحثون عبر القارات إلى كيف أصبح عدد كبير من الأشخاص اليوم مستعدين للشك في "الحقائق" التي تُعرَض لهم، وهم يشكّون بشدة بالمعلومات الحكومية، ولا يثقون بنزاهة الهيئات الرسمية، وينتقدون ضمناً أو على نحو صريح مختلف أشكال الفلسفة الليبرالية والتقاليد الديموقراطية الليبرالية التي سادت التفكير السياسي الغربي حتى نهاية الحرب الباردة.[٢] وتضعف ثقة الرأي العام

---

1 Gerstle, *American Crucible*, p. 243.

يمكن الرجوع أيضاً إلى الرابط التالي:

www.psychiatry.org/newsroom/goldwater-rule and psychnews.psychiatryonline.org/doi/full/10.11762%Fpn.42.10.0002.

٢ لليبيرالية والنيوليبرالية والعدالة الاجتماعية والسياسات المضادة للديموقراطية، راجع التالي:

في الغرب حول مصداقية السلطات الحكومية، وتتلاشى أحياناً، مما يخلق فراغاً يمكن لأشكال الشعبوية الأكثر تعصباً وتأثيراً الاستيلاء عليه.[1]

على الرغم من أن فكرة "المستقبل الخالي" أو "العيش في زمن النهاية" ليست جديدة على الجميع، فالكثير من المواطنين يشعرون، في الآونة الأخيرة خاصةً، بأنفسهم في وضع أكثر خطورةً وتعقيداً، ويدركون بوضوح تراجع الأوضاع المادية مقارنةً بأجدادهم أو آبائهم. بلا شك، نحن جميعاً نشعر بالحاجة الماسة إلى شرح (إن لم يكن تبريراً) عن الحالة الحالية لعالمنا وشكل المستقبل. يتخيل الناس كوارث بيئيةً أكبر وزيادةً في الفوضى السياسية والعسكرية والاقتصادية، فحتى الأشخاص ذوو الامتيازات الكبيرة، تلك النخبة التي تشكل ١ % من أغنى الأغنياء، يشعرون بالقلق العميق والضياع حيال ما يمكن القيام به. في هذا الوقت، يقوم بعض المليارديرات في تلك النخبة الضئيلة ببناء ملاذات يُعتقد أنها تحمي من الكوارث في نيوزيلندا، استعداداً لأوقات النهاية.[2] في الواقع، في مرحلة ما بعد الحرب، كان من السهل تصوّر أوقات النهاية في الغرب والشرق، في النظامين القديمين الرأسمالي والشيوعي، حتى إن كانت فترة العمل وسبل العيش أكثر أماناً وتوقعاً للغالبية مما هي عليه اليوم. كل ذلك كان مصاحِباً لانتشار مخاوف نووية واسعة في تلك

Michael Sandel, *Liberalism and the Limits of Justice* (Cambridge, 1982); and idem, *The Tyranny of Merit: What's Become of the Common Good?* (London, 2020); Katrina Forrester, *In the Shadow of Justice: Postwar Liberalism and the Remaking of Political Philosophy* (Princeton, 2019); Wendy Brown, *Undoing the Demos: Neoliberalism's Stealth Revolution* (New York, 2015); and idem, *In the Ruins of Neoliberalism: The Rise of Antidemocratic Politics in the West* (New York, 2019).

١ جرى استطلاع كجزء من مشروع بحث في جامعة كامبردج حول المؤامرات والديموقراطية، بواسطة شركة YouGov في عام ٢٠١٨. هدف هذا الاستطلاع تقييم مدى اعتقاد الأفراد في نظريات المؤامرة في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ودول أوروبية عدة. يمكن الاطلاع على تفاصيل هذا الاستطلاع عبر الرابط: www.crassh.cam.ac.uk/programmes/conspiracy-democracy. بالإضافة إلى ذلك، هناك ملخص للتقرير في صحيفة *Guardian* لـEsther Addley وهو التالي:

'Study shows 60% of Britons believe in conspiracy theories', 23 November 2018, www.theguardian.com/society/2018/nov/23/study-shows-60-of-britons-believe-in-conspiracy-theories.

2 Mark O'Connell, 'Why Silicon Valley billionaires are prepping for the apocalypse in New Zealand', *Guardian*, 15 February 2018, www.theguardian.com/news/2018/feb/15/why-silicon-valley-billionaires-are-prepping-for-the-apocalypse-in-new-zealand.

المرحلة، ولذا لم يكن من غير المنطقي الشك في أن النهاية المروّعة كانت محتملة.

لنوضح الأمور، قد تحدث المؤامرات الخطرة الحقيقية في أي دولة أو منظمة تتجاوز الحدود الوطنية للدول الفردية، ومع ذلك، يعمل نمط البارانويا الارتيابي على خلق الخوف والاستفادة منه، إذ يفترض وجود عدو مخفي، يتم تجسيده في العادة وليس دائماً عبر صور نمطية وعنصرية لشخصيات شريرة. قد يدفعنا هذا النمط إلى التحريض والانحياز وجلب انتباه المتابعين نحو "تفسير ما ورائي" محدد، وإدانة تهديد حرية الإنسان العامة، ثم تقديم حل جذري أو صارم أو فاشي للمشاكل الاجتماعية. يميل نمط البارانويا إلى إيجاد تفسيرات خيالية أو مبالغ فيها للأحداث الحقيقية؛ يلقي اللوم في هذا السياق على مشاكل موجودة، لكنه يقدم رؤيةً غير حقيقية أو تفسيراً خاطئاً لهذه المشاكل. هناك قوى غامضة تشكل مصدر قلق له فيعيد انتقاده لها بصورة اعتيادية وبحكم مسبق منه، بدلاً من تمكين الفرد من رؤية التاريخ المعاصر على أنه مسألة تتعلق بمشاكل اجتماعية معقدة، واختيارات سياسية مفتوحة وصراعات وأيديولوجيات منافسة. ليس النقد لنمط الخطاب الذي يجذبنا نحو نظريات المؤامرة بالضرورة إنكاراً للأنشطة الخبيثة والسرية التي قد تحدث داخل أي حزب أو حكومة.

يشكل التعامل مع المشكلات الحقيقية وفهمها دون الوقوع في النمط الساذج تحدياً حقيقياً، ليس الأمر بالبساطة التي يبدو عليها عند الحديث عنه. يواجه الأفراد والمجتمعات صعوبات في الاعتراف بتلك المشاكل الحقيقية وتقييمها ومواجهتها بفعالية. إن الاعتراف بالتحديات والفروقات بين الطبقات الاجتماعية أمر مهم، لكن تنفيذ ذلك في الواقع يُعتبر أمراً صعباً. تستمر المناقشات حول كيفية تحديد تلك الفروقات والتعامل مع المشاكل الحقيقية التي تواجه فئات مختلفةً في المجتمع، سواء كانوا في الطبقات العليا أو الوسطى أو الدنيا من التسلسل الاجتماعي. إن هؤلاء الأفراد معرَّضون لتأثيرات متنوعة، بمن في ذلك الذين يعيشون في "المجتمعات المحصَّنة" والمناطق المنعزلة، والقادة ذوو النفوذ الكبير، وكذلك الأفراد الذين يحاولون الحفاظ على استقرارهم الاجتماعي، أو المحرومون الذين يواجهون صعوبات في الحصول على معلومات موثوقة أو في القدرة على فهم الأمور على نحو صحيح دون الحاجة إلى أدوات تحليل معيّنة.

في المجتمعات المهمَّشة، مثل مناطق "الحزام الصناعي" في الولايات المتحدة والمناطق الداخلية أو الساحلية المهملة، كما وصفها بوب ديلان Bob Dylan في إحدى أغانيه: "لا يحتاج الإنسان إلى متنبئ جوّي ليعرف اتجاه الريح". تشير التقارير الاستطلاعية إلى شك متزايد في آراء الناس في أوروبا القارية، وفي الولايات المتحدة خلال انتخابات عامَي ٢٠١٦ و٢٠٢٠، وحتى في بريطانيا خلال خروجها من الاتحاد الأوروبي (بريكست) عام ٢٠١٦ وفي مرحلة الجائحة العالمية الحالية، مما يُبرز عدم الثقة العميقة في السلطات التقليدية والنخبوية. ومع ذلك، تستمر شعبية السياسيين الذين يجيدون استخدام وسائل الإعلام، وخصوصاً تلك الشخصيات على اليمين المتطرف الذين يستهوون الجماهير، جنباً إلى جنب مع مؤيدي نظريات المؤامرة والفاشيين المتطرفين، واضحةً في العديد من البلدان. هناك شعبيون يساريون بارزون، خصوصاً في أميركا اللاتينية وأوروبا، يستخدمون السرد التآمري أيضاً، لذا لا أقصد أن هذه الظاهرة حكرٌ على الجناح اليميني فقط. في العقد الأخير، أعتقد أن الأمثلة الأكثر بروزاً وتأثيراً في البلدان الغربية جاءت من الطيف السياسي اليميني.

في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، تبنى قادة مثل ترامب وبولسونارو فكرةً مهمةً من دليل الإمبراطور الإعلامي اليميني الإيطالي، الذي تحول إلى سياسي، سيلفيو برلسكوني Silvio Berlusconi، الذي تسلم منصب رئيس الوزراء لأول مرة في عام ١٩٩٤. قبل ظهور الإنترنت كوسيلة اتصال متطورة، كان برلسكوني ماهراً في استحواذ الانتباه الإعلامي، فاستفاد من ملكيته لقنوات التلفزيون وجذب جماهير ضخمة بأسلوبه الشعبي. تميّز هؤلاء السياسيون بالظهور الكبير والنجاح وفي الوقت نفسه بالتقارب من عامة الشعب والطبقة العاملة كجزء من الاستراتيجية الهادفة إلى كسب تأييدهم ودعمهم، وذلك على عكس النخبة السياسية المعروفة. عرض هؤلاء السياسيون، مثل برلوسكوني، مهارةً كبيرةً في تحديد جدول أعمال الأخبار اليومية، حيث ظهروا دائماً بمظهر كبير وحيوي وفي الوقت نفسه طبيعي مقارنةً بالسياسيين المحترفين الذين يظهرون كـ"روبوتات". يمتلك هؤلاء القادة الكاريزميون فريقاً من "صانعي الرأي لدى الناس" للتأثير على الجمهور وتوجيهه نحو دعم هؤلاء القادة للحفاظ على مجدهم.

قد يدفعنا النقاش الحالي حول هؤلاء القادة، خاصةً ترامب، وما يمثلهم، لمناقشة تاريخ استخدام الكذب في السياسة. كانت الصحف تسجل أكاذيب ترامب يومياً أثناء رئاسته، فأثارت هذه الحقيقة الانطباع بأننا نتحرك في مجال جديد وغير مستكشَف فعلاً. كان الحجم الضخم للكذب حقاً ملحوظاً. رأى بعض المحللين أن مستوى هذا الكذب لا مثيل له، وأنه يعكس نوعاً جديداً من السياسة، وهو أسلوب سياسي يعتمد على العار والتصرفات غير المسؤولة، التي قد تكون ناتجةً عن تأثير الخطاب والتفاعلات على الإنترنت اللذَين يدفعان السياسيين إلى الاهتمام بالمظاهر والأبّهة فقط دون النظر إلى النزاهة. يشير بعضهم إلى عصر ما بعد الحقيقة، ويرى آخرون ارتفاعاً دورياً في استخدام الكذب في السياسة. في العقد أو العقدين الأخيرين، كثُر الحديث عن الصراحة والكذب الواضح الذي يتبناه بعض الزعماء السياسيين. يلمّح هذا إلى تغيّر عن النهج السابق للسياسة الليبرالية الذي كان أكثر حذراً وأحياناً نفاقاً منذ نحو عام ١٩٤٥. يتساءل الناس: هل نشاهد نوعاً جديداً من التباهي المتفاخر، وحديثاً عن "الصراحة المفتوحة"، وتبنّياً جريئاً للخداع بطرق جديدة لم نشهدْها من قبل؟ وماذا نستنتج من العرض العمدي تقريباً لعدم الوفاء الزوجي على نحو علني لقادة وطنيين مثل برلسكوني وترامب، وحتى جونسون في بريطانيا؟ هل نعيش الآن في عالم يتطلب التعبير العلني عن الخداع الشخصي والسياسي لخلق صورة معينة؟ هل نشهد تصوراً معكوساً للشرف، بحيث يُتبع سلوك يتعارض مع المعايير الاجتماعية المألوفة للشرف والأخلاق؟ هل نسعى، على الأقل جزئياً، لضرب المساواة بين الجنسين وانتقاد "الصواب السياسي"؟ هل نستخدم كل ذلك كوسيلة لإثبات قدرة القادة الشعبويين على جذب انتباه الناس بسهولة ومن ثم تجاهلهم دون اكتراث، وللظهور بشكل يعكس الطابع الرجولي لتحقيق النجاح البارز؟

بالرغم من إمكانية تغيّر القيود والأخلاقيات السياسية، فإن النقاش حول الفساد وتدهور القيم السياسية، بالإضافة إلى من يحرس الحراس، ومن يراقب الشرطة، ومن يحكم بين الحقيقة والكذب، ومن يستطيع حماية المواطنين من القصص الضارة والكاذبين الذين يهددون الدولة، هو جملة مسائل قديمة في عالم الفلسفة السياسية. في زمن الحرب الباردة، تجدّد هذا الموضوع، وكما الحال اليوم، هناك العديد من المناقشات حول الحقيقة والكذب في سياق السياسة الغربية، أو حول كيفية حماية النزاهة في الحوار

العام في ديموقراطية صحية.

بعنوان "Lying in Politics" [الكذب في السياسة]، كتبت أرندت مقالاً هاماً في عام ١٩٧٢، هو استجابة جزئية لتسريب "أوراق البنتاغون" (Pentagon Papers)، وهي مجموعة من الوثائق السرية التي سلمها مسؤول دفاع أميركي آنذاك، دانيال إلسبيرغ Daniel Ellsberg، لوسائل الإعلام.[١] كشفت هذه الوثائق الكثير عن حرب فيتنام وميدان الكذب السياسي الواسع الذي ترافق مع إجراءات الجيش الأميركي تحت حكم كل من كينيدي وجونسون ونيكسون. لاحظت أرندت بحق أن الأكاذيب في الحياة العامة قديمة، وأن أي نظام سياسي لا يمكنه العمل من دون بعض الصمت الديبلوماسي والتهرب لتجنب التوترات الدولية، أو أحياناً الذعر الجماعي. وطلبت من القراء التفكير في الصفات البشرية الأساسية، مثل عرضتنا المشتركة للانجذاب للكذابين وقبولنا للتضليل أو التجاهل، كما طالبت بالتركيز على الظروف الاجتماعية والمؤسسية التي قد تعزز أو تقيد هذه السلوكيات، وحثت السياسيين والموظفين الحكوميين والناخبين على عدم الانجراف نحو حكم مبني على الكذب المستمر.[٢]

تذكرنا أرندت بأهمية التفكير في الكذب في السياسة من زوايا مختلفة. لاحظت قدرة بعض الأشخاص ذوي السلطة على التلاعب بطرق عدائية مخادعة، ونزعة جزء كبير من الجمهور لتقبّل الخداع، ودور الموظفين في الوزارات والجامعات ومراكز الأبحاث والجهات ذات الصلة. هؤلاء الموظفون والمستشارون والمحللون والفنيون الملقّبون بـ"حلّالي المشكلات" قد يكونون صادقين ومتحدّين ومتخصصين جيدين، ومستقلين وذوي أخلاق عالية في أداء مهامّهم، وربما يكونون ضمائر حاسمةً وحراساً للديموقراطية، ومع ذلك، غالباً ما يتحول مثل هؤلاء إلى مسؤولين مستبدين أو ربما

١ سرّب المسؤول الدفاعي والمحلل العسكري Daniel Ellsberg معلومات جعلته شهيراً كشخص يكشف الفساد. تبعه آخرون مثل Edward Snowden. التسريب الذي قام به Ellsberg، المعروف باسم Pentagon Papers، كشف الكثير عن سياسات فيتنام وكشف عن كيفية تضليل الحكومة في تصريحاتها حول حجم الصراع وتأثيره خلال الستينيات. قبل أن تكتب Arendt عن هذا، نُشر كتاب يسلط الضوء على هذه القصة الهامة، وهو التالي:

Neil Sheehan et al., *The Pentagon Papers: The Secret History of the Vietnam War* (New York, 1971).

2 Hannah Arendt, *Crises of the Republic: Lying in Politics, Civil Disobedience, On Violence, Thoughts on Politics and Revolution* (New York, 1972).

متأثرين عقلياً، يعملون بنوع من الأوتوماتيكية لإنجاز المهام والحفاظ على مسار حياتهم المهنية. كانت أرندت تفكر في المسؤولين الغربيين الذين قد يُحدثون تأثيراً على مصير الشعوب دون معرفة كافية عنها، أو ربما دون اهتمام حقيقي. رأت هؤلاء الحلّالين ورثة لأيديولوجيا عصر الحرب الباردة، فكانت هذه الأيديولوجيا تعتبر مناطق العالم تجاربَ أو فصولاً في قصة أكبر، لذا رُبما اعتُبِرَت فيتنام مجرد قطعة في لعبة الشطرنج العالمية بين القوى الكبرى. يمكن أن يتعرض بلد أو شعب ما لأضرار غير مقصودة في المهمة العالمية لـ"احتواء الصين" بطرق مختلفة. كما أشارت أرندت إلى الدور المؤثر لتقنيات الإعلان في شارع ماديسون في الخداع السياسي المعاصر.

في مجتمع مزدهر وديموقراطية ناجحة، أوضحت أرندت أن السياسة لا ينبغي أن تقتصر على قصة الزعماء والأحزاب الرسمية وعمليات التصويت العرضية. شددت على تعقيدات المجتمع المدني وأكدت أهمية الهيئات النقدية والتفتيشية، مثل المهن القانونية المستقلة الفاعلة ووسائل الإعلام والخدمة المدنية القوية، بمهاراتها وقواعدها، وعلاقتها غير المباشرة مع السلطة التنفيذية، والإرشاد الأخلاقي الملائم، في تقديم الدعم للحكومة ومراقبتها وتقييدها أحياناً. من السهل إتلاف أو تدمير هذا التوازن الضروري للهياكل، ولكن من الصعب إعادة بنائها من جديد. نحن نسعى في النهاية إلى بيروقراطيات فاعلة، لا بيروقراطيات غير إنسانية، ونلجأ إلى القانون (أو حتى "مشاريع القانون الجيد"، كما يُقال في عنوان منظمة تُطالب حكومة المملكة المتحدة بالمساءلة) لتنقية السياسة، وليس فقط لفرض إرادة حزب أو قائد.

في المجال السياسي، لاحظت أرندت أن التلاعب بالحقائق يُظهر مهارةً لدى السياسيين الكاذبين في فهم النفس الجماعية واستغلال توقعات الجمهور وتردده في التخلي عن المفاهيم المعتادة، فقد يكون الجمهور الناخب مفتوحاً لتلاعب يؤدي إلى إيهامه بالأكاذيب الفردية أو بأكاذيب منظمة من جماعات أو دول أو فئات خاصة تؤدي إلى تفتيت الجمهور الناخب.[1] الكاذب في السياسة يتمتع بميزة واضحة، إذ يمكن أن يبدو الكذب أكثر قناعةً وواقعيةً وأكثر قبولاً من الحقائق الصعبة. قد يكون الكاذب على دراية بتوقعات الجمهور أو بما يفضّل سماعه. قد يكون ماهراً للغاية في صياغة قصص تبدو

1 Ibid., p. 6.

"مقنعة"، بينما "يُفاجئنا الواقع دائماً بما لم نكن نتوقعه".[1] السؤال هو: كيف يمكن احتواء مثل هذه السلوكيات نحو الخداع الذاتي والكذب، أو مقاومتها أو التصدي لها بفعالية؟

بمجرد أن نشير إلى كلمة "سياسة" الآن، أو نطمح إلى رؤية تجديدها في المستقبل كوسيلة لمحاربة مثل هذه الآفات، علينا أن نتذكر النمط الذي أثنت عليه أرندت. إن السياسة بالنسبة إليها تعني عملية يجتمع فيها الشعب في تعدده للتفاعل سلميّاً لمناقشة المشاكل الحقيقية ومحاولة التوصل إلى حلول جماعية، مع النظر في هذه المسائل بصورة كاملة وبطريقة مداولة ومناسبة.

السياسة إنجاز، وربما حتى مثالية. يمكن أن تنبثق فجأةً، ولكنها قد تختفي بصورة مأسوية، حتى في ظل وجود ظروف الديموقراطية التمثيلية. تتطلب السياسة مناقشات مستمرةً في منتديات مناسبة. إذا قبلنا أن السياسة تقتصر على التصويت العرضي، والتصفح عبر الإنترنت، أو التغريد الغاضب، بينما تعمل الإدارة سراً بلا رقابة، فقد خسرنا النصف الأول من المعركة. بالنسبة إلى أرندت، الحرية هي جوهر السياسة التي دائماً تتيح فرصةً لظهور شيء جديد ومثير للدهشة. المجتمع بحاجة إلى مساحات مفتوحة حيث يتم إنشاء الأفكار ووضعها تحت المجهر من خلال استكشاف نشط وفحص نقدي؛ يحتاج المجتمع، بصورة عامة وليس فقط في مناطق محددة، إلى وجود منصات تمكّن الناخبين من الحصول على معلومات شاملة وموثوقة، مما يُتيح لهم المشاركة في النقاشات السياسية، وفحص الحقائق قبل اتخاذ قراراتهم السياسية، ومساءلة الحكومة. المجتمع، كما رأت أرندت، يحتاج إلى حوار مشترك يتجاوز كل الاختلافات. ليس المجتمع الحيوي مجرد دولة تصوّت فيها الأغلبية كل بضع سنوات، أو ربما لا تصوت حتى بسبب اللامبالاة أو السخط أو الحرمان، فتُترك الأمور على ما هي عليه.

في السياسة، يبدو واضحاً أن قدرتنا على التفكير والتأمل، والابتعاد عن نمط البارانويا، قد تحظى بالدعم، إذا كنا محظوظين، ليس فقط من خلال العائلة والأصدقاء، بل أيضاً من خلال الباحثين والصحافيين الجادين وزملاء العمل ومجموعة متنوعة من المعلمين الرسميين وغير الرسميين، ومن خلال الكتّاب المسرحيين وصناع الأفلام والكوميديين

---

1 Ibid., p. 7.

والرسامين والفنانين وغيرهم من المعلقين الذين يتحدّون السلطة بالحقيقة. ومن الواضح أن هناك افتقاراً من جانب السلطة للتفكير الحقيقي في عيوب المجتمع ووجهات نظره المتنوعة، إذ لا تبدي الاهتمام الحقيقي أو الاعتراف بالنواقص أو وجهات النظر المتنوعة داخل المجتمع، مما يعني عدم استعداد السلطة تماماً لفحص القضايا والتحديات والآراء المختلفة الموجودة في المجتمع بصدق. بدلاً من ذلك، قد تتجاهل السلطة أو تتلاعب بهذه الوجهات المتنوعة للحفاظ على سردها الخاص أو السيطرة على انطباع الجمهور،[1] وبالتالي، ينكمش المجتمع المدني تحت تأثير السلطة، كما لو كانت ديكتاتورية تُسيطر على الحقيقة وتقيد حرية الفرد.

في هذا السياق، تأملت حنة أرندت في أفكار جون آدامز John Adams، الرئيس الثاني للولايات المتحدة، وتوسيع نطاق حديثه عن أهمية الحوار النقدي والتشاور والتمثيل، وأشارت إلى ضرورة أن تخلق ثورة الاستقلال الأميركية الظروف المناسبة للحوار والإقناع والتباحث في الأفكار دون فرضها بالقوة على الآخرين. فهمَ الآباء المؤسسون للولايات المتحدة أن الكيان السياسي الجديد يحتاج، بعد العنف الذي شهدته الجمهورية الأميركية في بداياتها، إلى دعم وتغذية مستمرة للحوار العقلاني والجدل، وهذا يشمل توفير الموارد الملائمة والأماكن والفرص المستدامة للأفراد للتجمع كمتساوِين لاستعراض ومناقشة الآراء والخلاف واتخاذ القرارات والتعلم؛ تعكس هذه النظرة الرغبة في حق متساوٍ في التجمع، وضرورة تأمين وسائل فاعلة للتباحث الكامل في الشؤون العامة. مصطلح "التشاور" هنا له دور أساسي. كتب آدامز عن الظروف التي تسهّل "الاختيار التشاوري"، وروح الثورة الأميركية الأصلية، وافتراض الحق في التجمع، من أجل "التشاور في الشؤون العامة". نحن بحاجة، في الواقع، إلى التشاور أو التفاوض بنشاط حول ممثلينا المختارين، وفهم ما يرغبون في تنفيذه وما يقفون من

---

١ كانت Arendt ترى أن الثورة الفرنسية، ورغم فشلها وما أدّت إليه من ظهور أشكال جديدة من الديكتاتورية، غالباً ما تُعتبر النموذج الرئيسي لجميع الثورات، بينما كانت الثورة الأميركية تعتبر شيئاً فريداً أو صعب الاقتداء به. لاحظت Arendt تناقضاً كبيراً في بلد يُبنى على فكرة الحرية وفي الوقت نفسه يعتمد على نظام العبودية. لكنها أرادت أن يركز الناس على مبادئ الآباء المؤسسين. كانت تشعر بالأسف لأن الأجيال اللاحقة من الأميركيين لم تستمر في التفكير بثورتهم وفهمها بصورة أفضل بعد تأسيس الجمهورية. يمكن الاطلاع على تفاصيل أكثر حول هذا في مقال:

Arendt, 'The Freedom to Be Free' [1966–7], *New England Review*, 38:2 (2017), 56–69.

أجله ويمثلونه. التشاور يعني اتخاذ القرار بعناية، ليس عشوائياً فقط، أو عاطفياً، أو بطريقة عبثية، وليس من خلال استخلاص فكرة من الهواء أو التماشي مع رأي سائد. لقد ناقش الفلاسفة السياسيون أعمال أرندت وتحدثوا عنها بعد نشرها، ومع ذلك، تبدو مطالبات أرندت بالتشاور والحوار الآن، كما في الماضي، غير واقعية ويائسة، ويبدو أننا بعيدون جداً عن هذه الفكرة المثالية من المطالبات إلى درجة أن حتى طرحها كهدف قد يجلب السخرية، لكن رغم ذلك، فإنه من غاية الضرورة أن نُبقي هذه الرؤية للسياسة في الاعتبار، أقلّه كي نرى كم نحن على مسافات من تحقيقها.[١]

الأمثلة الفظيعة اليوم على استغلال مشاعر الناس ورغباتهم في التعبير، وميل الجماهير للغضب والخوف والشكوك والآمال عبر الإنترنت لخلق ثروات فردية وشركاتية وتدمير الديموقراطيات، تدعونا للنظر في سؤال أعمق: كيف استطاعت الرأسمالية أن تتكيف على نحو كبير مع تغيّرات العصر، وكيف سحبتنا إلى أشكال جديدة مشتركة من الخيال والإنكار؟ بعض النقاد من اليسار يصرون على أنه يجب علينا مواجهة الوهم القاسي بأن الديموقراطية التشاورية والعدالة الليبرالية أو أي أمل في التغيير الجذري التقدمي غير ممكن ضمن النمط الحاكم المعروف باسم الديموقراطية الليبرالية؛ ربما يقترحون إحياء هدف الثورة الشيوعية مرةً أخرى، وإنقاذه من تاريخه المأسوي، وتنشيطه لمواجهة الجذور الحقيقية للهلع والخوف وعدم الأمان، والتناقضات الأساسية والمتعذر حلها بوسائل أخرى في نظمنا الاقتصادية والسياسية.[٢]

---

١ في مقالها "The Freedom to Be Free" [الحرية في أن نكون أحراراً]، أشارت Arendt إلى أن Adams كان محقاً تماماً عندما قال: "إن الثورة تمت قبل بدء الحرب"، ولكن هذا لم يكن بسبب روح ثورية محددة، بل نتيجة تشكيل سكان المستعمرات كـ"جماعات أو هيئات سياسية بموجب القانون"، مما منحهم "الحق في التجمع... في قاعات بلداتهم الخاصة، لمناقشة الشؤون العامة". وأضافت: "إن النقطة التي انطلق منها Adams هي الملاحظة التي تشير إلى أن كل فرد يشعر برغبة قوية في أن يُرى ويُسمع ويُحكى عنه ويُوافَق عليه ويُحترم من الناس في دائرته الاجتماعية". وأكدت Arendt أن هذه الحرية العامة هي واقع ملموس يخلقه الأفراد ليستمتعوا به سوياً في العلن، وذلك ليُرَوا ويُسمَعوا ويُعرَفوا ويتم تذكّرهم من قِبل الآخرين. ولتحقيق هذا النوع من الحرية، يجب أن تكون هناك مساواة، ويمكن تحقيقها فقط بين الأقران، وهو أمر ممكن فقط في الجمهورية التي لا تعترف بمفهوم المواطنين أو الحكام بالمعنى الحقيقي لهذه المصطلحات، وهذا هو السبب في أهمية مناقشة أشكال الحكومة بشكل كبير في تفكير الثوار الأوائل وكتاباتهم.

٢ الفكرة التي تقول إن الديموقراطية الليبرالية يمكن أن تكون مجرد واجهة للقمع الاستبدادي

بغض النظر عن الاستنتاج الذي نصل إليه، هناك دائماً قوى مظلمة تتربص لتهدد هذا المجال المفتوح في السياسة وقدرتنا على التفكير بحرية. يظهر هذا بوضوح في العالم الذي يشكله الاقتصاد الرقمي والرأسمالية الشركاتية. نظريات المؤامرة، التي تُدار من مصالح غير مسؤولة، خاصةً في صناعة الوقود الأحفوري، يمكن أن يكون لها تأثير كارثي، كما حدث في اختراق البريد الإلكتروني الشهير الذي وقع في جامعة

وللرأسمال الشركاتي لها تاريخ طويل. تم تصوير هذه الفكرة بشكل قوي في أدب العالم المظلم، حتى خلال الستينيات، في روايات مثل رواية Philip K. Dick بعنوان *The Simulacra* [السيمولاكرا] (١٩٦٤)، وهي جزء أساسي من تحليلات ماركسية معيّنة. ومنذ التسعينيات، قدم معلقون سياسيون من اليسار مجموعة متنوعة من النقد للديموقراطية الليبرالية، حيث يتحدّون الرأي المنتشر الذي يقول بأنه يجب الآن النظر إلى الشيوعية كشيء فاشل وغير قابل للانتعاش من خلال التوجهات السابقة مثل الستالينية وGulag. إنهم يسلطون الضوء على الأوهام الليبرالية حول السياسة، والافتراضات المتزعزعة للافتراضات الأساسية حول قواعد اللعبة، وقصور مفاهيم الديموقراطية التشاورية، وما إلى ذلك.

النقد الفكري حول هذه القضايا ليس محصوراً بمدرسة فكرية واحدة، فهناك نقاد مؤثرون مثل Antonio Negri و Alain Badiou و Slavoj Žižek و Ernesto Laclau و Chantal Mouffe و Jodi Dean يمثلون أمثلةً بارزة. يجب أن يُلاحَظ في أي تحليل الاختلافات المهمة بين حججهم السياسية. Dean تكتب عن الأوهام المنتشرة في ما تسميه "رأس المال الاتصالي". تُسهم هذه الظاهرة في خلق مسرح دائم عبر الإنترنت، حيث يتدفق الأفراد بلا توقف بتعابيرهم الشخصية وآرائهم وثرثراتهم ومدوّناتهم ورسائلهم النصية؛ أو كما تصفه Dean بـ"حصّة العقل"، وهو المصطلح الذي كان يُستخدم في مرحلة ظهور dot.com. تؤكد Dean أن هذا النظام الحالي، بدلاً من أن يؤدي إلى توزيعات أكثر عدالة في الثروة والنفوذ، أو ظهور تنوع أعمق في أساليب الحياة وممارسات الحرية، يخلق "كمّاً وكثافة من الشاشات والعروض الكبيرة التي تُقوّض الفرص السياسية والفعالية السياسية لمعظم شعوب العالم". للاطلاع على مقال Dean وكتبها:

Jodi Dean, 'Theorizing Conspiracy Theory', *Theory & Event*, 4:3 (2000).

Aliens in America: *Conspiracy Cultures from Outerspace to Cyberspace* (Ithaca, 1998); *Publicity's Secret: How Technoculture Capitalizes on Democracy* (Ithaca, 2002); *Democracy and Other Neoliberal Fantasies* (Durham, NC, 2009). Cf. Mark Fisher, Postcapitalist Desire: The Final Lectures, edited and introduced by Matt Colquhoun (London, 2021).

ويُقارَن مع هذا السياق الكتاب التالي:

Mark Fisher, *Postcapitalist Desire: The Final Lectures*, edited and introduced by Matt Colquhoun (London, 2021).

تعقيد أي حساب ماركسي تقليدي اليوم يأتي نتيجة تحديات السياسات البيئية والاعتراف بأننا ربما نضطر لمواجهة نهاية النماذج المبنية على "النمو" الاقتصادي. راجع في هذا السياق المقال التالي:

George Monbiot, "Capitalism is killing the planet – it's time to stop buying into our own destruction", *Guardian*, 30 October 2021, www.theguardian.com/environment/2021/oct/30/capitalism-is-killing-the-planet-its-time-to-stop-buying-into-our-own-destruction.

إيست أنغليا في عام ٢٠٠٩، بهدف تشويه علم المناخ، الذي أصبح يُعرف بـ"فضيحة المناخ".[١] توجد جماعات مصالح ضخمة تعمل بجد لإلغاء الفرصة للنقاش المفتوح والتفكير الدقيق. هذه الجماعات تحاول تقويض القيمة الحقيقية للمنتديات والأماكن التي يتم فيها النقاش وذلك من خلال تحريف عملية الحوار وتلويثها. الدافع وراء ذلك هو الحصول على مكاسب شخصية أو إشباع الرغبات النرجسية، أو خدمة مصالح الشركات والدول بدلاً من تحقيق فائدة عامة أو إثراء الحوار. وفي وقت اكتمال هذا الكتاب، في خريف عام ٢٠٢١، كانت هناك ضجة حول موظف كشف أموراً مهمةً من شركة مارك زوكربيرج Mark Zuckerberg، إذ كشف للسيناتورات في الولايات المتحدة عن تجاهل نموذج أعمال فايسبوك وإنستغرام كثيراً، إن لم يكن تجاهلاً تاماً، للأذى الذي تسببه تلك المنصات لملايين الأطفال. قالت إن الربح يتفوق دائماً على الاهتمام بالآخرين في تلك الشركة رغم الرد الفوري للرئيس التنفيذي على هذه الاتهامات.[٢]

عادةً ما تنحرف ممارسة السياسة عن مسارها الصحيح عندما يصبح المال لاعباً أساسياً، غالباً من خلال الإعلانات والدعاية وجهود الضغط من القوى الحاكمة، كما لاحظت حنة أرندت. وجهة نظرها تلقي الضوء على كيف يمكن أن يشعر البعض بالملل أو الضيق نتيجة التأكيد المستمر على أهمية العملية السياسية وأهمية إشراك الجميع فيها دون أن يكون تطبيق فعلي دقيق لذلك، وخاصةً بالنسبة إلى أولئك السلطويين الذين يدّعون أنهم يعرفون ما هو الأفضل للجميع ولا ينفّذون. في ما يتعلق بمشاركة وحوار المواطنين الفعليين خلال الانتخابات، يشكل ذلك تحدياً كبيراً، إذ يُعتبر ذلك صعباً لبعض الأشخاص الذين يعتقدون أن التاريخ لا يعتمد على حوار حقيقي أو تبادل وجهات النظر، بل هو مجرد تنفيذ لخطط مُعَدّة مسبقاً ومتوقَّعة. شعرت روزا لوكسمبورغ بالقلق والاضطراب بسبب مسار الثورة الروسية؛ رأت أن الثورة كانت تؤذي نفسها وتحدّ من فرص تحقيق تغييرات جوهرية، وأن ذلك أدى إلى تراجع نشاطات الحياة العامة في

١ هذا وصف دقيق قدمه الصحافي Gordon Corera في سلسلة من خمس حلقات عام ٢٠٢١ بعنوان:

'The Hack that Changed the World', BBC Radio 4, www.bbc.co.uk/programmes/m00114h2.

2 Jane Wakefield, 'Whistleblower breaks Facebook secrecy wall, MP says', BBC News, 6 October 2021, www.bbc.co.uk/news/technology-58816118.

المجتمع.[١] النقطة المهمة هنا أن هذا التراجع لم يحدث طبيعياً، بل كان نتيجة تدخل نشط من الحزب الحاكم الذي ساهم في هذا الانحدار.

تؤثر السياسة في كيفية تفكير الناس وشعورهم، وبالمثل، يمكن للأحزاب أو المتحدثون السياسيون الشعبويون استغلال علم النفس الجماعي للتلاعب بكيفية تفكير وشعور جماعات كبيرة من الناس لخلق رؤية سلبية عن السياسة، مما يعني أنهم يهاجمون الطريقة العادلة التي يجب بها أداء الأمور في السياسة، خصوصاً من حيث مشاركة الجميع في العمل السياسي. في عام ٢٠٢١، أشارت الباحثة في أعمال أرندت، سامانثا هيل Samantha Hill، إلى وجود "الوحدة المنظمة" في المجتمعات الغربية، حيث:

> يُحَثّ الأفراد باستمرار على التفكير السلبي وإقناعهم بوجود واقع مختلف في الخفاء خارج الواقع اليومي الذي نشترك فيه، مما يؤدي إلى انعزالهم عن العلاقات الشخصية والمجتمع، ويخلق لديهم شعوراً بالفراغ وحاجةً ملحة إلى إيجاد معنى في حياتهم. يُبنى هذا الفراغ من خلال الدعاية السياسية، إذ يحاول النظام تعبئة هذا الفراغ من خلال توجيه الأفراد، محدِّداً لهم كيفية التفكير ومن ينبغي أن يتحمل المسؤولية.[٢]

نحن بحاجة الآن، أكثر من أي وقت مضى، إلى فهم فكرة حنة أرندت بدلاً من مجرد تذكّرها، ولا سيما رؤيتها للسياسة: البحث عن الأماكن التي تسمح بالاستماع والشهادة والحوار والتعاون والاعتراض واتخاذ القرارات على نحو جماعي.[٣] علينا أن نحلل باستمرار مدى بُعدنا عن تحقيق مثل هذا النموذج، ثم نسعى لتقليص مسافة هذا

---

١ أشارت Arendt إلى الضيق الكبير الذي عانت منه لوكسمبورغ بسبب هذا الأمر، ونقلت رسالة خاصة كتبتها في نهاية صيف عام ١٩١٨، تضمنت العبارات التالية:

'With the repression of political life in the land as a whole... life dies out in every public institution, becoming a mere semblance of life, in which only the bureaucracy remains as the active element.'

هذه العبارات مذكورة في "The Freedom to Be Free" ص. ٢٠.

2 Steve Paulson, 'How Loneliness Can Lead to Totalitarianism', WPR, 11 April 2021,www.wpr.org/how-loneliness-can-lead-totalitarianism.

3 Anon, review of *The Promise of Politics* by Hannah Arendt, *Harvard Law Review*, 119:2 (December 2005), 639–45.

البُعد أو الفجوة. كما لاحظْتُ سابقاً، يعتقد بعض الأشخاص أنه يمكن سد هذه الفجوة في النظام الحالي، بينما يسعى آخرون لتغيير النظام تغييراً جذرياً. نواجه اليوم ارتباكاً في الاتصالات وتشتتاً، مع تدفق مستمر لمقتطفات الأخبار عبر هواتفنا الذكية، دون وجود توضيح جليّ لتلك المقتطفات، مما يجعلنا نتردد بين خيارين: إمّا الانخراط في هذا الضجيج، وإمّا الابتعاد عنه.

إن مسار السياسة، كما رأته أرندت، يجب أن يكون مفتوحاً، متيحاً للأفراد تجارب متباينة، وقصصاً متعددةً مع مشاعر ورغبات متضاربة. لكن هذا يختلف عن النظام الذي يعزز أسوأ العواطف من خلال الأحزاب التي تتمتع بالنفوذ والمال، مما يحجب الأصوات البديلة ويمنع فاحصي الحقائق من الظهور بسلامة. السؤال الآن يجب أن يركز على تجديد الأنظمة والهياكل التي تُحسّن السياسة وتُقوّيها بالشكل الذي كانت تؤمن به أرندت. ببساطة، نحن بحاجة للنضال من أجل خلق أو إعادة الظروف التي تمكّننا من التفاعل بصورة أفضل كأفراد، والحصول على المعلومات الضرورية، والتفكير بالتعاون مع الآخرين في مستقبلنا، ومناقشة الأضرار والحلول، مع تقليل دور المال وإبعاد ممارسي الضغوط الفاسدة في هذه العملية، وحماية منصات الأخبار المشتركة من تأثير الخوف الساذج والزائف والأخبار المضلّلة.

ليست السياسة مجرد أحزاب رسمية ومؤتمرات منظمة ومنتظمة وقاعات لصنع القوانين، ولا يقتصر العمل السياسي الباقي على المناوشات العالية الصوت عبر وسائل التواصل الاجتماعي. يجب أن تكون السياسة قيمة بذاتها، فهي ليست مجرد وسيلة لتحقيق أهداف محددة. فكرة أن الإنسان حيوان سياسي قد يُعزى إلى الإغريق، وبصورة خاصة إلى أرسطو. كانت أرندت واحدة من أبرز العقول الحديثة التي استرجعت هذه الفكرة حول جوهر هوياتنا السياسية وما يمكن أن يحدث لتحريفها أو تدميرها.

يشير مفهوم الكتاب الحالي بصورة رئيسية إلى أهمية فهم كيفية تأثير المجتمعات على إنشاء السياسة وتطويرها، خاصةً في سياق الديموقراطية. يسلط الضوء على تأثير البيئة المحيطة بالأفراد وكيفية تأثيرها في قدرتهم على التفكير واتخاذ القرارات بحكمة، خاصةً في المواقف الهامة. تتعرض السياسة دائماً للخطر من التدهور أو الضعف، ولكن في الوقت نفسه، يمكن للسياسة أن تجدد نفسها وتظل قيمةً موجهةً للأفراد وتكون

متصلةً بالحياة العامة الفعلية. على الرغم من أن هناك خطراً من أن تختفي السياسة تماماً في الواقع السياسي، فإنّ هناك فرصاً جديدةً قد تظهر في المجتمعات ومساحات جديدة يمكن استخدامها لإعادة التفكير في السياسة وللمشاركة والنقاش، وهذه الفرص قد لا تكون متوقعة.[١]

لم تكن أرندت الشخص الوحيد الذي يرى أهمية السياسة في تحقيق تقدم الإنسان ورفاهيته. كان هناك فهم عميق لضرورة الحفاظ على عملية السياسة ورعايتها بانتباه دائم، لأنه يمكن إغلاقها بسهولة إذا لم تولَ لها العناية الملائمة. بعد الحرب، ربط المفكرون العملية السياسية الديموقراطية المفتوحة بالعقل الصحي، الذي يكون متعدد الآراء ومتسامحاً مع الاختلافات، ومستعداً للتحديات والشكوك، وقادراً على استيعاب الأفكار الجديدة دون أن يصبح صلباً أو مستبداً.[٢] كانت ميلاني كلاين Melanie Klein، الأكبر سناً من أرندت، عالمةً نفسيةً اهتمت بالعالم الداخلي قبل كل شيء، ولكن كان لأفكارها أيضاً تأثيرٌ مهم في السياسة ونمط الشك الوهمي الساذج. وضعت كلاين نموذجاً للعقل استناداً إلى مفهومين أساسيين: الموقف الاكتئابي والوهمي الانفصامي البارانويي.[٣] في الموقف الأول، الذي اعتبرته إنجازاً نفسياً، يوجد المزيد من الاندماج أو

---

١ انظر إلى مقال Hannah Arendt بعنوان "Introduction into Politics" [مقدمة في السياسة] في الكتاب التالي:

The Promise of Politics (New York, 2005), edited by Jerome Kohn, pp. 93–200.

يمكن الاطلاع أيضاً على الختام في الكتاب. ويقابل هذا:

Anon, 'review', p. 642.

٢ جاء هذا الرأي أيضاً من المفكر الليبرالي Arthur Schlesinger Jr، في دفاعه عن الديموقراطية المفتوحة والمستمرة في كتابه:

The Vital Center: The Politics of Freedom (Boston, MA, 1949).

استوحى درساً من Freud يُظهر أن الصراع النفسي لا يمكن تجنبه، وبالتالي فإن المجتمعات محكومة بمواجهة توترات لا تنتهي، ومع ذلك، كان يعتبر الديموقراطية الليبرالية أفضل وسيلة للحفاظ على التلاقي بين أفراد المجتمع وممارسة التفكير معاً. لا يوجد علاج شامل للنفس أو للجماعة السياسية. "المشاكل ستستمر في إزعاجنا دائماً"، كتب Schlesinger في ختام كتابه: "لأن كل المشاكل الهامة لا يمكن حلها، وهذا هو السبب في أهميتها. الخير يأتي من النضال المستمر لمحاولة حلها، لا من الأمل الباطل في حلها... الأنظمة الشمولية تعتبر تحمّل الصراعات ضعفاً أساسياً لنا، وربما يبدو ذلك في عصر القلق. لكننا نعلم أنه في جوهره قوتنا المركزية".

٣ هذه الأفكار تم توضيحها بشكل أكبر من قبل Melanie Klein في مقال بعنوان:

'A Contribution to the Psychogenesis of Manic-Depressive States', *International Journal of*

التكامل، ولكن هذا التكامل يستند أيضاً إلى التعددية، والاعتراف بأفكار الذات ومشاعر متنوعة لديها، وفهم بعض الجوانب السلبية في الذات، والاهتمام الحقيقي بالآخرين، والرغبة في الإصلاح، والقدرة على التألم والحزن.

الموقف الوهمي الانفصامي، الذي يظهر في بداية الحياة، يجعل العقل، أو بالأحرى الأنا الناشئة التي وصفتها كلاين، هشاً ومفتوحاً ومقسَّماً وحساساً وينفجر بسرعة. يشعر بالتعرض بسهولة، ويهتم بالبقاء ويطرح ما لا يُطاق، وباستمرار يلقي جزءاً من ذاته وما يجعله يشعر بأنه "سيئ" على شخص آخر. قد تكون الأنا الناشئة خائفةً من تفككها الكلي، أو على النقيض من ذلك، قد تكون مندهشةً أو منزعجةً من القوة الخيالية لديها التي تتخيل أموراً مخيفةً لذاتها. أما في الموقف الاكتئابي، فهناك فرصة لجمع الأفكار والتفكير. الموقف الاكتئابي، بالنسبة إلى كلاين، ليس ثابتاً: نحن لسنا ببساطة "ناضجين" أو متكاملين أو معالَجين أو متوازنين، فالأشخاص العاقلون ليسوا فقط مقيدين في الموقف الذي يعيشونه، بل يتذبذبون بين الموقف الوهمي الانفصامي والموقف الاكتئابي، آملين في البقاء بشكل متزايد مع الأخير. إن آليات الموقف الوهمي الانفصامي هي طرق قديمة يلجأ إليها العقل لحماية نفسه من التحمل الزائد أو المواقف الضاغطة، لكن عندما نظل دائماً في هذا الموقف دون تغيير، يمكن أن تعيق قدرتنا على التفكير العميق والتأمل. في مرحلة مبكرة من الحياة، نحن قادرون على إنشاء الأفكار، لكننا غالباً ما لا نستطيع التفكير بعمق في تلك الأفكار أو معالجة مشاعرنا الأكثر شدة.

تنشأ قدرة الرّضيع على التفكير في عقله الخاص وعقول الآخرين من خلال صراعاته الداخلية، ولكن الأمر يعتمد إلى حدّ كبير على علاقته المتطورة مع مُرَبٍّ حساس يمتلك قدرةً على التفكير. بعد كلاين، طوّر آخرون مثل ويلفريد بيون هذه الفكرة، فأوضح كيف يقوم الرضيع بتجسيد مشاعره، مثل البكاء، عسى أن تجد هذه التجسيدات "وعاءً" مناسباً، مربياً يشعر بمشاعر الرضيع وفي الوقت نفسه يقدم له وظيفةً تفكيريةً حاسمة، مَبنية على رعاية كافية محبة ومنتبهة. يُسهّل المربّي التفكير في النهاية داخل عقل الرضيع، فيوفر له نوعاً من الرعاية الداخلية، التي ترتبط في النهاية بقدرة على تحمل التعقيدات

Psychoanalysis, 16 (1935), 145–74, and 'Notes on Some Schizoid Mechanisms', *International Journal of Psychoanalysis*, 27 (1946), 99–110.

في الذات والآخر والعالم وفهمها. يستفيد بعض الأشخاص من الرعاية القليلة، لكن الافتراض الأساسي لكلاين هو أننا جميعاً بحاجة إلى "كائن جيد" داخلنا لمساعدتنا على التفكير. نأمل أن نكتسب القدرة على التعرف على الصراعات في مشاعرنا وأمانينا وأفكارنا، وبعض القدرة على ربطها والتفكير فيها، ومواجهة تبعيتنا وقيودنا، لكن دائماً لا يتحقق هذا الإنجاز فنعود إلى شيء يرمز إلى حالة بدائية ومخيفة وغير متزنة. يظل الاندماج النفسي (بما يمكن أن يكون عليه) في موقع حرج. نحن جميعاً نتأثر بسهولة ونشعر بالاضطراب أو الإهانة، عندما تنقلب بيئاتنا، وعندما تتلاشى العلاقات أو تنكسر؛ نحن جميعنا نتأثر من خلال العواطف والدوافع، والنزاعات الداخلية التي نواجهها داخل أنفسنا بين مشاعر مختلفة أو طموحات متناقضة أو جوانب مختلفة من شخصيتنا. فكل شخص يمكن أن يواجه تضاربات داخلية بين الأفكار والعواطف والرغبات المتنوعة التي تتصارع داخله، وبالتالي، تبقى الحاجة إلى "الاحتواء" النفسي حاضرةً طوال مسيرتنا، سواء داخلياً في نفوسنا الفردية أو على المستوى الجماعي، وذلك لمساعدتنا على التفكير والتحلي بالقدرة على مواجهة التحديات النفسية بطرق تختلف عن اللجوء المستمر إلى استراتيجيات الدفاع النفسية المعروفة، مثل آليةِ رؤية العالم إمّا أبيض وإمّا أسود دون وجود منطق، وآليةِ نسب مشاعرنا أو أفكارنا السلبية إلى الآخرين بدلاً من الاعتراف بأنها جزء من نفوسنا، اللّتين قد تؤديان إلى تشوّه في طريقة فهم الشخص للعالم من حوله وتفاعله مع المجتمع.[1]

الظروف التي نمر بها اليوم في العقد الحالي، وهو العقد الثالث من القرن الواحد والعشرين، تختلف اختلافاً كبيراً عن الأوضاع التي كانت موجودةً عندما صاغ علماء مثل كلاين ومتابعيها مفاهيمَ نظريةً نفسية، وعندما كتبت أرندت في مجال السياسة والحالة الإنسانية. على الرغم من اختلاف الظروف، فأفكارهم التي عُرضت لا تزال ذات قيمة ونفع. لكن علينا أيضاً إعادة التفكير، وإلقاء نظرة جديدة إلى القيم الثقافية والهياكل الاجتماعية والنظم الاقتصادية والتكنولوجية التي قد تدعم نهجاً جديداً في السياسة. يهدف هذا النهج ليكون طموحاً وشاملاً، ومتسعاً للشك والاستقراء، ومراعياً للنقد الذاتي والاهتمام بالآخرين، ومتجنباً في الوقت نفسه اللامبالاة والاكتئاب والسخرية

1 Wilfred Bion, *Attention and Interpretation* (London, 1970).

من جهة، وشكوك البارانويا والهوس والإيمان المتشدد من جهة أخرى.

ليست الديموقراطية الليبرالية كما هي الآن نظاماً سياسياً مثالياً، بل تُعَدّ بدايةً لمعركة أكبر من أجل تحقيق المزيد من الديموقراطية وفهم أعمق لحرية الإنسان. يجب أن ننظر إلى المؤسسات الحالية التي يمكنها دعم هذه المعركة المستمرة. بالإضافة إلى ذلك، علينا معرفة الظروف الاجتماعية وكيفية التعامل معها لتقليل مستوى القلق لدى الناس، وإدارة الصراعات والعواطف، والحفاظ على الحوارات، وتشجيع التفكير، وتمكين الأفكار والأفعال المهمة من جانب مجموعات الأفراد. بعد الحرب، اعتقد العديد من الأشخاص المؤثرين في الديموقراطيات الليبرالية أن تحقيق كل ذلك كان واضحاً وهو: زيادة الاستثمار في احترام العمل، والتخلص من الفقر والجهل، وتلبية الاحتياجات الأساسية، وجعل المدارس والجامعات أكثر إمكانيةً للوصول، وتوفير التعليم والتدريب ووسائل الإعلام العامة، وتوفير الرعاية الصحية الجيدة سواء من خلال التأمين أو الضرائب، ولكن الأهم من ذلك هو تحقيق كل ذلك مجاناً وللجميع عندما تقتضي الحاجة. في بعض الأماكن حيث تم تطبيق هذه الإجراءات تطبيقاً كاملاً، ظهر نظام يُعرف بـ"الدولة الاجتماعية" المتكاملة.

بعد الحرب، رأى معظم الناس أن تبني إجراءات وسياسات معيّنة كان ضرورياً لنمو المجتمعات وتطورها. في الأماكن التي اتبعت هذه الإجراءات، تغيّرت المجتمعات تدريجياً لتصبح أكثر شمولاً أو اكتمالاً، وقلّت الفجوات الاجتماعية بين الطبقات، وأصبحت أماكن أكثر أماناً واستقراراً للعيش. من الصعب عودة الزمن إلى الوراء، ومن الصعب إحياء نموذج الدولة الاجتماعية المتكاملة ما بعد الحرب العالمية الثانية بالصورة المثالية، لكنْ هناك قيم وأهداف تبقى أساسية. وبالنسبة إلى أولئك الذين يرون أهمية الديموقراطية الليبرالية كأساس لمستقبل أكثر عدالة، من الضروري فهم صعوبة تجديد بنية الرعاية الاجتماعية والعمليات الانتخابية القديمة، ومقاومة تأثير الأموال الكبيرة ومحاولات التلاعب السياسي وقمع حقوق الناخبين، وتجنب الحروب الرقمية الضارة. من الواضح أن هناك حاجة ماسة إلى ابتكار طرق جديدة لتنظيم المجتمعات ودعمها للابتعاد عن المسارات التي تتبعها بعض الأحزاب والدول والتي تدمّر مبادئ الديموقراطية وتعاديها.

يمكننا البدء بفهم ما أحدثته "الثورة الخفية" في سياسات النيوليبرالية، كما وصفتها ويندي براون Wendy Brown، خلال السنوات الأربعين أو الخمسين الماضية، والتفكير في كيفية التصدي لتأثيرها في المستقبل بفعالية دون الاستسلام للشعبوية الاستبدادية. مؤسساتنا الحالية بحاجة إلى تجديد، ولكن يجب أن نلاحظ بدقة أنها تتعرض لهجوم مدروس. يبدو بوضوح أن العديد من تلك المؤسسات الراسخة في السياسات الليبرالية والديموقراطية الاجتماعية، التي تطمح إلى أن تكون أكثر من مجرد "عمليات سوقية"، وتقدم إطارات لتحقيق العدالة، وتوفر التعليم والرعاية الصحية ووسائل الاتصال والفنون، لم تكن دائماً كاملةً أو شفافةً أو منتشرةً بصورة عادلة عبر حكومات وطنية كما ينبغي. ومع ذلك، رغم ضرورة تحقيق إصلاحات جذرية وتغييرات لمواكبة العصر وتحقيق مهامها الأصلية بصورة أفضل، فهي تحتاج أيضاً إلى حماية من خطر التهديد أو على الأقل التجارة الكاملة، كما يظهر، على سبيل المثال، التهديد الحالي من الجانب اليميني في المملكة المتحدة لشبكة *BBC*.

تحتاج الأطر التشريعية والدستورية إلى الاهتمام، وكذلك مصادر الأخبار. أوضحت كثير من الدراسات حول غسيل الدماغ أن طريقة تعامل المجتمع مع المعلقين النقديين والصحافيين الاستقصائيين لها تأثير سياسي هائل. ينبغي للصحافيين أن ينجحوا دون أن يُجبَروا على اللجوء إلى الأشخاص ذوي السلطة، على سبيل المثال، من خلال العمل في وسائل "الإعلام الترفيهي" التي تهدف إلى التضليل وتحقيق الأرباح للحكام السياسيين ورجال الأعمال. في العالم الرأسمالي، يوجد أمثلة عن الفنانين الذين يتقلص دورهم إلى إنتاج القصائد الطويلة والمسيرات الحاشدة التي تُمجّد أفكار "الواقعية الاشتراكية" وسياساتها كما وصفها ميلوش.

ليس التعليم بالتأكيد ضماناً مطلقاً، ولكنه يمكن أن يوفر مجموعةً كبيرةً من المعرفة المفيدة لمساعدة الأفراد على فهم السياسة بصورة أفضل، والنظر بانتقاد أكبر إلى وجهات النظر المتعددة، وفهم النماذج التي تقوم عليها العروض السياسية، والنظر إلى الحاضر والمستقبل في سياق تجاربنا السابقة. تُعتبر اجتماعات المواطنين تجربةً هامةً معترفاً بها، ويمكن أن يتوسع نطاقها في الديموقراطيات، فيرتبط النقاش بمعلومات أفضل مع التأكيد على ضرورة الاستماع إلى الآراء إلى جانب الجدل وذلك لأخذها بالاعتبار

والرد عليها. إنها تقدم الكثير من الوعود التي لم تُستكشف بعد كاملاً. وفي هذا السياق، تلعب التكنولوجيا المتاحة حالياً دوراً مساعداً في هذا المجال. هناك الكثير من الأفكار خارج نطاق هذا الكتاب لتعزيز الديموقراطية الإلكترونية، وميزانية المشاركة، والعمل التعاوني، والتواصل الدولي وحتى المحلي، مثل الأشكال الجديدة لمنتديات الأحياء واجتماعات قاعة المدينة والحركات المجتمعية والاستطلاعات الشعبية الفاعلة وزيادة الشفافية. كمثال على ذلك، في حيّي في لندن، اتخذ المجلس المحلي مؤخراً خطوات إبداعيةً اجتماعية، فناقش ممثلوه بصورة مفصلة، مع عيّنة عشوائية من السكان، أهداف السياسات والإجراءات العملية لمواجهة تغيّر المناخ.[1]

لدينا أسباب عقلانية للقلق العميق حول الطريقة التي يتم من خلالها تنظيم التكنولوجيا حالياً، ومن يمتلكها ويسيطر عليها، وكيفية تصميم الخوارزميات لخداعنا واستغلال بياناتنا، بالإضافة إلى من يستفيد من الفجوات في استخدام البيانات وغير ذلك. هناك توقعات بانتصار الشركات التكنولوجية الكبرى في المستقبل، وهناك تحذيرات من إمكانية خلق بيئة رقمية أو "metaverse" يصعب الهروب منها، لنكون مغمورين في عالم افتراضي يشبه ما كان يُصوَّر في القصص الخيالية العلمية، عالم محاكٍ ومتزامن تماماً. تكنولوجيا مثل نمذجة الأبعاد الثلاثية (3-D modelling)، وتقنية السلسلة الكتلية (block chain)، وأجهزة الواقع المعزز (AR)، والزراعة الجراحية لأجهزة داخل جسم الإنسان، تثير تساؤلات حول الآثار الجذرية لهذه التقنيات على الحياة والمجتمع، وصعوبة تحديد اتجاهها المستقبلي. يحذر المتشائمون من خطر فقدان السيطرة على الواقع، والعيش في بيئة رقمية تجسد الواقع ولكن تفرغه من معانيه، مما يؤثر في النشاط الاقتصادي والتواصل، ويفتقر إلى الضوابط الحكومية والمساءلة الديموقراطية. ومع ذلك، ليس لدينا، على ما يبدو، سبب مقنع للشعور بالإحباط حيال ذلك. يشير غرامشي إلى ضرورة الإيجابية في الإرادة وفهم مؤلم للواقع. هناك حملات تطالب بنوع جديد من العقود، يقود إحداها تيم بيرنرز لي Tim Berners-Lee، تدعو إلى إعادة النظر الجذري

---

1 Lizzie Cain and Gemma Moore, 'Evaluation of Camden Council's Citizens' Assembly on the Climate Crisis', Report, December 2019, UCL, wwwcamden.gov.uk/documents/20142/0/FINAL+UCL+Evaluation+of+Camden+Council27%s+Citizens27+%Assembly+on+the+Climate+Crisis.pdf/e3f39960-76ce-111d-656b-6154465fc095?t=157979908150L1.

في النظام بأكمله، وتركيز جدي على البحث عن حلول جديدة تؤدي إلى مكافحة التحيز والكراهية، وتقديم الحماية من انتهاكات البيانات وترويع الأفراد، والدفاع عن الديموقراطية بوسائل رقمية ذكية.[١]

الإنترنت، بما يحمله من خبث وقسوة وخداع، قد يكون أيضاً، بالتأكيد، مورداً ممتازاً للتعليم والمعرفة في مختلف المجالات. تظهر أهمية الإنترنت في دحض الشائعات وبناء التحالفات الجديدة وإطلاع الناس على الأحداث في أماكن بعيدة وفي الأوقات المناسبة بشكل فوري وغير مسبوق. يصر العديد من النقاد بحق على أهمية العمل نحو تحقيق المساواة في استخدام الإنترنت، سواء داخل الوطن أو في العالم، ونحو تفكيك احتكار الشركات وتنظيم الإعلانات السياسية بصورة أفضل، ووضع بروتوكولات لمراقبة خطاب الكراهية والتصدي للتحرش الإلكتروني، والأهم من ذلك كله، كما يقترح بيرنرز لي، توفير البودات (pods) التي تسمح للشخص بالاحتفاظ ببياناته واختيار من يمكنه مشاركتها معه.

إذا حظينا بشعور حقيقي بمجتمع يقدم الدعم والتضامن والكرامة، فسنحافظ على صلة صحية ومتوازنة مع الواقع. يعتمد الاحتفاظ باتصال صحي مع العالم الحقيقي على وجود مجتمع متسامح ومفتوح، يحترم التنوع ويسمح بالاختلافات، ويعترف بالحاجة إلى الحزن على المستوى الفردي والجماعي. لذلك، إنه من بالغ الأهمية توفير الضمانات الكافية ضد الإنكار الجماعي أو الطمع غير المنضبط. هناك كتب عديدة، مثل *The Spirit Level* [مستوى الروح]،[٢] تسلط الضوء على الأنظمة الاجتماعية غير العادلة والفوارق الكبيرة في الدخل والثروة الخاصة، وتشرح كيف أن هذه الفوارق قد تؤثر سلباً في النواحي العاطفية والاجتماعية للأفراد، وتوضح سبب القلق بشأن عدم المساواة والثروات الهائلة وعدم توزيع بعض هذه الثروات بطريقة صحيحة، مما يمكن أن يزيد من مشاكل السعادة والتوازن النفسي للإنسان، بدلاً من تعزيز التطلعات أو التميز أو

1 Tim Berners-Lee, 'I Invented the World Wide Web. Here's How We Can Fix It', *The New York Times*, 24 November 2019, www.nytimes.com/2019/24/11/opinion/world-wide-web.html.

2 Kate Pickett and Richard Wilkinson, *The Spirit Level: Why Equality is Better for Everyone* (London, 2010).

الديناميكية. وقد تم نفي المنطق الذي كان يروج لفكرة "تدفق الثروة إلى الأسفل" بشكل كامل في الوقت الحالي. ولذلك، تركز هذه الدراسات على أهمية الاهتمام بالعدالة العالمية وضرورة تصحيح الظلم الدولي الذي استمر لقرون طويلة.

في خريف عام ٢٠٢١، ناشد الأمين العام للأمم المتحدة الدول الغنية بالقيام بجهود أكبر لحماية العمال في أفقر الدول العالمية، الذين عانوا إلى حد كبير من تداعيات جائحة كوفيد-١٩. طلب الأمين العام إجراء حقنة إضافية بقيمة تريليون دولار لتجنب تصاعد التفاوت بين الدول الغنية والفقيرة في السنوات القادمة، وأشار إلى أن الأزمة العامة الصحية والاقتصادية العالمية، التي مرّ بها العالم في القرن الماضي، كانت على وشك أن تزيد من الاختلافات وتهدد "سبل معيشة مئات الملايين، إن لم يكن مليارات الأشخاص"، وحث على توضيح طبيعة القوى المعارضة للإجراءات الضرورية، والنقاش حول كيفية دعم الأمن البشري والرعاية الشخصية والعيش المستدام، وتساءل عن كيفية تعزيز الصمود، وعن مستوى الازدهار الأساسي في أي مجتمع، والأوهام التي يجب الآن الترحم عليها، ومواجهة التسترات، ومحاربة الفساد، وتقديم التعويضات عن الظلم والمساوئ.

هل نحن أكثر عرضةً اليوم لنمط البارانويا من الماضي؟ الإجابة تشمل نعم ولا. في الوقت الحاضر، يمكن للأفكار أن تنتشر بسرعة عبر الإنترنت بشكل فيروسي خلال دقائق. فعلاً، الاضطرابات الاقتصادية، والفساد المالي والسياسي الواسع الانتشار في العديد من الأماكن، وتصاعد التوترات الدولية، وتفكك المجتمعات السابقة، وتخصيص أو إلغاء الأصول والمساحات العامة السابقة في المناطق الحضرية والضواحي والريفية، تسهم في ما أشارت إليه أرندت بـ"الوحدة المنظَّمة". يقول محللون سياسيون متشائمون إن الإنترنت يميل إلى عزلنا أو خلق تحالفات وهمية تُفرّق بيننا. يؤكد هؤلاء المحللون خطورة أن التحليلات المعقدة والدقيقة للمشاكل الاجتماعية تواجه تحديات كبيرةً بسبب سرعة تدفق المعلومات المتنوعة عبر الإنترنت؛ تظهر معلومات جديدة أو آراء متعددة بسرعة كبيرة، مما يجعل من الصعب على الباحثين التمييز بين المعلومات المفيدة وغير الموثوقة. على الرغم من ذلك، يبقى مستقبل الإنترنت وغيره من المنصات السياسية مفتوحاً للتطوير، بغض النظر عن اتجاهه الحالي للتجارة والتسويق. يجب أن ندرك أيضاً أن تأثير أعمال الإنسان على مر القرون، خاصةً في العصر الحالي حيث يؤثر النشاط

البشري بصورة رئيسية في المناخ والبيئة، قد غيّر جذرياً حياة الأرض. أدت هذه الأعمال إلى تغييرات لا رجوع فيها، مثل فقدان التنوع البيولوجي، زيادة مخاطر الانقراض للعديد من الأنواع، وظروف حياة غير مستدامة للعديد من المجتمعات. هذه التحولات العميقة لا يمكن تصحيحها بسهولة من خلال الخطط المستقبلية أو الجهود الجماعية في القرن القادم. لذا، فالتعرف والحزن على هذه التغييرات لهما أهمية بالغة؛ بدلاً من متابعة رؤى مثالية لإعادة ولادة المجتمع أو النمو اللانهائي، يجب تبني سياسات عملية تتناول هذه التحديات.

علينا أن ننظر إلى التغييرات اللازمة للحد من الوحدة المنظَّمة والشعور باليأس الذي كانت آرندت تتحدث عنه منذ مدة طويلة؛ نحن بحاجة إلى تجديد الهياكل الاجتماعية والسياسية والقانونية التي تدعمنا بصورة أفضل، ونحن بحاجة أيضاً إلى أن نكون أكثر استماعاً وتفكيراً ومناقشة، وألا ننكر أو نتنمر على التفسيرات المعقدة لكتم وجهات النظر المعارضة في محاولة لطمس الآراء المختلفة. بإيجاز، نحن بحاجة إلى المجتمع والثقافة، بالإضافة إلى تلك الرؤية السياسية التي قدمتها أرندت والتي تُبرز أهمية المشاركة الجماعية والديموقراطية في بناء المجتمعات. لا يمكن لأي نظام اجتماعي أن يغيّر الوحدة؛ إنها حالة أساسية قد تكون جوهرية لشخصيتنا. رأت كلاين أن الوحدة جزء من الحالة الإنسانية، على الأقل جزئياً، نتيجة حالات البارانويا البدائية في مراحل الطفولة المبكرة.[١] ولكن الحالات العقلية المتكاملة وأنواع معيّنة من الدول السياسية التي تشجع التفاعل الإيجابي مع الآخرين، تساهم في التخفيف من الشعور بالوحدة وتجعلنا أقل تأثراً بالتلاعب السلبي بالأفكار أو غسيل الدماغ المباشر.

---

١ في أحدث ورقة بحثية لها نُشرت بعد وفاتها في عام ١٩٦٣، رأت Klein أن الوحدة في البداية هي نتيجة لشوق الطفولة لحالة داخلية مثالية لا يمكن تحقيقها. كانت تعتقد أن هذا الشوق ينبع من القلق (غالباً ما يكون "بارانويياً") الذي نواجهه جميعاً، سواء خلال طفولتنا أو بعدها. وكان الناس غالباً ما يواجهون تضارباً غير واع، حيث يتطلب التكامل النفسي الأعمق تحمل الذنب والتعامل مع مشاعر متناقضة. بالمقابل، يمكّن لآلية رؤية العالم إمّا أبيض وإمّا أسود، وآلية نسب المشاعر أو الأفكار السلبية إلى الآخرين، أن تعالجا مؤقتاً كل ما هو "سيئ"، ولكنهما يتركاننا وحيدين وفارغين، وأكدت أن "التكامل الكامل لا يحدث أبداً، مما يجعل من الصعب فهم مشاعرنا الشخصية والقلق والأوهام بشكل كامل، ويبقى هذا عاملاً هاماً في الشعور بالوحدة". للمراجعة:

'On the Sense of Loneliness', *Envy and Gratitude, and Other Works, 1946–1963: The Writings of Melanie Klein* (London, 1975), vol 3, Chapter 16, p. 303.

النرجسية أو التركيز الزائد على الذات، كما وصفه فرويد وكلاين وغيرهما، يمكن أن يؤثر تأثيراً جدياً على مشاركتنا في السياسة. سالي واينتروب Sally Weintrobe، الناشطة في مجال الصحة النفسية والبيئة، سلطت الضوء على كيفية اعتقاد بعض الأفراد في الغرب بأنهم أكثر الناس احتياجاً لمزيد من الامتيازات أو الفوائد أو حقوق معيّنة. تُسمّى هذه العقلية "الاستثنائية"، وهي فكرة يميل الكثيرون منّا إلى الاعتقاد بها. يُعزّز هذا الاعتقاد بواسطة الأيديولوجيات السياسية مثل النيوليبرالية التي تدعو إلى النمو المستمر وتؤيد فكرة العيش بطريقة معيّنة دون النظر إلى تأثيرها الواسع على الآخرين أو البيئة. هذا النهج مقلق بصورة خاصة في مواجهة الأزمات المناخية الحالية. هذا النوع المعين من التفكير أو الأيديولوجيا يرضي الرغبات الشخصية، إذ يعتمد على افتراض أن الأشخاص في بلدان أخرى، غالباً خارج نطاق الغرب، أو حتى الشباب اليوم في الغرب، لا يحتاجون إلى اهتمام كبير أو اعتبار أو حماية من مخاطر بيئية. يشكل هذا الانطباع تحدياً كبيراً أمام الجهود العالمية لتقليل انبعاثات الكربون، ويُقلل من أهمية التعاون العالمي، ما يُعيق التقدم في مواجهة قضايا البيئة على نطاق أوسع.[١]

نحن نتجه نحو حافات الهاوية، سياسياً وبيئياً. من الصعب أن نصدق أن أعلى قائد عسكري في القوات المسلحة الأميركية كان مقتنعاً في كانون الثاني/ يناير ٢٠٢١ بأن ترامب وأقرب مقرّبيه كانوا يخططون على نحو نشط للانقلاب.[٢] ماذا لو فشلت الإجراءات الوقائية وانحاز كبار الضباط لصالح الانقلاب؟ وتخيل، ماذا لو ظهر زعيم جديد بنهج ترامب نفسه، لكنه أكثر فاعليةً وتركيزاً، وبالتالي كان قادراً على فرض التغييرات اللازمة التي ستدمّر تماماً الضوابط والتوازنات التي تعتمد عليها الجمهورية، مما قد يُضعف فصل السلطات أو يخفّض من فعالية الرقابة على السلطات الحاكمة ويهدد النظام الديموقراطي ويقلص مجال الحريات العامة، ويضع نهايةً لأي أمل في التخفيف من كوارث المناخ؟ ليس من المبالَغ فيه أن نتصور الآن الغروب المحتمل للديمقراطيات.[٣]

---

1 Sally Weintrobe, *Psychological Roots of the Climate Crisis: Neoliberal Exceptionalism and the Culture of Uncare* (London, 2021).

2 Catherine Garcia, 'New book says Joint Chiefs chairman worried Trump would attempt a coup', *The Week*, 15 July 2021, theweek.com/politics/1002626/new-book-says-joint-chiefs-chairman-worried-trump-would-attempt-a-coup.

3 David Runciman, *How Democracy Ends* (London, 2018); Anne Applebaum, *The Twilight of*

يخشى البعض أن التحالفات المؤيدة للتغيير التقدمي قد تكون عاجزةً أمام هذا الشر والجنون، وبالتالي لا يوجد ضمان ببقاء الديموقراطية أو الحفاظ على الحريات المدنية التي اكتُسبت بجدارة، أو حتى استمرار الاهتمام ببعضنا وبالأرض. كان التفاؤل السابق بأن "المجتمع المفتوح" سيظل دائماً يتفوق على الأنظمة الاستبدادية، مثل تلك في الصين، أقل ثباتاً الآن وأقل حدةً مما كان عليه قبل بضع سنوات. وبالمناسبة، كيف يمكن وصف مجتمعنا بأنه "مفتوح" في هذه الأيام، في ظل التلاعب بالرأي العام من قِبل المؤثرين؟ هل نعيش، كما حذرت آن أبلباوم Anne Applebaum، في "شفق الديموقراطية"؟ يوثّق كتابها الأخير الهجمات المتنوعة التي تتعرض لها هياكل الديموقراطية في العديد من البلدان، مثل المجر وبولندا والولايات المتحدة والمملكة المتحدة وغيرها، والتي تمثل تهديداً مباشراً على أسس الديموقراطية وقدرة المجتمعات على التقدم.[1]

أكتب هذه الكلمات وبلدي لا يزال يتمتع بنوع من الديموقراطية الليبرالية الغربية من نوعها، حيث يفوز المرشح الذي يحصل على أعلى عدد من الأصوات في الدائرة الانتخابية، دون الحاجة إلى الحصول على أغلبية مطلقة من الأصوات؛ أكتب وعلى رأس حكومة بلدي، هناك من يكذب بوقاحة، ويتبنى سلوكاً ساذجاً، وينتقل بسرعة من التدابير غير الليبرالية إلى دعوات وخطوات نصفية تجاه برنامج لزيادة العدالة وتكثيف الجهود لمواجهة تغير المناخ. منذ توليه المنصب، كان واضحاً أنه جاد في إضعاف الأشكال التاريخية التقليدية للحماية ضد الشعبوية السلطوية، مثل تطوير نظام المدارس الحرة والقوية، والقطاع الجامعي القوي، والسلطة القضائية المستقلة، والخدمة المدنية الشفافة والمسؤولة، والبرلمان الذي يعمل بكفاءة، ووسائل الإعلام العامة، والأنظمة المناسبة للرعاية الصحية للشباب والمسنين والضعفاء، وحماية لائقة للأشخاص الذين يلجؤون إلى هذه السواحل. يتحدث رئيس الوزراء لدينا عن "رفع مستوى" أكثر الفقراء والمستبعَدين، لكنه يرغب في القيام بذلك دون "إيخاف الخيول"، أي الأثرياء، ودون التسبب لهم بأي ما يزعجهم أو يقلقهم كونهم يمولون حزبه ويصوتون (إلى جانب جزء من الطبقة العاملة) لمصلحته.

Democracy: The Failure of Politics and the Parting of Friends (London, 2020).

1 Applebaum, *Twilight of Democracy.*

بالتأكيد، لم نصل بعد إلى نقطة النهاية في التاريخ حيث ينتهي فيها تطور الأحداث والتطورات الاجتماعية والسياسية. مهما كان يحمل المستقبل، فانتشار نظريات المؤامرة وخطابات البارانويا في السياسة الحالية يجعل من الضرورة العاجلة النظر إلى تاريخ مفاهيم غسيل الدماغ والسيطرة على الفكر. الهويات السياسية التي يتبناها الأفراد والمجتمعات غالباً ما تتأثر وتُشكَّل جزئياً بالخيالات أو الأفكار والتصورات التي يحملونها.[1] هذه الخيالات قد تشمل الصورة التي يرون أنفسهم فيها، والمعتقدات التي يعتنقونها، والمفاهيم التي يعتقدون بها بشأن العالم والمجتمع والسياسة. يشير ما استُكشف في هذه الصفحات إلى أن خياراتنا في الديموقراطية تتأثر بتلك الخيالات، والاختلافات في الآراء والعواطف والنزاعات حول العدالة والمساواة والمكافآت وتقاسم الثروات، كل هذه الأمور ستبقى دائماً موجودة في المجتمعات الديموقراطية. نحن جميعاً، بدرجات مختلفة، عرضة للأوهام والانقسامات، وجاذبية التفكير الساذج والبارانويا. المسألة الحقيقية هي كيف ندير هذه الحالات أو نتعافى منها أو نتعامل معها، وما الأسس التي لدينا في المجتمع لإجراء مناقشات معقولة وصحيحة، ولتحقيق العدالة والعمل المشترك عند مواجهة التهديدات الكبيرة للحياة على الأرض.

الأزمات أيضاً تُعتبر فرصاً؛ في بعض الأحيان، يستغل الأشخاص ذوو المعتقدات القوية الطوارئ لدفع أجنداتهم الخاصة، بما في ذلك تعزيز الأفكار النيوليبرالية. المهم الآن هو رؤية كيف نتعامل مع الأزمة الحالية والحفاظ على حرية التفكير فيها والاستجابة لها بطرق جديدة. كما قالت غريتا تونبرج قبل جولة المحادثات الهامة ولكن المخيبة للآمال في مؤتمر الأمم المتحدة للتغيّر المناخي (COP26) في عام ٢٠٢١ في غلاسكو، إن الشعارات مثل "بناء أفضل للمستقبل" لا تعني شيئاً ما لم تُدعم بإجراءات فعلية. لذلك، فالتصريحات والوعود في المؤتمر ستكون فارغةً من معناها إذا لم تكن مقرونةً بعمل أو إجراء فعلي خلفها. من هنا تشير تونبرج إلى أهمية أن يمارس المواطنون الضغط على القادة أو الأشخاص الذين يمتلكون السلطة لتحقيق التغيير، وتحث على أن يكون للمواطنين دورٌ في محاولة التأثير على سلوك أهل السلطة ودفعهم لاتخاذ قرارات عملية تجاه القضايا المهمة مثل تغيّر المناخ.

---

1 Jacqueline Rose, *States of Fantasy* (Oxford, 1996).

إذا كنت تتساءل عما إذا تم غسل دماغك، فالمكان المناسب للحصول على الجواب هو بدء التفكير في الأزمات البيئية والسياسية والاقتصادية التي تتداخل. هل تشعر بالمشاركة في الأزمة التي نعيشها الآن، أم أنك تفتح التلفاز وتغيّر القناة فقط؟ إذا كنت تفعل ذلك، فلماذا؟ ومن يشجعك على ذلك؟ يجب علينا العودة إلى هذه الأسئلة باستمرار حول الصفقات التي نبرمها مع أنفسنا لتجاهل المواضيع، والتبريرات التي نقدمها في هذا السياق، وكيفية خداعنا من الأوهام بالإضافة إلى أنفسنا. تناولت الكتب التي استعرضناها من عصر الحرب الباردة قضايا نفسية وسياسية كثيرة تتعلق بواقعنا الحالي، وأشارت هذه الأدبيات في كثير من الأحيان إلى رفض حقيقة الأزمات ورفض تولّي مسؤولية معالجتها، وكذلك استكشاف تأثير غسيل الدماغ والكذب والتشتيت والتأثير السري أو التضليل الساخر في شكل عقولنا وسلوكياتنا. أظهرت كيف يمكن للبيئة المحيطة بنا أن تدمّرنا، وفي الوقت نفسه، تمنحنا أسباباً حقيقية للأمل من خلال تغيير يمكن أن يحدث في المستقبل.

قد نُراقَب ونُحكَم ويُسيطَر علينا؛ في بعض الأحيان، نواجه نحن البشر صعوبةً في ممارسة أي حرية عقلية أو شخصية في العالم المادي. لكن غالباً ما تكون لدينا الفرصة لاتخاذ القرارات والتحرك، وبالتأكيد نقوم بالتفاوض مع أنفسنا ومع الآخرين. لا يمكننا أن نسيطر تماماً على عقولنا أو بيئتنا، ولكننا نستطيع ملاحظة الطرق التي نخدع بها أنفسنا ونندمج فيها. قد نجد طرقاً جديدةً وعمليةً لتعزيز الأسس الديموقراطية وتجديدها في السياسة التي نُقدّرها. ربما لدينا إمكانية أكبر لتغيير مسارات حياتنا والقيام بخيارات جديدة أكثر مما نعترف بها أو ندركها عن أنفسنا. بالإضافة إلى مواجهتنا شبكات الأكاذيب والخداع التي نتعرض لها، يمكننا ملاحظة الشبكات التي ننسجها لأنفسنا، والطرق التي نستسلم فيها للأكاذيب والقصص الضارة، حتى في ظروف نتمتع فيها بنسبة من الحرية.

الشكر والتقدير

أدين بدين كبير لصندوق Wellcome Trust؛ الذي منحني جائزة المحقق الأول التي أتاحت لي الفرصة لإنشاء مجموعة بحثية في كلية بيركبيك، جامعة لندن، والحصول على الوقت الضروري للعمل على هذا الكتاب. يمكن العثور على تفاصيل النشرات والمصادر الإلكترونية والبثوث والأفلام التي أُنتجت ضمن هذا المشروع على www7.bbk.ac.uk/hiddenpersuaders/. أشكر كل من دعم هذا الجهد في الصندوق والكلية، وبصورة خاصة، مارسيا هولمز Marcia Holmes وكاتي جويس Katie Joice وإيان ماجور Ian Magor وسارة ماركس Sarah Marks ونعومي ريتشمان Naomi Richman وتشارلي وليامز Charlie Williams على بحوثهم الفردية المبدعة والعمل الجماعي. شكراً أيضاً لإميلي بارتليت Emily Bartlett وسيمون جاريت Simon Jarrett وهولي لاسكو Holly Lasco ونيكول منيل Nicole Mennell على المساعدة في التحرير والبحث في المشروع، ولتشارلي Charlie وسيمون Simon على قراءة مخطوطتي بسرعة وتحسينها على نحو كبير، ولكاتي بيتيت Katy Pettit على إدارة الفصل المتعلّق بـ"المقنعون الخفيّون" بكفاءة وبعض الفكاهة التي كانت مطلوبةً بشدة.

شكراً لصبر مرضاي وثقتهم، ولأنهم سمحوا لي بإعادة التفكير في قضايا مهمة عدة في هذا العمل. لا أستطيع ذكر الطلاب الكثيرين، أو سرد جميع الأكاديميين وحراس المحفوظات وأمناء المكتبات في المملكة المتحدة والولايات المتحدة الذين ساعدوني على إنجاز هذا الكتاب، لكن يمكنني على الأقل ذكر أسماء الأصدقاء والزملاء الذين ساهموا بصورة مباشرة وسخيّة من خلال مشاركة الأفكار وقراءة فصول

المسودة. شكراً لجوليا لوفيل Julia Lovell وليندال روبر Lyndal Roper وكوينتن سكينر Quentin Skinner وغاريث ستيدمان جونز Gareth Stedman Jones وإيلي زاريتسكي Eli Zaretsky على اقتراحاتهم الإبداعية والنصائح الحكيمة، وشكراً لإليزابيث كوتس توميل Elizabeth Coates Thümmel ومات فيفتش Matt ffytche وستيفن فروش Stephen Frosh وسيمون غارفيلد Simon Garfield وروفس أولينز Rufus Olins وماثيو رايس Matthew Reiszعلى أفكارهم القيّمة حول عملي. شكراً لليزا باريتسر Lisa Baraitser وسيمون بيلي Simon Bayly على التعليقات الحادة والمفيدة، ولكريس ويلبلوف Chris Wellbelove، الوسيط الأدبي بيني ككاتب وبين دار النشر، على دعمه المستمر والإرشاد العملي منه ومن أيمي سانت جونستون Amy St Johnston وأيضاً من أيتكين ألكساندر أسوشيتس Aitken Alexander Associates، خاصةً عندما واجهت صعوبةً في التقدم في الكتابة، وشكراً لشان فاهيدي Shan Vahidy الذي كان محرراً متميزاً وشارك في إعادة تشكيل هذا الكتاب.

أن أتناول ذلك التاريخ مع الراحل زيغمونت باومان وروبرت جاي ليفتون كان فعلاً أمراً مميزاً. كما تبادلت آراءً منيرة حول هذا الموضوع على مر السنوات مع أنا أنتيتش Ana Antić وشاؤول بار هايم Shaul Bar–Haim وجوانا بوركي Joanna Bourke وغريغ برينيمان Greg Brenman وسوزان كاروثرز Susan Carruthers وإيان كريستي Ian Christie وديماريس كوفمان D'Maris Coffman ومات كوك Matt Cook وبارتيك ديادوس Bartek Dziadosz (ومجموعة المخرجين الموهوبين الذين يعملون معه في مختبر ديريك جارمان Derek Jarman Lab) ونشيد فاروقي Nasheed Faruqi وديفيد فيلدمان David Feldman وبول فيلدويك Paul Feldwick وليلي فورد Lily Ford والراحل جون فورستر John Forrester وماري-كلير هالزوورث Mary–Clare Hallsworth وداجمار هيرزوغ Dagmar Herzog وجيني لانغهام Jenny Langham وبيتر ماندلر Peter Mandler ودون موس Don Moss وريبيكا ريتش Rebecca Reich وهيلاري سابير Hilary Sapire وسايمون شافر Simon Schaffer وروري سذرلاند Rory Sutherland وديفيد تايلور David Taylor وفيل تينلاين ولين زيفين Lynne Zeavin. شكراً لشوي بو وانغ على إتاحتي الفرصة للتواصل مع ديفيد هوكينز. يمكن رؤية مساهمته، والتي

أشكره عليها أيضاً، في الجزء الثاني من هذا المشروع. شكراً لتيم ألين Tim Allen ومايك ديب Mike Dibb وليزا غوينثر Lisa Guenther ومونيكا كيم Monica Kim وجوناثان لير Jonathan Lear وميليسا باركر Melissa Parker وأندرو سكال Andrew Scullعلى عروضهم الغنية والمثيرة للفكر في بيركبيك خلال هذا المشروع. كانت المحادثات مع كاترين هال Catherine Hall التي عملت معها في تحرير سلسلة من المقالات حول مسألة "الإنكار" في مجلة ورشة العمل التاريخية *History Workshop Journal*، ملهمةً أيضاً.

كانت كيرتي توبيوالا Kirty Topiwala آنذاك تعمل في Wellcome. كانت من الأشخاص الذين ساهموا في إطلاق مشروع **غسيل الأدمغة**، وأنا ممتن أيضاً لمحررتي سيسيلي غايفورد Cecily Gayford على مهارتها الاستثنائية وصبرها، ولريبيكا جراي Rebecca Gray وغريم هول Graeme Hall والفريق في Profile Books على مساهمتهم الممتازة، ولباتريك تايلور Patrick Taylor على تحريره الدقيق والمتقن، ولكارولين وايلدينغ Caroline Wilding على الفهرسة الجيدة، ولفيليبا لوغان Philippa Logan على التدقيق الدقيق.

عاشت عائلتي مع هذا المشروع لمدة أطول من المألوف. أنا ممتن لإيرما برينمان بيك Irma Brenman Pick على اهتمامها الحيوي ورعايتها، وثراء رؤاها في هذا العمل. شكراً لآنا وتاشا بيك Anna & Tasha Pick على التشجيع والمحادثات القيّمة التي أجريناها في هذه القضايا، خاصةً خلال الجائحة. يُهدى هذا الكتاب إلى إيزوبيل بيك Isobel Pick. أدين لها بأكبر الشكر على مساعدتها الكريمة ودعمها المستمر. لقد تبادلنا الأفكار، وقدمت تعليقات دقيقةً على المسوّدات، وأظهرت وعياً واضحاً طوال الوقت بخصوص أهمية هذا التاريخ المثير للقلق في الأوقات الحالية والمظلمة.

دانيال بيك

لندن، ٢٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٢٢

'رائع وجذاب ومقنع... الأسئلة الفلسفية الكبرى
يعالجها بيك بلمسة ماهرة'

The Mail on Sunday

عامَ 1953، ومع نهاية الحرب، أفرَجَت كوريا الشمالية عن الأسرى الأميركيين المحتجزين لديها.

المفاجأة كانت حين رفض 21 أسيراً العودة إلى بلادهم وقرّروا العيش في الصّين.

أثار هذا القرار ذعراً في الغرب: لماذا لم يرغبوا في العودة؟ وماذا حدث بالضّبط؟

يتعمّق دانيال بيك في العالم الغامض لغسيل الأدمغة، ويشرّح الحالات الأكثر إثارةً التي شهدها التّاريخ منذ مرحلة الحرب الباردة حتّى اليوم: سواء عن طريق الحكومات أو التعليم أو الطبّ أو شركات التكنولوجيا الحديثة... أو في أشكال أخرى من الإقناع الخفي لا يمكن الصّمود أمامها.

يضيء هذا الكتاب على شبكات الأكاذيب والخداع التي نتعرّض لها حتّى حين نتمتّع بنسبة كبيرة من الحرّية.

دانيال بيك محلّل نفسي ومؤرّخ بريطاني وأستاذ في جامعة لندن. صدر له عدد من المؤلّفات حول التاريخ الثقافي الحديث وتاريخ العلوم الإنسانية.





www.daralsaqi.com